دكتور صلاح عثمان

البَحْثُ عَنْ مَعْنَى

تدوينات في نقد العقل العربي المعاصر

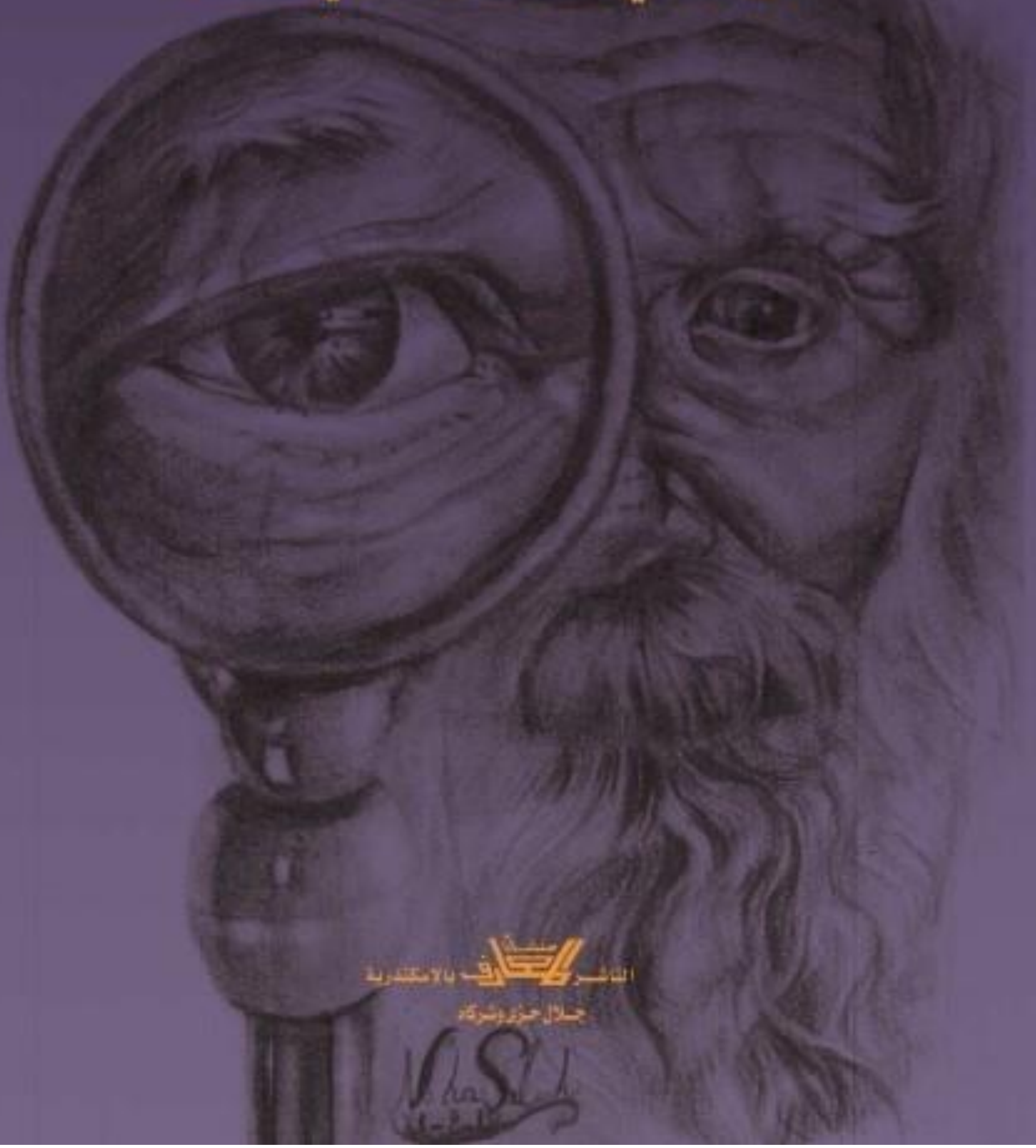

الناشر المعارف بالاسكندرية
جلال حزي وشركاه

البَحثُ عَن مَعْنى

البَحْثُ عَنْ مَعْنَى

تدوينات في نقد العقل العربي المعاصر

دكتور

صلاح عثمان

أستاذ المنطق وفلسفة العلم

رئيس قسم الفلسفة

كلية الآداب — جامعة المنوفية

٢٠١٨

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية

جلال حزى وشركاه

الناشر: منشأة المعارف بالإسكندرية، جلال حزي وشركاه

٤٤ شارع سعد زغلول – محطة الرمل – الإسكندرية – ت/ ف: ٤٨٧٣٣٠٣ & ٤٨٥٣٠٥٥
E-mail: monchaa27@yahoo.com

عنوان الكتاب	البحث عن معنى
المؤلــــف	الأستاذ الدكتور/ صلاح عثمان
رقــم الإيداع	٢٠١٩/٢٥٠٨٥

ISBN-10: 977-03-2271-7 / 9770322717
ISBN-13: 978-977-03-2271-0 / 9789770322710

الطبــــعة	الأولــى
سنــة النشــر	٢٠١٩

التجهيزات الفنية:

كتابة كمــبيوتر	سامح اسكندر
تصميم الغلاف	لوحة للفنانة د/ نهى صلاح
طباعــــــة	مطبعة رمضان وأولاده

حقوق التأليف والنشر:

جميع الحقوق محفوظة، ولا يجوز إعادة طبع أو استخدام كل أو أي جزء من هذا الكتاب إلا وفقاً للأصول العلمية والقانونية المتعارف عليها

All Rights Reserved. No part of this book may be reproduced or utilized in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopying, recording, or by any information storage and retrieval system, without permission in writing from the author

طبع في مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾

صدق الله العظيم

﴿الرعد: ١٧﴾

إهداء

إلى من لا يكف عن التساؤل

عن معاني الأشياء

إلى صغيري عمرو

المُحتَوَيات

الموضوع		الصفحة
المحتوى		١١
مقدمة		٢٧
١	تخاريف صيف	٣١
٢	ثقافة الرادار	٣٣
٣	الانتحار بربطة عُنق	٣٦
٤	دقات الساعة	٤٤
٥	مَن يصنعُ الحضارة؟	٤٦
٦	مَن أنت أيها الإنسان؟	٤٩
٧	أرجوحة الأفكار	٤٩
٨	لماذا هي أمركة وليست عولمة؟	٥٣
٩	زمن الأقزام	٦٥
١٠	حوار مع أنا	٦٧
١١	العربي التائه	٧٠
١٢	مجدي يعقوب	٨٨
١٣	تونس تطرد روح بروكرست	٩٤
١٤	إعدام وطن	٩٦
١٥	تأملات في انتفاضة الغضب	٩٩
١٦	ارتجاع العقل الحُر من تونس إلى مصر	١٠٧
١٧	لصوص لا يستحون	١٠٩
١٨	أصنام هذا الزمان	١١٣
١٩	هموم مصرية	١١٥
٢٠	ضريبة العمل	١١٦
٢١	سكسونيا سكسونيا	١١٦

٢٢	فَسبكَ، يُفسبِك، فهو مُفسبِك أو فيسبوكي	١١٧
٢٣	اللغة تشارك الأمة أقدارها	١١٩
٢٤	ترويض الساسة أو التعاسة	١١٩
٢٥	أليس القرآن كتابًا واحدًا أنزله علينا ربٌ واحد؟	١٢٥
٢٦	فاروق الباز	١٢٦
٢٧	توحيد الخطاب الإسلامي أم تكامله؟	١٢٩
٢٨	إرث الفساد المتثاقل فوق أكتاف العباد	١٣٦
٢٩	جاري ميلر: القرآن المُذهل	١٤٠
٣٠	فلسفة الإعلام	١٤٢
٣١	عالم الحاسوب وعالم الواقع	١٤٣
٣٢	قمامة العقل	١٤٤
٣٣	كوريا الشمالية: العلم يرفع بيتًا لا عماد له	١٤٥
٣٤	عبد الغفار مكاوي: شاعر الفلسفة	١٤٦
٣٥	تجمع الملحدين	١٤٧
٣٦	جولة في العقل المتحجر	١٥٠
٣٧	الضمير العلمي	١٥٣
٣٨	هل خلق الله الشر في العالم؟	١٥٤
٣٩	زمن الخداع	١٥٥
٤٠	مشايخنا وحُجة الصوت المرتفع	١٥٧
٤١	عشوائيات	١٥٨
٤٢	بل هي الفتنة، استشرف لها القوم فاستشرفتهم	١٥٩
٤٣	هكذا يُناقشون قراراتهم	١٦١
٤٤	ترويض العقول وتبرير العنف بين المتبوع والتابع	١٦٢
٤٥	صاحب القُدور	١٦٥

٤٦	صراع الهوية الإسلامية بين الهتاف والواقع	١٦٦
٤٧	أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟	١٧٥
٤٨	إبداع في قتل الطفولة	١٧٧
٤٩	ويلٌ للعرب من شرٍ قد اقترب	١٧٨
٥٠	نصف قرن	١٧٩
٥١	حين ترقص الفلسفة على واحدة ونص	١٨٠
٥٢	التحرش ثقافة أمة	١٨٠
٥٣	في ذكري عميد الأدب العربي طه حسين	١٨١
٥٤	الإسلام هو الحل = العلم هو الحل	١٨٣
٥٥	اليوم العالمي للفلسفة	١٨٥
٥٦	أمة تعشق النص	١٨٦
٥٧	من وحي التصويت على الدستور	١٨٧
٥٨	حالة الاتحاد	١٨٨
٥٩	هبوب	١٨٩
٦٠	جمال حمدان	١٩٠
٦١	العالم والقاضي والشرطي	١٩٤
٦٢	أبو بكر عبد الكلام	١٩٦
٦٣	طبيب الشوارع	١٩٧
٦٤	طبيب يمشي ستة أميال لإنقاذ مريض	١٩٨
٦٥	الفئات الآمنة في وطني	٢٠٠
٦٦	أين الخلل؟	٢٠١
٦٧	حدائق البشر	٢٠٢
٦٨	هل يُصلي العلماء؟	٢٠٣
٦٩	الديستوبيا	٢٠٦

٧٠	لماذا يرتدي الوطن قناع الكآبة والفشل؟	٢٠٧
٧١	اعرف نفسك	٢٠٨
٧٢	سي فاست	٢٠٩
٧٣	الساسة؟ عفوًا ، إنهم لا يكترثون للدماء	٢١٥
٧٤	القاهرة المقهورة	٢١٨
٧٥	باسم يوسف والدولة العارية	٢٢١
٧٦	سلام على أمي	٢٢٣
٧٧	حرب العمائم	٢٢٦
٧٨	الإنسانية ليس لها أيديولوجية	٢٢٧
٧٩	وظن أهلها أنهم قادرون عليها	٢٢٨
٨٠	مارينا أبراموفيك	٢٣٠
٨١	لا تحجب شمسي بظلك	٢٣١
٨٢	هل نحن مسلمون؟	٢٣٣
٨٣	أطفال الشوارع: الحل البرازيلي	٢٣٤
٨٤	أين فنانو ومثقفو العرب؟	٢٣٩
٨٥	بضائع فيسبوكية	٢٤٠
٨٦	تعس عبد المنصب	٢٤٠
٨٧	لا دهشة	٢٤١
٨٨	رسالة ديفي آتشاريا	٢٤٢
٨٩	نقل رسالة تخاطر لمسافة ٨,٠٠٠ كيلومتر	٢٤٤
٩٠	ما أكثر الستائر في وطني	٢٤٥
٩١	عروبة الفساد	٢٤٦
٩٢	كم كتابًا قرأ وزراؤنا؟	٢٤٧
٩٣	نجيب سرور، مين يشتري الورد؟	٢٤٧

٩٤	لماذا يستخدم الناس الفيسبوك؟	٢٤٨
٩٥	إنه ديسمبر	٢٥٣
٩٦	حين تقهرك المقارنة	٢٥٤
٩٧	ولا عزاء للبحث العلمي في وطني	٢٥٧
٩٨	في رحاب الفلسفة	٢٥٩
٩٩	السائق ونظرية التخدير السياسي	٢٦١
١٠٠	بعثة الساموراي بمصر	٢٦٣
١٠١	موت أبي: جُرح لا يلتئم	٢٦٦
١٠٢	تأملات في جمهورية فسادستان	٢٦٧
١٠٣	ميراث الكراهية	٢٦٩
١٠٤	حقًا إنها لأكذوبة ضخمة	٢٧٠
١٠٥	PK	٢٧١
١٠٦	خير من يُمثلكم	٢٧١
١٠٧	زويل والمشروع الأمريكي	٢٧٤
١٠٨	ماطا جراندي	٢٧٦
١٠٩	هل ثمة فلسفة عربية؟	٢٧٧
١١٠	يا هذا لا تزعج دوائري	٢٧٨
١١١	أن تتفلسف هو أن تتعلم كيف تموت	٢٧٩
١١٢	الفكر الديني: تجديد أم تبديد؟	٢٨٣
١١٣	صعيد مصر المنسي	٢٨٤
١١٤	المتاهة!	٢٨٥
١١٥	لدينا فائض	٢٨٥
١١٦	ملكيون أكثر من الملك	٢٨٦
١١٧	«فيليس» تمتطي ظهر «أرسطو»	٢٨٧

١١٨	هيراقليطس الباكي، وديموقريطس الضاحك	٢٩٠
١١٩	يوثيوس بين عزاء الفلسفة وعجلة الحظ	٢٩٢
١٢٠	الخناقون ... حين يُصبح القتل عقيدة	٢٩٥
١٢١	ابق جائعًا ، ابق أحمقًا	٢٩٨
١٢٢	صنَع الله إبراهيم	٢٩٩
١٢٣	أنظر خلفك بغضب	٣٠٠
١٢٤	جريمة توريث الوظائف	٣٠١
١٢٥	هل تُبكيك رائحة الفساد؟	٣٠٣
١٢٦	قل شيئًا ، تجمل بالحقيقة	٣٠٣
١٢٧	الأعمى ومبتور الذراعين	٣٠٦
١٢٨	الرغبة في الحياة	٣٠٧
١٢٩	فهرنهيت، خذ صراعاتك إلى المحرقة	٣٠٨
١٣٠	الجامعات وعواجيز الفكر	٣١١
١٣١	المُقدس وحُراسه	٣١١
١٣٢	الهروب من النقد	٣١٢
١٣٣	سفسطائيو العرب والبحث عن سقراط	٣١٤
١٣٤	أيها المُعلم، سنكون خيوطًا في يديك	٣١٥
١٣٥	حين يبيت الغياب رفضًا مكتومًا لبشاعة البقاء	٣١٦
١٣٦	من أحق بالنجاة؟	٣١٧
١٣٧	كتالونيا	٣١٨
١٣٨	ثقافتنا وصناعة الكتب	٣١٩
١٣٩	ليتنا نكتشف عالم الألوان بثرائه وروعته	٣٢٠
١٤٠	همجٌ رعاع ينعقون مع كل ناعق	٣٢٠
١٤١	نيوتن عاريًا	٣٢١

١٤٢	الروهينجا ورسالة الفن	٣٢٣
١٤٣	محمد قاسم: سلامٌ على أستاذي	٣٢٥
١٤٤	من عصورنا المظلمة إلى سنة عشرة آلاف	٣٢٦
١٤٥	تأملات رمضانية	٣٣٣
١٤٦	كم عدد شعر رأسك؟	٣٣٥
١٤٧	سقروطة، والسُحب، والحقائق المقلوبة	٣٣٦
١٤٨	كُن فاسدًا بامتياز	٣٤٠
١٤٩	البحث عن الآخر الكوني	٣٤٠
١٥٠	اسكندرية المُحتلة	٣٤٣
١٥١	نحتج بأنفسنا على أنفسنا	٣٤٤
١٥٢	لم يرق خيالهم إلى زماننا العربي	٣٤٤
١٥٣	أيسلندا والمساواة بين الجنسين	٣٤٤
١٥٤	عن قناة السويس الجديدة	٣٤٥
١٥٥	الرسم بالكلمات	٣٤٧
١٥٦	يبولون علينا ويقولون تُمطر	٣٤٨
١٥٧	منطق الاختيار الصعب: من الأولى بالبقاء؟	٣٤٩
١٥٨	ويبقى الوضع على ما هو عليه	٣٥٠
١٥٩	هم، ونحن	٣٥٢
١٦٠	المقامرون	٣٥٢
١٦١	تشاؤمية أم واقعية؟	٣٥٤
١٦٢	ماذا عن الضمير؟	٣٥٥
١٦٣	هل تشعر بالملل؟	٣٥٦
١٦٤	الاختيار المعكوس	٣٥٦
١٦٥	ملهاة الانتخابات	٣٥٧

١٦٦	وزن العُمدة	٣٥٨
١٦٧	فليذهب تشرشل إلى الجحيم	٣٥٨
١٦٨	ما أحوجنا إلى لحظة صدق	٣٥٩
١٦٩	لا أحد	٣٦٠
١٧٠	لن أمنحكم حقدي	٣٦٠
١٧١	الضمير	٣٦١
١٧٢	فلسفة الفكاهة	٣٦٢
١٧٣	لن تجد لتساؤلاتك إجابة	٣٦٣
١٧٤	أضغاث أحلام	٣٦٤
١٧٥	البحث عن نبي	٣٦٥
١٧٦	كيف تشتري دكتوراه؟	٣٦٦
١٧٧	هل ماتوا والحُلم يؤرقهم؟	٣٦٦
١٧٨	معرض القاهرة للكتاب	٣٦٧
١٧٩	إنها قيمة الحياة	٣٦٩
١٨٠	حين يلتقي الصديقان	٣٧٠
١٨١	تشبث بإنسانيتك	٣٧٢
١٨٢	نعم، ولكن	٣٧٢
١٨٣	السلطة مفسدة ما لم يُؤت حقها	٣٧٣
١٨٤	إنه يُمارس الكذب	٣٧٣
١٨٥	شيء من الهدوء	٣٧٤
١٨٦	تتعدد الآلهة ويسقط الوطن	٣٧٤
١٨٧	الفلسفة التي أتعبتني	٣٧٥
١٨٨	أبل والبيت الأبيض	٣٧٦
١٨٩	الهجرة والهجرة العكسية	٣٧٧

١٩٠	ريجيني	٣٧٧
١٩١	ولتحيا أمجاد العرب	٣٨١
١٩٢	ماذا نُعلم أطفالنا؟	٣٨٢
١٩٣	كذب المطبلون	٣٨٣
١٩٤	عليك أن تختار	٣٨٣
١٩٥	جورج طرابيشي	٣٨٤
١٩٦	هل تأملت في حياتك نهرًا	٣٨٤
١٩٧	وأخذ يُفكر ويُفكر	٣٨٦
١٩٨	أنت في الوطن العربي	٣٨٦
١٩٩	نعرف أنهم يعرفون أننا نعرف	٣٨٧
٢٠٠	هُزوا إليهم بجذوع الشعارات	٣٨٧
٢٠١	الملاحظة المُحملة بالنظرية	٣٨٧
٢٠٢	اكتشف الحمار	٣٨٨
٢٠٣	أخذته العزة بالجهل	٣٨٩
٢٠٤	كل شيء ممكن	٣٩٠
٢٠٥	مطعونون	٣٩٠
٢٠٦	التطبيل ثقافة حياة	٣٩١
٢٠٧	اللهم امحق دولة اليهود	٣٩١
٢٠٨	إبليس كان صريحًا	٣٩٢
٢٠٩	إلى الاسطبل يا مولاي	٣٩٣
٢١٠	ليس في الإمكان أبدع مما كان	٣٩٣
٢١١	اللي على راسه بطحة	٣٩٤
٢١٢	حتمًا سينتصر العقل يومًا	٣٩٥
٢١٣	مُفلسون في كل شيء	٣٩٥

٢١٤	لغة الجينات: لغة الله	٣٩٦
٢١٥	أهو جمعي أم جمع الناس؟	٣٩٩
٢١٦	لا تغرنكم الكثرة في زمن الجهل والجهلاء	٣٩٩
٢١٧	عقول بلا فيروسات ... أم فيروسات بلا ضمير؟	٤٠٠
٢١٨	لا أفهم	٤٠١
٢١٩	لوحة الشطرنج	٤٠٢
٢٢٠	تعليم ذكي وإلكتروني حقًا	٤٠٢
٢٢١	أرقام أرقام	٤٠٣
٢٢٢	هل هي عظمة الديموقراطية أم قسوتها؟	٤٠٣
٢٢٣	لجان الترقيات والآمال المُعلقة	٤٠٤
٢٢٤	العدَّاءة الأمريكية ويلما رودلف	٤٠٦
٢٢٥	التعليم هو المبتدأ والخبر	٤٠٨
٢٢٦	المنصب وما بعده	٤٠٩
٢٢٧	لدينا وما لدينا	٤٠٩
٢٢٨	الأضاحي والتضحيات والضحايا	٤١٠
٢٢٩	إنهم لا يعرفون حلب	٤١٠
٢٣٠	الشجرة المثمرة تُعلن عن ثمارها	٤١١
٢٣١	وطن بلا حياء	٤١١
٢٣٢	الله الله يا عمر	٤١٢
٢٣٣	تحية العلم	٤١٢
٢٣٤	صالونات التجميل	٤١٣
٢٣٥	ألا يستحون؟	٤١٤
٢٣٦	من فعل بنا هذا؟	٤١٤
٢٣٧	حالة حرب	٤١٥

٢٣٨	لا تتشاءم	٤١٥
٢٣٩	الحاشية والحوواشي	٤١٥
٢٤٠	أكره التصنيفات	٤١٦
٢٤١	حوريب	٤١٧
٢٤٢	ذوات متمددة في الفراغ	٤١٧
٢٤٣	المتلقي العاجز	٤١٨
٢٤٤	في دفء الأكذوبة	٤١٨
٢٤٥	اللّه اللّه في بلاد العرب	٤١٩
٢٤٦	اللهم رحمتك	٤١٩
٢٤٧	اسأل عن التعليم	٤٢٠
٢٤٨	أبانا المسؤول: حنانيك	٤٢٠
٢٤٩	هل من إجابة؟	٤٢١
٢٥٠	كوسة	٤٢٢
٢٥١	الفشل المقدس	٤٢٣
٢٥٢	كلنا عالقون	٤٢٣
٢٥٣	دروع الصد	٤٢٤
٢٥٤	الـ «كيتش» العربي	٤٢٤
٢٥٥	الحمقري	٤٢٥
٢٥٦	قدسية كاذبة	٤٢٥
٢٥٧	الكلاب البرية	٤٢٦
٢٥٨	تسوس الأسنان وتسوس العقل	٤٢٦
٢٥٩	ويلٌ لأمة تحط من شأن العلم	٤٢٧
٢٦٠	العلم والدين	٤٢٩
٢٦١	في رحاب الوهم	٤٢٩

٢٦٢	البحث عن لقب	٤٣١
٢٦٣	اختلافك سر قلقهم	٤٣١
٢٦٤	موت يا حمار	٤٣١
٢٦٥	عوالمنا الممكنة، لماذا هي عوامل للفشل؟	٤٣٢
٢٦٦	المنتقد والكاره	٤٣٣
٢٦٧	تكلم حتى أراك	٤٣٣
٢٦٨	في يومك سيدتي	٤٣٤
٢٦٩	هذا ما يريدونه	٤٣٤
٢٧٠	الرضا الوظيفي	٤٣٥
٢٧١	تقليص أبعاد المستقبل	٤٣٦
٢٧٢	تزييف الحقائق	٤٣٦
٢٧٣	الأعرج ذو العين الواحدة	٤٣٧
٢٧٤	رحيل أمي	٤٣٨
٢٧٥	كذب أصحاب اليوتوبيات	٤٣٨
٢٧٦	وللتطبيل تاريخ	٤٣٩
٢٧٧	لحظة اللقاء الغائبة	٤٣٩
٢٧٨	وسائل إعلام أم إعدام؟	٤٣٩
٢٧٩	المُغفلة، ما أبشع أن تكون ضعيفاً في هذه الدنيا	٤٤٠
٢٨٠	عبء الحرية	٤٤٢
٢٨١	حصون الوهم	٤٤٣
٢٨٢	حظ أخلاقي	٤٤٣
٢٨٣	التأليه وتجليات الجهل	٤٤٤
٢٨٤	هل هو الإحساس بالدونية الحضارية؟	٤٤٥
٢٨٥	اللغة العربية: تأملات حائرة	٤٤٦

٢٨٦	عن التطرف	٤٤٨
٢٨٧	بلد العميان	٤٤٨
٢٨٨	لدي حُلم	٤٥٠
٢٨٩	لا تُجادل حمارًا	٤٥٢
٢٩٠	الكواحيل	٤٥٢
٢٩١	الحقيقة العارية	٤٥٣
٢٩٢	دماء الأضاحي	٤٥٤
٢٩٣	هكذا يُدار العالم	٤٥٤
٢٩٤	الحقيقي والزائف	٤٥٥
٢٩٥	انتهى الدرس أيها الأغبياء	٤٥٦
٢٩٦	أنقاض الفكر اليتيمة	٤٥٧
٢٩٧	فقاعات الوهم	٤٥٨
٢٩٨	البحث عن السعادة	٤٥٩
٢٩٩	هذا هو عالمي	٤٦٠
٣٠٠	أي عبث نفعله؟	٤٦٠
٣٠١	أحلام تتراجع	٤٦١
٣٠٢	جَلد العبد الهارب	٤٦٢
٣٠٣	أنا مش قصير أوزعة	٤٦٤
٣٠٤	البقاء للأكثر نفاقًا	٤٦٤
٣٠٥	احذر معاشرة الجُهال	٤٦٥
٣٠٦	الآبائية	٤٦٦
٣٠٧	بطونٌ تكاد تنفجر من الجهل	٤٦٦
٣٠٨	احتفظ بأذنيك	٤٦٨
٣٠٩	مجتمع من الأوغاد	٤٦٨

٣١٠ نصف الكأس الفارغ ٤٦٩
٣١١ الجودة: اطبخي يا جارية، كلف يا سيدي ٤٦٩
٣١٢ بشاعة أبشع من أن توصف ٤٧٠
٣١٣ فقط تتبدل الوجوه والأدوار ٤٧١
٣١٤ وعد بلفور ٤٧١
٣١٥ مَكْلَمة ٤٧٢
٣١٦ القياصرة الجُدد للبنتاجون ٤٧٣
٣١٧ عبد الغني عجاج وكتابه: شخصيات عبرت أفق خيالي ٤٧٤
٣١٨ تريد الحقيقة؟ ٤٧٦
٣١٩ تمسك بالحُلم ٤٧٦
٣٢٠ السطحيون ٤٧٧
٣٢١ انظر حولك ٤٧٧
٣٢٢ من وجع إلى آخر ٤٧٧
٣٢٣ معضلة مونكاوزن الثلاثية ٤٧٨
٣٢٤ الخوف والنفاق ٤٨٠
٣٢٥ ابتسامة أمل مكبلة بالأغلال ٤٨٠
٣٢٦ اللقطة ٤٨١
٣٢٧ عيد الأم ٤٨٢
٣٢٨ الشخصنة والتقديس ٤٨٢
٣٢٩ لا يُدرك الميت أنه ميت ٤٨٢
٣٣٠ نحن وإسرائيل ٤٨٣
٣٣١ الجزائر من وهران إلى تيبازة ٤٨٣
٣٣٢ بم تُفكر؟ ٤٨٦
٣٣٣ أهلاً بك ابنتي في عالمنا ٤٨٦

٣٣٤	متى يكف الحمقى عن التناسل؟	٤٨٧
٣٣٥	خيار الغباء	٤٨٧
٣٣٦	عجبت لحال العرب	٤٨٨
٣٣٧	العرب وكرة القدم	٤٨٨
٣٣٨	قدرك أن تلتقيهم	٤٨٨
٣٣٩	كل فعل يُقاس بنتائجه	٤٨٩
٣٤٠	هلمي أيتها الكلمات البائسة	٤٨٩
٣٤١	انظر في المرآة	٤٨٩
٣٤٢	لا تتعجب إنها الحياة في الوطن العربي الحزين	٤٩٠
٣٤٣	العمل مع البلهاء يشكل خطرًا على حياتك	٤٩٠
٣٤٤	يصطرخون فيها	٤٩١
٣٤٥	بول فيرابند ... ضد المنهج	٤٩٢
٣٤٦	ثمة شيء خطأ	٤٩٤
٣٤٧	استيقاظ كاذب	٤٩٤
٣٤٨	المعطف ... قصة وطن	٤٩٥
٣٤٩	كلما ابتعدت اقتربت	٤٩٦
٣٥٠	حين يُدَّوي الوجع في الكلمات	٤٩٧
	المؤلف في سطور	٥٢٥

مقدمة:

ما بين ماضٍ مفعم بأمجاد غائرة في ذاكرة الوطن؛ ماضٍ تفصح شواهده عن عبقرية حضارية ما زال العالم يقف أمام أصالتها مشدوهًا، وتعجز علوم اليوم عن فك شفرتها والبوح بأسرارها...، وبين حاضرٍ تعكس وقائعه حالة من التردي الصارخ في شتى المجالات، وتنبئ معطياته عن مستقبل غائم تمهد إليه آليات الجهل والفقر والمرض بحطام من قيم الذات المغتربة...؛ ما بين هذا وذاك، يقف العربي اليوم في مفترق طرق غير محددة المعالم، تتملكه أفكار وممارسات مغلوطة توشك أن تجرده من مقومات الحياة، وتدفع به دفعًا نحو طريق مظلم، تتعاظم فيه الأخطاء لتتحول إلى خطايا قد لا تجد سبيلها إلى المغفرة بمنطق التاريخ. والغريب، بل والمخزي، هو حالة اللاوعي التي بات يتسم بها العقل العربي في كافة برامجه، فمثله كمثل من شرب حتى الثمالة، فراح يتخبط على الأبواب ملتمسًا فتات الموائد!

على أن أغلب العرب في الحقيقة لم يتعاطوا ذلك المسكر الحضاري طوعًا واختيارًا، أو ترفًا عن فضل زاد ومال؛ إنما السكارى في العالم العربي صنفان: صنف أسكرته الثروة والسلطة، فهو يلهث طلبًا للمزيد، ويسعى جاهدًا إلى تجميد الواقع الملبي لضراوة شهوته، ولو على حساب وطن يترنح، وصنف آخر أسكرته الحاجة والمذلة، فهو يلهث طلبًا للحد الأدنى من قوت يومه، ولا يملك إزاء لا معقولية الواقع سوى أن يُحيي بالبكاء ذكرى اغتيال كرامته، ولو على حساب عقل يحتضر! ليس غريبًا إذن، والحال هكذا، أن يُخفق العقل العربي – الذي تشرب الحضارة لقرون طويلة خلت – في أن يخطط لحاضره أو لمستقبله القريب، حتى بالنسبة لأخطر قضاياه وأكثرها ارتباطًا بأمنه القومي؛ كالتعليم والصحة والبطالة. وليس غريبًا كذلك أن يعجز العقل العربي – بعد أن انهارت البني التحتية لمنظومته الثقافية الأصيلة – عن الفهم الدقيق لمعطيات العصر في ضوء محليته الزمانية – المكانية، وأن يستبدل عشوائية القرار بمنطقيته، وفوضوية الفكر

بنسقيته، بل وأن يعمد إلى استيراد البرامج التنموية الجاهزة من أمم ذات طبيعة ثقافية مغايرة، لتكون النتيجة في النهاية مسخًا حضاريًا مشوهًا، يزيد من كم مشكلاته وتعقيداتها. ليس غريبًا أيضًا أن يفقد العقل العربي قدرته على الغضب حتى في أحلك المواقف، فتراه يتلقى الطعنات من الداخل والخارج في خشوع واستكانة، بعد أن كان غضبه في الماضي زلزالاً يحطم أعتى الحصون. إنما الغريب في الحقيقة هو أن تُسلب من العقل العربي إرادة التغيير، حتى لكأن آلامه وصرخاته قد تثاقلت عليه فألقت به في غيبوبة طويلة لا يعلم أحد مداها.

على هذه الخلفية – التي لا تخفى على أحد – لواقع المجتمع العربي اليوم، حيث تم تجريد الأشياء – والقضايا والسياسات والمواقف والقرارات والعلاقات – من معانيها، أو بالأحرى تم مسخها بمعانٍ زائفة تُلبي حاجات الزيف الممسك بتلابيب الواقع، واتسعت الفجوة بين كلٍ العقل ومنطقه، والتفكير ومبادئه، والعلم ومنهجه، والدين ورسالته، والإنسان وإنسانيته، وبين ماضي العربي وحاضره، ثم بين حاضره ومستقبله ... يغدو البحث عن معنى – باستقامة معنى «المعنى» وعقلانيته – محاولة أخيرة لإدراك الغاية من الوجود، وإنعاش قلب أوشك نبضه على التوقف، واستعادة حياة أوشكت أسبابها على النفاد. ولا غرو، فالبحث عن المعنى غريزةٌ إنسانية، وكُلنا في الوطن العربي هذا الكائن المسكين المُتحير، الباحث عن معنى الوجود والهوية، معنى الحياة ومعنى الموت؛ معنى الحرية ومعنى الكرامة؛ معنى السعادة ومعنى الحُزن؛ معنى الدين ومعنى الوطن؛ ... إلخ، ولئن كان هذا هو هدف الكتاب وفقًا عنوانه، فإن هدفه الأعمق هو إيقاظ العقل العربي المعاصر من سباته الدوجماطيقي الذي أقعده عن اللحاق بركب التقدم المعرفي، وأحاطه بأسيجة الموجب والقاطع والثابت في عالم تتسارع فيه وتائر التغير, وتنهار فيه الحواجز الفاصلة بين كثرة من الثنائيات المستقرة في أذهاننا، ومن ثم يأتي الكتاب كمحاولة، لا لطرح إجابات قاطعة يأباها المنطق، أو تدشين رؤية أحادية البُعد قد

يراها البعض تشاؤمية، وإنما لترميم الداخل المهجور، والخارج المنظور، من خلال قراءة متأنية للأفكار والأحداث تسعى إلى الكشف عن أطياف التناقض المعتملة بدواخلها، والمستترة خلف مظاهر التسويق للوهم!

أما عن محتوى الكتاب، فتدوينات نوعية (فلسفية وعلمية وسياسية واجتماعية وأخلاقية ودينية، ... إلخ) قام المؤلف بنشرها خلال ما يزيد على عشر سنوات على صفحته بموقع التواصل الاجتماعي «فيس بوك»، منها مقالات قصيرة أو مطولة، ومنها قراءات أو تعليقات نقدية على أحداث ومواقف وقرارات وتصريحات نشرتها الصحف العربية أو الأجنبية، أو تم تداولها على مواقع الإنترنت المختلفة، ومنها ذكريات أو انطباعات عن أماكن ولحظات مرَّت بالمؤلف أو مرَّ بها، وعن أشخاص التقاهم وكان لهم تأثيرهم الفكري والحياتي المباشر عليه، ومنها أخيرًا تغريدات عامة لا تتجاوز بضعة أسطر. وقد حرصت على التسلسل الزمني للتدوينات، بحيث تأتي كل تدوينة مسبوقة بتاريخ كتابتها ونشرها؛ تأكيدًا للمحلية الزمكانية للرأي أو الموقف تجاه الحدث (وإن كان من الممكن تعميمه ليشمل أحداثًا مماثلة في الماضي والحاضر)؛ وتأريخًا لمرحلة فاصلة وقاسية من تاريخ الوطن، تمتد من بضع سنين سابقة على أحداث ما ندعوه بالربيع العربي حتى وقتنا الراهن؛ وتسهيلاً لعودة القارئ إلى تفاصيل الحدث وتوابعه وردود الأفعال عليه.

ولا يسعني في نهاية هذا التقديم سوى أن أسجد شكرًا للمولى عز وجل على عظيم فضله وتوفيقه وعطائه، وأن أتقدم أيضًا بعميق شكري وامتناني لكل من تفاعل معي فأنار لي دربًا، متفقًا أو مختلفًا معي، في إطارٍ من الموضوعية والصدق يعلو فوق أية حواجز ذاتية، ولا يُفسد للود قضية.

صلاح عثمان

البيطاش – الإسكندرية

٢٠ أكتوبر ٢٠١٨

(١) تخاريف صيف!

- **٢٣يوليو ٢٠٠٧**

لا أدري ما الذي دفعني إلى الربط بين كلمة الحَر (كمقابل للبرد) وكلمة الحُر (كمقابل للعبد)! هل ثمة علاقة لُغوية بين الكلمتين، سـواء من حيث الأصـل والاشتقاق أو من حيث المعنى والمدلول، يتجاوز حدود التشابه اللفظي؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد تخاريف عقلٍ ألهبته حرارة الصيف فراح يهذي بحثًا عن حريته الضائعة؟

ربما كان الافتراض الثاني هو الأقرب، لكن فكرة الربط بين الكلمتين استهوتني، ودفعني شغفي بها إلى مواصلة التحليل مستعينًا بما توافر لدَّي من معاجم اللغة، وما أستطيع رصده من وقائع ذات دلالة؛ ففي المعجم الوجيز: (حَرَّ) الماء والهواء وغيرهما – حَرَارةً: سـخُن، فهو حارٌ، و(حَرَّ) الرجل – حِرَّةً وحرارة: عَطِشَ، فهو حَرَّانُ، وهي حَرَّي. و(الحُر): الخالص من الشوائب، والخالص من الرق، والكريم (جمعها أحرار)، وهي حُرَّةٌ (جمعها حَرائِر). وفي مختار الصحاح: (حَرَّ) العبد يَحَر حَرَارًا (بالفتح) أي عَتَق، و(حَرَّ) الرجل يَحَر حُرية (بالضم) من حرية الأصل، و(حَرَّ) الرجل يَحَر حَرَّةً (بالفتح) أي عَطِش. وفي لسان العرب: قال الكسائي: شيءٌ حارٌ يارٌ جارٌ وهو حَرّانُ يَرّانُ جَرّانُ. وقال اللحياني: حَرِرْت يا رجل تَحَرُّ حَرّةً وحَرارَةً؛ قال ابن سيده: أُراه إِنما يعني الحَرّ لا الحُرِّيّةَ. وقال الكسائي: حَرِرْتَ تَحَرُّ من الحُرِّيّةِ لا غير. وقال ابن الأَعرابي: حَرّ يَحَرُّ حَرارًا إِذا عَتَقَ، وحَرّ يَحَرُّ حُرِّيّةً من حُرِّيّة الأَصـل، وحَرّ الرجلُ يَحَرُّ حَرّةً عَطِشَ. ثمة رابطة خفية إذن بين الكلمتين تؤرجح مدلولهما ما بين فتح الحاء وضمها، بل وتتماهي أحيانًا رغم التشكيل فنجد أنفسنا أمام المعنيين في الوقت ذاته!

ويمضـي بنا التحليل إلى وقائع تدعم فكرة الربط ذاتها؛ ففي (الحَر) «نتحرر» جميعًا من بعضٍ مما أثقل أجسـادنا من ثيابٍ كانت تقينا برد الشـتاء القارس؛

و«نتحرر» أيضـًا من وطأة أعمالنا ولو لأيامٍ معدودات نقضـيها على الشـواطئ وفي الهواء الطلق بحثًا عن نسـمات تسـتعصـي أحيانًا علينا؛ و«يتحرر» أبناؤنا من ثقل التحصيل الدراسي وروتين الحياة اليومية وملل النصائح والتوجيهات المتكررة. وفي (الحَر) «تتحرر» حشرات الأرض من مكامنها لتحطم بياتًا شتويًا طويلاً؛ و«تتحرر» المادة الجامدة من روابطها الجزيئية لتختبر حالاتها السـائلة والغازية ... إلخ. بل إن معظم الحروب والثورات والانقلابات العسكرية – ذات الصلة الوثيقة بمفهوم الحرية – كانت في أشهر الصيف الحارة (يونيو – يوليو – أغسطس)!

لكن مهلاً، إذا كان ثمة ترابط بين معنى الحَر ومعنى الحرية، فهل يسـتوي القياس من جهة المعاناة؟ بعبارة أخرى، إذا كنا نعاني من الحَر هذه المعاناة التي تفوق احتمالاتنا أحيانًا، فهل يمكن أن نعاني من الحرية؟ هل يمكن للحرية أن تحطم روابط النظام الحياتي بكافة أبعاده كما تحطم الحرارة روابط الجزيئات المادية لتعم الفوضـى التي يدعوها علماء الثرموديناميكا بالإنتروبيا؟ وهل يمكن للحرية أن تكشـف عوراتنا الفكرية والسـلوكية كما يكشـف الحَر عوراتنا الجسدية؟ توجهت بالسؤال إلى زوجتي وأبنائي الذين سئموا الحَر مثلي، بل وسئموا أيضًا هذياني الصيفي، لكن في صيغة أخرى: ماذا لو استيقظت صباح يوم وقلت لكم: أنتم اليوم أحرار ... إفعلوا ما شـئتم بلا قيود ... فلا رقيب، ولا حسـاب، ولا قانون، ولا أدوار مفروضـة لكلٍ منا في المنزل؟ وبعد إجابات سـاخرة ومتنوعة، وبعد أفكار صاحبتها ضحكات متعالية، أيقنا جميعًا أنها ستكون الفوضى بعينها! ولم نلبث أن ارتقينا بالسؤال درجة أعلى: ماذا لو طالعتنا الصحف ووسائل الإعلام المرئية والمسـموعة ذات يومٍ ببيانٍ للحاكم يخاطب به جموع الشـعب قائلاً: أنتم اليوم أحرار ... إفعلوا اليوم ما شـئتم بلا قيود ... فلا رقيب، ولا شـرطة، ولا محاكم ... لا حكومة، ولا سجون، ولا التزامات؟ حينئذ وجدنا أن النتيجة ستكون أفظع وأشد تدميرًا، لكن قادنا النقاش إلى تساؤلاتٍ أخرى: ألا يمكن بعد فترة زمنية – طالت

أو قصرت – أن تتحول الفوضى إلى نظام (الفوضى الخلاَّقة كما تسميها الإدارة الأمريكية)؟ ألا يمكن للنفس الأمارة بالسوء داخل كل منا أن تتحول بعد إحساسها بالحرية وتفريغ الكبت الجاثم فوق صدورنا إلى نفسٍ لوَّامة، ثم إلى نفس مطمئنة؟

يخبرنا علماء الثرموديناميكا أنك إن وضعت قدحًا من الشاي المغلي في غرفة مغلقة، فسوف تتوزع حرارة القدح بعد فترة على الغرفة بالقسطاس، ورغم عدالة التوزيع، فإنك لن تتمكن بحالٍ من الأحوال من جمع الحرارة مرة أخرى وردها إلى قدح الشاي، فيما يُعرف بحالة الاتزان أو الموت الحراري التي يمكن أن تنطبق على الكون بالإجمال، وحينئذ لن تكون هناك حياة، لأنه لن تكون هناك ببساطة أية مصادر للطاقة! هل تحررُنا إذن مجرد وهم؟ أم أن ثمة وسيلة أخري للحرية؟ أعلم أنني سأسمع من يستهجن مفهوم الحرية بمعنى اللانظام، أو بالمعنى المطلق المناقض لمقولة أن حريتي تنتهي حينما تبدأ حرية الآخرين، لكن هل تنجح أية وسيلة للحرية المنظمة في ظل هذا الفساد المستشري كالسرطان في مجتمعاتنا، أم نحن في حاجة مؤقتة إلى الفوضى؟ هل نُبقي الوضع على ما هو عليه لمجرد رغبتنا في الحياة حتى ولو كانت منقوصة؟ أم أن الحياة هي الحرية حتى ولو كانت تكافئ الموت؟ هل ثمة إجابة؟ قال حكيم: لو كانت للذنوب رائحة لما احتمل أحدنا أن يقترب من الآخر، وأقول: لو كانت للأفكار في عالمنا العربي رائحة لتزكمت أنوفنا نتيجة فساد كثرة من هذه الأفكار؛ إنها إنفلونزا الأفكار التي قد تكون أشد خطرًا وأثقل وطأة من أنفلونزا الخنازير أو الطيور!

(٢) ثقافة الرادار!

- <u>٣ سبتمبر ٢٠٠٩</u>

في رحلتي من الإسكندرية إلى شبين الكوم – حيث مقر عملي بجامعة المنوفية، أستقل عادة إحدى سيارات الأجرة المعروفة عند أهل الإسكندرية باسم «المشروع»

(البيجو أو الميكروباص)، والتي تنطلق متتابعة عبر الطريق الزراعي لتقطع المسافة في ساعتين تقريبًا. تدفعك الفترة الزمنية التي قد تزداد وفقًا لحالة السيارة والطريق إما إلى النوم، أو إلى تجاذب أطراف الحديث مع رفقاء الرحلة، أو إلى تأمل ما تجود به أحداث الطريق من مشاهد. ربما اصطدمت عيناك بحادثٍ هنا أو هناك، وربما فوجئت بالسيارة تتلوى كالحية كي تتفادى مطبًا اصطناعيًا عبقريًا، أو حواجز خرسانية أقامتها إحدى شركات الإصلاح دون إشارات تنبيهية واضحة، أو حفرة تُركت علامة على أن ثمة من كان يعمل في هذا المكان. وهنا أتذكر عادةً صديقي الأمريكي «فلورنتن سمارانداكه» (الأستاذ بجامعة نيومكسيكو الأمريكية) حين اصطحبته يومًا في سيارتي من محطة الرمل بقلب الإسكندرية إلى منطقة العجمي تلبية لدعوة غداء في منزلي، فإذا به يقول لي: «أنت سائقٌ ماهر»، فتعجبت من هذا الوصف وسألته عن السبب، فأجاب: «من يقود السيارة في مثل هذه الشوارع الرثة لابد وأن يكون سائقًا ماهرًا، ولابد أن المصريين جميعًا كذلك»!

على أن الشيء الأكثر جذبًا للانتباه عبر مراحل الطريق المختلفة هو تلك العبارة التي تزين بعض اللوحات الإرشادية على جانبي الطريق: «احذر ... السرعة مراقبة بالرادار»، والهدف منها بالطبع هو تذكير السائق وإلزامه بألا يتجاوز السرعات المقررة، وإلا تعرض لعقوبة الغرامة المالية. لا شك أن الهدف نبيل، والأنبل منه أن يتسق الهدف مع مجموعة من الخدمات التي تتكفل بها الدولة لتأمين الطريق؛ كالرصف الجيد، ووضوح العلامات الإرشادية، وتخصيص حارات ملزمة للنقل الثقيل، وعدالة تطبيق القانون على الوزير قبل الغفير، واتخاذ الاحتياطات المناسبة في الشبورة الصباحية، وإنسانية التعامل من قبل رجال الشرطة، لاسيما الصغار منهم الذين لم يتمرسوا بعد على الموازنة بين حقوق المواطنين وضرورة تطبيق القانون.

لكن انتفاء وجود مثل هذه الخدمات، وضعف الأداء الحكومي وفشله في تحقيق الحد الأدنى من الطموحات المنوط به إنجازها، وتعنته وتفننه في تحصيل

الغرامات وامتصاص دماء رعاياه في شتى المجالات، كان من الطبيعي أن يُولد لدى السائقين ثقافة هي بلا شك جزء من ثقافة المواطن المصري عمومًا في حقبتنا الراهنة؛ فما أن يبدأ السائق رحلته حتى تجده حريصًا على معرفة مكان الرادار وتحديده بدقة، ومن ثم يستخدم هاتفه المحمول في تحذير زملائه من السائقين بأن ثمة رادارًا أو كمينًا مروريًا في منطقة ما. والأكثر من ذلك هو استخدام لغة الكشافات الضوئية (تقليب الأنوار) من قبل السيارات القادمة في الطريق العكسي لتحذير السائقين من اقتراب مكان الرادار أو الكمين المروري، وهي ظاهرة يشترك فيها كافة قائدي السيارات سواء أكانت أجرة أو خاصة أو نقلاً، بما في ذلك قائدي سيارات النقل العام الذين ينتمون وظائفيًا للإدارات الحكومية المختلفة، حتى لكأن أفراد الكمين المروري كتيبة عدائية تتربص بكل منتفع من الطريق، الأمر الذي يبدو وكأنه تنظيمٌ جماعيٌ لا شعوري ضد الحكومة، أو إحساسٌ بتردي الحالة الاقتصادية لجموع البائسين في ظل قوانين لا تستشعر تلك الحالة ولا تعرف عدالة التطبيق. لا أنكر أن من السائقين من يتجاوز السرعات المقررة فيُعرض حياته وحياة المواطنين للخطر، وهو مستحق بالطبع لعقوبة أقصى من مجرد الغرامة المالية، لكن ما تراه من تعسف لدي رجال الشرطة في أي كمين مروري، وتلهفهم على تحصيل الغرامات من السائقين بدرجات متفاوتة، يُفقد القانون جوهره ومغزاه، فيغدو الهدف من تشريعه مجرد استلاب أموال الناس وتسفيه أحلامهم في حياة أفضل طالما بشرتهم الحكومات المتعاقبة بقرب تحققها.

هذه الثقافة كما ذكرت باتت جزءًا لا يتجزأ من ثقافة المصريين اليوم، حيث أصبح الهاجس الأمني – غير المُبرر أحيانًا – هو المحور الأول في كافة برامجنا الحياتية: الحكومة تُراقب الشعب خشية انفلات منظومتها الأمنية وشيوع الفوضى، وقد يختلط في ذلك الحابل بالنابل وتُهدر حقوق المواطنة؛ والشعب يُراقب الحكومة – وإن في صمت – خشية العبث بمقدراته ومقومات حياته اليومية، وقد يتخذ من

المراوغة والتهرب من أداء واجباته إزاء الدولة والمجتمع سبيلاً لمواجهة الأخطاء ومعالجة الزلات! المُدراء – كبرت أو صغرت إداراتهم – يُراقبون مَن تحت إمرتهم، عن حقٍ أو عن باطل: فمنهم من يبتغون الإخلاص في العمل فيُراقبون بُغية الإتقان، ومنهم من تمكَّن الفساد من عقولهم وممارساتهم فراحوا يراقبون ويتلصصون على مرؤوسيهم خشية انفلاتهم من منظومة الفساد السائدة! وحتى على المستوى الفردي، كلٌ يُراقب الآخر مدعومًا بما تيسر له من أدوات المراقبة التي غدت قادرة على كشف أدق التفاصيل، يُراقب ويتلصص دونما هدف، اللهم إلا ممارسة رذيلة كشف المستور، ورصد وتسجيل ما قد يُبرر موقفًا أو سلوكًا له، أو ما قد يستخدمه كورقة ضغط وقت الحاجة! الغريب أن الجميع لا يعرفون أن ثمة ما لا يمكن مراقبته، ثمة ما تحمله القلوب من مشاعر وما تموج به العقول من أفكار مما يستعصي على أية أداة للمراقبة؛ مشاعر وأفكار تظل دفينة الداخل متحينة فرص الترجمة إلى واقع غير الواقع لا تُكبله الرادارات! والأغرب أنك لا تجد من يُراقب الله في سره وعلانيته، ولا تجد من ينشغل بنفسه عمن سواه، إلا ما رحم ربي، الأمر الذي يُفقد منظومة المراقبة المجتمعية مصداقيتها، ويجعل منها أداة طيعة في الأيدي العابثة، ومطية لتحقيق مآربها ومطامحها ومطامعها! وصدق أبو العتاهية حين أشعر قائلاً: إذا ما خلوت الدهرَ يومًا فلا تقل ... خلوتُ ولكن قل علّي رقيبُ، ولا تحسبنَ اللّهَ يغفلُ ساعةً ... ولا أن ما تخفيه عنه يغيبُ.

(٣) الانتحار بربطة عُنق!

- **٩ مارس ٢٠١٠**

الألفة بيني وبين ربطة العنق تكاد تكون معدومة؛ فقد فشلت أكثر من مرة في تعلم كيفية ربطها، ولم أجد مخرجًا من هذا المأزق سوى أن أحمل ما لدَّي منها إلى من يُجيد ربطها ثم أحتفظ بها جاهزةً لحين الحاجة إليها. حقًا أنني أرتديها في كثيرٍ من المناسبات الأكاديمية والاجتماعية، لكني أُسرع بمجرد ما تنتهي المناسبة إلى

خلعها لترقد في حقيبتي، وحينئذ أشـــعر وكأنني قد تحررت من قيدٍ كان يحول بيني وبين الهواء، ويقتطع من حريتي قدرًا يزداد بزيادة زمن ارتدائها.

سـألني صديقي عن سبب انعدام الألفة بيني وبين ربطة العنق، لاسيما وأنها باتت من مســتلزمات الأناقة، بل وعنصــرًا أســاسـيًا من عناصــر الزي المميز للأســتاذ الجامعي! لم أجد إجابة واضحة سوى إحساسـي بأنني أكثر حرية بدونها، وأكثر قربًا من البســـــاطة المفتقدة في المجتمع الأكاديمي. لكنني تذكرت وقتئذٍ مقولة أســتاذي الراحل الدكتور محمد قاســم، حين كنا نحضــر ســويًا مناقشــةً لإحدى الأطروحات الجامعية. كان من بين الجلوس على المنصــة أســتاذٌ بالغ الأناقة، توحي ربطة العُنق التي تُزين قميصــه وســُترته بحوارٍ شــيق، لكنه ما إن بدأ الحديث حتى كشــف عن جهلٍ عميقٍ وأســلوبٍ في الحوار مبتذل. حينئذ علَّق أســتاذي قائلاً: «إن أناقة الخارج لا تعني بالضـــرورة أناقة الداخل، بل ربما كانت تعويضـــًا عن نقصٍ يكابده الداخل». والداخل هنا بالطبع هو الفكر بأوســـــع معانيه، بما في ذلك الفضيلة بوصفها علمًا.

تذكرت أيضــًا في هذا الموقف مقولة ســقراط لتلميذٍ له ظل ملتزمًا الصــمت: «يا هذا تكلم حتى أعرفك!»، ولا غرو، فالصمت قد يكون منجاةً لصاحبه من سوءات الفكر وزلات اللســان، لكنه يغدو في الوقت ذاته ســتارًا حاجبًا لمكنونات الذات وتوجهات العقل وإمكاناته؛ فمَثَلُ الصـــــامت – وإن في أناقة – كمَثَلِ البيت؛ قد يعكس مظهره جمالاً يفتقر إليه الباطن، والعكس صـــحيح؛ فقد يكون المظهر رثًا، لكنه يُخفي وراءه جمالاً فكريًا وسلوكًا أخلاقيًا راقيًا.

والحق أني لا أهدف من هذا المقال إلى ســـرد ما قد يعتبره البعض تجربةً ذاتية، فما منا من أحدٍ إلا وقد خدعه الظاهر يومًا، إنما أهدف بالأحرى إلى تأمل الحالة المصــرية في ضــوء ثنائية الظاهر والباطن. وأعني بالحالة المصــرية مجمل الأوضــاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي آل إليها الشأن المصري في حقبتنا الراهنة،

وما يرتبط بها من تشـريعات وقوانين تندرج إعلاميًا تحت مقولةٍ ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قِبله العذاب، ألا وهي مقولة «تحديث مصر».

الحالة المصرية التي أصفها أشبه ما تكون بحالة الاستنفار التجميلي المؤقتة التي تسبق زيارة مسؤولٍ ما لإحدى المدن، والتي خبرناها جميعًا منذ سنوات طويلة خلت؛ فما أن يقترب موعد الزيارة حتى يحتشــد عمال المدينة لتنظيف الطرقات وتزيينها بأشــكالٍ مختلفة من الزهور، فضــلاً عن طلاء جذوع الأشــجار وسـيقانها بالجير الأبيض؛ وكأن النظافة والجمال قصـرٌ على عِلية القوم من صـُناع القرار وأصـحاب الدرجات الحكومية العُلى، أما رعاياهم فلا غضـاضـة في أن يعودوا أدراجهم لحياة بائسـة يطوف القبح بجنباتها! وليس بغريبٍ أن يتكرر هذا المشـهد في يونيو من العام الماضـي (٢٠٠٩)، على خلفية زيارة الرئيس الأمريكي «باراك أوباما» لمصـر، حيث انبرت الجهات السيادية لرصد الأموال وحشد الجهود اللازمة لإعادة البريق الخارجي لجامعة القاهرة ورصــف وتجميل الطرق المؤدية إليها، بل وتجديد البنية التحتية لمصــارفها الصــحية، واســتيراد الزهور النافية ظاهريًا لروائح الفســاد والتخلف الحضــاري التي غلَّفتها طويلاً؛ أليســت هي المكان المصــطفى من قبل الإدارة الأمريكية لكي يحل عليه ويباركه شـرطي العالم وحاكمه الجديد؟ بل أليس من المُشــين أن تتأذي عينا أوباما، وأعين مرافقيه ومن يتابعونه دوليًا على شــاشــات التلفاز، ولو لدقائق معدودة، بمشـاهد تفضـح الأسـباب الحقيقة التي تهاوت بجامعة القاهرة العريقة إلى المرتبة رقم ١٢١٩ عالميًا، في حين أنه من الطبيعي أن تتأذي دومًا عقول علمائها وأسـاتذتها وطلابها بمشـاهد التخلف الإداري والتخطيطي والتمويلي لبرامج التعليم والبحث العلمي في مصر؟!

تتجلى سـخرية المشـهد في تعليقٍ صـرَّح به أحد عمال النظافة لجريدة الشـروق المصـرية، إذ قال والعرق يتصـبب من وجهه بعد أسـبوع من العمل المتواصـل في رفع أكياس القمامة من الشــوارع المحيطة بجامعة القاهرة: «ما يُصــبّرنا أنهم وعدونا

بالتثبيت في شهر يوليو المقبل، كما علمنا أن جامعة القاهرة ستُخصص مكافأةً لنا بعد زيارة الرجل الأجنبي لمصر»! أما سائق التاكسي الذي أصابته الدهشة من إزالة المطبات الاصطناعية على طريق مرور الموكب المهيب، فقد فسَّر الأمر مازحًا بقوله: «خايفين على أوباما من الخضخضة، ويمكن لأسباب أمنية»! إنها الثورة الأوبامية في مصر، كما وصفها وقتئذٍ أحد المتأملين للمشهد، لكنها ثورة مظهرية تتناقض وسكون الباطن القابع على شفا جُرفٍ هارٍ يوشك أن ينهار بنا في نار البؤس الحضاري، وكأنك بإزاء رجلٍ يتجمل في كل مناسبة، فيرتدي أجمل ستراته، ويزينها بأزهى ربطات العنق التي يتخيرها بدقة، لكن الجسد متهالك توشك أن تفتك به الأمراض من كل جانب، بل وتوشك شيخوخة الملوثات الحضارية أن تُفقده توازنه فلا يقوى على اللحاق بركب التقدم المتسارع من حوله! والأمثلة على ذلك كثيرة ومتنوعة، هيا نتأمل بعضها سريعًا:

١. تبنت وزارة الثقافة المصرية منذ سنوات مشروع القراءة للجميع، وأعادت نشر الآلاف من أمهات الكتب التي يعتز بها الفكر العربي في إطار ما يُعرف بمكتبة الأسرة، لكنها لم تعمل في الوقت ذاته على ترسيخ ثقافة القراءة لدى الطوائف المختلفة من أبنائها، لاسيما الشباب منهم، بل تركتهم نهبًا لمشكلات الفقر والجوع والمرض والبطالة والمحسوبية، فكانت النتيجة التي انتهى إليها المشروع هي تزيين أرفف المكتبات المنزلية بكتبٍ تعكس ثقافة مظهرية يُعشش الجهل بباطنها (كشف تقرير صدر مؤخرًا عن مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار بمجلس الوزراء – يناير ٢٠١٠ – عن أن ٨٨٪ من الأسر المصرية لا يقرأ أي من أفرادها أياً من أنواع الكتب بخلاف الكتب المدرسية. وأوضح التقرير المُعنون «ماذا يقرأ المصريون؟» أن المبحوثين أرجعوا عدم الاهتمام بالقراءة لوجود «أولويات في الحياة» مع انخفاض الدخول، بالإضافة إلى ارتفاع أسعار الكتب. وأشار إلى أن عدد زوار معرض القاهرة الدولي للكتاب هذا العام بلغ ١٫٨ مليون زائر في

الوقت الذي يصل فيه تعداد سكان مصر إلى ٧٧,٩ مليون مواطن، طبقا لبيانات الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء. وتابع التقرير: «حتى الصحف والمجلات لم تلق اهتمامًا من جانب الأسرة المصرية، ووصلت نسبة الأسر التي لا تقرأ صحفًا إلى ٧٦٪ من إجمالي الأسر»).

٢. في إطار جهودهم الظاهرية الرامية زيفًا إلى تطوير التعليم الجامعي وقبل الجامعي، اتجه خبراء التعليم في مصر بأنظارهم إلى الخارج، ليعودوا إلينا وفي جعبتهم مشروع غربي الصبغة والتطبيق، ألا وهو مشروع ضمان الجودة والاعتماد، غير عابئين بمدى إمكانية نجاح مشروعٍ كهذا في ظل حالة التردي الصارخة التي تكتنف مؤسساتنا التعليمية، تلك التي تعاني خللاً عميقًا في بنيتها التمويلية والتنظيمية والتخطيطية، وتعاني خللاً أعمق في المقومات الأساسية للتعليم الناجح (أعني العناصر الخمسة: المدرسة أو الجامعة، الأستاذ، المادة العلمية، الطالب، احتياجات سوق العمل)؛ لتغدو عاقبة المشروع بعد أكثر من عامين من تطبيقه مجرد أوراق ومستندات يتم استيفاء بياناتها دوريًا بشكل روتيني، دون أي مردودٍ عملي في الواقع الفعلي. لم يقدم المشروع ما يضمن القضاء على التكدس الطلابي اللاآدمي داخل الأبنية التعليمية، ولا ما يضمن تزويد هذه الأبنية بوسائل التوصيل والتحديث الفعال والمستمر للمادة العلمية. لم يضمن المشروع أيضًا للمدرس أو الأستاذ الجامعي دخلاً ماديًا يحقق الحد الأدنى من متطلبات الحياة الكريمة، ولا تنظيمًا يُحقق ما يُعرف في بديهيات علم النفس بالرضا الوظيفي، لكنه يضمن بالأحرى جودة المظهر لنظام تعليمي تكاد تعصف به عوامل الفساد والتخلف.

٣. على الجانب السياسي، عانت مصر عبر عقود تزييفًا متعمدًا لمبادئ الحرية والديموقراطية والعدالة الاجتماعية وتداول السلطة؛ بدايةً من بعض النصوص الدستورية التي تكفل ثبات النظام الهرمي للحكم، وتُرسّخ لدى العامة ثقافة

الحاكم الأوحد والدائم، المُستمِد لمبررات بقائه من استفتاءٍ محدَّد النتيجة مقدمًا؛ ومرورًا بقواعد اللعبة الانتخابية للمقاعد النيابية، التي تخرج عادةً في صورة هزلية، تهدف، لا إلى تفعيل إرادة الناخبين، وإنما إلى إضفاء الشرعية على ممارسات حكومة الحزب الحاكم؛ ووصولاً إلى كثرة من القوانين التي تزيد من اتساع الهوة بين الحكومة وجموع المواطنين، مثل قانون الطوارئ، وقانون الضرائب العقارية، وغيرها. وبدلاً من أن تخطو مصر بإرادتها خطوات واضحة نحو إصلاح سياسي يتسم بالمصداقية والرغبة الحقيقة في مستقبلٍ أفضل، جاءتها الضغوط من الخارج، فإذا بنا أمام تعديل دستوري؛ ظاهره يحمل إمكانية التنافس بين أكثر من مرشح في انتخابات عامة تؤدي إلى كرسي الرئاسة، أما باطنه فيعكس استحالة التنفيذ الفعلي لذلك؛ إذ لابد لمن أراد أن يكتسب لقب المرشح أن يكون عضوًا في الهيئة العليا لأحد الأحزاب قبل عام على الأقل من فتح باب الترشيح، على أن يكون قد مضى على تأسيس هذا الحزب خمس سنوات، أو أن يحصل – كمستقل – على تأييد مائتين وخمسين عضوًا منتخبًا في مجلسي الشعب والشوري والمجالس الشعبية المحلية للمحافظات، من بينهم خمسة وستين عضوًا على الأقل في مجلس الشعب، وخمسة وعشرين عضوًا في مجلس الشوري، وعشرة أعضاء في مجالس المحافظات؛ وجميعنا يعلم مدى الضعف الذي تعاني منه أحزاب المعارضة، ومدى انتماء أعضاء المجالس المذكورة إلى الحزب الحاكم بفعل انتخابات سابقة تفتقد – وفقًا للمراقبين – إلى المصداقية!

وكان من الطبيعي أن ينعكس هذا الوضع على المواطن البسيط، الذي يدرك بفطرته وحسه الفكاهي فداحة الفجوة الفاصلة بين ظاهر التعديل وباطنه، وهو ما عبر عنه مواطنٌ مكلوم بإحدى النكات التي يبرع المصريون في صياغتها، ومنطوقها: سُئل أحد المسؤولين عن رأيه في التغيير، فأجاب قائلاً: هو سنة الحياة التي تجري على الجميع، فسأله السائل: إذن لم لا تجري هذه السُنة عليكم، فأجاب المسؤول: نحن فرضٌ وليس سنة!

٤. «نريد تحديث مصـر»؛ عبارة أطلقها أحد صـناع السـياسـات في الحزب الوطني الحاكم على خلفية مشروع قانون يقضي بإعدام سيارات الأجرة التي مضي على صـنعها عشـرون عامًا. وما أروع أن تتخلص مصـر من هذا الكم الهائل من السـيارات القديمة التي تعوق غالبًا حركة المرور بأعطالها المتكررة، وتنفث عوادمها ليل نهار بالشـوارع والأزقة حتى بتنا من أكثر الدول تلوثًا على مسـتوى العالم، لكن الأروع من ذلك أن ينعم السائقون بخدمات مرورية – أهمها الشوارع الممهدة جيدًا – تختزل نسـبة الحوادث المتكاثرة ولا تسـتهلك سـياراتهم، والأروع أيضـًا ألا تثقل الحكومة كاهل السـائقين بقروضٍ ومديونات ومخالفات مرورية ظالمة تقض مضـاجعهم، والأروع فوق ذلك هو المصـارحة والشـفافية بمصـير هذه السـيارات القديمة وهوية المسـتفيدين منها. إن ربطة العنق الجديدة في عالم المرور لن تجدي نفعًا، بل سـرعان ما سـتبلى، لأن الباطن خرب، والقميص ممزق، والجسد لا يحتمل!

٥. تبنت مصر منذ استقلالها مشروعين قوميين كبيرين؛ الأول هو مشروع بناء السد العالي إبان عهد الرئيس الراحل جمال عبد النا صر؛ أما الثاني فهو مشروع تحرير سـيناء واسـتعادة الكرامة المصـرية المهدرة على إثر هزيمة يونيو عام ١٩٦٧، وهو المشـروع الذي امتد منذ أواخر العهد الناصـري وحتى السـنوات الأولى من عهد الرئيس الراحل محمد أنور السادات. والحق أن كلاً منهما كان مشروعًا ناجحًا؛ سـواء من حيث اسـتراتيجية التعامل مع الحدث محليًا ودوليًا، أو من حيث تعميق مشاعر الانتماء وحب الوطن والتضحية في سبيله. وفي محاولة معا صرة بائسة، لم يجد صُناع الرأي العام في مصـر مشـروعًا قوميًا يلتف حوله المصـريون، ويسـترجع قيم الولاء والانتماء المفتقدة، بل ويشـغل العامة عن الإخفاقات الحكومية المتكررة، وأنماط الفسـاد التي اسـتشـرت واسـتحكمت حلقاتها فأثمرت فقرًا فكريًا وخللاً اقتصـاديًا وإسـفافًا أخلاقيًا، ...، أقول لم يجد صـُناع الرأي العام

مشروعًا قوميًا يُحقق هذه المآرب وغيرها سوى الوصول إلى نهائيات كأس العالم لكرة القدم (جنوب إفريقيا ٢٠١٠)! وفي مفارقة مثيرة لدهشة الداني والقاصي تمحور المشروع في مباراة كُروية تجمع بين مصر ودولة عربية مسلمة شقيقة هي الجزائر، فإذا بوسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، الأرضية والفضائية، تعمد إلى إثارة الجماهير المحبطة حياتيًا بشتى الوسائل، وتتغنى ليل نهار بأمجاد وبطولات المصريين المستوحاة من انتصارات أكتوبر المجيدة، حتى لكأننا مقبلون على حرب التحرير الكبرى. ولم تلبث الجماهير أن أثيرت بفعل سياسة القطيع، فباتت تحلم بالتفوق والعالمية التي منتَّهم بها وزينتها لهم وسائل الإعلام، لا في مجال التعليم أو الصحة أو التكنولوجيا، ...، فتلك مجالات تستعصي على الحلم، وإنما في مجال اللعب! وما بين ليلة وضحاها يستيقظ الحالمون على هزيمة هي بعُرف اللعبة شيئًا عاديًا يواجهه أقطابها من حينٍ إلى آخر، لكن مخزون الشحن المعنوي الزائف أحالها إلى حالةٍ كارثية، ليزداد إحباط المحبطين، ويتوشح الإعلام المصري بإحدى أكبر سقطاته وأحدثها! أرادت مصر أن تُخفي عوار الباطن بقشرة ظاهرية أنيقة، لكن القشرة كانت شفافة بما يكفي لفضح عبثية الباطن وتهالك بنيته.

٦. ولا تقف لعبة طمس عورات الباطن المصري عند حدٍ بعينه، بل تمتد لتشمل كافة المجالات التي يمكن من خلالها تزييف وعي البسطاء بمتطلباتهم الأساسية والضرورية، ومغازلة الغرب ضمانًا لاستمرار اللعبة على خلفية جسدٍ منهك؛ يكفي أن تطالع يوميًا صحف الصباح لتتفجر بداخلك إحدى ثورات الدهشة والألم. نضرب مثالاً أخيرًا لذلك بتلك التظاهرة الإعلامية التي تهدف إلى تولي المرأة منصب القضاء، بعد أن خُدعت بكثرة من الشعارات البراقة، حتى لكأن كافة المشكلات الملحة للمرأة المصرية المكافحة قد تم تجاوزها بنجاح، ولم يبق إلا أن تجلس على كرسي القضاء، أو حتى لكأن رجال القضاء الذين حملوا

على عاتقهم لقرونٍ طويلة لواء تحقيق العدالة قد ضـاقت بهم السُبل فباتوا في حاجة مُلحة وعاجلة إلى حكمة المرأة!

وبعد ...، يقول الفيلسوف والمؤرخ البريطاني «أرنولد توينبي» (١٨٨٩ – ١٩٧٥) في معرض تحليله لأسباب انهيار الحضارات: «إن الحضارات لا تموت قتلاً، وإنما انتحارًا»؛ ومصر اليوم تنتحر بربطة عُنق: ربطة عُنق تُزين جسدًا مريضًا يكابد لحظة الاحتضار، هو جسدٌ يكابد مشقة الحصول على رغيف خبز يقيم صُلبه، وعلى تعليم آدمي يُخرجه من غيابة الجهل، وعلى حرية تشق له طريقًا خارج سراديب الفساد التي قُيد بداخلها طويلاً؛ مصر اليوم تترنح ... إذ ماذا يفعل الزمار حين يفقد مهارته فيعجز عن إغراء حاضري الحفل عن الاستجابة بالرقص؟ إنه يحاول في ثورة غضب أن يفرض نفسه بالقهر على الجموع، فيستبدل بالمزمار سوطًا يلهب به ظهورهم فيترنحون، ويظن المشاهدون من الخارج أنهم يترنحون رقصًا وفرحًا، لكنها في الحقيقة رقصة الألم ... رقصة الاحتضار ... رقصة ما قبل الموت. ألم يأن إذن أن نخلع عن أعناقنا تلك الربطات الخانقة كي يستنشق الجسد المريض هواءً جديدًا ونظيفًا؟ ألم يأن لنا أن نُخضع الجسد النحيل المنهك لفحوصات ناجعة تُشخّص أمراضه بدقة فتعُيننا على وصف الدواء؟ ... أخشى أننا ننتظر حتى نصل إلى الكارثة!

(٤) دقات الساعة!

- **٢٠ نوفمبر ٢٠١٠**

كانت الساعة وما زالت أداةً أساسية من أدوات الإنسان – عبر مراحل تطوره الحضاري – لتنظيم نشاطاته اليومية؛ فما منا من أحدٍ إلا وينظر في ساعته من حينٍ إلى آخر على مدار اليوم؛ وما منا من أحدٍ إلا ولديه ذكريات عن أحداث زمكانية مرَّت به أو مرَّ بها؛ وكذلك طموحاتٍ لأحداثٍ أخرى ينتظرها ويسعى جاهدًا إليها. لكن هل يدرك الناس مغزى ارتباط أحداث حياتهم بخط الزمان؟ هل يدركون

مغزى نظراتهم في – أو إلى – ساعاتهم التي يزينون بها معاصمهم وحيطان منازلهم ومكاتبهم؟

الحق أنني كلما نظرت في ساعتي انتابني شعور بالفزع والهلع، لا بسبب موعدٍ هامٍ قد فاتني، ولا بسبب لقاءٍ دنيوي أتٍ أترقبه وقد اقترب، وإنما لأنني أرى بعيني حركة الثواني الزمانية المنطلقة دومًا إلى الأمام بلا رجعة، تلك التي سرعان ما تتحول إلى دقائق فساعات، ثم إلى أيام فسنوات، ومن ثم تقتطع دومًا جزءًا من زماني الوجودي فوق سطح الأرض. وكم تمنيت أن تتوقف ساعتي عند لحظةٍ بعينها، أستشعر فيها بهجة الحياة بين كوكبة الأحباب، وكم تمنيت أن تتسارع حركة العقارب في ساعتي أو ترتد إلى الوراء لتطوي حدثًا يؤرقني، أو لتسترجع حدثًا يُسرني، لكن هيهات هيهات، فسهم الزمان يمضي متدفقًا إلى الأمام بنظامه المعهود، يحملني معه إلى أحداث دنيوية أجهلها، ثم إلى لقاءٍ أخروي أقف فيه أمام رب العالمين، ولا أملك إزاءه إلا الدعاء بأن أكون من الناجين!

جميعنا كأفرادٍ على خط الزمان سواء، لكن منا المتقدم ومنا المتأخر، منا المُحسن ومنا المسيء، ينتظرنا جميعًا مصيرٌ واحد، ولقاءٌ واحد، نُسأل فيه عما قدمنا، فمنا الفائز ومنا الخاسر.

جميعنا أيضًا كشعوب وأوطان وحضارات على خط الزمان سواء، لكن منا المتقدم ومنا المتأخر، منا من حرث وزرع، وهو الآن يحصد أو يستبشر بحصاده، ومنا من استلقى على ظهره مستسلمًا لخموله العقلي والمادي، منتظرًا أن يأكل من حصاد الآخرين، أو بالأحرى من فتات موائدهم، فإما أعطوه وإما منعوه. فأين ومتى وكيف أنت يا وطني في تلك اللحظة الهاربة من حاضرك؟ زرعت في صدر الإسلام وحصدت، بل وأكل من حصادك الآخرون، لكنك رُحت بعد ذلك – وإلى الآن – في سُباتٍ عميق، تنتظر حصادهم في خشوع ذليل ... افترشت أرضًا تبكي حضارتها وريادتها وقدسيتها، واكتفيت بحضارة الأسلاف كغطاءٍ بات لا يُجدي نفعًا ...

يخطو من فوقك الأخرون من كل حدبٍ وصــوب ... يدهســونك بأحذية حضـــارتهم الثقيلة ... يتأهبون لإعلان وفاتك، إن لم يكونوا قد أعلنوها حقًا فيما بينهم!

ألا توقظك تقلصـــات وأوجاع الأحشـــاء بداخلك؟ ألا توقظك الكدمات الدامية التي نقشــوها فوق جســدك العليل؟ ألا توقظك صــرخات قلب ينبض عل اســتحياءٍ بصدرك؟ ألا توقظك دقات ساعة مكة وقد باتت أكبر ساعة في العالم، وهي تعلو بآذانها في أشـــرف بقاعك؟ ألم يأن لك يا وطني أن تصـــحو من غيبوبتك الطويلة، تنفض غبار الجهالة والتخلف لتعلو هامتك؟ ﴿*أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَـــعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ*﴾.

(٥) مَن يصنعُ الحضارة؟!

- **<u>٢٢ نوفمبر ٢٠١٠</u>**

كانت أمتنا العربية – عبر حقبة زمنية طويلة – مسرحًا لحضارة عظيمة، راسخة القواعد، قوية البنيان، شاهقة الارتفاع، ...، إنها الحضـارة العربية الإسـلامية التي انطلقت شـرارتها الأولى من شـبه جزيرة العرب بوحي إلهي، ثم اتسـعت وامتدت ذات اليمين وذات الشـــمال، فكانت المنطقة العربية – الإســـلامية، بما تتمتع به معظم بلدانها من تراث حضـاري ضـخم وموقع جغرافي أثير، بقعة مضـيئة تتلألأ في سـاحة الإبداع والتميز والإنتاج الفكري والمادي. واللافت للنظر في هذه الحضـــــــارة أنها تشـكلت في إطار قالب ديني، انصـهرت فيه وتفاعلت معه إبداعات روادها في شـتى المجالات، فكان الناتج إنســانًا يحمل في أعماقه منظومة كاملة من القيم، تشــبع حاجات الروح ومطالب الجسد.

وإذا كانت المكانة الريادية لأمتنا العربية في بناء الحضـــارات قد تراجعت منذ أفول نجم الحضـارة الإسـلامية وحتى يومنا هذا، وإذا كانت أوضـاعها السـياسـية والاقتصـادية والاجتماعية والعلمية قد تدهورت في حقبتها الحديثة والمعاصرة، فذلك بلا شـك نتيجة عوامل داخلية وخارجية مؤثرة، عملت – وما زالت تعمل – كأسـباب

مباشـرة لهذا التدهور، لعل أبرزها: اتسـاع الفجوة بين تعاليم الإسـلام وممارسـات المسلمين، والفساد الإداري الشامل، ومصادرة الحريات، وتسطيح الوعي الشعبي بحقوق وواجبات المواطنة، وانعدام العدالة في توزيع الموارد والثروات، وتخلف برامج التخطيط المستقبلي في مجالات التعليم والصحة والزراعة وغيرها، هذا فضلاً عن التصادم بين المصالح القومية ومصالح القوى الكبرى في الغرب المهيمن حضاريًا.

أما عن مظاهر هذا التدهور فقد تعددت وتنوعت حتى باتت واضحة للداني والقاصي، فمنها مثلاً: الاحتقان السياسي والاجتماعي الحاد، واتساع الفجوة بين أقلية موسرة ومترفة وأغلبية فقيرة ومعدمة، وتزايد معدلات البطالة والفقر والمرض والجريمة، وتدني كفاءة المنتج التعليمي ومخرجات المرافق الخدمية والإنتاجية، وانهيار منظومة القيم الدينية والأخلاقية، وتعسف السلطات التنفيذية لتتحول من خدمة وحماية الشعوب إلى خدمة وحماية النظم القائمة، وشيوع حالة اللامبالاة بين جموع أمة أسكرتها مطالب الحياة الملحة، ... الخ.

هذا المشهد العابر لأمتنا العربية كأمة ذات حضارة أصيلة، وكأمة بالوضع الذي نراها عليه اليوم، كافٍ لمعالجة السؤال الذي جعلناه عنوانًا لهذا الطرح: من يصنع الحضارة؟ هل هم الساسة والإعلاميون والمدراء وكبار رجال الدولة من وزراء وأعضاء في المجالس النيابية، أم هم خلاصة فكر الأمة، ممثلة في علمائها ومفكريها وأدبائها وفنانيها وقضاتها ودعاتها، وقبل ذلك أنبيائها؟ قد يبدو السؤال بسيطًا للوهلة الأولى، لكن قليلاً من التأمل يكشف عن أن إجابته – أيًا كانت – تحمل في طياتها إجابات عن تساؤلات ملحة من شأنها تغيير الكثير من مفاهيمنا الثابتة؛ فالسؤال يفترض أولاً أننا في مرحلة تاريخية حرجة، علينا تجاوزها بالتطلع إلى نهضة حضارية مأمولة تعيد إلى الأمة مكانتها المفقودة، ومن ثم نتساءل عن مدى توافر مقومات هذه النهضة في ظل الظروف الراهنة. وهو يدفعنا ثانيًا إلى التساؤل: هل بإمكان العربي أن يتخلى عن موروثه الديني والقيمي المترسخ وهو

بصدد السعي إلى هذه النهضة – كما ترغب القوى الكبرى المؤثرة في صناعة القرار؟ وهو يضعنا ثالثًا أمام السؤال المنهجي في علم وفلسفة التاريخ: لمن يجب أن يؤرخ المؤرخ؟ هل يؤرخ لأفراد – مع تسليمنا بأهمية الدور الفردي التخطيطي – أم لمنظومات علمية وثقافية تعكس حضارة أمة أو شعب؟

والحق أننا بتساؤلاتنا تلك لا نطرح موضوعًا جديدًا، أو نعبث بأصابعنا في جرح ملتئم ليتدفق منه دمًا طازجًا، بل إن الجرح في الحقيقة كان – وما زال – يعاني نزيفًا يكاد يودي بحياة صاحبه. وحتى من المنظور التاريخي – الفلسفي، كان موضوعنا مثار اهتمام كل غيور على حضارته وثقافته عبر قرون خلت؛ ففي القرن الثامن عشر، طرح الأديب والفيلسوف الفرنسي «فرانسوا ماري أرويه دي فولتير» (١٦٩٤ – ١٧٧٨) سؤالنا الأساسي ذاته، وأجاب عنه بعبارتين بليغتين تعكسان وعيه بمدى حاجة التاريخ إلى الفلسفة، ومدى تقديره لمغامرات العقل وقدرته على طرد ظلام الجهل والأهواء والغيبيات وأحقاد التعصب، ومن ثم بناء الحضارة. يقول «فولتير» – وتلك هي عبارته الأولى: «لو سُئلت: أي هؤلاء الرجال أعظم: الإسكندر أم قيصر أم تيمورلانك أم كرومويل؟ لأجبت بأن أعظمهم جميعًا هو إسحق نيوتن!». أما عبارته الثانية فمنطوقها: «إن بعض المؤرخين يهتم بالحروب والمعاهدات، ولكني بعد قراءة ما بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف معركة، وبضع مئات من المعاهدات، لم أجد نفسي أكثر حكمة مما كنت قبلها، حيث لم أتعرف إلا على مجرد حوادث لا تستحق عناء المعرفة؟». من جهة أخرى، إذا كانت الحضارة من صنع أفراد (هم الساسة)، فهل هذا الفرد الذي ينهض بالأمة –انطلاقًا من موقعه السيادي – هو صانع عصره ومجتمعه، وبالتالي علينا أن ننتظر حتى يجود علينا الزمان بمثل هذا الفرد؟ أم أن هذا الفرد هو ابن عصره ومجتمعه، وبالتالي علينا أن نبدأ بأنفسنا لتغيير ثقافة أمة باتت تنظر إلى ذاتها كمجموعة أصفار لا قيمة لها إلا بالواحد؟

الإجابة عن هذا السؤال تمثل – من وجهة نظري – المنطلق الحقيقي للنهضة المأمولة، لكنها لا ولن تكون نتاج عقل واحد، بل لابد وأن تتضافر من أجلها عقول الصفوة من أبناء هذا الوطن، فهل ثمة إجابة؟

(٦) مَن أنت أيها الإنسان؟!

- **٢٢ نوفمبر ٢٠١٠**

من أنت أيها الإنسان؟ بل أين أنت، ولماذا تحيد عن فهمك الأذهان؟ أبحث عنك منذ سنوات طويلة خلت؛ أنقِّب في أسفار التاريخ التي سطَرَتَها يداك يومًا بعد يوم، وفي مشاهد الأرض التي خلَّفتها نحتًا في ذاكرة الأوطان؛ أبحث عنك فيك؛ في أحلام البسطاء، وتأملات الحكماء، بل فيما أخبرتنا به الأديان؛ أبحث عنك في ابتساماتٍ تستحضر زيفًا براءة الأطفال، وفي تجاعيدٍ بالوجه تعكس ما تراكم من خبرات الزمان؛ أسأل عنك البائس والمعتَّر، ومن قلَّبته الدنيا على فُرشٍ من الأحزان؛ أبحث وأنقب وأسأل، فلا أجد في كل مرة إلا كيانًا مُلغزًا يستعصي فهمه إلا على الرحمن؛ تبني لتهدم، وتُعمِّر لتدمر، وتصلح لتفسد، وكأن نصفك ملاكٌ ونصفك الآخر شيطان. أجل، هذا هو الإنسان، أنت وأنا، هناك وهنا، بالأمس وغدًا، قبل وبعد الآن.

(٧) أرجوحة الأفكار

- **٢٥ نوفمبر ٢٠١٠**

للأفكار حياة مفعمة بالنشاط والديناميكية؛ حياة تشبه الأرجوحة؛ فما أن تولد الفكرة حتى تحملها الأرجوحة ذهابًا وإيابًا: من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين؛ من الإيجاب إلى السلب ومن السلب إلى الإيجاب؛ من الصدق إلى الكذب ومن الكذب إلى الصدق، ...، مرورًا بحالات لا متناهية العدد بين الطرفين، بما في ذلك نقطة الارتكاز في منتصف المسافة بينهما، حتى إذا ما ازدادت سرعة

الأرجوحة، وتجاوزت بالفكرة حدود الصـــــدق من جهة وحدود الكذب من جهة أخرى، رأيناها تنقلب رأسًا على عقب، لتولد الفكرة من جديد.

ليس ذلك فحســـب، بل إن من أبرز سمات الأفكار إثارة للدهشـــة قدرتها على مصــافحة نقائضــها، والتعايش معها مكانيًا ولحظيًا، وليس أدل على ذلك من تلك المفارقات والمتناقضـــات والمتضـــادات التي تحفل بها حياتنا في شـــتى المجالات: في الفلســفة، والعلم، والفن، والتاريخ، والســياســة، والإرث الثقافي، ...، وصــولاً إلى كافة مواقف الحياة اليومية للإنســـان؛ فما يؤكده أحدهم اليوم، ينفيه آخر غدًا؛ وما يبرهن أحدهم على صـــدقه هنا، يبرهن آخر على كذبه هناك. ما من شـــيء ثابت، وما من حالٍ دائم. ما من مقولة إنسـانية صـادقة إلا وشـبح الكذب يطاردها، وما من مقولة كاذبة إلا وتحمل في رحمها نطفة البرهان على صدقها. لا نستثني من ذلك إلا ما وقر في القلب بإيحاءٍ من الله، أو ما طُبع بأختام اليقين في كتبه المنزلة وعلى ألسنة رسله الكرام.

في عام ١٩٦٠ عرض فنانو المســـرح في «برودواي» كوميديا موســـيقية بعنوان «أوقفوا العـالم، أريد أن أتركـه» I want to get off،Stop the world ، لكن الأحرى بنا أن نقول: «أوقفوا العالم، أريد أن أفهمه»، فهكذا حال العقل الإنساني: أطياف فكرية متداخلة؛ «إنتروبيا» Entropy تعصـــــف بالنظام الذهني؛ «دوامة» تتجاذب الرؤى بداخلها؛ «إعصار» يعلو ويهبط بالأفكار؛ يدعونا أحدهم إلى الفضيلة أحيانًا وهو مسترق لأشنع الأفعال!؛ ويتشدق آخر بالقيم السامية في الوقت الذي يلذ فيه بتعذيب عدوه!؛ ندعو الله أن يوفقنا في ارتكاب المعاصـــــــي!؛ ونهب أموالنا لجمعيات الرفق بالحيوان وعلى مقربة منا أناس يتضـــورون جوعًا!؛ نصــنع أســلحة الدمار الشـامل من أجل السـلام، ونتدثر بثياب الملائكة لنخفي عورة شيطان آثم!؛ نُعبر عن فرحتنا بذرف الدموع، وعن بليتنا بضـــحكات مثيرة للســـخرية!؛ يدعونا مفكرونا إلى اليسار تارة فنقول: آمين، ويدعوننا تارة أخرى إلى اليمين فنكرر تلبية

البائس المسكين ... لا، بل كونوا على الحياد تحيوا في الأرض سالمين: أثمة دعوة أخرى تعيد بنا الكَرّة وفقًا لما يتراءى للذهن من أحكام وبراهين؟

تلك هي الحقيقة التي يخرج بها العقل من صخب المذاهب الفلسفية المتلاطمة، وغيابات النظريات العلمية المتصارعة، ولا معقولية الأفعال الإنسانية عبر عصور خلت وعصر نحياه: أنه لن يصل بذاته أبدًا إلى الحقيقة، بل سيظل أسير رؤية غائمة، وشمس تُشرق لتغرب، ونهار يعقبه ليل بهيم، ورماديات متدرجة. ولو أردنا فهمًا فلسفيًا أكثر دقة لتلك الحقيقة، لاسترجعنا في هدوء بعض أقوال «هيراقليطس» Heraclitus (حوالي ٥٧٦–٤٨٠ ق. م)، وإن اختلفت بواعثنا عن بواعث مذهبه وفقًا للحقيقة ذاتها:

- كل شيء ينساب ولا شيء يسكن، كل شيء يتغير ولا شيء يدوم على الثبات.
- الأشياء الباردة تصير حارة، والحارة تصير باردة، ويجف الرطب، ويتحول الجاف إلى رطب.
- تجد الأشياء راحتها في التغير.
- النار تحيا بموت الأرض، والهواء يحيا بموت النار، والماء يحيا بموت الهواء، والأرض تحيا بموت الماء.
- ليس للطبيعة البشرية فهم حقيقي، إنه للطبيعة الإلهية وحدها.
- الاختلاف يجلب الائتلاف، ومن الاختلاف يأتي أجمل ائتلاف.
- بالمرض تظهر الصحة، وبالشر يظهر الخير بجلبه للسرور، وكذلك بالجوع يظهر الشبع، وبالتعب تظهر الراحة.
- أجمل قرد قبيح بالنسبة للإنسان، وأحكم الناس يبدو قردًا إذا قورن بالإله: في الحكمة والجمال وكل شيء آخر.
- إن العظام التي تصلها المفاصل هي كل متحد وغير كل متحد في وقت واحد. ولكي تكون في اتفاق لابد أن تخالف، فإن الموافق هو المخالف، فالوحدة تأتي من كل الجزيئات الكثيرة، وتأتي كل الجزيئات الكثيرة من الوحدة.

- إنه الشـــيء ذاته أن تكون حيًا أو ميتًا، مســتيقظًا أو نائمًا، يافعًا أو هرمًا. فالمظهر الأول من كل حالة يصبح المظهر الآخر؛ والآخر مرة أخرى يصبح الأول بنقض مفاجئ غير متوقع.

ولئن كان العقل الغربي قد تنبه لهذه الحقيقة منذ أكثر من قرن، وسـعى إلى تضـييقها بتطويره للعديد من الأنسـاق ذات القيم المتعددة، فإن العقل العربي– الإسـلامي كان على دراية بها قبل ذلك بعدة قرون، وكان له دوره الذي لا يمكن إنكاره في التعامل معها بما يحقق مقاصـد الشـرع وحكمته. لقد أدرك مفكرو الإسـلام، وبصـفة خاصـة الفقهاء، أن الحكم المنطقي الواحد، بخلاف الحكم المنصـوص عليه صـراحة وبوضـوح في القرآن أو السّنة، يمكن أن يتأرجح بين قيمتي الصـدق والكذب، مرورًا بكافة قيم الحياد الممتدة بينهما. وهو في تأرجحه هذا مرهونٌ بشـروط الزمان والمكان والعلة والدلالة اللغوية، وغير ذلك من الملابسـات الخاصـة بالواقعة موضـع الحكم، ومن ثم فهو لا يعدو أن يكون مجرد «رأي» أو «اجتهاد» يصـدر عن عقلٍ متناهٍ لا عصـمة له من الوقوع في الخطأ، وهو ما عبّر عنه الإمام الشـافعي بقوله: «رأيي صـواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب». وبهذا الفهم لطبيعة الحكم العقل الاستدلالي عرف الفقه الإسلامي معنى تعددية التفسـير، وسماحة التعايش السلمي بين الأفكار، مهما كانت متصارعة أو متناقضة، و ضرورة الحوار الجدلي بين الرأي والرأي الآخر، دون تعصب مذموم، أو تشـدد يعكس جهلاً مطبقًا بحقيقة الدين ومرونة تعاليمه. حقًا لقد اختلف الفقهاء حول كثرة الأحكام التي لم يرد بها نص قرآني أو نبوي صـريح، لكنهم في الوقت ذاته اتفقوا على أن اختلافهم هذا إنما هو رحمةٌ للمسـلمين، وتيسـيرٌ لهم على إقامة دينهم وإحياء شعائره في كل زمان ومكان؛ حيث يجد المسلم نفسه أمام أكثر من بديل شرعي، وله حرية اختيار أيسرها.

(٨) لماذا هي أمركة وليست عولمة؟!

- **٢٧ نوفمبر ٢٠١٠**

قبيل منتصف القرن العشرين تقريبًا، طرح الشاعر والأديب والناقد المسرحي الألماني «بيرتولت بريخت» Bertolt Brecht (١٨٩٨-١٩٥٦) السؤال التالي: هل ما زال من الممكن تمثيل العالم المعاصر على المسرح، بحيث يمكن للمشاهد أن يُدرك الحقيقة التي تهدف الرواية إلى توصيلها؟ وبعبارة أخرى: هل يستطيع المسرح أن يكشف عن حقيقة العالم المعا صر خلف الحجاب المادي والإيديولوجي السائد، وأن يكشف أيضًا عن مدى إمكانية تغيير هذا العالم وعن كيفية هذا التغيير؟

لم يلبث «بريخت» أن أجاب بإمكانية ذلك، شريطة أن يُحطِّم المسرح هوية المُشاهد مع الأحداث المتلاحقة على خشبته. ولا يتطلب ذلك تعميق التداخل العاطفي بين المشاهد وشخصيات الرواية، وإنما يتطلب التفكير عن بُعد، يتطلب ما يُسميه «بريخت»: «انفصال» المُشاهد عن الأحداث التي يعايشها (*Verfremdungseffekt*) – Estrangement.

لعلنا أحوج ما نكون اليوم إلى طرح هذا السؤال، بل وإلى استلهام إجابة «بريخت»، فنحن نكتب عن العولمة – تلك المسرحية الكبرى التي يعرضها المسرح المعاصر – ونحن منغمسون فيها، نكابد واقعها، ونعاني ويلاتها، ونُمني أنفسنا بإيجابياتها، ومن ثم يصعب علينا تقييمها أو كشف حقيقتها. ربما أمكننا الابتعاد عنها قليلاً إذا ما غادرنا الحاضر، وأبحرنا في الماضي القريب أو البعيد بحثًا عن جذور لها، فلا شيء يولد من لا شيء، ولا يأتي إلى الوجود ما ليس فيه إلا بالفعل الإلهي «كن فيكون»، لكن العولمة – ورغم حداثة المصطلح – وليدة نشاط إنساني متراكم، ينجم عن طبيعة بشرية يصعب فهمها أو استكناه أسرارها.

لقد تعددت في الآونة الأخيرة محاولات التأريخ لنشأة العولمة وتطورها؛ فمن الباحثين مثلاً من اقتفى أثر العولمة في الديانات السماوية العالمية. وغيرها من

الديانات الوضعية الواسعة الانتشار، ولكن غاب عن هؤلاء ضرورة التمييز بين معنى عالمية الأديان (خصوصًا الدين الإسلامي: ﴿**لَكُم دينكُم ولي دين**﴾، الكافرون، آية ٦)، وما ينطوي عليه هذا المعنى الديني من ربطٍ للمخلوق بالخالق، ونشر لمبادئ المحبة والتسامح والتكافل والمساواة من منظور إلهي، وبمدلول الثواب والعقاب ... وبين معنى العولمة بما ينطوي عليه من بسطٍ للنفوذ والهيمنة على مشارق الأرض ومغاربها. ولقد استمرت الأديان حتى يومنا هذا، واستفادت قطعًا في نشر رسالتها من تطور وسائل الإعلام والاتصالات، ومع ذلك لم يسد دينٌ واحد ليعم الأرض بأسرها، ولم تنجح أية محاولة لفرض عقيدة بعينها على جميع البشر. وهكذا فالأديان تنمو كشجرة من أسفل إلى أعلى، الأمر الذي يُفسر ثباتها ورسوخها – رغم تنوعها – على مر الأزمان، أما العولمة فقد فُرضت من عل باستخدام القوة، سواء تمثلت هذه القوة في إغراءات مادية، أو حشود عسكرية، أو حتى منظورات ثقافية، وهو ما قد يُشكك في مدى تحملها لتقلبات الطبيعة البشرية في المستقبل القريب أو البعيد.

من الباحثين أيضًا من تعقب بدايات العولمة في الفتوحات والحملات العسكرية للحضارات القديمة، حتى لقد ارتد بها أحدهم إلى فتوحات الفراعنة القدماء، مُدللاً على ذلك برحلاتهم إلى بلاد «بونت» – الصومال – أو إلى بلاد الفينيقيين – الشام حاليًا، أو إلى الأمريكتين كما قد تدل آثارهم، ومن ثم متعقبًا ظهور الإمبراطوريات المختلفة كنماذج للعولمة. ورغم اقتراب هذه الرؤية من المعنى الحالي للعولمة – لاسيما نزعة الهيمنة – إلا أنها تتجاهل فشل هذه الامبراطوريات في فرض نموذجها الثقافي الواحد، وافتقارها كذلك إلى التقدم العلمي والإعلامي التكنولوجي الذي يتيح لها بسط هيمنتها وإعلاء مصالحها، ومن ثم فهي أقرب إلى العالمية المحدودة منها إلى العولمة. لقد كان عالم القدماء محدودًا بذلك المدى الذي تستطيع جيوشهم أن تصل إليه، أما عالم اليوم فهو ذلك العالم المنكمش بفعل

موجات الأقمار الصناعية المنبعثة من الفضاء، أعني الكرة الأرضية بأكملها، وهو أيضًا ذلك العالم الذي يستطيع فيه عقلٌ واحد – يمثل دولة أو مجموعة من الدول – أن يكون مركز جاذبية للعقول الأخرى، فتدور في فلكه طوعًا أو كرهًا.

بعبارة أخرى يمكن القول إن هذه الإمبراطوريات اتسمت دائمًا بطابع الغزو العسكري، أما عولمة اليوم فتتسم بما يُسميه «هربرت ماركيوز» Herbert Marcuse (١٨٩٨ – ١٩٧٩): «الطابع العقلاني للاعقلانيتها» Rational character of its irrationality، وبتعبيرنا الدارج: قدرتها على تغليف السُم بالعسل. إن المجتمع الذي يضع الخطط ويشرع بالفعل في تطبيقها بغية تسخير الطبيعة – بكافة مواردها المادية والبشرية – والتحكم فيها، يُغيّر بالتدريج أساس السيطرة، فالتبعية الشخصية (كتبعية العبد للسيد، وتبعية القِن للشريف صاحب المقاطعة، وتبعية الشريف للوالي صاحب النعم... إلخ) تحل محلها تبعية جديدة وشاملة، تبعية البشر لنظام أشياء موضوعي وعقلاني (للقوانين الاقتصادية وآليات السوق، وغيرها). وهو بهذه العقلانية الفجة يزيف قيم الولاء والتضحية التي تشكل جزءًا من إنسانيتنا. ولقد عبر الاقتصادي الفرنسي «فرانسوا بيرو» François Perroux (١٩٠٣- ١٩٨٧) عن ذلك أفضل تعبير في كتابه «*التعايش السلمي*» *Peaceful Coexistence* (١٩٥٨)، فقال:

«إنهم يعتقدون أنهم يضحون بأرواحهم من أجل الطبقة، وهم يلقون حتفهم من أجل صبيان الحزب. ويعتقدون أنهم يموتون من أجل الوطن، وهم يموتون من أجل رجال الصناعة. ويعتقدون أنهم يبذلون أرواحهم في سبيل حرية الشخص، وهم يبذلونها في سبيل أرباح الأسهم ... ويعتقدون أنهم يموتون بأوامر من الدولة، وهم يموتون من أجل المال الذي يمسك بتلابيب هذه الدولة، ويعتقدون أنهم يبذلون أرواحهم في سبيل الأمة، وهم يبذلونها من أجل اللصوص الذي يكممون فاه هذه

الأمة ... يعتقدون ويعتقدون – ولكن لِم الاعتقاد في مثل هذا الظلام الحالك؟ الاعتقاد – الموت؟ - ألم يأن الأوان لكي نتعلم كيف نحيا؟».

ربما نعثر على ضالتنا – أعني جذور العولمة – لو حصرنا أنفسنا في التاريخ الحديث للحضارة الغربية، تلك الحضارة التي يُسميها الفيلسوف والمؤرخ الألماني «أوزفالد شبنجلر» Oswald Spengler (١٨٨٠ – ١٩٣٦): «الحضارة الفاوستية»* Faustian، والتي تُعبر عن نفسها عادة بـ «اللامتناهي» Infinite؛ اللامتناهي في العلم (حساب التفاضل والتكامل، نظرية المجموعات، متصل الزمان – مكان، الفمتوثانية، ...، إلخ)؛ واللامتناهي في الفن (موسيقى «باخ»، و«بيتهوفن»، وغيرهما، السريالية، الأدب العالمي، ...، إلخ)؛ واللامتناهي في السياسة والاقتصاد والتكنولوجيا – حيث اتخذ كل شيء طابع العالمية – (الاستعمار العالمي، الحروب العالمية، عصبة الأمم، الأمم المتحدة، البنك الدولي، صندوق النقد الدولي، غزو

* أطلق «شبنجلر» على كل حضارة اسمًا يعكس أهم سمة أو مقوم لها؛ فالحضارة اليونانية مثلاً يسميها «الأبولونية»، نسبة إلى الإله «أبولو»، وهي تتمثل فنيًا في التمثال المحدود، حيث عبر اليوناني عن روحه الفنية في الجسم المنعزل الساكن، كما عبر عن ذاته سياسيًا فيما هو محدود أيضًا: في دولة المدينة. وهنا يعتبر «شبنجلر» أن «فيليب المقدوني» حين وحَّد بلاد اليونان، ثم انطلق ابنه «الإسكندر» في إقامة إمبراطورية في الشرق، قد أكره اليونانيين على غير طبيعتهم، ولذا تُعتبر هذه الفتوحات، والتي قد ينظر إليها المؤرخون على أنها دليل عظمة الحضارة اليونانية، هي بداية النهاية لأنها لم تكن لتلائم طبيعة اليوناني. كذلك تجلت عبقرية اليوناني العلمية في مجال الهندسة المستوية (هندسة إقليدس)، حيث المكان سطح مستو محدود عمليًا. أما الحضارة العربية الإيرانية فيسميها «شبنجلر» الحضارة السحرية، حيث تتلاشى فيها روح الفرد في روح أعظم هي الروح الإلهية. وفي هذه الحضارة يتجاوز المسلم ما هو محسوس إلى ما هو مجرد؛ فلأن إلهه منزَّه عن التجسيم، فقد تمثل طابع التجريد الفني لديه في فن الزخرفة، وفي العلم في مجال علم الجبر، وهو بدوره أكثر تجريدًا من الهندسة وأوسع مدى برموزه. كما انعكست وحدة الإله على تصوره السياسي والفكري، فآمن بالإجماع الذي يحول بينه وبين الضلالة. أما الحضارة الغربية فهي كما ذكرنا الحضارة الفاوستية، نسبة إلى قصة «*فاوست*» أعظم أعمال الأديب الألماني «جوته». وفاوست هذا هو البطل الدرامي الذي باع روحه للشيطان مقابل الحصول على المال والخبرة الدنيوية، والاسم مأخوذ عن اسم الساحر والفلكي الألماني «يوهان جورج فاوست» Johann Georg Faust (١٤٨٠ – ١٥٤٠).

الفضـــاء، الهاتف، المذياع، التلفاز، الإنترنت، الألعاب الأوليمبية، توقيت جرينتش، جوائز نوبل العالمية، منظمة التجارة العالمية، اتفاقية الجات، ...، إلخ). وعلى الرغم من أن «شـبنجلر» لم يشـهد بعض هذه التطورات للحضـارة الغربية (حيث توفي سـنة ١٩٣٦)، بل لقد تنبأ بأفول هذه الحضــــارة بعد أن اســـتكملت دورتها البيولوجية فوصـلت إلى طور شـيخوختها الذي يؤذن بنهايتها، الأمر الذي كان وما زال موضـع نقاش وجدال بين مُنظِري الحضارات، إلا أنه وضعنا أمام أهم سمة للحضارة الغربية الحديثة، ألا وهي الامتداد؛ ليس الامتداد المكاني فحســـب، وإنما الامتداد الثقافي كذلك، الذي يشـــمل الآخر الحضــــاري فيطمس هويته، تعبيرًا عن نزعة عدوانية تسلطية أكد عليها «شبنجلر» بين كثرة من فلاسفة ومفكري الغرب.

لعل أبرز محاولة لتعقب الخيوط الأولى للعولمة في الحضــــارة الغربية هي تلك التي قام بها «رونالد روبرتســـون» R. Robertson العام ١٩٩٢، حيث وضـــع جدولاً زمنيًا لولادة العولمة وتطورها ينطوي على خمس مراحل متتابعة؛ بداية من المرحلة الجنينية، التي بدأت في أوربا منذ بواكير القرن الخامس عشر واستمرت حتى منتصف القرن الثامن عشـر، وشـهدت توسـعًا كنسيًا ونموًا لفكرة المجتمع القومي؛ بالإضـافة إلى بروز مجموعة من النظريات التي تتحدث عن وحدة العالم والبشـرية، ومرورًا بمرحلة النشـوء التي اسـتمرت أيضـًا في أوربا من منتصـف القرن الثامن عشـر وحتى سـنة ١٨٧٠، حيث تبلورت تدريجيًا المفاهيم الخاصــــــــة بالعلاقات الدولية وتنظيماتها القانونية، وبدأ الاهتمام بموضـوع القومية والعالمية؛ ثم مرحلة الانطلاق، التي امتدت من سـنة ١٨٧٠ حتى العشـرينات من القرن العشـرين، وفيها برزت اتجاهات كونية واضـحة تركز على فكرة المجتمع العالمي الواحد، وتستمد حيويتها من المنافسـات الدولية (مثل الألعاب الأوليمبية وجوائز نوبل) وسرعة التحولات في وسائل الاتصالات والمواصـلات. وقد اندلعت في هذه المرحلة الحرب العالمية الأولى ونشـأت عصبة الأمم؛ ثم مرحلة الصــراع من أجل الهيمنة، وقد اسـتمرت من العشـرينات وحتى منتصـف

الستينات، حيث تفاقمت حدة الصراع من أجل الهيمنة الكونية، وازداد الاهتمام بحقوق الإنسان بحكم حوادث الهولوكست المزعومة وإلقاء القنبلة الذرية على اليابان، وبرز دور الأمم المتحدة؛ ووصولاً إلى مرحلة عدم اليقين، والتي امتدت إلى بداية التسعينات من القرن العشرين، وقد تم فيها إدماج العالم الثالث في المجتمع العالمي، وظهرت حركة الحقوق المدنية، وانتهي النظام ثنائي القطبية بانتهاء الحرب الباردة، وتم تدعيم نظام الإعلام الكوني، وتفشى القلق على مصير البشرية.

ومع أهمية هذا الجدول الزمني الذي يرجع بجذور العولمة إلى عصر النهضة الأوربية، إلا أنه لا يغني عن كثرة من التفصيلات التاريخية، لاسيما تلك التي جعلت من الولايات المتحدة الأمريكية مركز ثقل وإثراء وإنقاذ للحضارة الغربية، ونقطة انطلاق للهيمنة على العالم وتحقيق المد الرأسمالي الغربي، وهو ما ركز عليه «أنور عبد الملك» بوضوح واقتدار في كتابه «*تغيير العالم*»، مؤكدًا على أهمية الدور الاقتصادي في بسط النفوذ الأمريكي منذ منتصف القرن العشرين تقريبًا. ويمكن أن نوجز عرضه لمراحل الصعود الأمريكي وصولاً إلى العولمة – أو بالأحرى الأمركة Americanization – من خلال النقاط التالية:

١. كان النظام الاقتصادي التقليدي حتى نهاية الحرب العالمية الثانية يقوم على أساس أن هناك أنظمة اقتصادية متنوعة، ترتكز على فكرة السوق المحلية، بحيث تستطيع الحكومات المختلفة أن تتحكم بشكل فعال في المسار الاقتصادي بعيد المدى. وكان لابد من إقامة نمط منسق للعلاقات الاقتصادية الدولية يربط بين هذه الوحدات المختلفة، حيث كانت الدول الصناعية المتقدمة تؤدي الدور الأكبر من حيث زيادة الإنتاج لمواجهة المطالب المتزايدة لأسواقها الداخلية في المحل الأول، بينما ظلت المناطق غير الغربية تؤدي دور

المورد الأساسي للمواد الخام، وتقوم بدور السوق الثانوية لتصريف منتجات الدول الصناعية المتقدمة.

٢. أحدثت الحرب العالمية، وما ترتب عليها من تدمير قطاعات واسعة من الهيكل الاقتصادي الإنتاجي في القارة الأوربية وفي اليابان، رد فعل بالغ الأهمية، أدى إلى تغيير الصورة إلى درجة بعيدة. وفي هذا الجو الجديد، استطاعت الولايات المتحدة أن تستغل إمكاناتها الهائلة التي لم تلحق بها أضرار الحرب، واستفادت من تجربتها الفريدة في إدارة الأعمال بواسطة دائرة واسعة من المراكز الإدارية التنفيذية (بخلاف المركزية الإدارية)، وذلك المجال الهائل المكون من الولايات المتحدة وكندا، بالإضافة إلى تقدمها في تكنولوجيا الإعلام والاتصالات، بحيث استطاعت أن تنفذ إلى قلب مجتمعات أوربا أثناء إعادة بنائها على أساس مشروع مارشال Marshall's plan – نسبة إلى السياسي الأمريكي «جورج كاتليت مارشال» G. C. Marshall (١٨٨٠ – ١٩٥٩) – ومن خلال أوربا إلى المناطق التابعة في أسيا وإفريقيا، بينما راحت تؤكد سيطرتها على اقتصاديات الامتداد الجغرافي لها في أمريكا اللاتينية. ولقد كان هذا هو السبب في نشأة الشركات متعددة الجنسيات منذ عام ١٩٤٥، وانتشارها بشكل هائل في المنطقتين المركزية والتابعة خلال سنوات قلائل.

٣. من جهة أخرى أدى التطور الصناعي – العسكري للولايات المتحدة إلى دفع الثورة الصناعية إلى مرحلتها الثانية: مرحلة الثورة العلمية التكنولوجية. ومن قلب المؤسسة الصناعية – العسكرية الأمريكية تكونت بالتدريج مجموعة من الأفكار مؤداها أن الوقت قد حان لبسط سيطرة شاملة على كل معالم الحياة وقطاعات النشاط، وليس فقط على اقتصاديات الأقطار التابعة، بل إن الاستعمار اللاقهري المهيمن من واجبه أن يقدم المناهج التفصيلية لمختلف أنواع التنمية، كي يسيطر عليها بالتمويل والخبرة الفنية الظاهرية، بحيث يمكن أن يُبعدها عن أهداف التغيير الثوري للمجتمعات التابعة، ويقتل فيها تمامًا

كافة الطاقات التي يمكن توظيفها في إحداث تغيير شـامل للعالم. ومن هنا بدأت الولايات المتحدة تتبوأ مكانة الإمبراطورية المركزية في الغرب، وفي قطاعات كبيرة من العالم. ففي سنة ١٩٤٥ انتهت الحرب العالمية الثانية باحتلالها لألمانيا واليابان، وتمكنت من نشر قواعدها وقواتها وطرق اتصالاتها عبر غرب أوربا وجنوبها، وصولاً إلى اليونان وتركيا سنة ١٩٤٧. وهذا هو النظام الذي كرسه حلف الأطلنطي بقيادة أمريكية سنة ١٩٤٩. ثم دخلت الولايات المتحدة حربًا ضارية للسيطرة على كوريا لمدة ثلاثة أعوام بدءًا من سنة ١٩٥٠، كما تولت قيادة الحرب ضد الحركة الثورية في فيتنام منذ سنة ١٩٦٥ وحتى سنة ١٩٧٣. وقد تشعب التحرك والتدخل الأمريكي في شئون الدول الأخرى إلى درجة بعيدة وغير مسبوقة، ومن أمثلة ذلك: -

- القضاء على نظام الرئيس «آربينز» Jacobo Arbenz في جواتيمالا سنة ١٩٥٤.
- إنزال قوات حربية في لبنان للمرة الأولى سنة ١٩٥٨.
- محاولة غزو كوبا في خليج الخنازير.
- التدخل لفرض نظام حكم موال في زائير بعد خروج بلجيكا (١٩٦٠ – ١٩٦٤).
- تفكيك قواعد الصواريخ السوفيتية في كوبا سنة ١٩٦٢.
- قلب نظام الحكم في سان دمينجو سنة ١٩٦٤.
- القضاء على حكم «مصدق» الوطني في إيران وإعادة الشاه (١٩٥١ – ١٩٥٣).
- التدخل المتصل السياسي والاقتصادي والدبلوماسي والاستراتيجي في حروب إسرائيل ضد مصر وسوريا والأردن وحركة التحرير الفلسطينية ولبنان منذ سنة ١٩٤٨.
- سلسلة محاولات ضرب أنظمة الحكم الوطنية في العديد من بلدان القارات الثلاث، من قلب نكروما في غانا، مرورًا بتحطيم «سوكارنو» في إندونيسيا، وقلب نظام أليندي Allende في شيلي، إلى غزو جرينادا سنة ١٩٨٣.

ويمكن أن نضيف إلى ذلك:

- قيادة التحالف الدولي ضد العراق في حرب الخليج الثانية، ونشر القواعد العسكرية في دول الخليج العربي.
- التدخل العسكري بمعاونة حلف شمال الأطلنطي في يوغوسلافيا السابقة، ثم القبض على الرئيس الصربي «سلوبودان ميلوسوفيتش» وتسليمه إلى محكمة العدل الدولية في لاهاي لمحاكمته كمجرم حرب.
- قصف ليبيا ثم حصارها اقتصاديًا تذرعًا بحادثة لوكيربي، بالإضافة إلى حصار العراق والسودان، ثم حركة «طالبان» في أفغانستان.
- تصنيف الدول المختلفة ما بين دول صديقة وأخرى مارقة أو راعية للإرهاب، ومن هذه الأخيرة إيران والعراق وليبيا والسودان وكوريا الشمالية.
- قيادة التحالف الدولي مرة أخرى ضد أفغانستان لتصفية حركة طالبان وتنظيم القاعدة، وإقامة حكومة موالية تقبل العمل لصالحها في ظل الاحتلال.
- احتلال العراق – بزعامة دولية للمرة الثالثة – وتصفية نظام حكم الرئيس العراقي صدام حسين، ثم محاكمته وإعدامه في تحدٍ صارخ لمشاعر العالمين العربي والإسلامي، فضلاً عن بسط النفوذ الواسع في منطقة الشرق الأوسط وتوفير الحماية المجحفة للكيان الصهيوني.

هذا قليلٌ من كثيرٍ حدث في الماضي أو يُنتظر حدوثه في المستقبل.

هذه التحركات المتشعبة تعكس بوضوح ذلك الحلم الذي سيطر على عقول صانعي القرار الأمريكي خلال القرن العشرين: أعني تغيير العالم نحو هيمنة المركز الواحد. لكن هذا التغيير في نظر دعاة الهيمنة الأمريكية لا يكمن في السعي إلى إقامة نظام عالمي أكثر عدلاً ومساواة. وأنظمة من الانتاج والتوزيع السلعي أكثر إنسانية وأكثر حرصًا على سعادة الجماهير الواسعة في مختلف القارات، وإنما يعني إلغاء النظام العالمي غير الواقعي الذي يفترض أن مجموعة «الدول الوطنية»، وهي الوحدات التي تنتظم فيها حياة البشر، تُشكل مجموعة من

الوحدات المتساوية من حيث القانون الدولي، أي من حيث الحقوق والواجبات حسب ميثاق الأمم المتحدة. إن هذا النظام العالمي غير واقعي لأنه تتكّر لأولوية الاقتصاد التي جعلت من الولايات المتحدة الأمريكية الدولة الأولى من حيث الانتاج والاستهلاك والتبادل والتقدم العلمي والتقني والإعلامي، ومن ثم لابد من إعادة النظر في هذا النظام؛ لابد من إقامة نظام عالمي عادل بالمفهوم الأمريكي: العالمية الأمريكية الشمولية.

على الجانب النظري لم تكن الهوة واسعة بين ما يجري على أرض الواقع من جهة، وبين التوجهات السياسية والاقتصادية لقادة الفكر الأمريكي القرن العشرين من جهة أخرى، بل لقد كانت هذه التوجهات الفكرية بمثابة إذكاء للروح العدوانية المتنامية في الممارسة الدولية، وهي أيضًا قوة الدفع الرئيسة للهيمنة الأمريكية الشاملة التي ندعوها بالعولمة؛ ففي سنة ١٩٤٢ أصدر «نيكولاس جون سبيكمان» Nicholas J. Spykman (١٨٩٣ – ١٩٤٣) كتابًا شهيرًا – أصبح إنجيلاً للمفكرين السياسيين في الولايات المتحدة لفترة طويلة – عنوانه «*الاستراتيجية الأمريكية في السياسة الدولية: الولايات المتحدة وميزان القوة*» *America's Strategy in World Politics: The United States and the Balance of Power*، دعا فيه بصراحة إلى سيادة شريعة الغاب في السياسة الدولية، وقال بالنص: «إن المجتمع الدولي يسمح باستخدام كافة وسائل القهر والإكراه، بما فيها الحرب والتدمير. ومعنى ذلك أن الصراع من أجل القوة لا يختلف في شيء عن الصراع من أجل البقاء ... فالقوة تعني البقاء، وتعني القدرة على فرض إرادة دولة على الدول الأخرى، وقدرتها على إملاء شروطها على من يفتقرون إلى القوة، وعلى فرض تنازلات على من يملكون قوة أقل منها. وإذا كانت الحرب هي الصورة النهائية للصراع، فإن الكفاح من أجل القوة يُصبح كفاحًا من أجل القوة الحربية، من أجل الإعداد للحرب».

في الاتجاه ذاته، أكد الفيلسوف الأمريكي «جون ديوي» J. Dewey (١٨٥٩ – ١٩٥٢)، في كتابه «*قضايا البشر*»، على أن القوة أصبحت هي الأداة الوحيدة لحل المشاكل الاجتماعية، وأن الأغلبية الساحقة من الأمريكيين ترى أن طريق الأمن والاطمئنان هو وجود جيش أكبر وأسطول أضخم وزيادة متصلة في الانتاج الحربي. وقد كتب «ديوي» يقول:

«وبعبارة أخرى فإننا نحن أيضًا نعتقد بأن القوة، القوة المادية والعنف المباشر، هي في آخر الأمر أداة الارتكاز الرئيسة».

يتبنى «جيمس برنهام» James Burnham (١٩٠٥ – ١٩٨٧) الفكرة ذاتها في كتابه «*الكفاح للسيطرة على العالم*» *The Struggle for the World* (١٩٤٧)، حيث يقدم نظرية مؤداها أن السلام ليس هو هدف السياسة الخارجية، ولا يمكن أن يكون هدفها. ويدعو إلى رفض مبدأ المساواة بين الأمم وعدم التدخل في شؤونها الداخلية، وينادي بأن تعلن الولايات المتحدة صراحة سعيها إلى السيطرة على العالم.

لا شك أن هذه الأقوال إنما تستلهم أفكار «داروين» Charles Darwin (١٨٠٩ – ١٨٨٢) التطورية بعد أن أفرغتها من مضمونها العلمي؛ فبعد أن تجاوز الإنسان مرحلة الصراع الوجودي ضد منافسيه من الكائنات الحية الأخرى، لم يبق أمامه إلا الصراع ضد غيره من بني جنسه من أجل السيطرة والبقاء. وتلك نظرة ضخمتها الثقافة الإعلامية في المجتمع الأمريكي تعبيرًا عن طبيعة الإنسان وموروثاته الحيوانية، حتى لقد أصبح العدوان سمة أساسية من سمات الإنسان بصفة عامة، والأمريكي بصفة خاصة. ولا غرابة في أن يتخذ هذا العدوان – بمدلول القوة العلمية والاقتصادية – طابع المسؤولية الظاهرية تجاه العالم، وفي ذلك يكتب السياسي الأمريكي البارز «وليم فولبرايت» William Fulbright (١٩٠٥ – ١٩٩٥) قائلاً: «يبدو أن الإحساس بالمسؤولية نحو العالم يستهوي الأمريكيين، وأخشى أنه يدير

رؤوسنا*، تمامًا كما أدار الشعور بالمسئولية العالمية رؤوس الرومان القدامى، والإنجليز في القرن التاسع عشر، بالرغم مما يترتب على ذلك من نتائج خطيرة وغير مثمرة»، ثم يردف قائلاً: «ومما لا يُخطئه التقدير أن الولايات المتحدة قد أخذت تدريجيًا في إظهار دلائل غطرسة القوة التي أذلت وأضعفت أممًا عظيمة في الماضي، بل لقد سحقت بعضًا منها. وعندما نمارس ذلك نكون قد فقدنا قدرتنا وعهدنا في أن نضرب أمام العالم مثال الدولة المتحضرة، وقصورنا هو الذي يحفز الرجل الوطني إلى إبداء الاعتراض علينا لأن هذا واجبه».

بل إن «فولبرايت» ليكشف عن وجه أمريكا القبيح، مشيرًا إلى تلك الروح الصليبية التي سيطرت على الرئيس الأمريكي الأسبق «فرانكلين روزفلت» Franklin Roosevelt (١٨٨٢ – ١٩٤٥) بعد الهجوم الياباني على الأسطول الأمريكي في «بيرل هاربر» Pearl Harbor فيقول: «... حتى أن أحد المبادئ التاريخية الأمريكية، ألا وهو حرية البحار، والذي ذهبنا من أجله إلى الحرب في عامي ١٨١١، ١٩١٧ قد نُسي على الفور، كما نُسي معه الالتزام الصريح حسب معاهدة لندن البحرية في سنة ١٩٣٠ بعدم إغراق أية سفينة تجارية إلا بعد وضع ركابها وبحارتها ومستنداتها في مكان أمين. وخلال سبع ساعات من الهجوم الياباني صدرت الأوامر إلى كل السفن الأمريكية في الباسيفيك بأن تقوم بشن حرب بالطائرات والغواصات غير محدودة ضد اليابان، وأغرقت الغواصات الأمريكية

---

* يسوق «فولبرايت» في هذا الصدد قصة رجل الدين التبشيري الذي كان يحمل أهل الإسكيمو على اعتناق الدين المسيحي، وبعد أن عاد من مهمته تحدث إلى أحد أصدقائه قائلاً: «لعلك تعلم أننا مكثنا سنوات طويلة لا نستطيع خلالها أن نفعل شيئًا مع الإسكيمو، لأنهم كانوا قومًا بلا خطايا. ولقد كان علينا أن نعلمهم الخطيئة لفترة طويلة من الزمن قبل أن نستطيع مزاولة رسالتنا بينهم!». ويُعلِق «فولبرايت» على هذه القصة قائلاً: «يُذكرني ذلك بقصة الكشافين الثلاثة، الذين أخطروا رئيسهم بأن أفضل ما أدوه في يومهم أنهم ساعدوا سيدة عجوزًا في عبور الطريق. فقال لهم رئيسهم: هذا عظيم، ولكن لماذا اقتضى ذلك ثلاثتكم؟ فأجابوا بأنها لم تكن تريد أن تعبر الطريق!».

١٧٥٠ سفينة تجارية يابانية، وأودت بحياة ١٠٥ ألف من المدنيين بين عامي ١٩٤١ و١٩٤٥، وكم كان هذا الثمن فادحًا لحرية البحار».

وبصوت العقل الخافت يكشف «فولبرايت» عن أسباب الكراهية المتنامية تجاه الأمريكيين في بقاع شتى من الأرض، وهو ما يتغافل عنه صناع السياسة الأمريكية حاليًا، فيكتب قائلاً: «وعندما نستطيع نحن الأمريكيين أن نُسلِّم بسلوكنا العدواني في الماضي مثلما حدث في الحروب الهندية والحروب ضد المكسيك وإسبانيا – على سبيل المثال – فسوف يُتاح لنا الوقوف على أبعاد السلوك العدواني للآخرين، وعندما نستطيع أن نفهم المضامين الإنسانية التي تنبع من الهوة العميقة بين النفوذ الأمريكي والفقر الذي يصيب الجانب الأكبر من سائر البشرية، عند ذلك فقط سوف يتسنى لنا أن نفهم لماذا لا يلقى أسلوب الحياة الأمريكية – الذي يعز علينا كثيرًا – سوى استجابة محدودة من أغلبية الجنس البشري التي يدهمها الفقر، كما أنه لا يوحي لها إلا بالقليل من الدروس المستفادة» ... أليست هي إذن أمركة، وليست عولمة؟

(٩) زمن الأقزام!

- **٩ ديسمبر ٢٠١٠**

لم يحدث من قبل أن امتلك الإنسان مثيلاً لتلك القوة الإعلامية الهائلة التي يمتلكها اليوم، والتي تستطيع بإمكاناتها الهائلة أن تُعملق الأقزام – على حد تعبير مفكرنا الراحل زكي نجيب محمود – (أقزام الفكر لا أقزام الجسد)، لتعلو بهاماتهم القصيرة إلى مصاف من يُناط بهم إسداء النُصح، وإصدار القرارات، وتناول أمور العامة، وهو ما نبأنا به الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم بقوله: «سيأتي على الناس سنوات خدَّاعات يُصدّق فيها الكاذب ويُكذّب فيها الصادق ويُؤتمن فيها الخائن ويُخوَّن فيها الأمين وينطق فيها الرُويبضة». قيل وما الرويبضة يا رسول الله؟ قال «الرجل التافه ينطق في أمر العامة».

يكفي اليوم أن تكون صاحب مال (بغض النظر عن كيفية جمعك لهذا المال)، أو ممن يجيدون تقديم فروض الولاء والطاعة لأولي الأمر، أو حتى ممن يجيدون مداعبة مشاعر العامة واللعب على أوتار معاناتهم، لتجد الطريق ممهدًا أمامك إلى وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة، المرئية والإلكترونية (التي لا تخلو أيضًا من أقزامٍ تعملقوا من قبل)، ومن ثم تجد نفسك عملاقًا زائفًا من عمالقة هذا الزمان، تعتلي المناصب، وتُدلي بدلوك في أمورٍ لا تفقه فيها شيئًا، وتتجمل بزي العمالقة الذي تحيكه لك وسائل الإعلام، وإن ظللت تدرك حقيقة تقزمك في قرارة نفسك، أو لدي من يعرفونك عن قُرب! ولكي يسود الأقزام، فلابد من تقزيم العمالقة، وزحزحتهم إلى هامش الحياة، والطعن في إمكاناتهم، وتسفيه طموحاتهم. هكذا امتلأت حياتنا بأقزامٍ متعملقين في شتى المجالات: في الفكر والأدب ... في الثقافة والإعلام ... في العلم والدين ... في الاقتصاد والسياسة ... في الفن والرياضة ... الخ.

الأقزام في وطني يتوالدون، يتكاثرون، يُهللون لتوافه القضايا وسفاسف الأمور، ولأنهم أقزام تراهم على الملأ يتلاعنون، يتسربون كالجرذان من ثقوب الفساد، ويخططون لمزيد من برامج التخلف، ينقضون كالبعوض على أجساد ضحاياهم يمتصون دماءهم، فينشغل الناس عنهم بحك جلودهم؛ تراهم يتصدرون مسرح الأحداث، يُعلنون أنفسهم أبطالاً لتلك الرواية الهزلية المفزعة التي لا تنتهي فصولها؛ تلك التي يشاهدها المهمشون من العمالقة فيصابون بالغثيان، ويغتربون في أوطانهم، ما لديهم من شيء إلا بقايا أقلام تم تقصيفها، وبقايا أوراق تم تدنيسها، وبقايا عقول تم اختزالها وتحييدها؛ أو يغتربون خارج أوطانهم، فتتلقفهم دولٌ تعرف كيف تستثمر إبداعاتهم. لا عجب إذن أن تتقزم بناءاتنا وبرامجنا في مواجهة الآخرين حضاريًا؛ فهم بمعيار العلم والحرية عمالقة حقيقيون، ونحن بالمعيار ذاته أقزامٌ متعملقون! ولا عجب أن تتقزم أحلامنا على المستويين الخاص والعام؛ فأقصى ما يحلم به المواطن البسيط في وطني هو أن يشعر – ولو قليلاً – بآدميته! وأقصى ما

تحلم به أمتنا هو أن تُنعم عليها الأمم الأخرى بمنجزات حضـــــارتها! ولا عجب أن تُصـبح القزمية صـفةً منتخبة في مجتمعاتنا، فلقد ثلمت شـفرة الانتخاب الطبيعي لتُشحذ شفرة الانتخاب الهزلي الاصطناعي على رقاب العمالقة!

(١٠) حوار مع أنا!

- **٢٣ ديسمبر ٢٠١٠**

وضع أرسـطو قانون الهوية، القائل بأن الشـيء هو نفسـه (أ هو أ)، بوصـفه أول قوانين الفكر الأسـاسـية، مسـتوعبًا بذلك علاقة المساواة التي تبرر رد الرياضيات بأكملها إلى المنطق. وبلغة رياضـــية فإن (أ) = (أ)، طالما ظلت قيمة (أ) ثابتة. وقد ربط أرســطو هذا القانون بقانونين آخرين لا ينفصــلان عنه؛ هما قانون التناقض، القائل بأن الشـيء لا يمكن أن يكون هو وليس هو في وقتٍ واحد ومن جانب واحد: (أ) لا يمكن أن تكون (أ) وليس (أ) في الوقت ذاته، وقانون الثالث المرفوع أو الوسط الممتنع القائل بأن الشـيء إما أن يكون هو أو ليس هو، ولا ثالث بينهما: (أ) أو لا (أ). وكان السـؤال الأسـاسـي للفلاسـفة إزاء قانون الهوية هو التالي: هل الهوية علاقة بين ألفاظ أم بين أشياء؟ ولم تخرج إجاباتهم عن كونها علاقة بين ألفاظ، لأن الشـيء لا يمكن أن يحتفظ بهويته الواحدة من لحظة إلى أخرى، ولا توجد الماهيات الثابتة والأزلية إلا في عالم المثل؛ فكوكب الزهرة الذي رأيته مساء أمس ساطعًا في السـماء ليس هو ذات الكوكب الذي أراه صـباحًا؛ لقد تطايرت منه على الأقل ذرة تراب فانتقلت من مكان إلى آخر، ولم يعد ذات الكوكب؛ والشـــجرة التي رأيتها صـباحًا تظلل باب منزلي ليسـت هي ذات الشـجرة التي أراها ظهرًا، لقد تسـاقطت منها أوراق ونبتت أخرى فلم تعد ذات الشجرة. ولو نظرت إلى صورك التي تحتفظ بها عبر مراحل عمرك المختلفة لرأيت أشـــخاصـًا مختلفين عنك الآن تمامًا، أفكارهم مختلفة، وأشــكالهم مختلفة، وأحوالهم الصـحية مختلفة، وحتى آمالهم وتطلعاتهم

مختلفة! أنا منذ ثانية ليس أنا الآن، لقد ماتت في جسمي خلال هذه الثانية ١٢٥ مليون خلية، منها ما تجدد، ومنها ما افتقدته إلى الأبد.

هل يمكن إذن أن أكون أنا لست أنا بانطباعات الزمان على جسدي وفكري؟ أليس لي جوهرٌ ثابتٌ تتبدل عليه الأعراض من حين إلى آخر، ومن ثم لا أفقد هويتي الحقيقية؟ لقد وُلدت منذ سنوات خلت، وتعلمت وعلمت أنني هو أنا، ويعلم المحيطون بي أنني هو أنا، بل يستطيع العلم المعاصر أن يُثبت أن لي تركيبًا جينيًا وراثيًا يميزني عن غيري، وأن لي بصمات أصابع وبصمة صوت لا تتطابق مع بصمات غيري، وسيحاسبني ربي يوم العرض عليه بوصفي شخصًا واحدًا هو أنا؛ والشجرة التي تظلل باب منزلي هي ذات الشجرة التي أراها منذ سنوات، حقًا لقد تغيرت أعراضها، لكن جوهرها بالضرورة ثابت؛ وكوكب الزهرة المضيء مساءً وصباحًا هو ذات الكوكب الذي أراه كل يوم، قد تعتريه تغييرات عرضية، لكن جوهره قطعًا ثابت. ألسنا جميعًا نشترك في معرفة أن هذه الأشياء هي هي مهما تغيرت أعراضها؟

دعني أزيد الأمر تعقيدًا فأتساءل: هل يمكن أن أكون أنا لست أنا في اللحظة ذاتها؟ هل يمكن أن أكون أنا لست أنا لحظة كتابتي لهذه السطور؟

حملتني أفكاري إلى مرآتي. نظرت فيها فوجدتها تعكس نسخة متطابقة مني ... شخصًا أدرك أنه أنا. سألته: أليس أنت أنا؟ أجاب: كونك قد استخدمت ضمير المخاطب (أنت)، فهذا إقرارٌ منك أنك لست أنا! قلت: كيف؟ أنا أحرك ذراعي الأيسر إلى أعلى فتأتي بالحركة ذاتها وفي اللحظة ذاتها، وأمسك قدح الشاي بيدي اليمنى فتمسك بذات القدح بذات الشكل وفي ذات اللحظة. أنظر أليك وأتمتم فتنظر إلي وتتمتم بحركات متطابقة. أجابني مرة أخرى: لقد أخطأت الملاحظة والتقدير؛ لقد حركت ذراعك الأيسر لكني حركت ذراعي الأيمن، وأمسكت بقدح الشاي بيدك اليمنى لكني أمسكته بيدي اليسرى، ونظرت تجاه الجنوب

(تجاه المرآة)، لكني نظرت تجاه الشمال؛ أنا لست أنت، فسرها كما تشاء، عد إلى الواقع وتأمل، ستجد أنك أشخاصًا يجسدهم شخص واحد، أو قل شخصًا يحوي عدة أشخاص!

زادت كلماته من حيرتي، ألقيت عليه قدح الشاي فتحطمت مرآتي إلى قطعٍ عديدة، منها الكبير ومنها الصغير، جميعها تحوي نسخًا مني بمقاييس واتجاهات مختلفة. يا ويلي، أكل هؤلاء أنا؟ أتراهم أولئك الأشخاص الذين أحتويهم في شخصي كما أخبرتني مرآتي؟

عدت إلى مكتبي وأمسكت قلمي. سألته: ألست القلم الذي كنت أكتب به قبل قليل؟ أجاب في تحدٍ: لا، لست ذلك القلم، لقد استنفدت جزءًا من رصاصي وخشبي، وربما تستنفد ما بقي مني فتذوب هويتي في هوية أوراقك المتراكمة، تمامًا كما ذابت هوية الثمرة التي أكلتها في هوية جسدك.

حكوت للقلم حديث مرآتي، فقال: حدثتك مرآتك يا صديقي بالحق، وأنا شاهد عليك. أمسك بي، وعد إلى الخلف على مقعدك، استرخ وتأمل، وتحدث مع الآخرين بداخلك. لم ألبث أن فعلت، وما هي إلا لحظات قليلة حتى تدافع بداخلي أولئك الأشخاص – الذين هم أنا – يتسابقون إلى قلمي. قال أولهم: أكتب، فما لديك إلا القلم. قلت ماذا أكتب؟ قال أكتب عن زمانك بالحق؛ عن أمةٍ تعيش على أمجاد الماضي وتتسول الحاضر والمستقبل؛ عن أناسٍ يحيون على تراث أمواتهم ... غفلوا عن أنهم هم الأموات وأمواتهم أحياء؛ عن شعوب تموت صمتًا بسياط جلاديها ولا تصرخ إلا لتوافه الأمور؛ عن نظمٍ تقتل في رعاياها الكرامة ولا تدرك أن كرامة رعاياها من كرامتها، وأن حياتها مرهونة بحياتهم. أكتب عن تعليمٍ وإعلام يمتهن العقول فتستجيب، وعن شبابٍ فقدوا قدوتهم فتدثروا بدُثرٍ غريبة؛ عن أحزان أمٍ ثكلى وأبٍ مكلوم وطفل يعلو صراخه ... وما من مجيب.

وما أن هممت بالاعتدال والكتابة حتى أفزعني نداء الثاني في داخلي: لا تستمع إليه فتشقى، ولا تكتب ما أملاه عليك فتُصادر أوراقك ويُقصف قلمك؛ ماذا فعل الآخرون من قبلك؟ بل اطمس الحقيقة في عقلك وقلبك ... شوّه الواقع بقصورٍ من رمال تنتظر الرعية؛ وارسم لهم سرابًا يزين لهم القهر ويمنيهم بالعدالة والحرية ... أوهمهم بأن ممارسات النظام هي أزهى صور الشرعية والديموقراطية؛ وأن برامجه السياسية والاقتصادية والتعليمية هي السبيل الوحيد للسعادة والرفاهية. أكتب يا صديقي فأنا لك ناصحٌ أمين، ولا تلومنني إن سلكت طريق الأول فوجدت نفسك منبوذًا من سادة العصر اللعين. هنا تدخل الثالث صائحًا: بل اتبعني أنا وكن من الغافلين، فما شقاؤك إلا من جراء الكتابة، ألق هذا القلم ومزق الأوراق وعش حياة النعيم. كن كما يريدك النظام أن تكون؛ تافهًا ... ضائعًا ... جاهلاً، ودعك من هذا الجنون. لا تكتب يا صديقي ولا تسلك درب العاقلين، بل لا تنافق ولا تزيف فطريق الأول والثاني محفوف بالجحيم. تقافز الرابع والخامس والسادس .. نصائح تتداخل .. وصور تتلاحق .. أصوات يطعن بعضها بعضًا ... انتبهت على صوت المؤذن: حي على الفلاح. أدركت حينئذ أن صوت الحق يعلو ولا يعلو عليه، وأن الأمانة التي حملها الإنسان ظلمًا وجهلاً تقضي بأن أحدد في لحظة فاصلة من حياتي من أكون، وأن يحدد الأخرون من يكونون!

(١١) العربي التائه!

- <u>**١١ يناير ٢٠١١**</u>

بينما كنت منشغلاً بتأمل حالة التيه الحضاري والشرود الحياتي التي تكتنف العربي المعاصر، وقع بين يدي كتاب مؤرخنا المبدع «محمد حسنين هيكل»: «*العربي التائه*» – الصادر سنة ٢٠٠٢. ولم ألبث أن التهمت مقدمته بشغف تزيده أفكاري زخمًا، لاسيما وأنه يحمل ذات العنوان الذي كنت قد وضعته عنوانًا لمقالي هذا. وبغض النظر عن الوقائع التاريخية والسياسية التي يحفل بها الكتاب، والتي

تسعى إلى استشراف المستقبل العربي عبر دروب يكسوها الظلام الحالك، فقد وجدته معبرًا بقوة عما يجيش بداخلي من أفكار؛ أجل، فكلماته ترسم أحزاني، وعباراته تجسد قلقي، حتى لكأنه يقرأني ويكتبني! يقول «هيكل» في مقدمة كتابه: «مع بداية هذا القرن الجديد – القرن الحادي والعشرين – فإنه يبدو أن العربي أصبح هو التائه، وهو صدى بالمقلوب لتعبير شاع قبل ذلك قرونًا عن اليهودي التائه. وفي قرن سبق – وهو القرن العشرون – فإن ذلك اليهودي التائه وجد لنفسه مكانًا حط فيه رحله، وحصَّن موقعه. وفي الوقت ذاته فإن العربي اختلطت عليه الأمور ... وبدا وكأنه ضيَّع عالمه وفيه تراثه ومستقبله ... ثم إنه ارتحل بحاضره تائه بين الحقيقة والوهم. وبين الرؤية والسراب ... وبين الحلم والعجز. وهكذا بدأ القرن الحادي والعشرون واليهودي – الذي كان تائهًا – متحصنًا في المشروع الصهيوني على أرض فلسطين، في حين أن العربي الذي كان راسخًا في الطبيعة والتاريخ أصبح هو الشارد في التيه: قد يعرف من أين ... لكنه لا يعرف إلى أين!».

يشير هيكل في هذا النص إلى أسطورة اليهودي التائه، تلك الشخصية الخيالية التي تجسد رجلاً يهوديًا حُكم عليه بالتجوال الأبدي على ظهر الأرض عقابًا له على ضرب المسيح عليه السلام، فظل يهيم على وجهه في قفارها تواقًا للموت دون أن يناله. وهي أسطورة تقترب في وقائعها من أحداث قصَّها علينا القرآن الكريم في سورة المائدة (الآيات من ٢٠ إلى ٢٦)؛ حين طلب موسى عليه السلام من بني إسرائيل أن يفتحوا الأرض المقدسة جهادًا في سبيل الله، فأبوا هلعًا ممن فيها قائلين: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون»، فكان عقاب الله لهم بأن يتيهوا في الأرض أربعين سنة. تقترب الأسطورة أيضًا من الاعتقاد المسيحي بتشتت اليهود عقابًا لهم على قتل السيد المسيح، وكذلك من أسطورة أخرى لاحقة هي أسطورة الهولندي الطائر Flying Dutchman؛ وهي رواية فلكورية تتحدث عن سفينة أشباح كُتب عليها أن تُبحر إلى الأبد في المحيطات دون أن تعود إلى مرساها. ولا يخفى علينا الأثر

الذي خلفته هذه الأسطورة على أدبيات المشروع الصهيوني خلال الحقبة الحديثة والمعاصرة.

ورغم تمسك اليهود بصورة اليهودي التائه، وترويجهم لمعاناته تبريرًا لإقامة الكيان الصهيوني واغتصابهم للأراضي العربية كمعادٍ ومستقرٍ لهم، إلا أنهم أدركوا في الوقت ذاته أن التيه الحقيقي ليس تيهًا في المكان، إنما هو ذلك التيه العقلي والحضاري الذي يقذف بصاحبه في غيابات الجهل والتخلف، فإذا بهم يقرأون ويعملون وينتجون تجنبًا لهذا التيه. لقد أوجعهم وصف «فولتير» لهم في القرن الثامن عشر بأنهم شعبٌ عاطل عن الإبداع، فراحوا يخططون ويضيفون في شتى مناحي العلم والمعرفة، وفي شتى المجتمعات التي احتوتهم، بما في ذلك الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة. أما العربي المعاصر فقد ركن إلى مستقره غير واعٍ لما يحدق به من أطماعٍ وأخطار، وافتتن بإبداعات أجداده فظل منتشيًا بها دون إضافة أو استلهام لبواعثها، بل واطمئن إلى ما حباه الله به من مالٍ وثروات غير مدرك لحقيقة أن القوة الحقيقية هي قوة العقل لا قوة المال ...، فكان من الطبيعي أن يهيم على وجهه تائهًا بين الأمم: لقد بات تائهًا بين ماضيه وحاضره، وبين حاضره ومستقبله، بين سمائه وأرضه، وبين دينه ودنياه ... بين الاحتباس الحراري الناجم عن ممارسات الغرب التصنيعية، والاحتباس العقلي الناجم عن جهالات ولاته التخطيطية ... بين صفحات الإنترنت وشاشات الفضائيات وأرقام وتطبيقات الهواتف المحمولة، لا لاستثمار الوقت وتكثيف معارفه، وإنما لقتل الوقت وتشويه هويته؛ وعلى الإجمال: بات تائهًا على عتبات الغرب يتسول قيمه وبقاياه!

نعم، ألمت الغفوة بالعربي المعاصر، وأضناه التيه بعد حضارة دامت قرونًا، كان خلالها ملء السمع والبصر؛ عاد إلى جاهليته الأولى بعد أن أخرجه الإسلام من الظلمات إلى النور؛ عبد السلطة والمال وملذات الحياة فتخلف به ركب الحضارة، وأفلتت الريادة من بين يديه؛ قفز الآخرون من فوق أكتافه، فاكتفى بالانزواء في

ركنٍ بعيد منسيٍ من أركان الحضارة، لا يملك إلا اجترار الماضي المزهر لأسلافه، وأسلافه – إن بُعثوا – منه بُرءاء! تقرع آذانه أرقام الحقائق، وهو في سُباته القاتل غافل ومنعم بدفء الفساد!

لم يفطن العربي المعاصر إلى أن العلم والمعرفة هما الحد الفاصل بين المتبوع والتابع، الآمر والمطيع، الصانع والمستهلك، ولو تتبعنا المقارنات الإحصائية الصادرة عن المؤسسات والمراكز البحثية المعاصرة بيننا وبين الآخر، وبصفة خاصة اليهود، لوجدنا أنفسنا أمام أرقام تكشف عن حقائق مخيفة ترسم معالم المستقبل الذي ينتظرنا، وهي أرقام لا تستحي أن تُعلن عن نفسها بعد أن افتقدت عقولنا لقيمة الحياء من غفوتها، وتورات حُمرة خجلها خلف أسوار تخلفها؟

وقد لا تستقيم المقارنة بين العرب كقومية، واليهود كقوميات مختلفة، بل تصبح أكثر منطقية إذا اتسع مجالها لتشمل كافة المسلمين من جهة، واليهود من جهة أخرى، وهنا علينا أن نضع في اعتبارنا أمرين: الأول أن غير المسلمين من العرب هم جزءٌ لا يتجزأ من الكيان العربي عمومًا؛ لهم ما له وعليهم ما عليه، طالما كانوا يعيشون في كنفه وينطقون بلغته، والأمر الثاني أن غير العرب من المسلمين – على كثرتهم وتعدد فرقهم – لا يقلوا عنه تيهًا بالمنظور الحضاري المعاصر، وإن كانت ثمة صحوات لديهم – جديرة بالاعتبار – لم تصل بعد إلى حد النهضة الشاملة. هيا إذن إلى نماذج من هذه المقارنات.

- حجم وتوزيع المسلمين – والعرب – واليهود على مستوى العالم:

في تقرير ديموغرافي عن حجم وتوزيع سكان العالم الإسلامي، أصدره منتدى بيو الأمريكي – المتخصص في شئون الدين والحياة العامة The Pew Forum on Religion & Public Life في أكتوبر من سنة ٢٠٠٩، بلغ عدد المسلمين على مستوي العالم ١,٥٧ مليار مسلم – ١٥٧٠ مليون مسلم – وهو ما يمثل ٢٣٪ من سكان العالم البالغ عددهم ٦,٨ مليار شخص. ويتواجد المسلمون في كل قارات

العالم، غير أن كثافتهم تزداد في قارة آسـيا، إذ تبلغ نسـبتهم حوالي ٦٠٪ من إجمالي العدد السابق، بينما يعيش حوالي ٢٠٪ منهم في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. ومع ذلك تحتوي منطقة الشرق الأوسط على النسبة المئوية الأعلى للبلدان التي يشكل فيها المسلمون غالبية السكان؛ إذ يشكل المسلمون في أغلب هذه الدول ما نسبته ٩٥٪ من تعداد مواطنيها. من جهة أخرى يعيش أكثر من ٣٠٠ مليون مسلم في دول لا يُعتبر الإسلام دينًا للأغلبية العظمى من سكانها؛ فعلى سبيل المثال تحتوي الهند على ثالث أكبر عدد من المسلمين في العالم، ويوجد في الصين مسلمون يزيد عددهم عن عدد المسلمين في سوريا، كما يوجد في روسيا مسلمون يزيد عددهم عن عدد المسلمين في كل من الأردن وليبيا معًا. ويشكل المسلمون الشيعة نسبة تتراوح ما بين ١٠٪ إلى ١٣٪ من إجمالي عدد المسلمين، بينما يشكل المسلمون السُنة نسبة تتراوح ما بين ٨٧٪ إلى ٩٠٪، ويعيش معظم الشيعة – من ٦٨٪ إلى ٨٠٪ – في أربع دول فقط هي إيران وباكستان والهند والعراق.

أما تعداد العرب على مستوى العالم فيبلغ وفقًا للتقديرات الرسمية لسنة ٢٠٠٧ حوالي ٣٣٨,٦٢١,٤٦٩ نسمة، ويزداد عددهم وفقًا للتقديرات غير الرسمية لسنة ٢٠١٠ إلى حوالي ٤٠٠ مليون نسمة، أي أنهم يشكلون تقريبًا ما نسبته ٢٥,٤٧٪ من عدد المسلمين اليوم. وأما تعداد اليهود وفقًا لتقرير صدر عن الجامعة العبرية بالقدس في نوفمبر ٢٠١٠ فيبلغ ١٣,٤ مليون نسمة يعيشون في عشرات المجتمعات في جميع أنحاء العالم، ويوجد معظمهم في إسرائيل – أكثر من ٥,٧ مليون نسمة – تليها الولايات المتحدة – ٥,٣ مليون نسمة. وبحسبة بسيطة نجد أنه يوجد ١١٧ مسلم تقريبًا في مقابل كل يهودي على مستوى العالم، ويوجد ثلاثون عربي تقريبًا في مقابل كل يهودي.

مع ذلك تشير التقارير الدولية إلى تفوق اليهود على المسلمين – والعرب – علميًا وتكنولوجيًا، بل وفي مدى الإسهام في الجوانب المختلفة للحضارة الإنسانية منذ

بدايات العصر الحديث وحتى الآن، الأمر الذي يطرح بقوة التساؤل عن الأسباب التي تهاوت بالعالم العربي إلى هذا الدرك من التخلف، ومدى إسهام الحكومات وصناع القرار في العالم العربي في تعميق هذا التهاوي أو تدشين سبل علاجه.

المعلومات الواردة أدناه مستقاة من عدة مواقع وموسوعات بشبكة الإنترنت، وقد نقلتها إلى العربية مع استكمال وتهذيب، وهي قليل من كثير، لعلها توقظ فينا شيئًا.

أولاً: يهود من أبرز محركي التاريخ في الحقبة الحديثة والمعاصرة:

- آلبرت آينشتين Albert Einstein (١٨٧٩ – ١٩٥٥).
- سيجموند فرويد Sigmund Freud (١٨٥٦ – ١٩٣٩).
- كارل ماركس Karl Marx (١٨١٨ – ١٨٨٣).
- عالم الاقتصاد الأمريكي بول أنتوني ساموليسون Paul Samuelson (١٩١٥ – ٢٠٠٩).
- عالم الاقتصاد الأمريكي ميلتون فريدمان Milton Friedman (١٩١٢ – ٢٠٠٦).

ثانيًا: أعلام من اليهود في مجال الطب:

- مخترع حقن التطعيم Vaccinating Needle الميكروبيولوجي الأمريكي بنجامين روبين Benjamin Ruben (١٩١٧ – ٢٠١٠).
- مكتشف لقاح شلل الأطفال Polio Vaccine الطبيب وعالم الفيروسات الأمريكي جوناس سالك Jonas Salk (١٩١٤ – ١٩٩٥).
- مكتشف عقار علاج اللوكيميا (سرطان الدم) Leukaemia Drug الأمريكي جيرترود إليون Gertrude Elion (١٩١٨ – ١٩٩٩).

- مكتشف المادة التي أدت إلى اكتشاف اللقاح المضاد لمرض التهاب الكبد الوبائي ب Hepatitis B الأمريكي باروخ بلومبرج Baruch Blumberg (١٩٢٥ – ٢٠١١).
- مكتشف عقار علاج مرض الزهري – السيلان – Syphilis Drug الألماني بول إيرليك Paul Ehrlich (١٨٥٤ – ١٩١٥).
- مكتشف العقد العصبية العضلية Neuromuscular transmission الألماني برنارد كاتز Bernard Katz (١٩١١ – ٢٠٠٣).
- أبرز علماء جهاز المناعة والأمراض المعدية Infectious diseases الأوكراني إيلي ميتشنيكوف Elie Metchnikoff (١٨٤٥ – ١٩١٦).
- عالم الغدد الصماء Endocrinology الأمريكي – البولندي المولد أندرو شالي Andrew Schally المولود سنة ١٩٢٦.
- أبو العلاج السلوكي الإدراكي Cognitive therapy الأمريكي آرون بيك Aaron Beck المولود سنة ١٩٢١.
- مخترع حبوب منع الحمل Contraceptive Pill الأمريكي جريجوري بينكوس Gregory Pincus (١٩٠٣ – ١٩٦٧).
- مكتشف أن فيتامين أ مكون أساسي من مكونات شبكية العين Understanding of Human Eye، الأمريكي جورج فالد G. Wald (١٩٠٦ – ١٩٩٧).
- عالم الأجنة Embryology الأمريكي ستانلي كوهين Stanley Cohen المولود سنة ١٩٢٢.
- مخترع جهاز غسيل الكلي Kidney Dialysis الهولندي وليام كولف Willem Kolff (١٩١١ – ٢٠٠٩).

ثالثًا: مخترعون يهود غيروا مجرى التاريخ:

- المهندس الأمريكي ستانلي ميزور Stanley Mazor المولود سنة ١٩٤١: تصميم رقاقة العمليات متناهية الصغر (الميكروبروسيسور).
- الفيزيائي المجري ليو زيلارد Leo Szilard (١٨٩٨ – ١٩٦٤): مكتشف التفاعل النووي المتسلسل.
- الأمريكي بيتر شولتز Peter Schultz المولود سنة ١٩٤٢: مكتشف الألياف البصرية – المستخدمة في نقل الإشارات الضوئية لمسافات بعيدة جدًا.
- المهندس الأمريكي تشارلز أدلرCharles Adler (١٨٩٩ – ١٩٨٠): مخترع أول إشارة مرور ضوئية حديثة.
- الألماني بينو شتراوس Benno Strauss (١٨٧٣ – ١٩٤٤): مخترع الفولاذ المقاوم للصدأ.
- الأمريكي (النمسوي الأصل) إزادور كيتسي Isador Kisee (١٨٤٥ – ١٩٣١): مخترع أفلام الصوت (السينما الناطقة).
- الأمريكي – الألماني الأصل إميل برلينر Emile Berliner (١٨٥١ – ١٩٢٩): مخترع ميكروفون الهاتف.
- الأمريكي تشارلز جينسبرغ Charles Ginsburg (١٩٢٠ – ١٩٩٢): مخترع مسجل الفيديو.
- المجري لازلو بيرو Lazlo Biro (١٨٩٩– ١٩٨٥): مخترع قلم الحبر الجاف.
- الأمريكي – النمسوي روبرت أدلر Robert Adler (١٩١٣ – ٢٠٠٧): مخترع الريموت كنترول.

رابعًا: يهود بارزون في مجال التجارة العالمية المؤثرة:

- مصمم الأزياء الأمريكي رالف رولين Ralph Lauren المولود سنة ١٩٣٩: ملابس بولو Polo.

- رجل الأعمال الألماني – الأمريكي ليفي شـــــتراوس Levi Strauss (١٨٢٩ – ١٩٠٢): ملابس جينز ليفي Levi's Jeans.
- رجل الأعمال الأمريكي هوارد شـولتز Howard Schultz المولود سـنة ١٩٥٣: شركة المقاهي الأمريكية ستاربكس Starbucks – أكثر من ١٦،٢٢٦ فرعًا حول العالم.
- عالم الحاسـوب الأمريكي – السـوفيتي الأصـل سـيرجي برين Sergey Brin المولود سنة ١٩٧٣: جوجل Google.
- رجل الأعمال الأمريكي مايكل ديل Michael Dell المولود سـنة ١٩٦٥: أجهزة حاسوب ماركة ديل Dell Computers.
- مصممة الأزياء الأمريكيـــــة دونا كاران Donna Karan المولودة سنة ١٩٤٨: أزياء دكني DKNY.
- رجل الأعمال الأمريكي لاري إليســــــون Larry Ellison المولود سنة ١٩٤٤: أوراكل لتقنية المعلومات وقواعد البيانات Oracle.
- رجل الأعمال الأمريكي – الكندي إرفن روبنز Irvine Robbins (١٩١٧ – ٢٠٠٨): أيس كريم باسكن روبنز Baskin & Robbins.
- رجل الأعمال الأمريكي وليام روزنبرج William Rosenberg (١٩١٦ – ٢٠٠٢): شركة دانكن دونتس للقهوة والمخبوزات Dunkin Donuts.
- كبرى الشركات اليهودية العابرة للقارات: كوكاكولا.

خامسًا: أعلام من اليهود في مجال الفلسفة:

- البريطاني – الاسترالي المولد صمويل ألكسندر Samuel Alexander (١٨٥٩ – ١٩٣٨).
- الفرنسي رايموند آرون Raymond Aron (١٩٠٥ – ١٩٨٣).
- الألماني والتر بنيامين Walter Benjamin (١٨٩٢ – ١٩٤٠).

- الألماني هيرمان كوهن Hermann Cohen (١٨٤٢ – ١٩١٨).
- الفرنسي -الجزائري المولد جاك دريدا Jacques Derrida (١٩٣٠ – ٢٠٠٤).
- الأمريكي تشارلز فرانكل Charles Frankel (١٩١٧ – ١٩٧٩).
- الألماني إدموند هوسرل Edmund Husserl (١٨٥٩ – ١٩٣٨).
- البريطاني ستيفان كورنر Stephan Körner (١٩١٣ – ٢٠٠٠).
- الأمريكي شاول كريبك Saul Kripke المولود سنة ١٩٤٠.
- الأمريكي توماس كون Thomas Kuhn (١٩٢٢ – ١٩٩٦).
- الألماني إمري لاكاتوس Imre Lakatos (١٩٢٢ – ١٩٧٤).
- البولندية روزا لوكسمبرج Rosa Luxemburg (١٨٧١ – ١٩١٩).
- الأمريكي هربرت ماركيوز Herbert Marcuse (١٨٩٨ – ١٩٧٩).
- الأمريكي التشيكي إرنست ناجل Ernest Nagel (١٩٠١ – ١٩٨٥).
- النمسوي كارل بوبر Karl Popper (١٩٠٢ – ١٩٩٤).
- الأمريكي هيلاري بوتنام Hilary Putnam (١٩٢٦ – ٢٠١٦).
- الأمريكي البريطاني ماكس بلاك Max Black (١٩٠٩ – ١٩٨٨).
- الأمريكي نيد بلوك Ned Block المولود سنة ١٩٤٢.
- الفرنسي إدجار مورين Edgar Morin المولود سنة ١٩٢١.
- الألماني إريك فروم Erich Fromm (١٩٠٠ – ١٩٨٠).

سادسًا: سياسيون ومفكرون يهود بارزون:

- الدبلوماسي والسياسي الأمريكي – الألماني المولد هنري كيسنجر Henry Kissinger المولود سنة ١٩٢٣.
- الاقتصادي الأمريكي، رئيس جامعة ييل الأمريكية ريتشارد ليفين Richard Levin المولود سنة ١٩٤٧.

- الاقتصـــــادي الأمريكي، رئيس مجلس المحافظين للنظام الاحتياطي الفدرالي الأمريكي ألان جرينسبان Alan Greenspan المولود سنة ١٩٢٦.
- السيناتور الأمريكي جوزيف ليبرمان Joseph Lieberman المولود سنة ١٩٤٢.
- وزيرة الخارجية الأمريكية الســـــابقة مادلين أولبرت Madeleine Albright المولودة سنة ١٩٣٧.
- وزير الدفاع الأمريكي الأسبق كاسبر واينبرجر Casper Weinberger (١٩١٧ – ٢٠٠٦).
- الدبلوماسي والسياسي السوفيتي ماكسيم ليتفينوف Maxim Litvinov (١٨٧٦ – ١٩٥١).
- أول رئيس وزراء لسنغافورة ديفيد مارشال David Marshal (١٩٠٨ – ١٩٩٥).
- القاضـي والسـياسـي الاسـترالي، الحاكم العام التاسـع لكومنويلث اسـتراليا إيزاك ألفرد إيزاك Isaacs Isaacs (١٨٥٥ – ١٩٤٨).
- رجل الدولة البريطاني بنيامين دزرائيلي Benjamin Disraeli (١٨٠٤ – ١٨٨١).
- الســياســي والدبلوماســي الروســي يفغيني بريماكوف Yevgeny Primakov (١٩٢٩ – ٢٠١٥).
- السيناتور الأمريكي باري جولدووتر Barry Goldwater (١٩٠٩ – ١٩٩٨).
- الرئيس البرتغالي خروخي سامبايو Jorge Sampaio المولود سنة ١٩٣٩.
- الســياســي الكندي، أول وزير يهودي بالحكومة الفيدرالية الكندية هربرت غراي Herb Gray (١٩٣١ – ٢٠١٤).
- السياسي الفرنسي، رئيس الوزراء الأسبق بيير منديس Pierre Mendes (١٩٠٧ – ١٩٨٢).
- الســـــياســـــي البريطاني، الرئيس الســـــابق لحزب المحافظين مايكل هوارد Michael Howard المولود سنة ١٩٤١.

- المستشار النمسوي السابق برونو كرياسكي Bruno Kreisky (١٩١١ – ١٩٩٠).
- وزير الخزانة الأمريكي الأسبق روبرت روبين Robert Rubin المولود سنة ١٩٣٨.

سابعًا: إعلاميون يهود بارزون:

- الصحفي الأمريكي ولف بليتزر Wolf Blitzer المولود سنة ١٩٤٨: السي إن إن CNN.
- الإعلامية الأمريكية باربارا والترز Barbara Walters المولودة سنة ١٩٢٩: شبكة إيه بي سي نيوز ABC News.
- الإعلامية والخبيرة المالية الأمريكية يوجين ماير Eugene Meyer (١٨٧٥ – ١٩٥٩): واشنطن بوست Washington Post.
- الإعلامي والدبلوماسي الأمريكي -النمسوي المولد هنري جرونوالد Henry Grunwald (١٩٢٢ – ٢٠٠٥): مجلة تايم Time Magazine.
- الإعلامية الأمريكية كاترين جراهام Katherine Graham (١٩١٧ – ٢٠٠١): واشنطن بوست Washington Post.
- الإعلامي الأمريكي جوزيف ليليفيلد Joseph Lelyveld المولود سنة ١٩٣٧: نيويورك تايمز New York Times.
- الإعلامي الأمريكي -الألماني المولد ماكس فرانكل Max Frankel المولود سنة ١٩٣٠: نيويورك تايمز New York Times.

ثامنًا: يهود ناشطون في مجال خدمة المجتمع:

- رجل الأعمال والناشط السياسي الأمريكي – المجري جورج سورس George Soros المولود سنة ١٩٣٠: رئيس مجلس إدارة صندوق سورس ومعهد المجتمع المفتوح، والعضو السابق في مجلس العلاقات الخارجية.

- الدبلوماسي الأمريكي والتر أننبرج Walter Annenberg (١٩٠٨ – ٢٠٠٢): تبرع بما يزيد على اثنين مليار دولار للنهوض بالتعليم والحياة الثقافية في أمريكا، العديد من الأبنية المدرسية والمكتبات العامة والمسارح والمستشفيات والمتاحف في جميع أنحاء الولايات المتحدة الأن تحمل اسمه.

تاسعًا: جائزة نوبل Nobel Prize:

منذ انطلاق جائزة نوبل سنة ١٩٠١، وخلال السنوات الـ ١٠٩ الماضية، فاز (١٨٠) يهودي بجائزة نوبل، بما يمثل نسبة ٢٢٪ من الفائزين بالجائزة على مستوى العالم، ونسبة ٣٦٪ من الفائزين بالجائزة في الولايات المتحدة الأمريكية: (٣١) في مجال الكيمياء، (٢٧) في مجال الاقتصاد، (١٣) في مجال الأدب، (٩) في مجال السلام العالمي، (٤٧) في مجال الفيزياء، (٥٣) في مجال الفسيولوجيا أو الطب.

أما على مستوى العالم العربي الإسلامي، فمن بين ١,٥ مليار مسلم وعربي، فاز (١٢) فقط بجائزة نوبل، منهم ثلاثة ينتمون للديانة المسيحية:

- (٥) في مجال السلام: محمد أنور السادات: مصري: ١٩٧٨ & ياسر عرفات: فلسطيني: ١٩٩٤ & شيرين عبادي: إيرانية: ٢٠٠٣ & محمد البرادعي: مصري: ٢٠٠٥ & محمد يونس بنغلاديشي: ٢٠٠٦.
- (٢) في مجال الآدب: نجيب محفوظ: مصري: ١٩٨٨ & أورهان باموق: تركي: ٢٠٠٦.
- (٢) في مجال الطب: فريد مورا: مسيحي برازيلي من أ صل لبناني: ١٩٦٠ & بيتر مدور: مسيحي بريطاني من أصل لبناني: ١٩٦٠.
- (١) في مجال الفيزياء: محمد عبد السلام: باكستاني: ١٩٧٩.
- (٢) في مجال الكيمياء: إلياس جيمس كوري: مسيحي أمريكي من أصل لبناني: ١٩٩٠ & أحمد زويل: مصري: ١٩٩٩.

قد يعترض البعض بأن ثمة العديد من علماء العرب والمسلمين الذين أ سهموا بالمثل في مسيرة الحضارة الإنسانية، سواء إبان مرحلة النهضة العربية الإسلامية الممتدة زمنيًا من القرن الثامن بعد الميلاد وحتى العصر الحديث، أو في مرحلتنا الراهنة، لكن هذا الاعتراض مردود عليه أولاً بأننا قد حصرنا الفترة الزمنية في الحقبة الحديثة والمعاصرة، أي بعد أن أفلت شمس التفوق العربي الإسلامي التي بعثها الإسلام؛ ومردود عليه ثانيًا بأن هؤلاء العلماء العرب قد عانوا في مجتمعاتهم مثلما نعاني نحن الآن، ولولا هجرتهم إلى الغرب لما ظهرت إبداعاتهم، ولكان أقصى ما يحلمون به هو موطأ قدم في مؤسسات بحثية تحكمها البيروقراطية والتسلقية العربية العفنة، وهو ما عبر عنه الدكتور فاروق الباز قائلاً: «لقد فشل جيلي فشلاً ذريعًا في تحقيق أي من آمال الشعب العربي. لقد تعملنا في مدارس جيدة وجامعات جيدة، وليست سيئة مثل مؤسسات اليوم. لكننا وضعنا ثقتنا حينذاك في مؤسسات خاوية وخربانة!».

أما اليهود – على مستوى العالم – فقد تحصنوا بالمشروع الصهيوني، ورغم تشتتهم في كافة المجتمعات الغربية – بغض النظر عن الكيان الصهيوني – إلا أنهم نجحوا في ترتيب أولوياتهم الحياتية ليضعوا البحث العلمي في المرتبة الأولي. كل ما نستطيع قوله في هذا الصدد هو أن اليهودية كدين ليست مسؤولة عن تفوق أتباعها، كما أن الإسلام كدين ليس مسئولاً عن تخلف العرب، إنما هي مجموعة العوامل السياسية والاجتماعية اللاعقلانية التي تنحر في الجسد العربي دون هوادة.

وحتى لو ضيقنا نطاق المقارنة لتنحصر فقط بين العرب وإسرائيل لأفزعتنا الإحصائيات والأرقام المعلنة، وهو ما توضحه القائمة التالية:

– في تقرير أعده الجهاز المركزي للمحاسبات بمصر عن تصنيف الجامعات المصرية والعربية العام ٢٠١٠، كشف التقرير عن أن القائمة العالمية قد أشارت إلى أفضل ستين بحث علمي في منطقة الشرق الأوسط وأفريقيا، لكن للأسف

ليس من بينها بحثًا مصريًا واحدًا ، في الوقت الذي ضمت القائمة سبعة وأربعين بحثًا إسرائيليًا ، وسبعة أبحاث من جنوب أفريقيا ، وقد دخلت السعودية بأربعة أبحاث لكن لباحثين أجانب! من جهة أخرى أصدر الدكتور خالد سعيد ربايعة ، وهو باحث فلسطيني من مركز أبحاث المعلوماتية في الجامعة العربية الأمريكية في الأراضي الفلسطينية ، دراسة مقارنة حول البحث العلمي في كل من إسرائيل وكافة الدول العربية (٢٠١١)، أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك بأن إسرائيل تتفوق بشكل كبير وملحوظ على كافة الدول العربية ، وذلك وفقًا للأرقام التالية:

- حظيت الجامعات الإسرائيلية بمراكز متقدمة على المستوى العالمي حسب التصنيفات الدولية لسنة ٢٠٠٩ ، وخاصة الجامعة العبرية التي احتلت المركز الرابع والستين على مستوى العالم ، بينما لم يرد ذكر أي من الجامعات العربية في الخمسمائة جامعة الأولى. أما في سنة ٢٠١٠ فقد حظيت ثلاث جامعات سعودية بالمراكز ١٦٤؛ ١٧٨؛ ٢٩١ على التوالي، ورغم ذلك ظلت الجامعة العبرية بالقدس متقدمة على كافة الجامعات العربية، حيث احتلت المركز ١٥٢.
- فاز تسعة علماء إسرائيليون بجائزة نوبل من بين الحاصلين عليها من اليهود ، بينما يختفي دور العرب غير المهاجرين تمامًا ، اللهم إلا الذين فازوا بها لدوافع سياسية أو أدبية.
- تنفق اسرائيل على البحث العلمي ضعف ما ينفق في العالم العربي، حيث بلغ مجموع ما أنفق في إسرائيل على البحث العلمي غير العسكري ما يعادل حوالي تسعة مليارات دولار حسب معطيات ٢٠٠٨. وبعبارة أخرى، تنفق اسرائيل ما مقداره ٤,٧٪ من انتاجها القومي على البحث العلمي، وهذا يمثل أعلى نسبة إنفاق

في العالم، بينما تنفق الدول العربية ما مقداره ٠,٢٪ من دخلها القومي والدول العربية في آسيا تنفق فقط ٠,١٪ من دخلها القومي على البحث العلمي.

- بالنسبة لعدد العلماء، تذكر مصادر اليونسكو أن هناك حوالي ١٢٤ ألف باحث عربي، بينما تم تقدير عدد العلماء والباحثين الإسرائيليين بحوالي ٢٤ ألفاً، وأفادت مصادر أخرى بوجود حوالي تسعين ألف عالم ومهندس يعملون في البحث العلمي وتصنيع التكنولوجيا المتقدمة خاصة الإلكترونيات الدقيقة والتكنولوجيا الحيوية.
- أما بالنسبة لبراءات الاختراع، فهي المؤشر الأكثر تبايناً بين العرب وإسرائيل، فقد سجلت إسرائيل ما مقداره ١٦٨٠٥ براءة اختراع، بينما سجل العرب مجتمعين حوالي ٨٣٦ براءة اختراع في كل تاريخ حياتهم، وهو يمثل ٥٪ من عدد براءات الاختراع المسجلة في إسرائيل. وتفيد تقارير اليونسكو كذلك أن عدد براءات الاختراع التي سجلت في إسرائيل في العام ٢٠٠٨، والتي تبلغ ١١٦٦ براءة اختراع، تفوق ما أنتجه العرب بتاريخ حياتهم وهو ٨٣٦ براءة اختراع.
- أما بالنسبة للمؤلفات والكتب المنشورة، فقد أفادت أيضاً المعطيات المتوافرة إلى أنه في إسرائيل تم تأليف ونشر ٦٨٦٦ كتاباً، بينما يؤلف العرب ما يقدر بـ ١٠,٠٠٠ كتاب سنوياً. أما بالنسبة لنشر الأبحاث العلمية في المجلات المحكمة فقد نشر الباحثون الإسرائيليون ١٣٨,٨٨١ بحثاً مُحكَّماً، ونشر العرب حوالي ١٤٠,٠٠٠ بحث. وعلى الرغم من أن عدد الأبحاث متقارب، إلا أن جودة ونوعية الأبحاث الإسرائيلية أعلى بكثير من الأبحاث العربية، وهذا يمكن الاستدلال عليه من عدد الاقتباسات لتلك الأبحاث ومعامل H الذي يعبر عن مدى إنتاجية دولة معينة للعلوم ومدى تأثير تلك العلوم على المعرفة الانسانية.

- بلغ عدد الاقتباسات للأبحاث العربية ما مقداره ٦٢٠,٠٠٠ اقتباس، بينما بلغ عدد اقتباسات الأبحاث الاسرائيلية ١,٧٢١,٧٣٥ اقتباسًا، وبلغ معامل الفعالية H لإسرائيل ٢٩٣ وبلغ بالمعدل للدول العربية حوالي ٤٠.
- يبلغ متوسط عدد الباحثين إلى عدد السكان في العالم العربي حوالي ٣٨٠ باحث لكل مليون شخص عربي، وهذا على اعتبار أن حاملي شهادات الدكتوراه والمدرسين في الجامعات محسوبون كباحثين. بينما تبلغ تلك النسبة حوالي ٤٠٠٠ باحث لكل مليون شخص في الولايات المتحدة الامريكية. ويبلغ هذا المؤشر حوالي ٤٩٩ باحث لكل مليون شخص في الدول النامية، و٣٥٩٨ باحث لكل مليون شخص في الدول المتقدمة. أي أن نسبة الباحثين العرب الى عدد السكان هي الادنى في كل دول العالم. أما من حيث عدد الباحثين في اسرائيل فتقرير اليونسكو لم يذكره بالتحديد بشكل صريح، لكنه أشار إلى أن نسبتهم بالنسبة لدول العالم هي حوالي ٠,٤٪، وعند الاخذ بعين الاعتبار أن عدد الباحثين في العالم يقدر بحوالي ٧,٠٩٣,٦٠٠ باحث، يتبين أن عدد الباحثين الإسرائيليين يقدر بـ ٢٨,٣٧٤ باحث. والدول العربية مجتمعة حسب تقرير اليونسكو يبلغ عدد الباحثين فيها ما مقداره ١٢٤,٠٠٠ باحث، وهذا يمثل ما مقداره حوالي ١,٨٪ من عدد الباحثين في العالم.
- بالنسبة لنصيب الفرد من الإنفاق على البحث العلمي، احتلت إسرائيل المرتبة الأولى عالميًا بواقع ١٢٧٢,٨ دولار، وجاءت في المرتبة الثانية الولايات المتحدة الامريكية وأنفقت حوالي ١٢٠٥,٩ دولار، وثالثًا جاءت اليابان بواقع ١١٥٣,٣ دولار. أما الدول العربية فقد جاءت أقل من إسرائيل بمائة مرة من حيث نصيب الفرد من الإنفاق على البحث العلمي، حيث أنفقت ما معدله ١٤,٧ دولار سنويًا على الفرد، والدول العربية الموجودة في أسيا بما فيها الدول النفطية الغنية كان

نصيب الفرد ١١,٩ دولار، وهو ما يساوي ما تنفقه الدول الأفريقية التي تصنف بالفقيرة جدًا، وقد بلغ نصيب الفرد فيها ما مقداره ٩,٤ دولار.

بإمكاننا أيضًا أن نشير إلى معدل القراءة للمواطن العربي، الذي يقرأ وفقًا لتقرير اليونسكو لعام ٢٠١٠ ربع صفحة سنويًا، أو إلى نوعية الكتب المقروءة، التي تأتي كتب الطبخ والجنس والتراث في مقدمتها، أو إلى كيفية استخدام الإنترنت في العالم العربي، والتي تحتل فيها دوافع الترفيه وقتل الوقت المرتبة الأولى. بإمكاننا كذلك أن نشير إلى مستوى الصحافة، حيث تشير إحصائيات سنة ١٩٩٧ إلى أن هناك أربع عشرة صحيفة لكل ألف مواطن في مصر، وثماني صحف في الأردن، وخمس صحف في عمان، و١٥٠٩ في الولايات المتحدة، أما على صعيد الترجمة فنصيب كل مليون مواطن عربي من الكتب المترجمة يساوي ٤,٤ كتاب، بينما يبلغ نصيب كل مليون إسرائيلي ٣٨٠ كتاب، وكل مليون مجري ٥٠٠ كتاب، وكل مليون أسباني ما يقارب ٩٥٠ كتاب.

هذه الأرقام والإحصائيات إن دلت على شيء فإنما تدل على أن العالم العربي يفتقر أولاً إلى القدرة على إنتاج المعرفة، ويفتقر ثانيًا إلى القدرة على نشر المعرفة، ويفتقر ثالثًا إلى القدرة على تطبيق المعرفة. الأرقام تتحدث بصوت عال، بل وتصرخ في وجوهنا، ومع ذلك يرفض القائمون على شؤون العرب أن ينصتوا؛ لم تتحرك مثلاً جامعة الدول العربية – أو أية دولة عربية – لتعلن أن أمتنا في خطر، مثلما أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٨٣ رغم تفوقها؛ ولم تبحث دولة عربية واحدة في كيفية استثمار عائداتها وإعادة توزيع ثرواتها بما ينهض بالتعليم والبحث العلمي. كل المؤشرات تشير إلى أننا قاب قوسين أو أدنى من السقوط في هوة عميقة قد لا نجد سبيلاً للخروج منها، ولا يرفع المسئولون إلا شعارًا واحدًا: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء، لكن لا عاصم يومئذ من أمر الله إلا من رحم، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

(١٢) مجدي يعقوب

- **١٤ يناير ٢٠١١**

لا أدري لِمَ تذكره صناع القرار في مصر فجأة، وقد قضى أكثر من نصف قرن رافعًا لراية مصر في كافة المحافل الطبية على مستوى العالم؟ ولا أدري كيف لَم يُمنح قلادة النيل قبل ذلك وقد منحته بريطانيا أعظم أوسمتها وألقابها منذ سنوات، فكان بحق ملك القلوب؟ ولا أدري كيف كان يشعر الرجل حين كرَّمته كبريات الجامعات الدولية باستثناء جامعة القاهرة التي تخرج منها؟ لا أدري إن كانت الأسباب سياسية أو دينية أو حتى عبثية، كل ما أعرفه أن قلادة النيل قد سعت إليه ولم يسع هو إليها، وأن صبره وتواضعه ومثابرته وطموحه وترفعه ... كل هذه السمات وغيرها ستبقى دلائل كبرى على تفوقه ونبوغه العلمي.

في أكتوبر من سنة ٢٠٠١، قالت عنه «كاترين أوبراين» Katrina O'Brien محررة التايمز: «سوف يسجل التاريخ أن مجدي يعقوب هو أحد أكثر الجراحين ابتكارًا في جيله. لقد تنافس أطباء القلب من جميع أنحاء العالم للانضمام إلى فريقه، لكن لم يحظ بذلك إلا أولئك الذين يشاركونه أخلاقياته المهنية التي لا تنضب، ونهمه لإحراز التقدم. هو رجل لديه قدرة هائلة على التحمل، لا ينام أكثر من خمس ساعات في الليلة، وهو وفقًا لمن يعرفونه جيدًا: عنيد، كثير المطالب، غير منظم لدرجة ميؤوس منها، مفوض عن الفقراء، لكنه مع ذلك دمث، هادئ، مثابر بشكل منطقي وجريء».

وقالت عنه «روزماري رادلي سميث» Rosemary Radley-Smith (طبيبة بريطانية، وعضو فريق العمل معه لأكثر من ثلاثين عامًا): «رغم ما يحظى به من تبجيل، إلا أنه خجول بشكل قوي وأصيل. لم يجد زملاؤه الأكاديميين وسيله لمنعه من مغادرة حفل أقيم خصيصًا له سوى سرقة مفاتيح سيارته لإجباره على البقاء. لقد شاهدته منذ أيام في حفل استقبال أنصار سلسلة الأمل، وهي مؤسسة خيرية

للأطفال كان قد أسسها، لقد كان دخوله بلا أية ضجة أو أضواء، وقد مرت عدة دقائق قبل أن يلحظ المنتظرون له أنه قد حضر بالفعل».

كان مجدي يعقوب انطوائيًا إلى حد كبير، كان في طفولته يقضي أيامًا عديدة دون أن يتحدث إلى أحد، حتى لقد راودت والداه فكره عرضه على الطبيب. يقول «مجدي يعقوب»: «لم يفعلا ذلك، لكني أتذكر كم أرعبتني هذه الفكرة. لقد كنت أضخم بكثير من أقراني، لذا كان الناس يتوقعون مني الكثير؛ لقد كنت الصبي الذي يجلس في مؤخرة الفصل دون أن ينطق بشيء، إذ من أنا حتى أقول شيئًا؟ لقد كنت انطوائيا جدًا». فمن هو مجدي يعقوب؟

«مجدي حبيب يعقوب»: واحد من أشهر ستة جراحين للقلب في العالم، وثاني طبيب يقوم بزراعة قلب بعد «كريستيان برنارد» Christiaan Barnard (١٩٢٢ – ٢٠٠١). أجرى أكثر من ألفى عملية زرع قلب خلال ربع قرن، وهو من أشهر المصريين الذين يرفعون اسم مصر في أوروبا والعالم. تاريخه حافل، وعبقريته غير مسبوقة في تاريخ مصر، وتواضعه جم للغاية، ويعد من أشهر أطباء مصر الذين وصلوا إلى هذا المركز بين أطباء القلب في العالم. كرمته الملكة «إليزابيث» ملكة بريطانيا ومنحته لقب سير ووسام فارس، نال العديد من درجات الدكتوراه الفخرية من الجامعات الأجنبية، وبلغت أبحاثه العلمية أكثر من ٤٠٠ بحث متخصص في طب وجراحة القلب والصدر.

ميلاده وحياته العلمية:

وُلد «مجدي يعقوب» في ١٦ نوفمبر من سنة ١٩٣٥ ببلبيس بمصر، لعائلة قبطية أرثوذكسية تنحدر أصولها من أسيوط. حصل على بكالوريوس الطب من جامعة القاهرة، مستشفى القصر العيني، ثم عمل جراحًا نائبًا في قسم عمليات الصدر في المستشفى. سافر الى انجلترا العام ١٩٦٢ لاستكمال دراساته، وحصل على درجة الزمالة الملكية في الجراحة من ثلاث جامعات بريطانية هي لندن وأدنبرة

وجلاسكو. عمل بمستشفى الصدر بلندن، كما عمل باحثاً في جامعة شيكاغو الاميركية العام ١٩٦٩. ولمهارته ترأس قسم جراحة القلب العام ١٩٧٢، ثم عمل استاذًا لجراحة القلب في مستشفى برومتون في لندن سنة ١٩٨٦، ثم رئيسًا لمؤسسة زراعة القلب في بريطانيا سنة ١٩٨٧، وأخيرًا استقر في عمله كأستاذ لجراحة القلب والصدر في جامعة لندن. عمل «يعقوب» أيضًا أخصائيًا لجراحات القلب والرئتين في مستشفى هارفيلد من سنة ١٩٦٩ إلى سنة ٢٠٠١، ومدير قسم الأبحاث العلمية والتعليم منذ سنة ١٩٩٢. عين أستاذًا في المعهد القومي للقلب والرئة سنة ١٩٨٦.

اهتم «مجدي يعقوب» بتطوير تقنيات جراحات نقل القلب منذ سنة ١٩٦٧. وفي سنة ١٩٨٠ قام بعملية نقل قلب للمريض دريك موريس، والذي أصبح أطول مريض نقل قلب أوروبي على قيد الحياة حتى موته في يوليو من سنة ٢٠٠٥. من بين المشاهير الذين أجرى لهم عمليات كان الكوميدي البريطاني «إريك موركامب» Eric Morecambe (١٩٢٦ – ١٩٨٤). منحته الملكة إليزابيث الثانية لقب فارس سنة ١٩٩٢. ويُطلق عليه في الإعلام البريطاني لقب «ملك القلوب» King of hearts.

حين أصبح عمره ٦٥ سنة اعتزل إجراء العمليات الجراحية، واستمر كاستشاري ومُنظر لعمليات نقل الأعضاء. وفي سنة ٢٠٠٦ قطع الدكتور «مجدي يعقوب» اعتزاله العمليات ليقود عملية معقدة تتطلب إزالة قلب مزروع في مريضة بعد شفاء قلبها الطبيعي. استعاد القلب المتضخم للطفلة البريطانية «هانا كلارك» Hannah Clark حجمه الطبيعي مرة أخرى، وعاد للعمل بكفاءة عادية بعد عشر سنوات من التوقف. وكان «مجدي يعقوب» قد قام بعملية الزرع السابقة، حيث أسهم القلب المزروع في استعادة القلب الطبيعي لحجمه وتعافيه.

حصل على زمالة كلية الجراحين الملكية بلندن وحصل على ألقاب ودرجات شرفية من كلٍ من جامعة برونيل Brunel وجامعة كارديف Cardiff وجامعة لوفبرا Loughborough وجامعة ميدلسكس Middlesex (جامعات بريطانية)، وكذلك

من جامعة لوند Lunds بالسويد، وله كراسٍ شرفية في جامعة لاهور Lahore بباكستان وجامعة سيينا Siena بإيطاليا.

إنجازاته وجوائزه:

أجرى «مجدي يعقوب» ما يقرب من ٢٥ ألف عملية خلال مشواره الطبي الطويل، منها ٢٥٠٠ عملية زراعة قلب. وقد اهتم خلال هذا المشوار بتدريب الأطباء على مستوي العالم كله، مؤكدًا أنه بهذا ينقذ مريضًا قد لا يتحمل الانتظار حتى يأتي بنفسه لإجراء العملية. وهو يفخر في كل مكان بالأطباء المصريين الذين تتلمذوا على يديه، وأصبحوا قادرين على إجراء عمليات زراعة القلب بنجاح كبير.

ولأنه مثال للأخلاق والكفاءة العلمية والتفاني في العمل حصل يعقوب علي جائزة الشعب لعام ٢٠٠٠ التي نظمتها هيئة الإذاعة البريطانية B.B.C، حيث انتخبه الشعب البريطاني للجائزة عن عموم إسهاماته العلمية وإجرائه أكبر عدد من عمليات زرع القلب في العالم، ورغم كل تلك الجوائز والألقاب تبقي ضحكة طفل صغير بعد شفائه أو كلمة شكر يتلقاها من آباء وأمهات المرضي، الذين يساعد في تخفيف آلامهم، هي جائزة الشعب الحقيقية التي يتلقاها، كما يردد دائمًا.

انتخب الشعب البريطاني البروفسر «يعقوب» ليفوز بجائزة الإنجازات المتميزة في المملكة المتحدة. وخلافًا لأسلوب الترشيح المتبع في تنظيم الجوائز العلمية، حيث تعمد لجان متخصصة إلى اختيار المرشحين بناءً على مؤشرات مُحددة علميًا، فإن الفائزين بجوائز الشعب يرشحون من عموم الشعب البريطاني، الذي يصوت أيضًا على الفائزين. وفي سنة ٢٠٠٠، شمل التصويت مجالات عدة منها الفنون والأفلام والموسيقى والرياضة والتجديد والإبداع والشجاعة، إضافة الى الإنجازات الريادية التي يقدمها الشخص للمجتمع خلال فترة حياته. وفاز يعقوب بتلك الجائزة عن عموم إسهاماته العلمية بسبب إجرائه أكبر عدد من عمليات زرع القلب في العالم.

هكذا اختير هذا الجراح المصري للحصول على لقب سير البريطاني، على غرار اختيار الاختصاصي المعروف في الجراحة التجميلية «ستيفن هول» Steven Holt،

ورجل الاعمال الانجليزي المشهور صاحب شركات «فيرجن» Virgin «ريتشارد برانسون» Richard Branson، ومغني فرقة البيتلز الشهير «بول ماكارتني» Paul McCartney وغيرهم.

تم منحة جائزة فخر بريطانيا في الحادي عشر من أكتوبر سنة ٢٠٠٧، المقدمة على الهواء مباشرة من قناة «آي تي في» البريطانية ITV بحضور رئيس الوزراء «غوردن براون» Gordon Brown (من مواليد ١٩٥١)، وتُمنح الجائزة للأشخاص الذين ساهموا بأشكال مختلفة من الشجاعة والعطاء، أو ممن ساهموا في التنمية الاجتماعية والمحلية. ارتأت لجنة التحكيم أن الدكتور «يعقوب» قد أنجز أكثر من عشرين ألف عملية قلب في بريطانيا، وقد ساهم بعمل جمعية خيرية لمرضى القلب الأطفال في دول العالم النامية، ولا يزال يعمل في مجال البحوث الطبية، لذا تم اختياره من لجنة التحكيم ليكون الشخصية البارزة في الحفل، وتم تسليمه الجائزة في نهاية الحفل مع حضور عشرات الأشخاص الذين ساهم الدكتور «يعقوب» في إنقاذ حياتهم على خشبة المسرح. ويضم سجل «يعقوب» إنجازات عدة في المجالات الطبية، من أبرزها إنشاء مركز هارفيلد لأبحاث أمراض القلب في بريطانيا Harefield Heart Science Centre، واستحداث أسلوب مبتكر للعلاج الجراحي لحالات هبوط القلب الحاد، وتأسيس البرنامج العالمي الرائد لزراعة القلب والرئة، والمساهمة في انشاء مؤسسة الأمل للأعمال الخيرية، التي تقدم خدمات إنسانية متنوعة لمرضى القلب من الأطفال في العديد من الدول النامية. ويحوز العضوية الشرفية في أكثر من ١٥ مؤسسة وجمعية علمية في العالم.

في أغسطس من سنة ١٩٨٩، احتفلت الأوساط العلمية والصحافية اللندنية، بوصول عدد عمليات زرع القلب والرئة إلى الألف. وكرم «البابا شنودة» «مجدي يعقوب» خلال زيارة الأولى لبريطانيا في مارس ٢٠٠٢، وأسس «يعقوب» سنة ١٩٩٥ مؤسسة خيرية تدعى سلسلة الأمل Chain of Hope، تتولى إجراء عمليات جراحية لإنقاذ حياة مرضى القلب من الأطفال في البلدان النامية. ويُسجّل له أنه أول من

ابتكر جراحة الدومينو Domino Operation، التي تتضـــمن زراعة قلب ورئتين في مريض يعاني من فشـل الرئة، وفي الوقت ذاته، يؤخذ القلب السليم من المريض عينه ليزرع في مريض ثان. وقد أجريت أول عملية لنقل القلب سـنة ١٩٦٧، وكان أول من أجريت له تاجر بقالة من جنوب أفريقيا اسمه «لـــــــوى واشكانسكى» Louis Washkansky، وأجراها له الدكتور «كريســتيان بارنارد» Christian Barnard، الأشـهر في هذا المجال. وفى الثمانينيات بدأت تنتشـر على نطاق واسـع عمليات زرع الأعضــاء البشــرية، ولم تعد تقتصـر على زرع الكلية أو القلب، بل إن كثرة منها باتت شـديدة التعقيد والطموح، مثل تلك التي أجريت سـنة ١٩٨٨ لإعادة يد مقطوعة إثر حادث، وشملت بالطبع رتق كافة الأعصـــاب والأوعية الدموية المقطوعة. هذا بالإضـافة لعمليات زرع القرنية وعدسـة العين والكبد والبنكرياس والطحال والرئة والمبيض، ... إلخ. كما أصـبح من الممكن زرع منظم آلي لضـربات القلب، داخل التجويف الصدري، أو أجزاء آلية أخرى لأغراض محددة.

سـاهم في ذيوع صيت «مجدي يعقوب» اهتمامه بإجراء جراحات مجانية في الدول النامية وفى بلده مصر للمرضى، وخصوصًا الأطفال الذين لا يستطيع ذويهم تحمل التكاليف الباهظة لهذه العمليات، حيث كان يســافر على رأس فريقه الطبي المتكامل المعروف باسـم قاطرة الأمل لإجراء جراحات معقدة في قلوب أطفال مصـر وغيرها من الدول. كما سـاهم في تأسـيس وحدة رعاية متكاملة في مسـتشـفى القصـــر العيني لعلاج التشـــوهات الخلقية في القلب. وقد نجح فريق طبي مصـري بقيادته في تطوير صـمام للقلب باسـتخدام الخلايا الجذعية، وهو الاكتشـاف الذي سيسمح باستخدام أجزاء من القلب تمت زراعتها صناعيًا في غضون ثلاثة أعوام.

يقول الدكتور «مجدي يعقوب» أنه في خلال عشرة أعوام سيتم التوصل إلى زراعة قلب كامل باسـتخدام الخلايا الجذعية. وكان الفريق الطبي قد نجح في اسـتخراج الخلايا الجذعية من العظام وزرعها وتطويرها إلى أنســجة تحولت إلى صــمامات

للقلب، وبوضع هذه الخلايا في بيئة من الكولاجين تحولت إلى صمامات للقلب بلغ طولها ثلاثة سنتيمترات.

من أقواله:

- الحقيقة صعبة المنال، وليس في وسعنا الا أن نسعى إليها. كثيرون أنجزوا أبحاثًا علمية متفوقة، وجميعهم اقتربوا من الحقيقة، لكن أحدًا منهم لم يدركها.
- أفضل طريقة للاقتراب من حقيقة علمية، هي محاولة دحضها لاختبارها، بدلاً من البحث عن حُجج تدعمها.
- إن كفاءة علماء الطبيعة الذين درسوا العلوم الانسانية أعلى منها لدى نظرائهم.
- العلم تواضع، فمن قال لك أنه يعرف كل شيء فثق أنه جاهل.
- أنا لم أفكر في الاعتزال، وما دمت قادرًا على مساعدة الناس بطرق مختلفة فلن أتوقف، خاصة في مجال إنشاء مستشفيات ومعاهد أبحاث مثل التي تم إنشاؤها في أسوان والإسكندرية وأثيوبيا وجامايكا.
- بالنسبة لي حققت الأمرين اللذين طالما حلمت بتحقيقهما مذ كنت صبيًا في قرية مصرية؛ حلمت أن أصبح طبيبًا جراحًا وعالمًا. هذا ما يفسره الناس بالشهرة، أما أنا فأراه امتيازًا حظيت به.
- بقدر ما تحقق ترى أنه عليك فعل المزيد، وبقدر ما تتعلم، تدرك أمرين: أولاً أنه ما أن تصل إلى القمة في المعرفة حتى تدرك أن هناك ما هو أكثر وأكبر لتعرفه؛ وثانيًا، تجعلك المعرفة تتعرف على آلام الناس ومعاناتهم.
- من أكثر الأشياء التي تخيفني في مصر عدم اهتمام المصريين بالعلم!

(١٣) تونس تطرد روح بروكرست

- <u>**١٧ يناير ٢٠١١**</u>

كان بروكرست Procrustes – فيما تروي الأسطورة اليونانية – قاطع طريق يعترض العابرين ليجبرهم على المبيت فوق سرير معدني يحمله معه حيثما كان،

ومن ثم يطبق معياره الوحيد للحقيقة، ألا وهو طول السرير الذي يطابق طول بروكرست نفسه؛ فإذا كان الضحية أطول من السرير قام ببتر قدميه ليتساوى طوله مع طول السرير، وإذا كان أقصر قام بمطه وشده بقوة حتى يصبح طوله مساويًا لطول السرير.

انتهت الأسطورة بمقتل بروكرست بعد أن أوقع كثرة من الضحايا، لكن روحه فيما يبدو أبت إلا أن تتحالف مع من يشاركونه تلك النظرة الأحادية للحقيقة في كل مكان، وما أكثرهم، لتجد رواجًا لم يكن يحلم به بروكرست نفسه في منطقتنا العربية؛ حتى لقد أصبح لدى كل نظام عربي نسخة طبق الأصل من هذا السرير غير القابل للتطويع، فإما أن تتطابق أحلام الشعوب وأفكارها وبرامج حياتها مع أحلام وأفكار وبرامج النظام، وإما أن يتم إخضاعها وتكييفها بالقهر والقوة البروكرستية. ولم تقتصر بروكرستية الأنظمة العربية على الجانب السياسي والدستوري فقط، بل لقد تعدتها لتشمل كافة مناحي الحياة، ليذهب ضحيتها الآلاف من أبناء أمتنا العربية ما بين ممطوط ومبتور (لن يكون آخرهم بو عزيزي)، أما الأغلبية المقهورة الصامتة فقد جاهدت – وما زالت تجاهد – في جعل طول الجسد المنهك مساويًا لطول السرير، وحفظت عن ظهر قلب شروط الحياة المنقوصة: كن كما يريدك النظام، خادمًا لأحلامه، محبًا لاستمراره ... لا تقل ماذا أعطاني وطني، بل قل ماذا سأعطي النظام، وسبح بحمده ليل نهار ... احزن لانتقاده من قبل الآثمين الباحثين عن الحرية، وافرح لترف رجالاته، وزين بآلامك قوائم عروشه!

لكن – وكسرًا للقاعدة المقوتة التي ألفها العرب – نجح الشعب التونسي الشقيق مؤخرًا في فك طلاسم الروح البروكرستية، فاستخرجها بتعويذة سحرية وعفوية ليجبرها على الرحيل، وهو ما دفع صحيفة الفيجارو الفرنسية إلى التعليق قائلة: «حتى في البلاد العربية يستطيع الشعب أن يقيل الطغاة!».

لقد حلقت الروح حائرة حتى وجدت المأوي، لكن بقي السـريـر، فإما أن يدعم الشعب التونسي نجاحه بكسره وتحطيمه، وإما أن تعود إليه الروح بآخر يعيد طليه وتثبيته! الروح البروكرستية روحٌ شرسة، وقد استنشق الشعب التونسي أولى روائح الحرية والعزة والكرامة فكسب جولته الأولى، وبدأ يعيد رفع الرأس المطأطأ منذ ما يقرب من ربع قرن، فليته يستمر، ويا أيتها الحرية ليتك توجهين رياحك لمن ينتظرها ملهوفاً من أبناء الوطن.

(١٤) إعدام وطن!

- **٢٣ يناير ٢٠١١**

بعد بضعة قرون من معاناتها، وانتهاك قاطنيها لكافة القيم والحقوق التي شرعها الله، وعبثهم بقوانين وسنن الحياة، قررت الأرض العربية الممتدة من المحيط إلى الخليج أن تتظلم من آهليها من البشر الأحياء أمام محكمة التاريخ، مطالبة إياه بعقد جلسة عاجلة للنظر في شكواها وإصدار حكمه العادل على من أفسدوا بزعمها في ربوعها. تلقى التاريخ طلب الأرض بدهشة جسدتها تساؤلاته لنفسه:

أثمة من يفسد فوق ظهر تلك البقعة من العالم الأرضي؟ كيف وسجلاتي المعاصرة تحوي كثرة من المآثر الحضارية التي يسجلها كُتابهم وإعلامهم المرئي والمسموع لأنظمتهم الحاكمة؟ صحيح أنني كنت أسمع بين الحين والآخر صيحات متباعدة تصدر منها، أو صرخات متقطعة يذهب صداها سُدى في الهواء، لكنها لم تكن توحي بأن ثمة بشرًا يعانون اقتصاديًا أو سياسيًا أو اجتماعيًا؛ أثمة من يزيف إذن في سجلاتي؟!

كانت دهشة التاريخ عاملاً فعالاً في سرعة استجابته لطلب الأرض العربية، إذ لم يلبث أن التفت إليها ليرى حشدًا من البشر يعلو وجوههم البؤس الحضاري، يتألمون ويصطرخون دون جدوى أمام قلة من بني جلدتهم تنعم بدفء الفساد وسطوة المال، وسرعان ما أدرك أن ثمة محكومين يكابدون قهر حكامهم ومن اصطفوه ليكون سوطًا يلهب ظهورهم. حينئذ أمر بجمعهم عن بكرة أبيهم في صعيد واحد،

وأقبل بدثار القاضي: شيخًا مهيب الطلعة، ممسكًا بيده قلمًا سيسطر به حكمه العادل على قرطاس الزمن، لتبدأ الأرض في طرح شكواها.

أيها التاريخ: خَبرتُك حَكمًا عادلاً، تنصف المظلوم ولو قُبرت مظلمته في حجج المفسدين، وتُلقى بالظالم في سلة مهملاتك ولو زيَّف الحقيقة بأقلام المنتفعين؛ أنا الأرض التي مشى عليها كافة الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بدعوة الحق؛ ونزل فيها جبريل عليه السلام حاملاً رسالات ربي إلى البشر؛ أنا الأرض التي تحوي أشرف بقاع العالم وأقدسها في مكة والمدينة والقدس؛ أنا مهد الحضارات ومنبت العلماء ومجرى الأنهار؛ أنا التي كنت ذات يوم مقصدًا لطالبي العلم ومفتقدي الحرية وراغبي نفي الجهالة؛ أنا التي بشرني ربي بإيواء خير أمة أخرجت للناس، أرفع إليك شكواي ممن أحملهم اليوم على ظهري: لقد نسوا الله فأنساهم أنفسهم ... أفسدوا ويفسدون، وعلى الدنيا يتصارعون ... ظلموا ويظلمون، وبسيف القهر يحكمون ... انفرط عقدي بأيديهم فبات جزءٌ مني في قبضة أبناء صهيون ... حالفوا الشيطان فتراهم بعضهم البعض ينهبون ويقتلون ... غلبهم حب الملذات فأسرع إليهم الغرباء من كل حدب ينسلون ... خاصموا العقل والعلم والعدالة فتردى بي الحال وأفلت شمس حضارتي وغدت سمائي ملبدة بالغيوم ... هم الأموات على ظهري وأمواتهم فيك أحياء، بل في جوفي منهم يتبرأون ... خيراتي تخرج إليهم بإذن المولى وبأيديهم منها يُحرمون.

هذه شكواي أيها التاريخ، ولا أطلب من عدالتكم إلا القصاص، أطلب الإعدام لهم جميعًا، لعل الله يأتي فوق ظهري بقومٍ آخرين، يعيدون إليَّ مجدي، وينصبون ميزان العدالة، فبخيراتي ينعمون، وبمكانتي يفخرون، ومن بقاعي يفر المغتصبون. ألم تسمع أيها التاريخ قول الله عز وجل: «وإن تتولوا يستبدل قومًا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم» (محمد: ٣٨)، وقوله تعالي: «يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على

الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم» (المائدة ٥٤).

هنا تحدث التاريخ: أيتها الأرض الأبية: لقد عرضت مظلمتك فأفضت وأفصحت، وإني لأستشعر الصدق في كلماتك، لكن عدالة حُكمي لا تكتمل إلا بالاستماع إليهم، وإلا اختل الميزان، وشكوني إلى الرحمن. وما أن نطق التاريخ بكلماته حتى ضجت القاعة بالصخب، وتهجم المحكومون على الحكام صارخين: أنتم أفسدتمونا بغيكم؛ تكالبتم على العروش، وانتفخت منكم الكروش ... قتلتم أحلامنا، وسرقتم أموالنا، وبعتم أرضنا، شوهتم هويتنا وغيبتم عقولنا وهدمتم حضارتنا ... حكمتمونا بالحديد والنار، واستبعدتم من بيننا الأخيار، ليمرح في أوطاننا الأشرار؛ هؤلاء أيها التاريخ هم المسؤولون، ولتسطر في قرطاسك حُكمًا منصفًا يسعد به من بعدنا القارئون. لا، بل أنتم المسئولون – هكذا جاء رد الحكام على المحكومين – أنتم المفسدون، ما كان لنا عليكم من سلطان إلا أن دعوناكم فاستجبتم لنا، ما نحن بمصرخيكم وما أنتم بمصرخينا ... استخففنا بكم فأطعتمونا، وكان بإمكانكم أن تقومونا ... أحببتم الفساد والكسل وحياة العبودية فالتزمتم الصمت إزاء سطوتنا ... سكن الخوف بنفوسكم فتمادينا في قهركم ... تحررت الشعوب من حولكم بأرواح أبنائها ولم تفلحوا إلا في الخطابة، فحق لنا أن نستهزئ بكم ... لو قاومتمونا حقًا لما كان هذا حالنا وحالكم، فلتحكم عليهم أيضًا أيها التاريخ، كي يكونوا عبرة لمن يأتي بعدهم.

ضحك التاريخ قائلاً: هكذا انقلب السحر على السحرة، لقد كنت محقة أيتها الأرض العربية، هؤلاء لا يستحقون الحياة فوق ظهرك، لكن مهلاً: ألم يأت ملك الجبال يومًا إلى الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم عارضًا أن يطبق الأخشبين على من آذوه من قومه، فأجابه برحمته: بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا؟

أجل أيها التاريخ، لكنه صلي الله عليه وسلم لم يكن حينئذٍ قد استكمل دعوته، بل ولا ينطق عن الهوى ... إن هو إلا وحي يوحي؛ ألن يقول يوم الحساب لمن أحدثوا من بعده: سُحقًا سُحقًا ... بُعدًا بُعدًا؟ ألا تذكر أيها التاريخ دعوة نوح عليه السلام على قومه بعد أن لبث فيهم طويلاً يدعوهم وهم معرضون؟ ألم يدعو ربه قائلاً: «رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرًا كفارا» (نوح: ٢٦، ٢٧). ألا تذكر أيضًا دعوة موسى عليه السلام على آل فرعون حين قال: «ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم» (يونس: ٨٨)؟ وهل يختلف حال هؤلاء عن حال الأحياء فوق ظهري اليوم؟

حكم التاريخ: أذكر ذلك أيتها الأرض؛ فقد قرأت كتاب الله الذي أهملوه، وقرأت أيضًا سجلاتي التي لم يتعلموا منها، فليكن إذن الحُكم العادل: الشطب من سجلاتي، والمحو الكامل من ذاكرتي، أما أمر إعدامهم، والإتيان بقوم غيرهم، فهو بيد خالقهم: هو وحده من يحي ويميت، يغفر ويعذب، يهدي ويضل، يثيب ويعاقب، وبيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه. رُفعت الجلسة!

(١٥) تأملات في انتفاضة الغضب

- **<u>٣ فبراير ٢٠١١</u>**

«إن الأمل لم يُكتب لنا إلا بفضل أولئك الذين هم بلا أمل» «فالتر بنيامين»

Walter Benjamin (١٨٩٢ – ١٩٤٠)

في الستينات من القرن العشرين، أعلن الفيلسوف الأمريكي «هربرت ماركيوز» Herbert Marcuse (١٨٩٨ – ١٩٧٩) أن الطبقة العاملة – التي عوَّل عليها «ماركس» كثيرًا للقيام بالثورة ضد قهر وسلطوية النظم المجتمعية والسياسية المعاصرة – لم تعد هي الفئة المنوط بها تغيير الواقع وإحياء قوة السلب والرفض

للاعقلانيته؛ فلقد تم استيعاب هذه الطبقة على نحوٍ كامل لتصبح نسيجًا مستأنسًا من أنسجة النظم القائمة مؤتلفًا معها، وتم تزييف حاجاتها الروحية والمادية بما يجعل الثورة شبه مستحيلة من جانبها. لكن ذلك لا يعني أن هذه النظم قد بلغت مرحلة الاستقرار الذي يحول دون زعزعتها وقض قوائمها، إذ أفرزت بغبائها التخطيطي فئات أخرى تدفعها معاناتها إلى تصدر المسرح السياسي المعاصر، لتغدو وقودًا متجددًا للثورة المنتظرة، لعل أهمها فئة الشباب من المهمشين والعاطلين عن العمل وفاقدي الأمل.

ومنذ بضعة سنوات جاءني أحد طلابي من الذين أنهوا تعليمهم الجامعي. فوجئت به مكتئبًا، تتحجر الدموع في عينيه، وقبل أن أسأله عما ألَّم به، انطلقت عباراته تقطر حزنًا دفينًا: أنا أكره هذا البلد، ولو أعاد الغرب استعمار مصر من جديد لكنت أول المؤيدين له؛ لقد تخرجت لأجد نفسي مسؤولاً عن عائلة بأكملها من سبعة أفراد ... ضاقت بي السبل بحثًا عن عمل، حتى ارتحلت مُكرهًا ضمن مجموعة ممن هم مثلي إلى شرم الشيخ للعمل في حمل مواد البناء، أغلبهم من حملة المؤهلات العليا ... وفي صباح أحد الأيام، أراد أحدنا أن يثبت للآخرين قدرته على التحدث بالإنجليزية، فنطق بجملة صباح الخير لإحدى السائحات ... ورغم تقبلها للأمر وردها التحية، فوجئنا بعربة شرطة من تلك المخصصة لنقل الخارجين على القانون، وإذا بنا محشورون فيها كقطع الحجارة ليُزج بنا في أحد السجون، وبعدها تم ترحيلنا إلى مدننا وقُرانا ومُنعنا من العمل! هكذا المصري في وطنه، لا كرامة له ولا حقوق ... لا عمل ولا مستقبل ... لا طعام ولا علاج ... أليس من الطبيعي إذن أن أكره وطني؟ حاولت بالطبع أن أهدئ من روعه، وأن أعيد معه ترتيب الأفكار ليدرك أن من أهدر كرامته ليس الوطن، وإنما ثلة من أصحاب القرار في الوطن، وأن كراهية الوطن شيء وكراهية النظام شيء آخر، بل وأننا جميعًا – حتى ولو كنا نعمل – نعاني إهدارًا لحقوقنا الإنسانية والعقلية المشروعة، وأن دولة الظلم ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة ... فتركني وانصرف!

هؤلاء الشــــباب وأمثالهم هم الذين رأيناهم ونراهم الآن في مصـــــر يقودون فئات المجتمع المختلفة نحو تغيير كان لا يتجاوز دائرة الحلم، تلك الدائرة التي كانت تتمثل في الأحاديث الهامســـة وخيالات العقل وحوارات الفيس بوك والتويتر. هؤلاء هم الشـــــــباب الذين تركتهم الدولة في مقاهي الإنترنت ظنًا منها أنها بذلك تتلاعب بعقولهم وتعطل قواهم الروحية والمادية لوأد آمالهم وقتل طموحاتهم، انطلقوا بعفوية وبراءة يزيحون حجرًا ثقيلاً من فوق صـدر الأسـد المصـري المسـتسـلم؛ لا تحركهم أيديولوجيات حزبية، ولا توجهات مذهبية، ولا أجندة مســـــتقبلية ... تحركهم فقط سيمفونيات القهر التي تمادى النظام في عزفها على أوتار معاناتهم، ليمزقوا الأوتار، ويبتروا الأصـــابع ... وليعلنوا نهاية اللعبة التي ســئمها الجميع. كنت على مقربة من هؤلاء الشباب بحكم عملي الجامعي، أستمع لشكاواهم، وأكتب عن جراحهم ... أعاني مآسيهم في تساؤلات أطفالي عن ماهية الآتي ... عـــــــــن مستقبل أستشعر الخوف منه فيما تبقى من حياتي. فماذا إذن عن مشهد انتفاضتهم وقد أصبح حقيقة تصدم الأعين وتصم الآذان وتُحي الحلم؟ ربما أستطيع أن أرصد المشهد في نقاط يمتزج فيها القلب بالعقل؛ كلاهما يســلّم بأصـــالة المشـــهد وعبقريته، وكلاهما ينتفض بداخلي أملاً ونشوة بمن ظننا أنهم قد ماتوا إلى الأبد؛ كلاهما يخاطب الآن من راحوا ضـــحية الفســـاد والظلم لعقود طويلة عمّها الظلام الحالك، ويخاطب المســتقبل – أيًا كانت النتائج – بأننا على الطريق قادمون، لكن كلاهما أيضـًا يرصد همجية المسيطرون، وتطلعات الأقزام، ومعها تحكمات الخارج في مصائرنا عبر الزمان.

١. منذ اللحظة الأولى لانتفاضـــة الغضـــب تجلى بوضـوح مدى ضـعف الحكومة المصـرية وتخبطها في التعاطي مع مسـتجدات الأمور؛ فما أن امتدت احتجاجات الشباب حتى اتخذت السلطات قرارًا غبيًا بوقف كافة خدمات الأنترنت والهاتف الجوال في مصـر، غافلةً عن أن حركة الشـباب لا تحكمها أجندات مسـبقة،

ولا تخطيطات تستلزم التواصل الإلكتروني الدائم. لقد أدركتُ لحظة إعلان هذا القرار أن الأمر يُنذر بكارثة لا تدرك الحكومة مداها؛ لأن من كان يجلس متابعًا الأحداث عبر الإنترنت أو بهاتفه الجوال سيتواجد الآن وبقوة في الشارع، سواء للمشاركة البديلة أو لمتابعة الأحداث والاطمئنان على ذويه المشاركين في التظاهرات. ربما أرادت السلطات الحكومية أن تحجب صورة المشهد عن قنوات الخارج الفضائية (كقناة الجزيرة مثلاً)، لكنها أيضًا كانت مخطئةً في ذلك، لأنها تغافلت عن حقيقة أن التعتيم الإعلامي أصبح من بقايا الماضي البائد.

٢. ما أن بدأت الانتفاضة تؤتي ثمارها – حتى ولو كانت ثمارًا غير مستساغة – حتى تغيرت لغة الخطاب الإعلامي في مصر بشكلٍ فجٍ يفضح نفاق كثرة من الناطقين بها. لقد تحول هؤلاء الشباب فجأة إلى أبطال بعد أن كانوا مخربين؛ وإلى أصحاب حقوق مشروعة بعد أن كانوا مجرد أعداء ناكرين لإنجازات الحزب الوطني. تحولوا أيضًا إلى أصحاب رسالة بعد أن كانوا مجرد شرذمة قليلة تثير العامة وتشوه وجه مصر الحضاري. وفي موازاة ذلك أراد الإعلام المصري أن يكون وحيدًا في نقل مشاهد الحدث، بالكيفية التي يراها، وبالشكل الذي يناسب معاندة الروح وتجملها لحظة خروجها من الجسد، دون تقدير واضح ودقيق لأبعاد القوة التكنولوجية والإعلامية في عصر العولمة، فجاء قرار إيقافه لقناة الجزيرة مضيفًا سقطة أخرى مستهجنة من قبل العالم إلى سقطاته المتوالية. الحق أن هذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على فجاجة الإعلام المصري وتخلفه في ممارسة اللعبة الإعلامية المعاصرة ومواجهة الآخرين، وإن كان لا يعني بالضرورة حيادية قناة الجزيرة وبراءتها من التوجهات السياسية والأيديولوجية التي تحركها منذ البداية.

٣. لكل ثورة ضحاياها من الذين يتصدرون صفوفها الأولى، ولكل ثورة أيضًا زمرة من المنتفعين الذين يسعون إلى قطف ثمارها والقفز فوق إنجازات أبطالها

لاحتلال أماكن لا يستحقونها في مشهدها. بإمكاني وبإمكان أي مراقب – بمعزلٍ عن الصخب الإعلامي – أن يرصد صورًا مألوفة لشخصيات وحركات وأحزاب كانت تملأ الفضائيات ضجيجًا من قبل دون أن تفعل شيئًا (ظاهرة صوتية)، فإذا بها الآن تلتف حول إنجازات الشارع غير المُسيَّسة لعلها تحظى بموقع في المشهد. لقد تغيرت فجأة لغة هذه الشخصيات والحركات والأحزاب لتصبح لغة ثورية بعد أن كانت لغة بكائية تسكينية، وتغيرت مظاهرها لتصبح أكثر نشاطًا بعد أن كانت مجرد قطع تجميلية تزيد من بأس النظام وترسخ لسلطويته (أين كانوا مثلاً من قضية «خالد سعيد» وغيره ممن راحوا ضحية الممارسات التعسفية للشرطة، وأين كانوا من تخلف برامج التعليم في مصر، ومن تفشي الفساد والجوع والفقر والمرض، ومن بيع مقدرات وثروات الشعب المصري بأبخس الأثمان، ... الخ). لا أنكر أننا بحاجة مُلحة إلى برامج حزبية فاعلة، وإلى ائتلاف من القوى السياسية ذات الحنكة في وضع الخطط المستقبلية المحيطة بأبعاد اللعبة السياسية داخليًا وخارجيًا، لكن لابد من أن يحتل الشباب مكانهم الطبيعي في أي مشهد تغييري، وأن يكونوا على وعي بمن يرقب خطاهم، ويتحين الفرصة للقفز من فوق أكتافهم لاعتلاء منصة يتوق إليها وهي تتبرأ منه.

٤. لم يرق جهاز الشرطة المصري في تعامله مع الأزمة إلى درجة الكفاءة التي كان يُروج لها البعض من قبل، ولم يكن أهلاً لكمِّ الإمكانات التي اقتطعها له النظام من قوت الشعب الكادح، بل بدا جهازًا مترهلاً فاقدًا للأهلية والحكمة والخطط البديلة المتدرجة لحفظ النظام وتجنب حالة الفوضى الشاملة؛ بدا وكأنه كهلٌ يُنازع في الرمق الأخير. بعبارة أخرى، كان تعامل الشرطة مع المتظاهرين في لحظات المواجهة الأولى مستندًا إلى تاريخه المظلم في ازدراء المواطنين واستلاب كرامتهم والاستهانة بأرواحهم، أو بالأحرى مستندًا إلى أسطورة الدولة البوليسية ذات الذراع الطويلة القاطعة لألسنة المعارضين، ومع

تطور أحداث الانتفاضة جاء قرار انسحاب الشرطة وتخليها المطلق عن مهامها الأساسية في حفظ أمن المواطنين، بل واشتراكها المستتر في تعميق حالة الفوضى وإطلاق العنان للخارجين على القانون – فضلاً عن مُخبريها من ذوي الأدمغة البهيمية – لممارسة عمليات السلب والنهب وترويع الآمنين، ...، جاء هذا القرار غبيًا بدرجة تفوق غباء قرار قطع الاتصالات. وثمة تفسيرات متعددة لهذا القرار؛ منها مثلاً أنه جاء بالاتفاق مع النظام لإجبار المتظاهرين على ترك مواقعهم والانسحاب لحماية بيوتهم وممتلكاتهم؛ ومنها أيضًا أنه جاء تنفيذًا لخطة قذرة تهدف إلى تأديب الشعب لكي يشعر بأهمية الدور الذي تؤديه الشرطة رغم مساوئها؛ ومنها كذلك أنه جاء إثر خلاف بين جهاز الشرطة والمؤسسة العسكرية أو الرئاسية، ...، لكن أيًا كانت التفسيرات المطروحة، فإن ما حدث يقتضي فتح تحقيق شامل لفهم ملابساته ومحاسبة المسؤولين عنه، وقبل ذلك محاكمة كل من تسبب في قتل وتعذيب الأبرياء والمطالبين بحقوقهم.

٥. مرة أخرى تكشف الولايات المتحدة الأمريكية عن وجهها القبيح في التعامل مع شعوب العالم، وبصفة خاصة شعوب منطقتنا العربية؛ فمن تسويف صاحب موقفها في البداية، إلى رهانٍ تالٍ على قوة النظام، إلى انتظار لما ستسفر عنه المواجهة، ثم إلى لهثٍ للحفاظ على مصالحها الضخمة في المنطقة على خلفية تغيير مؤكد، ...، بدت الولايات المتحدة الأمريكية للمرة المليون غير معنية بحقوق الإنسان التي تتغنى بها ما دام انتهاكها يحفظ لها هيمنتها وهيمنة ربيبتها إسرائيل. لقد تجلى أيضًا للجميع أن مفاتيح التغيير في الشرق الأوسط ما زالت بين أصابع الولايات المتحدة وحدها، وأن تحركات القوى الداخلية المسيطرة والمعارضة مرهونة بمدى الرضا الأمريكي عن توجهاتها وبرامجها المعلنة والمستترة. من هنا لابد للشباب أن يدركوا أن ما نأكله وسنأكله في أوطاننا قد تم ويتم طهيه في المطبخ الأمريكي، ولا سبيل لإضفاء نكهتنا

الخاصة عليه إلا بمخاطبة الرأي العام الأمريكي مباشرة، ولا وسيلة لهم في ذلك إلا الإنترنت ونشاطات الجماعات العربية المثقفة والواعية المقيمة بالخارج، ولنستلهم في ذلك توجه الزعيم الوطني مصطفى كامل لمخاطبة الإنجليز في عقر دارهم إبان الاحتلال البريطاني لمصر. كل ما يحتاجه الشباب للحفاظ على مكاسبهم هو تطوير ميكانيزمات عملهم ودعوتهم المشروعة نحو الديموقراطية والحرية بما لا يؤدي إلى الفوضى الشاملة، وترجمة صفحاتهم العربية على الفيس بوك والتويتر إلى اللغات الأجنبية المختلفة.

٦. ربما كانت انتفاضة الشباب عمليًا على أرض الواقع أولى تجاربهم الحياتية لإثبات ذواتهم والبحث عن هوياتهم المفتقدة لعقودٍ خلت. وقد أثبت الشباب على اختلاف مراحلهم العمرية قدرتهم على تحمل المسؤولية وإدارة شؤون المجتمع المدني بكفاءة عالية؛ يكفي فقط أن تراهم في المشهد ينظمون صفوفهم ويطرحون البدائل في سرعة لا تعهدها لدى الملتصقين بكراسيهم من مسؤولينا الكبار (الذين اختفوا في لحظة فارقة من تاريخ الأمة في انتظار قرارات فوقية)؛ ويكفي أيضًا أن تراهم يشكلون في ثقة وشجاعة لجانًا شعبية لحماية أنفسهم وأهليهم وشوارعهم وممتلكاتهم، وهو دورٌ تقوم به دولة بكامل مؤسساتها وموظفيها وعسكرها. يكفي أيضًا أن تراهم وقد ضحوا بلهوهم المشروع وعطلاتهم الدراسية لكي يعلنوا رأيهم في صراحة وقوة ووضوح. هذه هي قوة مصر الحقيقة، وهي الأمل الذي افتقدناه طويلاً في ظل كهول ودوجماطيقيين يشغلون كثيرًا من المواقع في حياتنا: في الجامعات، والمدارس، والمستشفيات، والشركات، والمؤسسات الإعلامية، والإدارات والمجالس المحلية، ... الخ. لا أنكر أننا في حاجةٍ إلى حكمة الشيوخ، لكننا في حاجة أشد إلى حيوية الشباب وسواعدهم وعقولهم، بل أرى أن السبب الرئيس لتخلفنا هو إهمالنا لهذه القوة الضخمة التي إن أحسنا استثمارها أسرعت بنا الخطى نحو مستقبل مشرق.

٧. لعل أبرز المكاسب التي حققها الشباب بانتفاضتهم هو كسر حاجز الخوف لدي المواطنين في تعاملهم المباشر مع السلطات الحكومية وجهاز الشرطة. وفي تقديري أن هذا الحاجز قد لا تقوم له قائمة بعد الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١، فقد انهار في النفوس إلى غير رجعة، ولم يعد من الممكن اتخاذ قرار، أو تصرف أهوج من قبل رجال الشرطة، دون أن يضع في اعتباره قوة رد الفعل الضخمة المنتظرة من قبل الشباب، فضلاً عن انعكاساتها داخليًا وخارجيًا. أما الخيار الحالي بين التغيير المتدرج أو الفوضى، وهو الخيار الذي فرضته استجابة السلطات المحدودة لمطالب المتظاهرين من جهة، وتطورات الوضع الميداني من جهة أخري، فلن يكون موضع ترحيب من الغاضبين إلا إن كانت هناك خطوات فورية وملموسة وحقيقية لبناء الثقة في نفوسهم من قبل الحكومة والجيش، على أن تترافق هذه الخطوات مع ضمانات فعلية – محلية ودولية – لتنفيذها على أرض الواقع.

٨. في خضم الصخب الإعلامي المصاحب لانتفاضة الشباب لم نسمع صوتًا واحدًا يركز على قضية التعليم والبحث العلمي في مصر باستثناء صوت الدكتور «أحمد زويل»؛ ربما لإحساس الرجل من موقعه أن هذه هي أخطر قضايا الوطن، وربما لمعاناته المسبقة ومكابدته لواقع البحث العلمي ومخصصاته في العالم العربي. إن ما أفرزته سنوات التعليم العجاف في مصر منذ منتصف السبعينات قد تضخم سياسيًا ومجتمعيًا واقتصاديًا بشكلٍ غير مسبوق، وما قضايا الفساد والأمراض والفقر والمحسوبية والبلطجة والفشل السياسي والعقلي وغيرها إلا نتائج لازمة ومتوقعة لإهمال قضية التعليم والتخبط في تنظيم برامجه. ولن يتسنى لنا إنقاذ الوطن والقضاء على لاعقلانيته إلا إن بدأنا بالتعليم: من رياض الأطفال إلى التعليم العالي، ومن المدرسة إلى الجامعة، ومن المراكز البحثية إلى مؤسسات الثقافة والإعلام ... لا بالعقول الحالية، وإنما

بعقول جديدة تستلهم روح المبادرة والابتكار ... تتكر الذات وتدرك جيدًا أنها في سبيلها لبناء وطن يستحق منا بذل الرخيص والنفيس من أجله.

(١٦) ارتجاع العقل الحُر ... من تونس إلى مصر!

- **٤ فبراير ٢٠١١**

ارتجاع العقل – كما أتصوره – هو حالة شبيهة بحالة ارتجاع المريء؛ تلك الحالة التي يعاني منها كثرة من الناس إثر تناولهم الطعام، لاسيما إن كان هذا الطعام دسمًا أو كانت كميته كبيرة، إذ سرعان ما يرتد الطعام إلى المريء محملاً بعصارة المعدة الهاضمة شديدة الحموضة، ليُسبب ما يُعرف طبيًا باسم حُرقة الفؤاد. حينئذ يشعر المرء وكأن نارًا قد اشتعلت بصدره، لا يخفف من حدتها إلا تناول مضادات الحموضة، وتجنب الاتكاء أو الاستلقاء على الظهر، بل إبقاء الجسم في وضع غير أفقي ريثما تتمكن المعدة من هضم الطعام ونقله إلى الأمعاء.

وإذا كان الطعام هو غذاء الجسد؛ يهضمه ويتمثله فيحيا ويقوى، فإن الأفكار هي غذاء العقل، يهضمها ويتمثلها فيحيا ويقوى بالمثل، ومن ثم يتعرض العقل في كثيرٍ من الأحيان – مثلما يتعرض الجسد – لحالات عُسر الهضم والانتفاخ والارتجاع، خصوصًا إن كانت الأفكار التي يتعاطاها تتسم بالقوة أو الضخامة، أو كانت من نوعٍ جديدٍ عليه لم يألفه من قبل ولم يسبق له أن مرَّ بتجربة هضمه. والأمثلة على ذلك كثيرة ومتنوعة، أذكر منها تحديدًا رفض العقل الأوربي إبان بدايات العصر الحديث لنظرية «كوبرنيقس» القائلة بدوران الأرض حول الشمس الثابتة، وهي النظرية التي حوكم «جاليليو» بسبب تبنيه لها من قبل المؤسسة الدينية ذات النفوذ الصارخ في ذلك الوقت، والتي رأت فيها إهدارًا لمركزية الإنسان في الكون كما أقرتها الكنيسة وأعلنتها من قبل نظرية «بطليموس» القائلة بمركزية الأرض وثباتها ودوران الشمس حولها. لم يستطع العقل الأوربي وقتئذ هضم النظرية بسهولة، بل ظل يكابد ارتجاعًا عقليًا لها حتى استقرت لديه نظريًا وتجريبيًا، ليضيف إليها بعد ذلك حقيقة دوران الشمس ذاتها حول مركز المجرة.

أما في مجتمعاتنا العربية فيبدو أن حكوماتها قد أشفقت على شعوبها من مثل هذه الحالات المؤلمة، فمنعت عنها كافة الأطعمة الفكرية الجيدة اللازمة لسلامة العقل وقوة الحياة، كالحرية، والديموقراطية، والعدالة، والكرامة، والإنسانية، ... إلخ، لتُلقي لها ببقايا أطعمة فكرية رديئة تترك العقل هزيلاً في جسد منهك لا يقوى على مجاراة الآخرين. لم يتذوق العقل العربي طعم الحرية في ظل هذا التوجه لعقودٍ طويلة خلت، فبات يألف طعم العبودية ويفتقد القدرة على التمييز بينهما؛ ولم يسبق لعقله أن خاض تجربة هضم الكرامة والعدالة، فبات يخشى الاقتراب منهما أو التطلع لتذوقهما؛ وصوَّرت له حكوماته مرارة الديموقراطية واستحالة هضمه لها، فابتعد عنها مرغمًا، مؤثرًا تجنبها كي لا يعاني مرارتها! لقد أطبقت الأنظمة الحاكمة في وطني أيديها على ثمار الحرية والديموقراطية وغيرها، وباعدت بينها وبين أفواه مواطنيها، لعلمها أنهم إن تذوقوها فلن يثنيهم شيء عن التهامها والاستمتاع بحلاوتها، بل وسيقوي العقل في جسد جديد، ويتلاشى الخوف في النفس المقهورة لتطالب بالمزيد، وحينئذٍ تهتز كراسي الحكم، وتتراجع ضربات الظلم، وتتهاوى أقنعة الباطل أمام غضبة القوم.

ومع مطلع العام الجديد، وفي لحظة فارقة من لحظات تاريخنا المعاصر، تجرأ الشعب التونسي على سيَّافيه، وتاقت نفسه لتذوق تلك الثمار حتى ولو عانى عُسر هضمها، فاقترب منها واختطفها بقوة، ليبدأ على الفور في التهامها، صحيح أنه عانى وما زال يعاني ارتجاعًا عقليًا جراء تناولها، لكنه أدرك أنها تستحق، وأن بعضًا من مضادات الحموضة الفكرية قد تسرع به إلى هضمها، ومن ثم يحيا من جديد. وفي لحظة تاريخية تالية، استيقظ المارد المصري الجريح فجأة ليرى الثمار في تونس وقد تم انتزاعها والتهامها؛ انكسر بداخله حاجز الخوف الذي كان يحول بينه وبينها، فاقترب منها بدوره محاولاً انتزاعها. حقًا أنها بين أصابع خشنة وقوية، لكنه نجح في إفلات بعضها، وبات قاب قوسين أو أدنى منها.

فيا أهل تونس الشرفاء: لا تفرطوا فيما حققتموه، ولا تشوهوا ما أنجزتموه ... بشيء من الثبات والحكمة يتلاشى الارتجاع العقلي للأفكار الجديدة، ويتراجع الانحصار الفكري فتحيوا حياتكم الجديدة، وما أروعها من حياة.

ويا شعب مصر الأبي: كن على الطريق قويًا وواعيًا وحكيمًا، فقد اقتربت من الثمار، وحين تتذوقها ستنثر منها البذور لتزدهر بها الأشجار. لقد تصدعت أصنام الجاهلية والسطوة أمام غضبتك الكبرى، وعما قريب ستهوى وتنهار، لتشرق شمسٌ جديدة وتتغنى بفرحة الانتصار ... في جناتٍ مصرية تجري من تحتها الأنهار. لا تنقض غزلاً نسجته بدماء الأبرار، ولا تقتل بيديك حلمًا كان يقبع مستترًا في غيابة الأسرار.

(١٧) لصوص لا يستحون!

- **١٧ فبراير ٢٠١١**

عبر ثلاثين عامًا عاشتها مصر في عباءة الدولة البوليسية ذات الرؤية الواحدة، والحزب الواحد، والحاكم الواحد، أفرز نظام الحزب الوطني أنماطًا مختلفة ولا حصر لها من الفساد، لعل أبرزها انتشار ثقافة اللصوصية، والتنامي المتسارع لعدد اللصوص بشكل غير مسبوق في شتى المجالات، وبين كافة طبقات المجتمع المصري، من أدناها (وهي الطبقة المُعدمة المغلوبة على أمرها) إلى أعلاها (وهي الطبقة المترفة المسيطرة)، مرورًا بالطبقات الوسيطة بينهما على تدرجاتها. ولم تعد دائرة المعنى لمصطلح اللص مقتصرة على ذلك المستحل لأموال الآخرين وممتلكاتهم من خلال عمليات السلب والنهب والرشوة المألوفة، بل لقد اتسعت لتشمل أصنافًا جديدة ومتنوعة من الناس؛ فمنهم مثلاً لصوص الكرامة والآدمية من رجال الشرطة، ولصوص العدالة من القضاة، ولصوص الحق من المحامين، ولصوص الفكر من الباحثين وأساتذة الجامعات، ولصوص المناصب من المنافقين والمنتفعين، ولصوص العقل والحقائق من الإعلاميين، ولصوص الحياة والأعضاء البشرية من

الأطباء، ولصوص الطبيعة والجمال من المقاولين، ولصوص الوقت من البيروقراطيين، ولصوص الماضي من المؤرخين، ولصوص الحاضر من الوزراء والسياسيين وأعضاء المجالس النيابية، ولصوص المستقبل من الخبراء والمخططين، ولصوص المشاعر الروحانية من رجال الدين، ولصوص الجسد من المروجين للإباحية وتعرية المرأة، ولصوص الحضارة من المتاجرين بالثقافة والتعليم، ... الخ. وقد أبي عهد الحزب الوطني أن ينقضي إلا وقد أضاف إلى القائمة السابقة لصوصًا آخرين؛ ألا وهم لصوص الثورة من قادة لأحزاب وحركات وجماعات هشة، ارتضى لهم النظام أن يكونوا مجرد أدوات تجميلية تزين صورته أمام العالم، وارتضوا هم لأنفسهم أن ينعموا بفتات موائده المظهرية.

والأدهى من ذلك أن اللص في ظل سياسات هذا الحزب لم يعد هو ذلك المارق الممارس لسرقاته في جوف الليل، أو المتخفي عن أعين الناس خشية الإيقاع به، أو حتى المستحي مما اقترفه من اعتداءات على حقوق الآخرين، بل أصبح اللص في مصر المعاصرة رجلاً يُشار إليه بالبنان، يمشي مزهوًا بقدراته، منتشيًا بما حصَّله مما لا يستحق، مفتونًا كقارون بشهرته، وبانحناءات القوم وتطلعاتهم لشيء من عطاياه. ولم لا وهو يعلم أن هذا اللامستحق يمهد الطريق أمامه لمصافحة أولى الأمر ومشاركتهم ما هو أضخم: حكم مصر وثروتها. أمَّا إن كان لصًا صغيرًا، دفعه الحرمان والإحساس بالقهر – مع غياب الوازع الديني والحد الأدنى من السلوك الحضاري – إلى سرقة ونهب الممتلكات العامة والخاصة، من عينة أولئك الذين التقطت كاميرات الهواتف المحمولة صورهم بعد الانسحاب المخطط للشرطة، فما هو إلا مجرد نموذج لثقافة اللصوصية التي تشربها الكثيرون – لاسيما في المناطق العشوائية – تحت إلحاح سياسات الحزب الحاكم.

ليس غريبًا إذن أن ينتفض الشرفاء من شباب مصر (وهم الأكثرية) محاولين إزالة ما علُق بالجسد المصري من زوائد سرطانية شوَّهت قيمه وتاريخه وهويته، وليس غريبًا أن تتحول انتفاضتهم إلى ثورة تستأصل بالإصرار ورمًا أنهك الجسد وبلغ

به مشارف الموت، بل وأن تستيقظ على صرخات غضبهم عناصر فئوية سعى النظام طويلاً إلى تخديرها قسرًا كي يسهل له امتصاص دمائها وتغييب وعيها. لكن ماذا بعد أن هدأت حدة الثورة: هل نجحت بالفعل في تحقيق أهدافها؟ وهل استقر في يقين المصريين أن ما ثاروا من أجله قد امتثل طوعًا أو كرهًا لطموحاتهم؟ وهل جاءت النتائج مكافئة في قوتها لقوة وضخامة الكلمات التي رفعوها شعارًا: الشعب يريد إسقاط النظام؟ دعنا نعيد القراءة بروية وهدوء، ونتأمل معًا بتأنٍ بعض دلالات الأحداث التي مررنا بها:

كان البيان الذي ألقاه السيد «عمر سليمان» مساء الحادي عشر من فبراير ٢٠١١ هو نقطة الفصل التي أدت إلى فض مظاهرات الغضب وعودة الهدوء الحذر إلى كافة الميادين المصرية التي اكتظت بالمتظاهرين، لاسيما ميدان التحرير، فقد تحقق مطلبهم الأساسي وهو إزاحة الرئيس «مبارك» عن سدة الحكم. لكن القراءة النقدية لنص البيان تكشف عن أنه إما قد تمت صياغته على عجل ودون تدقيق لكلماته، وإما أنه قد صيغ بدهاءٍ شديد؛ فمنطوق البيان أن الرئيس «مبارك» (قد تخلى عن منصب رئيس الجمهورية، وكلَّف المجلس الأعلى للقوات المسلحة بإدارة شؤون البلاد)، وثمة فرق – من المنظور اللغوي والسياسي – بين أن يتخلى المرء عن منصبه، وتكون له قوة إصدار الأمر بتكليف غيره للقيام بمهامه، وبين أن يتنحى عن منصبه ليترك لغيره (الشعب أو الجيش) حرية تقرير المصير (من خلال مجلس رئاسي مصغر مثلاً، أو حتى من خلال المجلس العسكري ذاته). وقد يتضح الفرق إذا استمعنا لقرار تنحي الرئيس «جمال عبد الناصر» بعد نكسة ١٩٦٧، حيث قال بالحرف: (لقد قررت أن أتنحى تمامًا ونهائيًا عن أي منصبٍ رسمي، وأي دورٍ سياسي، وأن أعود إلى صفوف الجماهير أؤدي واجبي معها كأي مواطنٍ آخر). معنى ذلك أن الحزب الوطني ما زال – بحكم أمر التكليف الذي أصدره الرئيس مبارك – هو الحزب الحاكم في مصر، وأن بإمكانه التدخل لتوجيه دفة التغييرات لتلافي أية ملاحقات قضائية لأشخاصٍ بعينهم، بل ولتلافي أية إجراءات من شأنها أن

تثير غضب القوى الدولية ذات المصالح في المنطقة، وهو ما تؤكده شواهد تداولتها وسائل الإعلام في الآونة الأخيرة، منها استمرار كبار معاوني الرئيس – سواء في القصر الجمهوري أو الحكومة – في ممارسة أعمالهم وإعداد تقاريرهم اليومية عن مجريات الأحداث. هذا فضلاً عن بقاء أعمدة الحزب الوطني في مناصبهم الرسمية: كرؤساء تحرير الصحف القومية (خبراء تجميل النظام) ممن يصعب – وفقًا لبديهيات علم النفس – أن تتغير سلوكياتهم أو ثقافتهم بين يوم وليلة، وإثارة النعرات الطائفية من قبل البعض فيما يتعلق بتغيير بعض مواد الدستور، والتفاف بعض أعضاء الحزب الوطني على الثورة من خلال الدعوة لتأسيس حزب جديد بثوبٍ ثوري مفتقد، ومحاولات البعض اللعب على أوتار الموروث العاطفي الجمعي للشعب المصري، ... إلخ.

ولا يعني ذلك التشكيك في مصداقية المجلس العسكري؛ فما زالت المؤسسة العسكرية هي أشرف مؤسسة تعمل على أرض مصر، وقد واتتها فرصة تاريخية لقيادة مصر نحو تغيير حقيقي يقضي على رموز الفساد – إن عاجلاً أو آجلاً – فضلاً عن تصفية الحسابات مع خصمين رئيسين: طبقة السياسيين من رجال الأعمال الذين التفوا حول نجل الرئيس وأمسكوا بمقاليد الأمور مصطدمين بمصالح الجيش الاقتصادية، والحزب الوطني الذي ارتقى سريعًا بنجل الرئيس ليصبح رئيسه الفعلي. هذا فضلاً عن رغبة الجيش الصادقة في استقرار الأوضاع حفاظًا على أمن مصر من جهة، وعلى الثقة المكتسبة والمتنامية بينه وبين الشعب من جهة أخرى. لكن ذلك يعني بالأحرى أن أهداف الثورة لم تكتمل بعد، وأن زخم الثورة قد انتقل من الشارع إلى قاعة المجلس العسكري، حتى وإن اضطرته معطيات الميدان المحلي وضغوط القوى الدولية إلى محاولة فض الاشتباك بشكل عقلاني بين عهدٍ بائد (كان هو الجزء الوحيد المشرق فيه)، وبين عهد آتٍ بدأت ملامحه في التشكل وإن في معاناة تدفعه إلى المراجعة من حين إلى آخر. بعبارة أخرى أستطيع القول أن الطريق أمام الثورة المصرية ما زال طويلاً، وأننا الآن في منعطف هام

وخطير، إما أن يؤدي بنا إلى ســـــــاحة مأمولة لقيم العدالة الاجتماعية والكرامة الإنسـانية والارتقاء الحضـاري ومحاربة الفسـاد ، وإما أن يتراجع بنا إلى الوراء مدمرًا ما قد بدأناه، ومرسخًا لثقافة اللصوصية التي ما زالت تنازع من أجل البقاء، وحينئذ ربما ســُرق ميدان التحرير برمته. الأمر بيد الله وحده، نســـأله أن يحفظ مصـــر وأهلها ، وأن يلهم الحكمة لقادة جيشها ، والوعي لأفراد شعبها.

(١٨) أصنام هذا الزمان!

- **<u>٥ مارس ٢٠١١</u>**

كان العربي قبل الإسلام يتفنن في صناعة الأصنام – كآلهة له – من مواد مختلفة؛ فقد يكون الصـنم مثلاً من ذهبٍ أو برونز، تقديرًا لعلو شـأنه والتضـحية من أجله بالنفيس من المعادن؛ وقد يكون من الحجر، تعبيرًا عن قوة بأسـه وشـدة بطشـه؛ وقد يكون كذلك من البلح (العجوة)، بحيث يجمع بين كونه إلهًا يُعبد وكونه طعامًا يُؤكل تلبية لنداء البطن حين يعتصرها الجوع!

لم يكن العربي في جاهليته يفكر فيما إذا كانت هذه الأصـــنام التي صـــنعها وشـــكَّلها بيديه بإمكانها منطقيًا أن تنفع أو تضـــر، ولم يكن يشـغل باله بما إذا كانت – كمواد جامدة – بإمكانها أن تسـمع أو تسـتجيب لتضـرعاته ونجواه، بل كان همّه الأكبر منصـبًا فحسـب على وجود صـنم عيني أمامه يعبده أو يقربه إلى الله زلفى؛ يؤنس وحدته على الأرض في هـذا الكون الموحش، ويلوذ بـه فرارًا من كوارث الدنيا وتقلباتها ، وفوق ذلك يُشـبع (ولو زيفًا) حاجته الوجدانية إلى من يلقى عليه بتبعة تحقيق ما عجزت عنه قواه وإمكاناته، ويجد في التقرب له أو به مواساته عما أخفق فيه أو تكاسل عنه أو أسرف فيه أو ارتكبه من جرائم.

وجاء الإســلام ليرســي في نفوس معتنقيه عقيدة التوحيد ، ويهدم بمعاول الإيمان أصـنامًا أقيمت وعُبدت جهلاً وظلمًا وعدوانًا ، ويعيد إلى العقل والكرامة الإنسـانية مكانهما الطبيعي في كل موضـع تطأه أقدام البشـر. لكن يبدو أن العربي – رغم

ثبات هويته الإسلامية – لم يتخلص تمامًا من ثقافته الجاهلية في صناعة الأصنام، بل إن هذه الثقافة لتتجلي بوضوح في ممارساته كموروث جمعي رسخته بداخله الحضارات الوثنية القديمة بآلهتها الزائفة. حقًا لقد تخلص من تلك الأوثان الجامدة التي كان يزين بها قبلته، لكنه استبدل بها بشرًا من بني جلدته لا يملكون له أو لأنفسهم شيئًا.

الصنم البديل في حياة العربي هو صاحب المنصب (أيًا كان موقعه)، أو الداعية، أو الفنان، أو العالم، أو رجل المال، ... إلخ، الذي يرفعه الناس مكانة تعلو به فوق إمكاناته، ويصطفون جلوسًا حول موائده في انتظار الغث من عطاياه، فتعلو به ظنونه الكاذبة إلى مصاف الآلهة. لكن أخطرهم جميعًا هو صاحب المنصب السيادي، الذي ما أن يجلس على كرسيه حتى يتزلف إليه المنافقون، ويسبح بحمده المنتفعون، وتُزين كافة المؤسسات الحكومية وغير الحكومية بصورته، وتهلل له وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة ليل نهار؛ وما أن يخرج علينا متحدثًا حتى ينهض المحللون لاستخراج لآلئ الحكمة من كلماته حتى لكأنها تحمل جوهر الحكمة الثابت في قرطاس الأبدية، وينشط السياسيون والاقتصاديون في تحليل ما تنطوي عليه عباراته من تشريعات تستعصي على عقول البشرية، ويحتشد القوم للاحتفال والاستمتاع بطلعته البهية. حينئذ تتحقق فيه مقولة ابن خلدون: (... وإذا تعين له ذلك ... يجيء خُلق التأله الذي في طباع البشر ... فيجدع حينئذ أنوف العصبيات – الأحزاب والجماعات بلغة العصر – ويكبح شكائمهم عن أن يسموا إلى مشاركته في التحكم ... وينفرد به ما استطاع حتى لا يترك لأحد منهم في الأمر ناقةً ولا جملاً، فينفرد بذلك المجد بكليته ويدفعهم عن مساهمته فيه).

بعبارة أخرى يظن صاحب المنصب السيادي وقتئذ أن كرسيه قد وسع سماوات قومه وأرضهم، فيحيي فيهم ويميت، يعطي ويمنع، يثيب ويعاقب، يعز ويذل، ويحرر ويسجن. هكذا ظن فرعون نفسه حين قال: «أنا ربكم الأعلى» (النازعات: ٢٤)،

وحين قال: «أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي» (الزخرف: ٥١)؛ وهكذا ظن مبارك نفسه حين عاش في مصر فسادًا فجوع أهلها واستأثر بخيراتها؛ وهكذا ظن القذافي نفسه حين قال: أنا مجد لا تستغني عنه ليبيا وأفريقيا (لا زلت أذكر صورة مبارك التي كانت تعلو منصة قاعة مجلس الكلية بجامعتي، وكأنما هو الملهم لقراراتنا، والغريب، بل المشين، أن تعلق تحتها لوحة قرآنية تحمل سورة الإخلاص!).

نحن الذين صنعنا هؤلاء كآلهة تظن لنفسها الخلود؛ كأصنام نمارس أمامها طقوسنا الزائفة – طوعًا أو كرهًا – من تهليل وتسبيح وسجود، بنفاقنا وتزلفنا وجهلنا، وبما لم يأمرنا به رب الوجود. وأخشى أننا في مصر الآن نعمد إلى صنع أصنام جديدة؛ نبحث جاهدين عن آلهة باعثة لثورتنا، تقود في الزمن الآتي مسيرتنا، وتنعم علينا بما عجزت عنه قريحتنا. وكم من مشتاق للتأله ليبسط سلطانه علينا!

(١٩) هموم مصرية

- <u>**١٩ مارس ٢٠١١**</u>

لست حزبيًا ولا إخوانيًا أو سلفيًا، ولم أكن يومًا ليبراليًا أو اشتراكيًا أو علمانيًا، ولم أتدثر يومًا بعباءة رجل بعينه، عالمًا كان أو سياسيًا، فقيهًا أو إعلاميًا ... ومع ذلك، أنا كل هؤلاء: مصري مسلم؛ أقرأ فكر السلف، وأناقش الإخوان ... أعشق الحرية، وأقدس العدالة الاجتماعية ... أجتهد في ابتغاء الدار الآخرة ولا أنسى نصيبي من الدنيا ... أفتح نوافذي لكافة رياح الفكر بشرط ألا تقتلعني من جذوري. ما أروع أن أمارس ملكة السلب فأقول لا لما يستخف بمنطقي ولا يحترم عقلي، وما أقسى أن أمارس عادة الطاعة فأقول نعم لما إلى حضن الماضي يحملني ويقذفني. وقد علمتني الرؤية النقدية التي أزعم أنها عصب الفلسفة ألا أثق في تصريح إعلامي، وألا أصفق لأية كلمات تدغدغ مشاعر شعب جعل العاطفة منهجًا وموضوعًا لحاضره ومستقبله، وألا أنخدع بابتسامة تخدر وعي البسطاء، وألا أحزن لدموع تتساقط من عيون وقحة. أبيت ليلتي وشكوكي وأحلامي تصارعني.

معركتي قراري، وهمومي هموم قومي وبني وطني. «ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام» (البقرة: ٢٠٤).

(٢٠) ضريبة العمل!

- **٨ مايو ٢٠١١**

حين استكمل «برتراند رسل» B. Russell (١٨٧٢ – ١٩٧٠) كتابه الضخم الذي استغرق عدة سنوات من العمل المتواصل («*برنكيبيا ماثيماتيكا*» *Principia Mathematica*، ١٩١٠)، وصف حاله قائلاً: «لقد اكتشفت أن ثمة أناسًا آخرين في العالم من حولي». وكثيرًا ما أشعر بذات الشعور حين أنتهي من عمل كان يشغلني، لذا أتساءل: هل ثمة ما يستحق أن تُحرم من أصدقائك وأحبابك تحت وطأة العمل رغم قصر الحياة؟ ولماذا يتكالب الناس على المناصب رغم ضريبتها الباهظة؟ وهل من يسعون الآن لشغل المناصب القيادية في الدولة يدفعهم حقًا حب الوطن فيضحون في سبيله بسعادتهم، أم أن من طبيعة الإنسان التأله وحب السيطرة والشهرة كما قال ابن خلدون؟

(٢١) سكسونيا ... سكسونيا!

- **٢٣ مايو ٢٠١١**

حتى وقت قريب، كانت سكسونيا هي إحدى الكلمات التي تألفها آذاننا؛ إذ كانت تعلو على ألسنة بعض الباعة الجائلين الذين يطوفون بالشوارع والأزقة حاملين فوق رؤوسهم أصنافًا من الأواني المعدنية والبلاستيكية، عارضين مبادلتها بما تم الاستغناء عنه من ملابس. كان مشهد هؤلاء الباعة يثير لدَّي عدة تساؤلات؛ أولها عن معنى الكلمة ذاتها؛ وثانيها عن مقدار الربح الذي يمكن أن تُدره هذه المهنة، والذي يدفع أصحابها إلى الطواف بحملهم الثقيل طيلة اليوم؛ أما ثالثها فعن مغزى اقتصار بضاعتهم على هذه النوعية من الأواني، واقتصار مقابلاتها على الملابس. ولم أجد إجابة عن هذه التساؤلات في صغري حتى توارت في ركنٍ بعيد

من ذاكرتي، ولم يبعثها من مكمنها إلا عبثية الحاضــــــــر العربي ولا معقولية سياساته. أسرعت إلى ما توافر لدي من قواميس ومعاجم، فوجدت الكلمة تشير إلى صنف من الصوف الخشن، ربما من تلك النوعية التي كان يتدثر بها الفقراء في ولاية سكسونيا Sachsen، تلك الولاية الألمانية التي كانت مشهورة بقوانينها الجائرة التي فرضت العقاب الفعلي على الفقراء والبسطاء إذا ارتكبوا جريمة ما، واكتفت بمعاقبة ظل الأثرياء والوُجهاء؛ وهكذا، فإذا سرق فيهم الغني تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد!

وعدت أفكر، لأستنتج أن مهنة السكسونيا – إن صحَّ التعبير – كانت بالضرورة مهنة مُربحة، إذ كانت تعتمد على الميؤوس منه من متاعنا: ملابسنا التي نود التخلص منها ولو بلا ثمن، لنأخذ بدلاً منها قطعًا مطبخية تغازل أعين النساء، سرعان ما ستبلى.

هكذا يتاجر صُناع السياسة والتعليم والثقافة في وطني بالميؤوس منه لدينا في ظل برامج وقوانين وممارسات لا تقل جورًا عن قوانين سكسونيا: ثوراتنا، تعليمنا، أحلامنا، حريتنا، عقولنا، كرامتنا، نهضتنا .... ليمنحونا بدلاً منها شذرات لتخدير جسد أنهكته الحياة، سرعان ما ستقتله.

هكذا اجتمع المعنيان في معنى واحد: قهر التخلف العربي، أو إن شئت فقل: جمهوريات سكسونيا العربية!

(٢٢) فَسبكَ، يُفسبِك، فهو مُفسبِك أو فيسبوكي!

- <u>٤ يونيو ٢٠١١</u>

هل ثمة خطورة مستقبلية على اللغة العربية من تدفق كثرة من مصطلحات اللغات الأجنبية إليها، لاسيما في مجال العلم والتكنولوجيا المتسارع باكتشافاته؟ أم أن الحفاظ على اللغة وتجنيبها عوامل الفناء يقتضي استيعاب هذه المصطلحات لتصبح جزءًا من نسيجها؟ قفز هذا السؤال إلى ذهني حين فرض استخدام الفيس

بوك (والإنترنت عمومًا) على اللسان العربي مصطلحات جديدة؛ مثل (فَسبكَ، يُفسبِك، فهو مُفسبِك أو فيسبوكي)، أو (جَوجل، يُجوجِل، فهو مُجوجِل – يستخدم محرك البحث جوجل). وقد وجدت أن ثمة فريقين يتنازعان في هذا الصدد؛ الأول هو الفريق الكلاسيكي المتمسك بالفصحى انطلاقًا من تمسكه بهويته الدينية والتاريخية والثقافية والقومية، ومن ثم الرافض لأي تحديث أو تشويه للغة بدعوى إمكانية إحلال مفردات عربية أصيلة محل المصطلحات الدخيلة.

أما الثاني فهو فريق المحدثين الداعي إلى استيعاب الجديد والدخيل من الكلمات والمفردات باعتباره ضرورة تفرضها مواكبة التقدم العلمي والتكنولوجي والارتقاء الحضاري. وقد احتج هذا الفريق بأن هذا الاستيعاب يزيد من حيوية اللغة وخصوبتها، مثلما هو الحال في اللغة الإنجليزية التي استوعبت كثيرًا من مفردات لغات العالم المختلفة، حيث لا مجال للقول بقدسية اللغة، لأن القرآن ذاته استخدم ألفاظا فارسية (مثل استبرق وسندس وقنطار)، وهي كلمات تخالف كل الأوزان العربية. هذا فضلاً عن استخدام العرب في صدر الإسلام للعديد من المصطلحات الدخيلة (مثل ديوان، إبريق ... إلخ)، وهو ما أدى لإنماء ثروتهم اللغوية، وكذلك استخدامنا الحالي لكلمات مثل تلفاز، إلكترون، فلسفة، شيزوفرانيا، استمارة (كلمة تركية)، بفتة (كلمة هندية تعني القماش الأبيض)، خبل (كلمة فارسية تعني الجنون)، ... إلخ.

يقودنا ذلك إلى سؤال آخر: هل نترك أمر اللغة لفقهائها من شيوخ المجامع اللغوية لتحنيطها بمصطلحات يصعب تداولها في غمار الكم الهائل من اللهجات العربية المختلفة، أم يقتضي الأمر مشاركة الناس (على اختلاف ثقافاتهم) في كتابة المعاجم العربية، مثلما كان الحال بالنسبة لقاموس أكسفورد مثلاً، حيث طلب من الناس إرسال الكلمات التي يعرفونها إلى لجنة تقوم بعد تفحصها بإضافتها إلى القاموس؟

(٢٣) اللغة تشارك الأمة أقدارها!

- <u>٤ يونيو ٢٠١١</u>

إن اللغة تشارك الأمة أقدارها ... ومتى ضعفت الأمة وتهافتت ماتت اللغة.

فوجئت وفوجئ الجميع بمأساة اللغة العربية على ألسنة قضاة مصر، سواء في جلسة النطق بالحكم على مبارك، أو في إعلان اللجنة العليا للانتخابات نتائج انتخابات الرئاسة المصرية. بدت لغتنا الجميلة كشجرة جرداء تتساقط أوراقها على مرأى من العالم أجمع، بدت كعروسٍ فقدت بهاءها ورونقها، تتلوى وتحتضر جراء الأخطاء النحوية القاتلة، تدهسها الأقدام لتسوي بها الأرض. لا أنكر أنها ليست مشكلة القضاة وحدهم ... لا أنكر أن ما سمعناه ورأيناه مجرد أنموذج لتلك الأمية اللغوية التي يموج بها مجتمعنا ... لا أنكر أنه أنموذج للهزيمة الحضارية التي نرعاها بحرص في مدارسنا وجامعاتنا ... لا، ولا أنكر أن هذا الأداء البائس هو أحد القرائن القوية التي تدين عقود خلت من التصاغر واحتقار الذات، ومن ثم احتقار اللغة، لكني أربأ بالقضاء المصري العريق أن يكون واجهة لهذا العوار اللغوي.

لقد رفض «جاك شيراك» (رئيس فرنسا الأسبق) رفضًا باتًا أن ينشئ مطعمًا لشركة «ماكدونالدز» في برج إيفيل، لأن هذا الأخير معلمٌ فرنسي ثقافي، ولأنه يعلم أنه مدخل لهدم الثقافة والهوية الفرنسية وإن في هيئة أكل أو شرب، أما في مجتمعاتنا العربية عمومًا، وفي مصر بصفة خاصة، فقد سوَّقنا للاغتراب اللغوي وتباهينا به، ونسينا أو تناسينا أن انحطاط اللغة ما هو إلا مظهر من مظاهر الانحطاط الثقافي ... نسينا أو تناسينا أن اعوجاج اللسان علامة على اعوجاج الحال.

(٢٤) ترويض الساسة أو التعاسة!

- <u>٢٢ يونيو ٢٠١١</u>

منذ أن أدرك الإنسان حقيقة كونه فردًا في جماعة، تتلاقى مصالحه – وتصطدم أحيانًا – مع مصالح الجماعة التي تحتويه، وتتلاقى مصالح جماعته – وتصطدم

أحيانًا – مع مصالح الجماعات الأخرى من بني نوعه، أصبحت السياسة جزءًا لا يتجزأ من ممارساته اليومية، تمامًا كالطعام، والشراب، والتكاثر، ومواجهة الطبيعة بأقوى أسلحة البشر: العقل ومنهج المحاولة والخطأ، دفعًا لمسيرة التطور والارتقاء الحضاري. وبعبارة أخرى، أصبحت السياسة واحدة من أهم غرائز النزوع الإنساني نحو البقاء والهيمنة. والبقاء – بالمعنى السياسي المتواتر عبر مراحل التاريخ المختلفة – هو بقاء الأقوى، القادر على استثمار طاقاته وإمكاناته وتكييفها بما يتوافق ومعطيات واقعه داخليًا وخارجيًا، ومن ثم توظيف كافة مناشط الحياة في حلبة صراع المصالح المتضاربة.

واستجابة للفوارق الاستعدادية والاختلافات الطبيعية بين أفراد مجتمعه، لجأ الإنسان – دون إتقان – إلى لعبة توزيع الأدوار، فأسند (مُكرهًا أو بإرادته) مهام إدارة شؤون المجتمع وسنّ القوانين وإصدار القرارات إلى فئة بعينها من أبنائه تجيد الرقص بالكلمات (الساسة)، بل ومنح هذه الفئة (مُكرهًا أو بإرادته) القوة اللازمة لتنفيذ سياساتها وإحكام سيطرتها، وحيثما اجتمعت السلطة والقوة، كان الفساد ثالثهما، إلا من رحم ربي «وإن تُطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون» (الأنعام: ١١٦)! وحين تفسد السياسة، يفسد المجتمع بأسره، وتخضع كافة مظاهر حضارته (من العلم، إلى الفن، إلى الدين، إلى الرياضة، ... إلخ) لسلطة من هم في الغالب لا يفقهون.

وكأني أسمع صدى صرخة العلم حين امتدت إليه الأيدي الخشنة للساسة لتخرجه من فراديس الحق والخير والجمال إلى بشاعة عالم مهده الشيطان بحطام من القيم، وبالتحديد حين ألقيت أول قنبلة ذرية على هيروشيما. يومها أعلن الفيزيائي الأمريكي «جاكوب روبرت أوبنهايمر» J. Robert Oppenheimer (١٩٠٤ – ١٩٦٧) أن العلم قد فقد عذريته، ولم يعد لنا أن نتخيله تلك العذراء الطاهرة الحنون! لكن عالم الكيمياء الحيوية النمسوي «إروين شارجاف» Erwin Chargaff (١٩٠٥ – ٢٠٠٢) ذهب إلى أبعد من ذلك، رأى أن العلم قد فقد

عذريته مع بدء مشروع مانهاتن، أول معسكر اعتقال علمي جُمع فيه أكثر العلماء عبقرية، من كيميائيين وفيزيائيين، تحت حراسة مشددة، وقيل لهم: هيا العبوا واقتلوا. كانوا يعرفون جميعًا أنهم سيقومون بأكبر اكتشاف شيطاني: تفجير الذرة، وأن هذا الاكتشاف سيستخدم في أكبر مذبحة في تاريخ البشرية. فإذا كان هذا حالنا حين نفذ السياسيون بالعلم إلى باطن الذرة وامتلكوا نواحي طاقتها المدمرة، فما بالنا إذا تحَكّموا في طاقة نواة الخلية الحية؟ إن هذه الأخيرة لا تشبه طاقة نواة الذرة، فلا أحد يفنى منها، لكن تفجير نواة الخلية يعني انفجار ضمير الإنسان، وإعلائه من شأن وحشية التفكير والغرور، فالأخلاقيات – كما نعلم – كانت دائمًا كالمطاط: خير ما يمكن أن يلائم نفسه مع الظروف! إنها أزمة التنافر بين القوة التي أطلقها العلماء من عنانها، والضعف أو القلق أو التناقض فيمن يوجهون أو يرشدون إلى استخدام هذه القوة.

وكأني أيضًا أسمع صرخات الفن المتتالية، بل وأرى جروحه النازفة الناجمة عن نهشات الساسة المتكررة، أولئك الذين أبوا إلا أن يخرجوه من واحة التذوق والتأمل والسمو الروحي إلى براثن الأيديولوجيات العبثية والسياسات الغثة، ليتغنى قسرًا بأمجادٍ زائفة، ويعبث بعقول وقلوب أرهقتها وعود الساسة، وأنهكتها رحلات السعي نحو سراب مجتمع الوفرة والرفاهية. وحتى الأديان السماوية – رغم قدسية نصوصها – لم تسلم من تأويلات الساسة المرحلية، ولم تسلم طوائفها المتكاثرة من توظيفات ذات أبعاد سياسية! ولا نُغالي إن قلنا أنها كانت وما زالت محور الصراع السياسي اللامنتهي بين البشر: محليًا ودوليًا. أما الرياضة، وهي النشاط الإنساني الهادف إلى امتصاص نوازع العدوانية والهيمنة، وإنهاء حالات الصراع على المستويين الفردي والجماعي، فقد لوثتها دومًا أهداف الساسة وردود الأفعال تجاهها، بداية من الدورات الأوليمبية التي أقيمت وتوقفت وأعيدت بقرار سياسي، ومرورًا بالمسابقات الدولية التي عانت كثيرًا من الانقطاعات والانسحابات والاعتداءات، ووصولاً إلى المسابقات المحلية واستغلالها كأفيون لإلهاء الشعوب وتغييب وعيها

السياسي. حقًا أن لكل من العلم والفن والدين قوى تمردية تستنفر الهمم الثورية من حين إلى آخر، إلا أن قواها سرعان ما تنسحق تحت وطأة أقدام الساسة الثقيلة وخطواتهم المحسوبة واللامحسوبة.

هذا على مستوى الرؤى السياسية وآليات تنفيذها وفقًا لقواعد الصراع من أجل البقاء والتفوق والهيمنة، أما على مستوى المناصب ذاتها وطموحات شاغليها، فالأمر أشد خطورة، لاسيما في المجتمعات التي تفتقر إلى الوعي السياسي، إذ غالبًا ما يُصاب صاحب المنصب بما يُعرف سيكولوجيًا بالتوحد بالسلطة، فيعمد إلى الحفاظ عليها بشتى وسائل التنكيل والتزوير وقمع الحريات وإهدار آدمية رعيته وابتزاز ثرواتهم، وهو ما تنطق به – على سبيل المثال – الحالة العربية الممتدة من الماضي إلى الحاضر. لا يطعن في ذلك وهم الخطاب القائل أننا في سبيلنا بعد ثورات الربيع العربي إلى إقامة نظم سياسية ديموقراطية تحترم حرية الاختيار وحقوق الناخبين؛ فما زالت نظمنا السياسية – من جهة – مُتخمة بثمار الماضي القريب المعطوبة، وما زالت موائدها المسمومة تتجمل بذات الوجوه الخادعة. ومن جهة أخرى، ما زالت ثقافتنا السياسية أسيرةً لوجاهة المنصب وامتيازاته، وأسيرة لعوامل العصبية والمذهبيات الدينية والحالة الاقتصادية لجموع الناخبين؛ فصوتي لمن هو من أهل عشيرتي، أو لمن يغازل توجهاتي الدينية، أو لمن يُفرج عني كربة ليلتي بطعام أو شراب أو مال، لا لمن هو أقدر على حمل أمانة صوتي. والسبب بسيط: أنني في الغالب لا أعرف فحوى هذه الأمانة!

ما السبيل إذن؟ لن أنادي بعالمٍ يخلو من الساسة، مثلما فعل الكاتب الإسرائيلي المناهض للصهيونية «عكيفا أور» Akive Orr (١٩٣١ – ٢٠١٣)، في كتابة: «*سياسة بدون سياسيين*» *Politics Without Politicians* (٢٠٠٥)، فتلك يوتوبيا تستعصي على التحقيق. ولن أنادي كذلك بالأناركية (اللاسلطوية) Anarchism، فمن غير المعقول أن نعتبر الدولة – كمؤسسة في حد ذاتها – مصدر كل شر أو قهر، وسبب استغلال الإنسان وإفساده وتشويهه. وقد كابدت اللاسلطوية الشيوعية

فشــــلا ذريعًا في الماضـــــي القريب. وحيث أنه من العبث الظن – في المقابل – بأننا يمكن أن تحكمنا الملائكة، فما من ســـــبيل أمامنا إذن إلا العمل على ترويض الساسة، أولئك الذين نمنحهم بأيدينا سلطة التحكم فينا. أعرف أنها مهمة صعبة، لكنها في الحقيقة ممكنة، ولعل أولى خطواتها (ريثما ينضج الوعي السيا سي لدي المحكومين) ما يلي:

١ – أن نتخلى تمامًا عن نظرية البطل (المنقذ للوطن)، فلو أنك راجعت مهام واختصـــاصـــات الحاكم وفقًا لدســـاتير الدول الديموقراطية، فلن تجد فيها ما يســـتدعي أن يكون الحاكم شـــخصـــًا يتمتع بقدرات خارقة، بل قد تكون المهام الرقابية لعضـــو مجلس النواب أشـــد خطورة من مهام الحاكم، وهو ما يســـتدعي تغييرًا تدريجيًا في ثقافة المواطن البسيط، تضطلع به المؤسسات التعليمية والمنظمات الاجتماعية والثقافية غير الحكومية، بحيث ننظر إلى شـــخص الحاكم، بل وينظر هو ذاته إلى نفســـه، كإنســـان عادي؛ يخطئ ويصـــيب، ويُحاســـب ويُعاقب، ويمرض ويموت، لا كإله خرج إلينا من أحشاء الكون.

٢ – ومنعًا للتهافت على المناصـب السـيادية ينبغي اتخاذ بعض الإجراءات، منها مثلاً أن يخضـع المرشـحون لأي منصـب سـلطوي (كعضـوية الحكومة ومجلسـي الشـعب والشـــورى والهيئات القضـــائية والشـــرطة) لاختبارات نفســـية وعصـــبية واجتماعية وثقافية، يتولى القيام بها علماء ذوو ثقة في تخصـصـاتهم (وما أكثرهم في الجامعات ومراكز البحوث)، على أن تُعلن نتائج هذه الاختبارات للشعب بوضوح وشفافية.

٣ – أن يتقدم المرشـــح لأي منصـــب قيادي ببرنامجه الانتخابي (مشـــفوعًا بمبرراته والفترة الزمنية اللازمة لتنفيذه) قبل وقتٍ كافٍ من الموعد المحدد لعملية الاقتراع، بحيث تُتاح له فرصـة عرضـه ومناقشـته في وسـائل الإعلام المختلفة، على أن يُسـتعان بعدد من الخبراء والحكماء من شـــتى التخصـــصـــات لفحص مدى إمكانية تطبيق وتحقيق ما ورد فيه من وعود في ضـوء المعطيات المحلية والدولية، وتوضـيح ما ينطوي عليه البرنامج من إيجابيات أو سلبيات لغير المتخصصين.

٤ – أن يتم تفعيل نظام شـــعبي – قضـــائي للمراقبة والمحاســـبة (بخلاف مجلس النواب)، تكون مهمته مراجعة برامج الفائزين ونشـــــاطاتهم وقرارتهم على فترات زمنية محددة، وتكون له قوة إعلان نتائج المراجعة، وتوقيع جزاءات تدريجية ينص عليها القانون، على ألا يترشح ناشطو هذا النظام لأي منصب قيادي.

٥ – أن يُحرم أصـــحاب المناصـــب القيادية والنيابية وذويهم من أية امتيازات أو استثناءات لا تقتضيها مهام مناصبهم، وأن تُمنع وسائل الإعلام (بوصفها جهة مراقبة مستقلة) من الترويج لهم أو تلميعهم، وأن تُعلن الذمة المالية لكل منهم سنويًا من قبل جهة محايدة.

ربما كانت هذه الخطوات – كما ذكرنا – صـعبة التنفيذ على المدى القريب، حيث عمَّ الفساد البلاد، وتصدر المنتفعون المشهد، لكنها على أية حال لا تصل إلى درجة الاسـتحالة، فبإمكان المتخصصـين وخبراء القانون تنقيحها وتنقيتها مما قد يعوق تنفيذها (لاســيما آلية اختيار أو تشـــكيل لجان الاختبار والمراقبة)، وحينئذ سيفكر المشتاقون للمناصب ألف مرة قبل أن يتقدموا بأوراق ترشيحهم.

وبعد ... دخل «أبو مسـلم الخُولاني» على «معاوية بن أبي سـفيان» فقال: «السـلام عليك أيها الأجير»، فقال له من حوله: «قل أيها الأمير»، فأعادها: «الســـلام عليك أيها الأجير»، فقال «معاوية» لصـحبه: «دعوه فإن أبا مسـلم يعرف ما يقول». ثم قال «أبو مسـلم» لمعاوية: «إنما مَثلك مَثَل أجيرٍ أؤتمن على ماشـية ليُحسـن رعيها، ويُوفر ألبانها، ويُنمي الصغيرة، ويُسمن العجفاء، فإن هو فعل استحق أجره وزيادة، وإن هو لم يفعل نزل به عقاب مُســـتخلفه، ولم ينل أجرًا. يا معاوية، إنك إن عدلت مع أهل الأرض جميعًا، ثم جُرت على رجل واحد، مال جورك بعدلك. يا معاوية، لا تحســـبن الخلافة جمع المال وإغداقه، إنما الخلافة العمل بالحق، والقول بالمعدلة، وأخذ الناس في ذات الله. يا معاوية، إن الناس لا يبالون بكدر الأنهار ما صـــــفا النبع وطاب، وإن مكان الخليفة من الناس مكان النبع الذي يرجون صفاءه».

وليس مسؤولينا بمنزلة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين عورضوا وحوسبوا من رعية عرفت حقًا حدود العلاقة بين الحاكم والمحكوم؛ فتأتي الوفود من الأمصار لمحاسبة «عثمان» رضي الله عنه، ويحاسب العبادلة الأربعة «معاوية» حسابًا شديدًا على أخذه البيعة ليزيد، ويحاسب «سفيان الثوري» «المنصور» بقوله: «اتق الله فقد ملأت الأرض جورًا»، فيطأطئ «المنصور» رأسه، ... إلخ، بل لقد عورض المصطفى صلى الله عليه وسلم (بوصفه بشرًا وحاكمًا للدولة لا بوصفه رسولاً من عند الله) في مواطن كثيرة؛ ففي الخندق لم يوافق «سعد بن معاذ» و«سعد بن عبادة» الرسول عليه السلام على إعطاء «غطفان» ثلث ثمار المدينة، وقال له «سعد بن معاذ»: «والله لا نعطيهم إلا السيف»، فقال عليه السلام: «أنت وذاك»، وعمل برأيهما. وفي الحديبية اعترض «عمر» رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب موافقته على الصلح، وقال: «علام نعطي الدنية في ديننا» ... إلخ. وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجاب لكم».

(٢٥) أليس القرآن كتابًا واحدًا أنزله علينا ربٌ واحد؟!

- **٢٣ يونيو ٢٠١١**

لماذا نُقبل على ما يستهوينا من كتاب الله عز وجل، ونُعرض عما لا يوافق هوانا؟ يقول تعالي في سورة البقرة، آية ٨٥: «أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزيٌ في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلي أشد العذاب وما الله بغافلٍ عما تعملون». وهكذا، فإذا قال سبحانه في سورة البقرة، آية ١٨٣: «كُتب عليكم الصيام»، نفَّذنا وقلنا سمعًا وطاعة؛ وإذا قال في السورة ذاتها، آية ٢١٦: «كُتب عليكم القتال»، تراجعنا وأعرضنا. وإذا قال سبحانه في سورة المائدة، آية ٦: «يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم

وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين»، نفَّذنا وهرعنا إلى الوضوء قبل كل صلاة، وإذا قال في السورة ذاتها، آية ٣٨: «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم»، قلنا نفكر في الأمر ثم أعرضنا. وإذا قال تعالى في سورة الأحزاب، آية ٥٦: «إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما»، تحركت ألسنتنا وسارعنا إلى الصلاة على الحبيب، وإذا قال في السورة ذاتها، آية ٥٩: «يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يُؤذين وكان الله غفورًا رحيما»، أخضعنا الأمر للدراسة والتأويل ثم أعرض معظمنا.

أليس القرآن كتابًا واحدًا أنزله علينا ربٌ واحد؟ وهل يحتمل ازدواجية العمل بأحكامه وأوامره ونواهيه؟ ألم يلاحظ كل منا أن لديه ازدواجية في إسلامه؟ أم أن معظم الأحكام المعطلة في القرآن موكولة إلى أولي الأمر؟ ألا يعني ذلك أننا في الحقيقة خوارج على أنفسنا، مرجئةً على أولي الأمر؟ الكون على مساحته واتساعه أضيق من سم الخياط إذا خلت الحياة من نسمة الإيمان بالله، وأين يذهب المرء من ربه وكل ذرة في كيانه تصيح هاتفة باسم خالقها ومبدعها العظيم؟

(٢٦) فاروق الباز

- **٢٤ يونيو ٢٠١١**

في إحدى الجامعات الأمريكية ظهرت صورة للدكتور «فاروق الباز» وهو يجلس وسط طلابه على الأرض أثناء نقاش معهم، غير مُبال بمكانته كعالم وأستاذ جامعي بارز! لقد تجلت في هذا المشهد أخلاقه المصرية الجميلة التي على ما يبدو أن أغلب علماء مصر الآن داخلها قد تناسوها. فهل تعتقد أنه من الممكن عودة تلك الروح إلى كثرة من علماء مصر وأساتذتها داخل أروقة الجامعات المصرية، أم أن ما نراه من صور الغرور والتعنت والابتزاز وازدراء الطلاب هو انعكاس ضروري للعلم الزائف وفشل العملية التعليمية بأكملها؟

هو «فاروق السيد محمد الباز»، واحد من أشهر علماء الفضاء في العالم. حقق العديد من الإنجازات والاكتشافات العلمية الهامة، وتقلد أرفع المناصب العلمية حتى بلغ مكانة دولية مرموقة. نبغ في علم جيولوجيا القمر، وأعطى الصحراء اهتمامًا خاصًا فراح يفتش عن كنوزها ويكشف أسرارها في دراساته العديدة، فكان بحق عاشق الصحراء الأول. شغل عدة مناصب في الولايات المتحدة الأمريكية نظرًا لنبوغه العلمي، كان أهمها مدير مركز أبحاث الفضاء. يسمونه «الملك» رغم ما تشعر به في روحه من البساطة. أبلغ ما قيل عنه كان على لسان «ألفريد وردن» Alfred Worden (من مواليد سنة ١٩٣١) أحد رواد الفضاء في رحلة أبولّلو حينما وصل إلى القمر: «بعد تدريبات الملك، أشعر أنني جئت هنا من قبل!».

كتب «فاروق الباز» اثنا عشر كتابًا، منها: «*أبولو فوق القمر*»، «*الصحراء والأراضي الجافة*»، «*حرب الخليج والبيئة*»، «*أطلس لصور الأقمار الصناعية للكويت*»، «*ممر التعمير في الصحراء الغربية*». كما يشارك في المجلس الاستشاري لعدة مجلات علمية عالمية. كتب مقالات عديدة، وأجريت لقاءات كثيرة عن قصة حياته وصلت إلى الأربعين، منها «النجوم المصرية في السماء»، «من الأهرام إلى القمر»، «الفتى الفلاح فوق القمر»، وغيرها.

تصل أبحاث «فاروق الباز» العلمية المنشورة إلى ما يقرب من ٥٤٠ ورقة علمية، قام بها وحيدًا أو بمشاركة آخرين، ويشرف على العديد من الرسائل الأكاديمية. كما حصل على ما يقرب من واحد وثلاثين جائزة، منها: «جائزة إنجاز أبولو»، «الميدالية المميزة للعلوم»، «جائزة تدريب فريق العمل من ناسا»، «جائزة فريق علم القمريات»، «جائزة فريق العمل في مشروع أبولو الأمريكي السوفييتي»، «جائزة ميريت من الدرجة الأولى» من الرئيس أنور السادات، «جائزة الباب الذهبي» من المعهد الدولي في بوسطن، «الابن المميز» من محافظة الدقهلية، وقد سُميت مدرسته الابتدائية باسمه، وهو ضمن مجلس أمناء الجمعية الجيولوجية في أمريكا، والمركز المصري للدراسات الاقتصادية، ومجلس العلاقات المصرية الأمريكية. وقد أنشأت الجمعية

الجيولوجية في أمريكا جائزة سنوية باسمه أطلق عليها «جائزة فاروق الباز لأبحاث الصحراء».

من أقواله:

- لقد فشل جيلي فشلاً ذريعًا في تحقيق آمال الشعب العربي. قابلنا عددًا من الصعاب التي أدت إلى هذا الفشل، مع أن هذا الجيل اتصف بالولاء والانتماء والتفاني في العمل. لم ننجح في الوصول إلى أهداف كانت تعتبر أكيدة المنال من قِبل القادة والساسة وأهل الفكر وذوي الأحلام في أيامنا. وإذا كان جيلي قد فشل في تحقيق الآمال المذكورة، فلا مكان له في قيادة الأمة العربية ويجب أن يتنحى. يلزمنا جيل أكثر حيوية ونشاطًا، أقل سنًا يتصف بالشجاعة والقدرة على الريادة لينتشل العالم العربي من الوضع المأسوي الحالي.
- لم تكن للعرب مكانة في أي وقت من الزمان إلا في وجود مصر القوية كالعمود الفقري، الذي تلتف حوله البلدان العربية كلها. لذلك يلزم أن يبدأ الاصلاح والتجديد في مصر على أسس علمية صحيحة.
- من يثق بنفسه يحترمه الآخرون، وهذا الاحترام يحث على المزيد من المعرفة، وهكذا ترقى المجتمعات المتحضرة. اقتناء العلم والمعرفة لا يتم بسهولة، فهو يستلزم احترام الوقت والتفاني في العمل. يجب أن يعتبر العمل المضني شرفًا كبيرًا وليس حملاً ثقيلاً.
- إن معيد الجامعة الذي يذهب الى أمريكا لتحضير الدراسات العليا مستواه أولى ابتدائي، السبب في ذلك هو فشل المنظومة التعليمية، وعدم اعتباره المشروع القومي للدولة. إن الإصلاح الشامل في مصر لن يتم الا بإصلاح التعليم، وذلك باعتباره المشروع القومي لمصر، وتوجيه كل ميزانية الدولة له، وعدم إنفاق أي مليم على أي خدمات أخرى: كهرباء أو نووي أو زراعة.
- إن مسؤولية إصلاح التعليم لا تقع علي عاتق الوزير بمفرده، لكنها تقع على عاتق الجميع داخل مصر من فلاحين وأساتذة وأطباء، والإصلاح يعني

تخصيص الميزانية كلها للتعليم، وهذا معناه إلغاء الدروس الخصوصية ورفع رواتب المدرسين وتعديل المناهج، وأن نبدأ من الصف الأول الابتدائي، عامًا بعد عام، وتدريجيًا حتى نصل إلى الجامعة. إن الفرق بين طالب الجامعة في القاهرة من جهة، وفي وبوسطن من جهة أخرى، يكمن في أن الطالب الأمريكي يأتي إلى الجامعة ليتعلم، أما الطالب المصري فهمّه الوحيد هو الحصول على شهادة!

أخيرًا لا أنسى مقولة «ابن الجوزي»: «إذا كان للعلم من دون التقى شرف ... لكان أشرف خلق الله إبليس»!

(٢٧) توحيد الخطاب الإسلامي أم تكامله؟!
من جمود الثنائيات الثابتة إلى رحابة التعدد وثراء الاختلاف

- ٧ يوليو ٢٠١١

يُطلق لفظ الخطاب في العربية على مراجعة الكلام؛ ففي لسان العرب: خاطبه بالكلام خطابًا ومخاطبة، فهما يتخاطبان. والخُطْبَة اسمٌ للكلام الذي يَتَكَلَّمُ به الخَطِيب. وفي المعجم الوسيط: خَطَبَ الخاطبُ على المِنْبَرِ خَطابَةً، بالفتح، وخُطبةً بالضم: أي الكلامُ، أو هي الكلامُ المَنْثُورُ المُسَجَّعُ ونحوهُ. ورجلٌ خَطيبٌ: حَسَنُ الخُطبة بالضم. والخطاب أيضًا هو الرسالة. وكأن مفهوم الخطاب يقتصر على اللغة المنطوقة في حالة المحاورة أو الإلقاء، وتُضاف إلى ذلك اللغة المكتوبة في حالة المراسلة، والعلة الجامعة بينهما تحقيق التواصل بين المتكلمين باللغة. وعلى هذا فالخطاب هو الكلام الذي يُقصد به الإفهام، أما الكلام الذي لا يُقصد به إفهام المستمع، فإنه لا يسمى خطابًا.

وقد وردت مشتقات الجذر «خَطب» في القرآن الكريم اثنتا عشرة مرة، من بينها لفظ «خطاب» الذي ورد ثلاث مرات: «وشددنا مُلكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب» (ص: ٢٠) & «إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب» (ص: ٢٣) & «رب السماوات والارض وما بينهما

الرحمن لا يملكون منه خطابا» (النبأ: ٣٧). ويورد الزمخشري تفسيرًا في «فصل الخطاب» بأنه الكلام المبين الدّال على المقصود بلا التباس، وهو موسوم بالبيان والتبيان، وتجنب الإبهام والغموض واللّبس، أي أنه مقرون بالحكمة، مما يخرج به عن المفهوم اللغوي باعتباره مراجعةً للكلام، أو الكلام الذي يُقصد به الإفهام، ويُرتقى به إلى مستوى أرفع شديد اللصوق بمعنى الحكمة التي هي وضع الأمور في نصابها من وجهة نظر المتكلم بشأن قضية ما.

أما في الأدبيات اللغوية والثقافية الحديثة، فالخطاب مصطلحٌ فلسفي يعني جملة المواقف والأطروحات والاعتقادات والحجج والميول المذهبية التي يتبناها شخصٌ ما أو جماعة من الناس، ويتم صياغتها وفقًا لمنهج معين في صورةٍ شفاهية أو كتابية، على أن نضع في اعتبارنا عاملي الديناميكية واختلاف الطبائع والاستعدادات الشخصية من فرد إلى آخر حتى داخل نطاق الجماعة الواحدة. وبعبارة أخرى نستطيع القول أن الخطاب الفلسفي هو ذلك التوجه الفكري المميز لهذا العقل أو ذاك (الفردي و/ أو الجمعي)، والخاضع للتطور (النسخ أو الإضافة أو التعديل) وفقًا لتطور المحلية الزمانية – المكانية، وشروط تكوين وتفاعل البنية العقلية للكائن المفكر، ومنه الخطاب السياسي (الأيديولوجي)، والخطاب الديني، والخطاب الثقافي، والخطاب الأدبي، والخطاب الفني، ... إلخ، وهذه جميعًا تنصهر فيما يمكن أن نسميه الخطاب الإعلامي.

ربما بدا مصطلح «الخطاب الإسلامي» واضحًا وبسيطًا للوهلة الأولى، باعتباره معبرًا عن ذلك الخطاب المستند إلى مرجعية إسلامية (بالمعنى الواسع والجامع لكلمة إسلامي)، لكنه في الحقيقة ينطوي على العديد من الإشكاليات؛ فهو من جهة يجمع بين الخطاب القرآني – النبوي المتجاوز بمُحكمه وقطعيته للاجتهاد العقلي (حيث لا اجتهاد مع النص الصريح والواضح)، والخطاب القياسي الاجتهادي لأئمة وفقهاء وعلماء المسلمين، والخطاب الجدلي للفرق والجماعات الإسلامية على اختلاف مشاربها؛ وهو من جهة أخرى خطابٌ دعوي، قد يتجه إلى الخارج، فيقف في

مواجهة ما يمكن أن نسميه الخطاب المسيحي أو اليهودي أو البوذي أو غير ذلك من توجهات اعتقادية للأديان الأخرى، سماوية كانت أو وضعية؛ وقد يتجه إلى الداخل فيتجزأ منقسمًا على ذاته، ناثرًا لبذور الفرقة أو لتلاقح الأفكار في المجتمع المسلم.

هذه الإشكاليات وغيرها (على خلفية التعريف السابق للخطاب لغةً واصطلاحًا) تحول بلا شك دون توحيد الخطاب، سواء أكان إسلاميًا أو غير ذلك؛ فما دام الخطاب مرآة للفكر، فإن توحيده يعني تجميده، ومن ثم فقدانه لزخم التفاعل والتلاقح والتطور والاستجابة لمتغيرات الواقع المُعاش، فمثله حينئذٍ كمثل مائدة يومية تحفل بكثرة من الأطباق، لكنها تحوي طعامًا واحدًا لا يتغير، والاعتياد أو الإصرار على طعام واحد من شأنه أن يصيب الجسد بالهزال، والعقل بالإعياء، والحضارة بالجمود والعقم (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين: هود ١١٨ - ١١٩). لكن هل تعني حتمية التعدد والخلاف أن نستسلم لعوامل التشرذم والتعصب المذموم وإقصاء الآخر؟ تلك في الحقيقة آفة يعاني منها العقل الإسلامي عمومًا، والعربي بشكلٍ خاص، نتيجة لعوامل عدة مما سيلي تفصيله، ولا سبيل لمحاربة هذه الآفة إلا باستلهام روح العمل الجمعي التي ميزت السلف الواعي إبان مرحلة انطلاق وازدهار الحضارة الإسلامية، وإعادة رصف المسافة الممتدة بين الرأي والرأي الآخر: بين الصفر والواحد، فعبر هذه المسافة تنصهر آراء لا متناهية العدد، تتقارب وتتباعد، تتعارض وتتصافح، وفي تعددها وثرائها تكمن الرحمة التي أرادها الخالق عز وجل لأمة الإسلام. وتبيان ذلك أن آراءنا وأحكامنا إنما تُصاغ في قضايا، والقضية هي الوحدة الأولى للاستدلال المنطقي، وقد آن لنا أن نتخلى عن حدية الحكم على أية قضية: صادقة أو كاذبة، لننطلق إلى رحابة القيم الممتدة بينهما، ولنوضح ذلك بشيء من التفصيل.

يشتغل المنطق ثنائي القيم - أرسطيًا كان أو رمزيًا كلاسيكيًا - بنمط من القضايا يمكن أن نخلع عليه سمة المثالية (القضية الصادقة فقط أو الكاذبة

فقط)؛ فهو أولاً يفترض مثالية اللغة التي نصوغ بها تلك القضايا، سواء أكانت هذه اللغة طبيعية أو اصطناعية؛ بمعنى كفاءتها واستيعابها لكافة أدوات التعبير الدقيق والواضح. وهو ثانيًا يفترض مثالية القدرات المعرفية للإنسان؛ أعني قدرات التمييز القاطع والثابت بين ما هو صادق وما هو كاذب في عالم الواقع العيني، وهو ما يستتبع أيضًا مثالية أدوات القياس وأجهزة الرصد التجريبي. بعبارة أخرى، يعالج المنطق ثنائي القيم، لا ما هو كائن بالفعل في عالم الواقع، بل ما يجب أن يكون، معتبرًا أن قوانين الفكر الأرسطية الثلاثة (قانون الهوية، وقانون عدم التناقض، وقانون الثالث المرفوع) هي القوانين الأساسية التي لا تتزعزع للعقل الإنساني. لكن ثمة هوة شاسعة بين ما توجبه هذه القوانين وما تكشف عنه الوقائع اللغوية و/ أو التجريبية لعالمنا؛ فنحن – إن صح التعبير – نعيش في عالم لغوي مراوغ؛ عالم يخترقه الغموض ويغشاه القصور من كل جانب؛ عالم تتعدد فيه وتختلف معاني الكلمة الواحدة والقضية الواحدة في حقل دلالي متسع، ومن ثم تتعدد أيضًا قيم الصدق اقترابًا أو بُعدًا من حَدّي الصدق التقليديين: الصدق التام والكذب التام. هذا فضلاً عما تحفل به اللغة والحياة، وكذلك أنساقنا المنطقية والرياضية، من مفارقات تؤدي بنا إلى قضايا قد تجمع بين الصدق والكذب، أو قد توصف بأنها لا صادقة ولا كاذبة. هذا ما تنبه له العقل الغربي منذ أكثر من قرن، وتنبه له العقل العربي – الإسلامي قبل ذلك بعدة قرون، وهو ما عبّر عنه الإمام الشافعي بقوله: رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب.

بهذه العقلية أيضًا اختلف مفكرو الإسلام وتفوقوا، وعرفوا أن تفوقهم في اختلافهم؛ نهجًا وخطابًا، وأن في اختلاف توجهاتهم العقلية والفقهية تأكيدٌ لتكامل الأوجه المتعددة والمتدفقة للحقيقة. والحق أننا لا نستطيع أن ننكر أن كثيرًا من المسلمين قد شُغلوا بالدنيا بعد أن أقبلت عليهم بكل متاعها، ثم ما لبثوا أن اختلفوا عليها، وأراد كل أن يشرع لنفسه ولمنهجه في الحياة، فكان ذلك مدعاة

لولوج أفكار ومناهج وفلسفات خارجية في المجتمع المسلم، حاول أصحابها – ونجحوا جزئيًا – في إقصاء بعض المسلمين عن دائرة الإسلام الحق.

لكن ذلك لا يعني أن هذا الاختلاف – بالنسبة للغالبية العظمى – كان اختلافًا دينيًا عقائديًا، بل كان في الحقيقة اختلافًا لفظيًا حينًا، وطبيعيًا حينًا آخر، أو فلنقل إنه اختلافٌ في التفكير الديني لا في الدين ذاته؛ اختلافٌ في الوسائل التي يُخدم بها الدين (ومنها بالطبع الخطاب)، أيها أجدى وأقرب إلى تحقيق منهجه وإبلاغ غايته.

على هذا النحو يُمكننا إذن القول أنه لا توجد فرق دينية بالمعنى الذي تتشعب به الأمة الإسلامية كما يتشعب نهر النيل في مجراه الأدنى إلى فروع وترع، ولكن هناك مدارس فكرية أو مذاهب فقهية، أو اختلافات تطبيقية محدودة. وعندما يُجرّد هذا الخلاف من العوامل السياسية التي جمدته فبقي، أو ضاعفته فأساء، فسوف يبدو من الأمور المعتادة. وعليه، لا أرى أننا بحاجة إلى توحيد الخطاب الإسلامي، وإنما إلى تكامله، فالدعوة إلى توحيد الخطاب الإسلامي أشبه بالدعوة إلى توحيد ثمار الأرض الخصبة طعمًا ولونًا وحجمًا، وهي لا تخدم الإسلام بقدر ما تعمل على تجميده كفكر ومنهج. نحن نريد ثراءً إبداعيًا في معية الاختلاف والتنوع الراقي ... فليكن عملنا إذن هو نقل الخطاب الإسلامي من مرحلة التنوع البغيض القائم على التضاد والإقصاء إلى مرحلة التنوع التكاملي.

ولو طبقنا إشكالية توحيد أو تكامل الخطاب الإسلامي على طرحنا الحالي (أي من منظور الميتا ميتا خطاب، أو الخطاب الشارح للخطاب الشارح للخطاب – بمصطلحات فلسفة اللغة) لوجدنا تجسيدًا متعاليًا لما أردت قوله؛ فنحن جميعًا ننطلق من أصلٍ (هدف) واحدٍ، وهو مناهضة التعصب المذموم والتفرق العدائي لأرباب الخطاب الإسلامي (المختلفون بضرورة اختلاف الاستعداد العقلي)، ومع ذلك نختلف في آلية تحقيقه على نحو يؤكد زخم الفكر ويثري منتجه بما يدعمه (تكاملاً وليس مماثلةً أو استنساخًا)، ولب التكامل هو أن نُثمّن الفروق بيننا ونحترم

اختلافاتنا ونتخذها نقطة قوة، نقوي بها نقاط الضعف الأخرى. وهكذا: فآدم واحد، لكن البشر مختلفون (شكلاً وفكرًا) لإعمار الأرض؛ والأرض واحدة، بل وتُروى بماءٍ واحد، لكن ثمارها مختلفة (شكلاً ولونًا وطعمًا) لإعمار الحياة، ولو نثرنا فيها بذورًا واحدة لفقدنا ثراءها وخصوبتها؛ والقرآن واحد، وسنة النبي (صلى الله عليه وسلم) واحدة، لكن ثمار هضمهما بالعقل (وفقًا لملابسات الحياة) متنوعة وحبلى بما يمكن أن يحقق تكامل المجتمع المسلم حتى تقوم الساعة. تلك هي سنة الله في كونه وخلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولذا قال عز وجل: «واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا» (آل عمران: ١٠٣)، ولم يقل: واتحدوا! والحَبْل في اللغة أصله: ما يُشَدُّ به للارتقاء، أو التدلّي، أو للنَّجاة من غَرَق، أو نحوه، وإن أمسك به المختلفون.

من جهة أخرى، تدور رحى الخطاب الإسلامي حول ثلاثة أركان: الخطاب والخطيب والمخاطب، وفحوى الخطاب هو الدين الإسلامي، لكن وعاءه الفكر والثقافة، وإذا كان الدين محددًا سلفًا بأصوله الكبرى، فإن الثقافة هي إضافات واجتهادات وإبداعات الناس وعاداتهم وأعرافهم وتقاليدهم وطرق تفكيرهم وأمزجتهم ومواقفهم الشخصية، وهذه تحكمها بالضرورة المحليات الزمانية المكانية؛ فلئن كان الخطاب متجهًا إلى الخارج، كان توحيده (كفكر وحجة وبرهان) بمثابة تحجيم وتجميد له، لأنك تخاطب أيضًا ثقافات ذات محليات مختلفة، أما إن كان متجهًا إلى الداخل، فتوحيده يعني نزع سمة الديناميكية والاستجابة لشروط ومتغيرات الواقع، ولنا في اختلاف الصحابة رضوان الله عليهم مع المصطفى صلى الله عليه وسلم، ومع بعضهم البعض القدوة الحسنة، حيث كانت المخالفة لا تُفضي إلى التبديع أو التفسيق أو التضليل على نحو ما نكابده الآن. أجل، فقد خالف عمر رضي الله عنه النبي (صلى الله عليه وسلم) في الأمور التي رُوي أنّ القرآن نزل مؤيّدًا له بها؛ وخالفه عليٌّ يوم صلح الحديبية حين أبى أن

يمحو من وثيقة الصلح عبارة (محمد رسول اللّه)؛ وخالفه الخباب بن المنذر في موضع النزول يوم بدر.

كذلك اختلف الصحابة في حياته صلى اللّه عليه وسلم وبعد وفاته؛ ومن ذلك اختلافهم في غزوة بني النضير؛ إذ قطع بعضهم نخيل اليهود وأمسك آخرون كراهية أن يكون إفسادًا، فأنزل اللّه: ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن اللّه وليخزي الفاسقين (الحشر: ٥)؛ واختلافهم يوم الأحزاب حول قول المصطفى صلى اللّه عليه وسلم: (لا يُصلّينّ أحدٌ العصر إلا في بني قريظة)، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا ذلك، فذُكر ذلك للنبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، فلم يُعنّف واحدًا منهم؛ وإنّما أقرّهمُا على فعلهِمَا، وهذا دليلٌ على أنّ أصلَ الاختلافِ ليس مذمومًا، وكلّ واحدٍ من الفريقين المختلفين قد أوصله اجتهاده إلى فهم كلام النبيّ صلّى اللّه عليه وآله وسلّم مختلفًا عن فهم الفريق الآخر، وكلّ منهم كان في غاية الحرص على دقة فهم كلام النبيّ صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، ثمّ تطبيقه والعمل به.

اختلف الصحابة أيضًا في أخذ الأجرة على الرقيَةِ الشرعيّة، واختلفوا في الأكلِ من الحوت الذي طرحه البحر ميتًا، وكل تلك الاختلافات كانت تصل إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم فلا يُنكر أصلَ الاختلاف، وقد يُؤيّد أحد الرأيين، لكنّ تأييده لم يكن يصل إلى درجة تعنيفِ أصحابِ الرأيِ الآخر. أما بعد وفاته صلى اللّه عليه وسلم، فقد كان اختلافهم أشد؛ ومنه اختلاف عُمر مع أبي بكر (رضي اللّه عنهما) في حرب الردة، إذ قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا اللّه، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على اللّه. فقال أبو بكر واللّه لأقاتلنّ من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، واللّه لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونها إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لقاتلتهم على منعها.

قال عمر: فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر عنه فعرفت أنه الحق ... إلخ.

أسوق أخيرًا مثالاً لارتباط التكامل بالنهايات، لعله يجلي معالم مقصدي: في المنطق (وفي كافة تنظيرات العلم) تتعدد الأنساق الاستنباطية وفقًا لتعدد أنماط فهم المنطلقات، لكنها ما دامت تراعي قواعد الاستنباط المنطقي، فجميعها صحيح؛ وكل منها يرى المشهد من جانب مميز قد يستعصي على الآخر. هذا هو التكامل؛ اختلاف تنوع؛ وكونك ترى المشهد متكاملاً أفضل لك من أن ترى جزءًا أو أجزاءً منه. يقول الشاطبي: فإن الله تعالى حكم بحكمته أن تكون فروع هذه الملة للأنظار و مجالاً للظنون، وقد ثبت عند النظار أن النظريات لا يمكن الاتفاق فيها عادة، فالظنيات عريقة في إمكان الاختلاف، لكن في الفروع دون الأصول، وفي الجزئيات دون الكليات، فلذلك لا يضر هذا الاختلاف.

التوحيد إذن لا يكون إلا لله (الواحد الأحد)، أما توحيد رأي المسلمين على قول واحد وحملهم عليه، فأمر في غاية الصعوبة، ولهذا اتفق السلف الواعي على ألا يطعن الواحد منهم في الآخر بسبب ما أدّاه إليه اجتهاده، مهما كان بعيدًا عن الصواب في نظر الآخرين، وإذا كان توحيد الخطاب (الرأي) مستحيلاً، فليس أمامنا إلا أن يعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا، وأن نتعاون فيما اتفقنا عليه، فهذه ليست صعبة علينا ولكننا نأباها، وقد قال أبو حنيفة: لا يحل لأحد أن يأخذ بقولنا ما لم يعلم من أين أخذناه. وقال ليعقوب: ويحك يا يعقوب، لا تكتب كل ما تسمع مني، فإنني أرى الرأي اليوم وأتركه غدًا، وأرى الرأي غدًا وأتركه بعد الغد!

(٢٨) إرث الفساد المتثاقل فوق أكتاف العباد

- **١٩ سبتمبر ٢٠١١**

قبل ثورة ٢٥ يناير، وما أعقبها من أحداث ما زلنا نكابد تطوراتها وتبعاتها حتى الآن، كنت إذا سألني سائلٌ عن الفساد في مصر، وكيفية مواجهته والقضاء

عليه، أجبت بان الإنجاز البارز – وربما الوحيد – لنظام الحزب الوطني (إن صح التعبير) هو نجاحه في تعميم الفساد، بحيث أصبح كأسًا دائرًا على كل مصري، أيًا كان موقعه ونشاطه، وأيًا كانت ثقافته وتوجهاته. وبعبارة أخرى، أصبح الفساد في مصر عبر ثلاثة عقود كالماء، لكنه ماء من طبيعة خاصة؛ فما أن يشربه المرء بغية الارتواء حتى يشعر بحاجته إلى المزيد منه، فيشرب ويشرب دون أن يشبع أو يرتوي.

وحين أمثل الفساد بالماء، فإنما أعني أنه قد اكتسب سمتين فارقتين؛ الأولي هي الضرورة، وتتجلى فيما يكتوي به الممتنع عن الفساد من فقر مدقع وغربة في مجتمعه، حيث لا يُعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد. أما السمة الثانية فهي الشرعية، وتتجلى في تلك القوانين والقرارات والأعراف التي أضفت تقنينا غير مسبوق على ممارسات الفساد، سواء على مستوى الوزارات والإدارات والمؤسسات الحكومية المختلفة، أو مستوى الحياة اليومية لرجل الشارع.

النتيجة اللازمة عن ذلك هي أن مواجهة الفساد إنما تعني مواجهة مجتمع بأسره (إلا من رحم ربي)، وأن القضاء عليه يستلزم بالضرورة القضاء على ثقافة امتدت وتصلبت جذورها في أرض الحياة المصرية، وتلك مهمة كانت – وما زالت – مستحيلة في ظل الأوضاع الراهنة، وفي معية عقول عفنة شكلها النظام بعناية فائقة، إعمالاً للمثل الشعبي: «لا تعايرني ولا أعايرك ... الهم طايلني وطايلك»!

والحق أني كنت قد خصصت هذا المقال للحديث عن الفساد المستشري في الجامعات المصرية، من واقع خبرتي العملية من جهة، ومن واقع قراءتي للتقارير والإحصائيات الدولية من جهة اخرى، لاسيما بعد أن قفزت إلى السطح مشكلة إقالة القيادات الجامعية بوصفها جزءًا لا يتجزأ من أركان النظام. لكن سرعان ما أرقتني تساؤلات لا تنفصل عن إشكالية عمومية الفساد: هل ستؤدي إقالة القيادات الجامعية إلى القضاء على جشع المتاجرين بالعلم في صورة مذكرة مشوهة منقولة أو

كتاب عفي عليه الزمان؟ هل ستؤدي إلى القضاء على مهزلة التعليم المفتوح والجامعات الخاصة التي تستقطب الفاشلين لمنحهم شهادات علمية لمجرد امتلاكهم للمال؟ هل ستقضى على (أو تعيد دراسة) مشروع تعميم نظام الساعات المعتمدة في مؤسسات تعليمية لا تملك البني التحتية ولا الموارد البشرية اللازمة لنجاحه، دون الاستفادة من تجارب فشله السابقة في مؤسسات أخرى محلية؟ هل ستقضي على فوضى تسجيل الرسائل العلمية ممن يظنون زيفًا أنهم أصحاب مدارس فكرية (أو يتوقون لحمل هذا اللقب)، ولو كانوا كذلك لكانت جامعاتنا في مصاف الجامعات الدولية المرموقة؟ وهل ستقضي على فوضى منح درجتي الماجستير والدكتوراه بالمجاملات والرشاوى وتزيين التخلف العلمي، لتملأ سوق العمل بكثرة من أشباه الباحثين المطالبين بحقهم في العمل بالجامعات ومراكز البحوث (دون تعميم)؟ وهل ستؤدي إلى القضاء على وجبة الطعام التي أصبحت إحدى مسوغات المناقشة والحصول على الدرجة؟ هل ستؤدي إلى القضاء على تلال التوصيفات والتقارير الزائفة التي تزدحم بها غرف الجودة بالكليات المختلفة دون جدوى، اللهم إلا مظهرية التطوير؟ وهل ستقضى على فاجعة مجلس الكلية (أو بالأحرى مجلس تصفية الحسابات)، حيث تجلس لساعات طويلة مملة مجبرًا على الاستماع لسفاسف الأمور ومناقشة توافه القضايا من قلة تجمدت عقولهم وتوقفت عند مصالحهم الوقتية؟ هل ستؤدي إلى القضاء على مشكلة تعيين الأبناء والأقارب في كليات ذويهم تفعيلاً لمشروع التوريث القومي في المؤسسات التعليمية؟ وهل ستؤدي إلى القضاء على عجز الغالبية العظمى من أعضاء هيئة التدريس عن نشر ورقة بحثية واحدة في إحدى الدوريات الدولية المحترمة، أو على فوضى السرقات العلمية وألعوبة الترقيات من قبل اللجان الدائمة؟ هل ستؤدي إلى عودة علاقة الاحترام المتبادل بين الأستاذ والطالب بوصفهما شريكين أساسيين في العملية التعليمية؟ وهل ستغير من مفهوم «العميد» المتقمص لدور «الناظر» الممسك بالعصا يطوف بها على الأقسام

العلمية صباحا ملوحًا بكشف الغياب المدرسي؟ (غني عن الذكر أن كلمة العميد ظلت حتى العباسي تعني «المريض عشقًا»، ويقول «الفيروز أبادي» في معنى كلمة عميد: «هدَّه العشق، أي أمرضه، فلا يستطيع الجلوس من مرضه حتى يُعمد من جوانبه بالوسائد»، ثم تطور معنى الكلمة حتى باتت تطلق على إحدى الرُتب العسكرية أو رئاسة إحدى الكليات)، وهل ستؤدي إقالة القيادات الجامعية إلى عودة أعضاء هيئة التدريس بتخصصات الطب والصيدلة والعلوم والتجارة والحقوق إلى قاعات كلياتهم لممارسة مهامهم التدريسية إلى جانب أعمالهم الخاصة؟ بل ألن تؤدي موقعة الانتخابات الجامعية إلى تشرذم الأعضاء داخل المؤسسة التعليمية الواحدة ما بين مؤيد لهذا أو معارض لذاك؟ وهل ستحول دون ظهور مشتاق إلى المنصب أو طامح إلى سلطة ومال أو متربص بمن أساءوا إليه أو طعنوا في قدراته؟ هل وهل وهل؟

كل هذه التساؤلات وغيرها تؤكد أن مشكلة الفساد الجامعي لا تنحصر فقط فيمن احتلوا مواقع القيادة (رغم شرعية المطالبة بإقالتهم تفعيلاً لروح الثورة)، فلئن كان هؤلاء من أركان النظام المعطوب، فإن من يعملون تحت قيادتهم هم حوائطه وأرضه وسقفه؛ هم من كانوا وما زالوا يحيون في كنف النظام ويطوفون به مسبحين بحمده!

الفساد الجامعي إذن ما هو إلا حلقة من حلقات الفساد العام المستشري في الجسد المصري المنهك، ولن يتسنى لنا مواجهته إلا بمواجهة الحلقات برمتها ونزعها من حول أعناقنا. ربما أصابنا نزعها بجروح نافذة، لكن هذا في كل الأحوال أفضل من استحكام حلقاتها فتبيدنا قتلاً في مشهد يموج بالسخرية.

أخيرًا: إذا كانت الحكومة والشعب والإخوان والسلفيون والائتلافات الثورية والمعلمون والقضاة وأعضاء هيئة التدريس والطلاب والشرطة ... إلخ، إذا كان كل هؤلاء يريدون مكافحة الفساد، فمن المفسد إذن؟ لك الله يا مصر.

(٢٩) جاري ميلر: القرآن المُذهل (نزعة التكذيب والطريق إلى الإسلام)

<u>١٩ مايو ٢٠١٢</u>

«**جاري ملير**» Dr. Gary Miller، أو: «عبد الأحد عمر» Abdul-Ahad Omar، أستاذ الرياضيات والمنطق في جامعة تورنتو بكندا. كندي الجنسية، كان من المبشرين النشطين في مجال الدعوة الى النصرانية، وهو أيضًا أحد الذين لديهم علم غزير بالكتاب المقدس. كان مغرمًا بالرياضيات والمنطق والتسلسل المنطقي للقضايا والحجج. أراد يومًا أن يقرأ القران بهدف العثور على بعض الأخطاء التي تعزز موقفه عند دعوته المسلمين للدين النصراني، لكنه صُدم!

كان يتوقع أن يجد القران كتابًا قديمًا مكتوب منذ أربعة عشر قرنًا يتكلم عن الصحراء وما إلى ذلك، لكنه ذُهل مما وجده فيه، بل واكتشف أن هذا الكتاب يحتوي على أشياء لا توجد في أي كتاب آخر في هذا العالم! كان يتوقع أن يجد بعض الأحداث العصيبة التي مرت على النبي «محمد» صلى الله عليه وسلم مثل وفاة زوجته «خديجة» رضي الله عنها، أو وفاة بناته وأولاده، ... إلخ، لكنه لم يجد شيئًا من ذلك، بل ازدادت حيرته حين وجد سورة كاملة في القران تسمى سورة «مريم»، وفيها تشريف لمريم عليها السلام، مما لا يوجد له مثيل في أي كتاب آخر! ولم يجد سورة باسم «عائشة» أو «فاطمة» رضي الله عنهما. كذلك وجد أن «عيسى» عليه السلام ذُكر بالاسم خمسة وعشرين مرة في القران، في حين أن النبي «محمد» صلى الله عليه وسلم لم يُذكر إلا أربع مرات فقط، فازدادت حيرة الرجل، وأخذ يقرأ القران بتمعن أكثر لعله يجد مأخذًا عليه، ولكنه صُعق بآية عظيمة وعجيبة، ألا وهي الآية رقم (٨٢) في سورة النساء: «أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا».

يقول «ملير» عن هذا الآية: «من المبادىء العلمية المعروفة في الوقت الحاضر مبدأ التكذيب أو تقصي الأخطاء في النظريات الى أن تثبت صحتها Falsification، والعجيب أن القران الكريم يدعوا المسلمين وغير المسلمين إلى إيجاد الأخطاء فيه، ولن يجدوا ...». يقول أيضًا عن هذه الآية: «لا يوجد مؤلف في العالم يؤلف كتابًا ثم يمتلك الجرأة ليقول هذا الكتاب خالي من الأخطاء، لكن القران على العكس تمامًا؛ يقول لك لا توجد أخطاء، بل ويعرض عليك أن تجد فيه أخطاء ولن تجد».

كذلك من الآيات التي وقف «ملير» عندها طويلاً، الآية رقم (٣٠) من سورة الانبياء: «أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقًا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون». يقول: «إن هذه الآية هي بالضبط موضوع البحث العلمي الذي حصل على جائزة نوبل في عام ١٩٧٣، وكان عن نظرية الانفجار الكبير، وهي تنص على أن الكون الموجود هو نتيجة انفجار ضخم نجم عنه الكون بما فيه من سماوات وكواكب، فالرتق هو الشيء المتماسك، في حين أن الفتق هو الشيء المتفكك، فسبحان الله. نأتي إلى الجزء الآخر من الآية، وهو الكلام عن الماء كمصدر للحياة، يقول «ملير»: «إن هذا الأمر من العجائب، فقد أثبت العلم الحديث مؤخرًا أن الخلية الحية تتكون من السيتوبلازم الذي يمثل ٨٠٪ منها، والسيتوبلازم مكون بشكل أساسي من الماء، فكيف لرجل أمي عاش قبل ١٤٠٠ سنة أن يعلم كل هذا لولا أنه متصل بوحي من السماء؟».

اعتنق «ميلر» الإسلام العام ١٩٧٧، ومن بعدها بدأ يلقي المحاضرات في أنحاء العالم، وأجرى العديد من المناظرات مع رجال الدين المسيحي الذي كان هو أحدهم! قال في أحد محاضراته، وكان يوجه كلامه لجمع من المسلمين: «يا أيها المسلمون، لو أدركتم فضل ما عندكم إلى ما عند غيركم، لسجدتم لله شكرًا أن أنبتكم من أصلاب مسلمة، وربَّاكم في محاضن مسلمة، ومَنَّ عليكم بهذا الدين، لو نظرتم إلى مدلول الألوهية، الرسالة، النبوة، البعث، الحساب، الجنة، والنار، عندكم وعند غيركم، لسجدتم لله شكرًا أن جعلكم مسلمين، لأن هذه

المفاهيم عند أصحاب الديانات الأخرى مفاهيم لا يرتضيها العقل السوي، ولا الفطرة السليمة ولا المنطق السليم. «ملير» له العديد من المؤلفات عن الإسلام، مثل: «*القران المذهل*»، «*الفرق بين القران والكتاب المقدس*»، «*نظرة إسلامية لأساليب المبشرين*» ... فضلاً عن العديد من المؤلفات الأخرى، وهي متوفرة على الانترنت باللغة الانجليزية.

هذا الرجل أسلم علي يديه كثيرٌ من الناس من جميع أنحاء العالم، وقد استفاد كثيرٌ من الدعاة منه، مثل الشيخ «أحمد ديدات» الذي دعاه إلى جنوب إفريقيا لإلقاء بعض المحاضرات وإقامة بعض المناظرات.

(٣٠) فلسفة الإعلام

- **٢١ سبتمبر ٢٠١٢**

بمناسبة ما قامت وتقوم به وسائل الدعاية والإعلام من تشكيل وإعادة تشكيل للوعي العربي ترويجاً لأيديولوجيات ودوجماطيقيات وممارسات نوعية، كان وما زال يراودني السؤال: كيف ولماذا لا يتم تدريس مقرر يحمل اسم «فلسفة الإعلام» بأقسام الفلسفة في الجامعات العربية، لاسيما وأن لفن (أو علم) الإعلام (وتأثيراته على الثقافة الفردية والجمعية) جذوراً ممتدة في تاريخ الفلسفة، ربما منذ أن وضع «أرسطو» كتابه «*الخطابة*»، ومنذ أن صرَّح «كونفشيوس» أن الصورة تساوي ١٠٠٠ كلمة (وهو الرأي المعمول به في الأوساط الإعلامية منذ زمن بعيد)؛ هذا فضلاً ارتباط الدعاية الإعلانية بكافة التوجهات السياسية والاقتصادية والثقافية في المجتمعات الإنسانية عموماً، حيث تُصبح السلعة أو الفكرة مرغوبة، لا لأهميتها أو جودتها، وإنما لما تضفيه من معنى خاص يرتبط بشيء ما لدى راغبها، ناهيك عن التركيز على ديناميكية الغرائز وعمق تحولها ومخاطبة العقل الباطن لاجتذابه ثم السيطرة عليه بما يجعله عاجزاً عن مقاومة الإغراء (كتمثيل انسيابية السيارة بتموجات قوام المرأة لتصبح السيارة بديلا ماديًا يقتل الارتباط الروحي بالمرأة،

وتطويع اللغة، بل وتشويهها، لتحقيق المآرب السياسية، وإعادة تشكيل الوعي الشرائي بالتكنولوجيا المتسارعة لخدمة رؤوس الأموال الراكدة، وأخيرًا استخدام أداء الساسة للشعائر الدينية لمغازلة الوجدان الديني لدى العامة ... إلخ)، ومن ثم تتقلص أبعاد الإنسان (على حد تعبير «هربرت ماركيوز») إلى بُعد واحد هو البعد المستسلم للواقع.

ولا يفوتني في هذا الصدد أن أشير إلى كتاب «تشومسكي» A. N. Chomsky (من مواليد سنة ١٩٢٨) «*الاقتصاد السياسي لوسائل الإعلام*» *Political Economy of the Mass Media* (١٩٨٨)، وكتابه «*هيمنة وسائل الاتصال*» Media Control (١٩٩١)، حيث ذهب فيهما إلى أن الدعاية الإعلامية هي أخطر وسيلة للهيمنة كمؤثر أيديولوجي، بغض النظر عن الأسلوب الذي تصل به إلى مقاصدها. لا تفوتني أيضًا الإشارة إلى أن كثرة من الفلاسفة يطلقون على «فن الإعلام» اسم «فن الكذب»، لما له من تأثيرات تعيد تشكيل الوعي على نحو كاذب يتيح السيطرة المطلقة على المتشكل. الموضوع أكبر من ألخص أهميته في كلمات، وإذا كانت معظم المناقشات تركز على جزءٍ من جانبه الأخلاقي يمس القيم المجتمعية والدينية والإنسانية عمومًا، فإن جوانبه الاقتصادية والسياسية والثقافية قد تكون أشد خطورة.

(٣١) عالم الحاسوب وعالم الواقع!

- **١٥ أكتوبر ٢٠١٢**

أشعر أحيانًا بالحاجة إلى استنشاق هواءً طبيعيًا نقيًا، تملؤني الرغبة في الخروج من عالمي الحاسوبي المفترض؛ ذلك العالم الأكثر رحابة واتساعًا من عالم الواقع بتجاوزه لحدود الزمان والمكان، غير المقيد باشتراطات وفعاليات اللقاء الحي المباشر، لكن بلا أرض أو سماء، بلا ماء أو هواء، بلا شمس تُشعرني بدفء الحياة نهارًا، أو قمر يؤنسني أو نجوم أستهدي بضيائها ليلاً! إنه حقًا عالم الكلمات

الجافة الصامتة! قد تنقل الكلمات الأفكار والمعاني، لكنها تجردها من أبعادها وسياقها وعفويتها، وتؤجل تغذيتها المرتجعة؛ وقد تنقل مشاعر الحب والألم أو السعادة، لكنها تنزع عنها صيرورتها وتدفقها! تدفعني نفسي إلى التماس عالم الحياة، لكني سرعان ما أعود مصدومًا بعقول تحجرت، ونفوس هرمت وجفت، وإنسانية تحتضر، وأرض تئن من وطأة أثقالها، وسماء تشفق عليهم. وما بين عالم الحاسوب وعالم الواقع تتنازع الحجج، وتتبارى الحاجات والرغبات، وتتقارب البدايات والنهايات!

(٣٢) قمامة العقل!

- **١٥ أكتوبر ٢٠١٢**

أخبرني صديق أنه مع بداية العام الدراسي قد ذهب بابنه إلى أحد محترفي الدروس الخصوصية، فسأل المدرس التلميذ: هل تريد الحصول على المجموع الذي يؤهلك للالتحاق بكلية الطب أم تريد الفهم؟ فأجاب التلميذ: أريد الاثنين، فأجاب المدرس: مستحيل! فما كان من الأب وابنه إلا أن التمسا الخيار الأول! تلك هي ثقافة مجتمعنا التي أورثتنا الفشل في كافة المجالات، وتلك هي الثقافة التي جعلتنا في مؤخرة الركب الحضاري، أو بالأحرى جمَّدتنا في موقع تغلفه جهالات قرونٍ خلت؛ وتلك هي الثقافة التي جعلت التناول الإعلامي لمرحلة دراسية كالثانوية العامة وكأنه تبشيرٌ بحرب التحرير الكبرى التي يجب أن نخصص لها الأموال والوقت والجهد البدني والعصبي؛ وتلك هي الثقافة التي أفرزت من رحم الفساد أحكامًا بشرعية اللاعدالة في توزيع الدخل واعتلاء المناصب!

وأخيرًا وليس آخرًا، تلك هي الثقافة التي نعايشها في أكوام القمامة التي تملأ شوارعنا وتحيط ببيوتنا وكأنها راية الاستسلام الحضاري؛ إنها ببساطة قمامة العقل، ومتى استطعنا التخلص منها، أمكننا حينئذ أن نبدأ في الإعداد لاستبدال ثقافة بثقافة، وعقلاً بعقل!

(٣٣) كوريا الشمالية ... العلم يرفع بيتًا لا عماد له!

- <u>٢٣ ديسمبر ٢٠١٢</u>

العلم يرفع بيتا لا عماد له ... والجهل يهدم بيت العز والشرف!

رغم الحصار، ورغم العزلة الدولية، نجحت كوريا الشمالية في الثاني عشر من ديسمبر ٢٠١٢، وبقيادة زعيمها الشاب «كيم جونغ أون» Kim Jong-un (٢٨ سنة)، في إطلاق صاروخ يحمل قمرًا اصطناعيًا إلى الفضاء، وسط تنديد دولي وتلويح بتدابير جديدة ضد بيونغ يانغ! وأعلنت مذيعة على التلفزيون الرسمي وهي ترتدي الزي الكوري التقليدي أن إطلاق النسخة الثانية من قمرنا الاصطناعي (كوانغ ميونغ سون ٣) من مركز سوهاي الفضائي ... قد تمت بنجاح، ووضع القمر الاصطناعي في المدار كما كان مقررًا. وقد أشادت وكالة الأنباء الكورية الشمالية بالاختراق التكنولوجي والاقتصادي للبلاد، والذي تم لأهداف سلمية. كما أكدت قيادة الدفاع الجوي لشمال أميركا أن كوريا الشمالية نجحت على ما يبدو في وضع جسم في المدار إثر إطلاق صاروخ. وهذا النجاح يعتبر سابقة لكوريا الشمالية التي تزعم أنها تملك صواريخ بالستية عابرة للقارات قادرة على بلوغ القارة الأميركية، إلا أن محاولات الإطلاق الثلاث الأولى انتهت بالفشل. وفي رد فعل أول، نددت الولايات المتحدة التي لا تقيم علاقات دبلوماسية مع كوريا الشمالية بعملية الإطلاق معتبرة أنها استفزاز شديد.

في الوقت ذاته، حصل الزعيم الشاب «كيم جونغ أون» على أكبر عدد من أصوات قرّاء مجلة تايم الأمريكية لإعلان الشخصية الأبرز في العام الحالي، وبذلك فاز الزعيم الشاب بلقب رجل العام ٢٠١٢. وبظهور صورته على غلاف المجلة يكون الزعيم الكوري الشمالي قد كرر هذا النجاح بعد أن اختارته تايم لغلافها في شهر فبراير الماضي. وقد أفاد تقرير الاستثمار العالمي لسنة ٢٠٠٧، الصادر عن الأمم المتحدة، أن كوريا الشمالية أنفقت حوالي ٥,٣ مليار دولار على برامج رئيسة لتطوير

البحث العلمي والتكنولوجي، حيث استطاعت بهذا الأسلوب الارتقاء بمستوى البحث العلمي ووضعها في مصاف الدول الصناعية المتقدمة.

الفرق بيننا وبينهم واضح ... هو ذلك الحد الفاصل بين تعميق الجهل والتغني بأمجاد الماضي، والتماس طريق العلم قفزًا إلى المستقبل ... بين دولة الشباب (الدكتاتورية)، ودولة العواجيز المتكئة على عصا ديموقراطيتنا الواهنة ... بين انتظار مدد السماء بالخطابة وتهليل الدهماء دون عمل، والعمل الفعلي بما اشترطته شريعة السماء كي نحقق إنسانيتنا: تفعيل هبة الله للإنسان ... العقل!

(٣٤) عبد الغفار مكاوي ... شاعر الفلسفة

- **٢٤ ديسمبر ٢٠١٢**

اليوم، الإثنين الموافق الرابع والعشرين من ديسمبر ٢٠١٢، وعن عُمر يُناهز الثانية والثمانين، غادر عالمنا الزائف إلى عالم الحقيقة الذي كان يصبو إله .. إنه شاعر الفلسفة وأفضل مترجميها: «عبد الغفار مكاوي».

وُلد «مكاوي» في الحادي عشر من يناير سنة ١٩٣٠ بمحافظة الدقهلية، وحصل على ليسانس الفلسفة من جامعة القاهرة سنة ١٩٥١، وعلى درجة الدكتوراه في الفلسفة والأدب الألماني الحديث من جامعة فرايبورج بألمانيا سنة ١٩٦٢.

كتب «عبد الغفار مكاوي» عن الشاعر والأديب الألماني «كارل جورج بشنر» Karl Georg Büchner (١٨١٣ – ١٨٣٧) في الدراسة التي كتبها عن مسرحه واصفًا إياه بأنه شقيق الروح، مبررًا ذلك بأنه «ثوري محبط مثلي ... وعدمي مات ضحية الثورة من أجل الشعب المسكين ... وأدان المثقفين الذين يتحدثون عن الحرية والمساواة في حين لا يجد الفلاح البطاطس ليقتات بها ... ولا يجد اللبن لطفله ... وكان يقول هؤلاء بعيدون تمامًا عن الشعب». ووصف حال المصريين قبل الثورة قائلاً: «وهنا أود أن أقول لكي نكون ثوريين بحق لابد أن نهتم بالبنية التحتية، فمن الصعب أن يكون الإنسان ثوريًا أو وطنيًا وهو لا يمتلك قوت يومه ... لابد من تحقيق أدنى الشروط الإنسانية ثم نتحدث فيما بعد عن الوطن». ثم يستطرد: «وهنا أتذكر

ما قاله «بشنر» وهو على فراش المرض في رسالة بعث بها إلى صديقه «أوجست شتوبر» يقول فيها: «الظروف السياسية تكاد تصيبني بالجنون. الشعب المسكين يجر في صبر العربة التي يمثل عليها الأمراء وأدعياء التحرر ملهاتهم».

(٣٥) تجمع الملحدين!

- **٢٨ ديسمبر ٢٠١٢**

«**يرصد** تحولات خطيرة في بلدان الربيع العربي ... موقع عالمي للإلحاد يضم ٣٣٣ مصريًا في أسبوعين ... مؤشر تجمع الملحدين يظهر انضمام أكثر من ٢٠٠ مصري لعضويته خلال ٧٢ ساعة ... والسعوديات أكثر إقبالاً من نظرائهن في مصر وتونس، وأفغانستان تحتل النسبة الأعلى»!

هذا هو عنوان الخبر الذي نشرته جريدة اليوم السابع في عددها الصادر بتاريخ الأربعاء ٢٦ ديسمبر ٢٠١٢. أصابني الخبر بالصدمة والدهشة؛ ظننت أنه مجرد دعاية مضادة لموجات الربيع العربي التي يعبث بها كثرة من الجُهال (جُهال الدين من الحاملين لدعوته والمهاجمين له)، ينفرون الناس منه، يتجاذبون ثمار صعوده قبل أن تنضج فتفسد! لم أصدق الخبر حتى اطلعت على مصدره الأجنبي ووجدت أن من سجَّل بياناته من المصريين للانضمام إلى تجمع الملحدين قد بلغ في ليلة واحدة بعد نشر الخبر ٥٤٦ مصريًا! والعدد يزداد من لحظة إلى أخرى)، ناهيك عن الدول العربية والإسلامية الأخرى. وما منعني أن أشير إلى الموقع إلا أن أقع في خطأ الدعاية غير المستحقة له (ولو على نحو محدود)، فضلاً عن تحمل وزر بعض ضعاف العقل والإيمان ممن قد يُخدعون بمحتواه. وهنا لابد من الإشارة إلى أمرين؛ الأول هو حقيقة أن ضمائر الناس مكنونة بأسرارها، لا يعلمها إلا الله، وقد قالها المصطفى صلى الله عليه وسلم واضحة صريحة: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟ (مشيرًا إلى كلمة لا إله إلا الله، أقالها المجني عليه أم لا)؛ والأمر الثاني هو حقيقة أن الإسلام منهج جذب لا طرد، جمع لا طرح، وهي حقيقة يتحمل مسؤوليتها أولاً كافة من ارتقوا منابر الدعوة (بأشكالها المختلفة)، ويتحمل مسؤوليتها أيضًا الفرد

في محيط رعيته أيًا كانت محدوديتها، على الأقل من جهة التعريف بحقيقة الإلحاد وزيفه فكريًا وعلميًا، وتحذير البسطاء منه كي لا يغتر به مغتر. وأما من المنظور التاريخي، فالكفر مرض عقلي ونفسي، أصاب أقوامًا من العصور الغابرة مثلما يصيب البعض في عالمنا المعاصر، وليس لكفار اليوم خيرية (عقلية أو علمية أو منطقية) على كفار الأمس: «أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر، أم يقولون نحن جميع منتصر، سيهزم الجمع ويولون الدبر، بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر» (القمر: ٤٣ – ٤٦).

خطورة الأمر لا تدفعنا إلى الجدل حول الغرض الخبيث لبعض الأخبار، أو حول مدى تحمل الدعاة للمسؤولية، بل علينا أن نسلم من جهة بأن الذين يسيئون فهم الدين أخطر عليه من الذين ينحرفون عنه إيمانيًا وعن تعاليمه سلوكيًا، فالذين يسيئون فهم الدين ينفرون الناس منه وهم يظنون أنهم يحسنون صنعًا، أما الذين يحيدون عنه فيتبعون شهواتهم وهم يعلمون أنهم يعصون الله، وقد يتوبون، عن وزرٍ خاص، والله يغفر لمن يشاء. علينا أن نسلم من جهة أخرى أن الإسلام باقٍ ولو ألحد ملايين البشر!

عن «تميم الداري» رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عزًا يعز الله به الإسلام وذلاً يذل الله به الكفر». أخرجه أحمد والحاكم.

يقول الشيخ «محمد الغزالي»: إن انتشار الكفر في العالم يحمل نصف أوزاره متدينون بغَّضوا الله إلى خلقه بسوء صنيعهم وسوء كلامهم ... لا شك أن الإسلام بحاجة إلى من يجاهد له، لاسيما في عصر فقد فيه دولته، وحُرم فيه سلطته، وأصبح يحيا بطرق مفتعلة. والعبء يقع على رجال الأزهر. وعلى أعضاء الجماعات الدينية؛ فالذين يكتمون الحق ولا يجهرون به في وجوه الحكام والمحكومين، مقصرون، والذين يقومون بطائفة من العبادات الفردية، ويحسبون رسالتهم قد

انتهت إلى هذا الحد، قاصرون. فهل ينجو الإسلام من لوثات القاصرين، وتراخى المقصرين؟! إنا لنأمل أن يقوم للإسلام رجال لا يخافون في الله لومة لائم، يردون عادية الإلحاد والفسوق، ويرفعون أعلام اليقين والمرحمة. فيدرك ثأر الله أنصار دينه ... ولله أوس آخرون وخزرج».

المسؤولية لا يتحملها طرفٌ واحد فقط، إنما طرف ينفّر الناس من الدين بجهله، وطرف ينفّرهم أيضًا بعداوته. صحيح أن ظاهرة الإلحاد تضرب بجذورها في التاريخ القديم والحديث، وصحيح أنها سُنة الله تعالى في خلقه، لكن ذلك لا يعفينا من المسؤولية بحال من الأحوال، ولا يعفينا أيضًا من تبيان حقيقة الدين وسماحته بحال من الأحوال، وإلا ما هي مهمة الدعوة والداعي، وما مهمة الإنسان ومهمة العقل إن لم تكن إعمار الأرض وإرساء قواعد التوحيد؟ هذا من جهة، ومن جهة أخرى، هل نقف أمام المقصر والمتشدد والأرعن والباغي وغيرهم موقف التسليم بتقصيرهم.

قراءة التاريخ (إن كان لنا أن نستلهم منه درسًا) تدلنا على أن العلمانية لم تنتشر في أوروبا إلا كرد فعل على نفوذ الكنيسة وفرضها لرأيها على المفكرين وغيرهم، وعلى تنظيم الحياة طبقاً للآراء القديمة التي لا تصلح للزمان الجديد، وبذلك تم فصل الكنيسة عن الدولة، وتدلنا أيضًا على أن التمادي في الإلحاد إنما جاء نتيجة غرور الإنسان بالعلم وجهله بالدين الصحيح، وأخشى أن يكون هذا مصيرنا.

يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: «إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق» ... هنا يكمن معنى الاستقامة ... وهنا يكمن معنى مسؤولية الإنسان.

قد يجادل أحدهم بأن أمر الإيمان والكفر موكولٌ إلى الله، ولا شأن لنا به، ولكن لو طبقنا المنطق ذاته لامتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعوة إلى الله حين قال له المولى: «إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين» (القصص: ٥٦)، أو حين قال له: «ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعًا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين» (يونس: ٩٩)، لكنه جل وعلا قال

له: «وإما نُرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب» (الرعد: ٤٠)، وقال له: «فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين» (الاعراف: ٦) ... وهكذا فمشيئة الله لا تعني التقصير في الدعوة والمسؤولية عنها.

(٣٦) جولة في العقل المتحجر!

- **٣١ ديسمبر ٢٠١٢**

العقل هو تلك الملكة التي وهبها الله للإنسان وميزه بها عن سائر خلقه، وهو في الإسلام مناط التكليف؛ فالتكليف يدور مع العقل وجودًا وعدمًا، مثلما يدور العقل مع الوعي وجودًا وعدمًا، فهو ليس بمادة، بل إن مَثله بالنسبة إلى المخ كمَثل نظام التشغيل بالنسبة إلى القرص الصلب في الحاسب الآلي، لذا وصفه هيجل بأنه «الملكة التي يدعوها الإنسان خاصته ... المرتفعة فوق الموت والفساد ... القادرة على اتخاذ قرارات بذاتها».

ولما كان العقل مناط التكليف، فقد حث الله عباده على تفعيله وتنشيط قدراته كسبيل لحمل الأمانة وإعمار الأرض والفوز بجناته، حيث ذُكر لفظ العقل في القرآن بصيغة الفعل: «يعقل/ يعقلون/ نعقل» تسع وأربعين مرة، كما ورد الأمر بالتفكير في ثمانية عشر موضعًا بصيغة الفعل أيضًا: «فكر/ تتفكروا/ تتفكرون/ يتفكروا/ يتفكرون». يقول القرطبي – رحمه الله: «والصحيح الذي يُعول عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف، وبه يُعرف الله ويُفهم كلامه، ويُوصل إلى نعيمه وتصديق رسله. إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بُعثت الرسل وأنزلت الكتب، فمثال الشرع الشمس، ومثال العقل العين، فإذا فُتحت وكانت سليمة رأت الشمس وأدركت تفاصيل الأشياء». ويقول أيضًا: «إن مورد التكليف هو العقل وذلك ثابت قطعًا بالاستقراء التام، حتى إذا فُقد ارتفع التكليف رأسًا وعُد فاقده كالبهيمة المهملة». وحين يكون العمل بالعقل أمرًا من أوامر الخالق، يمتنع على المخلوق – على حد تعبير عباس محمود العقاد – أن يُعطل

عقله مرضـــاة لمخلوق مثله، أو خوفا منه، ولو كان هذا المخلوق جمهرة من الخلق تحيط بالجماعات وتتعاقب مع الأجيال.

والحق أنك لو تأملت المأزق الحضاري العربي منذ أفول شمس الحضارة العربية الإسلامية إبان بدايات العصر الحديث، وكذلك المشهد السياسي – الإسلامي (العبثي) المصاحب لما سُمي «ثورات الربيع العربي»، لأدركت على الفور أن الأزمة التي نكابدها هي في حقيقتها أزمة عقل، أو بالأحرى أزمة فساد أو تعطيل العقل، وهي أزمة تعاونت على تفاقمها تاريخيًا عوامل سياسية دينية بالدرجة الأولى، تعتمل بداخلها جملة من العوامل الاقتصادية والتربوية والتعليمية، وتُغذيها مبادئ عقيمة؛ كالسمع والطاعة، وقدسية رجل الدين لا قدسية الدين ذاته، وزندقة المتمنطق، ... إلخ. ولكن كيف يُعطل الإنسان عقله؟ تتجلى الإجابة عن هذا السؤال بالنظر في أنواع العقول؛ فكما يختلف الناس في أشكالهم، فهم يختلفون أيضًا في عقولهم، والاختلاف هنا ليس مرده بالضرورة إلى العامل الوراثي، بل إلى العامل البيئي (فلو سلمنا بصحة معامل الذكاء كمقياس ثابت ونهائي وموروث لمقدرة الفرد الفكرية، لكان على كل منا أن يقنع منذ الصغر بوضعه الدائم في المجتمع، ونوع التعليم الذي يستحق، ونوع العمل الذي سيختار عندما يترك الدراسة. ولكان علينا أن نقنع أيضًا بادعاء النخبوية القائل بأن بعض الناس مولودون ليكونوا «قاطعي أخشاب وساحبي مياه»، بينما يملك آخرون قابليات أعلى للتدرب على التكنولوجيا، وللثقافة، وللإدارة والحكم). وبصفة عامة يمكن التمييز بين أربعة أنواع من العقول في مجتمعاتنا، منها ما هو سائد كالأنواع الثلاثة الأولى، ومنها ما هو نادر، بل شديد الندرة، وهو النوع الرابع:

- **العقل المغلق**: ويُعرف أيضًا بالعقل المتحجر؛ وهو عقلٌ أصم، متصلب، أحادي الرؤية، ذاتي المرجعية في الغالب، يركن إلى السكون والدعة، مقاوم بشدة لأي شكل من أشكال التغيير، يمكن تمثيله بالثور الذي رُبط في ساقية

معصوب العينين فيمضي مستكينًا في دائرته لا يحيد عنها. ويصعب التعامل مع مثل هذا النوع من العقول، لذا شاع القول: «تعلم الصمت في حضرة العقل المغلق»!

- **<u>العقل الفارغ</u>**: ويُعرف أيضًا بالعقل التابع أو الإسفنجي؛ وهو عقل المستسلم لعقول الآخرين بغض النظر عن صحة أفكارها أو خطئها، صدق استلالاتها أو كذبها، ملاءمة رؤاها أو عدم ملاءمتها. وصاحب هذا العقل في الغالب ضعيف الشخصية، مفتقد للثقة والاعتداد بالذات، عاجز عن الرؤية النقدية، خارجي المرجعية بشكل مطلق، يمكن تمثيله بالإسفنجة؛ تمتص كل ما يُلقى إليها بسرعة، ثم تُعيد إخراجه بالعصر كما هو، فلا تستبقي إلا أقل القليل منه، لتحمل عليه المزيد أو الجديد مما يمكن فقده بسهولة. ويسهل تشكيل مثل هذا النوع من العقول والتلاعب به من قبل وسائل الإعلام المختلفة والجماعات السياسية والحزبية والدينية.
- **<u>العقل المتلون</u>**: ويُعرف أيضًا بالعقل الحرباء، وهو عقل قادرٌ على التفكير والفحص والاستنتاج المنطقي الصحيح، لكنه أناني النزعة، وصولي النشاط، خبيث الهدف، مغالط غالبًا في القياس، يقبل ما كان فقط في مصلحته ولو اتسم بالخطأ والكذب، ويرفض ما كان ضد مصلحته ولو اتسم بالصحة والصدق. وهذا العقل هو أخطر أنواع العقول على المجتمع وأكثرها مراوغة.
- **<u>العقل المتفتح</u>**: ويُعرف أيضًا بالعقل المُفلِتر أو المُرشِح أو الخلاق؛ وهو أزكى أنواع العقول وأروعها، لا يقبل فكرًا على علاته، بل يُناقش ويُحلل ويفهم ويستنتج ويقترح الحلول. ويتسم صاحب هذا العقل بتوازن المرجعية الداخلية والخارجية، فما جاء من الخارج يمر بالضرورة عبر مفلتراته، فيستبعد منها ما كان مخالفًا للمنطق، أو ما ليس مدعومًا بالحجة والبرهان، كما يتسم بالقدرة على الحوار والإقناع، والاعتداد بالذات دون مغالاة أو تعصب، فضلاً عن العطاء الإبداعي،

وإن كان يواجه مقاومة حادة من أصحاب العقول الثلاثة الأخرى، لا لشيء إلا لهيمنتها على المجتمع.

ولا يخفى على أحد أن نظامنا التعليمي بكافة مراحله، يغذي وينمي النوع الثاني من أنواع العقول، أعني العقل الفارغ أو التابع أو الإسفنجي؛ فقوامه مادة علمية نحشو بها عقول أطفالنا وشبابنا على مدار العام، لتحتويها في النهاية أوراق امتحانات تملأ مخازن المؤسسات التعليمية ريثما يتم إعدامها! وهكذا نجد أنفسنا من عقد إلى عقد أمام ثقافة مشوهة لعقل جمعي قاصر، لا يملك من مقومات النهضة المنشودة شيئًا، بل يُردد فقط إحدى عبارتين: «لقد فكر لنا سلفنا الصالح»، أو «لقد فكر لنا الغرب»، وبينهما صيحات صاخبة للعقل المغلق والعقل المتلون!

متى إذن نفكر لأنفسنا؟ ومتى نعقل أن لكل حضارة محليتها الزمانية المكانية المختلفة قطعًا من حيث ظروفها وإشكالياتها وعوامل أفولها أو نهضتها؟

(٣٧) الضمير العلمي!

- **٦ فبراير ٢٠١٣**

تجريد وزيرة التعليم الألمانية من درجة الدكتوراه لنسخها أجزاءً من أطروحتها دون سند صحيح للنصوص! ماذا لو حدث هذا عندنا؟ ربما لن يتبقى إلا القليل من حملة الماجستير والدكتوراه!

في خبرٍ أورته صحيفة الجارديان بتاريخ السادس من فبراير ٢٠١٣، قررت جامعة دوسلدورف الألمانية University of Düsseldorf (بتاريخ الثلاثاء الخامس من فبراير/ شباط ٢٠١٣) تجريد وزيرة التعليم الألمانية «أنيته شافان» Annette Schavan (من مواليد ١٩٥٥) من شهادة الدكتوراه التي حصلت عليها من كلية الفلسفة. وأكدت لجنة جامعية ثبوت تهمة الانتحال التي وُجهت سابقًا لوزيرة التعليم الألمانية وسحب لقب الدكتوراه الذي حصلت عليه الوزيرة قبل ثلاثة وثلاثين عامًا،

حسـبما أعلن رئيس اللجنة الجامعية البروفيسور «برونو بليكمان» Bruno Bleckmann. وصوت اثنا عشر عضوًا في اللجنة الجامعية المكونة من خمسة عشر عنصرًا لصالح هذا القرار، فيما رفض اثنان القرار وامتنع عضو واحد عن التصويت. هذه الاتهامات مماثلة لاتهامات وجهت سنة ٢٠١١ لوزير الدفاع «كارل تيودور تسو جوتنبرج» Karl-Theodor zu Guttenberg، والذي استقال من جميع مناصبه السياسية بعد قرار جامعة بايرويت University of Bayreuth تجريده أيضًا من درجة الدكتوراه. لكن تهمة الانتحال العلمي لوزيرة التعليم ربما تسبب ضررًا أكبر للحكومة قبل ثمانية أشهر فقط من الانتخابات، حيث تمثل القضية تهديدًا مباشرًا لمصداقيتها كمشرفة على الجامعات. وقد طالبها زعماء المعارضة بالاستقالة. وتقول «ميركل» إن «شافان» تحظى بثقتها.

كانت «شافان» بين أول من أدان «جوتنبرج» لنقله رسالة الدكتوراه ووصفت الواقعة بأنها «مخزية». وتحمل رسالة «شافان» عنوان «الشعوب والضمير: دراسات في ظروف وضرورة ومتطلبات تكوين الضمير اليوم»!

(٣٨) هل خلق الله الشر في العالم؟!

- **١٥ فبراير ٢٠١٣**

لقد درجنا على النظر إلى العالم من منظور الثنائية؛ نتكلم عن النور والظلمة، ونذكر الخير والشرّ، ثم المحبة والكراهية، وكأن هناك حقيقتين في الواقع: حقيقة وجود النور وحقيقة وجود الظلمة، وجود الخير ووجود الشر ... وهكذا، في حين يشير العلم بكل وضوح إلى أن الحقيقة تخصّ النور وحده، وأن الظلمة هي انعدام النور. كذلك الأمر بالنسبة للخير والشرّ؛ فما نراه من شرٍ إنما هو انعدام وجود الخير، وحيثما يغيب الصدق يكون البهتان، وإذا ما غارت الرحمة طغت القسوة والوحشية. ففي عالم القِيَم والمبادئ ليس هناك من فراغ ليس فيه خير ولا شر، ومن هذا المنظور ليس في القيم الإنسانية إلا حقيقة واحدة هي الخير. وعندما

يغيب الخير بكلّه أو بجزئه نرى الشر يعيث فسادًا بدرجاته المتفاوتة من الخراب، وكذلك الأمر في المحبة والكراهية؛ فالمحبة حقيقة موجودة وهي سبب الحياة والإبداع، وفي غيابها تكون الكراهية والدمار.

(٣٩) زمن الخداع

- ٢٣ مايو ٢٠١٣

أشعر أن كثرة من العرب اليوم يخدعون أنفسهم، سواء أكانوا ممن هللوا لصعود تيارات الإسلام السياسي، وراهنوا على نجاحها في إدارة الشأن العربي بعد نظمٍ فاسدة طالما تمنوا سقوطها، أو كانوا من المعارضين لهذا الصعود، المراهنين على فشله، أو حتى كانوا ممن ارتضوا الصمت وقنعوا بمقاعد المتفرجين، وإن كان أصحاب الفريق الأول هم الأكثر خداعًا لأنفسهم وللآخرين بتأييدهم المطلق لسياسات يجهلون في الغالب مغزاها وأهدافها وتفاصيلها، وقناعتهم بالتسويق الخادع لمشروعات دينية نهضوية غير محددة المعالم، في مجتمعات مشوهة الوعي؛ تتلقى ثقافتها الدينية ومعالم نهضتها، لا من أهل الفقه والخبرة والتخصص، وإنما من محترفي صعود المنابر وارتياد الفضائيات، ثم من أنصاف وأرباع وأثمان المثقفين الذين تسربوا من شقوق الثورات ليعيثوا في الأرض جهلاً وفسادًا.

ولا أستثني طائفة من الفريق المعارض، لا سيما في تطرف رد الفعل لديهم إزاء فواجع ما يُسمى الربيع العربي، أعني رد الفعل المناوئ لكل ما هو إسلامي، دون تمييز بين الإسلام كدين قيّم ارتضاه لنا رب العزة كمنهج حياة، وبين من نصبوا أنفسهم زيفًا كمتحدثين باسمه ... كما لا أستثني أولئك الذين ارتضوا الصمت واكتفوا بالمشاهدة، فإذا بهم تحركهم عواطفهم ذات اليمين وذات الشمال، وتنوء أعناقهم بمصالح وجهالات بعضها فوق بعض.

تستطيع أن تلحظ ذلك الخداع بسهولة فيما تتناقله وسائل الإعلام وصفحات التواصل الاجتماعي من مشاهد ووقائع وتحليلات، فضلاً عما يصدر من تصريحات

حكومية، إذ هي في جملتها لا تعكس استنباطًا منطقيًا محكمًا، أو استقراءً دقيقًا للواقع الذي نكابده جميعًا، إنما تحمل في طياتها مبررات واهية لاختيارات مسبقة خاطئة، أو لمواقف واتجاهات تُغذيها أيديولوجيات بعينها متناحرة. وفي غمرة ذلك كله يكثر المتنطعون والمتحذلقون والمتحولون، الذين يجيدون العزف على أوتار المعاناة، والمتاجرون بالآلام، المرددون دون حياء لمعزوفات العُهر السياسي .

وما من مخرج لنا من دائرة الخداع سوى بالمكاشفة والمصارحة؛ مكاشفة الخادعين والمخدوعين لذواتهم الغارقة في دوامة الوحل السياسي، ومصارحتها بحقيقة أمراض الجهل والتخلف والنفاق والتزلف التي تستوطنها، ومكاشفة أولي الأمر لرعاياهم ومصارحتهم بحقيقة فشلهم ... ما من حلٍ سوى أن نتجرع أقراص الحقيقة رغم مرارتها، وأن نقتحم مجاهل المأساة رغم ظلمتها، وحينئذ قد تنقشع السحب وتتكشف الحُجب لتُظهر ما ارتديناه زيفًا من دُثر. ولنتذكر جميعًا تلك الحقيقة التي طالما كررها التاريخ: ما من فصيل واحد، مهما بلغت قوته، بإمكانه الهيمنة على مقدرات وعقول أمة بأكملها، أو فرض أيديولوجيته بالقوة على جموع الناس مهما بلغت وجاهتها، ومهما أبدع في تنميقها بالخداع الديني؛ لنتذكر أن أخناتون قد فشل في فرض عقيدة التوحيد – رغم سموها – على المصريين بالقوة، لا لشيء إلا لارتباطها بأيديولوجيته السياسية كملك، حيث ظل الناس في عهدة يعبدون آلهتهم سرًا، حتى انتهت العقيدة تمامًا بنهاية فترة حكمه. كذلك فشلت الإمبراطورية الرومانية البيزنطية في فرض مذهبها على أقباط مصر، وفشلت الدولة الفاطمية في فرض عقيدة التشيع على المصريين، وفشل الخليفة المأمون في فرض عقيدة خلق القرآن على رعيته رغم بأسه وقوته، حيث لقي مقاومة عنيفة من الحنابلة الذين أيدتهم أغلب الرعية، وظل الأمر كذلك طوال عهود المأمون والمعتصم والواثق، ثم تبدل الحال تمامًا في عهد المتوكل.

لنتذكر أن مناط الخداع هو تسييس المقدس وتقديس السياسي في معية الجهل بركائزهما وسماتهما، وأن الدين حين يصبح مطية للهيمنة يغدو ذلولاً للمنافع الخاصة والاستلاب الفكري الاجتماعي. وصدق من قال: النفس أمارة بالسوء، فلنقومها بالنفس اللوامة، كيما نعيش ونموت بنفس مطمئنة.

(٤٠) مشايخنا وحُجة الصوت المرتفع!

- **١٨ يونيو ٢٠١٣**

حجة العقل أقوى بلا شك من حجة الصوت المرتفع، وسلاسة الأفكار الهادئة تبلغ من القلب والعقل ما لا يبلغه الصراخ.

أمقت الصوت المرتفع، لكن من المؤسف أننا محاطون بأشخاصٍ لا يملكون أية موهبة إلا الصراخ، غير مبالين بما قد يعكسه صراخهم من ضعف للحجة، أو تأثير منفّر لدى المتلقي؛ ففي إحدى خُطب الجمعة (التي اعتدت أن أصطحب فيها ابني الصغير، وكان لم يتجاوز الخامسة)، سألني الصغير بعفوية وعلى وجهه علامات الخوف: «بابا، هو الشيخ بيزعقلنا ليه؟»! احتضنته وهدأت من روعه، وبعد انتهاء الخطبة والصلاة شرحت له حقيقة الموقف بما يستطيع استيعابه، ثم حاولت طمأنته بحديثي مع الشيخ وتركه يداعبه بابتسامة. وحينئذ حاججت الشيخ بسؤال الصغير، فحاججني بحديث «جابر بن عبد اللّه» – رضي اللّه عنهما – حيث قال: «كان رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – إذا خطب احمرَّت عيناه، وعلا صوته، واشتدَّ غضبه؛ حتى كأنه منذر جيش يقول: صبَّحكم مسَّاكم...» رواه مسلم.

قلت له: لم يكن لدى رسول اللّه (صلوات اللّه وسلامه عليه) مكبرات للصوت كتلك التي تملأ المساجد وتزين المآذن، وكان لابد لصوته أن يعلو ليصل إلى كافة حشود المسلمين لاسيما الأبعد منهم، ولم تكن ثمة مساجد متقاربة يتبارى الخطباء صراخًا فوق منابرها عبر مكبرات الصوت، فتتداخل الأصوات ويضيع المعنى، ولم

تكن ثمة تحزبات دينية ينتمي إليها ويختلف وفقًا لها الخطباء وتُصنف المساجد، فيصطبغ صراخهم بصبغة الفرقة ... إلخ!

جادلني الشيخ بأن رفع الصوت ضرورة من ضرورات الخطبة، وبدون ذلك قد يفقد المتلقون تركيزهم! ... فذكرته بمقولة القرطبي – رحمه الله: «كونه – صلى الله عليه وسلم – تحمرّ عيناه، ويعلو صوته، ويشتدُّ غضبه في حال خطبته، كان هذا منه في أحوال. وهذا مشعر بأن الواعظ حقه أن يكون منه في وعظه بحسب الفصل الذي يتكلم فيه ما يطابقه؛ حتى لا يأتي بالشيء وضده ظاهر عليه. وأما اشتداد غضبه فيحتمل أن يكون عند نهيه عن أمر خولف فيه، أو يريد أن صفته صفة الغضبان».

أضفت: الصوت وسيلة راقية للوصول إلى قلب من تحب، وإلى من تخاطب، وإلى شخص ما في الطرف الآخر! الصوت بدرجاته؛ حدته ورقته وانخفاضه وارتفاعه المقبول غير المنفر، ولو كان لدى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مكبرات للصوت فلربما اختلف الأمر. أما عن تركيز الناس فتستطيع المحافظة عليه بسلاسة التعبير وجاذبية الموضوع وقوة الحجة!

هنا بدأ صوت الشيخ يعلو ... فابتسمت ... وابتسم!

(٤١) عشوائيات!

- **<u>٢٤ يونيو ٢٠١٣</u>**

نعيش في العالم العربي حالة مفزعة من العشوائية في كل شيء: عشوائية الفكر، عشوائية التخطيط والتنظيم والهدف، عشوائية توزيع الثروات والأدوار، عشوائية القرارات والقوانين والمصالح، عشوائية الزمان والمكان، عشوائية الأحداث والأشخاص والرؤى، وأخيرًا عشوائية التعاطي مع العشوائيات – إن صح التعبير – تلك التي تقطع صلتنا بالماضي، وتلقي بظلالها إلى الحاضر، وتكاد تقضي على طموحات وتطلعات المستقبل! في كنف هذه العشوائيات نرصد يوميًا

تغييرات متتابعة ومؤثرة في الشخصية العربية، غالبيتها للأسف تغييرات سلبية مدمرة، تعصف بالمجتمع العربي وتشوه الهوية العربية في كافة جوانبها.

نحن أمام ثقافة للعشوائيات تعززها عشوائيات ثقافية وإعلامية وتربوية وتعليمية واقتصادية، بل ودينية، تقودنا بسهولة إلى حالة من الفوضى العارمة لا ندري مداها.

وربما كانت عشوائيات البناء في غالبية أماكن الإيواء والسكن هي أول ما يخطر ببالنا حين نتحدث عن العشوائيات في حياتنا، لكنها في الحقيقة لم تعد تقتصر على ذلك، بل تعددت أشكالها ومظاهرها، وإن كان أخطرها على الإطلاق عشوائية الثقافة العامة التي يتشربها العوام يوميًا؛ فقد خرجت أصول ثقافة العشوائيات من رحم عشوائيات ثقافية تتردى بالقيم الاجتماعية إلى غيابة من الفساد عمَّت جميع مناحي الحياة. وهو ما حذَّر الخبراء – في كافة المجلات: الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والنفسية – من خطورته على الأمن القومي العربي.

وإذا كانت العشوائية في اللغة هي سوء البصر بالليل والنهار، أو سوء البصر من غير عمى، ومن ثم انعدام الغرض والغاية والتخطيط، فلا أجد ما أختم به خيرًا من قوله عز وجل: «ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانًا فهو له قرين» (الزخرف: ٣٦).

(٤٢) بل هي الفتنة ... استشرف لها القوم فاستشرفتهم!

- <u>١٢ يوليو ٢٠١٣</u>

حين يقف فصيلان في مواجهة بعضهما البعض وكل منهما يزعم أنه على الحق المبين، والعوام حيارى يتقلبون بين هذا وذاك، فاعلم أنها الفتنة!

هي الفتنة التي حدثنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففي حديث «سفيان بن عيينة»، عن «الزهري»، عن «عروة»، عن «أسامة»، أن النبي صلى الله عليه وسلم أشرف على أطم (القصر والحصن) من آطام المدينة، ثم قال: «هل ترون ما أرى ... إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر». وعن «أبي هريرةَ» رضي الله

عنه قال: قال رسـول الله صلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسلّمَ: «ستَكُونُ فِتَنٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنْ السّاعِي، وَمَنْ يُشْرِفْ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ، وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ». وعن «سعد بن أبي وقاص» – رضي الله عنه – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْعَالِيَةِ حَتَّى إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ وَصَلَّيْنَا مَعَهُ وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلاً ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا فَقَالَ – صلى الله عليه وسلم – «سَأَلْتُ رَبِّي ثَلاَثًا فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً؛ سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا» (رواه مسلم).

نعم، هي الفتنة التي دفعت الطاغية «أبو طاهر القرمطي» إلى مهاجمة بيت الله الحرام يوم الثامن من ذي الحجة سنة ٣١٧ هجرية، وسيوف أتباعه الملاحدة تحصد حجاج بيت الله قتلاً ونهبًا وسفكًا، وأبو طاهر يشرف من على باب الكعبة على هذه المجزرة المروعة وينادي أصحابه: أجهزوا على الكفار وعبدة الأحجار، ودكوا أركان الكعبة، واقلعوا الحجر الأسود.

وهي الفتنة التي عمت بلاد المسلمين في زمن التتار – براوية «ابن كثير» – حيث بلغ المسلمون آنذاك غاية السوء والضعف، حتى أن المرأة التترية كانت لتوقف العشرة من الرجال وتقول لهم: «لا تتحركوا حتى آتي بسيف أقتلكم به»؛ فيقفون يرتعشون خوفاً حتى تأتي وتقتلهم. وهي الفتنة التي أدت إلى المواجهة بين «علي» كرَّم الله وجهه – من جهة – و«عائشة» أم المؤمنين و«طلحة بن عبيد الله» و«الزبير بن العوام» (رضي الله عنهم) من جهة أخرى في موقعة الجمل بالبصرة سنة ٣٦ هـ. (مع العلم أن «طلحة بن عبيد الله» و«الزبير بن العوام» رضي الله عنهم من العشرة المبشرين بالجنة، وكانا يُلقبان بحواريا رسول الله، وأم المؤمنين «عائشة» هي التي برَّأها القرآن من الأفك في سورة النور، و«علي بن أبي طالب» كرَّم الله وجهه من

العشرة المبشرين بالجنة، وأولاده أحباب رسول الله، وهو أول من أسلم في الصبيان! روى «أبو داود» عن «المقداد بن الأسود» أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: «إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ ... إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ ... إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ ... وَلَمَنِ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهًا» (رواه أبو داود، وصححه الألباني). اللهم جنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن.

(٤٣) هكذا يُناقشون قراراتهم!

- **٢٩ أغسطس ٢٠١٣**

مناقشات مجلس العموم البريطاني اليوم (الخميس ٢٩ أغسطس ٢٠١٣) بشأن توجيه ضربة عسكرية لسوريا تستحق التأمل، لا من حيث سياسة الحكومة البريطانية المؤيدة بشكل عام لأية خطوة أمريكية، ولا من حيث إرجاء الحكومة للتصويت السريع على مقترحها بالتدخل العسكري في الشأن السوري إلى ما بعد انتهاء مفتشي الأمم المتحدة من تقديم تقريرهم لمجلس الأمن (تحت ضغط تهديد حزب العمال بسحب دعمه للخطط الحكومية إذا لم يتم الانتظار)، وإنما من حيث طبيعة وطرائق ومكان ونوعية هذه المناقشات.

مما يلفت الانتباه مثلاً صغر سن معظم أعضاء مجلس العموم، وما يتمتع به النواب من حيوية وحضور ذهني وإعداد جيد لكلماتهم، بما ذلك كبار السن منهم؛ وكذلك دقة تنظيم الجلوس في قاعة مستطيلة صغيرة نسبيًا، ذات مقاعد متقابلة، مما يتيح للجميع رؤية بعضهم البعض مباشرة، وتقارب الأعضاء من بعضهم البعض مكانيًا كانعكاس لإمكانية تقارب الأفكار من خلال العصف الذهني. هذا فضلاً عن الأناقة البالغة للأعضاء كممثلين للشعب البريطاني دون الإخلال بجوهر المناقشات ورقيها ومنطقيتها بالنسبة للصالح البريطاني العام، ناهيك عن تنوع محاور المناقشة لمقترح الحكومة: من تحليلات وملاحظات السلطة الرابعة ممثلة في وسائل الإعلام، إلى الجانب العسكري ممثلاً في رؤى الضباط المتقاعدين، إلى

التوصـــــيفات القانونية والحقوقية المقدمة من خبراء القانون الدولي، إلى وجهة نظر الرجل العادي في الشارع البريطاني، إلى صورة بريطانيا وأخلاقياتها ومصداقيتها في نظر العالم ... إلخ.

لا تجد مثلاً نائبًا يغط في النوم، أو منشــغلاً في مكالمة هاتفية، أو يلتمس توقيعًا من رئيس الوزراء أو أحد المســـؤولين ... ولا تجد حوارات جانبية لعضـــوين أو أكثر تحول دون التركيز في المناقشة ومتابعتها ... ولا تجد عضوًا يصرخ معترضًا أو طالبًا للكلمة، بل يقف راغبو التعليق حتى ينطق رئيس الجلســـــة باســــم واحد منهم، فيجلسون مباشرة وبآذان صاغية حتى ينتهي تمامًا من كلمته دون مقاطعة!

لا تجد أيضــًا معارضـــة هشـــة مهملة من قبل رئيس المجلس أو غيره، بل يتحدث زعيم المعارضـــة (زعيم حزب العمال الشـــاب «إد ميليباند» Ed Miliband، البالغ من العمر ٤٤ عامًا) في وقت أطول من رئيس الوزراء (الشـــاب أيضـــًا «ديفيد كاميرون»: ٤٧ عامًا)، عارضــًا وجهة نظره القائمة على أســـاس سـبق الإثباتات للقرارات والتعلم من دروس الماضـــــــــي، دون أن يقاطعه أو يهاجمه أحد من حزب الأغلبية (حزب المحافظين)، ودون تهديد من رئيس المجلس «جون بيركو» بأنه (ســــــيطبق عليه اللائحة)! لقد شـعرت أثناء متابعة هذه المناقشـات أننا في وادٍ وأن هؤلاء القوم في وادٍ آخر، وأن أمـامنـا ردحـًا طويلاً من الزمن كي نبلغ فهمهم وطرائق تطبيقـاتهم للديموقراطية، على الأقل من حيث تحديد ماهية الناخب والمُنتخَب، فما كان لمجلس نيابي أن يتمتع بالرقي الحضاري لولا الرقي الحضاري لمن انتخبه!

(٤٤) ترويض العقول وتبرير العنف بين المتبوع والتابع

- **١ سبتمبر ٢٠١٣**

تيار الحياة فيه المتبوع والتابع ... الفاعل والمفعول به ... المحرك والمتحرك ... وعبر هذه الثنائيات تتجلى أبشع صور النزعة العدوانية لدى الإنسان، تلك التي تغلفها عادة مبررات مختلفة، مبعثها في الغالب سـلطة دينية أو سـياسـية تتلاعب بعقول المتبوعين!

وما كان لها أن تتلاعب بالعقول لولا استعداد أصحابها واستجابتهم للتغييب المتعمد لعقولهم، تلبية لنداء النفس الأمارة بالسوء.

تتكفل السلطة الدينية في المجتمع – لاسيما إن كانت خادعة وذات مصالح – بالتدخل في عدالة الله تعالى، وتوزيع الناس بين الجنة والنار، فتلقى بينهم العداوة والبغضاء؛ وتتكفل السلطة السياسية بتجريد معارضيها من أسباب وجودهم، فتدفع بمؤيديها إلى مواجهتهم ... وفي الحالتين تتحرر النفس من جانبها اللوام، وتندفع إلى إشباع حاجات ما أنزل الله بها من سلطان. وثمة تجربتان علميتان مشهورتان في هذا الصدد؛ الأولى قام بها عالم النفس الأمريكي «ستانلي ملجرام» Stanley Milgram (١٩٣٣ – ١٩٨٤) لقياس مدى استجابة البشر لسلطة ما تبدو موثوقًا بها تدفعهم إلى ممارسة العنف، بغض النظر عن نوازع الطيبة والخيرية والعقلانية في الإنسان. اختار «ملجرام» مجموعة مختلفة من الرجال والنساء الذين تم إيهامهم بأنها تجربة لقياس تأثير العقاب على العملية التعليمية (تتراوح أعمارهم بين ٢٠ – ٥٠ سنة ويتفاوتون في مستوياتهم العلمية والثقافية إلى حد كبير)، كما استعان بمجموعة أخرى من المساعدين الذين يعلمون الهدف الحقيقي من التجربة، بحيث يقوم أحد المتطوعين بطرح أسئلة على أحد المساعدين، فإذا أخطأ أوقع عليه العقاب بشكل متدرج، ومن خلال جهاز للصعق الكهربائي تتراوح شدته بين ٣٠ – ٤٥٠ فولت. لم يكن جهاز الصعق يعمل بالفعل، لكن المساعد كان يُصدر صرخات خادعة متدرجة الشدة كلما ازدادت شدة الصعق. ربما تمنعنا طيبتنا ومثاليتنا في الظروف العادية من الاستمرار في هذه التجربة غير الإنسانية، لكن الغريب أن ٦٥٪ من المتطوعين استمروا، وبلغوا الحد الأقصى القاتل من الفولتية (٤٥٠ فولت)، بل إنّ بعضهم أظهر متعةً بسماع أصوات صراخ الضحية دون أن يعلم أنها كاذبة، ولم يحجم عن الاستمرار في التجربة سوى ثلاثة فقط! لقد كانت الأغلبية مغيبة، تبرر أفعالها بما تم إيهامهم به، فاستراحت ضمائرهم!

أما التجربة الثانية فقد أجراها «فيليب جورج زيمباردو» Philip Zimbardo، أستاذ علم النفس بجامعة ستانفورد (من مواليد ١٩٣٣)، وعُرفت باسم «تجربة سجن ستانفورد» Stanford prison experiment. في هذه التجربة تم تشييد بناء يحاكي سجن ستانفورد، وتم اختيار ٢٤ متطوعًا قسَّمتهم القرعة إلى حُراس وسُجناء مقابل ١٥ دولار يوميًا لمدة أسبوعين، وقيل للحراس: لكم السلطة الكاملة في إدارة السجن شريطة عدم الاعتداء الجسدي على المسجونين. ومع ذلك، وبسبب السلطة الممنوحة لهم، مارس الحراس سلوكًا عنيفًا تجاه المسجونين؛ حرموهم من الطّعام تارةً، وأجبروهم على تنظيف المراحيض بأيديهم المجرّدة تارةً أخرى، تحرّشوا بهم جنسيًا وحبسوا أحدهم في زنزانة فرديّة. وبينما كانت التّجربة تقتضي أن يظل المسجونون في السّجن طوال الوقت بينما يعمل الحرّاس في نوباتٍ معيّنة، فقد تطوّع بعض الحرّاس – لشدة المتعة والإثارة – إلى العمل ساعاتٍ إضافية مجانًا، ومن بين كل ثلاثة حراس لاحظ فريق البحث أن واحدًا منهم ذو سلوك ساديّ، بل إن «زيمباردو» نفسه انخرط في اللعبة بعد اليوم الرّابع، ليتم إيقاف التجربة بعد ستة أيام! في ضوء هاتين التجربتين نستطيع أن نفسر موجات العنف التي يشهدها مجتمعنا هذه الأيام، ونستطيع أن نفسر مدى سهولة بعث العنف والعدوانية من مرقدهما داخل نفوسنا، فنقتل بسهولة، ونشمت في المقتولين بسهولة، ونقاطع بعضنا البعض بسهولة، ونبرر لأنفسنا بسهولة. إنها السلطة، إنها ثنائية التابع والمتبوع، إنها عقولنا حين ترضخ بسهولة لمن يعبث بها من خارجها وداخلها!

يقول «سيجموند فرويد» في كتابه «*الحضارة وسخطها*»: «الحقيقة هي أن الناس ليسوا مخلوقات ودودة وديعة... إن درجة من الرغبة في العدوان يجب أن يُحسب حسابها كجزء من موهبتهم الغريزية».

ويؤكد الفيلسوف الألماني «أوزفالد شبنجلر» هذا المعنى في كتابه «*أفول الغرب*»، إذ يكتب قائلاً: «إن الحيوان المفترس هو أعلى أشكال الحياة النشطة. إنه

يمثل أسلوبًا للعيش يتطلب الدرجة القصوى من ضرورة القتال، والإخضاع، والإبادة، وتوكيد المرء تفوقه على الآخرين، ويحتل الجنس الإنساني مرتبة عُليا لأنه ينتسب إلى نوع الوحوش المفترسة. إن الإنسان وحشٌ مفترس، سأقول ذلك مرارًا وتكرارًا».

كذلك يقارن الفيلسوف الأمريكي «هربرت ماركيوز» – على نحو تهكمي – بين أشكال العدوان البدائية لدى الإنسان، وتلك التي يُغلفها المجتمع الصناعي المتقدم بقيمه المعوجة وغاياته، فيصرح قائلاً:

«من المؤكد أن استخدام وسائل العدوان قديم قدم الحضارة ذاتها، لكن هناك فرقًا حاسمًا بين العدوان التكنولوجي وأشد الأشكال بدائية منه؛ فهذه الأخيرة لا تختلف كمًا فحسب (أضعف): إنها تتطلب النشاط ومشاركة الجسم إلى درجة أعلى من الوسائل الآلية وشبه الآلية من العدوان، ويكون استخدامها استخدامًا إجراميًا. أما العدوان التكنولوجي فهو على العكس من ذلك ليس عملاً إجراميًا؛ فالسائق المسرع لسيارة أو قارب بخاري لا يُسمى قاتلاً حتى ولو كان كذلك، ومن المؤكد أن مهندسي إطلاق الصواريخ ليسوا قتلة ... إن الأنماط الجديدة للعدوان تدمر دون أن تجعل أيدي الإنسان قذرة، أو تجعل جسمه ملوثًا، أو تجعل عقله آثمًا»!

ولنتأمل معًا قول المولى عز وجل: «إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ، وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ» (البقرة: ١٦٦ – ١٦٧).

(٤٥) صاحب القُدور

- **١٣ سبتمبر ٢٠١٣**

يُذكر أن فلاحًا كان يمتلك حمارين قرَّر في يوم من الأيام أن يُحمِل على أحدهما ملحًا والآخر صحونًا وقدورًا، انطلق هذان الحماران بحمولتيهما، وفي منتصف الطريق شعر صاحب الملح بأنه مظلوم، حيث أن كمية الملح كانت أكثر وأثقل من

القدور الفارغة، واغتبط صاحب القدور بحمولته حيث كانت أقل وأخف. ومع شدة الإعياء قرر صــــاحب الملح أن ينغمس في بركة من الماء كانت بجوار الطريق كي يستعيد قواه التي خارت من وطأة الملح، فلما خرج من البركة شعر كأنه بُعث حيّا من جديد، فقد ذاب الملح المُحمل على ظهره في البركة وخرج نشيطًا كأن لم يمسه ملح من قبل، فلما رأى صاحب القدور ما نزل على صاحبه من النشاط قفز بـــقدوره في البركة لينال ما نال صاحبه، فامتلأت القدور ماءً فلما. أراد أن يخرج من البركة كاد ظهره أن ينقسم قسمين من وطأة القدور المُحمّلة بالماء!

هذه القصـــــــــة كانت مقررة على الطلاب في المرحلة الابتدائية في بعض الدول العربية، والعبرة من هذه القصـــة كما هو ظاهر أن يتعلم الطالب في مرحلة متقدمة من عمره بأن لا يقلد غيره، بل عليه أن يُعمل عقله وفكره قبل أن يُقدم على اتخاذ قرار مهما كان هذا القرار تافهًا ولو كان القفز في بركة ماء، وإن لم يُعمل عقله وفكره واكتفى بتقليد أو اتباع غيره فسيصيبه ما أصاب صاحب القدور.

(٤٦) صراع الهوية الإسلامية بين الهتاف والواقع

- **١٣ سبتمبر ٢٠١٣**

إسلامية إسلامية رغم أنف العلمانية ... إسلامية إسلامية رغم أنف الليبرالية!

هتافٌ تردد كثيرًا على ألسنة قادة وأعضاء ومؤيدي تيارات الإسلام السياسي في أعقاب أحداث الثلاثين من يونيو ٢٠١٣، حتى لكأن هذه الأحداث (بغض النظر عن ملابساتها) تحمل في طياتها سقوط الإسلام في مصر، وليس سقوط فصيل بعينه ممن نصبوا أنفسهم كمتحدثين باسمه! سمعت الهتاف من رجال ونساء وشباب وأطفال ذوي مستويات ثقافية وتعليمية مختلفة، منهم من يفقه ما يقول ويوظفه لخدمة أيديولوجيا بعينها ارتضاها لنفسه، ومنهم من لا تسعفه إمكاناته العقلية لمعرفة الفرق بين معنى ومعنى، بقدر ما لا يعرفون الفرق بين كلية الآداب وشرطة الآداب! الغريب

أنهم جميعًا يصطرخون بالهتاف في حماسة لو وُزعت على أنشطة تعليمية أو إنتاجية لتغير وجه مصر الحضاري!

سألت أحدهم، وكان شابًا في مقتبل العمر: حين نردد هتافًا عن إيمان به، فمن المفترض أننا ندرك مغزاه جيدًا، ونعرف بدقة معاني مصطلحاته، فقل لي ماذا تعني بالمصطلحات «إسلامية – علمانية – ليبرالية»؟ ثم ماذا تعني بـ «رغم أنف»؟

فكر وقدر، ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم قال ما معناه: أعني بمصطلح «إسلامية» أن تكون دولتي إسلامية، تطبق الشريعة وتحكم بما أنزل الله، وأعني بمصطلح «علمانية» استبعاد الدين من كافة مناشط الحياة، واستبدال القوانين الوضعية بشريعة السماء، وأعني بمصطلح «ليبرالية» إطلاق العنان للحريات الفردية وشيوع ثقافة الإباحية والفجور. أما «رغم أنف» فتعني أن الإسلام قادم لا محالة، وأن محاربته لن تزيدنا إلا إصرارًا على نصرته.

قلت: حسنا أنت محقٌ فيما بلغه فهمك، مغبونٌ فيما أخذت من غيرك، مخطئ في الاندفاع والتعميم، عرفت شيئًا وغابت عنك أشياء؛ فالصفة «إسلامي» أو «غير إسلامي» لا تُحمل على الدول أو الهيئات أو المؤسسات أو الحكومات، إنما تُحمل على الأفراد فقط: الأفراد فقط هم من يمكن أن يكونوا مسلمين أو غير مسلمين، ولذا كان الفقهاء قديمًا يصنفون الدول بقولهم: «دار الإسلام» أو «دار الكفر» أو «دار الحرب» أو «دار الذمة»؛ أي دولة المسلمين أو دولة غير المسلمين، ... إلخ. وعلى المنوال ذاته لا يصح القول «فكر سياسي إسلامي»، وإنما نقول «فكر سياسي عند المسلمين»، لأن الفكر نتاجٌ للعقل، وقد يصيب العقل وقد يخطئ، فلا يُنسب الخطأ إلى الإسلام كدين، ولا يصح القول «مصرف إسلامي»، وإنما نقول «مصرف لا تقوم معاملاته على الربا» ...، وهكذا. المسلمون يجتهدون في اختيار وسائل الحكم والإدارة، ويقتربون بذلك من الإسلام أو يبتعدون، ولكن ذلك لا يعني أن ممارساتهم هي الإسلام، كما لا يعني مجانبتهم الصواب أنهم ليسوا مسلمين. وبهذا المعنى فإن

دولة المسلمين قائمة بالفعل في مصر واقعًا ودستورًا، على الأقل بحكم أغلبية المسلمين فيها، وبحكم المادة الثانية من دستورها التي تنص على أن مبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيس للتشريع، ومن ثم يصبح الحديث عن العمل على إقامتها هو سعي الى تحقيق ما هو محقق!

ربما كان الأصحّ والأجدى أن نعمل على تجلية وتفعيل وترسيخ مبادئ وتعاليم وأخلاقيات الإسلام (التي تتجلى في كثرة من الدول غير الإسلامية التي بلغت شأوًا حضاريًا بعيدًا) في نفوس وعقول القائمين على نظام الحكم والإدارة، وقبل ذلك في نفوس وعقول الرعية، فهذه الأخيرة هي التربة التي ينبت منها وفيها الجميع.

من جهة أخرى، إذا كانت شريعة الإسلام وقوانينه قد أصابها الركود أو التعطيل الجزئي نتيجة الصراع على السلطة وما رافقه من تحالفات دولية ومحلية، فإن تفعليها المأمول في دولة المسلمين المعاصرة ليس وقفًا على أحد، لاسيما إن كان حاكمًا تحركه الأوضاع السياسية والاقتصادية داخليًا وخارجيًا، حتى وإن انتمى إلى فصيل بعينه يضيف إلى لقبه كلمة الإسلام. لذا، فإن من يربط بين أحداث الثلاثين من يونيو وبقاء الإسلام، أو بينها وبين سقوط الإسلام، هو إما مخدوع أو مخادع، وإلا فليأت بما أنجزته حركات الإسلام السياسي لصالح الأمة على الصعيد الإسلامي، وليكشف عما أقرته مؤسسات الدولة في معيتها من تشريعات أو إجراءات في سبيل الحكم بما أنزل الله، أو ما قدمته الجماعات النوعية التي أطلق لها العنان من إسهامات لتحقيق النهضة الإسلامية الشاملة ... الجميع لم يقدم شيئًا، اللهم إلا بث نوازع الفرقة بين أبناء الوطن الواحد! فإذا ما قال قائل: نحن ندافع عن الشرعية، قلنا: كيف يستقيم قولكم بالشريعة الرافضة للديموقراطية (بوصفها إحدى تجليات العلمانية والليبرالية)، وقولكم بالشرعية القائمة عليها؟

أما مصطلح «العلمانية» فهو مصطلح فضفاض تتعدد مدلولاته في الأدبيات الفلسفية والسياسية المعاصرة؛ فالتعريف الاصطلاحي الشائع هو فصل المؤسسات الدينية عن

السلطة السياسية، لكن ذلك لا يعني بحالٍ فصل الدين عن الحياة والمجتمع؛ فالدين مكون أساسي من مكونات الهوية لدى كثرة من الشعوب، لاسيما العربية، وهو موروث حضاري نشط يتجدد دومًا وفقًا للمتغيرات الزمانية المكانية. وبعبارة أخرى، الإسلام دينٌ سماوي بلغ من أفئدة الناس ما لا يمكن أن تبلغه أية أيديولوجيا، أما العلمانية فهي في منبتها الأوربي الحديث فكرٌ وضعي ثائر، لا على الدين، وإنما على تسلط رجال الدين، وتطويعهم المقدس لتحقيق مآرب دنيوية هي أبعد ما تكون عما ينادون به. وكون دولة المسلمين ذات نظام علماني (مدني) إنما يعني حمايتها من هيمنة أولئك الذين اتخذوا من الدين دثارًا للحكم، ومناطًا لفرض اجتهاداتهم العقلية التي قد تصيب وقد تخطئ، ويعني أيضًا حماية الدين وأهله من تسلط الدولة وتدخلاتها واضطهادها لحرية ممارسة شعائره (على هذا الأساس يعيش المسلمون في المجتمع الغربية).

ثمة شواهد على مدنية الدولة منذ أن وضع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أسس دولة المسلمين في صدر الإسلام، فرغم كونه نبيًا ورسولاً، لم يبن حكمه (صلوات ربي وسلامه عليه) على هذا الأساس، بل دشن مبدأ «الأمة مصدر السلطات» في بيعة العقبة الثانية، فأسس لحكمه في المدينة على بيعة أهلها، وأنشأ أول «جمعية تأسيسية في الإسلام» عندما طلب ممن بايعوه (ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان) أن يختاروا اثني عشر نقيبًا، كما أرسى أول دستور إسلامي مدني عند بناء الدولة في المدينة بعقد الوثيقة المشهورة التي تحدد الحقوق والواجبات.

كذلك أسس النبي (صلى الله عليه وسلم) لمبدأ الفصل بين أمور الدنيا والدين بقوله: «إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوه، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر»، وأيضًا موقفه حين مرَّ ذات يوم على بعض ملاك بساتين النخيل فوجدهم يؤبرونها [= يلقحونها] فقال لهم «لو تركتموها لكان أصلح». امتثلوا لنصيحته، لكن نخيلهم فسدت، فجاؤوه محتجين. فكان رده عليهم: «ويحكم إنما أنا نبيكم

في أمور دينكم؛ أما أمور دنياكم فأنا وإياكم فيها سواء»، أي أن نبينا صلى الله عليه وسلم قد أقر بالفصل بين الدين وعلم الزراعة. وفي غزوة بدر أراد أن ينزل بجيشه في موقع ظنه حصينًا، فسأله خبير عسكري من الأنصار: «يا رسول الله، هل هو الوحي أم هي الحرب والخديعة؟»، فأجابه بصدقه المعروف: «بل هي الحرب والخديعة»، فقال له الخبير العسكري: «ليس هذا بموقع، فلنجعل البئر وراءنا فنشرب ولا يشربون». وبالفعل، كان عطش قريش أحد أهم أسباب هزيمتها. هنا أيضاً أقر النبي بالفصل بين الدين والاستراتيجيا.

وفي عهد الخلافة الراشدة قام الخليفة الثالث «عثمان بن عفان» (رضي الله عنه)، بالفصل جزئيًا، لاسيما في مجال المال العام، بين الدين والسياسة، وقال قولته المشهورة: «كان عمر بن الخطاب يمنع أهله عن بيت المال إرضاءً لله، وأنا أعطي أهلي إرضاءً لله»! وذلك تعليقًا على أولئك الذين احتجوا وثاروا عليه لتخصيصه بني أمية أموالاً أكثر من غيرهم من بيت مال المسلمين، وكذلك تخصيص المناصب العليا كالولاية لهم. كان عثمان بذلك هو أول حاكم في التاريخ العربي الإسلامي يقرّ ويطبّق سياسة «المُحاصصة» المعروفة اليوم في العالم العربي بين الطوائف الدينية والعرقية، والتي ورثها «عثمان» عن «أبي بكر» (رضي الله عنه) في «حادثة السقيفة»، يوم قال له الأنصار: «منكم أمير ومنا أمير»، فقال لهم: «منا الأمراء، ومنكم الوزراء». لقد سار على هذا النهج كافة خلفاء بني أمية (ما عدا «عمر بن عبد العزيز»)، وتبعهم خلفاء بني العباس، وكان الأمويون في الأندلس على المنهاج نفسه. وهذه الأحداث كلها إلى انتهاء الدولة العباسية تدل على فصل الدين عن الدولة، وهي علامة من علامات العَلْمانية. وكذلك كان ملوك الطوائف بعد سقوط الدولة العباسية سنة ١٥١٧، وبدء الاستعمار العثماني للعالم العربي على هذا المنوال.

من المقولات الدالة أيضًا في هذا الصدد مقولة الراوي الأشهر للحديث «أبي هريرة (رضي الله عنه): «أصلي وراء علي، فالصلاة وراء علي أفضل، وآكل على مائدة معاوية، فالأكل على مائدة معاوية أدسم، وأجلس على الربوة، والجلوس على الربوة

أسلم» (حيث كان الصحابة الذين رفضوا المشاركة في الحرب بين «علي» و«معاوية» يسمون أنفسهم «الجالسين على الربوة»، ومنهم «عبد الله بن عمر»، و«أبو هريرة» رضي الله عنهما). وكأن «أبي هريرة» بهذه المقولة يدعم أسس ما يمكن أن نسميه «علمانية إسلامية». وحتى المسلمون الذين بايعوا «معاوية» على الخلافة، بعد استشهاد «علي بن أبي طالب» (كرَّم الله وجهه)، كانوا يدعمون أسس العَلْمانية الإسلامية، حيث قالوا لمعاوية كشرط لمبايعته: «نحن للأمة في أمور دينها، وأنت للأمة في أمور دنياها»، وهذا التقسيم للعمل بين الخلفاء والفقهاء، هو بمثابة البذرة لعلمانية إسلامية واضحة، ليتنا اليوم نسمعها من فقهائنا. بل إن «معاوية» نفسه قد دعَّم مقدمات العَلْمانية الإسلامية عندما توقف عن إمامة الصلاة بالناس، وسمّى إمامًا آخر يصلي بالناس بدلاً منه. وهذا التقسيم بين إمامة الدولة وإمامة الصلاة كان مشروع دولة عَلْمانية لم يكتمل. ومن المعروف أن الخلفاء بعد «معاوية» توقفوا عن إمامة الصلاة بالناس. والحق أن تقسيم العمل بين الفقهاء، الذين هم للأمة في أمور دينها، والخلفاء، الذين هم للأمة في أمور دنياها، قد تواصل لمدة أربعة عشر قرنًا، خاصة في الشرق، دون استثناء يُذكر؛ فالخليفة حاكم شبه دنيوي بشرعية دينية: شرعية بيعة أهل الحل والعقد، وشرعية الدعاء له في صلاة الجمعة، وقد كانت له تجديداته واجتهاداته الدينية التي تدخل في باب «المصالح المرسلة»، مثل تحريم الحلال تقليدًا لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الذي حرَّم على الفاتحين من المسلمين الزواج من الفارسيات اللواتي أقبل العرب على الزواج منهن أفواجًا أفواجًا، حتى لا تبقى نساء الجزيرة العربية عوانس. وبصفة عامة، كانت مطالب الفقهاء من الخلفاء محصورة في الشأن الديني والأخلاقي، مثل مطالبتهم لهم بالسهر على تطبيق الشريعة، أو الرفق بأهل الذمة، كما فعل أبو يوسف صاحب أبي حنيفة، في كتابه «*الخراج*» عندما وصف لهارون الرشيد وصفاً مؤثرًا التنكيل الذي يكابده الفلاحون عند أخذ الخراج منهم الذي قد يصل أحيانا إلى ٩٠٪ من محاصيلهم. ولا شك أن نظر جمهور الفقهاء السُنّة إلى الشورى بوصفها مجرد نصيحة غير ملزمة للأمير هو إقرار ضمني باستقلال الشأن

السياسي عن الشأن الديني، بل إن فقهاء السُنة حرموا على أنفسهم التدخل في السياسة بالقاعدة القائلة: «طالب الولاية لا يُولي». وقد شكلت هذه القاعدة عائقاً في وجه قيام حكومة فقهاء في الإسلام خاصة في المشرق. وإذا كانت العلمانية الأوربية الحديثة لم تف بوعودها بشأن الحرية والمساواة نتيجة المغالاة في رد الفعل إزاء الكنيسة (حيث انتشرت العنصرية والجريمة والنسبية الفلسفية)، فإن ما يحمله تراثنا من ملامح لما ندعوه بالعلمانية الإسلامية كفيلٌ بأن يدشن لها معنى جديدًا وواعدًا؛ أعني تفعيل ملكة العقل التي ميز اللّه بها الإنسان عن كافة مخلوقاته، ولعل هذا التفعيل يمثل مطلبًا محوريًا من مطالب شريعة الإسلام الغراء.

لننظر أخيرًا في مصطلح «الليبرالية»، الذي يشير إلى نزعة فلسفية سياسية ترفع من شأن الفرد وحريته في مواجهة كافة أشكال الاستبداد الفكري والسياسي. صحيح أن ثمة تفسيرات مختلفة وتطبيقات متباينة تتأرجح بين الاعتدال والتطرف لمفهوم الحرية، لكن عموم الليبراليين يدعون في المجمل إلى دستورية الدولة، والديمقراطية، والانتخابات الحرة والنزيهة، وكرامة الإنسان، وحرية الاعتقاد والمساواة والسوق الحر والملكية الخاصة، ... إلخ، وهي أمور يقرها الإسلام بشكل أو بآخر بما يتفق مع مبادئه ومنطلقاته.

تتجلى حرية الفكر مثلاً في قوله تعالى: «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ» (النحل: ١٢٥). وتتجلى حرية الاعتقاد في كثرة من الآيات، منها قوله: «وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ» (الكهف: ٢٩)، وقوله: «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا» (النساء ٨٠). ويتجلى مبدأ المساواة في قوله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» (الحجرات: ١٣). وتتجلى كرامة الإنسان في قوله: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ

وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا» (الإسراء: ٧٠) ... وهكذا.

هذه هي المبادئ الأساسية لليبرالية، فإذا ما نُقيت مما شابها في الغرب من إطلاق للحريات دون ضوابط شرعية ومجتمعية، أو دعوات للإباحية والفجور، باتت تحقيقًا لمبادئ الشريعة كما رسمها الإسلام. ولا ينبغي تحميل الأفكار وزر ما فعل بها الناس، ولا تحميل النظرية وزر التطبيق الخاطئ لها، مثلما لا ينبغي تحميل الأديان السماوية وزر الممارسات الشائنة أحيانًا لمعتنقيها، وإلا انطبق ذلك علينا أيضًا؛ فإذا نظر أهل الغرب إلى بلاد المسلمين ورأوا ما فيها من فساد وتخلف وجهل وتكبيل للحريات ووأد لحقوق المرأة ...، قالوا هذا هو الإسلام، فازدادوا منه نفورًا وله انتقادًا.

وقد يغالي البعض في تفسير الآيات القرآنية، كقوله تعالى: «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فأولئك هُمُ الْكَافِرُون» (المائدة: ٤٤)، وقوله: «أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ» (المائدة: ٥٠)، فيفتي متسرعًا بتكفير المجتمعات والدول التي لا تحكم نصًا بما أنزل الله. ويكمن خطأ التسرع هنا في مسألتين؛ الأولى هي انتفاء الدقة في تحري معنى «الحكم» لغة واصطلاحًا، فالحكم لغة هو العلم والفقه والقضاء بالعدل، وهو في المنطق إدراك الماهية مع الحكم عليها بالنفي أو الإثبات، أي إثبات أمر لأمر بالفعل، أو نفيه عنه بالفعل، وهو إدراك الذهن للعلاقة القائمة بين موضوع ومحمول على سبيل النفي أو الإثبات. أما الحكم اصطلاحًا في أصول الفقه فهو خطاب الشارع للمكلفين على سبيل الاقتضاء (أي افعل أو لا تفعل، ومنه الواجب والمندوب والحرام والمكروه)، أو على سبيل التخيير (أي المباح)، أو على سبيل الوضع (ما كان سببًا في شيء او مانعًا له او شرطًا فيه كأحكام العقوبات). وعلى هذا النحو يصبح الحكم مسألة قضايا، لا تخص السياسة فقط، لكنها تشمل جميع الأفعال والأقوال.

يقول «ابن تيمية»: «وكل من حكم بين اثنين؛ فهو قاض؛ سواء كان صاحب حرب، أو متولي ديوان، أو منتصبًا للاحتساب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ حتى الذي يحكم بين الصبيان في الخطوط، فإن الصحابة كانوا يعدونه من الحكام ...» (مجموع الفتاوى:١٨/١٧٠). أما خطأ التسرع الثاني فيكمن في التعميم؛ فالقول بتكفير كلّ من حكم بغير ما أنزل الله؛ يلزم منه تكفير عموم الأُمّة، ومن ثم يلزم المعتزلة أن يصرحوا بكفر كل عاص، وظالم، وفاسق؛ لأن كل عامل بالمعصية هو بمثابة من لم يحكم بما أنزل الله. لكن الكفر له شروطه وأحكامه، ولذا يقول «ابن عباس» (رضي الله عنهما) في تفسير قوله تعالى: «وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» ... هو كفر دون كفر، أي ليس بالكفر الذي تذهبون إليه؛ ذلك أن من تحمله شهوته وهواه على الحكم في قضية ما بغير ما أنزل اللَّه، مع اعتقاده أن حكم اللَّه ورسوله هو الحق، واعترافه على نفسه بالخطأ ومجانبة الهدى، لم يخرجه كفره عن الملّة.

الحكم إذن مداره العدل، وهذا الأخير هو الهدف الأسمى للشريعة. يقول ابن قيم الجوزية في كتابه «*الطرق الحكمية في السياسة الشرعية*»: «السياسة الشرعية مدارها العدل، ولو لم ينص عليه وحي، ذلك أن الله أرسل رسله، وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به السماوات والأرض، فإذا ما ظهرت أمارات الحق، وأسفر وجهه بأي طريق كان، فثَمّ شرع الله ودينه».

كان الشاب ينظر إلى محدقًا، تتجلى في عينية علامات الرفض تارة، وعلامات الرضا والقبول تارة أخرى. وما أن أنهيت كلامي حتى قال: لعلي لا أفقه بعضًا مما ذكرت ... سأراجع شيخي وأعود إليك. حينئذ أدركت مدى ما للشيخ من تأثير في تشكيل وعي الشاب وغيره ممن يعيشون في جلبابه، فيرددون كلماته عن فهم أو عن غير فهم ... قلت له: إذن أوصيك بشيء، إذا ذهبت إلى شيخك وجلست في معيته، لا تخلع عقلك مثلما تخلع حذاءك ... حاوره وناقشه، فكل إنسان يؤخذ منه ويُرد إلا

المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه ... ولئن لم تفعل، فلربما استعدت حذاءك، لكنك أبدًا لن تستعيد عقلك!

(٤٧) أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟!

- ١٦ سبتمبر ٢٠١٣

«وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون» [البقرة: ٣٠].

لم يكن ذكر القرآن لتساؤل الملائكة عن خلق الإنسان من قبيل مجرد السرد القصصي أو الإخبار التاريخي، إنما يحمل دلالة مهمة وأساسية بشأن مستقبل الإنسان في هذه الأرض. إن تساؤل الملائكة هو استغراب من كفاءة مخلوق مستعد لأن يعتدي على نظام الطبيعة والقيم ثم يصلح لأن يكون خليفة في الأرض، وهذا يعني أن أهم عناصر فشل الإنسان في خلافة الأرض وتحمل الأمانة هو الفساد وسفك الدماء. هذا ما تؤكده إحصاءات حجم ما ينفقه الإنسان في عالمنا المعاصر على التسلح والحروب لمواجهة أخيه الإنسان، في مقابل ما ينفقه من أجل إعمار الأرض والقضاء على الفقر والجهل والمرض والعيش في سلام! «إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا» (الأحزاب: ٧٢).

قد تصيبك الدهشة حين تعلم أن كلاً منّا يدفع سنويًا ٤,٥ دولارًا للتنمية والسلام و٢٥٥ دولارًا للتسلّح! فوفقًا للكتاب السنوي لمعهد ستوكهولم الدولي لأبحاث السلام، فإن حجم الإنفاق العسكري في العالم قد بلغ العام ٢٠٠٩ حوالي ١,٥٣١ تريليون دولار (أي ألف وخمسمائة وواحد وثلاثين مليار دولار، حسب قيمة الدولار العام ٢٠٠٨)، وهذا يشكّل زيادة ٦٪ عن معدل الإنفاق للعام ٢٠٠٨، وزيادة حوالي

٤٩٪ عن العام ٢٠٠٠. وفي العام ٢٠١٢ بلغ حجم الإنفاق العسكري العالمي حوالي ١,٧٣٥ تريليون دولار.

من جهة أخرى، لم تزل الولايات المتحدة هي أكبر منفق عسكري في العالم، حيث أنفقت ٦٨٢ مليار دولار، على الرغم من التراجع الذي سجلته العام ٢٠١١ والذي بلغت نسبته ٦٪، ويعود هذا في الأساس إلى بداية الانسحاب من أفغانستان والعراق. وعلى الرغم من تراجع حصة الولايات المتحدة من نسبة الإنفاق العسكري العالمي إلي أقل من ٤٠٪، وذلك للمرة الأولي منذ سنة ١٩٩١، إلا أن إنفاقها كان أعلي من إجمالي إنفاق الدول العشر التالية لها مجتمعة، وفقا للمعهد. واحتلت الصين المركز الثاني بإنفاق يقدر بنحو ١٦٦ مليار دولار، بزيادة نسبتها ٨٪ على ٢٠١١، وجاءت روسيا في المركز الثالث بإجمالي إنفاق ٩٠,٧ مليار دولار وذلك بزيادة ١٦٪ على العام ٢٠١١. وتأتي كل من بريطانيا واليابان وفرنسا والمملكة العربية السعودية والهند وألمانيا وإيطاليا في قائمة المراكز العشرة الأولي في الإنفاق العسكري.

أما عن الدول العربية، فرغم حجم التخلف الذي تكابده، فقد بلغ حجم الانفاق العسكري والأمني فيها أكثر من ٣٠٠ مليار دولار خلال عامي ٢٠١١ و٢٠١٢، مما يعني أن الدول العربية حافظت على مركزها كأكبر مجموعة في العالم من حيث الإنفاق العسكري مقارنة مع ناتجها الاجمالي المحلي والحجم الكلي لإنفاقها.

وجاء في التقديرات التي اوردها صندوق النقد العربي والمؤسسة العربية للاستثمار أن الإنفاق الدفاعي العربي شكَّل أكثر من ٧٪ من الناتج المحلي الإجمالي في معظم الدول العربية خلال السنوات العشر الماضية وهي من أعلى النسب في العالم. وحسب المصادر فان دول مجلس التعاون الخليجي التي تسيطر على نحو ٤٠٪ من إجمالي احتياطيات النفط العالمية برزت كأكبر مجموعة في الدول العربية من حيث حجم الإنفاق العسكري والأمني، إذ شكَّلت أكثر من ثلثي هذ الإنفاق، وخصوصًا المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة. وقدرت المصادر إجمالي الإنفاق

الدفاعي في دول المجلس بنحو ٤٦٠ مليار دولار خلال الفترة بين ٢٠٠٢ و٢٠١٠ وأكثر من ٢٠٠ مليار دولار خلال عامي ٢٠١١ و٢٠١٢.

في ضوء هذه الأرقام المفزعة تستطيع أن تقرأ صورة المستقبل للجنس البشري عمومًا، وللعرب الأكثر تخلفًا بصفة خاصة!

(٤٨) إبداع في قتل الطفولة!

- **٤ أكتوبر ٢٠١٣**

هؤلاء النسوة اللاتي تكتظ بهن رياض الأطفال والمدارس الحكومية وإدارات المرور ونوافذ التعامل مع المواطنين ... إلخ، هم أحد الأسباب الرئيسة لتعاسة المصريين ومعاناتهم وتشويه معالم الأجيال التالية؛ فما أن يسوقك حظك العاثر للوقوف أمام إحداهن طلبًا لحاجة حتى تجد نفسك أمام وجهٍ مكفهرٍ يصب لعنته عليك قبل أن يتضح مطلبك، فإذا ما عُرف كان التفنن في تعذيبك أو قتلك ببطيء بإجراءات معقدة ما أنزل الله بها من سلطان!

وما أن يلتحق طفلك بإحدى دور رياض الأطفال أو المدارس الحكومية حتى يواجه كائنات في زي النساء يُبدعن في قتل طفولته وتشويه نبتة الإبداع فيه وترويع أحلامه وطموحاته!

أعلم أن التعميم ممتنع، وأعلم أيضًا أن هؤلاء النسوة يتعاملن مع حشد كبير من المواطنين ذوي الطباع المختلفة، أو مع حشد من الأطفال الذين قد تصعب السيطرة عليهم، وأنهن يذهبن إلى أعمالهن محملات بهموم أولادهن، فضلاً عن مطالب الزوج والبيت ومعاناة الحياة اليومية وضعف المقابل المادي، لكن الناتج في المقابل فادح ... إنه المسخ المتعمد للبعد الحضاري ومستقبل مصر!

فلم لا يتم تأهيل هؤلاء نفسيًا وذهنيًا، أو اختيارهن بعناية مثلما يحدث مثلاً في القطاع الخاص؟ وأين يذهب خريجو كليات رياض الأطفال والتعليم الأساسي؟ وهل تؤهلهم دراستهم حقًا للتعامل مع من سيحملون الراية مستقبلاً؟

(٤٩) ويلٌ للعرب من شرٍ قد اقترب!

- **<u>١٧ أكتوبر ٢٠١٣</u>**

لعل أصعب ما يمكن أن تفعله هذه الأيام هو أن تناقش شخصًا ما في قضية تختلفان بصددها، لاسيما إن كانت هذه القضية تتعلق بالشأن السياسي، أو بما هو خاضع للاجتهاد العقلي من أمور الدين. والأكثر صعوبة أن تكون قضية دينية ذات بعد سياسي، أو قضية سياسية تم تسويقها في إطار ديني، ناهيك عن القضايا الخلافية التي تتعلق بالحقوق والمصالح العامة أو الشخصية في زمن يتم فيه إزهاق الحق علنًا ودون حياء.

يتسم النقاش في البداية بالهدوء عادةً، لكن ما أن يطرح كلٌ منكما وجهة نظره، ويصطدم الرأيان المتعارضان، حتى يتبدد الهدوء تمامًا، لتعلو الأصوات التي تتخللها غالبًا الشتائم والاتهامات المتبادلة بين الطرفين، وقد يتطور الأمر إلى اشتباك بالأيدي، قبل أن ينتهي إلى عداء وقطيعة ما أنزل الله بهما من سلطان!

هذا النموذج الصارخ للنقاش قد لا تجد له مثيلاً لدى الشعوب التي احتلت مكانها المميز في مسيرة الارتقاء الحضاري، لكنه لدينا النموذج الأكثر شيوعًا في كافة المواقف والمناسبات: بين أفراد الأسرة الواحدة؛ في المقاهي والطرقات ووسائل المواصلات؛ في الشركات والجامعات والمجالس النوعية، وحتى بين المصلين في دور العبادة! ولا مجال هنا لاستدعاء الماضي بما يحمله من إرث حضاري ضخم ومتنوع تجميلاً لواقعنا البائس؛ إذ لم يحُل هذا الإرث دون أن نتجرع مرارة النكسات العقلية والأخلاقية التي تغشى حياتنا المعاصرة، مثلما لم يحُل دون أن نقبع صامتين في مؤخرة الركب الحضاري نستجدي من الأمم فتات موائدها، ونلتمس السلوى والعزاء في ميراث الأجداد. بعبارة أخرى، لن يجدي نفعًا أن نتغنى بعبقرية الأجداد في الوقت الذي يكابد فيه العقل الجمعي مرضًا عضالاً يوشك أن يفتك به، ولن يجدي نفعًا أيضًا أن نعيث فرحين في غيابات الاستهلاك المحموم لمخرجات العقل الغربي من أفكار

ومنتجات مادية، وبين ظهرانينا حاضر يأن من وطأة الجهل والفقر والمرض والتخلف. على العكس، نحن في حاجة إلى وقفة جادة مع النفس، نعترف فيها بفشلنا، وعجزنا، وتفاهتنا، وكذب انتمائنا المعرفي لأسلاف نتاجر بما خلفوه لنا ونحيا عليه، وكذب انتمائنا إلى عالم معاصر تدهسنا فيه الأمم بعلومها وفلسفاتها وفنونها. نحن في حاجة إلى من يوقظنا من سُباتنا الحضاري القاتل، ويقتطع بمشرطه الحاد ما ضمُر من عقولنا ... نحن في حاجة لا إلى من يخدرنا بشعارات تزيد من نكساتنا، أو إلى من يعالجنا بمسكنات التفاؤل الكاذب والتشكل الكاذب والتحضر الكاذب، بل إلى من يجري للجسد العليل جراحات عاجلة ... من يردد على مسامعنا دومًا: ويلٌ للعرب من شر قد اقترب!

(٥٠) نصف قرن!

- **٢٠ أكتوبر ٢٠١٣**

اكتشفت فجأة أن قطار العمر قد سار بي نصف قرن من الزمان، وأن ما تبقى من رحلته أقل كثيرًا مما قطعه!

تراءت أمامي أماكن ولحظات، مشاهد ومواقف، عبرات وضحكات، إخفاقات وطموحات، عثرات وانطلاقات ...، بعضها ضبابي عابر، وبعضها الآخر راسخ في ذاكرتي لا تمحوه ماسحات الذكرى من أمطار الحياة ... بعضها يتساقط في مخيلتي كدمعات عازفات على أوتار ألمي، وبعضها يتجلى كفراشات محلقات في سماء الحب، راويات لمنابع ابتسامتي وأملي، وفي عالم الفيس بوك، ذلك العالم المتسع بأرضه وسمائه، بحاره وأنهاره، حدائقه وصحاريه، جده وعبثيته، أدركت أن ثمة آخرين في العالم تتقلص بمشاعرهم الدافئة مسافات الأماكن، وتنمو بكلماتهم ومشاركاتهم وابتساماتهم وانتقاداتهم، ثمار الإنسانية المفتقدة (فكرًا وإحساسًا) في دوامة الواقع وصخب الحياة اليومية. هُم نجومٌ في سمائي تنجلي الظلماء بضيائها، وزهور في حديقة فكري يفوح شذاها بين جوانحي.

(٥١) حين ترقص الفلسفة على واحدة ونص!

- **٢٣ أكتوبر ٢٠١٣**

أحد مدرسي الفلسفة يقوم بتدريسها مستعينًا بالرقص والأغاني على طريقة (واحدة ونص)! مؤكدًا أنها الطريقة المُثلى لتلقين الطلاب دروس الفلسفة وحفظها عن ظهر قلب! تسترجع ذاكرتي كلمات الفيلسوف الفرنسي «موريس ميرلوبونتي» Maurice Merleauponty (١٩٠٨ – ١٩٦١) في إحدى تخوفاته من تقلص مكانة الفلسفة وغموض مصيرها، حين كتب يقول: «ثمة ما يدعو إلى التخوف من أن ينكر زماننا أيضًا الفيلسوف، وأن لا تكون الفلسفة مرة أخرى سوى دخانًا في هذا الزمان ...»، وأقول له: لم تعد الفلسفة لدينا أيها الفيلسوف المتخوف مجرد دخان في الهواء، بل لقد باتت في مجتمعنا خصرًا يتراقص على دقات الطبول داخل قاعات الدرس، وبدلاً من أن تكون فكرًا متعاليًا ينبع من جوف الواقع ويرتد إليه، تبدو ها هنا يائسة من نفسها فوق مسطح بائس في زمن رديء مع أناس غير مكترثين، لتكابد أزمة جديدة تُضاف إلى أزماتها إزاء المطلق المحنط واللامعقول المتحجر!

إن اللوم لا يقع على الفلسفة، ولا على من تربوا على التلقين وتحصيل الدرجات، وإنما على ثقافة هذا المجتمع المشوه، وعلى منظومة التعليم المترهلة، بتأثير قوي من واقع غث أصابته الشيخوخة الحضارية فاستسلم للهاوية!

(٥٢) التحرش ... ثقافة أمة!

- **٩ نوفمبر ٢٠١٣**

لم يعد التحرش مجرد ظاهرة لا أخلاقية قوامها مجموعات من الشباب والأطفال الذين خرجوا من قاع المجتمع ومستنقعاته وعشوائياته، لاسيما بعد أحداث ما يُسمى الربيع العربي، وما صاحبها من تدهور لقيم التعايش في العالم العربي، كما لم يعد مجرد أفعال وأقوال بذيئة موجهة ضد المرأة أيًا كان ملبسها، وأيًا كانت ثقافتها ومكانتها الاجتماعية، بل لقد أصبح ثقافة عامة يتبناها العرب ويسلكون وفقًا لها على اختلاف شرائحهم، سواء على المستوى الفردي أو المستوى الجماعي التنظيمي:

الحكومات تتحرش بالشعوب حياتيًا وسياسيًا وتعليميًا وفكريًا وثقافيًا، بداية من أزمات الحياة اليومية المتمثلة في نقص أو غلاء السلع الأساسية، وتردي الخدمات الأمنية والعلاجية والمرورية، ومرورًا بالفساد السياسي والغباء الإداري والعبث التعليمي، ووصولاً إلى التشويه الفكري والتزييف الثقافي! **الشعوب** بدورها تتحرش بالحكومات؛ بالتظاهرات والاعتصامات وتصيد الزلات والعبث بالمنشآت! **الشرطة** تتحرش بالمواطنين؛ بإهدار الكرامة وتلفيق التهم ودعم البلطجة! **المواطنون** يتحرشون برجال الشرطة؛ بمقاومتهم ومنعهم من أداء مهامهم وبث الكراهية في نفوس الناس تجاههم! **الأساتذة** يتحرشون بطلابهم؛ برداءة ما يقدمونه لهم في قاعات الدرس ودفعهم إلى التماس الفهم أو التلقين في دروس خاصة، **الطلاب** يتحرشون بأساتذتهم؛ بمساومتهم والسخرية منهم! **الموظفون** يتحرشون بأصحاب المصالح، فيبادلونهم تحرشًا بتحرش! رجال الأعمال، الباعة، السائقون، الحرفيون، الأقارب، الناس في الشوارع، ... إلخ، الجميع يتحرشون ببعضهم البعض! نحن لسنا في حاجة إذن إلى مقاومة التحرش الجنسي فقط، بل في حاجة إلى مراجعة ثقافة أمة بأكملها، أمة ترددت أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والسياسية والدينية والخلقية، فاتخذت من التحرش بمعناه العام أسلوبًا حياتيًا عامًا لها ... أمة متحرشة!

(٥٣) في ذكري عميد الأدب العربي طه حسين [١٥ نوفمبر ١٨٨٩ –٢٨ أكتوبر ١٩٧٣]

- <u>١٤ نوفمبر ٢٠١٣</u>

ذات مرة كتب طه حسين إلى زوجته سوزان يقول: «بدونك أشعر أنى أعمى حقًا. أما وأنا معك، فإني أتوصل إلى الشعور بكل شيء، وإني أمتزج بكل الاشياء التي تحيط بي»! وعندما رحل هو عن العالم، كتبت هي تقول: «ذراعي لن تمسك بذراعك ابدًا، ويداي تبدوان لي بلا فائدة بشكل محزن، فأغرق في اليأس، أريد

عبر عيني المخضبتين بالدموع، حيث يُقاس مدى الحب، وأمام الهاوية المظلمة، حيث يتأرجح كل شيء، أريد أن أرى تحت جفنيك اللذين بقيا محلقين، ابتسامتك المتحفظة، ابتسامتك المبهمة، الباسلة، أريد أن أرى من جديد ابتسامتك الرائعة».

من أقوال عميد الأدب العربي:

- فلنبتهل إلى الله في أن يبرئنا من علة كثرة الكلام، فلعلنا إن برئنا من هذه العلة أن نجد العزاء عن آلامنا وكوارثنا، في العمل الذي يزيل الآلام، ويمحو الكوارث، ويجلي الغمرات ... (*بين بين*).
- مصر خليقة أن يُحسب لها حساب حين ترضى، وأن يُحسب لها حساب حين تغضب، وأن يُحسب لها حساب حين تريد ... (*أحاديث جدتي*).
- الشاعر والفيلسوف وصاحب الفن طفل مهما يكبر!
- أليس من العجب أن يكون هذا الضوء الذي أخذ يغمرنا شرًا من الظلمة التي خرجنا منها؟ إن أحدنا لن يستطيع أن يهتدي في هذا الضوء إلا إذا قاده صاحبه. إن العبء لأثقل من أن تحمليه وحدك، وإن العبء لأثقل من أن أحمله وحدي ... فلنتحمل شقاءنا معًا حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً (*دعاء الكروان*).
- إنني لأخشى إن انجابت عنا هذه الظلمة وغمرنا الضوء أن يكره كل واحد منا النظر في وجه صاحبه ... (*دعاء الكروان*).
- سل السياسة عن هذا، فهي التي تحسن التفريق بين الأصدقاء، والتقريب بين الأعداء، وهي التي تحسن أن تُنسي الناس أنهم كانوا رفاقًا في الصبا وزملاء في الشباب وأخلاء في الكهولة، وسل السياسة فهي التي تحسن أن تقيم المنافع العاجلة مقام المودة الباقية ... (*جنة الحيوان*).
- إن المصريين بين اثنين لا ثالثة لهما: فإما أن يمضوا في حياتهم كما ألفوها، لا يحفلون إلا بأنفسهم ولذاتهم ومنافعهم، وإذن فليثقوا بأنها الكارثة الساحقة الماحقة التي لا تبقي ولا تذر؛ وإما أن يستأنفوا حياة جديدة كتلك التي عرفوها

في أعقاب الحرب العالمية الأولى، قوامها التضامن والتعاون وإلغاء المسافات والآماد بين الأقوياء والضعفاء، وبين الأغنياء والفقراء، وبين الأصحاء والمرضى؛ وإذن فهو التآزر على الخطب حتى يزول، وعلى الكارثة حتى تتمحي، وعلى الغمرات حتى ينجلين ... إلى أي الطريقين يريد المترفون من المصريين أن يذهبوا: إلى طريق الموت أم إلى طريق الحياة؟ ... (*المُعذبون في الأرض*).

- مهما يبلغ الفقر بالناس، ومهما يثقل عليهم البؤس، ومهما يسيء إليهم الضيق، فإن في فطرتهم شيئًا من كرامة تحملهم على أن يجدوا حين يأكلون مما كسبت أيديهم لذة لا يجدونها حين يأكلون مما يساق إليهم دون أن يكسبوه أو يحتالوا فيه ... (*المُعذبون في الأرض*).
- أعجب لدولة يخدمها موظفون تحيا أجسادهم، وتموت نفوسهم (*المُعذبون في الأرض*).
- ما أرى ذاكرة الشعوب إلا كهذه اللوحات السود التي توضع للطلاب والتلاميذ في غُرفات الدرس وحجراته يثبت عليها هذا الأستاذ ما يمحوه ذاك، وهي قابلة للمحو والإثبات، لا نستبقي شيئًا ولا تمتنع على شيء ... (*جنة الشوك*).
- ما دام في الأرض سادة يملكون مئات الألوف، وخدم لا يملكون شيئاً وفرص للهو ينفق فيها المال، فكل العصور واحدة وإن طال الزمن (*جنة الشوك*).

رحم الله طه حسين.

(٥٤) الإسلام هو الحل = العلم هو الحل!

- **<u>٢١ نوفمبر ٢٠١٣</u>**

بعد قرون مظلمة كابدوا مرارتها، أبدع الغربيون والروس واليابانيون واليهود في كثير من مناحي الحياة؛ علمًا وفنًا وأدبًا واحترامًا لحقوق الإنسان، وبناءً لحضارة نلهث خلف غبارها ونعيش على فتاتها. ورغم تعرضهم لكثير من كوارث الطبيعة

والحروب والأوبئة على مدار سنوات طويلة، لم يقل أحدهم أن ديانته هي الحل؛ لم يقل الغربيون أن المسيحية الكاثوليكية هي الحل، ولم يقل الروس أن المسيحية البروتستانتية هي الحل، ولم يقل اليابانيون أن الشنتوية أو البوذية هي الحل، ولم يقل اليهود أن اليهودية هي الحل! لقد أدركوا وطبقوا (رغم كونهم غير مسلمين) دعوة الإسلام الأولى: اقرأ؛ فالعلم هو الحل، به وفي معيته تتجاوز الأمم محنها وترتقي وتسود العالم ... ومن قبلهم أدرك المسلمون الأوائل عن حقٍ أن الله لا يُعبد بالجهل، وأن العلم هو بوابة الدنيا إلى الآخرة، فأبدعوا وتفوقوا وسادوا!

ما بالنا إذن نتجرع اليوم مرارة التخلف، ونحتسي جرعات الفساد حتى الثمالة، ولا نفتأ نملأ الدنيا صراخًا بأن (الإسلام هو الحل) دون تطبيق فعلي لمغزى المقولة؟ ما بالنا نشوه عن عمد ديننا الحنيف، حتى إذا ما نظر إلينا الآخرون ورأونا على هذه الحالة الحضارية المزرية، قالوا هذا هو الإسلام؟

ما بالنا نختصر الإسلام في لحية وجلبابٍ، أو مسبحة ودرويشٍ، أو طقوس مظهرية نظن أنها تقربنا إلى الله زلفى؟

ما بالنا نقصر العلم على من حفظ تفاسير الأولين وألقى بعقله في مقابرهم معلنًا أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان؟ ما بالنا نزيف ديننا ثم نبكي ونتباكى ونصرخ: وا إسلاماه؟!

لو فهمنا حقيقة الإسلام وجوهره، لو لم يكن الإسلام لدينا مجرد شعار نتاجر به سياسيًا ومجتمعيًا لاستقطاب العامة والبسطاء، لقلنا إن العلم هو الحل؛ به نحقق الإسلام ونرتقي فوق الأمم، به نحقق قول الله عز وجل: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} (آل عمران: ١١٠)، وقوله عز وجل {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} (المجادلة: ١١).

نصارع من أجل البقاء ... ألم يأن لنا أن نحب ونتآلف من أجل البقاء؟ نموت من أجل الوطن ... ألم يأن لنا أن نحيا من أجل الوطن؟

(٥٥) اليوم العالمي للفلسفة

- ٢١ نوفمبر ٢٠١٣

«إن هذا اليوم العالمي هو دعوة إلى إعادة التفكير في ظروف الاندماج والاستدامة في مجتمعات ما برحت تتنوع وتترابط فيما بينها ومع بيئاتها»

[رسالة السيدة «إيرينا بوكوفا»، المديرة العامة لليونسكو بمناسبة اليوم العالمي للفلسفة]

تحتفل اليونسكو باليوم العالمي الفلسفة في كل عام، ابتداءً من سنة ٢٠٠٢، في ثالث يوم خميس من شهر نوفمبر/ تشرين الثاني. وقد اقرت اليونسكو اليوم العالمي للفلسفة لتكريم الفكر الفلسفي في أنحاء العالم عن طريق فتح مساحات فكرية حرة، والهدف من هذا هو تشجيع الناس في جميع أنحاء العالم على تبادل التراث الفلسفي مع بعضهم البعض وإنارة عقولهم لأفكار جديدة وتشجيع التحليلات والبحوث والدراسات الفلسفية للقضايا المعاصرة المهمة من أجل الاستجابة على خير وجه للتحديات المطروحة أمام البشرية.

يعد احتفال سنة ٢٠١٣ (في ٢١ نوفمبر/ تشرين الثاني) باليوم العالمي للفلسفة هو الاحتفال الحادي عشر بهذه المناسبة، ويأتي متزامنا مع فعاليات يجري تنظيمها على الأصعدة الدولية والوطنية والمحلية، مما يتيح للمشاركين تبادل العديد من الآراء والخبرات، في جو من الاحترام الكامل للتنوع الثقافي. ويُحتفل هذا العام باليوم العالمي للفلسفة بشكل عام. حيث يمنحنا فرصًا للتأمل في بعض تحديات العصر الكبرى، والتي ترتبط بشكل أو بآخر بموضوع العام لسنة ٢٠١٣ في اليوم العالمي للفلسفة وهو: مجتمعات شاملة وتنمية مستدامة لكوكبنا.

لماذا يوم الفلسفة؟

كثير من المفكرين يعتقدون أن الدهشة تشكل أصل الفلسفة، والواقع أن الفلسفة تنبع من الميل البشري الطبيعي إلى أن يكون البشر مندهشين بأنفسهم والعالم من حولهم. إن هذا المجال، الذي يعد نفسه نوعًا من الحكمة، يعلمنا

التفكير في عملية التفكير ذاتها، عبر الاستمرار بالتساؤل عما يعتقد أنه حقائق راسخة، للتحقق من الفرضيات والتوصل إلى استنتاجات. وعبر قرون، وضعت الفلسفة – في كل الثقافات – تصورات وأفكار وتحليلات، ومن خلالها، وضعت أساساً للفكر النقدي المستقل والخلاق. أكثر من سبعين بلدًا، منها خمسة وعشرين في أفريقيا، احتفلت بأول مناسبتين لأيام الفلسفة، والتي منحت كل فرد، بغض النظر عن ثقافته، فرصة للتفكير في مسائل مختلفة مثل: من نحن كأفراد وكمجتمع عالمي؟ إن الأمر متروك لنا للتفكير في حالة العالم، وتحديد ما إذا كانت تتطابق مع مصالحنا في العدالة والمساواة، والأمر متروك لنا أيضًا لأن نسأل أنفسنا ما إذا كان مجتمعنا يعيش وفقا للمعايير الأخلاقية والأدبية كما وردت في المواثيق الكبرى. لقد أتاح يوم الفلسفة لنا الفرصة لنطرح على أنفسنا الأسئلة التي غالبا ما تكون منسية: ما هو الشيء الذي أهملنا التفكير به؟ وما هي الحقائق المشينة التي اعتدنا عليها؟ ماذا عنا إذن في اليوم العالمي للفلسفة؟ إن المتتبع لما يسميه العرب جزافًا (تاريخ الفلسفة العربية) يدرك أننا كنا وما زلنا إما شراحًا أو مترجمين لا أكثر! عجبًا، ألم يقل «هيجل»: كلما تصدعت البنى وجدت الفلسفة بيئتها المناسبة للنمو، وان بومة مينرفا لا تحلق إلا عند الغسق؟ أليست التربة المناسبة للفلسفة إذن هي التربة المتخلفة؟ حسنًا، ما أكثر الأمم تصدعًا وتخلفاً الآن؟ نحن بكل تأكيد ... ألسنا إذن أكثر الأمم حاجة إلى الفلسفة؟ ألسنا أكثر الأمم حاجة إلى تصحيح المفاهيم وإعادة ترميم العقل الذي أصابه التصدع وأوشك على السقوط؟

(٥٦) أمة تعشق النص!

- **١٥ يناير ٢٠١٤**

نحن أمة تعشق النص، تتغنى به، تبدع في زخرفته وتنميقه، تقدسه تقديسًا يؤدي إلى تحجميه وتجميده وعزله عن أبعاده ومراميه، تحيا به وعليه زيفًا دون التفات إلى مضمونه وتفاصيله الدقيقة التي من شأنها أن تسوس الواقع، ودون اعتبار لكونه

مشـــــروعًا للحياة، يأبى الانغلاق على حروفه وكلماته. لا أعني بذلك النص الإلهي المستحق للتقديس كونه نصـًا ربانيًا فوقيًا، وإن كان هذا النص أيضـًا يتوهج بين أيدينا دون أن نتوهج نحن بمعانيه وأحكامه، إنما أعني النص البشـري الوضـعي، قانونًا جزئيًا كان أو دستورًا نرتضيه. ولو أردنا الدقة لقلنا إنه لا أفضلية لنص على آخر إلا إذا استوفى ثلاثة شـروط: الأول هو إشـباعه للحاجة التي وُضـع من أجلها؛ والثاني هو توافر الإمكانات المادية اللازمة لتطبيقه، والثالث هو إرادة تطبيقه!

(٥٧) من وحي التصويت على الدستور

- **١٨ يناير ٢٠١٤**

بغض النظر عن المظاهر الاحتفالية التي صاحبت فعاليات التصويت على الدستور (١٤ – ١٥ يناير ٢٠١٤)، فإننا نخدع أنفسـنا بلا شـك إن ظننا أن معظم من خرجوا فرحين (محتفلين) للإدلاء بأصواتهم، أو من صرخوا معترضـين، قد قرأوا الدستور أو حتى لديهم القدرة على استيعاب مغزاه وتفاصيله ومردوداته، لاسيما البسـطاء منهم، وهو ما عبرت عنه إحدى المُسـنات حين قالت لأحد مشـرفي اللجان: «قل لي يا بني: كيف أقول نعم للرئيس»! هذا المشـهد لا يقل دلالة عن أولئك اللواتي رقصـن علنًا بعد الإدلاء بأصواتهن، أو أولئك الذين حرصـوا على التقاط الصـور التذكارية في لجان التصويت، رفضًا لواقع مبهم أرادوا طيه، واستلهامًا لواقع بديل مأمول.

أما الملاحظة الثانية فلازمة عن الأولى، وهي أننا شـعب عاطفي بامتياز، نبالغ في ردود أفعالنا سواء في تأييدنا أو رفضنا، ننقاد بسهولة لمن يعزف على أوتار مشاعرنا إلى درجة التحول من النقيض إلى النقيض بين عشـية وضـحاها، نرفع من نحب إلى مصاف الملائكة، ونهوي بمن نكره إلى مدارك الشياطين!

بعبارة أخرى، لقد أفضـــــت بنا عقود عجاف إلى التفكير دومًا في المظهر لا في الجوهر، في الشـــــكل لا في المضـــــمون، في المتدين لا في الدين، في البطل لا في البطولة، وفي الرئيس لا في الرئاسة ... ربما كان ذلك التماسًا لحُلم هارب كلما لاح

في الأفق غشيته غمامة سوداء، لكننا ننسى دائمًا أن الحلم فعلٌ من أفعال الوعي، وتحقيقه وعيٌ يتعافى قسرًا من ضمور الكلمة وهزائم انكسار العاطفة ... وعيٌ لا يجنح لتجميل الواقع أو تأثيث الخواء بشقشقة لسانية!

الملاحظة الثالثة تتمثل في عودة بعض الوجوه القديمة لتندس بملامحها القبيحة داخل المشهد الاحتفالي بالدستور؛ تجلى ذلك في كثرة من إعلانات التأييد التي ازدانت بها الشوارع لمن اقتاتوا يومًا بدماء هذا الشعب واستثمروا ترهل وعيه فعاثوا في الأرض فسادًا وجهلاً ورياءً ... هم الآن كالغبار المتسلل عبر شقوق النوافذ، يزايدون على أوجاع الوطن ويتاجرون بآلامه، وتلك حماقة تنذر إن استفحلت بهيمنة الهذيان الحضاري وتقويض خارطة الطريق الحذرة! كل ذلك يُفضي في النهاية إلى نتيجة واحدة مؤداها أن رصيد الديموقراطية الحقيقي ليس في صناديق الاقتراع، بل في وعي الناس (على حد تعبير جان جاك روسو)، ولئن قُدر لهذا الدستور الوليد أن يحكم، وأن يتجاوز مرحلة النص إلى مرحلة الممارسة، فعلى الجميع إدراك حقيقة أن المعركة لم تبدأ بعد، وأنها قد تكون أشد عنفًا وأطول مدىً، لأنها في حقيقتها معركة ضد الجهل، ومن أجل الوعي!

(٥٨) حالة الاتحاد!

- **٣٠ يناير ٢٠١٤**

لم يهتم كثيرٌ من المحللين لخطاب أوباما السنوي عن حالة الاتحاد (٢٨ يناير ٢٠١٤) إلا بتوجهات الولايات المتحدة إزاء القضايا الخارجية، وبصفة خاصة الشرق أوسطية التي نحن منغمسون فيها، لكنني استوقفتني الكلمات التي بدأ بها خطابه، تلك التي ركزت على دور المواطن الأمريكي في النهوض ببلده، بل وبدأت بالقضية التي أدركت الدول الكبرى مدى أهميتها في سباق الانطلاق الحضاري: قضية التعليم! قال أوباما: (اليوم في أمريكا، قضت إحدى المعلمات وقتًا إضافيًا مع تلميذها الذي كان في حاجة إليه، وشاركت في رفع معدل التخرج بالولايات

المتحدة إلى أعلى مستوياته عبر أكثر من ثلاثة عقود؛ وافتتحت إحدى سيدات الأعمال مشروعها التكنولوجي الجديد، لتؤدي دورها في خلق فرص العمل التي بلغت في مؤسساتنا ثمانية ملايين وظيفة على مدى السنوات الأربع الماضية. اليوم قام أحد العمال في مصانع السيارات بتطوير بعض أفضل السيارات وأكثرها كفاءة في استهلاك الوقود، وساهم بذلك في مساعدة أمريكا على الاستغناء عن النفط الأجنبي؛ واستعد أحد المزارعين لفصل الربيع بعد أقوى خمس سنوات تنامت خلالها الصادرات الزراعية في تاريخنا.

اليوم قدَّم أحد الأطباء الريفيين لطفل صغير وصفته الطبية الأولى لعلاج الربو بما يمكن للأم أن تتحمل تكاليفه؛ واستقل رجل حافلة الركاب عائدًا إلى بيته بعد وردية عمل ليلية، يكابد عناء الإرهاق، لكنه يحمل أحلامًا كبيرة لولده ... اليوم هذه القاعة تتحدث بصوت واحد إلى الشعب الذي نمثله؛ إنه أنت ... مواطنينا، الذين يشكلون حالة اتحادنا القوي). بهذه الكلمات لخص أوباما وعي الأمريكيين بقيمة الوطن، ووعي حكومتهم بجهودهم وحقوقهم ... تُرى، متى يمكن أن نستمع لمثل هذه الكلمات التي تحمل المعنى ولا تخاصم الواقع من زعيم عربي؟!

وبعد، يُروى أن فاطمة زوجة عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) قد دخلت عليه يومًا فوجدته باكيًا ... سألته عن سر بكائه، فقال: (تقلّدت أمر أمة محمد، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، والمظلوم المقهور، والغريب المأسور، والكبير، وذي العيال في أقطار الأرض، فعلمت أن ربي سيسألني عنهم، وأن خصمي دونهم محمد (صلوات ربي وسلامه عليه).

(٥٩) هبوب!

- **٤ فبراير ٢٠١٤**

يبدو أن الإعلام الأمريكي لم يجد أقوى من كلمة «هبوب» Haboob العربية لوصف العواصف الرملية التي تشهدها الصحاري، حيث أثارت الكلمة شهية

مقدمي نشرات الأرصاد الجوية للضحك، ربما لأنها قريبة من كلمة «بوب» Boob التي تعني «ثدي المرأة» أو «أحمق». لكني وجدت الكلمة بمعناها العربي في معظم المعاجم والقواميس الإنجليزية الحديثة، كما وجدتها في عناوين بعض المقالات ونشرات الأرصاد الجوية الصادرة في بداية السبعينات، وهو ما يعكس المرونة اللغوية التي تفرضها التأثيرات المتبادلة بين الحضارات وتؤكدها العولمة.

الأمر شبيه باستخدام كلمة «مكة» Mecca بمعنى «قبلة»، وتعميمها (كما في وصف معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا بأنه «قبلة التكنولوجيا» Technology Mecca، أو استخدام كلمة «جهاد» Jehad للتعبير عن الحرب الدينية. ورغم تراجع اللغة العربية علميًا نتيجة لتراجع الدور الحضاري للعرب، تظل هي اللغة الأكثر ثراءً، إذ تحوي وفقا للبعض أكثر من ١٢,٠٠٠,٠٠٠ كلمة، ويبلغ عدد جذورها ٩٢٧٣ جذرًا، وهو ما يفوق عدد الجذور الموجودة في مجموع اللغات الهندية والأوروبية التي لا تنطوي على أكثر من ٥٠٠ جذر فقط!

(٦٠) جمال حمدان

في الذكرى الصامتة إعلاميًا لميلاد جمال حمدان: فيلسوف الجغرافيا وبوصلة حب الوطن [٤ فبراير ١٩٢٨ – ١٧ أبريل ١٩٩٣]

- **٤ فبراير ٢٠١٤**

تعكس حياته واقعًا تبكيه الكلمات، وتحمل كتاباته من أسرار المكان رموزًا تبوح بكثرة من الدلالات ... تقفز روحه الثائرة من قلب الماضي فتمتزج بأوجاعنا رغم اتساع المسافات ... يعمق في نفسي الوجود، فألتقيه في درب التأمل حكيمًا، ينسج خيوط البحث بذات ما يؤرقني من أطروحات وتساؤلات ... وينفذ عقلي عبر صمت الواقع، فأرى فكره ينبض بالحياة في عالم كنت أظنه قد مات!

إنه «جمال حمدان»، فيلسوف المكان، المُبحر في أعماق المعاني بحثًا عن عبقرية الإنسان، الراسم لمآسينا الحائرة بريشة الفنان، المؤثر لعزلة تستلهم واقعنا وتتعالى

صرخاتها في جوف الزمان ... ما أروعك أيها العالم الفيلسوف الشاعر، وما أقبح من انتقدوا فيك الترفع والإيمان.

من أقواله:

- مصر في النهاية ليست شعبًا له حكومة بقدر ما هي حكومة لها شعب.
- شرط النجاح في مصر أن تكون اتباعيًا لا إبداعيًا.
- كانت مصر الطبيعية حديقة لا غابة، وكانت على العكس بشريًا: غابة لا حديقة، وإن كانت زراعيًا مزرعة لا مرعى، فقد كانت سياسيًا مرعى لا مزرعة.
- لقد تحرر الإنسان المصري أخيرًا، أو يوشك على التحرر من التخلف، ولكنه لم يتحرر قط أو بعد من الأسر، لقد ظفر بالتنمية نسبيًا لكنه لم يظفر بالحرية إطلاقًا، أصبح إنسانًا متقدمًا نوعًا، لكنه ليس إنسانًا حرًا حقًا.
- لئن كانت عبقرية موقع مصر، وتفرد موضعها أعظم نعمتين أنعمهما عليها المنعم – جل وعلا – فقد صنعتا معًا – خاصة عبقرية الموقع – كل أو جل تاريخ مصر القديم والوسيط والحديث، بل والمستقبل أيضًا، فإن قوة جاذبية الموقع وعظمة الموضع كانتا المغناطيس الجاذب للطامعين من كل صوب وحدب، فكانت مصر الدولة الأكثر احتلالاً والمستعمرة الأكثف استعمارًا على مر التاريخ.
- لقد خرج العرب من الصحراء ودخلوا التاريخ بفضل الإسلام، وما كان لهم هذا ولا ذاك بدون الإسلام. لم يكن الإسلام بالنسبة للعرب مجرد رسالة من السماء فقط، ولكن أيضا نجدة من السماء.
- كارثة فلسطين – إسرائيل هي ببساطة كالآتي: طلبت الصهيونية العالمية دولة لليهود في فلسطين فأسَّسها لهم العرب. المعني: قيام إسرائيل وضياع فلسطين هو

مســـــــؤولية العرب والعجز العربي والجبن والتفرق العربي، والذي حدَّد نتيجة الصراع العربي الإسرائيلي هو الصراع العربي – العربي .

- الفلسطينيون لم يبيعوا فلسطين لليهود ، ولكن العرب هم الذين باعوا فلسطين والفلسطينيين لإسرائيل.
- إذا كان اليهود يقولون: لا معني لإســـــرائيل بدون القدس، فنحن نقول لهم: لا معني للعرب بدون فلسطين.
- يقولون الإسلام وحضارة الغرب نقيضان لا يمكن أن يجتمعا ، ليكن، يبقي أن الاثنين قد جاء كل منهما ليبقى، ولابد من تعايشـــــهما إلى الأبد على الكرة الأرضـــــية. ولا يمكن نفي أحدهما من الكرة الأرضـــــية ، فالتعايش محتوم عليهما ، أما الصراع فعبث لأنه لن ينتهي ولن يُنهي وجود أي منهما .

قالوا عن جمال حمدان:

- عاش غريبًا ومات وحيدًا ، يرحمه الله، مات وحده، مات كما تموت الشـــهب محترقة في السماء؛ لا أحد رآه ولا أحد عرف كيف صرخ وكيف بكى، وإنما ســقط رمادًا أضـيف إلى تراب مصــر ... يا أرض مصــر قد مات فيلســوفك وشاعرك والشاهد على عبقريتك (أنيس منصور: الأهرام – ١٩٩٣/٤/١٩).
- جمال حمدان نموذج فريد من العطاء ... هذا الجهد المثابر العنيد الضـاري الذي اسـتطاع به جمال حمدان أن ينجز مثل هذا العمل الضـخم الذي يحتاج لعشـرات العقول وعشــرات الســنين، ولكن جمال حمدان اســتطاع أن يقوم به بمفرده متحديًا الواقع الكئيب الذي تصـــور الأقزام فيه أنهم يمكن أن يطاولوا قامة الرجل وشموخه. سـوف نذكر في هذا الرجل زهد النفس وترفع الموقف والصبر على البلاء ... وســـوف نذكر مع هذا كله عطاء عالم فذ كبير، وســـوف نسـكب دموعًا غزيرة على قبر جمال حمدان، ولكن دموع الدنيا لن تغفر أبدًا خطيئة اسمها الجحود (فاروق جويدة: الأهرام – ١٩٩٣/٤/٢٥).

- قصــة حياة جمال حمدان هي أزمة التفوق والنبوغ والعبقرية حين تصــطدم بما حولها من نكران وجحود، في مجتمع مثقل بمشــكلات التخلف والمنافســات والحزازات الصـغيرة. وعلى الرغم من عزوف جمال حمدان عن الشـهرة والذيوع ومقاومته لكل محاولة لإخراجه من عزلته، إلا أن كتاباته وكتبه في تحليل شخصية مصر جغرافيًا وسياسيًا وبشريًا وضعته – رغم كل شيء – على القمة مثالاً يُحتذي لأجيال الحاضــر والمســتقبل، ونموذجًا فريدًا لا يتكرر للذين يعملون في صمت وتبتل ... يموتون في عشق مصر دون مقابل، ودون انتظار حتى لكلمة ثناء أو شــكر ... رحمه الله (ســلامة أحمد ســلامة: الأهرام – ١٩٩٣/٤/٢٢).
- لقـد ظهر هـذا العـالم المتميز في آفـاق الفكر العربي كطـائر العنقـاء الأسطوري، الذي تحكي قصص الأقدمين أن موطنه الأصلي صحراء العرب، وتروي أن طائرًا واحدًا منه يظهر كل مئات السـنين، وأنه يعلو في الآفاق محلقًا بأجنحته العريضــة المهيبة، وفاردًا ريشــه بديعًا وباهرًا، ولكن عندما يحين الأوان فإن هذا الطائر الأسـطوري الوحيد يقيم لنفســه تلاً من النار ويهبط من الأجواء، ينتصـب واقفًا في كبرياء وسـط لهيبه، لكنه لا يتفحم ولا يتحول إلى رماد، وإنما ينبعث من قلب النار مســتعدًا لحياة جديدة ومنتشـيًا بشـباب عمر جديد (محمد حســنين هيكل في مقدمة كتابه: أكتوبر ٧٣: الســياســة والسلاح).
- كتابات جمال حمدان سـتغيّر وجه الجغرافيا في مصـر، بل وتاريخها إذا كان هناك من يسمع ومن يقرأ! (الدكتور عباس عمار).
- جاء كتاب شـخصية مصـر عملاً شـامخًا، فهو عمل فكري وأدبي بالغ الروعة والفخامة والأصـالة، وسـوف يعيش الكتاب جيلاً بعد جيل، ويصـبح من الآثار الكبرى التي لا تزيدها الأيام والقرون إلا نضــارة وقوة، وســوف يقال دائمًا إن

هــذا الكتــاب من أعظم الكتــب التي ظهرت في الفكـر العربي في القرن العشرين (رجاء النقاش).

- مصــر الوطن يعزوها رعدة كلما تصـورت ما صـنعته نارها بك! لقد مات كل شــيء، ومات فيها شــيء! مصــر هي الباكية فقط ودموع الأشــخاص تجف، لكن دموع الأوطان أبداً لا تكف، مصـر تفتقدك بشـدة، فقد خصـتك بما في خبيئة صـــدرها، وما تســـره أرضـــها، فقد اعتادت أن تفك كل القيود أمام عبقريتك عندما تدلهم بها الأحوال، وينتابها لحظات من اليأس والقنوط! ... وبعد ما الذي أصـابك يا وطني؟! رموزك تهوى، وكنوزك تفنى، نزيف مسـتمر ونحن نلملم جراحك يا وطني (محســـــــــن عبد الخالق: جريدة الأهرام — ١٧/٥/١٩٩٣).

قال عن نفسه:

- اسمع يا عزيزي، بوسعي أن أجلس في المقاهي والمنتديات وأضع رجلاً على رجل وساقًا على ساق وأقول: أنا الدكتور جمال حمدان، كما يفعل غيري، ويمكن بسهولة أن أمسح جوخ لهذا أو لذلك لأصل كما يصل المتسلقة، ولكنني لم أخلق لهذا أو لذاك، ودعك من التفاهات والمظاهر الكاذبة.
- لو كان جمال حمدان أوروبيًا أو أميركيًا لتحولت مقولاته إلى مزامير تتلى صـباح مسـاء، ولكانت مقولاته ورؤاه الاسـتراتيجية عنوانًا عريضـًا لدى معظم الباحثين ومراكز الدراسات.

قال هذه العبارة مواسيًا نفسه عما كان يتعرض له ... رحم الله جمال حمدان.

(٦١) العالم والقاضي والشرطي

- **٥ فبراير ٢٠١٤**

[فيزيائي يكتب بحثًا من أربع صفحات لإثبات براءته من مخالفة مرورية بقيمة ٤٠٠ دولار!]

ثمة العديد من الطرق لتحاشـــي دفع غرامات المخالفات المرورية أو التهرب منها، لعل أشـهرها أن تكون لك سـطوة مجتمعية أو واسـطة حكومية! هذا ما لم يفعله

(ديمتري كريوكوف Dmitri Krioukov) أستاذ الفيزياء الروسي بجامعة كاليفورنيا بسان دياجو، بل لجأ إلى العلم لإثبات براءته من مخالفة مرورية بقيمة ٤٠٠ دولار حرَّرها له شرطي مرور كان يراقب إحدى إشارات التوقف في مفترق طرق بالمدينة، وكتب في ذلك بحثًا من أربع صفحات مدعومًا بالقوانين الرياضية والرسوم البيانية، نجح به في إقناع القاضي بوجهة نظره ليقوم بالفعل بإلغاء المخالفة والغرامة. ولم يكتف بذلك، بل نشر بحثه في مجلة علمية تحت عنوان (برهان البراءة The Proof of Innocence)، ليفوز البحث بجائزة قدرها ٤٠٠ دولار كان من المفترض تغريمها له!

يقول كريوكوف في بحثه أن ثمة ثلاثة عوامل فيزيائية مجتمعة حالت دون أن يتمكن الشرطي من موقعه من الحكم على ما إذا كانت السيارة قد توقفت أم لا عند إشارة التوقف، الأمر الذي يجعل رؤيته للواقعة غير دقيقة بالمرة؛ الأول أن الشرطي من موقعه لا يستطيع قياس السرعة الخطية للسيارة، وإنما سرعتها الزاوية، وهو ما يحدث حين نحاول تقدير سرعة جسم (قطار أو شاحنة)، إذ يبدو بطيئًا إذا نظرنا إليه عن بُعد، بينما يبدو سريعًا حين يكون قريبًا منا. وفي حالة كريوكوف كانت سيارة الشرطة تبعد عن مربع إشارة التوقف ثلاثين مترًا، ومن ثم، فمع اقتراب سيارة كريوكوف من المربع بسرعة خطية ثابتة ستبدو للشرطي وكأنها متسارعة تدريجيًا. أما العامل الثاني فيتمثل في أنه في حالة اقتراب السيارة بسرعة خطية ثابتة، ثم توقفها فجأة عند خط التوقف ستبدو سرعتها الزاوية وكأنها بازدياد كبير. وأما العامل الثالث فهو وجود إعاقة للرؤية خلال زمن قصير (موضوع خارجي أو سيارة أخرى مثلاً) في اللحظة التي تقترب فيها السيارة من خط التوقف.

ما استوقفني في هذه الواقعة هو سلوك كريوكوف أولاً كعالم، ثم استماع القاضي له واقتناعه ببرهانه والحكم ببراءته، الأمر الذي يمكن كريوكوف من

مخاصـــمة الشـــرطة والمطالبة بالتعويض، ويدفع الشـــرطة في الوقت ذاته إلى تطوير آليات عملها. تخيل معي لو كانت هذه الواقعة في في أي بلد عربي ... تخيل معي ســـــلوك المواطن (الذي يدفع الغرامة مذعنًا ولو كان بريئًا، حتى ولو كان عالمًا)، وتخيل معي رد فعل القاضـــــي إزاء من يقدم له بحثًا علميًا لإثبات براءته من مخالفة مرورية!

(٦٢) أبو بكر عبد الكلام

- **٦ فبراير ٢٠١٤**

في فترة رئاسته للهند (٢٠٠٢-٢٠٠٧) زار أبو بكر عبد الكلام (١٩٣١ – ٢٠١٥) إحدى دول الخليج، وكان ضـــمن برنامجه أن يزور إحدى الكليات ويلقي كلمة لجمهور من الحاضـرين، وأثناء وقوفه أمام المنصـة، قال للجمهور الغفير الذي كان ينتظر كلمته: اسمحوا لي بدقيقة أسلّم فيها على صديق لم أره منذ فترة، وقد رأيته الآن بينكم ... ثم نزل من على المنصة واتجه إلى باب القاعة حيث كان يقف حارس الأمن الهندي في تلك الكلية، واحتضنه وسلّم عليه وتبادل معه بعض الكلمات، ثم عاد وألقى كلمته.

هـرع المسؤولون في الكلية بعد أن غادر موكب الرئيس إلى ذلك الحارس يسألونه عن علاقته بالرئيس، فقال لهم: إن الرئيس رجل متواضـع ومحترم، ولم يقل لكم طبيعة عملي معه، فأنا لسـت سـوى السـائق الذي كان يعمل عنده قبل أن يصـبح رئيسًا! ولمن لا يعرف هذا الرئيس «المتواضع»، فهو أبو القنبلة النووية الهندية، وصانع مجد الهند الحديثة، وهو الذي وضـعها على طريق اسـتخدام الطاقة النووية حيث كان يُسـمى «الرجل الصـاروخ»، لأنه كان الأب الروحي لبرنامج الهند الصـاروخي. كان يحترم كافة طوائف شعبه، وقد لقبه الهنود بـــ «رئيس الشعب»، وهو حاصل كذلك على ثلاثين شـهادة دكتوراه فخرية من أرقى جامعات العالم تقديرًا لجهوده ومكانته العلمية، فضـلاً عن عدد من مراتب الشـرف. لم يتزوج وليس لديه انتماء

سياسي معين. يعتنق الدين الإسلامي ومعروف عنه احترامه للديانات الأخرى كالهندوسية والسيخية. ومن كلماته: «ما لم نكن أحراراً فلن يحترمنا أحد».

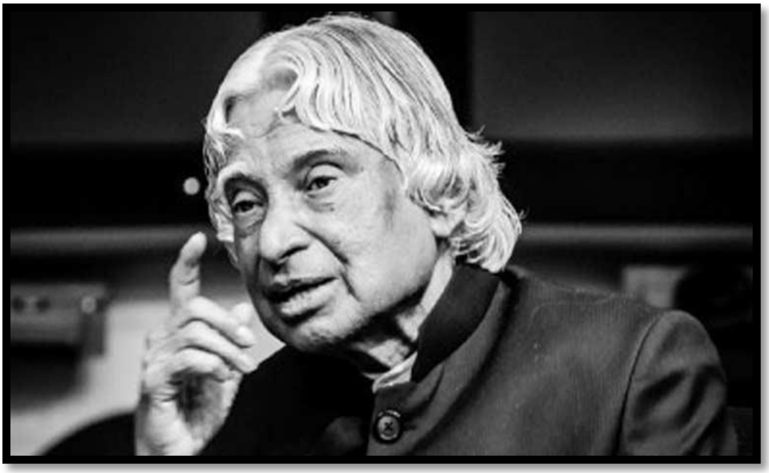

APJ Abdul Kalam، from India’s missile man to people’s President | The Indian Express
Source: http://indianexpress.com/article/india/india-others/apj-abdul-kalam-from-indias-missile-man-to-peoples-president/

لقد تمسك عبد الكلام (الرئيس والقائد المسلم لأغلبية هندوسية) بأهم صفات المسلم الحق: التواضع، الأمانة، الاستقامة؛ وهي صفات تجدها الآن لدى ساسة الغرب، وفي المقابل تصيبك الحسرة حين تنظر إلى ساستنا على اختلاف مناصبهم، فإذا هم: متعجرفون، متغطرسون، فاسدون وجشعون!

(٦٣) طبيب الشوارع

- **٧ فبراير ٢٠١٤**

دكتور «جيم ويزرز» Jim Withers، يصفونه بأنه طبيب غير عادي، لكنه يرى أننا نخطئ في فهم كلمة «عادي»؛ فالـ «عادي» وفقًا لفهمنا الخاطئ أن تقتصر مهنة الطب على فحص المريض، ووصف الدواء، والتباهي بالرداء الأبيض، وتكدس المرضى في المشافي والعيادات انتظارًا لأدوارهم، بل وتمايز المرضى لتفاوت درجاتهم

الاجتماعية؛ «العادي» – وفقًا لفهمنا الملوث – هو أن يذهب المريض إلى الطبيب يريد منه أن يستأصل «ضميره» الذي يسبب له كثيرًا من الألم، فيوافق الطبيب على الفور ويقوم بإجراء العملية الخيالية دون أن يشعر بأدنى تأنيب للضمير وهو يخدع مريضه! لكن «العادي» وفقًا للدكتور «جيم ويزرز»، ووفقًا للفطرة الإنسانية السليمة، هو أن يتعامل الطب مع الإنسان بكل ما تحمله الكلمة من معان وظلال! «العادي» هو أن يكون الطبيب رجلاً يحارب مصدر رزقه بإحياء ضميره فيرزقه الله من حيث لا يحتسب! العادي هو أن يذهب الطبيب إلى من عجزوا عن الذهاب إليه!

ولكي يتمكن من علاج من لا مأوى لهم قرَّر «جيم ويزرز» أن يفعل شيئًا مختلفًا؛ قرر في سنة ١٩٩٢ أن يخلع الرداء الأبيض، وأن يعسعس في الليل بزي الفقراء في شوارع بيتسبرج متفحصًا أولئك الذين خاصمهم المجتمع الآثم؛ أولئك الذين سكنوا الشوارع واحتموا بالكباري وتشردوا في الطرقات بعيدًا عن أعين الملتفين حول مدافئهم! يقول: «لقد صُعقت من عددهم، وبدأت أدرك أن ثمة أشخاصًا يفوق عددهم الحصر، يكابدون جروحًا وقُرحًا دامية، تنهكهم السرطانات وكافة أنواع الأمراض، يطويهم سكون الليل وصخب النهار».

عبر رحلة غير ربحية استمرت اثنين وعشرين عامًا، نجح «جيم ويزرز» في إجراء الفحص الطبي وتقديم العلاج لأكثر من ١٢٠٠ حالة سنويًا، ليذيع صيت تجربته، وتقوم أكثر من تسعين دولة بتطبيق برامج مماثلة لطب الشوارع والرعاية الصحية المجتمعية. تجربة تستحق التأمل في وطن يقتل فينا التأمل!

(٦٤) طبيب يمشي ستة أميال (٩,٦ كيلو متر) خلال عاصفة ثلجية لإنقاذ مريض!

- **٧ فبراير ٢٠١٤**

«**ما كل هذه الضجة؟** أي طبيب جيد سوف يفعل ذلك! المسألة ليست بهذه الضخامة!» تلك هي الكلمات التي تلفظ بها الدكتور (زنكو هيرينكو Zenko Hrynkiw) لحشد من الصحافيين الذين أحاطوا به في (مركز ترينتي الطبي

(Trinity Medical Center) حيث يعمل جراحًا للأعصاب. كان الدكتور «هيرينكو» في (مركز بروكوود الطبي Brookwood Medical Center) في برمنجهام بانجلترا يوم الثلاثاء الموافق ٢٨ يناير ٢٠١٤، حين ضربت عاصفة ثلجية المدينة بعنف.

وقتها تلقى إشارة بأن مريضًا بمركز تريتني الطبي قد ساءت حالته، وهو في حاجة لإجراء عاجلة، ولا يوجد طبيب آخر للقيام بها. لم تكن قيادة السيارة خيارًا جيدًا لهيرينكو بسبب تراكم الثلوج على الطرقات، وكان عمال الإغاثة مشغولون بعدة حالات. أما المريض فقد كان احتمال وفاته دون إجراء الجراحة يصل إلى نسبة ٩٠ بالمائة.

وضع هيرينكو معطفه فوق رداء غرفة العمليات الذي كان يرتديه بالفعل وانطلق مشيًا على الأقدام لمسافة ستة أميال تزيدها العاصفة والثلوج مشقة. وفي طريقه سقط زنكو متدحرجًا من فوق إحدى التلال، ثم عاد وساعد بعض السائقين الذين كانوا عالقين على الطريق، واستمر في رحلته إلى مركز ترينتي الطبي. لم يجد زنكو، البالغ من العمر ٦٢ سنة، شيئًا أهم من أن يصل إلى غرفة العمليات.

يقول هيرينكو: لقد كان المريض يحتضر، وسوف يموت قطعًا إذا لم أُجر له الجراحة، ولن يحدث ذلك في ورديتي ... لقد أنقذت حياة إنسان! أتدرون ما معنى كلمة إنسان؟

أما (كيث جرانجر Keith Granger)، المدير التنفيذي لمركز ترينتي، فيقول: لم يكن الموضوع بهذه البساطة التي تحدث بها هيرينكو؛ لم تكن رحلته عبر الثلوج مجرد نزهة في حديقة، إن ما فعله في مثل هذه الظروف يُعد إنجازًا بدنيًا وعقليًا جديرًا بالاعتبار، ولدينا اليوم شخصٌ على قيد الحياة، كان من الممكن أن يكون في عداد الأموات لولا ما بذله زنكو من جهد.

حقًا، ما أكثر الناس، وما أندر الإنســــــــان، وما أكثر من يتدثرون بالرداء الأبيض، وما أندر الطبيب الحق!

(٦٥) الفئات الآمنة في وطني!

- **١٢ فبراير ٢٠١٤**

بالصدفة، شــاهدت جزءًا من فيلم فبراير الأســود للمخرج «محمد أمين»، وبطولة الفنان «خالد صــالح» الذي أدى دور أســتاذ جامعي ظل طوال حياته يدعو طلابه إلى التفاؤل: «أوقدوا شمعة بدلاً من أن تلعنوا الظلام».

لكن روح التفاؤل لديه أصــيبت في مقتل بعد أن شــارك وأســرته في رحلة إلى الوادي الجديد، حيث واجهتهم عاصفة رملية دُفنوا على أثرها حتى رؤوسهم في بحر من الرمال المتحركة. كان على يقين من أن الحكومة لن تتركهم، واستبشر خيرًا بمجيء رجال الإنقاذ بالفعل، لكن المفاجأة أذهلته؛ فقد اهتم رجال الإنقاذ بانتشــال «اللواء»، ثم «المســتشــار»، ثم «رجل الأعمال» ...، وتجاهلوا اســتغاثة «العالم»، حتى جاء دوره في النهاية بعد هؤلاء! وقتئذ أدرك أن مصــر تحكمها الطبقية العنصــرية، وأن نظام الحكم لا يعترف حقًا إلا بثلاث منظومات أطلق عليها اسم «الفئات الآمنة» في مصــر، وهي: منظومة الجهات الســيادية (الحكومة – أمن الدولة – المخابرات بأنواعها)، منظومة العدالة (القضــاء – النيابة – الشــرطة)، منظومة الثروة (تكاد تســيطر على المنظومتين الســابقتين). هذه الطبقية العنصــرية كانت ســببًا في أن يكفر «الدكتور» بالوطن، ويؤمن بأنه، و«الفئات المستباحة»، مجرد «لاجئين» في دولة لا تعرف المساواة بين أبنائها، ومن ثم يسعى بكل ما أوتي من عقل لاختراق هذه «الفئات الآمنة»، ويُصــبح واحدًا منها يتمتع بنفوذها، ويحظى بالحصــانة التي تملكها! لقد أصبح التفاؤل لديه مجرد «وقاحة»!

قصــة الفيلم تعكس بالفعل حالة «عربية» عامة، و«مصــرية» بامتياز، تجلت في أبشع صورها مع أحداث الخامس والعشرين من يناير وما تلاها. لكن هل يمكن أن

يحمل المستقبل تغييرًا في المعادلة الوجودية على امتداد الوطن العربي؟ وهل ثمة مبررات لبعث التفاؤل في واقع أكثر عدالة ينتظرنا؟!

(٦٦) أين الخلل؟!

- **١٧ فبراير ٢٠١٤**

من أنت أيها المسلم؟ ماذا تريد، وإلى أين تمضي؟ لِم تقول ما لا تفعل، وبأية قناعة تفعل؟ كيف تجمع بين دينٍ قيِّمٍ أتمه الله لك، وأفعال تنهش في دعائم هذا الدين كل لحظة؟! ماذا تقول لربك غدًا إذا أتيته؟

ذات يوم أتى رجل إلى الخليفة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه)، فقال: يا أمير المؤمنين انطلق معي فأعدني على فلان فقد ظلمني، فرفع عمر درته وخفق بها رأس الرجل قائلاً: (تدعون أمير المؤمنين وهو مُعرض لكم مُقبل عليكم، حتى إذا شُغل بأمر من أمور المسلمين أتيتموه أعدني، أعدني)! فانصرف الرجل غضبان أسفًا، فقال عمر: عليَّ بالرجل، فلما عاد ناوله مخفقته وقال له: (خذ واقتصَّ لنفسك مني). قال الرجل: لا والله، ولكني أدعها لله، وانصرف! فعاد عمر الخليفة إلى بيته وصلى ركعتين ثم جلس يحاسب نفسه ويقول: يا ابن الخطاب؛ كنت وضيعًا فرفعك الله، وكنت ضالاً فهداك الله، وكنت ذليلاً فأعزك الله، ثم حملك على رقاب الناس فجاءك رجل يستعديك فضربته، فماذا تقول لربك غدًا إذا أتيته؟ ماذا تقول؟! هكذا يحاسب أمير المؤمنين نفسه!

واليوم، أي مسلم عندما تجلس معه، وتناقشه في معتقده الديني، تراه يقدم لك صورة رائعة، تكاد تكون صورة مثالية للمواطن الصالح الذي يتمسك بأعلى درجات الفضيلة، بل تراه مُصليًا، صائمًا، حاجًا، مُستشهدًا بآيات القرآن وأحاديث رسول الله (صلوات ربي وسلامه عليه)، لكنه ما أن يخرج للحياة الواقعية، وجدته إنسانًا آخر، يخالف سلوكه معتقده بصورة فجة! يأمره الإسلام بالطهارة والنظافة، فإذا به يتوضأ ليصلي ثم يخرج لينثر قاذوراته في الشوارع وأمام بيوت المسلمين! ينهاه

الإسـلام عن الكذب والغيبة ونقض العهود والمواعيد، فتجده متقنًا للكذب، غارقًا في الغيبة والنميمة، ناقضًا للعهد ومخلفًا للوعد! يأمره الإسلام بالعدل وينهاه عن السرقة والرشوة، فإذا به يمارسهما قانعًا وراضيًا بمسميات ما أنزل الله بها من سلطان! يأمره الإسلام بالتواضع وصلة الأرحام، فتجده متعاليًا في خواء بعلمٍ زائف ومالٍ زائل، قاطعًا لذويه بتبريرات واهية! ينهاه الإسلام عن التزلف وتقديس البشر، فتراه بارعًا في عملقة الأقزام ونصب الأصنام! يأمره الإسلام بحُسن الخُلق وإتقان العمل، فتجده في الشوارع والأسواق والمصالح شتامًا نهابًا مخادعًا مُسوفًا في عمله! والغريب أنه في معية ذلك يصلي ويسأل الله السداد والتوفيق والستر والنصر!

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: إن وجهي ليسوَّد حين أرى العمل يخرج من يد الكافر مُجودًا متقنًا ويخرج من يد المسلم هزيلاً مشوهًا! ... أين الخلل إذن؟

(٦٧) حدائق البشر!

- **<u>١٧ فبراير ٢٠١٤</u>**

أخشى يومًا أن يضعونا في أقفاص ليستمتعوا برؤية من دمروا أنفسهم بجهلهم!

حدائق البشر Human Zoo، ظاهرة انتشرت في أوروبا وأمريكا بين القرنين التاسع عشر والعشرين (إلى مشارف الحرب العالمية الثانية)، حيث بدأت نسختها المعاصرة في المكسيك على شكل عرض بعض المصابين بعاهات (مثل الأحدب والأمهق والقزم) إلى جانب الحيوانات في الحدائق. وانتشرت في العديد من المدن الغربية الكبرى مثل لندن وباريس وبرلين وهامبورغ وبرشلونة ونيويورك وغيرها، كما احتوت هذه المعارض على العديد من الأصول البشرية كالأفارقة والأسكيمو والتتار والهنود الحمر ... إلخ، بعضهم كان مختطفًا ومجبرًا، في حين أن آخرين كانوا يعملون بعقود تجبرهم مثلاً على أن يكشفوا صدورهم عندما تسمح درجة الحرارة بذلك.

African child in human zoo. Belgium 1958 via... - Historical Times
Source: http://historicaltimes.tumblr.com/post/108636342962/african-child-in-human-zoo-belgium-1958-via

هذه الحدائق، التي كانت تقوم على الترحال مثل السيرك، أدرت على أصحابها أموالاً طائلة. ففي سنة ١٨٣١ بلغ عدد زوار الحديقة الموجودة في باريس، خلال ستة أشهر، ٣٤ مليون زائر، حيث كانت أسرٌ كاملة تزورها بعد ظهر يوم الأحد مثلاً، وشكّلت أول اتصال لها بالآخر المختلف، مما ساهم في تكوين الإحساس اللاواعي في العقلية الأوربية الجماعية بالتفوق العرقي ودونية من لا ينتمي إلى العرق الأبيض، خاصة في سياق النظريات العنصرية السائدة آنذاك التي جعلت من المتوحشين أقرب البشر إلى الحيوان.

(٦٨) هل يُصلي العلماء؟!

- **١٩ فبراير ٢٠١٤**

في التاسع عشر من يناير سنة ١٩٣٦، قامت «فيليس» Phyllis، وهي طفلة في الصف السادس الابتدائي بمدرسة «الأحد» في نيويورك، بكتابة رسالة إلى «آينشتين» Einstein في برينستون Princeton بتشجيع من مُعلمتها وبالنيابة عن حصة

الدين في المدرسة، تسأله فيها: «هل يصلي العلماء؟ وإذا كانوا يصلون، فما الذي يصلون من أجله؟». وقد رد «آينشتين» على رسالة الطفلة في الرابع والعشرين من يناير من ذات العام.

جاءت رسالة الطفلة على النحو التالي:

كنيسة ريفرسايد Riverside Church

التاسع عشر من يناير سنة ١٩٣٦

عزيزي الدكتور آينشتين، طرحنا في حصة الدين المدرسية ليوم الأحد سؤالاً عما إذا كان العلماء يصلّون. وقد بدأ الأمر عند سؤال أحدهم ما إذا كان باستطاعتنا أن نؤمن بالعلم والدين في الوقت ذاته. نحن نكتب الآن لعدّة علماء وأشخاصٍ مهمّين في محاولةٍ منّا للحصول على جوابٍ شافٍ لسؤالنا. نحن سيكون لنا شرفٌ كبيرٌ في حال أجبتنا عن سؤالنا: هل يصلّي العلماء، وإذا كانوا يصلون، فما الذي يصلون من أجله؟ نحن في الصف السادس، صفّ الآنسة «إليس». لك كلّ احترام، فيليس.

وقد جاء رد «آينشتين» على النحو التالي:

الرابع والعشرين من يناير سنة ١٩٣٦

عزيزتي فيليس، لقد حاولت الرد على سؤالك ببساطة بقدر ما أستطيع. وهاك ردي: يستند البحث العلمي على فكرة أن كل شيء يحدث محكوم بقوانين الطبيعة، وهذا ينطبق بالتالي على أفعال البشر. ولهذا السبب، سوف يكون من الصعب على الباحث العلمي أن يميل إلى الاعتقاد بأن الحوادث يمكن أن تتأثر بالصلاة، أي عن طريق رغبة موجهَّة إلى كائن خارق. ومع ذلك، يجب أن نعترف بأن معرفتنا الفعلية بهذه القوانين ما زالت ناقصة ومجزأة، بحيث أن الاعتقاد بالقوانين الشاملة الأساسية في الطبيعة يستند أيضًا في الواقع على نوع من الإيمان. هذا الإيمان – على حد سواء – مبرر حتى الآن إلى حد كبير بنجاح البحث العلمي.

لكن، من جهة أخرى، كل شخص منغمس في متابعة البحث العلمي بشكل جدي، يغدو مقتنعًا بأن ثمة روحًا تتجلى في قوانين الكون؛ هي روح تفوق بشكل

كبير روح الإنسان، ونحن بقدراتنا المتواضعة يجب أن نشعر أمامها بالضآلة. وبهذا الشكل، فإن متابعة البحث العلمي تقودنا إلى شعور ديني من نوع خاص؛ شعور هو في الواقع مختلف تمامًا عن تدين أي شخص أكثر سذاجة.

(جدير بالذكر أن الطفلة قد أرسلت هذه الرسالة إلى «آينشتين» بعد عشر سنوات من إعلان «هايزنبرج» لمبدأ اللايقين، وظهور التفسير الاحتمالي لميكانيكا الكمّ، تلك التي أنكرت الحتمية الصارمة لحوادث الكون).

لا شك أن إجابة آينشتين تبدو ملتبسة إلى حد كبير، فقد كان واضحًا في التأكيد على أن الإخلاص العلمي لقوانين الطبيعة يعني أن العالِم لا يمكن أن يميل إلى الاعتقاد بأن مجرى الحوادث يمكن أن يتأثر بالصلاة (بالرغبة الموجهة إلى قوة خارقة)، لكنه يعود فيقرر أن البحث العلمي يُفصح عن روح تتجلى في قوانين الكون، ومع ذلك، فهي روح تولد شعورًا دينيًا مختلفًا تمامًا عن ذلك الشعور الديني للإنسان العادي (أو كما يصفه: الشعور الديني الساذج!)، مما يذكرنا بإله الفيلسوف الهولندي «باروخ سبينوزا» Baruch Spinoza (١٦٣٢ – ١٦٧٧)؛ إذ ليس هو إله الديانات التوحيدية التقليدية التي تذهب إلى أن الإله مفارق للطبيعة والتاريخ متجاوز لهما، رغم انشغاله بمصير البشر ورحمته بهم، بل هو مجرد علة أولى أو قانون يحل في المادة أو يكمن فيها، فهو النظام الثابت المحدد للطبيعة أو سلسلة الحوادث الطبيعية التي هي الحركة الآلية التي تعبّر عن القوانين الثابتة.

ولعل «فيليس» وزملائها ومعلمتها قد أصيبوا بالصدمة من وصف «آينشتين» لتدينهم بالساذج، لكن رد آينشتين الحذر يعبر أيضًا عن نوع من الرهبة العلمية التي تقر بحدود العقل، وتؤدي إلى نوع من التدين القائم على تأمل الكشف العلمي وروعة النظام الكوني. ولعل تلك أرضية مشتركة للإيمان بوجود الله لدى كل من العالم والإنسان البسيط، بل ربما أدي تقدم العلم إلى معانقته للفطرة السوية في النهاية. بقي أن أشير إلى أن ما جذبني أولاً في هذه الواقعة (رسالة الطفلة ورد

«آينشتين») هو اهتمام آينشتين وحرصه على الرد السريع. تخيل معي لو أن طفلة في الصف السادس الابتدائي قد أرسلت، لا إلى عالم بحجم «آينشتين»، بل إلى عربي يتدثر بعلم زائف، هل سيفكر في مجرد الرد، بغض النظر عن محتواه؟

(٦٩) الديستوبيا!

- **٢١ فبراير ٢٠١٤**

الديستوبيا Distopia في اليونانية تعني المكان الخبيث، وهو المجتمع الفاسد، الطبقي، المخيف. فإذا كانت اليوتوبيا Utopia هي المدينة أو المجتمع الخيالي الفاضل الذي تكتمل فيه السعادة وتتخلص البشرية من مشاكلها، فإن الديستوبيا هي المجتمع الذي يسوده القمع والمشاكل من حروب وفقر وأمراض. إنها المكان السيء الذي تنهار فيه الحضارة، وتمسي الحياة كابوسًا، وما أشده من كابوس ذلك الواقع الذي نعيشه اليوم!

وثمة ما يوصف بأدب الديستوبيا، وهو أدب يُعري الأوضاع الراهنة كاشفًا للامعقوليتها التي ستجرد الإنسان مستقبلاً من قيمه وتفضح انحطاطه الكارثي. من ذلك مثلاً رواية «*١٩٨٤*» للروائي البريطاني «جورج أورويل» George Orwell (١٩٠٣ – ١٩٥٠) التي قدمها سنة ١٩٤٩ وتنبأ من خلالها بمصير العالم الذي ستحكمه قوى كبيرة تتقاسم مساحته وسكانه ولا تحقق لساكنيه أحلامهم وطموحاتهم بل تحولهم إلى مجرد أرقام.

كذلك رواية «*فهرنهايت ٤٥١*» *Fahrenheit 451* للأديب الأمريكي «راي برادبري» Ray Bradbury (١٩٢٠ – ٢٠١٢) التي تحكي عن قصة نظام شمولي يقوم بغزو العالم في المستقبل ويجعل التلفاز وسيلة دعاية سياسية له ويقوم بحرق الكتب على درجة ٤٥١ فهرنهايت؛ ورواية «*ألعاب الجوع*» *The Hunger Games* للأديبة الأمريكية «سوزان كولنز» Suzanne Collins (من مواليد ١٩٦٢)، وفيها تشترك البطلة «كاتنيس إيفردي» Katniss Everdeen في مسابقة سنوية تحت اسم «مباريات

الجوع»، حيث يتم اختيار أربعة وعشرين متسابقًا ما بين ولد وبنت، أعمارهم تتراوح بين الثانية عشرة والثمانية عشرة عامًا ليتقاتلوا حتى الموت، والفائز هو آخر شخص يظل على قيد الحياة؛ ورواية «*عالم جديد شجاع*» *Brave New World* للأديب الانجليزي «ألدوس هكسلي» Aldous Huxley (١٨٩٤ – ١٩٦٣)، التي عبر فيها عن خوفه من سيطرة العلم على حياة الناس، ليغدو العالم الجديد هو عالم العقاقير والآلات الذي تنتفي منه العاطفة والشعر والجمال.

وتبقى في النهاية رواية (عالمنا العربي الحالي) تلك التي نعيشها ونعايشها الآن مكابدين عناء فهمها وبؤس تمثيلنا لها ورُعب لحظة النهاية ... نحن جميعًا أبطال في هذه الرواية؛ نناقش المشكلات فتتفاقم من حولنا، نخطط للمستقبل فيبدو أكثر سوداوية من الحاضر، نبحث عن الحرية والعدالة والكرامة فتتوالى علينا ضربات العبودية والظلم والإهانة، نحلم بتعليم آدمي جيد فتتساقط علينا جهالات قوم ضلوا وأضلوا، ننشد النظافة والصحة والجمال فتعلو تلال قمامتنا ويدهمنا المرض وتصدمنا مسوخ من صنعنا! لا تُجدي معنا حضارة سالفة أو ديانة، وما زلنا نشكل اللجان ونناقش!

(٧٠) لماذا يرتدي الوطن قناع الكآبة والفشل؟!

- <u>٢٥ فبراير ٢٠١٤</u>

كلما تأملت ما شيَّده المصريون القدماء من بنايات ما زالت تتحدى الزمن، وما برعوا فيه من فنون وعلوم تثير الدهشة والشغف حتى يومنا هذا، شككت كثيرًا في أننا أحفاد هؤلاء! وكلما نظرت فيما أبدعه المسلمون في عصرهم الذهبي من فلسفات واكتشافات ونظريات وتطبيقات تلقفها الغرب كوقود لنهضته، شككت أكثر وأكثر في كوننا مسلمين مثلهم! أعلم أن لكل حضارة دورتها الزمكانية المحددة، وأن ثمة فصولاً لابد من تعاقبها على أية حضارة، لكني أميل إلى ما قرره أرنولد توينبي من أن أية حضارة لا تموت قضاءً وقدرًا، وإنما تموت

انتحارًا، وذلك حين تعجز عن الوفاء بمتطلبات الريادة، فتفقد مقومات الإبداع، وتهوي إلى أدراك التخلف.

نعم، نحن ننتحر حضاريًا، بل نمارس الانتحار بكفاءة وإصرار منذ زمن بعيد، لكن ما هي أسباب الانتحار؟ ولِمَ أقدمنا ونقدم عليه بمثل هذه البلاهة؟ كيف امتلأت بلادنا بكل هذا الكم من الجهلاء واللصوص وذوي العلم الزائف والثقافة الزائفة؟ لماذا نهتم ببناء العمائر دون بناء الضمائر فتهوي مسرعة لتصافح الموت بلا عزاء؟ لماذا يرتدي الوطن قناع الكآبة والفشل؟ لماذا ولماذا ولماذا ... تساؤلات تحمل نبرة الهذيان!

(٧١) اعرف نفسك!

- **<u>٢٥ فبراير ٢٠١٤</u>**

كان سقراط من الطبقة الدنيا الفقيرة، ولم يكن حَسَن الخِلقة ولا جميل الطلعة، وإنما كان قبيح المنظر؛ إذ كان أفطس الأنف عريض الجبهة، قصير القامة، ولكنه طيب القلب نافذ البصيرة شديد الفطنة. يُقال أنه تعلم مهنة أبيه، ولكنه لم يستمر فيها، وكان كغيره من الشباب ينطلق إلى المجالس العامة والنوادي، ويستمع إلى الخطباء.

كان يحاور كل من لقيه بضروب غريبة من الحوار لم يألفها الناس؛ كانت ألفاظه راقية ومهذبة وقوية وساحرة. ولذا أُعجب به الشباب، ولم يكن له موضوع بعينه يُدرسه أو يُحاور فيه، وإنما كان يتحدث في كل شيء، لم تكن له مدرسة ثابتة، بل كان مدرسة متنقلة، يحاور في الميادين العامة والحوانيت، ولعلّ أهم ما تميز به كان حُسن الدعابة، إذ لم يكن حواره إلا دعابة متصلة وهزلاً مستمرًا، ولكن هذه الدعابة والهزل لم يكونا إلا ستارًا لطيفًا لما يتميز به من فكر وجدّ.

ذاعت شهرة سقراط بين الناس فبدأوا يأتون إليه من مختلف المدن ليلقوه، ويتحدثوا إليه، وكان لا يتقاضى عن عمله أجرًا؛ لأنه كان يعتقد أنه لا يُعلم الناس شيئًا. ولكن حادثة غيرت من رأي سقراط في نفسه، فقد تناهى إلى سمعه أن النّاس

سـألوا كبير حكماء أثينا إن كان بين فلاسـفة اليونان وحكمائهم من يفوق سقراط فلسفةً وحكمةً، فأجابهم بالنفي!

بدأ سقراط الذي لم يكن يرى في نفسه هذه المكانة، ويعدُ نفسه أشد الناس جهلاً، وأقلهم حظًا من العلم والفلسفة، يبحث عن السبب الذي يجعله أحكم الناس وأحسنهم فلسفة في عيني كبير الحكماء، فالتقى بالحكماء والفلاسفة والشعراء والكتّاب، والصنّاع وأهل الفن، يحادثهم ويسألهم؛ وجد فئة الحكماء والفلاسفة شديدة الغرور بحظها من العلم والفلسفة أو الشعر والفن، وأدرك أنها فئة شديدة الجهل بنفسها؛ لم يجد في نفسه غرورًا بشيء، فأيقن أنه ربما كان باعترافه بالجهل أكثر معاصريه تواضعًا وقربًا من الناس، وأنه الوحيد الذي أدرك حكمة القدماء المعروفة: (اعرف نفسك بنفسك)، فاتخذها شعارًا لحياته وحواره وتعليمه الناس!

فهل حاولنا يومًا معرفة أنفسنا؟ معرفة النفس تتطلب، أول ما تتطلب، الشجاعة والصدق ... فهل نمتلكهما؟

(٧٢) سي فاست!

المشهد الأول:

- **٣ مارس ٢٠١٤**

صبيحة رحلة الإسراء، رحَّب مشركو قريش بما سمعوا من رسول الله (صلوات الله وسلامه عليه) عن رحلته، ظانين أن في هذا النبأ نهاية دعوته، وساورت الشكوك فريقًا من المسلمين، وسعى بعض رجالات قريش إلى بيت أبي بكر (رضي الله عنه) فرحين شامتين، لا يخالجهم ريبٌ في أنهم سيعودون ومعهم ردته عن هذا الدين، فأبو بكر يعرف أكثر من غيره ما يحتاجه قطع المسافة بين مكة والشام من سفر مضن وزمان طويل، فكيف بالذي راح ورجع وصلى هناك، كل ذلك في بضع ساعات!

بلغوا دار أبى بكر، وصاحوا به: يا عتيق، كل أمر صاحبك قبل اليوم كان أمما – يعنى هينًا ومحتملاً – أما الآن فاخرج لتسمع. وبزغ عليهم أبو بكر دهشًا تجمله سكينته ووقاره وسألهم: ماذا وراءكم؟ قالوا: صاحبك! وانتفض أبو بكر وقال: ويحكم، هل أصابه سوء؟! تراجع القوم قليلاً، وازدرد كل منهم ريقه في مشقة، وقال قائلهم: إنه عند الكعبة، يحدث الناس أن ربه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس، وتقدم آخر يكمل الحديث ساخرًا، وقال: ذهب ليلاً، وعاد ليلاً، وأصبح بين أظهرنا! فأجابهم أبو بكر وقد تهلل محياه: أي بأس في هذا؟ إني أصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء يأتيه في غدوه أو رَواْحه، ثم أطلق عبارته الصامدة: إن كان قال فقد صدق.

تذكرت هذه القصة بعد إعلان الإدارة الهندسية بالقوات المسلحة المصرية عن تطوير جهازين لاكتشاف وعلاج فيروس سي والإيدز بدون آثار جانبية؛ فالبعض رحب بالخبر (مشككًا وساخرًا) ظنًا منه أن القوات المسلحة تحفر قبر سمعتها الدولية والمحلية بيديها، والبعض الآخر أضفى على القوات المسلحة هالة قدسية تحول دون تكذيب الخبر أو مجرد التشكيك في صحته، وكلا الفريقين – ومنهم للأسف باحثون وأساتذة جامعات – يضربون بقواعد البحث والكشف العلمي عرض الحائط!

المحزن في الأمر هو لهجة السخرية التي صاحبت انتقادات الرافضين من جهة، ولهجة التصديق القدسي المطلق التي وسمت ترحيبات المؤيدين من جهة ثانية، ونبرة جر المصريين إلى خلاف سياسي يحصرهم في خانتي الوطنية والخيانة من جهة ثالثة، وابتسامة الشفقة في وجوه الناظرين من الخارج من جهة رابعة! لقد تناسى الجميع أن رجال القوات المسلحة ليسوا رُسلاً لا يأتيهم الباطل من بين يديهم ولا من خلفهم، وليسوا أيضًا حمقى لا يدركون أبعاد أقوالهم ... لقد تناسوا أن من أهم سمات الكشف العلمي قابليته للتكذيب وقدرته على الصمود أمام الاختبارات القاسية،

وأن أية فرضية استثنائية (تبشر بجديد) هي مجرد نموذج يستلزم بالضرورة أدلة استثنائية تعززه وتدعمه إلى حينٍ أو تطيح به طلبًا لنموذج آخر بديل ... لقد تناسوا أن للعلم سياقًا هو أبعد ما يكون عن السياقين السياسي والديني المهيمنين على مناقشاتنا البائسة!

أعلم أن توقيت الإعلان عن الجهازين وطريقة تناولهما إعلاميًا ومجتمعيًا قد يحملان هدفًا خفيًا، وأعلم أيضًا أن ثنائيات النجاح والفشل، العلم والجهل، الإيمان المطلق والكفر المطلق، الصدق المطلق والكذب المطلق ... إنما تعكس ثقافة قومٍ يرزحون لعقود تحت أثقال من التخلف والمغالاة وخشية استكشاف المناطق الرمادية بين الأبيض والأسود، أو الآفاق الرحبة بين الصفر والواحد ... لكن يحق لنا حين يتعلق الأمر بالعلم أن نقول: لكل مقام مقال، ومقام العلم يختلف كثيرًا عما تحويه ثقافتنا من مقامات!

<u>المشهد الثاني:</u>

- **<u>٦ ديسمبر ٢٠١٤</u>**

موعدنا نهاية ديسمبر ٢٠١٤ ... باقي من الزمن أربعة وعشرين يومًا!

«موعدنا ٣٠ يونيو» ... هكذا صرح اللواء عبد العاطي للـ CNN في خبر نشرته اليوم السابع بتاريخ الخامس من مارس ٢٠١٤، مبشرًا بعلاج مرضى فيروس سي وغيره من الفيروسات بجهازه الذي اشتهر باسم (جهاز الكفتة)! وفي الموعد المنتظر، قررت اللجنة الطبية المشرفة على الجهاز تأجيل البدء في العلاج لمدة ستة شهور أخري حتى انتهاء الفترة التجريبية لمتابعة المرضى الذين يخضعون للعلاج بالفعل بالجهاز، ليصبح موعدنا نهاية ديسمبر الحالي!

لدينا ٢٠ مليون مصابًا بفيروس سي في مصر ينتظرون، وفي حالة استمرار ارتفاع معدلات الإصابة بالمرض إلى ١٧٠ ألف مريض سنويًا فنحن بحاجة إلى ما بين ٦٣: ٧٠

عاما للتخلص من فيروس سي تمامًا ، لكن أبشروا ، فالجهاز ازداد قوةً واستعدادًا ، الإيدز والفيروسات ترتجف خوفًا وقلقًا على نفسها! ... نأمل ذلك!

المشهد الثالث:

- **٢١ ديسمبر ٢٠١٤**

باقي أيام على انتهاء المهلة الثانية التي حددها الفريق البحثي لمزيد من التجارب على جهاز كشف وعلاج المرضى من فيروس سي والإيدز ... ولا عزاء للمتآمرين المشككين!

في مايو من العام الماضي قضت محكمة أولد بيلي في لندن بمعاقبة رجل الأعمال «جيمس ماكورميك» James McCormack (٥٧ عاما) بالسجن لمدة عشر سنوات لبيعه جهازًا وهميًا للكشف عن القنابل والمتفجرات، اتضح فيما بعد أنه مجرد جهاز للكشف عن كرات الجولف.

حقق «جيمس ماكورميك» ثروة تقدر بنحو ٥٠ مليون جنيه استرليني من مبيعات جهازه لدول من بينها العراق، وبلجيكا ، والنيجر، والمملكة العربية السعودية. وقال المدعي العام «ريتشارد ويتام» Richard Whittam أنه ادعي أن الجهاز الذي يُباع بمبلغ يصل لحوالي ٢٧ ألف جنيه استرليني (٤٢٠٠٠ دولار)، قادر على العثور على المتفجرات والمخدرات تحت الماء ومن الجو. لكنه في الواقع يفتقر إلى أي أساس علمي! وقد أدى تسويق الجهاز الوهمي إلى مقتل الآلاف في البؤر الساخنة في العالم العربي. الغريب أن جهاز ماكورميك يُشبه تمامًا جهاز الكشف عن الأمراض وعلاجها (المشهور بجهاز الكفتة وفقًا لشرح اللواء عبد العاطي لطريقة عمل الجهاز وقت أن بشر به)، ومع قرب انتهاء المهلة الثانية لخروج الجهاز إلى النور والقضاء على الأمراض التي تتحدى المصريين والعالم، لم يخرج علينا أحدٌ من الإعلاميين أو غيرهم ليطلعنا على ما تم التوصل إليه بشأن الجهاز، وما الإجراء الذي ستتخذه القوات المسلحة في حالة كون الجهاز حقيقيًا أو وهميًا؟!

الأكثر غرابة أن مرضــى فيروس ســي يتكالبون على التســجيل بمواقع وزارة الصحة للحصول على عقار سوفالدي رغم قرب تفعيل الجهاز للجمهور، وثمة تحذير بصفحة الهيئة العامة للتأمين الصحي مؤداه أن أي خطأ في بيانات الراغبين في العلاج بعقار سوفالدي أو عدم اكتمال البيانات بشكل سليم سيمنع المريض من التسجيل لاحقًا إلا بعد مرور شهرين من تاريخ انتهاء الحجز الأول، وأن إعادة الحجز ستكون مشروطة بذلك وبوجود أماكن وتواريخ خالية مستقبلاً لمرضى لم يتم مناظرتهم!

الانتظار والصمت يؤرق العلماء، ويقتل المرضى ... أخشى أن ننتظر حصول الجهاز على الاعتماد والجودة!

المشهد الرابع:

- **٣٠ يونيو ٢٠١٥**

يدعوننا إلى الخروج من كهف المنطق العقلي وغيابة التفكير الناقد إلى رحابة الكشف القلبي لإنجازات حجبها المغرضون، وشوهها الكارهون! كيف تريدون إقناعنا بالشــفاء والجســد ينزف ويتألم؟ وكيف تمنوننا بجنة على الأرض قطوفها دانية والوطن يحترق قهرًا وجهلاً وتخلفًا؟ لماذا تراهنون على قوة التخدير المنهج لعقول البســـــطاء، وعلى ثبات مرحلتي الطفولة والمراهقة الفكرية لدي جموع الكادحين؟

المشهد الخامس:

- **٢٢ أغسطس ٢٠١٥**

أغلب الظن أن مؤرخينا ســوف يتوقفون طويلاً أمام الاســم المناســب للمرحلة التاريخية التي تمر بها مصر منذ عقود، لكنهم قد يستقرون في النهاية على أكثر الأسماء تعبيرًا ودلالة: «الكفتة»!

وهكذا يمكن مثلاً أن تحدثنا كتب التاريخ في المســـتقبل عن «العصـــــر الفرعوني»، «العصر المملوكي»، «العصر العثماني»، «العصر الإسلامي»، «العصر الحديث» ... و«عصر الكفتة»!

المشهد السادس:

- **١٧ نوفمبر ٢٠١٥**

بغض النظر عن الضجة التي صاحبت ظهور هذا الرجل (اللواء عبد العاطي)، وبغض النظر عن أن أساتذة وأكاديميين كبار قد نبذوا أبسط مبادئ البحث العلمي واصطفوا خلفه مرددين كلمة «آمين»، سيظل اسم الرجل محفورًا في ذاكرة المصريين، لا لشيء إلا لكونه مرتبطًا بإحدى أكلاتهم الشهيرة، ومعبرًا عن أبرز نظرياتهم الأثيرة: «الكفتة»!

لا أعرف بدقة أصل كلمة «كفتة»، فالبعض يُرجعها إلى أصل فارسي أو تركي، والبعض يعود بها إلى الفعل «كفت»، بمعنى ضم وقبض. لكن الكفتة – في كل الأحوال – أسهل صنف في مطاعم الكباب: لحم مفروم مع بعض البهارات ثم تُرفع على الفحم المشتعل لتفوح منها الرائحة التي تستقطب الأنوف والبطون، حتى ولو كانت مكوناتها فاسدة أو شبه فاسدة. وهكذا هي الكفتة أيضًا في التطبيق العام: أحضر رويبضة بلا فكر أو علم، وادفع به إلى بعض الفضائيات، تفوح رائحته ويُصبح خبيرًا مناضلاً! ... أحضر جاهلاً وألبسه عمامة وجلبابًا قصيرًا ثم ادفع به إلى المنابر، تفوح رائحته ويصبح داعية! ... أحضر عاطلاً وافتح له صفحة على الفيس بوك، ودعه يُهلل ويُطبل ويُزمر، تفوح رائحته ويُصبح ناشطًا سياسيًا! ... ولو أردت شهادة أكاديمية عُليا، أحضر بعض الكتب وانسخ منها ما شئت، مع بعض التوابل كالمراجع العربية والأجنبية، ولجنة مناقشة منتقاة، تفوح رائحتك وتُصبح أكاديميًا! كل ما تريد جائز ومُتاح وفقًا لنظرية الكفتة ... والناس في كل الأحوال يأكلون!

المشهد السابع:

- **٢١ يونيو ٢٠١٦**

حسنًا فعلت نقابة الأطباء منذ أيام حين أحالت الأطباء الذين شاركوا في الإعلان عن جهاز الكفتة للمحاكمة أمام الهيئة التأديبية، لكن ماذا عمن شاركوا في

جريمة الترويج للجهاز وخداع الشعب من غير الأطباء؟ وماذا عن صاحب أكبر كذبة علمية في التاريخ المصري الحديث؟ ... أتذكر جيدًا حين أقيم مولد سيدي العارف بالأسرار اللواء عبد العاطي المغوار، وكيف توافد على المولد أناسٌ من النُخبة السائدة (مثقفون وإعلاميون وصحافيون وأساتذة جامعات وخبراء استراتيجيون ... إلخ)، جاءوا من كل فج عميق، يُولون وجوههم قبل المشرق والمغرب ويسبحون بعظمة الاختراع، يحسبهم البسطاءُ أيقاظًا وهم رقود يتقلبون في غيابات الوهم ذات اليمين وذات الشمال ... أذكر كيف طالب بعضهم بمحاكمة المتهكمين، ونادى بعضهم الآخر بحرمان المُشككين من نعيم الشفاء بالجهاز السحري، واتهموا من قبض على ناصية العلم بالعمالة والخيانة .. إلخ.

انفض المولد، وتفرق أربابه، وتوارى صاحب الكرامات عن الأنظار ... وكأني به يستلقي مخاطبًا مريديه قائلاً: لقد وعدتكم فأخلفتكم، وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي! ... ألم يأن لنا بعد أن نعيد النظر في مفهوم النخبة؟

(٧٣) الساسة؟ عفوًا، إنهم لا يكترثون للدماء!

- **٥ مارس ٢٠١٤**

خلال الحرب العالمية الثانية، انضم الفيزيائي الأمريكي روبرت أوبنهايمر Robert Oppenheimer إلى (مشروع مانهاتن) لتطوير الأسلحة النووية الأولى، حيث اسندت إليه مهمة قيادة مجموعة مكونة من حوالي ١٥٠٠ موظف ما بين عالم فيزيائي وكيميائي وجندي عادي، لتصميم أول قنبلة ذرية في معامل (لوس ألاموس) Los Alamos السرية في ولاية نيو مكسيكو، وقد تمكنوا بفضل الدعم اللامحدود من الحكومة الأمريكية للمشروع من انتاج القنبلة التي تمت تجربتها في السادس عشر من يوليو عام ١٩٤٥، حيث انفجرت القنبلة بقوة تعادل انفجار ١٨ ألف طن من مادة تي ان تي.

كانت مهمة أوبنهايمر الأولى تتلخص في حساب (الكتلة الحرجة) لعنصر اليورانيوم ٢٣٥، أي حساب كمية اليورانيوم المطلوبة للحفاظ على سلسلة التفاعل. وبعد ثلاثة أيام ألقيت القنبلة النووية الأولى المعروفة باسم «الصبي الصغير» على مدينة هيروشيما، وألقيت القنبلة الثانية المعروفة باسم «الرجل السمين» على مدينة ناجازاكي، وفنيت المدينتان، ومن ثم ركعت اليابان وقررت الاستسلام وتوقفت الحرب. ووفقاً للإحصائيات اليابانية فقد تسببت قنبلة ناجازاكي في مقتل ٧٠,٠٠٠ شخص، فضلاً عن ١٣٠,٠٠٠ جريح، من بينهم نحو ٤٣,٠٠٠ جراحهم خطيرة. وقد أعلنت قيادة الحلفاء في عام ١٩٤٦ أن عدد ضحايا هيروشيما يبلغ ٧٨,١٥٠ قتيلاً، ١٣,٩٨٣ مفقود، ٩,٤٢٨ جراحهم خطيرة، و٢٩,٩٩٧ جراحهم خفيفة!

احتفل أوبنهايمر بانتهاء الحرب وبنجاح (مشروع مانهاتن)، لكن العدد الكبير من القتلى والجرحى والتشوهات نتيجة الإصابة بالإشعاع الذري الناجم عن القنبلتين أثر في نفسه كثيرًا، ودفعه شعوره بالذنب إلى التفكير في الانتحار، وأخبر أصدقاءه بذلك، لكنه – وهو المتدين جدًا – رأي ان الانتحار كُفر، فجبُن أن يفعلها! هداه تفكيره إلى أن يُلقي بضميره المثقل علي الرئيس الأمريكي وقتئذ هاري ترومان Harry S. Truman وإحراجه بأن يقول له على الملأ إنهما – هو وترومان – مجرمان! ذهب أوبنهايمر إلي ترومان وقال له أمام نائب الرئيس ووزيري الدفاع والخارجية: «سيدي ... أشعر أن يديّ ملوثتان بالدم». تغير وجه ترومان، ورد قائلاً: «لا تهتم ستزول الدماء عندما تغسلهما!»، ثم أنهي الاجتماع وصرف العالم الكبير وقال لمساعديه: «هذا الرجل أحمق، هل سمعتم ما قاله؟ منزعجٌ من دماءٍ على يديه رغم أن هذا الملعون لا يعرف أن كل جسمه لو غطيناه بالدماء لن يبلغ نصف الدماء على يدي!»

في شهر أكتوبر من العام نفسه قدَّم أوبنهايمر استقالته من منصبه كمدير لمختبر (لوس آلاموس)، وحصل في الوقت نفسه على اعتراف وتقدير الأمة الأمريكية

بوصفه (أبو القنبلة النووية)، وتمت ترقيته بعد استقالته من المشروع إلى مستشار علمي للحكومة الاتحادية. ولكن على الرغم من منصبه الكبير هذا فقد كان يضغط بقوة من أجل التوصل إلى آلية لتحقيق رقابة دولية على الطاقة الذرية، ولذا تم تعيينه رئيسًا للهيئة الاستشارية العامة للجنة الطاقة الذرية.

في الفترة بين عامي ١٩٤٧ و١٩٥٢، شغل أوبنهايمر منصب مدير معهد الدراسات المتطورة في برينستون، وهو المعهد الذي أصبح مركزًا رائدًا في الفيزياء النظرية، وجذب إليه باحثين بارزين ومعروفين في العلوم الاجتماعية والإنسانيات، كما تولى العديد من المناصب في لجان الطاقة الذرية الأميركية.

وبعد أن أعلن الاتحاد السوفيتي نجاحه في تفجير قنبلته النووية، ظهرت دعوات في الأوساط العلمية والعسكرية الأميركية، تنادي بضرورة التوصل إلى اتفاقيات للحد من تطوير القدرات العسكرية النووية، وتحذر من سباق تسلح في هذا المجال، غير أنه في المقابل ظهرت دعوات أخرى تطالب بالعمل على تطوير القنبلة الهيدروجينية. من جهته عارض أوبنهايمر الفكرة معتبرًا أن هذا السلاح نوع من (أسلحة الإبادة الجماعية)، إلا أن معارضته ذهبت أدراج الرياح بعد موافقة الرئيس الأمريكي هاري ترومان على هذه الفكرة في عام ١٩٥٠.

أسهمت معارضة أوبنهايمر العلنية لتطوير القنبلة الهيدروجينية في جعله هدفًا للسياسيين، وفي ديسمبر ١٩٥٣ تسلم خطابًا من لجنة مجلس الشيوخ الأمريكي يتضمن أربعة وعشرين اتهامًا دفعت به الى ساحة المحكمة عام ١٩٥٤، أبرزها الخيانة العظمى وتسريب أسرار نووية إلى الاتحاد السوفيتي. استمرت المحاكمة ثلاثة أسابيع، ونُشرت وثائقها بعد ذلك في تقرير كبير بعنوان (حول مسألة أوبنهايمر)، وانتهت اللجنة إلى اعتبار أوبنهايمر خطرًا على أمن الولايات المتحدة!

ربما شعر أوبنهايمر بالشعور ذاته الذي أرق الروسي ميخائيل كلاشنكوف Mikhail Kalashnikov (الذي عرفه العالم من خلال الرشاش الذي اخترعه وحمل أسمه وقُتل به الملايين حول العالم)، حيث كتب يقول: «آسف لرؤية تلك الأعداد من

الأبرياء يُقتلون ببندقيتي، لكنني أهدئ نفسي وأقول أنني اخترعت هذا الرشاش قبل ستين عامًا لحماية مصالح بلادي»! لكن دماء القتلى ليست فقط هي تلك التي تسيل من الجسد مصطبغةً باللون الأحمر، بل هي أيضًا دموع الثكالى واليتامى والمحرومين؛ هي آهات المقهورين والمكلومين والعجائز الذين ألقت بهم السياسة في غيابات النسيان. وحين يفقد العلم عذريته أمام إغراءات الساسة، يغدو بالضرورة مطأطأ الرأس أمام جهلاء يحركونه حيثما أرادوا!

(٧٤) القاهرة المقهورة!

- **<u>٨ مارس ٢٠١٤</u>**

القاهرة ... من ماضٍ يشهد لها بالجمال إلى حاضر يضعها ضمن أسوأ مدن العالم! زياراتي للقاهرة سريعة ومتباعدة؛ فلا أزورها إلا لقضاء مصلحة أو لقاء صديق، ثم لا ألبث أن أفر عائدًا إلى الإسكندرية! لذا لا أعرف كثيرًا من شوارع القاهرة، ولا أصل إلى وجهتي إلا بعد جُهد جهيد، وسؤال هذا أو ذاك ممن تعرفهم أو لا تعرفهم! ... ولأنها العاصمة، حيث المطار والوزارات والهيئات والمؤسسات الحكومية المركزية، فمن الطبيعي أن يحج إليها يوميًا الآلاف من أبناء المحافظات الأخرى لقضاء مصالحهم، ومن الطبيعي أن تتلاقى بها كافة أطياف المجتمع المصري، الأمر الذي يجعل من القاهرة أنموذجًا مُصغرًا للدولة المصرية، أو لدولة التناقضات بامتياز: ثراءٌ فاحش متناثر يُطوقه فقر مدقع متدثر بأكوام القمامة ... بنايات وأبراج أنيقة وشاهقة تحتضن عشوائيات قبيحة، ويكسوها جميعًا لون التلوث الرمادي القاتم ... مناطق جذب سياحية (متفردة في روعتها وقيمتها) يعصف بها الإهمال والبلطجة ... شوارع متسعة وملتوية ومتداخلة تفتقر إلى التنظيم المروري، وتكابد ازدحامًا مستمرًا قاتلاً يختلط فيه المارة بالسيارات، حتي ليُعد الدخول إلى القاهرة أو الخروج منها بمثابة مغامرة بطولية تعكس مدى كفاءة السائق وتحمله!

لكن أكثر ما لاحظته في زيارتي الأخيرة للقاهرة هو لوحة الحُزن والقهر المنطبعة على الوجوه؛ تنظر إلى أحدهم لتسأله عن شيء فيجيبك بوجه تعلوه غبرة

وترهقه فترة، وكأن الوجوه تُعاتب زمنًا أرداها، وتعكس حُزنًا دفينًا متراكمًا للمدينة ذاتها! حقًا إنها القاهرة؛ القاهرة لأهلها والمقهورة بهم!، شأنها شأن مصر بأكملها! قال عنها «محمد العدوي» في روايته «*الرئيس*»: «يكفي أن تمسح بإصبعك أي طلاء من طلاءات القاهرة فترى أي تاريخ مكتوب تحته. تاريخ هذه الأمة مختصرٌ هنا، بل تاريخ العالم كله مختصر هنا أيضًا؛ من حكاية واحدة فيه يمكنك أن تجد مداخل حكايات وحكايات، تمامًا كالملفات المضغوطة، تظل لا تشغل مساحة حتى تفتحها، فإن فتحتها غرقت فيها».

تبدو القاهرة الآن، رغم علامات التاريخ المحفورة تحت قشرتها البادية، وجمالها الكامن في أعماق محبيها، كعجوز شمطاء تستعمرها أمراض الفساد، لذا قال عنها «محمد المنسي قنديل» في روايته «*أنا عشقت*»: «داخل القاهرة، توجد قاهرة أخري أكثر بشاعة، جحيم أرضي، كل حي نظيف تحيط به قبضة محكمة من الفقر والعنف تستعد للانقضاض عليه، أكثر من ثلثي أهل هذه المدينة يعيشون في العشوائيات». ووصفها «أنيس منصور» فقال: «في القاهرة، في استطاعتك أن تجد شللاً من الناس يمشون بالعرض وعلى مهل، كأن الشارع خال تمامًا، وكأنهم وحدهم المشاة، ويدهشهم جدًا أن يقوم واحدٌ مثلك بتنبيه الناس أن هذا شارع عمومي. والدهشة التي ستراها على وجوههم ليس معناها أنك نبهتم إلى حقيقة لم يكونوا يعرفوها، وإنما نبهتهم إلى أنك قليل الذوق فقط!». أما «عز الدين فشير» فقد صوَّر ما يعتريها من فوضى بقوله: «شرح لي أبي نظريته في القاهرة التي سماها نظرية الجمل. قال إنه يمكنك أن تفعل أي شيء تريده في القاهرة ولن يوقفك أحد، لا توجد هنا تلك اللائحة الطويلة من التعليمات واللوائح والقوانين المقيدة لسلوك البشر مثلما هو الحال في باريس، الناس في الغرب أصبحوا كأنهم نيوترونات أو كواكب صغيرة يدورون في أفلاك لا يمكنهم الفكاك منها، في نيويورك أو واشنطن مثلاً لو تركت سيارتك في مكان غير مخصص لك لأخذها البوليس في أقل من نصف ساعة أو أوقع عليك غرامة باهظة وربما يتطور الأمر إلى قضية في

المحكمة، ولو رفضت الدفع لحُكم عليك بالسجن، ويمكن فعلاً أن تذهب إلى للسجن بسبب هذا! ... في القاهرة لو اشتريت جملاً وركبته وأوقفته أمام بيتك لما عارضك أحد، أقصى ما يمكن أن يحدث أن يأتي إليك شرطي المرور ويقول لك بأدب شديد: «من فضلك طلع الجمل قدام شويه علشان الطريق!».

قد لا يصدق أهل المحروسة الآن أن القاهرة قد حصلت سنة ١٩٢٥ علي وسام أجمل وأنظف مدينة في حوض البحر المتوسط وأوروبا، وأن هذا الفوز المستحق جاء على حساب عواصم أوروبية كبيرة وعريقة منها لندن وباريس وبرلين وروما وأثينا! كان لهذا الفوز بالطبع أسبابه، ومنها:

- نظافة الشوارع، حيث كانت تُغسل كل ليلة بالماء والصابون، وترش بالماء مرتين يوميًا. كما أنها كانت مرصوفة جيدًا وتعمل البلاعات بها بصورة جيدة، أما الأرصفة فكانت خالية من الإشغالات وتتسع للسائرين، أما الإضاءة فكانت مريحة، كما كانت الأشجار بأنواعها تملأ جنبات الشوارع والجزر الموجودة بها.
- كان وسط المدينة بمثابة لوحات معمارية متميزة ومتجانسة، في حين كانت واجهات المحلات التجارية لوحات بديعة وأنيقة ومتجددة، أما الميادين فمتسعة وتضم عددًا من التماثيل لمشاهير الفنانين، ومن بينها تمثال نهضة مصر.
- ضمت العاصمة عددًا من الحدائق الرائعة، كحديقة الحيوان التي كانت تضم مجموعة متميزة من الحيوانات والطيور، وكانت في مقدمة حدائق الحيوان في العالم. وكذلك حديقة الأورمان التي كانت تضم مجموعة من الاشجار والنباتات النادرة، فضلاً عن حديقة الأندلس ذات التصميم المتميز.
- التقسيم والتوزيع الجيد للأحياء السكنية الهادئة تمامًا، والأحياء التجارية والمناطق الترفيهية، وكان الهدوء وعدم وجود ضوضاء سمة من سمات المدينة التي كان يقيم بها اثنان مليون مواطن من جملة سكان مصر وعددهم تسعة عشر مليونًا.

- انتظام وانتشار وسائل المواصلات بها، والأهم نظافتها ونظافة وأناقة وحسن سلوك العاملين بها، وكفاءة نظم الصيانة والإحلال والتجديد وعمليات التطوير والتجميل المستمرة، وتعدد وتنوع الأنشطة الثقافية والترفيهية، وفي المقدمة منها المتاحف. وبصفة عامة كانت القاهرة ككل متحفاً يجمع بين عصورها بدءًا من العصر الفرعوني وصولاً إلى عصر أسرة «محمد علي» مرورًا باليوناني والروماني والقبطي والإسلامي.

هذه كانت أهم أسباب تربع القاهرة في نهاية العشرينات على عرش أجمل مدن دول حوض البحر الأبيض المتوسط وأوربا. أما الآن، فوفقًا لدراسة أجرتها وحدة تقصي المعلومات في مجموعة الإيكونومست أواخر العام ٢٠١٣ احتلت القاهرة الترتيب السادس ضمن أسوأ مُدن العالم على الإطلاق بعد كل من هراري بزيمبابوي، ولاغوس بنيجيريا، وبورت مورسبي ببابوا غينيا الجديدة، وداكا ببنغلاديش ودمشق بسوريا! اعتمدت الدراسة في تقييمها على عدة عناصر، أهمها البنية التحتية الصلبة والاقتصاد المتحرك، وتكاليف المعيشة، ومعدلات الجريمة والإدمان، وغيرها من العوامل التي توفر للإنسان الحياة الكريمة الآمنة التي يطمح لها. وتسبب في تراجع القاهرة إلى هذا الوضع المُخيف، الاضطرابات السياسية الكُبرى التي تمر بها مصر منذ ثلاثة أعوام تقريباً، مع اندلاع ثورة الخامس والعشرين من يناير سنة ٢٠١١ وحتى اللحظة. لا غرابة إذن أن تتدهور كافة المدن المصرية، في معية تدهور العاصمة (مركز الجاذبية التي تدور حوله سياسيًا واقتصاديًا وحضاريًا)! لقد قالها الرائع الراحل جمال حمدان منذ سنوات خلت، وأعيدها الآن: «أنقذوا مصر من القاهرة، والقاهرة من نفسها!».

(٧٥) باسم يوسف والدولة العارية!

- **<u>١٤ مارس ٢٠١٤</u>**

يُحكى أن خياطًا قد احتال على أحد الملوك، فأقنعه بأنه سيصنع له ثوبًا عظيمًا لا يراه سوى الحكماء. اقتنع الملك بمهارة الخياط المحتال، وخرج على وزرائه عاريًا

تمامًا، وقال لهم: «انظروا، ما رأيكم في هذا الثوب السحري الذي لا يراه سوى الحكماء؟» ... بعض الوزراء خافوا من غضب الملك فقالوا: هذا ثوب عظيم يا مولاي». وبعض الوزراء كانوا طامعين في عطايا الملك، فقالوا: «يا مولانا، لم نر في حياتنا أجمل ولا أروع من هذا الثوب!

كان هناك طفل صغير في القاعة، قال ببراءة: «أين الثوب الذي تتحدثون عنه، إني أرى الملك عاريًا»! حاول الوزراء إسكات الطفل بأي طريقة؛ لكزوه ووبخوه وهددوه، لكنه ظل يصيح ويضحك: «إني أرى الملك عاريًا» ... عندئذ أخرجوه من القاعة!

ربما كان هذا شبيهًا بما حدث اليوم من تشويش متعمد على قناة إم بي سي مصر مع بدء برنامج «البرنامج» لباسم يوسف، إذ يبدو الأخير – بغض النظر عن اختلاف المواقف تجاه ما يقدمه – وكأنه الطفل الذي يصرخ ضاحكًا: إني أرى الدولة عارية ... ولأننا جميعًا عراة من مجرد الحلم بحياة آدمية؛ لأننا عراة رغم الاحتيال الإعلامي الذي يخدعنا بثوب عظيم لا يراه إلا حكماء الدولة، فإننا ننظر جميعًا مع باسم إلى عُرينا ونضحك بدلاً من أن نبكي أو ننتحر، نضحك لأن الضحك هو وسيلتنا الوحيدة الآن لابتلاع فشلنا، فإما أن نموت به، وإما أن ننتبه إلى مأساتنا!

في روايته «*مرايا الضرير*»، يقول «واسيني الأعرج»: «هذا العالم صعب وخائن ولا يُطاق، لذا يجب أن يمتلك الانسان سلاح السخرية وسلاح القوة لكي يستطيع أن يحاربه حتى الموت». نعم، فأفضل طريقة لمواجهة جراحك والتغلب عليها تكمن في الضحك عليها، في السخرية منها! نعم، فالسخرية هي سلاح الأعزل المقهور والمغلوب على أمره، هي البكاء من الداخل بالبسمة الدامعة، فإما أن تموت وإما أن تضحك باكيًا، أو تبكي ضاحكًا، هي نفض الغبار عن تناقضات الواقع والوقوف على قيود الإنسان، بُغية تطهيره وتحريره أيضًا. وحين تعمد جهة ما – أيًا كانت – إلى التشويش على برنامج ساخر، فإنها ترغب في تجريد الإنسان من سلاحه الوحيد

والأخير، لا في مواجهتها، بل في مواجهة جراحه وآلامه، وهي في الوقت ذاته تعترف برعبها من هذا السلاح، وضعفها في معيته!

(٧٦) سلامٌ على أمي!

- **١١ أبريل ٢٠١٤**

المشهد الأول: ماتت أمي:

كنت على يقين طفولي بأن أمي قصيدة أبدية متجددة، تتدفق أبياتها دون توقف عازفة أجمل نغمات العطاء والحب والتضحية ... ولم لا، وقد كانت أول من يصحو كإشراقة تضيء أركان بيت اشتاقت إلى أهله، وأول من ينتظر بلهفة من تأخَّر خارجه ولو لدقائق معدودة، وأول من يسعد لسعادة أحدهم قبل أن يُعلن عنها، ويحزن لحزنه قبل أن يتجلى الحزن في وجهه وكلماته، فتعلو ضحكته على شفتيها وتتدفق دموعه من عينيها ... كانت آخر من يأكل، إيثارًا لا أثرة، وآخر من ينام، رغبة منها في الاطمئنان على من تشملهم بدفء محبتها، وآخر من يتألم إن أصابها ضرٌ كي لا يتألم من حولها ... كانت دعواتها تسبق خطواتي إن خرجتُ فأشعر وكأني قد تحصنت بسدٍ منيع، وكانت بسمتها تستشرف لقائي فأبتسم وتبتسم، وتمتزج البسمتان مثمرتان أملاً متجددًا. كانت مصادرة الموت (التي يعلن عنها الواقع كل لحظة) مطوية في ركن بعيد منسي من أركان عقلي، تحجبها سحابات ثقال من أوهام البقاء يأبى الفكر أن يستحضرها، يفر منها، يتناساها بغباء الرغبة في امتداد الحياة! واليوم أبى الواقع إلا أن يوقظني بقسوة، يصرخ بعنف في أذني، يحرث عقلي ليستحضر من أعماقه تلك الحقيقة المطوية ... الموت! نعم، لقد ماتت أمي بعد أن لوحت لي مودعةً بابتسامتها المعهودة، ماتت معها أوجاعها! نظرت إلى قدميها المتورمتين بفعل فشل كلوي مباغت، لمستهما، قبلتهما، تحسست قلبها الصامت علَّهُ يعيد دقات الحياة، احتضنتها بدمعات تبلل وجهها الساكن، وبدلاً من حديثنا اليومي المتبادل، بات صوتي وحيدًا:

سألقاك يا أمي إن عاجلاً أو آجلاً ... رحمك الله يا أمي وأسكنك فسيح جناته.

المشهد الثاني: أحبك يا أمي:

مهما تنوعت أحداث سنة ٢٠١٤، وتراوحت شدتها بين البساطة والضخامة، يبقى الحدث الأهم والأضخم بالنسبة لي (على المستوى الشخصي) هو حدث موت أمي! هو الحدث الذي وضعني قسرًا ومباشرةً أمام حقيقة لم أكن أستطيع رؤيتها واستيعابها جيدًا رغم تكرارها اللحظي من حولي، ربما لشدة سطوعها؛ حقيقة الموت، وبؤس فراق الأحبة! حدثٌ جعلني أدرك بوضوح أن الموت هو الزائر الوحيد الذي يأتيك وقتما شاء المولى عز وجل دون أن تملك خيار رفض أو قبول استقباله! وأن الساعات والأيام والشهور والسنوات التي نحتفل بها ما هي إلا نقاط تمر بنا مُخلِّفة تراكمات ذات نهاية، أو هي خطوات نخطوها عن وعي أو غفلة في طريقنا المرسوم بدقة نحو الله.

في أيامها الأخيرة، كنت أجلس بجوارها بابتسامة تُخفي أنهار دمع لم تجف، أتحسس دقات قلبها الواهن، وبرودة أطرافها التي أبت دماء الحياة أن تغذيها، يُدوي في أركاني صدى تساؤلاتي للمرض الذي يفترسها: ماذا فعلت بها؟ هل تؤلمها؟ إلى أين انتهى بك المطاف؟ وهل تخبئ لي المزيد؟ فكانت بكلماتها الرقيقة، ولمساتها الحانية، ونظرات عينيها الضاحكة الدامعة، وكأنها تسطر لي حيثيات وفاتها .. تعزيني في موتها، وتواسيني في ألم فراقها! لا أملك في هذه اللحظة سوى أن أرسل لها في عالمها البعيد القريب: أحبك يا أمي ... رب اغفر لها ولأبي وارحمهما كما ربياني صغيرًا.

المشهد الثالث: أنى لي النسيان!

في مثل هذا اليوم (الحادي عشر من أبريل) من العام الماضي، قضى الله تعالى أن ترحل أمي ... أن تُباعد بيني وبينها تلك المسافة الممتدة بين عالم ما زلت أعيشه، هو عالم الزيف، وعالم باتت تسكنه، هو عالم الحق!

«ماتت أمي» ... واقعةٌ كتبت عنها منذ عامٍ مضى بقلمٍ يرتعش ألمًا وحزنًا، وكنت أظنها ستغدو ذات حينٍ مجرد واقعة تاريخية يطويها النسيان، فإذا بها تستعصي وتتمرد، بل وتثور على ظني، لأكتب اليوم في ذكراها بقلمٍ يرتعش شوقًا وحنينًا، وكأن الذكرى لحنٌ أبديٌ متجددٌ لا يفتأ يراود أذني ويضرب رأسي! في مثل هذا اليوم، أبى الموت إلا أن يقتطع جزءًا من هويتي، ليترك لي بقايا حروف أنثرها هنا وهناك، بقايا قلب يعتصره الفراق، بقايا ابتسامة تلتمس بريقها، بقايا حُلم يتوق إلى رحيق الغائب، بقايا أناس وأقرباء غدوا على حردٍ قادرين، بقايا قلعة كنت أحتمي بها! حاولت كثيرًا أن أنسى أنها ماتت، لكن أنَّى لي النسيان وهي الجنة التي قيل لي اهبط منها، الوطن الذي أفتقد دفئ احتوائه، الصباح الذي أبحث عن إشراقته، والدعوات التي كنت أمضي متحصنًا بها ... حكاياتك يا أمي، شكواك، ألمك، دموعك، صمتك، كلماتك الأخيرة، كل ذلك ما زال مكتومًا بداخلي ... فأنَّى لي النسيان! رحمك الله يا أمي.

المشهد الرابع: قال لي لا تبكي:

قال لي لا تبكي؛ إن الدموع لا تسترد المفقودين ولا الضائعين ولا تجترح المعجزات ... لا تبكي؛ فما ترحل به سكرة الموت لا تعيده أنهار الدموع ... لا تبكي؛ فالأحياء على الأرض أولى بالرثاء ممن غادروا إلى رحاب السماء ... لا تبكي؛ فثمة أحزان وآلام تعلو بقوتها فوق البكاء. هنا تذكرت بكاء رسول الله (صلوات ربي وسلامه عليه) حين قُبض ولده إبراهيم، وقوله: «لا تدرجوه في أكفانه حتى أنظر إليه»، فأتاه فانكب عليه وبكى (سنن ابن ماجة)، وقوله «إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»، وقوله «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وانما يرحم الله من عباده الرحماء» (صحيح البخاري ومسلم). تذكرت أيضًا أحد الحكماء حين بكى على قبر ولده، فقيل له: كيف تبكي وأنت تعرف أن الحزن لا يفيد؟ فنظر إلى سائله طويلاً، ثم قال متحسرًا: إن هذا هو ما يبكيني! وهكذا نحن أيضًا، نبكي في أحيان كثيرة ونحن نعرف أن

الحزن لا يفيد، لكننا مع ذلك نجد راحتنا في الدموع، ونلتمس فيها السلوى والعزاء (عبد الوهاب مطاوع: وقت للسعادة ووقت للبكاء). لا عليك يا صديقي، فالموت يعصر عيوننا حزنًا على من فقدنا بإحدى يديه، ثم يمد يده الأخرى بمنديل النسيان لنمسح تلك الدموع ونتابع لهاثنا خلف الحياة متعللين بمن لم نفقده بعد!

المشهد الخامس: سلام عليك يا خاتمة النساء:

في مثل هذا اليوم منذ عامين رحلت أمي ... اختار الله تعالى أن يسترد وديعته، لتستقر الروح الطاهرة إلى جواره في عالم أنقى وأ صدق وأرحب. حدثٌ يشطر حياتي نصفين: ما قبل وما بعد، ومن هذا إلى ذاك تختلف معاني الوجود والحب والصدق .. يختلف معنى الحياة ويتبدل معنى الموت، وإن كان في النصفين يستعمرني بأمي! ما زالت مشاهد الوجع تعيث في ذاكرتي؛ من بسمة الوداع الحانية، إلى نظرة اللحظة الأخيرة المثقلة بكلمات لم يقو عليها جسدٌ أنهكه المرض، إلى الرأس المسند على ذراعي في صمتٍ صاخب، إلى صخب الحزن الصامت بداخلي ... سلامٌ عليك يا أمي ... سلامٌ عليك يا أول الأوطان وآخر المنافي ... سلامٌ عليك يا درة الطيبات وخاتمة النساء ... سلامٌ عليك في العالمين ... سلامٌ عليك في كل حين.

(٧٧) حرب العمائم

- **<u>٢٤ أبريل ٢٠١٤</u>**

لا أكترث بمصير العرب فهم سيقتلون بعضهم البعض في يوم من الأيام!

ربما قال «هتلر» هذه المقولة، وربما لم يقلها، لكنها أصبحت واقعًا مريرًا تطرب له إسرائيل، وتصفق له أمريكا، ويضحك منه وعليه العالم: صراع طائفي يشعل حروبًا يذكيها أصحاب العمائم! أما زلت تسألني عن العرب؟ نعم، إنهم يتأملون القمر ويتقاتلون على ضوئه ... أما زلت تسألني عن سبب التخلف بعد؟ تأمل إذن تلك الأرقام المخيفة: بلغ عدد ضحايا الصراع الطائفي الحالي في سوريا في ثلاث سنوات

نحو ١٤٠ ألف قتيل، وهذا الرقم أكثر من ١٥ ضعف عدد الضحايا السوريين في كل حروبهم ضد إسرائيل في الـ ٦٦ عامًا الماضية.

وبلغ عدد ضحايا الاشتباكات الطائفية في العراق سنة ٢٠١٣ وحدها نحو ٧,٨١٨ من المدنيين فقط، طبقًا لتقديرات الأمم المتحدة، و٩,٥٠٠ طبقًا لتقديرات عراقية، ما يعادل ثلاثة أضعاف ضحايانا في العدوان الثلاثي على مصر (ثلاثة آلاف شهيد) ونحو نصف عدد كل شهداء العرب على كل الجبهات (١٨,٣٠٠ قتيل) في حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣.

وبلغ عدد ضحايا الحرب العراقية الإيرانية (١٩٨٠ – ١٩٨٨) التي تغذت على الدعاوى الطائفية أكثر من مليون مسلم، بينما بلغ العدد الإجمالي لضحايا الصراع العربي الإسرائيلي منذ عام ١٩٢٠ وحتى عام ٢٠٠٩ أقل من ١١٦ ألفًا، منهم ٩١ ألف عربي (نقلاً عن جريدة الوطن: حرب العمائم).

(٧٨) الإنسانية ليس لها أيديولوجية!

- **<u>٢٨ أبريل ٢٠١٤</u>**

حين أكتب عن شهداء يتساقطون تباعًا في غزة، أو العراق، أو تونس، أو ليبيا، أو مصر، أو غيرها من بلادنا المكلومة بأهلها وأنظمتها ووسائل إعلامها وترديها الحضاري، فإني لا يشغلني توزيع الاتهامات على هذا أو ذاك من الساسة والحكام، ولا على هذه أو تلك من الحكومات، ولا على هذه أو تلك من الأيديولوجيات أو الجماعات أو التحالفات الدولية والإقليمية ... إنما يشغلني بالدرجة الأولي ذلك الإنسان المشوَّه بداخلنا: كيف ينظر إلى الأم المفجوعة والأب الموجوع والطفل المروَّع؟ كيف انتكست فطرته فبات يرسم لوحات ميوله وأهواءه بدماء الآخرين؟ كيف امتلكته أطماعه فراح يقيم دنياه على أعمدة من جثث وأوجاع الأشقاء؟ كيف يهنأ بطعامه وشرابه ومنصبه وكافة ملذاته، ومن أمامه وخلفه، وعن يمينه وشماله من يستجدي أبسط حقوقه في الحياة؟

الإنســـانية ليس لها أيديولوجية، ومن تلونت دفاعاته عن حق إنســـاني بلون أيديولوجي؛ كأن يدافع عن حق إنساني ما دام صاحب الحق من تيار معين، وينكر الحق ذاته لإنسان من تيار آخر، فقد فقد إنسانيته ... ثمة خطأ لديه في مغزى ودلالة المفهوم. تحضرني في هذا المقام مقولة فيودور ديستوفسكي: «إنني أحب الإنسانية، غير أن هناك شيئًا في نفسي يدهشني: كلما ازداد حُبي للإنسانية جملة واحدة، نقص حبي للبشر أفرادًا ... لكنني لاحظت في كل مرة أنني كلما ازددت كُرها للبشر أفرادًا، ازدادت حرارة حبي للإنسانية جملة!».

(٧٩) وظن أهلها أنهم قادرون عليها!

- <u>٩ مايو ٢٠١٤</u>

هل اقتربت الأرض من أن تأخذ زخرفها وتتزين ويظن أهلها أنهم قادرون عليها؟ كل الشواهد (على الأقل العلمية منها) تؤكد ذلك، لاسيما في ظل التسارع الضخم للتقدم العلمي (في بلاد غير بلادنا، ولدى أناس غير من يعيثون فســـادًا في بلادنا)؛ أعني في وقت تكيفت فيه الســـرعة مع منجزات العلم، ليتضـــاءل الزمن ما بين الكشف العلمي وتطبيقه، ولنا في تاريخ الكشوف العلمية العبرة؛ فعلى حين مضت مائتا عام ما بين اكتشـــاف الكهرباء وإنشـــاء محطات الكهرباء في نهاية القرن التاســع عشــر، نجد أن الأمر لم يســتغرق ســوى ســبع ســنوات بعد اكتشـــاف الكيميائيين الألمانيين « أوتو هاهن » و « فريتز ستراسمان » للانشطار النووي حتى ألقيت قنبلة هيروشـيما. أما التســارع في الهندســة الوراثية فقد كان أكبر، فبعد مرور ثلاث ســنوات أو أربع من بدء بحوث تكنولوجيا الجينات، بدأ الرأسماليون في تأســيس شــركات الهندســة الوراثية! وقس على ذلك كافة فروع العلم في وقتنا الراهن.

في مقاله المُعنون (عام ٣٠١٤ ميلادية) المنشور بتاريخ الأربعاء ٢٨ أبريل سنة ٢٠١٤ بجريدة الوطن، يشير محسن الجلاد إلى تعليق السيناريست عمر الدكروري، وقد جاء فيه:

قبل قراءة المقال كنت مع مستشرقة ألمانية حضرت لدراسة الكرامات الصوفية، وكان دليلها في البحث كتاب لعبد الرحمن الجامي عنوانه «*نفحات الأنس*» ... وبعد مناقشة اتفقنا على أن ما كان يعد خرقًا للطبيعة يختص به سادتنا الصوفية، أصبح الآن بالعلم والثورة التكنولوجية في مقدور آحاد الناس؛ فقد كانوا يتواصلون بأفكارهم على بعد آلاف الأميال، ونحن الآن نتواصل صوتاً وصورة ومجاناً؛ ولم تصبح صيحة الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) من فوق المنبر «يا سارية الجبل الجبل» مقصورة عليه وحده، بل أصبحت الآن وبواسطة موبايل بسيط في مقدور أتفه قائد من قادة داعش، فبإمكانه الآن أن يصيح «يا داعش الجبل الجبل»؛ أما بساط الريح فقد سبقته الكونكورد، وهم الآن يقومون باستخدام النانو تكنولوجي لتحويل أي شيء إلى شيء آخر، فإذا كان لديك وعاء زجاجي يمكنك باستخدام جهاز صغير يشبه الميكروويف أن تحوله إلى فناجين أو حتى تمثال زجاجي، وذلك بإعادة ترتيب ذراته في أشكال أخرى. وهذا بالطبع سيحدث تغييرًا وثورة في خطوط الإنتاج في العالم كله. أما نقل الأشياء، فقد اقتربنا من قدرات عفريت الجن أو الذي عنده علم من الكتاب، الذي نقل عرش بلقيس قبل أن يرتد إلى سيدنا سليمان طرفه، أما عن الجواري فحدث ولا حرج؛ فقد قاموا بالفعل بإنتاج سيدات جميلات من السيليكون بالكامل يتحدى ملمس بشرتهن أرق سيدة في الوجود ... وهكذا، فإذا كنت من أهل الدنيا بعد عشرة أعوام وليس مائة عام أو ألف عام، فلن أتنازل عن عفريت من العلم «روبوت» يقوم بخدمتي ونقل أمتعتي وستكون معي «عصا» على الكسار أحضر بها طعامي وستكون لي مائة جارية من السيليكون مختلفة الأشكال والأحجام ولون البشرة!

هذا بالنسبة للسنوات القليلة المقبلة، أما بعد مائة عام أو ألف عام، فأعتقد أن العقل والخيال يعجزان أمام تخيّل ما سيكون، والدليل أن أجدادنا منذ أقل من مائة عام لم يكن أحدهم ليتخيل اختراع التليفزيون أو الموبايل أو الإنترنت ... إلخ.

هل نستطيع القول إذن أن الأرض قد قاربت للغاية على أن تأخذ زخرفها وكامل زينتها، وأن الإنسان أصبح مقتنعاً أنه قادر عليها، وأن أمر الله الآتي أصبح وشيكاً؟

(٨٠) مارينا أبراموفيك!

- **١٨ مايو ٢٠١٤**

مارينا أبراموفيك Marina Abramović، فنانة صربية من مواليد ١٩٤٦. قامت سنة ١٩٧٤ بخوض تجربة لتتعرف أكثر على تصرفات البشر إذا مُنحت لهم حرية القرار بدون شرط، فقامت بالتجربة التالية: قررت أن تقف لمدة ست ساعات متواصلة بدون حراك، وأتاحت للجماهير أن يفعلوا بها ما أرادوا، ووضعت بجانبها طاولة بها العديد من الأدوات، منها سكين، ومسدس، وأزهار ... وهكذا.

في بداية الأمر كان رد فعل الجماهير سلميًا، فاكتفوا بالوقوف أمامها ومشاهدتها، ولكن هذا لم يستمر كثيرًا؛ فبعدما تأكد الناس أنها لن تقوم بأي رد فعل مهما كان تصرفهم تجاهها، أصبحوا أكثر عدوانية، فقاموا بتمزيق ملابسها، وقام أحدهم بوضع المسدس على رأسها – ولكن أحد الاشخاص تدخل وأخذ المسدس منه – وقاموا بنكزها ببطنها بأشواك الازهار، وتحرش البعض بها.

وبعد أن انتهت الست ساعات تحركت «مارينا» من مكانها بدون اتخاذ أي رد فعل عدواني تجاه الجماهير، وبمجرد أن بدأت بالتحرك هموا بالفرار!

هذه التجربة أثبتت لمارينا ان البشر الذين نتعامل معهم يوميًا، مهما اختلف عرقهم وسنهم وخلفياتهم، قادرون على ارتكاب أفعال شنيعة، ولكن إن أتحيت لهم

الفرصـــة فقط. هذا ما يجبرنا على ان نقر دومًا أن السـُلطة بحاجة إلى القوة، وأن الحرية لا يمكن أن تمنح بصورة مطلقة دون رادع أو قانون أو نظام.

(٨١) لا تحجب شمسي بظلك!

- **٣ يونيو ٢٠١٤**

بينما كان الفيلسوف الإغريقي «ديوجين الكلبي» يستريح داخل برميله في ضوء الشمس أثناء أحد الاحتفالات، أتاه «الإسكندر الأكبر» متحمّساً للقاء الفيلسوف الشهير، وقال له متباهيًا: «أنا الإسكندر»، فأجابه الفيلسوف في نبرة تحدٍ مشوبة بازدراء وعدم اكتراث: «وأنا ديوجين الكلبي!» ... فسأله الإسكندر: «ألست خائفًا مني؟»، فأجاب ديوجين: «هل أنت رجل صالح أم شرير؟»، قال الإسكندر: «بل أنا رجل صالح!»، فقال ديوجين: «ومن يخاف من الصالح إذن؟». ثم سأله الإسكندر: «هل تعيش في هذا البرميل فقط لكي تلفت انتباه الناس وإعجابهم بك؟»، فأجاب ديوجين: «وهل فعلاً تريد أنت فتح بلاد فارس وتوحيد كل بلاد الإغريق، أم تفعل ذلك فقط لتنال الإعجاب؟». ابتسم الإسكندر وقال: «هذا برميل مليء بالحكمة»، فقال ديوجين: «أتمنى لو كان لدَّي بدل هذا البرميل المليء بالحكمة نقطة واحدة من الحظ الجيد. للحكمة طعمٌ مُر، وأحياناً تودي بك إلى الهلاك، بينما الحظ يفتح لك أبوابًا ويحقق لك سعادةً ما كنت تحلم بها!».

أعجب الإسكندر، الذي يعرف جيدًا معنى الحظ، بكلام ديوجين، فسأله إن كان باستطاعته أن يمنحه أي شيء، فأجابه ديوجين في ثقة وهدوء: «نعم، أريد منك شيئاً واحدًا ... إنك الآن تقف أمامي وتحجب عني أشعة الشمس، لذا لا تحرمني من الشيء الوحيد الذي لا تستطيع منحي إياه؛ لا تحجب شمسي بظلك!». ورغم هذا فقد أعلن الإسكندر: «لو لم أكن الإسكندر لوددت أن أكون ديوجين!». وفي رواية أخرى، وجد الإسكندر ديوجين يحدق بكومة عظام، فسأله عما يفعل،

فقال ديوجين للإسكندر: «أنا أبحث عن عظام أبيك، لكنّي لا أستطيع التمييز بينها وبين عظام العبيد».

إجابات ديوجين تختزل كل فلسفته التي تعرف بالفلسفة الكلبية، نسبة لاسم الساحة التي كان يتجمع فيها «صعاليك أثينا» مع هذا الفيلسوف الذي كان يفترش الأرض في العراء ويلبس أثواب المتسولين ويشاركهم شظف العيش وقسوة الحياة. كانت تلك الساحة/ المدرسة قد أُنشئت خصيصًا للمنبوذين أو المفلسين، فلا يحق لغيرهم الالتحاق بهذا الصرح العلمي الفريد من نوعه، أما من كان شريفًا أو نبيلاً أو من عِلية القوم، فلا تقبل عضويته إلا بعد أن يحقق كل الشروط التي تؤهله لأن يكون مثلهم، منبوذا أو «كلبًا حقيرًا»، لا يعبأ بكل ملوك الدنيا!

عرف هؤلاء المنبوذون، أو لنقل الصعاليك، بفطنتهم ونباهتهم (على حد تعبير نذير الماجد في مقاله «يا صعاليك العالم اتحدوا») بأن الروح لا تتحرر إلا بإهمال كل ما من شأنه أن يقترب من السيادة، أو يخلع المشروعية لنيل السلطة، إنهم يجدون حريتهم حيث لا سلطة ولا وجاهة، وحيث ثمة لا شيء يخشون خسرانه، هناك في الهامش الذي يقصى إليه كل أولئك المهمشين من المغضوب عليهم، لا شيء يستوجب المهادنة!

هناك لا مكان لأنصاف الحلول، فثمة مساحة شاسعة لا تقبل إلا الألوان الحاسمة، لأن ما سواها هي أداة السلطة. في ساحة الصعاليك هذه لا مكان للمساومة ولا للمصالح أو التحالفات أو متطلبات المرحلة التي لم تكن لصالحهم يوما! ... هذه الساحة مفتوحة لكل مهدور، ولكل مقهور في هذا العالم، مواطنون عالميون تجمعهم جبهة موحدة للصعاليك، شعارها «لا أملك شيئا حتى لا يتملكني شيء».

فلا تحجبوا أشعة الشمس عمن يطلبها، بظلكم وظل السلطة ... لا تحجبوا أشعة الشمس عن صعاليك هذا الزمان!

(٨٢) هل نحن مسلمون؟!

- **١٤ يونيو ٢٠١٤**

دراسة أكاديمية بجامعة جورج واشنطن George Washington University تؤكد أن تعاليم الإسلام يتم تمثلها وتطبيقها بشكل أفضل في المجتمعات الغربية، منها في الدول الإسلامية التي فشلت في تبني وتطبيق قيم الإسلام في السياسة والأعمال والقانون والمجتمع.

كشفت الدراسة التي شملت ٢٠٨ بلدًا وإقليمًا، ونشرت نتائجها صحيفة تليجراف البريطانية *The Telegraph* بتاريخ ١٠ يونيو ٢٠١٤، أن الدول الأعلى في الإنجازات الاقتصادية والقيم الاجتماعية المؤسسة على القيم الإسلامية كالعدالة والمساواة (المراكز العشرة الأولى) هي على الترتيب: أيرلندا، الدنمرك، لوكسمبورج، السويد، بريطانيا، نيوزيلندا، سنغافورة، فنلندا، النرويج، وبلجيكا.

أما أول دولة ذات أغلبية مسلمة في القائمة فهي ماليزيا، وجاءت في المركز الثالث والثلاثين، بينما جاءت الكويت في المركز الثاني والأربعين، والإمارات العربية المتحدة في المركز الرابع والستين، والمملكة العربية السعودية في المركز الثاني والتسعين، ومصر في المركز الثامن والعشرين بعد المائة، وإيران في المركز التاسع والثلاثين بعد المائة، والسودان في المركز التسعين بعد المائة!

ومع تحديث القائمة تراجع ترتيب معظم الدول الإسلامية، حيث احتلت السعودية مثلاً (بلد الحرمين الشريفين) المركز رقم الواحد والثلاثين بعد المائة.

يقول «حسين عسكري» Hossein Askar، وهو أستاذ (من أصل إيراني) للأعمال والشؤون الدولية بجامعة جورج واشنطن: «الأقطار المسلمة تستخدم الدين كأداة لسيطرة الدولة ... ويجب أن نؤكد أن العديد من البلدان التي تدعي الإسلام وتُسمى إسلامية هي بلدان ظالمة وفاسدة ومتخلفة، وهي في الواقع ليست إسلامية مهما جنح بنا الخيال!».

كيف انحصر مفهوم الإسلام في بلداننا ونفوسنا إلى هذا الحد؟ كيف انحصر من مفهوم شامل للحياة البشرية في جميع اتجاهاتها، بل مفهوم شامل للكون والحياة والإنسان، لكي يصبح مجرد مظاهر شكلية وعبادات يؤديها المسلم بشكل نمطي وتفرغها بلداننا من جوهرها ومغزاها؟

(٨٣) أطفال الشوارع ... الحل البرازيلي!

- **٢٢ يونيو ٢٠١٤**

أسوأ ما يمكن أن يحدث لك هو أن تُنتزع من طفولتك، أن تستيقظ ذات صباح لتفاجأ أن كل خلايا البراءة في داخلك قد ماتت، قد دُمرت ... لماذا؟ لأن ثمة مجتمعًا أبى إلا أن يدنس دواخلك، لتصبح بلا عقل، بلا مبادئ، بلا طُهر، بلا حب، بلا أخلاقيات أو مُثل أوجبها الخالق لترتقي بها أرواح البشر فوق سواد قلوبهم، فإذا ما أثمر الفساد مشردًا ناقمًا على مجتمعه ومهددًا له، راح البعض يبحث عن حلول لما تُسببه من مشكلات تؤرق مضاجعهم، لا بمراجعة سياسات المجتمع وأطماعه ومتاجرته بك في سوق النخاسة السياسي، وإنما باستلهام تجارب الآخرين في كيفية التخلص منك! نعم، الطفولة هي براءة القلب والروح والعقل من أحقاد وكراهيات وجهالات ما أنزل الله بها من سلطان، هي طُهر النفس من صراعات تتوارى في الداخل العفن لتلقي بروائحها الكريهة في وجوه الناس، وطُهر العقل من غباء يقودهم إلى سفك الدماء وقطع الأرحام ولفظ بذاءاتهم في البيوت والشوارع والطرقات، بالأفعال والكلمات! يُولد الطفل بريئًا طاهرًا من هذه الكراهيات والجهالات، ثم يعمد مجتمعه إلى تلويثه، لا بالبذاءات فقط، بل بالغباء والجهل المستتر خلف عباءة الدين أحيانًا، وخلف عباءة الفكر الأناني الجهول الزائف أحيانًا أخرى! ثم يأتي الحل: استلهام التجربة البرازيلية (الاصطياد والتطهير، الإعدام بالطريقة ذاتها التي يتم بها إعدام الكلاب الضالة توقيًا للأخطار والأضرار الناجمة عنها، بدلاً من برامج التأهيل عالية التكلفة!). هذا ما اقترحه أحد الزملاء من

الأكاديميين بإحدى الجامعات الإقليمية في مقال له نُشر بجريدة «المصري اليوم» بتاريخ ٢٠ يونيو ٢٠١٤ تحت عنوان: «أطفال الشوارع: الحل البرازيلي»، مؤكدًا أن هذا الحل (المرهون بإرادة الإصلاح لدى القيادة السياسية) هو الدرس الذي ينبغي أن يعيه كل من يحاول أن يتعلم شيئًا ما من التجربة البرازيلية! وكأنه يستدعي من ذاكرة التاريخ أسوأ برامج الانتخاب البشري: اليوجينيا Eugenics، وهي حركة ذات أهداف سياسية واجتماعية، كان لها من النتائج غير الأخلاقية ما وسمها بسوء السمعة، حتى بعد أن تطورت إلى علم قائم بذاته في عالمنا المعاصر، يعمل على تحديد مواقع آلاف الجينات المُسببة للمرض في الإنسان، وإخضاعها لتشخيصات دقيقة، تبشر بالوصول إلى علاجات لها كان الأمل فيها ضعيفًا حتى وقت قريب.

بدأت هذه الحركة في بريطانيا ببرنامج للتكاثر البشري وضعه الفسيولوجي والأنثروبولوجي الإنجليزي «فرانسيس جالتون» Francis Galton (١٨٢٢ – ١٩١١) – وهو ابن خال «تشارلز داروين» Charles Robert Darwin (١٨٠٩ – ١٨٨٢) – وأطلق عليه سنة ١٨٨٣ اسم «علم تحسين النسل» (أو اليوجينيا)، وهي كلمة من أصل يوناني تعني «كريم المنشأ» أو «ابن عائلة». ولا يقتصر الهدف من هذا البرنامج على إيقاف الانحلال والتدهور المفترض في المخزون الجيني البشري، بل يتعداه إلى تحسين الصفات الجسمية والفكرية للأجيال المقبلة وفقًا لتقدير موضوعي لقيمتها.

لاحظ «جالتون» أن إنسانيتنا المفرطة قد أدت إلى كون شفرة الانتخاب الطبيعي ثُلمة، وما علينا إلا أن نشحذ هذه الشفرة مثلما يفعل مُربي النباتات والحيوانات، حين يستبعد المجرم والضعيف والمريض والعاجز من أفراد تلك الأنواع، ليستبقي وينمي منها ما يتمتع فقط بصفات مرغوبة لصالح النوع. وكان اقتراح «جالتون» في هذا الصدد هو ضرورة تدخل الدولة للحد من فرص الزواج والتكاثر بين أفراد الطبقات الأدنى في المجتمع، لاسيما أولئك الذين يتسمون بنزعات إجرامية، أو يعانون اضطرابات جسمية أو عقلية موروثة تنتقل بالضرورة إلى ذرياتهم. أما أفراد

الطبقات الأعلى، الذين يتمتعون بمكانة اجتماعية مميزة، وبنقاء واضح في التركيب الجيني، فلابد من حفزهم على التزاوج والتوالد، استجابة لقانون الانتخاب الطبيعي، وعملاً على تقدم المجتمع ببقاء الأصلح والأكثر قدرة على التكيف وتطويع الواقع. وبعبارة أخرى، إذا كانت الطبقات العليا الاقتصادية – فيما يقول «هكسلي» – لها من القدرة ما ليس لغيرها، أو على الأقل لها من المقدرة ما يؤهلها للنجاح في نظامنا الاجتماعي، إلا أنها لا تتناسل بسرعة حتى يمكن أن تحل ذريتها محلها. ومن ثم علينا أن نسعى إلى علاج هذا الوضع، بالنصح الديني والاستعانة بالوطنية من جهة، وبإعطاء الرواتب الإضافية لأصحاب العائلات، وتخفيض نفقات التعليم، وإنقاص ضريبة الدخل من أجل الأبناء من جهة أخرى. أما الطبقات الدنيا – وهي أقل قدرة من غيرها – فتتناسل بسرعة كبيرة جدًا نسبيًا، وبالتالي علينا أن نعلمها طرق تحديد النسل، وألا نسمح بمساعدتها وباستفادتها من العلاج بالمستشفيات، حتى لا يكون في القضاء على آخر عائق في سبيل الانتخاب الطبيعي ما يُسهل إنجاب الأطفال أو بقاءهم. ويجب أن يكون التعطل ذريعة لتعقيمها، أو على الأقل تتوقف المساعدة على عدم الإكثار من إنجاب الأطفال، وهكذا. وكان من الطبيعي أن تلقى هذه الأفكار قبولاً وترحيبًا من الساسة والحكام ذوي الاتجاهات القومية العرقية، لاسيما خلال الربع الأول من القرن العشرين، حيث كانت جذوة الصراع مشتعلة بين قوميات مختلفة تسعى للحفاظ على هويتها وتأكيد نقائها العرقي. وهكذا انعقد المجلس الدولي الأول لتحسين النسل في لندن العام ١٩١٢، ليتخذ من «ونستون تشرشل» Winston Churchill (١٨٧٤ – ١٩٦٥) نائبًا إنجليزيًا للرئيس، ومن «تشارلز إليوت» Charles Eliot (١٨٣٤ – ١٩٢٦) – رئيس جامعة هارفارد وقتئذ – نائبًا أمريكيًا للرئيس، وليضم في عضويته عددًا من أكبر علماء الجينات والاجتماع في ذلك الوقت. وكما يمكن أن نتوقع، جاءت نتائج ما وضعوه من برامج لتحسين النسل فاجعة ومُروعة؛ ففي بريطانيا طُبقت هذه البرامج على الطبقات الدنيا والوسطى في المجتمع، خشية

تكاثر السكان من أبناء الطبقة العاملة الفقيرة جينيًا، ومن ثم تدهور سلسلة النسب للعائلات البريطانية العريقة، فتم بذلك استبعاد أولئك الذين لديهم استعدادات وراثية – جسمية أو عقلية أو مهنية – ضعيفة: إما بإرسالهم إلى ميادين القتال، أو بإخضاعهم للتعقيم الجبري، في حين تمت العناية بالخبراء والأذكياء وذوي المواهب لدورهم في تقدم المجتمع. وكمثال على تباين الروى بشأن هذه البرامج بين علماء تحسين النسل – مع ثبات الهدف – نجد أن أحدهم، وهو «ماجور ليونارد داروين» Major Leonard Darwin (١٨٥٠ – ١٩٤٣) – الابن الرابع لتشارلز داروين – كان معارضًا بقوة في كتابه «*تقويم لعلم تحسين النسل*» لتقديم المنح الدراسية للنبهاء من أطفال الطبقات الأدنى، متعللاً بأن مثل هؤلاء الأطفال إذا ما رُقوا بمعارفهم التربوية المكتسبة إلى الطبقات الأعلى، فسوف تقل خصوبتهم، في حين أنهم لو تُركوا على حالهم، فمن المحتمل أن يكون لهم أطفال أكثر في المستقبل، ومن ثم تنمو وتنتشر جيناتهم المرغوبة. هذا فضلاً عن أن وجود هذه المنح الدراسية يُسبب إزعاجًا لآباء الأطفال من الطبقات الاجتماعية الأعلى، لما سيجدونه من منافسة قوية ممن هم دونهم، ومن ثم تقل خصوبتهم التي هي قليلة بالفعل!

ولم يختلف الحال كثيرًا في الولايات المتحدة، ففيما بين عامي ١٩٠٧ – ١٩٣٠ أقرت ثلاثين ولاية أمريكية قوانين تسمح بالتعقيم الإجباري للمجرمين والمصابين بأمراض عقلية، ومع منتصف سنة ١٩٣٠ كان حوالي ٢٠,٠٠٠ أمريكي قد خضعوا للتعقيم ضد رغبتهم، سعيًا للتخلص من جيناتهم المنحطة. من جهة أخرى كان هناك إجماع بين علماء تحسين النسل الأمريكيين على خطورة موجات الهجرة المتتالية من أقطار أوربية – شرقية وغربية – على النقاء العرقي للمهاجرين الأوائل، الأمر الذي حدا بالكونجرس سنة ١٩٢٤ إلى أن يُصدر قراره «سيء السمعة» بتقييد عمليات الهجرة إلى الولايات المتحدة. وما زال المجتمع الأمريكي حتى الآن يعاني

أفكارًا من هذا القبيل، الأمر الذي يضع علامات استفهام كبيرة أما االدعاوى الكلامية الأمريكية التي تتغنى بحقوق الإنسان.

أما في ألمانيا فلا يخفى علينا العُمق الذي غرقت فيه النازية بتطبيقاتها لأفكار علم تحسين النسل. فقد تشرب الزعيم النازي «أدولف هتلر» Adolf Hitler (١٨٨٩ – ١٩٤٥) هذه الأفكار – أثناء سجنه – من كتابي: «يوجين فيشر» Eugen Fischer (١٨٧٤ – ١٩٦٧): «*مبادئ الوراثة*» *Principles of Human Heredity* و«*علم صحة السلالة*» *Race Hygiene*، وهو ما انعكس بقوة بعد ذلك في اهتمامه بالنقاء العرقي للجنس الآري، والمنع القانوني للتزاوج بين الآريين واليهود «المنحطين» من جهة، وبين الأوربيين الغربيين والسود من جهة أخرى.

وعندما قويت شوكة النازية سنة ١٩٣٣، شرعت في التعقيم الجبري المنظم للمصابين بالشيزوفرانيا (الفصام العقلي)، والمصابين بالصراع، والمتخلفين عقليًا، أما الطفل المشوّه أو المعوَّق فقد تم التخلص منه بسهولة. وقد قُتل بهذه الطريقة ما يقدر بحوالي ٥٠٠٠ طفل، كما استُهدف ما يقرب من ٧٠,٠٠٠ شخص مريض عقليًا وتعرضوا للقتل دون هوادة.

انتهت حركة تحسين النسل رسميًا، ولكنها ظلت تعمل في الخفاء بأيدٍ سياسية ملوثة، وها نحن نجد من يريد بعثها في وطن تموج شوارعه بأكثر من مليوني طفل مشرد! لم يسأل الكاتب نفسه – بغض النظر عن حقيقة التجربة البرازيلية – لِم قرَّر هؤلاء الأطفال أن يهيموا على وجوههم في الشوارع؟ لم يستحضر صور من يفتشون منهم في مقالب النفايات بحثًا عن الطعام، ولا من يواجهون منهم وحشية الشرطة، والاغتصاب، والعنف الأسري والمجتمعي، والأمراض الناجمة عن التلوث وسوء التغذية ... فاته أن المجتمع الذي نبذهم سينبذ قطعًا ما يفوق عددهم إن لم يواجه سياساته وفساده وكافة برامجه التعليمية والدينية والأخلاقية ... إن لم يراجع نخبته الزائفة التي دمرته عبر عقود طويلة خلت!

(٨٤) أين فنانو ومثقفو العرب؟!

- **٣١ يوليو ٢٠١٤**

بتاريخ الحادي والثلاثين من يوليو سنة ٢٠١٤، نشرت جريدة الجارديان البريطانية خبرًا مؤداه أن مجموعة من أشهر نجوم السينما في إسبانيا، من بينهم «بينيلوب كروز» Penélope Cruz، «بيدرو المودوفار» Pedro Almodóvar، و«خافيير باردم» Javier Bardem، قاموا بنشر رسالة مفتوحة في إحدى الصحف الإسبانية ينددون فيها بالقصف الإسرائيلي لغزة. وتدعو الرسالة الاتحاد الأوروبي إلى «إدانة القصف المتواصل برًا وبحرًا وجوًا ضد السكان المدنيين الفلسطينيين في قطاع غزة». وتستطرد الرسالة: «غزة تعيش هذه الأيام رعب الحصار والهجوم عن طريق البر والبحر والجو ... منازل الفلسطينيين يجري تدميرها بقسوة، فضلاً عن حرمانهم من الماء والكهرباء، حتى المستشفيات والمدارس والحقول لم تسلم من القصف، بينما يقف المجتمع الدولي متفرجًا لا يفعل شيئًا»! وقد عبَّر الموقعون على الرسالة عن أسفهم لأن الآثار «المادية والمعنوية والنفسية» الناجمة عن الهجمات المتتالية على شعب غزة، تدعو فورًا إلى وضع حد للحصار الإسرائيلي الذي يقيد ما يمكن مروره عبر الحدود مع غزة.

مجموعة أخرى من المشاهير، من بينهم «كين لوتش» Ken Loach، «مايك لي» Mike Leigh، «آكي كوريسماكي» Aki Kaurismäki، «جون بيرغر» John Berger، «براين إينو» Brian Eno، «روجر ووترز» Roger Waters، «ليز لوكهيد» Liz Lochhead، «مايكل أونداتجي» Michael Ondaatje، و«كاريل تشرشل» Caryl Churchill، انضموا مؤخرًا إلى مجموعة من المحامين والسياسيين وغيرهم في الدعوة إلى «حصار عسكري ملزم ... شامل وقانوني على إسرائيل، مماثل لذلك الحصار الذي فُرض على جنوب أفريقيا إبان فترة الفصل العنصري»!

ويبقى العرب والمسلمون في سُباتهم ينعمون!

(٨٥) بضائع فيسبوكية!

- **٤ أغسطس ٢٠١٤**

ما الذي أصاب مصر والعالم العربي؟ سؤال يمكن أن تجد إجابته بسهولة إذا تصفحت الفيس بوك؛ الأمر شبيه بدخولك أحد الأسواق التجارية التي تعمل بلا ضابط ولا رابط، كلٌ يعرض بضاعته، الغث منها والثمين، المزجاة وغير المزجاة، الجديدة ومنتهية الصلاحية. وكلٌ يُثمن بضاعته وفق رؤيته، ويُثمنها الآخرون وفق بضائعهم المعروضة والكامنة بالقوة في دواخلهم؛ منشورات تُخفى خلفها أعينًا تفيض من الدمع، ووجوهًا تعلوها الضحكات، وعقولاً أعياها الفكر وأثقلها الوطن همًا، وأخرى انعكس عليها فراغ الواقع وزيف الحياة! هذا ينتقد وذاك يُحلل، هذا يمدح وذاك يسب، هذا يُروج للأباطيل وذاك يلتمس صدق الوقائع، وهذا يجدّ وذاك يلهو ويلعب! فإذا سئمت من هذا العالم الافتراضي الذي اكتسبت فيه وجودًا افتراضيًا يحفل بالمفارقات، وأردت أن تشاهد عرضًا حيًا وعبثيًا للمتناقضات، فما عليك إلا أن تتجول في أحد الشوارع الشعبية، أو تتابع وسائل الإعلام العربية، أو تتأمل أقوال وسلوكيات الناس من حولك، وقتئذ ستشاهد عن قرب، وبلا مساحيق فيسبوكية، أزمة الوجود الحقيقية التي نعيشها (أطفالاً وشبابًا وكهولاً)، أزمة اللايقين الحياتي، والقلق اللانهائي، والجهل المقدس، والعبث المهيمن، والوعي المنسحق على محطات الغنى وأرصفة الفقر، والأمل المتخثر في شرايين الواقع، الأمل في حياة غير الحياة، ووجود غير الوجود!

(٨٦) تعس عبد المنصب!

- **٢٣ أغسطس ٢٠١٤**

من يطلب المنصب يدرك في قرارة نفسه أن قيمته الوحيدة هي ذلك المنصب، لذا تراه يسعى إليه بلهفة تسيطر على كافة أفعاله وأقواله وعلاقاته بمن حوله، فإن

أدركه بات عبدًا له، مملوكًا لمن منحه إياه، خاضعًا لشروط المحافظة عليه، وكلما أغراه بريق القيمة الزائفة ازدادت المسافة اتساعًا بينه وبين الوطن، وبينه وبين الآخرين، وإن افتقده أصبح ساخطًا على الوطن وعلى الآخرين، لتغدو المسافة أكثر اتساعًا!

(٨٧) لا دهشة!

- <u>**٢٥ أغسطس ٢٠١٤**</u>

تبدأ المعرفة الإنسانية على تنوعها بالدهشة، وأبسط تعريف للدهشة أنها الشعور بمقاومة عالم خارجي لمفاهيمنا، أو خروج ظواهره عن مألوف خبرتنا ومعتقداتنا.

بعبارة أخرى، هي حالة نفسية عقلية مصحوبة بالتوتر والحيرة وشيء من الألم أحيانًا، يواجهها الفكر عندما يعجز عن استيعاب وتمثل ظاهرة أو معطى وتصنيفه ضمن البنيات والمقولات المعروفة له مسبقًا، فينشأ صراع وتحد معرفي داخلي يدفع المرء إلى محاولة تجاوزه بمعرفة جديدة مقبولة لدى العقل. ورغم تسارع تحولات الواقع من حولنا منذ ما يُعرف بالربيع العربي، وكلها تحولات تثير الدهشة، فإن ما يُدهشني هو افتقاد غالبية العرب والمسلمين للدهشة!

لا دهشة إزاء الجهل، لا دهشة إزاء الموت، لا دهشة إزاء الدماء، لا دهشة إزاء الغلاء، لا دهشة إزاء التخريب، لا دهشة إزاء البلطجة، لا دهشة إزاء الظلم، لا دهشة إزاء الفساد، لا دهشة إزاء افتقاد الدهشة!

لماذا أصبحت الدهشة مجرد تذكار، مجرد بقايا متجمدة للماضي البعيد؟ لماذا نتكيف خاضعين إزاء واقع يؤلمنا؟

كيف ومتى سُرقت منا الدهشة وحماسة المواجهة من أجل المعرفة، من أجل واقع أفضل؟

(٨٨) رسالة ديفي آتشاريا إلى جورج أورويل

- **١ سبتمبر ٢٠١٤**

ماذا لو طبقنا التجربة في مكتباتنا (مكتبة الإسكندرية مثلاً) ... ربما كانت التجربة أكثر إثارة ... سلبًا أو إيجابًا!

تقوم مكتبة الكونجرس كل عام بدعوة النشء الذين تتراوح أعمارهم بين التاسعة والثامنة عشرة للمشاركة في كتابة رسائل موجهة إلى كبار الكتّاب والروائيين، موتى كانوا أم أحياء. وقد ذهبت جائزة هذا العام (٢٠١٤) إلى الطالبة «ديفي آتشاريا» Devi Acharya، وكانت تخاطب في رسالتها الروائي الإنجليزي الشهير «جورج أورويل» George Orwell (١٩٠٣ – ١٩٥٠) صاحب روايتي «*مزرعة الحيوانات*» و«*١٩٨٤*».

وهذا نص رسالتها التي نشرتها بتاريخ ٣١ يوليو ٢٠١٤ «إيرين ألين» Erin Allen الكاتبة والمُحررة في مكتب اتصالات مكتبة الكونجرس خلال الفترة من يونيو سنة ٢٠٠٦ إلى يناير سنة ٢٠١٧، ومديرة مدونة المكتبة على الإنترنت. وقد ترجم الرسالة محمد الضبع:

«كنتَ على حق، كنتَ على حق، كنتَ على حق، أنا آسفة لأنني لم أتوصّل لهذا الفهم من قبل، أشعر بأنني حمقاء وأنا أكتب إليك، لماذا قمت بنشر كتبك تحت تصنيف روايات الخيال؟، كيف للخيال الذي تتحدث عنه أن يكون الواقع الذي يحدث خارج بيتي كل يوم! يجنح الناس دائمًا للحديث بغضب عن طغاةٍ وهميين، والحقيقة أن الواقع المرير الذي نخافه ونشمئز منه يلتفّ حولنا ويُشيّد فوقنا من دون أن نشعر، وقريبًا لن تتبقى سوى قلعة واحدة، سوى معقل أخير يحطم كل أمل للحب أو العاطفة الإنسانية، ويسجن داخله كل مواطن بشري بسلاسل القانون دون مبالاة. قرأت روايتك (*مزرعة الحيوانات*) عندما كنت صغيرة – لم أفهمها حينها، كنت أظنها مجرد حكاية مسلية، في كل يوم أرى فيه القمع على شاشات

الأخبار، في الشوارع، وفي منزلي، في كل يوم أرى فيه المستضعفين وهم يحاولون إسقاط حكّامهم، لقد كنت أشبه بالعمياء في السابق، ولكنني تداركت ما فاتني وعدت للتأمل، عدت لتأمُل الناس والأمكنة، لتأمُل الدوافع وردود الأفعال، حاولت أن أجمع ما استطعت من قطع عالمي المتناثرة باتباع الخريطة التي أبدعتها أنت، ثم ظهرت روايتك (١٩٨٤) وكانت المفتاح الذي أدار القفل في عقلي، وسمح لي باكتشاف الحقيقة، بالعثور على الحذر الذي كنت بحاجة إليه، رأيت أوجه القساوسة في أحقر البشر، رأيت النفاق، رأيت خطط التخويف، شركات الدعاية الكبرى، ورأيت الجنون، رأيت الألم، رأيت الإرهاب الحقيقي كما هو، ورأيت الأكثر هولًا منه، والأكثر إماتة ورعبًا!

والآن ماذا سأجد عندما أغامر وأخرج من جنتي الصغيرة؟ طائرات تحوم من دون طيّارين حول المنطقة، هواتف ترصد كل حركة، محادثات مسجلة للبحث عن أدنى شبهة، ورغم كل هذا يبدو أن الجميع يشعر بالرضا! الفضائح تنتشر فجأة، وتختفي فجأة، أصبحنا نحلم بالعيش في عصر يسيطر عليه الأبطال الخارقون والرجال أصحاب المسدسات والأسلحة، ليوقفوا كل هذا الدمار في لمح البصر! أنا يا سيدي، لا أؤمن بفساد كل عناصر المجتمع، ولا أعتقد أن علينا محوها وتحطيمها، أنا أحب هذا العالم، وأريد حمايته، أنا أقول (كما كنت تقول دائمًا): على البشر أن يحذروا ويراقبوا عالمهم بدلاً من الانشغال في أداء واجباتهم وإفراغ متعهم فقط، وهذا ما دفعني إلى كتابة رسالتي إليك – لأقول لك: (للمرة الأخيرة) إنك كنت على حق، كنت على حق عندما كتبت مؤلفاتك، على حق عندما فعلت كل ما فعلت لجعل العالم مكانًا أفضل، وها أنا ذا أبدأ أولى خطواتي في عالم الكتابة، وأصف العالم من حولي كما كنت تفعل، أتمنى أن أصبح مثلك، متأملةً تسير وتروي قصصها للجميع، وتحاول أن تساعد هذا العالم علّه يستجيب، إنك ملهمي، وكلماتك سيتردد صداها في هذا العالم لقرون مقبلة .. وداعًا الآن ..»!

(٨٩) نقل رسالة تخاطر لمسافة ٨,٠٠٠ كيلومتر!

- <u>٧ سبتمبر ٢٠١٤</u>

بعيدًا عن السياسة ونكدها، وعودة إليها! ... لأول مرة، فريق بحثي دولي ينجح في نقل رسالة من دماغ شخص في الهند إلى أدمغة ثلاثة أشخاص في فرنسا!

كانت العلاقة بين العقل والجسد – وما زالت إلى يومنا هذا – محورًا أثيرًا للبحث الفلسفي والعلمي عبر مراحله المختلفة. ولعل السؤال الأساسي الذي تعددت إجاباته دون إشباعٍ كافٍ هو: كيف يرتبط العقل ككيان مفارق بالجسد ككيان مادي؟ لتبسيط الأمر يمكن تمثيل العلاقة بين العقل والجسد بالعلاقة بين السوفت وير (برمجيات الحاسوب) والهارد وير (عتاد الحاسوب) ... ما هي ماهية السوفت وير؟ ما هي أنطولوجيته؟ أليس هو كيانٌ مفارق لا محسوس؟ أين تجده؟ هل تستطيع لمسه بيديك؟ هل تستطيع استخراجه من القرص المضغوط إذا ما قمت بتحطيم هذا الأخير؟ وهل يختلف وزن القرص المضغوط في حالة حمله للسوفت وير عنه في حاله خلوه منه؟ ألا تكون حالة الهارد وير غير الحامل للبرمجيات مماثلة لحالة الجسد حين يغيب عنه العقل (في حالتي فقدان الوعي أو الموت مثلاً)؟ وإذا كنا نستطيع نقل البيانات من حاسوب إلى آخر يبعد مئات الأميال عنه، ألا نستطيع نقل البيانات والمعلومات من دماغ بشري إلى آخر مهما اتسعت المسافة بينهما؟ هذه التساؤلات وغيرها كانت ومال زالت هي الشغل الشاغل للعلماء منذ سنوات طويلة، ولأول مرة ينجح فريق بحثي في نقل رسالة من دماغ شخص في الهند إلى أدمغة ثلاثة أشخاص في فرنسا! وهو ما تم الإعلان عنه يوم الأربعاء الموافق الثالث من سبتمبر ٢٠١٤. ضم الفريق العلمي باحثين من مركز شماسة بيث إسرائيل الطبي بكلية هارفاد الطبية Harvard Medical School's Beth Israel Deaconess Medical Center، وشركة ستارلاب في برشلونة بإسبانيا Starlab Barcelona، وشركة

آكسيلوم روبوتكز Axilum Robotics بفرنسا، حيث أعلن الفريق عن نجاحه في نقل رسالة تخاطر لمسافة ٨,٠٠٠ كيلومتر!

يقول أحد أعضاء الفريق البحثي: لقد أردنا معرفة ما إذا كان من الممكن التواصل الذهني بين شخصين عبر مسافات ضخمة بقراءة النشاط الدماغي، وكانت وسيلتنا في ذلك هي الإنترنت. وقد حقق الفريق إنجازه الأول على مستوى العالم بربط أحد المشاركين (الباعث) The Emitter بجهاز أطلق عليه اسم الحاسوب القطبي القائم على الدماغ Electrode-based brain-computer (BCI)، حيث يمكن لهذا الجهاز تفسير الإشارات الكهربائية الدماغية وترجمتها إلى شفرة ثنائية تشبه الشفرات المستخدمة في الحاسوب، لكنها أكثر إحكامًا!

في رأيي أن هذا الإنجاز العلمي الفريد من شأنه أن يفتح آفاقًا جديدة للبحث في العلاقة بين العقل والجسد، وأيضًا في العلاقة بين الإنسان والحاسوب.

أعود إلى همومنا العربية فأقول:

هم يبحثون في المستقبل ونحن نبحث في الماضي، هم ينتهجون العلم والبناء سبيلاً ونحن ننتهج الجهل والتدمير، هم يعملون من أجل الحياة ونحن نعمل من أجل الموت، إسرائيل تحاربنا بالبحث العلمي ونحن نحاربها بالدعوات والدروشة وتخدير العقول ... يبدو أن الكهرباء لا تنقطع عندهم!

(٩٠) ما أكثر الستائر في وطني!

- **<u>١١ سبتمبر ٢٠١٤</u>**

جهلة وأغبياء، كل امرئ منهم يُخفي جهله وغباءه وراء ستارة بعينها؛ ستارة الدين، ستارة المال، ستارة الشهادات، ستارة المنصب، ستارة المكانة الاجتماعية، ستارة العادات والتقاليد، ستارة الثقافة الزائفة والعلم الزائف، ستارة الشهرة، ستارة الثورة، ستارة الحكمة والشعر الأبيض، ستارة الصوت العالي، ستارة جهل الآخرين ... إلخ. ما أكثر الستائر في وطني، وما أقبح ما تخفيه!

(٩١) عروبة الفساد!

- **١٨ أكتوبر ٢٠١٤**

في آخر تقرير لها لسنة ٢٠١٣، صنفت منظمة الشفافية العالمية لقياس الفساد (ومقرها برلين) كلاً من السودان وليبيا وسوريا والعراق واليمن بين الدول الأكثر فسادًا من جملة ١٧٧ دولة شملها القرير، فيما احتلت مصر المركز رقم ١١٤بعدد نقاط ٣٢. تُصنف الدول وفقا للتقرير على سُلم يتدرج من صفر إلى مائة، حيث يكون البلد المصنف بدرجة صفر الأكثر فسادًا، حيث حصلت ٨٥ ٪ من الدول العربية التي شملها التقرير (١٣ دولة) على أقل من ٥٠٪، وتأرجحت الأكثر فسادًا منها بين الدرجتين ١٠ و١٩، بينما جاءت الدنمارك ونيوزيلندا ولوكسمبورغ وكندا واستراليا وهولندا وسويسرا وسنغافورة والنروج والسويد وفنلندا في أعلى التصنيف، وتراوحت درجاتها بين ٨٠ و٨٩.

الملاحظة الجديرة بالاعتبار إزاء هذا التقرير هو عروبة وإسلامية الدول الأكثر فسادًا! إن ما بينها وبين الدول التي تربعت على قمة النزاهة والشفافية مسافة تضعك في حيرة ودهشة، فالأدبيات الدينية والأخلاقية والتربوية التي تتلقاها شعوب الدول الأولى مقارنة بالثانية من شأنها أن تؤدي إلى النقيض!

لا توجد في دول النزاهة والشفافية آلاف المساجد التي يأمر خطباؤها بالمعروف وينهون عن الفحشاء والمنكر! لا يوجد بها وزارات للأوقاف والشؤون الدينية، ولا أزهر تتبعه جامعة بها عشرات الكليات التي تحمل اسم الشريعة! لا يوجد بها قنوات فضائية دينية تحفل بمئات الوُعاظ! لا توجد بها روابط أسرية ومجتمعية كتلك التي تتسم بها مجتمعاتنا العربية الإسلامية! لا تقرأ شعوبها القرآن ولا السنة على ما فيهما من هدي وتشريعات ... إلخ.

أين الخلل إذن؟ في العلم؟ في الثقافة؟ في التربية؟ في الحرية والديموقراطية؟ في العدالة الاجتماعية؟ أم في الإنسانية بشكلٍ عام؟!

(٩٢) كم كتابًا قرأ وزراؤنا؟!

- **٤ نوفمبر ٢٠١٤**

مطالبات بإقالة وزيرة الثقافة الفرنسية
بعد اعترافها بأنها لم تقرأ أي كتاب منذ سنتين!

بعدما تناولت طعام الغداء مع الأديب الفرنسي «باتريك موديانو» Patrick Modiano، الحائز على جائزة نوبل في الأدب لعام ٢٠١٤، اعترفت وزيرة الثقافة الفرنسية «فلور بيليرين» Fleur Pellerin لإحدى القنوات التلفزيونية (قناة كانال + Canal ليلة الأحد ٢٦ أكتوبر ٢٠١٤) بأنها لم تستطع تسمية أي كتاب له، وأن مهامها كوزيرة حالت دون أن تقرأ أي كتاب طوال العامين الماضيين!

ورغم دفاعها عن نفسها بأنها تقرأ الكثير من البيانات والأوراق القانونية والأخبار ولا تجد أي وقت لتقرأ كتابًا، ثار الفرنسيون في وسائل الإعلام وعلى مواقع التواصل الاجتماعي مطالبين بإقالتها، ونعتها البعض بوزيرة الثقافة غير المثقفة، بينما حذر آخرون بأن فرنسا تقترب من حالة الهمجية!

تُرى كم مرَّ من أعوام ولم يقرأ وزراؤنا وسياسيونا وكتابنا وأساتذتنا وإعلاميونا كتابًا؟ وهل يمكن أن يطالب العرب بإقالة وزير لأنه لم يقرأ؟ لقد تجاوزنا مرحلة الهمجية إلى مرحلة أدهى ... هل يستطيع أحدٌ تسميتها؟

(٩٣) نجيب سرور ... مين يشتري الورد؟!

- **٢١ نوفمبر ٢٠١٤**

«**نجيب سرور**» (أو: محمد نجيب محمد هجرس): شاعر مصري لُقب بشاعر العقل، وُلد سنة ١٩٣٢، وتُوفي سنة ١٩٧٨ عن ستة وأربعين عامًا. وثمة مشاهد في حياته لا تُنسى؛ فبعد خروجه من مستشفى للأمراض العقلية كان أن أودع فيها بقرار أمني، كان مريضًا بالسُل ويحتاج للعلاج، ويعيش مع زوجته الروسية وولديه: (شهدي وفريد) بدون مصدر دخل تقريبًا! اتصل به أحد المسؤولين الكبار في وزارة الإعلام

وطلب مقابلته. قطع «نجيب» المسافة من منزله بميدان الجيزة إلى ماسبيرو مشيًا ليوفر مصاريف المواصلات ... يقابله المسؤول ويطلب منه تأليف وإخراج خمسة عشر عرضًا مسرحيًا للتلفزيون المصري مقابل خمسة آلاف جنيه للمسرحية الواحدة، بشرط أن تكون مسرحيات خفيفة موجهة للجمهور التافه (يعني شوية رقص وبنات حلوة وكام إفيه كوميدي). عرضٌ مغري وواضح، ٧٥ ألف جنيه كافية لانتشال نجيب سرور من أزمته الصحية والمادية مقابل بيع قضية الوطن التي عاش من أجلها ... رفض نجيب العرض بدون تفكير وعاد لمنزله مشيًا على الأقدام من جديد ... اختار أن يبيع العالم ويشتري نفسه.

قبل وفاته بشهور، وبعد انتصار أكتوبر، وجد البلد حوله تتحول لأقصى درجات الانحطاط الفكري والاجتماعي تحت مسمي (الانفتاح) ... لم يتحمل أن يرى البلد التي يذوب فيها عشقًا تتحول إلى وكر للفساد والجهل ... قدَّم مسرحية (*أوكازيون*) على مسرح وكالة الغوري وانتقد فيها الحكومة، لكنه شعر بأن رسالته لم تصل للناس، شعر بأن خشبة المسرح لا تكفي لاحتواء موهبته وحبه الجارف لمصر، فاتخذ أغرب قرار وأقدم على أكثر تصرفات حياته جنونًا ... فوجئ به الناس في وسط ميدان التحرير ... نجم وممثل شهير يقف في أكبر ميادين القاهرة حاملاً ابنه الصغير وصائحًا: ألا أونا ... ألا تري ... مين يشتري الورد مني؟

كتب نجيب سرور عبارة (للبيع) على لافتة ثم علقها على ظهر ابنه «شهدي» الذي كان حديث العهد بالخطو، ثم وقف على الرصيف معلنًا عن بيعه مجازًا بعد أن عجز عن توفير الخبز له والحياة شبه الكريمة! ... وكم من حياة كريمة نفتقدها!

(٩٤) لماذا يستخدم الناس الفيسبوك؟!

- **<u>١ ديسمبر ٢٠١٤</u>**

الفيسبوك وسيلة مقبولة للتواصل؛ تجمع اجتماعي افتراضي دائم، مليء بالإجراءات، الأحداث، الحوارات، الفيديوهات، الصور، التجمعات النوعية، صفحات السياسة والعلم والمرح والأدب ... إلخ. لكن لماذا يفضل الناس استخدام

هذا الموقع رغم كثرة مشكلاته، وأهمها إدمان تصفحه والمكوث أمامه لساعات طويلة؟ هذه نتائج دراسة قام بها مؤخرًا كل من «أشويني نادكارني» و«ستيفان هوفمان» Ashwini Nadkarni & Stefan G. Hofmann، من جامعة بوسطن، تحت عنوان «*لماذا يستخدم الناس الفيسبوك؟*» *Why Do People Use Facebook?*، وقد توصلا إلى أن هذه الشبكة الاجتماعية العملاقة تلبي حاجتين إنسانيتين أساسيتين: الأولى هي الحاجة إلى الانتماء، والثانية هي الحاجة إلى تقديم الذات. كذلك أقرت الدراسة بالعوامل الديموغرافية والثقافية من حيث صلتها بالحاجة إلى الانتماء، وتنوع أنماط الشخصية بالنسبة لمستخدمي الفيسبوك. من جهة أخرى، تضع الدراسة تعريفًا لمواقع الشبكات الاجتماعية Social Networking Sites (SNSs) مؤداه أنها: الخدمات المستندة إلى الإنترنت التي تقدم للأفراد ثلاث قدرات رئيسة: ١) القدرة على بناء شخصية عامة أو شبه شخصية؛ ٢) تحديد قائمة من المستخدمين الآخرين الذين يمكن التواصل معهم؛ ٣) عرض وتتبع مشاركات الأفراد وغيرهم.

<u>من الذي يستخدم الفيسبوك؟</u>

قبل سنة ٢٠٠٩، كان موقع «ماي سبيس» MySpace سبَّاقًا في مجال الشبكات الاجتماعية، لكن الأفول أصابه بحلول شهر أبريل ٢٠٠٩. وفي دراسة أجرتها «استر هارجيتاي» E. Hargittai (أستاذة دراسات التواصل بجامعة زيورخ) العام ٢٠٠٨، وجدت أن ما نسبته ٢٥٪ من مستخدمي «ماي سبيس» هم طلاب من أصل لاتيني، بالمقارنة مع ما نسبته ١٤٪ فقط يستخدمون الفيسبوك (من الفئة ذاتها). لكن التركيبة الديموغرافية للفيسبوك مختلفة تمامًا؛ فالنساء أكثر ميلاً لاستخدام الفيسبوك من الرجال، والطلاب من أصل لاتيني أقل ميلاً لاستخدامه من الطلاب القوقازيين.

وفي دراسة أجراها العام ٢٠٠٩ كل من «شيري جراسموك» و«جيسون مارتن» و«شانيانغ تشاو» Sherri Grasmuck & Jason Martin & Shanyang Zhao بجامعة

تمبل الأمريكية Temple University، تبين أن الطلاب الأمريكيين من أصـــل أفريقي، واللاتينيين، والهنود، يســتخدمون الفيســبوك بشــكل أكثر كثافة من الطلاب البيض والطلاب من أصــل فيتنامي. وهذا يتماشــى مع ما توصــل إليه فريق جمع البيانات الخاص بالفيســــبوك، حيث ظهر أن ثمة زيادة مطردة في عدد مستخدمي الفيسبوك من السود ومن هم من أصل لاتيني، في حين أن ثمة تراجعًا في عدد المستخدمين الآسيويين. وقد تم استقصاء هذه البيانات من ألقاب المستخدمين على الفيســبوك، فضــلاً عن المعلومات التي تم جمعها من قبل مكتب الإحصــاء الأمريكي لمعرفة النسب المئوية للأقليات العرقية على الفيسبوك.

أنماط مستخدمي الفيسبوك:

ركزت الدراسات السابقة على المقارنة بين الشخصيات الحقيقية والوهمية على الفيســبوك، وكذلك على مســتويات النشــاط والمشــاركة وتوجهاتها. وتحوي المشــاركات على الفيسبوك العديد من العناصــر الافتراضية، بما في ذلك الصــور والفيديوهات والروابط وتحديثات الحالة، بالإضـــافة إلى آثار أخرى لحضـــور افتراضــي. وفي دراســة أجراها كريغ روس Craig Ross وآخرون بجامعة وندســور الكندية University of Windsor سنة ٢٠٠٩، وُجد أن أنماط الشخصية التي تم تصــنيفها كتمثيل لأعلى درجات العُصــابية Neuroticism قد أشــارت إلى حائط الفيسبوك بوصفه المكون المفضل لديهم. أما الأشخاص الأقل عُصابية فقد صرحوا بأنهم يفضلون الصور (العصابية سمة لشخصية أساسية في دراسات علم النفس، تتميز بالقلق، الخوف، النكد، القلق، الحســـد، الإحباط، الغيرة، والشـــعور بالوحدة). وفي دراســة أخرى قام بها في العام ذاته فريق بحثي آخر من الجامعة، تبين أن الأفراد الذين يتسمون بالخجل لديهم قليل من الأصدقاء على الفيسبوك، بالمقارنة مع من هم أقل خجلاً، وأن الأشخاص من الفئة الأولى (الأكثر خجلاً) يقضون وقتًا طويلاً على الفيسبوك ويحبون الشبكة الاجتماعية بشكل يفوق الفئة الثانية.

وقد أظهرت دراســة مماثلة أجريت ســنة ٢٠١٢ بجامعة جورجيا University of Georgia تحت عنوان «النرجسية ومواقع التوا صل الاجتماعي على شبكة الإنترنت» Narcissism and Social Networking Web Sites أن ثمة علاقة إيجابية بين النرجسية واستخدام الفيسبوك، لاسيما فيما يتعلق بالبروفيلات والصور، وكذلك السمات التي تتيح للمستخدمين تعزيز أنفسهم. كما أظهرت الدراسة أن أولئك الذين لديهم مستوى عال من النرجسية، والذين يعانون من انخفاض مستوى الثقة بالنفس، يقضون أكثر من ساعة يوميًا على الفيسبوك. لقد أظهر المستخدمون الدائمون للفيسبوك أن ثمة ارتباطًا بين استخدام الفيسبوك، وبين المستويات العليا من العُصابية والنرجسية، والمستويات الأدنى من الثقة بالنفس وتقدير الذات. وذهبت الدراسة أيضًا إلى أن الاستخدام المتكرر للفيسبوك قد يكون مرتبطًا بانخفاض مستوى الأداء الأكاديمي، لكنه قد يؤدي إلى ارتفاع مستوى احترام الذات والشعور بالانتماء.

<u>الفيسبوك ونموذج العامل المزدوج:</u>

نحن جميعًا نريد فحسب أن ننتمي إلى شيء ما، أليس كذلك؟ في جانب الإنترنت من حياتنا، يتيح لنا الفيسبوك معنى افتراضيًا للانتماء. وتنتهي الدراسة التي نحن بصددها إلى أن الفيسبوك يلبي اثنتين من الحاجات الاجتماعية الأساسية:

١) الحاجة إلى الانتماء؛

٢) الحاجة إلى تقديم الذات. ويرتبط احترام الذات وتقدير الذات بشكل وثيق بأول حاجة اجتماعية أساسية: الانتماء. إن استخدام الفيسبوك، بطبيعة الحال، يتأثر أيضًا بالعوامل الاجتماعية والديموغرافية والثقافية. وتميل الإناث والأقليات العرقية إلى استخدام الفيسبوك أكثر من الذكور والقوقازيين.

هذا الجزء الأخير من الدراسة يركز على استخدام الفيسبوك في الحالات الفردية، حيث يميل الأفراد إلى التركيز على الإنجازات الفردية والنجاح، وذلك في

مقابل الثقافات المشتركة، والتي تركز على الانسجام داخل المجموعة. ففي هذه الثقافات يكون الفرد أقل أهمية من المجموعة. وتفترض الدراسة أن الاستخدام الفردي يكون صاحبه أكثر ميلاً لتبادل المعلومات الخاصة مع الأصدقاء، وأكثر ميلاً إلى الموضوعات المثيرة للجدل. وفي المقابل، أظهرت دراسة أخرى سنة ٢٠٠٠ أن مستخدمي الفيسبوك المندرجين في مجموعات ثقافية جماعية أكثر عرضة للاضطرابات في أعمالهم وعلاقاتهم الزوجية، وأن الفيسبوك يمكن أن يكون نظام دعم لأولئك الذين لديهم تفاعلات متكررة مع دائرة ضيقة من الأصدقاء.

وفي دراسة أخرى بجامعة كورنيل Cornell University تحت عنوان: «*مرآة، مرآة على حائطي على الفيسبوك: الآثار الناجمة عن استخدام الفيسبوك على احترام الذات*» Mirror, Mirror on my Facebook Wall: Effects of Exposure to Facebook on Self-Esteem تبين أن المعلومات التي يقدمها الشخص عن نفسه على حائطه يمكن أن تساعد في تعزيز احترام الذات.

هل يمكن إذن للفيسبوك تعزيز الثقة بالنفس من خلال قائمة من الأصدقاء دون تفاعل حي معهم. أظهرت دراسة أجراها «لو» Lou سنة ٢٠١٠ أن استخدام الفيسبوك قد يؤدي إلى انخفاض مستوى الشعور بالوحدة، لكن تحسين الحياة الاجتماعية للمستخدم لا يؤدي إلى تحسين الثقة بالنفس. وقد وجدت دراسات أخرى أن ثمة علاقة بين استخدام الفيسبوك وتحسين مستوى الثقة بالنفس، من ذلك مثلاً تلك الدراسة المسحية التي قام بها «يو» Yu وزملاؤه عن مجموعة من الطلاب في مجال الأعمال التجارية في الصين، حيث أظهرت الدراسة أن استخدام الفيسبوك كان له مردود طيب في المنتج التعليمي على المستوى الاجتماعي، بما في ذلك ارتفاع مستويات الثقة بالنفس واحترام الذات. وأشارت الدراسة إلى أن الارتباط بين استخدام الفيسبوك واحترام الذات يتسم بالتعقيد، وربما تؤشر عليه العوامل الاجتماعية والثقافية. وفي بلد تتعدد فيه الثقافات قد يُعزز استخدام الفيسبوك احترام الذات،

لكن لابد من إجراء المزيد من البحوث. ماذا إذن عن استخدام الفيسبوك والتواصل الاجتماعي؟ في دراسة أجراها كل من «شيلدون» و«أباد» و«هيرش» & Sheldon & Abad & Hirsch سنة ٢٠١١، تبين أن الاستخدام المتكرر للفيسبوك مرتبط بكل من مشاعر الترابط وعدم الترابط العام في الحياة.

خلاصة القول: الفيسبوك يفي بالحاجة إلى تقديم الذات. لقد أظهرت الدراسات أن الذات التي تصفها بنفسك على الفيسبوك ليست ذاتًا مثالية، إنها أنت بالفعل. لكن في دراسة قدمها «شيري جراسموك» و«جيسون مارتن» و«شانيانغ تشاو» Grasmuck, S. & Martin, J & Zhao, S. سنة ٢٠٠٨ تحت عنوان «بناء الهوية في الفيسبوك» Identity construction on Facebook وُجد أن «أنفسنا» التي نقدمها على الفيس كهويات مرغوبة اجتماعيًا هي تلك التي نطمح في أن نكونها، لكنها ليست حقيقية، بل هي تختلف بشكل كبير عن تلك التي نقدمها في مواقع إنترنت أخرى مجهولة.

إذا أردت أن تعرف نفسك، قدرك، أصدقاءك الحقيقيين، مدى شهرتك، مدى تأثيرك على الآخرين، مدى ما أضعته من وقت وما فقدته من متعة حقيقية في الحياة، ومدى ما تستطيع تحقيقه دون تجمل ... ابتعد لفترة عن الفيسبوك ... هل تستطيع؟

(٩٥) إنه ديسمبر!

- <u>١٤ ديسمبر ٢٠١٤</u>

إنه ديسمبر ... الشهر الذي تلملم فيه السنةُ أحداثها تأهبًا للرحيل، لتطوي عامًا آخر من أعمارنا وتدفعنا قسرًا إلى عامٍ جديد، شئنا أو أبينا ... سنةٌ مرَّت بنا، أو مررنا بها، عشناها بين دمع وضحكات، حُزن ومسرات، مواليد وأموات، انكسارات ونجاحات ... كلها باتت تاريخًا، واحتلت مواضعها في الذاكرة المثقلة بسوابقها!

لم تحمل السنة التي أوشكت على الرحيل تغييرًا فعليًا يمكن تدوينه والاعتزاز به، بل ربما ازدادت الأوضاع سوءًا! الوفاق المجتمعي غائب، والسجون مكتظة، والجهل يزداد شراسة، والتعليم المدرسي والجامعي يفتك به الإهمال ويموج بصراعات أهله، والإعلام يتجلى في أشد صوره مسخًا، وحوادث الطرق تتفاقم، والفقر والمرض يتسارعان انتشارًا، والشوارع تضربها الفوضى، والأخلاقيات تنتكس، والقوى الدولية تمسك مطمئنة بخيوط اللعبة، ووجوه عليها غبرة تطل علينا من الماضي القريب بعيون وقحة، حتى ابتسامات الود والرضا الحياتي باتت مصطنعة وزائفة ... إلخ.

سنةٌ كغيرها في ماضينا القريب وحاضرنا البعيد، بطيئة وقاسية على العالم العربي، تمضي كقطار مزدحم يأبى إلا أن يتوقف عبر رحلته في محطات تصيبك بالملل، وأحيانًا بالدهشة، لكنه كلما توقف كشف لك القناع عن كثير من أوجه المنافقين والطبالين، وعن قليل من أوجه المخلصين والصادقين، فتتأرجح بين مشاعر الاكتئاب والحزن، الخوف والرعب، الشوق والحنين، الغضب والقهر، وتتعلم مجبرًا كيف تُخبئ الجُرح بابتسامة ولو كانت حزينة ومنهكة، وكيف تودع الأحباب دون أن تعرف متى وكيف ستراهم، وكيف تواسي طموحاتك الحمقى في وطنٍ يعج بالحمقى، وكيف تختبر التوتر إزاء ارتقاء الجهل وكثافة الفساد وصراعات المصالح ... حسنًا أيها الوطن، لقد هزمتني، لكني لا أجد في أرجائك الآن مكانًا مرتفعًا أنصب عليه راية استسلامي! ... وإن غدًا لآتٍ بما فيه، لعلك تُحبذ راية انتصاري!

(٩٦) حين تقهرك المقارنة!

- <u>١٥ ديسمبر ٢٠١٤</u>

لكي لا ننسى ... حين تقهرك المقارنة وتبحث عن قيمة الإنسان في وطنك فلا تجدها!

في مثل هذا اليوم ١٥ ديسمبر سنة ١٩٩١، غرقت العبارة سالم إكسبريس المصرية في البحر الأحمر مما أسفر عن غرق ٤٧٦ شخصًا ... كانت العبارة قد

أرسلت إشارة استغاثة في الحادية عشر والربع مساءً، إلا أن أولي عمليات الإنقاذ بدأت في الساعة الثامنة صباح اليوم التالي، أي أن الركاب ظلوا في مياه باردة تصل درجة حرارتها إلى خمس درجات مئوية ليلاً، وتُركوا أكثر من تسع ساعات كاملة معرضين للمياه الباردة والرياح العاتية مع عدم وجود أدوات إنقاذ!

أما مالك السفينة الحاج «سالم عبد الرازق»، فقد ظهر بعد ستة أيام، وصرَّح بأن مسؤوليته طبقاً للقانون تتمثل في دفع التعويضات المالية لأسر الضحايا لمن يثبت وفاته بعد تمام الإجراءات، وطبقًا لما هو موضح بوثيقة التأمين، وهو خمسون ألف جنيه للمتوفي! ولم يظهر الحاج «سالم» بعد هذا التصريح، ولم يتعقبه أحد، فقد أدى ما عليه قانونًا، أما السيد رئيس مجلس الوزراء فلم يفعل سوى تكليف لجنة بمتابعة صرف تعويضات الضحايا طبقًا للقانون، على أن يتم ذلك بعد انتهاء تحقيقات النيابة تمامًا!

بعدها بسنوات، وفي الثاني من فبراير سنة ٢٠٠٦، غرقت العبارة «السلام ٩٨» في البحر الأحمر أيضًا، وعلى متنها ما يقرب من ١٣١٢ راكبًا بالإضافة إلى طاقم العبارة المكون من ثمانية وتسعين بحارًا. كان معظم الركاب مواطنين مصريين بسطاء يعملون في المملكة العربية السعودية، وبعض العائدين من أداء مناسك الحج. وتم تداول القضية على مدى واحد وعشرين جلسة طوال عامين، استمعت المحكمة خلالها لمسؤولين هندسيين وبرلمانيين وقيادات في هيئة موانئ البحر الأحمر وهيئة النقل البحري. وتم الحكم في قضية العبارة يوم الأحد الموافق ٢٧ يوليو ٢٠٠٨ في جلسة استغرقت خمس عشرة دقيقة فقط، حيث تم تبرئة جميع المتهمين، وعلى رأسهم «ممدوح إسماعيل» مالك العبارة ونجله «عمرو» وثلاثة أخرون هم: «ممدوح عبد القادر عرابي» و«نبيل السيد شلبي» و«محمد عماد الدين»، بالإضافة إلى أربعة أخرين انقضت الدعوى عنهم بوفاتهم! وفي الحادي عشر من مارس ٢٠٠٩، أصدرت

محكمة جنح مستأنف سفاجا حكمًا غيابيًا بالسجن سبع سنوات مع الشغل على «ممدوح اسماعيل»، لكن كل محاولات تنفيذ الحكم باءت بالفشل!

على نحوٍ مشابه، وفي السادس عشر من إبريل الماضي (٢٠١٤)، غرقت عبارة ركاب في كوريا الجنوبية (رابع أكبر قوة اقتصادية في العالم)، حيث خلَّف الحادث أكثر من ثلاثمائة غريق ومفقود معظمهم تلاميذ كانوا في رحلة مدرسية. بعدها بأيام قدَّم رئيس الوزراء الكوري استقالته (بغض النظر عن قبولها أو عدم قبولها)، قائلاً:

«إن صرخات أهالي الضحايا تؤرق مضجعي ... أقدم اعتذاري لأنني لم أتمكن من منع وقوع هذا الحادث، ولم أتمكن من التعامل بالشكل الصحيح مع نتائجه».

أما قائد العبارة فقد أخفى وجهه خجلاً من الصحفيين وأهالي الضحايا، مرددًا في حسرة: «أنا آسف»! وفي الحادي عشر من نوفمبر الماضي (بعد حوالي سبعة شهور فقط)، أدانت محكمة كورية جنوبية قبطان العبارة بتهمة الاهمال وقضت عليه بالسجن ستة وثلاثين عامًا. كما أدانت المحكمة كبير مهندسي العبارة بالقتل لعدم مساعدته اثنين مصابين من طاقم العبارة المنكوبة وحكمت عليه بالسجن ثلاثين عامًا. وأدين بقية أفراد الطاقم الناجين، ومجموعهم ثلاثة عشر فردًا، بتهم مختلفة بينها الإهمال، وصدرت عليهم أحكام بالسجن لمدد تتراوح بين خمسة أعوام وعشرين عامًا!

في قاعة المحكمة بمدينة جوانجو الجنوبية، تعالت صرخات وصيحات عدم التصديق أثناء تلاوة الأحكام، وانخرط بعض من أفراد عائلات الضحايا في البكاء، وصرخت امرأة «أيها القاضي هذا غير صائب!»، وصرخت أخرى «هل أرواح أطفالنا رخيصة بهذا الشكل؟ حكم الإعدام على أفراد الطاقم لا يكفي!»، وأصدرت عائلات الضحايا بيانًا بعد صدور الأحكام قالت فيه «لقد دمرتنا الأحكام الصادرة، ولم تأخذ العدالة مجراها»!

نُشرت صورة قبطان العبارة الكورية وهو يخفي وجهه خجلاً، وصورة رئيس الوزراء «شونغ هونغ» وهو يحتمي بطاقم حمايته من زجاجة مياه ألقتها عليه سيدة من أقارب الضحايا، كما نُشرت صورة ثالثة لمسؤولٍ حكومي كبير وهو يتلقى صفعة من أحد المحتجين فينحني احترامًا لمشاعر الحزن!

لك الله يا وطني ... غابت عنك العدالة ... غابت عنك قيمة الإنسان ... واستلقى الشيطان على قفاه ضاحكًا مما يبكيك!

(٩٧) ولا عزاء للبحث العلمي في وطني!

- **٢٢ ديسمبر ٢٠١٤**

«**يوشيكي ساساي**» Yoshiki Sasai (١٩٦٢ – ٢٠١٤)، عالم ياباني مرموق متخصص في الخلايا الجذعية وهندسة الأنسجة، كان أحد المؤسسين لمركز «ريكن» لعلم الأحياء التنموي في كوبيه RIKEN Center for Developmental Biology (CDB) in Kobe (معهد أبحاث رئيس لعلم الأحياء في اليابان)، ومديرًا لمختبر تخليق الأعضاء Organogenesis وتكوين الخلايا العصبية Neurogenesis بالمعهد. اشتهر «ساساي» بتطويره لمناهج جديدة لزراعة الأعضاء في بني شبيهة بالأعضاء، وهو أول باحث في الخلايا الجذعية يُنمي «قُديحًا بصريًا» Optic cup (منطقة بيضاء تُشبه القدح وتقع في منتصف القرص البصري) من الخلايا البشرية سنة ٢٠١٢. وقد نال عن أبحاثه جائزتين يابانيتين كبيرتين هما جائزة أوساكا للعلوم Osaka Science Prize وجائزة إينوي للعلوم Inoue Prize for Science.

في الخامس من أغسطس سنة ٢٠١٤ وُجد «ساساي» منتحرًا ومُدلى بحبل من رقبته داخل المعهد. وضجت الميديا العلمية ووسائل التواصل الإلكتروني بتفاصيل الخبر الذي يُجسد الضمير العلمي في أشد صوره إثارة للتأمل. كان «ساساي» يُشرف على بحث لكبيرة الباحثين بمعهد ريكن «هاروكو أوبوكاتا» Haruko Obokata (من مواليد سنة ١٩٨٣) – بمشاركة فريق بحثي من جامعة هارفارد

بالولايات المتحدة الأمريكية – أثارت نتائجه ضـــجة كبيرة في مجال علم الأحياء الجزيئي عندما نُشـــر في دورية نيتشـــر *Nature* العلمية البريطانية في يناير ٢٠١٤، حيث زعمت «أوبوكاتا» أنها توصلت لأساليب بسيطة لإعادة برمجة خلايا حيوانية ناضجة إلى حالة شبه جنينية تتيح لهم إنماء أنواع عديدة من الأنسجة، الأمر الذي يُبشر بالقدرة على استبدال خلايا سليمة بتلك المتضررة، بل واستنبات أعضاء بشرية جديدة. وما هي إلا أيام حتى بدأ المتخصصـــون يُشـــككون في مصـــداقية النتائج المُعلنـة، وبعـد تحقيق أجراه معهـد ريكن ثبـت أن ثمـة أخطـاء في المنهج العلمي المُســـــــتخدم، وأن أوبوكاتا قد انتحلت واختلقت أجزاء من بحثها، مما يطعن في مصداقية العلم في اليابان ويضر بسمعة البلاد. وبلغت تطورات الأمر إلى التشكيك في جودة أطروحة أوبوكاتا للدكتوراه، واتهام ســاســاي بالتقصير في الإشــراف العلمي على الباحثة، والمطالبة بسحب البحث من دورية نيتشر، وهو ما تم بالفعل في يونيو ٢٠١٤. انتحر «ساساي» لإحساسه بالمسؤولية إزاء انتهاك مبدأ الأمانة العلمية، وشـكَّل انتحاره صدمة كبيرة لجميع المهتمين بالبحث العلمي على مستوى العالم، ربما كصـــدمة الإجابات التي تتلقاها حين تتســاءل عن أوضــاع البحث العلمي في العالم العربي، وحين تطرق أبواب الضـمائر العربية فتجدها غارقة في سُبات عميق تُغذيه فوضـــى الرســـائل العلمية والأطروحات البحثية. بحُكم عملي الجامعي، ومناقشـاتي لكثيرٍ من الرسـائل، وتحكيمي للعديد من بحوث الترقيات، أسـتطيع القول أننا في الدرك الأسفل من منظومة العلم والبحث العلمي؛ مدارس علمية زائفة، أسـاتذة يبيعون الجهل ويتربحون منه على مرأى ومسـمع من الجميع، سـرقات علمية فجة يُدافع عنها مقترفوها بوقاحة، حتى لقد زعم لي أحدهم (وكان أستاذًا مشرفًا) أنها رغم حَرفيتها (أي السـرقة العلمية) مجرد توارد للخواطر! ... أطروحات وأبحاث تُكتب تحت بئر السـلم، وشـهادات تُباع، وألقاب تُمنح علنًا في أسـواق النخاسـة الفكرية ... إلا ما رحم ربي! ولا عزاء للبحث العلمي في وطني!

(٩٨) في رحاب الفلسفة

- **٢٢ ديسمبر ٢٠١٤**

في رحاب الفلسفة، قضيت ما يقرب من ثلاثين عامًا، دارسًا ومدرسًا، قارئًا وكاتبًا، راضيًا ومتذمرًا، يائسًا ومتحمسًا. كرهت الفلسفة في البداية حين اقتربت من كثرة من المشتغلين بها في وطني؛ كنت أظنها تلك الروضة الغنَّاء التي يحتمي بها المرء من تقلبات الفكر وصراعات الحياة اليومية وغيابات الفوضى والجهل والفساد؛ كنت أظنها قلعة الحكماء المضيئة في وطن تعوزه الحكمة في جده وهزله، لكن صدمني أنها لم تسبغ على معظم المشتغلين بها قيمها، ولم تمنحهم حصانة عدم الانزلاق إلى حماقات البشر وتفاهاتهم، ولم تحل بينهم وبين عبادة المال والجاه والقفز فوق أكتاف الآخرين وانتهاك حُرمة الأمانة العلمية، فأنَّي لها أن تسبغ على الآخرين قيمها؟

تضخمت معاناتي حين وجدت طلابي وقد ألقت وتُلقي بهم قسرًا درجاتهم الدراسية بالآلاف إلى أقسام الفلسفة وما شابهها كبقايا لأسواق النخاسة التي تنصبها الدولة كل عام تحت مسمى التنسيق الجامعي، فإذا بهم محبطون، كارهون، مجبرون، مصنفون من حمقى المجتمع كأضغاث أحلام تؤرق أسواق العمل ... ثقافة مجتمع مريض يخدعه بريق المسمى، فيعتمد تصنيفًا يثير دهشة العقل والعالم لأهل القمة وأهل القاع! بل لقد ازداد تضخم معاناتي حين وجدت العوام وأنصاف المتدينين وأرباع المثقفين في وطني ينظرون إلى الفلسفة كتهمة؛ فهي تارة «سفسطة»، وهي تارة أخرى «كفرٌ وزندقة»، وهي تارة ثالثة «فذلكة ممقوتة»، وهي تارة رابعة «عمل من لا عمل له»!

وقتئذ شرعت في كتابة مقال يحمل عنوان «لِم اللافلسفة؟»، في مقابل كتاب الراحل المبدع عبد الغفار مكاوي «لِم الفلسفة؟»، أوضَّح فيه كيف أن التفكير (لاسيما إن كان فلسفيًا)، ورغم كونه في ديننا الحنيف فرض عين على كل ذي

عقل، قد أصبح في ثقافتنا الهاوية إما عادة سيئة ينبغي التخلص منها، أو رفاهية لا نملك مقوماتها ... وكيف أن الحاجة الضرورية إلى التفلسف قد احتلت المركز الأخير في قائمة أولويات مجتمع ينخر الفساد في عظامه ويهدد أساسيات وجوده ... وكيف أن القيم التي شكَّلت أحد مباحث الفلسفة الرئيسة (من حقٍ وخيرٍ وجمال) لا قيمة لها دون جوهرٍ يفعلها هو الإنسان ... وكيف أن الفلسفة ليست حُلة نرتديها لنستر بها عورات جهلنا وتخلفنا ونفاقنا ... وكيف وكيف وكيف؟ ... فلنكف إذن عن التفلسف ريثما نستحقه، ولتكن اللافلسفة!

على أنني في لحظة مراجعة ضرورية لواقعنا الغث، أدركت أن جريمة المجتمع ضد الفلسفة هي كجريمة قاطف الزهرة ليزهو بها في معطفه قليلاً ثم لا يلبث أن يلقي بها لتدهسها أقدامه وأقدام الآخرين! أو كجريمة الممارس لقتل البُرءاء لا لشيء إلا لتخلو له ساحة العبث، فيلهو مرحًا وغباءً فوق أشلاء ضحاياه!

أبدًا ما كانت الزهرة آثمة، وما كان البريء مُعكرًا لصفو الطُهر، وما كانت الفلسفة معيبةً مذمومة؛ ألا تراها تتربع على عرش المعارف في معاقل الحضارة قديمًا وحديثًا؟ ألا تراها غوثًا للحيارى في دروب العلم، طبيعيًا كان أو إنسانيًا؟ ألا تراها بما تثيره من دهشة وتساؤلات مقتحمة لمجاهل الوجود والعقل واللغة، مشخصة لأمراض الواقع؟ بل ألا ترى المشتغلين بها في الغرب هم قادة الفكر وصانعوا الرأي وراسموا السياسات؟

أبدًا ما كانت الفلسفة معيبة مذمومة، وإلا فهل نعيب الدين الحنيف حين نرى بعض أصحاب الجلابيب واللحى يتاجرون به ابتغاء دنيا يصيبونها؟ وهل نعيب العلم حين يغدو وهمًا خادعًا على أيدي الجهلاء؟ وهل نعيب التعليم حين يعبث به الحمقى فيجعلونه سلعة للبيع والشراء؟ وهل نعيب قيم المجتمع حين يسيطر عليها أهل الهوى والرياء؟ وهل نعيب التاريخ حين يكتبه اللصوص وسافكو الدماء؟ وهل نعيب اللغة حين ينطق ويتلاعب بها العامة والدهماء؟ وهل نعيب وسائل الإعلام حين يعتلي

منصـــاتها مرضـــى العُهر والغباء؟ وهل نعيب المختنق حين نحول بينه وبين الهواء؟ ... نعيب الفلسفة والعيب فينا، وليس للفلسفة عيب سوانا، ونهجو المنطق بغير ذنب، ولو نطق المنطق لنا هجانا! كفانا التفافًا وصـراخًا حول جثث التخلف دون قدرة حقيقية على الحداد!

(٩٩) السائق ونظرية التخدير السياسي!

- **٢٦ ديسمبر ٢٠١٤**

جلست كعادتي إلى جوار السـائق، فإذا به متجهم الوجه يتمتم بكلمات غاضـبة غير مفهومة، توحي نظراته إلى الســـيارات المارقة بجواره، وإلى الركاب من خلفه، كما لو أنه يود أن يســتدعي شـِجارًا من جوف ســكون الفجر ينفث فيه غضــبه! وفجأة توجَّه إليَّ بحديثه قائلاً: «لم يعد في الدنيا خيرٌ ولا رحمة!» ... أجبته مضـــطرًا والنعاس يغلبني: «لماذا؟» ... فأجاب بدوره: «ينصـــــبون لنا الكمائن المرورية على مسـافات متقاربة، ولا يكتفون بفحص أوراقنا، بل يُجرون لنا تحليلاً للكشـف عن تعاطي المخدرات، فإذا ما ثبت ذلك، كان علينا سـداد غرامات متفاوتة حسـب نوع المخدر! بالأمس ســـددت غرامة بلغت ألفًا من الجنيهات دفعة واحدة!». أدهشـــتني إجابته، فكأن تعاطي الســـائقين للمخدرات أصـبح سـلوكًا لابد وأن يعتاد عليه الجميع ويزكونه، بل وأن تباركه الشرطة والحكومة! وأحس السائق أني أستهجن كلامه، فأردف قائلاً قبل أن أنطق:

«إن هدف الحكومة هو أن تمص دماء رعاياها، وهل تظن أنها – أي الحكومة – عاجزة عن منع المخدرات وتجفيف منابعها؟ يا أسـتاذ، هذه السـيارات التي نعمل عليها وتملأ الشوارع عليها أقساط، والبنك لا يرحم، لابد أن تسدد ما عليك شهريًا وإلا وجدت نفسـك مُلقى في السـجن، ولكي تسـدد عليك أن تواصـل العمل بالنهار والليل، ولا تسـتطيع أن تفعل ذلك إلا بتعاطي مُخدر يُنسـيك التعب ويحول بينك وبين النوم! الحكومة تعلم ذلك؛ تعلم أن غالبية السـائقين يتعاطون الحشـيش أو الحبوب

المخدرة، وتُبارك ذلك كي نستطيع السداد للبنك، لكنها مع كل حادثة تُفجع الرأي العام تتخذ قرارًا يضرب عصفورين بحجر: تُطمئن الرأي العام من جهة بأنها تعمل، وتُغذي خزينة الدولة من جهة أخرى بالمزيد من أموال الغلابة! ألا تراها قد اتخذت قرارًا بمنع مرور سيارات النقل داخل المدن إلا ليلاً، لكنها لم تستطع مواجهة مافيا رجال الأعمال والشركات، وها هي سيارات النقل تجوب الشوارع طوال النهار أمام أعين رجال الشرطة دون تطبيق للقرار!».

مرة أخرى صدمتني كلمات السائق ... منطق مغلوط وتحليل معاكس للفطرة، لكنه على أية حال يدعو للتأمل! لقد ذكرني بانتقاد فولتير الجدلي لمبدأ العناية الإلهية، فعلى نحو مماثل: إما أن تكون الدولة قادرة على منع المخدرات وتريد ذلك، أو أنها لا تستطيع، فلئن كانت قادرة ولا تريد فذلك يطعن في عدالتها وأهدافها وخيريتها، ولئن كانت تريد وليست قادرة، فذلك يطعن في قدرتها وقوتها وكفاءتها، ولئن كانت ليست قادرة ولا تريد فذلك يطعن في عدالتها وأهدافها وخيريتها وقدرتها وقوتها وكفاءتها، ولئن كانت قادرة وتريد فلماذا إذن توجد المخدرات ويتعاطاها الناس بهذه الكثافة؟

من جهة أخرى يبدو أن التخدير لا يقتصر فقط على الهاربين من آلام الواقع وصراعاته، بل هو مبدأ سياسي بامتياز، تمارسه الدول والجماعات؛ فثمة تخدير للشعوب بالجهل، يتجلى في انهيار المؤسسات التعليمية والمراكز البحثية، ووهن ميزانيات البحث العلمي، وثمة تخدير للرأي العام بالإعلام التافه، وثمة تخدير للبسطاء بغمسهم في قضايا دينية سطحية، أو في صراعات تحقيق أدني متطلبات الحياة، وثمة تخدير للشباب بإثارة قضايا الجنس ورفع سقف الطموحات نحو حياة الرفاهية الكاذبة، وثمة تخدير لفئات سلطوية نوعية برواتب تستعصي على الحد الأقصى، وثمة تخدير للعقل واللغة والثقافة والهوية ... إلخ. قد يكون التخدير طوعًا أو كرهًا، عن وعي من الفاعل والمفعول به أو عن غير وعي، لكنه بأنماطه المختلفة لا يخرج عن مجرى الحوار الجدلي السابق بين القدرة والإرادة!

(١٠٠) بعثة الساموراي بمصر

- ٣١ ديسمبر ٢٠١٤

ماذا قال اليابانيون عن مصر حين زاروها سنة ١٨٦٤، وماذا قد يقولون إن زاروها اليوم؟

لم تنهض اليابان سوى في فترة الستينيات من القرن العشرين، وقبل نهضتها كانت تسعى للاستفادة من التجارب النهضوية للدول الكبرى في القرن التاسع عشر إبان عهد الإمبراطور الإصلاحي «ميجي» Meiji (١٨٥٢ – ١٩٢١)، وهو الإمبراطور رقم ١٢٢ وفقًا لترتيب الحُكم التقليدي في اليابان، وحكم البلاد بداية من الثالث من فبراير سنة ١٨٦٧ وحتى وفاته. ففي «عصر ميجي»، الذي عُرف باسم «عصر التحديث»، أولت اليابان عناية خاصة لإرسال بعثاتها من الساموراي Samurai (وهو لقب أطلق على المحاربين القدماء في اليابان، وكانوا أكثر الطبقات تعليمًا وتثقيفًا في ذلك الوقت) إلى الخارج بهدف نقل الخبرات وتلاقح الأفكار، وخرجت أول بعثة إلى أوربا سنة ١٨٦٢ بقيادة «تاكينوشي ياسونوري» Takenouchi Yasunori حاكم مقاطعة «شيموتسوكي» Shimotsuke (محافظة توتشيجي Tochigi حاليًا). وقد ضمت البعثة أربعين رجلاً، منهم «شيباتا تاكيناكا» Shibata Takenaka (١٨٢٣ – ١٨٧٧) كرئيس لموظفي البعثة، والكاتب والمترجم (رائد حركة التنوير في اليابان الحديثة) «فوكوزاوا يوكيتشي» Fukuzawa Yukichi (١٨٣٥ – ١٩٠١)، وزارت البعثة فرنسا والمملكة المتحدة وبروسيا وروسيا والبرتغال، واختتمت أعمالها ببروتوكول لندن، الذي تم توقيعه في السادس من يونيو سنة ١٨٦٢، والذي أقر بأن اليابان تحتاج إلى وقت للتغلب على المشاعر المعادية للأجانب. أما بعثة الساموراي الثانية إلى أوربا فقد انطلقت في التاسع والعشرين من ديسمبر سنة ١٨٦٣، وسُميت «بعثة إيكيدا» Ikeda Mission، حيث ترأسها «إيكيدا ناجاوكي» Ikeda Nagaoki (١٨٣٧ – ١٨٧٩) حاكم قرى «إيبارا»

الصغيرة Ibara بمحافظة أوكاياما Okayama، وكان هدفها إقناع فرنسا بإغلاق ميناء يوكوهاما أمام التجارة الخارجية والسماح لليابان بالانعزال مرة أخرى، وهو هدف تبين فيما بعد استحالته نظرًا لكون يوكوهاما مركز الوجود الأجنبي في اليابان منذ انفتاحها سنة ١٨٥٤. وفي طريقها إلى فرنسا مرت البعثة بمصر (١٨٦٤)، حيث نزلت البعثة في ميناء السويس، واستقل أعضاؤها القطار من السويس إلى القاهرة، وفيها قضوا ثلاث ليال زاروا خلالها العديد من الأماكن كالقلعة ومسجد محمد علي والأهرامات. ومن القاهرة استقلوا القطار أيضًا إلى الإسكندرية لمواصلة رحلتهم إلى فرنسا. وفي طريق العودة مروا بالطريق نفسه حيث لم يكن العمل في شق قناة السويس قد انتهى بعد. وحرص أعضاء البعثة على تخليد هذه الذكرى بصورة جمعتهم أمام تمثال أبو الهول، التقطها لهم المصور البريطاني – الإيطالي «أنطونيو بياتو» Antonio Beato (١٨٣٢ – ١٩٠٦) الذي اشتهر وشقيقه «فيليتشي بياتو» Felice Beato بتصوير المناظر الطبيعية والمباني التاريخية في مصر وغيرها من بلدان حوض البحر المتوسط. وما زالت صورة البعثة محفوظة ضمن الوثائق الهامة لمكتبة البرلمان الياباني «الدايت Diet».

الأكثر إثارة هو ما أبداه أعضاء البعثة من دهشة عندما وجدوا في مصر قطارًا وسككًا حديدية، في الوقت الذي لم تكن اليابان قد عرفت القطارات بعد. بل وسجلوا إعجابهم الشديد بالسرعة التي كان يسير بها قطار السويس/ القاهرة. ومما أثار إعجابهم أيضًا النظافة المنقطعة النظير للحمامات العامة في القاهرة، حيث أشاروا إلى أنها أنظف من الحمامات العامة في اليابان، وإن كانوا قد أبدوا دهشتهم من أن حمامات القاهرة أغلى من حمامات طوكيو في ذلك الوقت، وهو ما اعتبروه مؤشرًا على الرخاء الاقتصادي الذي كانت تعيشه مصر آنذاك، في الوقت الذي كانت فيه اليابان تتلمس طريقها نحو التقدم. أبدى أعضاء بعثة الساموراي كذلك إعجابهم بـ «التلجرام» أو التلغراف الذي لم تكن اليابان أيضاً قد عرفته بعد،

وسجلوا إعجابهم بالدولة الحديثة التي تمكَّن «محمد علي باشا» من بنائها في مصر منذ أوائل القرن التاسع عشر.

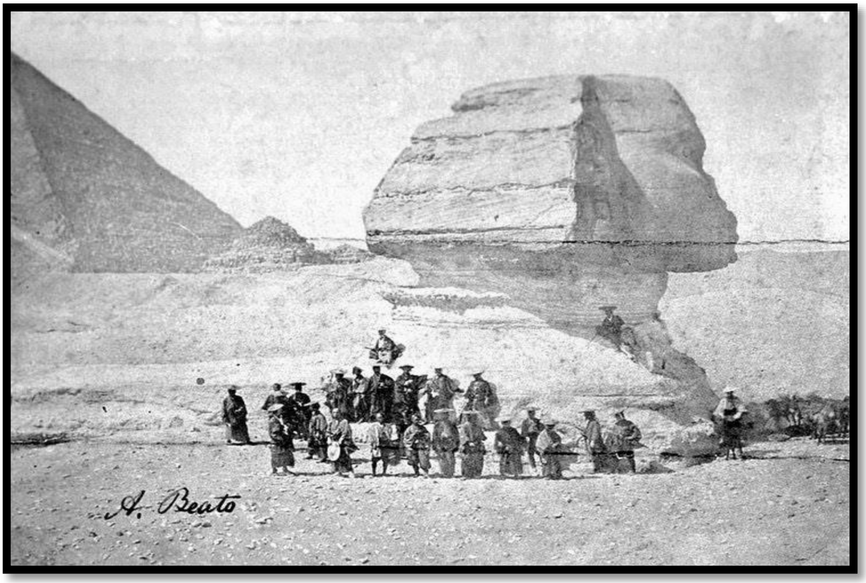

A Group of Samurai in front of Egypt's Sphinx، 1864 [736x567]: HistoryPorn
Source:https://www.reddit.com/r/HistoryPorn/comments/4cl1wj/a_group_of_samurai_in_front_of_egypts_sphinx_1864/

ومنذ زيارة بعثة الساموراي، أخذ كثير من الباحثين والمسؤولين الرسميين في اليابان ينظرون إلى مصر بجدية أكثر، وبنظرة مختلفة عن تلك التي ينظرون بها إلى إفريقيا وأستراليا.

لقد نظرت حكومة «ميجي» إلى مصر آنذاك على أنها نموذج يُحتذى به ولابد لليابان من دراسته والاستفادة منه. وقد توافد المثقفون اليابانيون على إجراء أبحاث ودراسات عن النظام القضائي والقانوني في مصر ليستفيدوا من الخبرة المصرية في كيفية مواجهة مشكلات مماثلة في اليابان، وخصوصًا مشكلة الأجانب، ومن ثم ظهر كتاب المحاكم المصرية المختلطة الذي كتبه «هارا تاكاشي» Hara

Takashi – أو «هارا كي» Hara Kei – (١٨٥٦ – ١٩٢١) سنة ١٨٨٩م، والذي أصبح أول رئيس وزراء لليابان منذ التاسع والعشرين من سبتمبر سنة ١٩١٨ وحتى اغتياله في الرابع من نوفمبر سنة ١٩٢١.

إنها مصر التي كانت ... ولا ندري متى تعيد بناء كينونتها الغائبة!

(١٠١) موت أبي: جُرح لا يلتئم!

- **٦ يناير ٢٠١٥**

كلما نظرت لصور طفولتي، طاف بذهني خيال أبي ... أبي الذي لا تحتفظ ذاكرتي له إلا ببضع مشاهد مشوشة بتراكمات السنين، لكنها تنتفض من حين إلى آخر محملةً بعبق دثاره وأريج يديه وروعة أنفاسه، لتعزف في أذني لحنًا رائعًا لم يكتمل، وتنحت في قلبي حنينًا لشيء أحاله الموت وهمًا، وترسم أمام عيني بسمةً صادقةً لم تدم! مات أبي في مثل هذه الأيام من سنة ١٩٧٥، ولم أكن وقتها قد أنهيت دراستي بالمرحلة الابتدائية .... تركني جسدًا، لكنه لم يتركني روحًا ... ظل معي، يصطحبني، يوجهني، يعلمني، ينصحني، ويدعو لي ... يلازمني في صمتي وكلامي، حزني وفرحي، دمعي وابتساماتي، انكساراتي ونجاحاتي، وهزائمي وانتصاراتي.

بموت أبي عرفت معنى الجُرح الذي لا يلتئم، ومعنى سقوط الجدار الذي به يمكن أن تحتمي، ومعنى المأوى الذي يفر إليه الصغير حين توجعه ضربات الحياة .. وعرفت معنى قسوة وتواطؤ البشر!

كتبت له في مقدمة كتابي «*الداروينية والإنسان*»:

إلى أبي، القصيُ الداني
الغائب الحاضر في وجداني
تباعد بيني وبينك مسافات الزمان
ويُدنيني منك التماس المعاني

سألتك يومًا: ما الحياة؟

فأجبت برحيلٍ زلزل كل أركاني

كيف، ومتى، وأين ألقاك؟

لا أدري، فالغيب رباني

إليك أهدي هذا الكتاب، فهل أكتب على المظروف عنواني.

رحمك الله يا أبي.

(١٠٢) تأملات في جمهورية فسادستان!

- **9 يناير ٢٠١٥**

لا تخلو فئة من فئات المجتمع – على تنوعها وبلا استثناء – من فاسدين ومفسدين يتخذون من الفساد نهجًا لحياتهم، كما لا تخلو بالمثل أية فئة مجتمعية من شرفاء يسعون إلى رفع راية التقوى والإصلاح، وإن كانت رايتهم لا تصمد أمام الريح العاتية التي يسوقها أهل الفساد في وجه من يحيد عن نهجهم! إنه الصراع المعهود بين الخير والشر، النور والظلمة، الجمال والقبح، أو فلنقل بين الجانب الملائكي في الإنسان وجانبه الشيطاني، وقد بلغ الصراع الآن في جمهورية فسادستان مبلغًا ترجح به كفة الفاسدين بقدرٍ غير مسبوق، حتى لكأنهم يقولون لمن خالفهم في القول والفعل: «أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ» (الأعراف: ٨٢)، فلا يستمعون قولاً إلا إن خرجت مفرداته من قاموس الفساد، ولا يقترفون ذنبًا إلا ومنُّوا به على العباد، «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ، أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لاَّ يَشْعُرُونَ» (البقرة: ١١، ١٢).

إذا خرجت من بيتك وتجولت في شوارع فسادستان، أو استخدمت وسائل النقل فيها، أو أردت قضاء مصلحة في مؤسسة حكومية أو غير حكومية، أو مارست عملك، أو اختلفت مع قريب أو بعيد، أو حتى جلست في بيتك وتابعت الفضائيات ... يتجلى الفساد أمامك دون حياء أو مواربة؛ ترى أناسًا عيونهم وقحة، وكلماتهم

بذيئة، وعُريهم فاضح، وعقولهم جلفة، يستحلون حرمات الله وحقوق وأموال وأعراض البشر دون أدني تأنيب للضمير! وقد تعتاد المشهد طوعًا أو كرهًا، عن وعي أو عن غير وعي، لكنك إن تأملت المشهد تضرب عقلك تساؤلات لا تجد لها إجابات قاطعة.

فقد تتساءل: كيف بدأ الفساد وانتشر بمثل هذا القدر اللامعقول؟ أو ما هي الأسباب التي أدت لظهوره ثم أدت لهجمته الشرسة على مجتمع بأكمله؟ أهو الفقر؟ ربما، لكن من الفقراء من تأسرهم الفضيلة فلا يطغى عليها فقرهم، بل تسبغ عليهم حياة الشظف والحاجة أخلاقًا يفتقر إلى مثلها الأغنياء، وقد قال ابن خلدون أن الترف – وليس الفقر – مقترنٌ بفساد الأخلاق! ... لعله إذن الجهل، فالفضيلة علم والرذية جهل؟ ربما، لكن ألا ترى أن ثمة من ينخر الفساد في دواخلهم من كبار أهل العلم والثقافة، فتراهم يُراءون ويستغلون ويبطشون ويتعالون ويسرقون، وتراهم يتنازعون المناصب ويفجرون في خصوماتهم إذا اختلفوا؟ ... لعله إذن فشل الدعوة الدينية، فثمة من رجال الدين من يبيعون دينهم بعرضٍ من الدنيا؟ ربما، لكن لماذا لا تجد الفساد بحجمه المعهود لدينا في دولة مثل اليابان، حيث الدين فيها مجرد ثقافة؟ ... لعله إذن فشل السياسات الحكومية التي مزقت العدالة الاجتماعية واختصت هاجسها الأمني بالجزء الأكبر من ميزانية الدولة، وأهملت الفقراء والمرضى فأثارت حنقهم؟ ربما، لكن هل كانت ثمة حكومة حين قتل قابيل هابيل؟، ولماذا يعم الفساد أهل الفعل قبل أن يعم المفعول بهم؟ ... ربما تجتمع الأسباب، لكن ثمة سببًا غائبًا بالضرورة، تنطوي عليه النفس البشرية، وإن تأرجح تأثيره من مجتمع إلى آخر! قد تتساءل أيضًا: هل بالإمكان وضع تعريف جامع ومانع للفساد؟ هذا السؤال أصعب من سابقه، وقد نطرحه بصياغة أخرى: هل يعرف الفاسد حين يفسد أنه فاسدٌ مفسد؟ الإجابة في كثرة من الحالات تكون بالنفي؛ فأحدهم يصلي بجوارك في المسجد ثم يخرج فترى منه وجهًا قبيحًا وسلوكًا فجًا ولسانًا بذيئًا، وأحدهم يُحدثك ويُشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام؛

وأحدهم يأمر الناس بالبر وينسى نفسه؛ وأحدهم يستحل القتل أو السرقة أو الرشوة أو غير ذلك بدافع من فكرة مغلوطة تسيطر عليه ... إلخ. الوضع هنا مشابه لاقتناع الجاهل بجهله، أو إدراك الغبي لغبائه، أو إحساس الميت بموته، لذا لن يتواضع الناس يومًا على تعريف جامع ومانع للفساد، ولكلٍ في ذلك حجته وتعريفه!

قد تتساءل أخيرًا: هل ثمة نهاية ممكنة للفساد عمومًا، وفي جمهورية فسادستان بصفة خاصة؟ على المستوى العام قد تجد الإجابة في الآية الكريمة:

«وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ» (البقرة: ٣٠). وعلى المستوى الخاص، يكفي أن تنظر في نفسك وفيمن حولك!

(١٠٣) ميراث الكراهية!

- **٣٠ يناير ٢٠١٥**

الكراهية لن تولد إلا مزيدًا من الكراهية، والعنف لن يولد إلا مزيدًا من العنف؛ الكراهية لا تنسف المكروه فقط، لكنها تنسف الجميع، وكم هو مؤلم أن تستوطن الكراهية قلوبنا وتعمى بها عقولنا.

كانوا يقولون أن الثورة قد أفرزت أسوأ ما فينا، وأقول: بل إن كل ما فينا سيء طالما افتقدنا الحب، وغيبنا العقل، ونبذنا منطق الاحتواء، ولم نتجول بحكمة بين الخط الفاصل بين الأبيض والأسود!

الشيطان يبتسم، والعدالة الغائبة تستجدي رثاء العقل الهارب، والدماء البريئة تسطر على الأرض المثقلة بصراعاتنا قصة فشل حياتي ومتدفق نحو الآتي الضبابي الساخر ... لو أن الحب، والحكمة، والعدالة، كيانات قائمة في عالم الواقع، لما ثرثرنا بها في العالم الافتراضي ... رحم الله الشهداء، وهدى الأحياء، وهزم الأعداء، وبسط الأمن في ربوع سيناء.

(١٠٤) حقًا ... إنها لأكذوبة ضخمة!

- **٥ فبراير ٢٠١٥**

هل يمكن أن يُصاب العقل الجمعي لأمة بأكملها بخللٍ نفسي؟ هل يمكن أن تعاني أمة بأكملها من الدونية أو عقدة النقص؟ كيف؟ ولماذا؟

إذا كانت الدونية وفقًا لعلم النفس هي شعور غير مُدرك للفرد بوجود عيب فيه يُشعره بالضيق والتوتر والنقص في شخصيته مقارنة بالآخرين، مما يدفعه إلى تعويض هذا النقص بشتى الطرق المتاحة له، بما في ذلك القتل والسرقة والتزييف، فإن هذا ما نراه ونسمعه على مدار الساعة في بلاد العرب: قتل، سرقة، فساد، كذب، مظهرية، تزييف، فضح للعورات، تعالي، صراعات على المناصب لا تنتهي، طعون في الآخرين لا حد لها، ... إلخ.

قد لا تروق تلك النظرة للبعض، لكن لنسأل أنفسنا: لماذا ينظر الناس في مجتمعاتنا العربية إلى بعضهم البعض نظرة ارتياب لا تلبث أن تتحول إلى شهوة تدمير وعقاب؟ لماذا يتقاتل الجهلاء وأرباع وأنصاف المثقفين على الفوز بالمناصب العامة ومقاعد المجالس النيابية؟ ألرغبة حقيقية في خدمة الوطن، أم لوجاهة اجتماعية تعجز عن تحقيقها قدراتهم العقلية والعلمية؟ لماذا يُصاب الأهل بالإحباط إن لم يلتحق ذويهم بما يُسمى زيفًا كليات القمة، رغم أن ميولهم قد تكون أدبية؟ لماذا تعلو أصواتنا وتنطلق صرخاتنا في كافة حواراتنا الفردية والجمعية؟ لماذا أصبح اقتناء السيارات والهواتف والسلع الاستهلاكية غاية في حد ذاته بدلاً من أن يكون وسيلة؟ لماذا لا يتحمل العرب أي شكل من أشكال النقد، ويرفضون الآخر من داخلهم وخارجهم، بل ويحولون إعلاميًا وتعليميًا وثقافيًا دون ظهور العقل الناقد؟ لماذا ولماذا ولماذا ... تساؤلات إن أمعنا النظر فيها، والإجابة عنها بصدق، لأدركنا مدى ضخامة الأكاذيب التي نعيش بها وعليها ومن أجلها! حقا إن الحياة أكذوبة ضخمة!

PK (١٠٥)

- **٥ فبراير ٢٠١٥**

PK ... فيلم يكشف حقيقة الصراع الذي تشهده الأرض؛ الأرض المثقلة بغباء البشر ونزيف الدم الذي لم ولن يتوقف؛ الأرض بكافة مجتمعاتها وطوائفها وثقافاتها! شاهدت الفيلم ... كنت أظنه يهاجم الدين، لكني وجدته يُعري عقولنا، ويفضح المتاجرين بالدين، ويؤكد أن الله الواحد الأحد ما خلقنا ليُشقينا، لكن عقولنا التي أبت أن تستسلم لتحدي الطبيعة، هي ذاتها التي أشقتنا حين استسلمت وخضعت ببساطة لتحدى الجهلاء والتجار بكيفيات مختلفة.

يحكي الفيلم قصة رجل آتٍ من الفضاء كطفل وُلد للتو، خالٍ من الذنوب ومن حماقات البشر، لا يعرف الكذب، ولا يعرف ما نمارسه من آثام، وما نمارسه من قتل باسم الإله ... يكتشف حقيقة البشر، طمعهم، تزييفهم للحقائق، علاقاتهم المظهرية، ممارساتهم للحب سرًا وللكراهية علنًا، وبحثًا عن قلادته الإلكترونية التي سُرقت منه فور هبوطه على الأرض، ينصحه الناس باللجوء إلى الإله، لتبدأ رحلته في البحث عنه، ويواجه خُرافات تُجار الأديان من كل الملل، ويمارس كل الطقوس للبحث عن الحقيقة، ليصل في النهاية إلى ضرورة أن يدرك الناس الفرق بين الإله الذي خلقهم والإله الذي خلقوه!

فلسفة الفيلم تجذبك حتى نهايته ... إنها فلسفة الرقم الخاطئ الذي دوَّنه لنا المتاجرون بحياتنا!

(١٠٦) خير من يُمثلكم!

- **٢١ فبراير ٢٠١٥**

يستهويني كلما خرجت هذه الأيام أن أتأمل لافتات الدعاية الانتخابية التي بدأ تزيين – أعني تشويه – الشوارع بها إيذانًا بقرب فعاليات الصراع على مقاعد مجلس النواب. وأضحك كثيرًا كلما قرأت بعض الأسماء والأوصاف التي تحتويها هذه

اللافتات ... معظم هذه الأسماء إما لجهلاء يمتلكون المال ويتخذونه سبيلاً لحصانة تحول دون مساءلتهم، أو من المهمشين جزئيًا الذين تدفع بهم الأحزاب نحو تمثيل مظهري يحفظ ماء الوجه، أو من المستقلين المتفاوتين توجهًا وثقافة وثراءً ونفاقًا!

أما عن الكلمات التي تحويها لافتات دعاياتهم فحدث ولا حرج: «من أجل مستقبل أفضل» ... «من أجل التغيير» ... «خير من يمثلكم» ... «المناضل الثوري» ... «رجل المواقف» ... إلخ. ولا أدري من الذي خلع عليهم هذه الأوصاف، ولا أي مستقبل وأي تغيير يعنونه وبأية آلية، كما لا أدري الفئة المستهدفة من الخطاب وفقًا لقناعاتهم! الغريب أنهم يعرفون أنهم كاذبون، ويعرفون أننا نعرف أنهم كاذبون، ومع ذلك يصدقون أنفسهم، ويجدون من يصدقهم أو يتصنع التصديق ... تنشط أرجلهم الثقيلة هذه الأيام إلى المساجد والمآتم والأفراح وكافة المناسبات العامة، يقيمون الولائم ويتصدقون ويصافحون، يبتسمون ويتشدقون ويتفيهقون ... نشاط لزوم السبوبة والوجاهة والحصانة – كما علق شيخٌ مهموم – بأموال يمكن أن تسهم – إن صدقت النوايا – في حل أكثر من مشكلة لهذا الوطن المثقل بالأحزان!

ربما كانت الدراسة الوحيدة التي تناولت هذه الكوميديا الباكية هي تلك التي نشرتها الجمعية المصرية للنهوض بالمشاركة المجتمعية سنة ٢٠٠٦، تحت عنوان: «*المشاركة السياسية في الانتخابات النيابية: العوائق والمتطلبات*» للدكتور «سامر سليمان» أستاذ الاقتصاد السياسي بالجامعة الأميركية بالقاهرة، والباحث «عادل فرج». أهم ما توصلت إليه الدراسة بعد استعراض أجواء الانتخابات النيابية المصرية فيما بين عامي ١٩٨٤ – ٢٠٠٥، هي تلك النتائج التي قد يعرفها الجميع لكنها لا تحول دون الاستمرار في اللعبة، ومن أهمها:

- لا تأتي الانتخابات عادة بمفاجآت كبيرة؛ فهناك مساحة مقررة سلفًا لا يمكن اللعب فيها، وبعبارة أخرى، يمكن الرهان في الانتخابات النيابية على كل

شـيء وأي شـيء، إلا أغلبية ثلثي المقاعد المؤيدة للنظام القائم، والكل يدخل معترك الانتخابات انطلاقًا من هذه البديهية.

- السلطة التشريعية خاضعة دومًا للسلطة التنفيذية، بمعنى أن مجلس الشعب بلا سـلطات تقريبًا، فهو خاضـع للسـلطة التنفيذية التي تتقدم بمشـاريع القوانين وتمررها من خلال الأغلبية المهيمنة، وهو ما يتجلى في بداية كل دورة برلمانية، حيث يذهب رئيس الجمهورية إلى المجلس ليلقي خطابًا يحدد فيه الخطوط العامة لسـياسـات الحكم، ويكلف المجلس بالعمل في إطارها، بل ويطالبه بالعمل بهمة ونشاط في إنجاز التعديلات القانونية التي تتقدم بها الحكومة.
- معنى هذا أن النخبة السـياسـية لا توجد في البرلمان، وأن مجلس النواب ليس سـاحة نقاش أو جدل وتفاوض حقيقي حول القوانين أو السياسـات، إنما هو في الحقيقة سـاحة نقاش عام للتنفيس عن المعارضـة ضـمن إطار ترتضـيه النخبة الحاكمة. كما أن انتخابات مجلس النواب ليسـت إلا سـاحة لتجديد وتدوير النخبة، فمن يسـقط في الانتخابات يتوارى عن الأضـواء، والنخب الجديدة تصـعد وتفوز في الصـراع الانتخابي، كما أنها سـاحة أيضـًا لتحسـين صـورة النظام في الخارج بعض الشيء.
- نسـبة المشـاركة في الانتخابات لا تتعدى خُمس من لهم حق التصـويت، والمشـاركون في العادة من الطبقات الأكثر فقرًا والأقل تعليمًا. وهؤلاء يضـطرون للمشـاركة في الانتخابات أملاً أو طمعًا، فالبعض يحصـل على ثمن مباشر لمشاركته (بيع الأصوات)، وآخرون يتم حملهم على المشاركة من خلال الوعود أو من خلال حافلات المؤسـسـات التي يعملون بها. لذا ترتفع نسـب المشـاركة في القرى والأحياء الفقيرة ووسـط بعض موظفي الحكومة وعمال شركات القطاع الخاص.
- أعداد المرشـحين المسـتقلين في تزايد بشـكل مسـتمر، وهذا على حسـاب مرشحي الأحزاب، وهذا يعني أن ثقة النخب السياسية والاقتصادية الجديدة في

الأحزاب القائمة في تراجع وأنها تفضل خوض الانتخابات مستقلة، وإن كان ذلك لا يعني أن للبعض منهم توجهاته السياسية والأيديولوجية والاقتصادية. والأهم من ذلك أن غالبية المرشحين أثرياء يعبرون عن أقلية، وغالبية المصوتين فقراء يستخدمهم الأثرياء كمستودع للأصوات يوم الانتخابات.

- للدولة وسائلها الفعالة في التدخل في العملية الانتخابية وتوجيهها، سواء أكانت هذه الوسائل معلنة أو غير معلنة، مدركة أو غير مدركة.

هذه النتائج وغيرها تعنى ضرورة إعادة صياغة شروط لعبة الانتخابات النيابية، على الأقل من أجل تحسينها وجعلها أكثر معقولية، وهو أمرٌ لن يتحقق في ظل حالة الاحتقان والانقسام الشعبي والإعلامي السائدة في السنوات الأخيرة، وفي ظل التحديات التي تواجهها الدولة حاليًا على المستويين الداخلي والخارجي، وتبقى الكوميديا في النهاية تعبيرًا صادقا عن واقع المجتمع وإفرازاته الفعلية، وسيكون لنا بأي حال من الأحوال مجلس الشعب الذي نستحقه!

(١٠٧) زويل والمشروع الأمريكي!

- **<u>١٩ مارس ٢٠١٥</u>**

لا أقلل من قدر الرجل (كعالم أمريكي) من أصل مصري، يعمل مستشارًا للرئيس الأمريكي ضمن المجلس الاستشاري للعلوم والتكنولوجيا، ومبعوثًا فوق العادة من قبل الإدارة الأمريكية لتفعيل الشراكة العلمية والتكنولوجية مع دول العالم الإسلامي، لكني أربأ به عن مغازلة البسطاء، بل وبعض المثقفين أحيانًا، الذين ما زالوا على قناعة بحيادية البحث العلمي، أو يغفلون عن أن العلم قد بات ذراعًا مؤثرًا لقوى الهيمنة في عالمنا المعاصر. قد نجد العذر للبسطاء حين ينبهرون بمصري يحمل نوبل، حتى ولو لم يفطنوا إلى كونه لم يقدم شيئًا لمصر منذ حصوله على الجائزة سنة ١٩٩٩! لكن ماذا عمن يصفهم الإعلام ويصفون أنفسهم بالمثقفين؛ أليسوا على دراية بأن أجندة الرجل الأمريكية لن تخرج بحال من الأحوال عن

العناصر المحددة لها بدقة؟ أليسوا على علم بأن أمريكا لن تسمح بأية صناعة عسكرية تهدد مصالحها في المنطقة، وفي مقدمتها أمن إسرائيل؟ أليسوا على معرفة بأن صناعات النانو تكنولوجي ذات آفاق لا متناهية، وأن ما يردده «زويل» على مسامع المصريين هو ما يردده في كل زيارة له بمصر، وأن خبر القميص الذي يبشرنا به هو خبر قديم تحتويه كثرة من مواقع الإنترنت؟

لن أخوض في مواقف الرجل السابقة، لاسيما اختياره من قبل محاضرًا متميزًا في جامعة تل أبيب سنة ١٩٩٢ – ١٩٩٣، وتسلمه جائزة وولف الصهيونية Wolf Prize من الرئيس الإسرائيلي «عيزر وازيمان» Ezer Weizman في حفل أقيم بالكنيست (دون أن يتذكر أن «عيزر» هو قائد سلاح الجو الإسرائيلي الذي قاد تدمير السلاح الجوي المصري في ٥٦ و ٦٧، مخلفاً الآلاف من شهداء مصر الأبرار، بل ودون أن يهتم بأن المؤسسة التي منحته الجائزة هي نفسها التي اغتالت عالم مصري مرموق من جامعة الإسكندرية التي تخرج منها هو الدكتور «يحي المشد»)، كما لن أخوض في محاولته السطو على جامعة النيل – كونها تعكس اهتمامات علمية وطنية – لتمرير مشروعه الأمريكي، ولا في مدحه لأية قيادة في مصر (مبارك – مرسي – السيسي) بذات الدرجة .. لكني فقط أتساءل: من الذي يحدد أولويات البحث العلمي في مصر؟ ومن الذي يحدد برامج النهوض بالتعليم المدرسي والجامعي؟ ومن الذي بإمكانه تطوير المؤسسة العسكرية؟ هل يمكن أن يقوم بذلك فرد حتى إذا افترضنا عبقرية هذا الشخص في الأمور العلمية والتنموية والإدارة ... الخ؟ ولماذا «زويل» بالذات، أو بالأحرى لماذا يجب أن يكون حاصلاً على نوبل رغم معرفتنا بالأبعاد السياسية للجائزة؟ هل تخلو مصر من علماء بإمكانهم إن أتيحت لهم الموارد والدعم الحكومي أن ينتقلوا بها في سنوات قليلة إلى مصاف الدول المهيمنة؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد بروباجاندا إعلامية وضغوط أمريكية؟

قد لا يتفق معي البعض، وقد يهاجمونني افتتانًا بصـــاحب نوبل، لكني أقول لهم أن العلم قد فقد عذريته منذ زمن طويل، ولئن كان العلم محايدًا، فإن رجال العلم ليسوا محايدين. ولن ينخدع أحد بإنكار العلماء مسؤولياتهم عندما تـــــُستغل ثمار شهرتهم في أغراض يمكن الطعن فيها، فرجل العلم – شأنه شأن أي مواطن آخر – مســئول مباشــرة عن نشــاطه، وهو ملزم بما تتخذه نتائج بحوثه من توجهات، وبما يقبل أو لا يقبل من عقود، وبالقضايا التي يقبل مناصرتها صراحة أو ضمنًا!

(١٠٨) ماطا جراندي!

- **٢٠ مارس ٢٠١٥**

في مايو من العام الماضـــي (٢٠١٤)، اســـتاء ســـكان بلدة ماطا جراندي Mata Grande بولاية ألاجواس Alagoas البرازيلية من الحكم القضـــــــائي الذي برأ مســـتشـــارهم البرلماني «مارســيانيلو دا كوســتا» Marsaanillo da Costa من تهمة اختلاس المال العام، فقرروا القصـــاص منه بطريقتهم، حيث قام ســـكان البلدة بتعليق المســتشــار على عمود كهربائي وســط البلدة بواســطة حبال قوية حتى يكون عبرة لمن يعتبر.

Di Brasil، Aleg Korupsi Digantung di Tiang Listrik - dakwatuna.com
Source: https://www.dakwatuna.com/2014/05/08/50965/di-brasil-aleg-/korupsi-digantung-di-tiang-listrik/#axzz3UsLwFKRZ

علقت «دوس انخوس جوزيكليد» Dos Anjos Josechled صـــــاحبة الحبال المستعملة قائلة: «لقد تعب الناس من هذا التهريج، وإذا استمروا في سرقتنا فسيلزمنا المزيد من أعمدة النور في هذه البلدة»! تُرى كم عمود إنارة نحتاجه نحن العرب لمعاقبة مسؤولينا المفسدين؟!

(١٠٩) هل ثمة فلسفة عربية؟!

- **٢٤ مارس ٢٠١٥**

تساؤلات حائرة يتغاضى عنها المتخصصون والمهتمون بالشأن الفلسفي، وقد آن الأوان لطرحها والإجابة عنها: هل ثمة فلسفة في الحقبتين الحديثة والمعاصرة يمكن أن نسميها «فلسفة عربية» ... مثلاً على غرار الفلسفة الإنجليزية، الفلسفة الألمانية، والفلسفة الفرنسية؟ وإذا كانت توجد فلسفة من هذا القبيل، فما هي؟ وما سماتها التي تميزها عن غيرها؟ وإذا كانت لا توجد، فما أسباب ذلك؟

هل بات العقل العربي، بعد أفول نجم الحضـــارة العربية الإســـلامية، عاجزًا عن المشاركة في زخم المذاهب والرؤى الفلسفية لعالمنا الحديث والمعاصر؟

قد يجيب البعض بأنه لا توجد فلسفة محددة، لكن ثمة مشروعات فلسفية (غير مكتملة) لبعض كبار الأكاديميين العرب. وهنا أعيد طرح السؤال بصيغة أخرى: هل ثمة دراســة فلســفية عربية راهنة لا تعمد إلى اجترار ما دوَّنه الأســلاف، ســواء للتباهي أو لتبصير الآخر بالماضـي، ولا تعمد في الوقت ذاته إلى اسـتحضـار ما دوَّنه ويدونه فلاسفة الغرب بالترجمة والشرح والتعليق؟ قد يُطرح السؤال بصيغة مماثلة: هل يكابد الفكر الفلســـــفي العربي الراهن أزمة ممتدة حالت وتحول بينه وبين العطاء الفلسـفي؟ إذن كيف ومن المفترض أن بومة مينرفا لا تُحلق إلا عند الغسـق، وأن الحكمة لا تلتمس بشدة إلا في أحلك اللحظات؟ وهل ثمة لحظات أحلك من تلك التي يعيشـــــها العالم العربي كي تُلتمس الحكمة؟ ومن الذي بيده تجاوز أزمة الفلسفة؟ أهي الفلسفة ذاتها، أم تلتمس النجاة من خارجها؟

(١١٠) يا هذا لا تزعج دوائري!

- **٢٥ مارس ٢٠١٥**

«**أرشميدس**» Archimedes ... ذلك الفيلسوف والعالم البارع في الرياضيات والفيزياء ... وضع حسابًا تقريبيًا للجذور التربيعية، ودشن طرق حساب المساحات والأحجام، وحدَّد قيمة «باي» Pi (أي العلاقة بين محيط الدائرة ونصف قطرها) بدقة شديدة. هو أيضًا مكتشف النظريات الأساسية لمركز الثقل للأسطح المستوية والأجسام الصلبة واستخدام الروافع، ومكتشف قانون طفو الأجسام داخل المياه الذي صار يعرف بقانون أرشميدس. اشتهر بكلمة «يوريكا» *Eureka* (وتعني: وجدتها)، إذ يُروى أنه خرج راكضًا من الحمام وهو عاري ويصرخ «يوريكا... يوريكا»، عندما خطرت له فكرة إيجاد حجم جسم ما بوضعه في الماء، وذلك عندما رأى أن الماء انسكب عندما استحم في مغطس مليء بالماء تمامًا.

Noli turbare circulos meos | Miguel Artime | Flickr
Source: https://www.flickr.com/photos/maikelnai71/4135215521/

هذا العالم الذي ساهم في تغيير نظرتنا للعالم، قتله جندي روماني جاهل بعد هجوم الرومان على مدينته سيراقوسة بجزيرة صقلية. كان «أرشميدس» في تلك اللحظة عاكفًا على حل مسألة رياضية بمنزله، لا يدري شيئًا عن احتلال المدينة من

قبل الرومان. وبينما كان يرسم مسألته على الرمال، دخل عليه الجندي الروماني وأمره أن يتبعه لمقابلة القائد العسكري «ماركوس كلاوديوس مارسيلويس» Marcus Claudius Marcellus (٢٦٨ – ٢٠٨ ق. م)، فرد عليه «أرشميدس»: يا هذا، من فضلك لا تفسد دوائري! Do not disturb my circles، (أي لا تدهسها فتخل بها)، وطلب منه أن يمهله حتى ينتهي من عمله، فاستشاط الجندي غضبًا وسلَّ سيفه ليطعنه دون تردد. وسقط أرشمديس على الفور غارقًا في دمائه، وسرعان ما لفظ أنفاسه الأخيرة ... يا هذا، لا تزعج دوائري، وكم من دوائر تدهسها الأحذية العمياء!

(١١١) أن تتفلسف ... هو أن تتعلم كيف تموت!

- **٢٩ مارس ٢٠١٥**

إذا أردت أن تفهم معنى الحياة، فعليك أن تسعى لاستكشاف وفهم ماهية الموت! ... تلك هي الرسالة التي يوجهها الفيلسوف الإنجليزي المعاصر «سيمون كريتشلي» Simon Critchley (من مواليد ٢٧ فبراير ١٩٦٠) لقرائه من خلال مؤلفه «*كتاب الفلاسفة الموتى*» الصادر سنة ٢٠٠٨.

يقع الكتاب في ٢٦٥ صفحة من القطع المتوسط، وقد وضعته النيويورك تايمز على قائمة أفضل الكتاب مبيعًا في مارس سنة ٢٠٠٩، وتمت ترجمته إلى ١٧ لغة. يشير «سيمون» في مقدمة الكتاب إلى أنه ليس كتابًا للموتى على غرار الكتاب المصري الفرعوني القديم، فهذا الأخير يحوي ١٨٩ تعويذة جنائزية هدفها إرشاد روح الميت في رحلتها إلى العالم الآخر، أما كتاب الفلاسفة الموتى فهدفه الكشف عن ملابسات موت الفلاسفة على مرِّ العصور، إذ بها يمكن أن نعرف الكثير عن أفكارهم التي آمنوا بها وعاشوا من أجلها، بل وربما ماتوا دفاعًا عنها، هذا فضلاً عن طقوسهم الحياتية التي تبدو متسقة مع نهاياتهم.

من هذا المنطلق يقدم «سيمون» قصص موت ما يقرب من مائتي فيلسوف عبر العصور المختلفة، هي كما يوردها حكايات توصف بالغرابة، الجنون، الانتحار، القتل، سوء الحظ، الرثاء، الإسفاف، والكوميديا السوداء، وهاك بعض الأمثلة:

- «فيثاغورث» Pythagoras الرياضي والفيلسوف الإغريقي، صاحب مبرهنة فيثاغورث، الذي كان وفقا للأساطير يجبر أتباعه على عدة أمور منها الامتناع عن أكل الفول، مات مذبوحًا لأنه رفض عبور حقل فول فلحق به أعداؤه وفتكوا به!

- «هيراقليطس» Heraclitus فيلسوف التغير وصاحب عبارة: إنك لا تنزل النهر مرتين، مات حسب إحدى الروايات غرقًا في روث البقر!

-«أفلاطون» Plato فيلسوف المُثل، تزعم إحدى الروايات أنه مات مصابًا بعدوى القمل!

- «أرسطو» Aristotle قتل نفسه بتناول نبات يُعرف باسم البيش أو خانق الذئب (أكونيت) Aconite (وهو نبات عُشبي تُستخرج منه مادة مخدرة)!

- «إمبيدوقليس» Empedocles فيلسوف العناصر الأربعة، أراد أن يتحدى الطبيعة فألقى بنفسه في قلب بركان إتنا النشط Etna على أمل أن يصبح إلهًا، فلقي حتفه على الفور!

- «ديوجين» Diogenes صاحب المدرسة الكلبية، الذي كان يحتقر الثروة والقوة، ويزدري الملذات الحسية وجميع متع الحياة التي يتنافس عليها البشر ويقتتلون. آمن بهذه الأفكار وسار علي نهجها طوال حياته، فكان يتناول أردأ أنواع الطعام، ويمشي في شوارع أثينا حافي القدمين مرتديًا أبسط الملابس، حاملاً بيده عصاه وعلى ظهره مخلاته ... انتحر هذا الفيلسوف الكبير كاتمًا أنفاسه بيده!

- «زينون الإيلي» Zeno of Elea عبقري الرياضيات، وصاحب أشهر مفارقات حيرت العالم لقرون طويلة (مفارقات الكثرة والحركة)، مات حين قام بعض أذن طاغية، فطعنه الأخير بسيفه!

- «لوكريتس» Lucretius الشاعر والفيلسوف الروماني الذي شرح باستفاضة أفكار الاطراد الذري لكل مجالات الطبيعة من خلال قصيدته التعليمية العظيمة «عن طبيعة الأشياء»، مات منتحرًا بعد أن أصابه الجنون على إثر تناوله جرعة دواء ظن أن يولد الحب!

- «هيباتيا» Hypatia فيلسوفة الأفلاطونية المحدثة، واول امرأة يلمع اسمها كعالمة رياضيات، تم قتلها على يد مجموعة من الغوغاء المسيحيين عقب عودتها لبيتها بعد إحدى ندواتها، متهمين إيها بالإلحاد وممارسة السحر، حيث قاموا بجرها من شعرها، ثم قاموا بنزع ملابسها وجرها عاريةً تمامًا بحبل ملفوف على يدها في شوارع الإسكندرية حتى تسلخ جلدها، ثم إمعانا في تعذيبها، قاموا بسلخ الباقي من جلدها بالأصداف إلى أن صارت جثة هامدة، ثم ألقوها فوق كومة من الأخشاب وأشعلوا بها النيران!

- «بوئثيوس» Boethius الفيلسوف والسياسي الروماني، صاحب كتاب «*عزاء الفلسفة*»، تم تعذيبه بقسوة، ثم ضُرب حتى الموت بناءً على أوامر من «ثيودوريك» Theodoric ملك القوط الشرقيين!

- «يوهانز سكوت إريجينا» Eriugena الفيلسوف الأيرلندي الكبير، طعنه طلابه الإنجليز حتى الموت!

- «ابن سينا» Avicenna، يُقال إنه مات بعد تجربة جرعة أفيون زائدة!

- «جوليان أوفري دو لاميتري» de La Mettrie أحد رواد المدرسة المادية وفلاسفة التنوير في فرنسا، والذي كان يمجد الملذات الحسية، مات بعد تناوله كميات ضخمة من الباتيهات المحشوة الدسمة، كان السفير الفرنسي «تيركونيل» قد أرسلها له كنوع من الشكر والامتنان لأنه عالجه من مرض ألم به، فما كان من «لاميتري» إلا أن التهمها جميعًا، فأصيب بالحُمي والهذيان، ومات على الفور!

-«ديكارت» Descartes أبو الفلسفة الحديثة، مات نتيجة إصابته بالالتهاب الرئوي بعد أن أعطى درسًا في الصباح الباكر في فصل الشتاء بستوكهولم!

- «فرانسيس بيكون» Francis Bacon صاحب الأورجانون الجديد، مات نتيجة لمحاولته ملاحظة آثار التبريد، حيث قام بحشو دجاجة بالثلج في يوم شديد البرودة، فأصيب بالالتهاب الرئوي بعد أكلها!

- «فولتير» Voltaire الذي حارب الكنيسة الكاثوليكية ورجال الدين الذين كانوا يسيطرون على عقول البسطاء، وينشرون أفكار التعصب، أعلن من على فراش الموت أنه يريد أن يموت كاثوليكيًا، وعندما سأله الكاهن «هل تؤمن بالمسيح؟»، قال متوسلاً: «أرجوك سيدي لا تتحدث بأمر ذلك الرجل أكثر من ذلك، واتركني أموت في سلام»!

- «لودفيج فيتجنشتين» Wittgenstein فيلسوف اللغة الضخم، مات في اليوم التالي ليوم ميلاده بعد أن أهداه صديقه بطانية كهربائية كهدية لعيد ميلاده، لكنها أودت بحياته!

-«ليبنتز» Leibniz الفيلسوف والرياضي الألماني، مؤسس علم التفاضل والتكامل (مع نيوتن) توفي وحيدًا، وتم دفنه ليلاً في حضور صديق واحد فقط!

- «هيجل» Hegel فيلسوف المثالية الألمانية وصاحب المنهج الجدلي وتناقض الفكر الذي يولد حركة التاريخ، كان موته أيضًا به تناقض، إذ قال بينما هو على فراش الموت يحارب الكوليرا: «هناك شخص واحد فقط في هذا العالم فهمني ... وحتى هو لم يفهمني»! ولعله كان يشير إلى نفسه!

ويبقى الموت في النهاية دربًا إلى الحياة، ومن أصابه فهمٌ خاطئٌ للحياة، سيكابد بالضرورة فهمًا خاطئًا للموت!

يقولون إنه النومة الأخيرة، لكنه في الحقيقة اليقظة الأخيرة، وكونك غير ميت لا يعني أنك على قيد الحياة.

(١١٢) الفكر الديني: تجديد أم تبديد؟!

- **١١ أبريل ٢٠١٥**

ما يحدث الآن ليس تجديدًا للفكر الديني بقدر ما هو تبديدٌ له. التجديد في أبسط تعريف له هو إصلاح ما أتى عليه الزمن، أو إعادة الشيء إلى مثل الحالة التي كان عليها قبل أن يبلى بفعل التقادم، ومن ثم تتجلى دلالته (في حالة الفكر الديني) في إعادة النظر والتأمل فيما أنتجه أصحاب هذا الفكر بأفق أوسع، ونظرة أكثر عمقًا وشمولية، أي أنه حركة داخل هذا الفكر وليس خارجه!

لذا لا أسمي ما يقوم به المشتغلون بالفكر الديني على خلفية أيديولوجية تجديدًا، ولا أسمي ما يقوم به أعداء هذا الفكر من طعن في مسلماته تجديدًا ... التجديد لا يعني إحالة الفكر الإسلامي إلى مجرد تبرير وتسويغ للأوضاع المعيشية وأهواء المنظرين لها في حياتنا الراهنة، كما لا يعني طمس معالم هذا الفكر أو تشويهه تمهيدًا لبتره وإقصائه. وإذا كانت ثمة مشكلة دينية تواجهنا الآن، فلا أظن أن مردودها إلى الفكر الديني المتوارث ذاته، بقدر ما هي بسبب تناول الفئتين السابقتين لهذا الفكر.

لم يكن «صحيح البخاري» و«صحيح مسلم» مثلاً يمثلان عقبة في طريق الحضارة الإسلامية، فقد ظهرا في القرن الثالث الهجري، بينما امتدت الحضارة الإسلامية مزدهرة حتى القرن السادس الهجري، ولم يحُل الصحيحان دون أن يُبدع المسلمون ما أبدعوه من علم وفلسفة وفن وأدب وغير ذلك، إنما هي عقول بعض من ندعوهم بالمجددين حاليًا (أنصارًا وأعداءً). وصدق الشيخ «محمد الغزالي» حين قال: «إن تجديد الفكر الديني يتطلب عقلاً أنضج، وقلبًا أزكى، ويتطلب بصرًا بأخطاء التاريخ ومزالق الأجيال؛ يتطلب علماء بالكتاب لا مجرد قُراء، وخبراء بالسنة لا مجرد رواة، وفقهاء في الشرع لا مجرد مقلدين، وبصراء بالتربية والتثقيف لا عبيد تقاليد سائدة وأصحاب دراسات عفنة!».

(١١٣) صعيد مصر المنسي!

- **١١ أبريل ٢٠١٥**

أينما تُولي وجهك فثمة رائحة ذكية ترسلها الحقول الصامتة الممتدة من حولك، وثمة عبقرية للمكان تبوح بأسرار حضارة ضاربة في أعماق الماضي، وثمة مآذن متناثرة تكسوها أردية ضوئية خضراء، تقف في خشوع وكأنها تعانق السماء، وثمة ثروات بشرية ومادية تلتمس الخروج من غيابة الإهمال والتهميش، فإذا ما التقيت بالناس، فثمَّ وجهُ عزة ترتسم عليه ترانيم الإباء والعتاب؛ إنه الصعيد، صعيد مصر المنسي، الغائب عن خُطط ولاتها، وبرامج حكوماتها، واهتمامات إعلامها!

يحملك إلى الصعيد بمحافظاته المختلفة قطارات أحدها مصنف من قبل الدولة كدرجة أولى، أغلبية ركابه من القضاة وأساتذة الجامعات القاطنين أو العاملين بالصعيد، لكن حالة القطار المزرية، وتوقفه المتكرر، والاختلال القسري لميعاد وصوله ... كل ذلك يؤكد لك أن مفهوم الدرجة الأولى في حاجة إلى مراجعة، وأنك طالما قررت الذهاب إلى الصعيد، أو كنت من أهله، فلابد وأن تعتاد الأمر وتسلم به؛ فوقتك مهدر، ومعاناتك ضريبة يفرضها اختيارك! فإذا ما غادرت القطار وجدت نفسك في مكان شديد الحكمة والكبرياء في وضح النهار، شديد السكينة والجمال في عتمة الليل، شديد الثراء بموارده، شديد الفقر بثنائية الإهمال والتهميش! ونظرًا لكونه يمثل حالة نموذجية لفقر التنمية وفشل البرامج والسياسات الحكومية تجاهه، أو بالأحرى عدم تجاوزها لألسنة المسؤولين، فقد أصبح الصعيد طاردًا لأهله، بل ومستوردًا لمحافظيه، رغم إمكاناته السياحية والزراعية والصناعية، والبشرية – الفكرية والعلمية الهائلة، تلك التي لا يحول دونها سوى محدودية النظرة القاهرية، وفشلها في الخروج من بوتقة الشمال المكابد لإخفاقاتها، وليس أدل على ذلك من خروج الصعيد صفر اليدين من المشروعات المعلن عنها في المؤتمر الاقتصادي الأخير!

جربوا أن تفتحوا نوافذكم تجاهه، جربوا أن تولوا وجوهكم وعقولكم شطره، جربوا أن تستمعوا لندائه ... جربوا الصعيد!

(١١٤) المتاهة!

- **١١ أبريل ٢٠١٥**

الوصــف الأكثر دقة والأكثر تحديدًا للحالة العربية الآن هو المتاهة ... متاهتنا بواباتها فسـيحة، تُغري الجميع بالدخول، لكنها من الداخل مظلمة وضـيقة وبلا نهاية واضـحة، وكل شـيء فيها ممكن ... يصـطدم فيها الناس بحكوماتهم، وببعضهم البعض، وتصم آذانهم صرخات الإعلام وأشباه الخبراء والمشايخ والمثقفين التي تحملهم إلى نهايات كاذبة مغلقة!

ربما كان الحل الوحيد هو أن يتقدم أحدهم ليضـع علامة مميزة على كل نهاية مغلقة، لكن ما من أحد إلا ويريد أن يكون هذا الشـخص، فضـلاً عن كون النهايات لا متناهية العدد!

(١١٥) لدينا فائض!

- **١٣ أبريل ٢٠١٥**

لدينا فائض في المشـتغلين بالدين، وفائض في المشـتغلين بالطعن في الدين، وفائض في الخبراء والمدراء والوزراء، وفـائض في التجـار ورجـال الأعمـال، وفـائض في السـياسـيين والاقتصـاديين، وفائض في خريجي الجامعات، وفائض في الموظفين، وفائض في الإعلاميين، وفائض في التاريخ ... إلخ، ومع ذلك نحن بمثابة فائض على الحضـارة! لدينا فائض في الشـواطئ والبحار، وفائض في الأراضـي الممتدة عن يمين وشمال، وفائض في الموارد البشـرية والثروات الطبيعية والسـياحية ... ومع ذلك نحن جوعى، عطشى، مرضى، فقراء، بؤساء، نستجدي الأمم!

لدينا فائض في الإنسان، ومع ذلك نحن فائض على الإنسانية!

(١١٦) ملكيون أكثر من الملك!

- **<u>١٧ أبريل ٢٠١٥</u>**

رغم تناول «داروين» في نظريته عن التطور العضوي لقضية أصل الإنسان بحذرٍ شديد، سواء في كتابه «*أصل الأنواع*» (١٨٥٩) أو في كتابه «*تسلسل الإنسان*» (١٨٧١)، حتى تراجع في النهاية إلى موقف اللاأدري، فقد سارع أنصاره الذين كانوا داروينيين أكثر من «داروين» ذاته، وفي تحدٍ سافر لمشاعر العامة ومعتقداتهم الدينية، إلى تأكيد الأصل الحيواني للإنسان، الأمر الذي أدى إلى صدام حادٍ بينهم من جهة، وبين عوام الناس ورجال الدين والمعارضين من علماء البيولوجيا من جهة أخرى. ولعل أشهر حالات الصدام حول أصل الإنسان هي تلك المناظرة الحادة التي جرت سنة ١٨٦٠بين أسقف أكسفورد «صمويل ويلبرفورس» Samuel Wilberforce (١٨٠٥ – ١٨٧٣)، و«توماس هكسلي» Thomas Huxley (١٨٢٥ – ١٨٩٥)، الملقب بكلب داروين الحارس.

خلال هذه المناظرة سأل الأول الثاني متهكمًا عما إذا كان انحداره من سلالة القردة جاء من ناحية الأب أم من ناحية الأم! ويُقال إن «هكسلي» لم يجد إجابة سوى قوله: «إذا سُئلت عما إذا كنت أختار بين الانحدار من ذلك الحيوان المسكين ذي الذكاء المحدود والمشية المنحنية، والذي يوزع ابتساماته وأصواته في كل مكان، وبين الانحدار من صلب رجل على درجة عالية من المقدرة والمهارة ويحتل مكانة مرموقة، ولكنه يستغل هذه الإمكانات في الاستهزاء بالباحثين المتوا ضعين عن الحقيقة، ويقتل أعداءه في نشوة جنونية ... فإنني لا أتردد في الإجابة عن هذا السؤال»! أتذكر هذه القصة كلما تأملت أحوال العرب عبر عقود خلت؛ فأكثرهم عادة ملكيون أكثر من الملك، أيًا كانت سُلطة هذا الملك: رئيسًا، وزيرًا، مديرًا ...، بل حتى لو كان مسؤولاً صغيرًا في مؤسسة متواضعة! ربما كان ذلك بسبب التقديس المتوارث في بلادنا لصاحب السلطة (خوفًا وطمعًا)، وربما كان إيثارًا

مرضيًا للمصلحة الخاصة على مصلحة الوطن، وربما كان عشقًا وتلهفًا للمنصب الفاني غير المستحق ... إلخ، لكنه في كل الأحوال سلوكٌ من شأنه أن يسيء إلى الملك، وإلى الوطن، وإلى كرامة الرعية.

لا عجب إذن أن تجد مديرة بإحدى الإدارات التعليمية تقيم محرقة لكتب إسلامية قد لا تفقه فيها شيئًا لمجرد صدور قرار بالتخلص من الكتب التي تحض على الإرهاب والتطرف؛ ولا عجب أن تُحال أمينة أحد المتاحف بالإسكندرية إلى التحقيق لمجرد اعتراضها على تهكم وزير الثقافة عليها؛ ولا عجب أن يحتفظ كثيرون في المواقع المختلفة بأقنعة يبدلونها كلما حلَّ مسؤول جديد. وعلى الإجمال، لا عجب أن يصبح النفاق في العالم العربي أسلوب حياة!

(١١٧) «فيليس» تمتطي ظهر «أرسطو»

- **٢١ أبريل ٢٠١٥**

حين تمتطي الشهوة ظهر العقل! ... ليست مجرد قصة قديمة مجهولة المصدر، بل هي قصة لتاريخ العلاقة الجدلية بين الشهوة والعقل، بين دونية الجسد وملائكية العقل ... هي قصة الإرادة المكبلة بالحث الحيواني، والقيم المنحنية لعُهر الواقع ... هي قصة بلادي التي تمتطي فيها شهوة السلطة والمال والنساء حكمة ومبادئ وقيم العقل! إنها قصة «فيليس» Phyllis و«أرسطو» Aristotle التي ذاعت في القرون الوسطى مُجسدة حجم سطوة المرأة إن أرادت، وكيف يمكن أن ينصاع العقل لأوامر الشهوة قانعًا بالتخلي عن هويته، راضيًا بهدم ما أقامه من صروح فكرية إبداعية عبر تاريخه ... وهل يمكن لإبداع العقل الذكوري أن يُضاهي إبداع الجسد الأنثوي؟ وهل تاريخنا هو تاريخ للجنسانية أم تاريخ للعقل؟ هل هو تاريخ للتفكيك البنائي أم تاريخ للبناء التفكيكي؟

كانت «فيليس» هي المحظية الأقرب للإسكندر الأكبر، وربما كانت زوجته (وكم من نساء يحكمن بالإغراء)، وكان «أرسطو» (المُعلم الأعظم في تاريخ

الفلسفة) أستاذًا وموجهًا لزوجها، وتلك على الأرجح حقيقة تاريخية. تروي القصة أن إشاعة سرت في المدينة بأن «فيليس» قد منعت زوجها من جلسات الشُرب ليلاً، بل ومنعته كذلك من رفقة «هيفاستيون» Hephaestion أقرب أصدقائه إليه، وكذا من ممارسة تدريباته اليومية على حصانه الأسطوري «بوسيفالوس» Bucephalus، مستغلة في ذلك ملكاتها الجسدية في إغرائه للبقاء بجوارها ليلاً. لاحظ «أرسطو» ذلك، الأمر الذي يهدد بفشل مشروعه الكبير لإعداد رجل قوي يقود الإمبراطورية اليونانية متحليًا بالفلسفة! وذات لحظة فارقة، أصدر «أرسطو» تعليماته لتلميذه بالامتناع عن علاقاته العاطفية الهادمة مع زوجته، والتحلي بالقدرة على رفض أوامرها المدمرة، وهو ما رفضته «فيليس» تمامًا، وقررت الانتقام بطريقتها الخاصة (طريقة كل النساء، وكل حكومات العالم) ... لقد قررت الانتقام بإغواء هذا الفيلسوف العظيم، موقنة أنه لن يتحمل عطاءات جسدها!

بدأت «فيليس» في إظهار مفاتنها عمدًا أمام «أرسطو» كلما التقى زوجها ... وتعددت اللقاءات حتى استغرقته شهوة ممارسة الحب معها ... وحين تأتي الشهوة يتوارى العقل ثملاً ويلهو مرحًا في براثن الغفلة! وهكذا تحين لحظة الحديث معها عن قرب، فإذا بها امرأة صارخة الجمال، صارمة المظهر، شديد الدهاء ... تحدث إليها كفيلسوف يُمسك بزمام العقل، وتحدثت إليه كامرأة توقن أن مفاتيح العالم ملقاة تحت أقدامها! كان «أرسطو» يحترق شوقًا كلما رأي جزءًا من مفاتنها، ويحترق عقلاً كلما تذكر تعاليمه الأخلاقية، ووسطيته الحياتية، يُحدث عقله، يُعنفه: أأنت الذي تحول بيني وبين متعةٍ هي قاب قوسين أو أدنى مني؟ إذن فلتذهب أيها العقل إلى الجحيم ... سيدتي: أريدك! لكن «فيليس» أصرت على أن تمضي معه إلى النهاية ... على أن تُبرهن لنفسها ولتلاميذه على أنها الأقوى؛ الأقوى من أية فلسفة، الأقوى من أية هرطقات يتغنى بها كبير الفلاسفة ... أجابته في تحدٍ وثقة: أتريدني؟ إذن فلتأت إلى حجرتي زاحفًا على يديك وقدميك، ولتحملني كما يحمل الحصان قائده منصاعًا، ولتتجول بي في حديقة القصر!

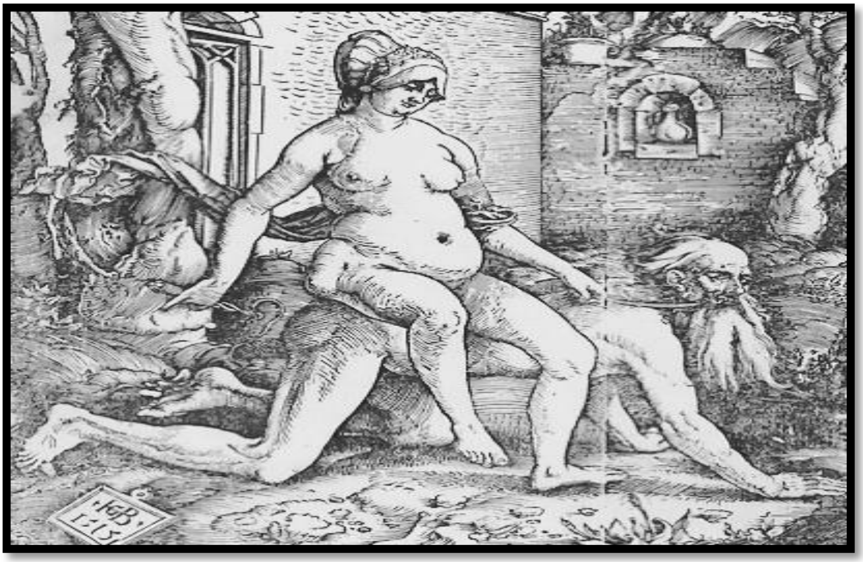

Hans Baldung Grien، Phyllis Riding Aristotle، 1620
Source: http://www.socimage.com/media/1707407493602588497_1720310361

لقد استلبت إرادته تمامًا، وألجمته بالشهوة، فخرَّ كما أمرته لتمتطيه عن طيب خاطر منه ... وكان المشهد المؤلم الذي صوره الفنان الألماني «هانز بالدونج» Hans Baldung (١٤٨٤ – ١٥٤٥) في لوحة مشهورة له سنة ١٥١٣: الفيلسوف ذو اللحية البيضاء يزحف على أربع في حديقة مسورة، و«فيليس» تجلس في كبرياء على ظهره ممسكة باللجام في يدها اليسرى، وفي يدها اليمنى يتأرجح السوط ملهبًا ظهره، وخدم القصر يشاهدون وتتعالى ضحكاتهم! «فيليس» تشعر بلذة الانتصار، لذة امتطاء ظهر الحكمة، بينما الحكمة تكابد لذة الخضوع تحت أقدامها ... وبين لذة الامتطاء ولذة الخضوع تتجلى المفارقة؛ ها هو سوط الجمال يتأرجح على ظهر الحكمة، وها هي منحنيات الجسد تمارس تفوقها على استقامة العقل؛ ها هي طاقة الأنثى الكامنة ترفع راية الانتصار، وتجني ثمار ذكاء الجسد العاري!

ربما كان هدف القصة – بعيدًا عن الحوار الجدلي التاريخي بين الذكورة والأنوثة – هو إلقاء الضوء على مبدأ الوسطية الذي افتقدناه بشدة، فالشهوة يجب

أن تُفهم على أنها حق طبيعي للبشر، ومن شان الحكيم وغير الحكيم إشباعها، لكن الإشباع بدوره يجب أن يتحقق وفق مبدأ الوسطية، لا الإفراط ولا التفريط ... الضعف أمام الشهوة المبتذلة هو خرقٌ عقلي لما خُلق من أجله البشر، مبدأ الوسطية هو الذي يفصل بدقة بين الحق الطبيعي وبين العُهر ... العُهر الذي يستولي على أصحاب العقول الضعيفة، ليس فقط في حياتنا العادية، بل في شتى المجالات: السياسة، الدين، الفن، العلم، الحياة.

(١١٨) هيراقليطس الباكي، وديموقريطس الضاحك!

- <u>**٢١ أبريل ٢٠١٥**</u>

بين بكاء أحدهما وضحك الآخر تتجلى المأساة، ويقف المرء حائرًا إزاء حماقة الواقع: هل أبكي مع الأول أم أضحك مع الثاني؟ الأول «هيراقليطس» Heraclitus، الفيلسوف الزاهد الغامض، صاحب الألغاز، وعاشق المتناقضات؛ كان كلما خرج من بيته، وشاهد مَنْ حوله يكابدون حياتهم الرديئة، بل ويموتون ميتة رديئة، بكى وانزوي بعيدًا مكفكفًا دموعه. كان رقيق القلب، سريع التأثر، تؤلمه عذابات الآخرين، وتقتله كل لحظة تناقضات الواقع: يولد الإنسان ليغدو طفلاً، ثم يصير شابًا ورجلاً وشيخًا وكهلاً، ثم يموت، الحياة تنقلب إلى موت؛ ولولا المرض ما طلب الإنسان الصحة، ولولا العمل ما كان يمكن للإنسان أن يستمتع بالراحة؛ المرأة جنة الرجل وجحيمه؛ الماء السائل يتحول إلى بخار وثلج وجليد؛ النهار يعقبه ليل، والشتاء يعقبه ربيع، والربيع يعقبه صيف، والصيف يعقبه خريف؛ الساخن يصبح باردًا، والبارد يصبح ساخنًا؛ النار تحيا بموت الأرض، والهواء يحيا بموت النار، والماء يحيا بموت الهواء، والأرض تحيا بموت الماء، والحرب ناموس الأرض، والدماء لونها، والكراهية ديدنها، والانهيار مصير الكون ... إنه الشيء ذاته أن تكون حيًا أو ميتًا، مستيقظًا أو نائمًا، يافعًا أو هرمًا. فالمظهر الأول من كل حالة يصبح المظهر الآخر؛ والآخر مرة أخرى يصبح الأول بنقض مفاجئ غير متوقع!

دفعته حماقة البشـــر وتناقضـــات الأشـــياء إلى الزهد في الحياة، كره الحياة والبشر، وذهب إلى الجبال يقتات على الحشائش والعشب، شفقته تثير الشفقة!

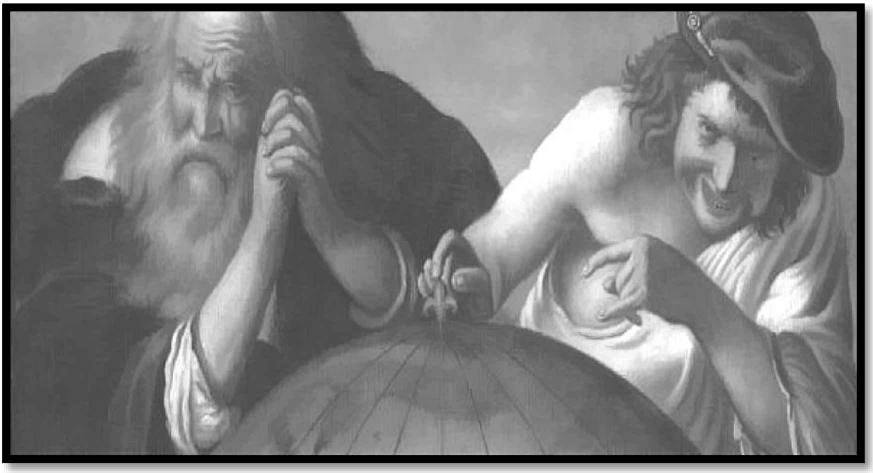

The Weeping Philosopher vs the Laughing Philosopher(s)
Source: http://newepicurean.com/the-weeping-philosopher-vs-the-laughing-philosophers/

الثاني «ديموقريطس» Democritus، فيلسوف الذرة، والخلاء، والحركة، كان لا يراه الناس إلا ضاحكًا مرحًا ساخرًا، كان يسيح في الأرض من بلاده إلى مصر والحبشة وفارس والهند وغيرها مما يمكن أن تصل إليه قدميه ... يضحك من أولئك الحمقى الذين يســـتســـلمون للأحزان ولا يعتبرون بما حولهم من عادات الزمن وصـروفه، حتى لقد جرؤ بالسـخرية من «دارا» ملك الفرس حين رآه حزينًا على موت جارية يعشـــقها، فوعده ديمقريطس بإحيائها بعد دفنها، وقال له إن الأمر لا يتطلب أكثر من كتابة ثلاثة أسماء على القبر فتعود الجارية إلى الحياة، وســـأله «دارا» في لهفة: «وما تكون هذه الأسماء؟»، فأجابه الفيلســـوف وهو يصـــطنع الجد: «أسماء ثلاثة لن يفقدوا أحدًا من الأعزاء!».

كلاهما كان يغضـــب ... يتألم مما آل إليه حال أمته في زمنه، لكن بطريقته؛ الأول يبكي على ســـخف عقول الناس من حوله، والثاني يضـــحك من حماقة

يتخذونها سبيلاً للحياة! وها نحن مثلهما، تُحيط بنا الرذائل، يهاجمنا المرض، يُكبلنا الفقر، تمحونا الحكومات، يعلو أمامنا الجهل والمنطق الرديء، تطوقنا الحماقات، وتُخرج لنا المتناقضات والسخافات ألسنتها ... فهل نبكي أم نضحك؟ نُشفق أم نسخر؟ أم نمزج بينهما في ملحمة العبث والفناء؟

(١١٩) بوئثيوس بين عزاء الفلسفة وعجلة الحظ!

- **٢٥ أبريل ٢٠١٥**

لا يذهب بمُصابك مثل أن تعلو فوقه ... وتقتله رصدًا وبحثًا وفهمًا ...
ثم تشرب في جمجمته العبرة!

لكل شيء عدو، لكن عدو الفلسفة ليس كمن نألفهم من الأعداء ... عدو الفلسفة شديد القسوة، مركب الجهل؛ يقتل دون أدنى تأنيب للضمير، وهل ثمة ضمير لمن اقتلع قلبه وعقله ليقامر بهما على طاولة الحياة؟ عدو الفلسفة هو المسؤول الذي تحول الفلسفة بينه وبين صمت وخضوع الرعية؛ هو المشتغل بالدين زيفًا الذي تقف الفلسفة كحجر عثرة أمام شهواته الناعقة بطلب المال والسلطة والجاه؛ هو الرويبضة الذي تفضح الفلسفة تفاهته كلما تكلم في شؤون الناس. عدو الفلسفة هو الذي قتل «سقراط»، «شيشرون»، «هيباتيا»، «توماس مور»، «لافوازييه»، «شليك»، وغيرهم ممن نعرف أو لا نعرف!

هذا ما حدث مع الفيلسوف والأديب الإيطالي «أنيكيوس بوئثيوس» Anicius Boethius (٤٨٠ – ٥٢٤) الذي كتب «*عزاء الفلسفة*» بين شدقي الموت، قبل وقت قصير من تنفيذ عقوبة الإعدام بحقه، تلك التي نالها على خلفية صراع سياسي يدعمه قضاء فاسد، فإذا به يتوسد ذراع الفلسفة، مبدعًا أشهر وأروع نصوص الفلسفة عبر تاريخها، حيث الكتابة أثناء العد التنازلي للأجل المحتوم هي كتابة أخرى، والغناء على إيقاع خطوات الموت الحثيثة المقتربة هو غناء مختلف، والإبداع بين شدقي الموت هو إبداع استثنائي يمتحُ من نبع الحقيقة الخالصة!

في عزاء الفلسفة (ترجمه عادل مصطفى سنة ٢٠٠٨)، يقيم بؤئثيوس حوارًا خاصًا بينه وبين الفلسفة، مصورًا إياها كسيدة قدماها على الأرض ورأسها في السماء، مدثرة بثوب لا يبلى، يمتزج في بنيتها الشباب والهرم. لقد زاول الفيلسوف السياسة، فكان المآل الطبيعي له أن يلقى سخط محتكريها، وأن توقعه المكائد في فخاخها فيُحكم عليه بالموت. وها هو يندب حظه، ويُبدي دهشته من أن يُتاح للشرير أن ينال غرضه من البريء على مرأى ومسمع من الله، ثم يعزف على اللحن الأزلي قائلاً: إذا كان الله موجودًا فمن يأتي الشر؟ ويرفع إلى السماء زفرة تشفع حرارتها لجرأتها: يا من تُمسك بزمام كل شيء، أنظر من فوق إلى بؤس الأرض، فالبشر ليسوا جزءًا هينًا من هذا العمل العظيم، البشر تتقاذفهم أمواج القضاء، أوقف، أيها الهادي، الطوفان الجارف ... ومثلما تُوثق السماء اللانهائية بوثاق يحكمها، أوثق أصقاع الأرض وثبتها بوثاق مثله!

وقتئذ تتدخل الفلسفة مشخصةً الداء وواصفةً الدواء: لأنك سادرٌ في نسيانك فقد رُحت تتحسر على أنك منفيٌ ومجرد من ممتلكاتك. ولأنك لم تعد تعرف ما هي بالضبط غاية الأشياء، فقد حسبت أن التافهين والمجرمين أقوياء وسعداء. ولأنك نسيت الطرائق التي تُسيّر العالم فقد ظننت أن ضربات الحظ تتخبط هنا وهناك بغير ضابط، فما تزال لدينا الشرارة الكبرى لشفائك ... رأيك الصائب عن إدارة الكون، أنت تؤمن أن الكون لا تحكمه المصادفة العشواء بل العقل الإلهي، إذن لا تخش شيئًا، فمن هذه الشرارة الضئيلة سوف ينبثق فيك وهج الحياة، وإذا لم ينل منك الرعد فسوف ترى الضوء الساطع. لعلك تأسى على تبدل الأحوال وتغير الحظ، وعلى سقوطك من ذُرى المنصب والثراء إلى حضيض اليأس والقنوط، فلتتعرف إذن على هذا المسخ (الحظ) ... يخطئ من يظن أن الحظ قد أدار له ظهره، فالتغير هو جوهر الحظ وماهيته. والحظ في تقلبه وتبدله إنما هو حافظٌ لعهده وثابتٌ على مبادئه. فلتفرح إذن بأنك كشفت الوجه المتقلب الأعمى الذي يدير عجلة الحظ، فلقد تخلى عنك ما لا يأمن له أحدٌ ولا يثق ببقائه إلى جانبه على الدوام.

الأخيار أقوياء لأنهم يحققون الغاية، والأشـــرار عجزة لأنهم يقصـــرون عنها، ولا يُغير من الأمر أن الأخيار قد يُنفون ويُضـطهدون، والأشـرار قد يسـودون بعض حين ويزدهرون في الظاهر الكاذب: الثروة، المنصـب، الجاه، الشـهرة، النفوذ، اللذة! ابتهل إلى الله للخروج من الكهف المظلم، فبدون ذلك لا يُستهل عملٌ ولا يُشمَّر لأمر.

Boethius‹ Consolation of Philosophy II | Medieval English Literature
Source:
https://medievalenglishliterature.wordpress.com/2011/10/30/boethius-consolation-of-philosophy-ii

هكذا العزاء ... تمتزج فيه ترنيمات الفلســفة بأروع مقطوعات الموسـيقى، فما الموسيقى إلا صناعة فلسفية! وهكذا هي الفلسفة دائمًا: فهمٌ وبردٌ وسـلام؛ الفهم ترياق، وليس عليك أن تغير ما لا قِبل لك بتغييره، بحسـبك أن تفهمه، لقد احتضـر بوئثيوس مبتهجًا على سـرير الفلسـفة. ونحن؟ ما نحن؟ ما بالنا نلتمس العزاء لبؤس واقعنا في العُري والعُهر والنفاق ومناجاة عجلة الحظ؟ ما بالنا نتخذ من الفلسفة عدوًا فلا يزداد واقعنا إلا بؤسًا؟ ما بالنا نحارب العقل، ونشـوه الدين، ونعبث بالتعليم، فنتوه في غيابات الجهل وتلحقنا مصارع السوء؟

(١٢٠) الخناقون ... حين يُصبح القتل عقيدة!

- **٢٩ أبريل ٢٠١٥**

الخناقون Thuggee فرقة هندية من محترفي القتل، تخصصت في قطع الطُرق وخنق وسلب المسافرين، ومنها جاءت كلمة Thug في الانجليزية، بمعنى «سفاح». ترجع نشأة الفرقة إلى القرن السادس عشر، وأغلب أفرادها هندوس من أتباع ما تُعرف بالربة «كالي» Kali (ربة الموت والزمان التي يصورونها في معابدهم على هيئة امرأة داكنة البشرة، بارزة الأنياب، طويلة الشعر، تطوق رقبتها قلادة كبيرة من الرؤوس البشرية المقطوعة).

Thuggees – the Cult Assassins of India | Ancient Origins
Source: http://www.ancient-origins.net/myths-legends/thuggees-cult-assassins-india-002145

كان الخناقون يمارسون القتل تقربًا لمعبودتهم، إذ تروي الأسطورة التي كانوا يعتقدون بها أن ثمة وحشًا عملاقًا ظهر في بداية الزمان (يُعرف باسم «راكتابيجا» Raktabija)، كان يلتهم البشر بسرعة ونهم حتى كاد أن يقضي على الجنس البشري برمته دون أن يتمكن أحدٌ من القضاء عليه، فقد كانت لديه القدرة على

تحويل كل قطرة دم تسقط من جسده إلى وحشٍ جديد. وللقضاء عليه خلقت «كالي» رَجُلين وأعطتهما خِرقة تُسمى «الرمال»، ثم أمرتهما أن يقتلا الوحش خنقًا كي لا يتمكن من إعادة خلق نفسه، وقد أنجزا المهمة بنجاح فقتلا الوحش دون إراقة قطرة دم واحدة، وكافأتهما «كالي» على صنيعهما بأن سمحت لهما بالاحتفاظ بالخرقة، وأمرتهما أن يتوارثاها في ذريتهما ويستعملاها في قتل كل شخص لا ينتمي إلى طائفتهما! لم تكن جرائم الخانقين تقوم بالطبع على الدافع الديني فقط؛ فسرقة أموال المسافرين ونهب ممتلكاتهم كانت هدفا رئيسًا لتلك الجرائم، ولهذا السبب ضمت الطائفة أتباعًا من غير الهندوس.

تشير موسوعة جينيس للأرقام القياسية إلى أن عبادة القتل التي مارستها تلك الفرقة أسفرت عن مقتل ما يصل إلى مليونين من البشر، بينما يشير المؤرخ البريطاني «مايك داش» Mike Dash إلى أنهم قتلوا حوالي ٥٠,٠٠٠ شخص خلال ١٥٠ عامًا. أما أستاذ العلوم السياسية بجامعة كاليفورنيا «ديفيد تشارلز رابوبورت» David Charles Rapoport فيُقدر عدد القتلى على أيدي الخناقين بما يقرب من نصف مليون شخص، الأمر الذي جعل منهم الفرقة الأكثر إرهابًا في التاريخ!

اتسمت ممارسات وتحركات الخناقين بالحيطة والحذر الشديدين، وكذلك بالسرية التامة، لذا لم تكن أغلب جرائمهم تُكتشف إلا بعد مرور وقت طويل على اقترافها، وقد لا تكتشف أبدًا، وذلك نظرًا لبراعة الخناقين في إخفاء معالم الجريمة. وحتى في حال اكتشافها والقبض على البعض منهم، فمن النادر جدًا أن يُقر أحدهم بجُرمه، ومن الصعوبة بمكان حمله على الوشاية برفاقه حتى لو تعرض لأقسى وسائل التعذيب، وهكذا ظل الخناقين مصدر خوف وقلق دائم للمسافرين حتى تمكنت القوات البريطانية المحتلة للهند من القضاء عليهم تمامًا سنة ١٨٧٠.

اندثرت فرقة الخناقين، لكن عقيدتهم في استلاب الحياة لم ولن تندثر، بل كانت وما زالت بمثابة معتقد سياسي تترجمه الدول والجماعات والحكومات إلى ممارسات ترتدي ثوبًا تبريريًا قشيبًا؛ ففي الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تقضي

على فرقة الخناقين بالهند، كانت تقود الدول الغربية في عملية خنق ممنهجة لشعوب العالم الثالث؛ باستعمارها، نهب ثرواتها، طمس هويتها، وتشويه لغتها! ولم يتورع الغزاة الأوربيون لأمريكا عن ارتكاب أبشع جرائم الفتك بالملايين من الهنود الحمر خلال عقود قليلة! إلى غير ذلك من جرائم الإبادة الجماعية التي يحفل بها التاريخ! وأما على مستوى الجماعات، فما زالت جرائم القتل على خلفية الصراعات السياسية ذات الطابع الديني تفتك بكثرة من الشعوب والأفراد، بغض النظر عن الشأو الحضاري التي بلغته بعض الأمم! وأما على المستوى الحكومي – لاسيما في الأنظمة الدكتاتورية – فأمثلة الخناقين لا حصر لها؛ فهم أولئك الذين يخنقون حاضر رعاياهم بالغلاء الفاحش والضرائب الباهظة ودفعهم إلى التهافت على مقومات الحياة الأساسية؛ ويخنقون ماضيهم بالطعن في ثوابت هويتهم التاريخية والدينية؛ ويخنقون مستقبلهم ببرامج تعليمية مهترئة وعابثة ... يخنقون الوعي بإعلام فاسد، ويخنقون العدالة بتفاوت لا منطقي في الأجور وقضاء جائر، ويخنقون الحرية بالبطش بدعاتها، ويخنقون المجتمع ككل بالفساد والإهمال المتعمد!

القتل هو القتل أيًا كانت وسائله، والخنق استلاب لحق الحياة أيًا كانت أدواته؛ كل ما في الأمر أن المسافة بين القتلة وضحاياهم قد تباعدت، ولم تعد أيديهم ملوثة بدماء الضحايا، أو بالضغط المباشر على أعناقهم بخروق مقدسة أو مدنسة، ولم تعد لغة الجريمة قاطعة وفاضحة، إنما غدت لغة عصرية فضفاضة تحمل توصيفًا مقبولاً للجريمة. وهكذا، فمثيرو الحروب ليسوا قتلة، بل قادة يتشحون برايات البطولة، ودعاة الفتن الدينية ليسوا قتلة، بل أرباب دعوة يحملون لواء الذود عن العقيدة، والمسؤولون الحكوميون المهملون والعاجزون والمقصرون والفاسدون ليسوا قتلة، بل رجال دولة يتقدمون الصفوف ويضحون من أجل الوطن ... إلخ!

الخناقون توالدوا، تكاثروا، تطوروا، وسيظل القتل باسم السماء تارة، وباسم الوطن تارة ثانية، وباسم الإنسانية تارة ثالثة، علامة على أن ثمة بشرًا يستعمرون الأرض، إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولا!

(١٢١) ابق جائعًا ... ابق أحمقًا!

- **٣٠ أبريل ٢٠١٥**

في محاضرة ألقاها سنة ٢٠٠٥ في حفل تخريج طلاب جامعة ستانفورد الأمريكية، قال «ستيف جوبز» Steve Jobs، مؤسس شركة أبل ورئيس مجلس إدارتها السابق «١٩٥٥ – ٢٠١١»:

حينما كنت في السابعة عشرة من عمري قرأت اقتباسًا منطوقه: «إذا عشت كل يوم كما لو كان اليوم الأخير في حياتك، فسوف تكون على يقين في يومٍ ما أنك قمت بالعمل الصحيح». لقد تركَت هذه المقولة أثرُها الكبير في نفسي، ومنذ ذلك الحين، ولثلاثة وثلاثين عامًا خلت من حياتي، كنت أنظر الى المرآة كل صباح وأسأل نفسي: إذا كان هذا اليوم هو آخر يوم في حياتي، هل سأرغب في فعل ما أنا مُقدم على فعله اليوم؟ وكلما كانت إجابتي «لا» على مدار عدة أيام، أعرف أني يجب أن أقوم بتغيير شيء ما.

لقد كانت الأداة الأكثر فعالية في مساعدتي على اتخاذ القرارات الكبرى طوال حياتي هي فكرة أنني سأموت قريبًا. لأنّ كلّ شيء تقريبًا يخفت في مواجهة الموت: كل التوقّعات، كل الكبرياء، وكل الخوف من الفشل، كلها أشياء تتراجع أمام الموت، ليتبقى فقط ما هو مهم حقًا. إن أفضل سبيل أعرفه لأن تتفادى الظنّ بأنّ لديك شيئًا تخسره هو تذكير نفسك بأنك ستموت. حينئذ تدرك أنك عاريًا بالفعل، وأنه ليس ثمة سبب يحول دون أن تلبي نداء قلبك.

وقتك محدود، لذا لا تضيّعه في أن تحيا حياة شخص آخر، لا تقع في فخ العيش وفق ما توصّل إليه فكر الآخرين، لا تدع الضوضاء التي تحدثها آراء الآخرين تعلو فوق صوتك الداخلي. والأكثر أهمية هو أن تكون لديك شجاعة تتبُع ما يمليه عليك قلبك وحدسك، لأنّهما، وبشكل ما، يعرفون ما تريد أن تكون عليه، وكلّ ما عدا ذلك هو شيء ثانوي.

حينما كنت صغيرًا، كان ثمة كتابٌ رائع عنوانه «*الدليل الشامل للأرض*» *The Whole Earth Catalogue*، وكان بمثابة أحد أمّهات الكتب لجيلي. كان من تأليف خرّيج جامعي يدعى «ستيوارت براند» Stuart Brand. وقد نشره مزينًا بلمساته الشعرية. كان هذا في أواخر الستينيات، قبل بزوغ نجم الحواسيب الشخصية والنشر المكتبي، أي أنجزه بالاعتماد على الآلات الكاتبة. لقد كان هذا الكتاب بمثابة جوجل على الورق قبل أن يعرف العالم جوجل بخمسة وثلاثين سنة، كان كتابا مثاليًا مليئا بالأدوات الفنية والأفكار العظيمة ... وفي نسخته الأخيرة التي صدرت في منتصف السبعينات، حيث كنت في مثل سِنكم، حمل الغلاف الخلفي للكتاب صورة طريق زراعية جميلة وقت الصباح، من النوع الذي قد تجد نفسك مستعدّا للانطلاق فيه بسيارتك إن كنت مغامرًا. وتحت هذه الصورة عبارة: «ابق جائعًا، ابق أحمقًا»! كانت تلك جملة الوداع منهم لقرّائهم.

ابق جائعًا، ابق أحمقًا ... ولطالما تمنّيت لنفسي أن أكون كذلك. الآن، وبينما أنتم تتخرّجون لبدء حياتكم العملية، أتمنّى لكم الشيء ذاته: «ابق جائعًا، ابق أحمقًا» ... ابق جائعًا، نهمًا لتحصيل المزيد والمزيد من المعارف والعلوم واكتشاف العالم ... ابق أحمقًا، لديك الشجاعة لفعل ما يبدو فعلاً أحمقًا للآخرين ... كن مختلفًا!

(١٢٢) صُنع الله إبراهيم

- **٩ مايو ٢٠١٥**

حين تقرأ رواية من روايات «صُنع الله ابراهيم» (من مواليد ١٩٣٧)، تجد نفسك أمام تجسيد حي لواقع عبثي ومرير نعيشه. هذا الواقع المُزري عبَّر عنه «صُنع الله» بوضوح، وبشكلٍ عملي، بموقفه إزاء منحه جائزة الرواية العربية من قبل وزارة الثقافة المصرية في أكتوبر سنة ٢٠٠٣، والتي تبلغ قيمتها مائة ألف جنيه مصري، إذ وقف أمام أكثر من ثلاثمائة كاتب عربي وأجنبي في دار الأوبرا المصرية ليعلن

أمامهم عن رفضه للجائزة. لكن الامر لم يتوقف عند مجرد الإعلان، بل أصر على أن يُلقي كلمة يُفسر فيها سبب الرفض. وقد وصف البعض كلمته القصيرة هذه بأنها «منشور سياسي – ثقافي» يدين الأنظمة العربية وحليفتها الولايات المتحدة الأمريكية، مشيرًا إلى العجز الحقيقي لدى أنظمة ترسم سياساتها في البيت الأبيض بواشنطن، حيث صرَّح قائلاً: «لم يعد لدينا مسرح أو سينما أو بحث علمي أو تعليم، لدينا فقط مهرجانات وصندوق أكاذيب. لم تعد لدينا صناعة أو زراعة أو صحة أو عدل؛ تفشى الفساد والنهب، ومن يعترض يتعرض للامتهان والضرب والتعذيب. انتزعت القلة المستغلة الروح منا. الواقع مُرعب، وفي ظل هذا الواقع لا يستطيع الكاتب أن يُغمض عينيه أو يصمت؛ لا يستطيع أن يتخلى عن مسؤوليته. لن أطالبكم بإصدار بيان يستنكر أو يشجب، فلم يعد هذا يُجدي؛ لن أطالبكم بشيء فأنتم أدرى مني بما يجب عمله. كل ما أستطيعه هو أن أشكر مرة أخرى أساتذتي الأجلاء الذين شرفوني باختياري للجائزة، وأعلن اعتذاري عن عدم قبولها لأنها صادرة عن حكومة لا تملك – في نظري – مصداقية منحها»!

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يرفض فيها «صُنع الله» استلام جائزة، فقد سبق وأن رفض جائزة الرواية التي تحمل اسم الروائي المعروف نجيب محفوظ، والتي تمنحها الجامعة الأمريكية، حيث أكد يومها أنه يرفض استعمال اسم كاتب شهير مثل نجيب محفوظ من قبل مؤسسة أمريكية، تقوم حكومتها بمساندة احتلال إسرائيل للأراضي العربية ومواصلة قمع الشعب الفلسطيني، والقيام بدعم حُكام يقمعون شعوبهم باسم الحرية والديمقراطية!

(١٢٣) انظر خلفك بغضب (Look back in anger)!

- **١٠ مايو ٢٠١٥**

كان ذلك عنوان المسرحية التي كتبها الروائي المسرحي البريطاني «جون أوزبورن» John Osborne (١٩٢٩ – ١٩٩٤) بعد الحرب العالمية الثانية، مُعبرًا عن

حرائق الغضب التي اشتعلت في قلبه وعقله حين سيطر على المجتمع الانجليزي مجموعة من السفهاء والتافهين والأدعياء واللصوص والعقول المتحجرة، وقاموا باحتلال منابر الإعلام والصحافة، ومارسوا الاضطهاد والقهر على أصحاب الفكر والشرفاء من أبناء الوطن، واعتقلوا الحضارة واستباحوا القيم وصادروا حرية الفكر واغتالوا لون النهار الأبيض! كان «جون أوزبورن» يُعبر عن جيل لم يشارك في الحرب، لكنه حانق على نتائجها التي لم تكن مُنصفة بالنسبة له ولا تعطيه أملاً بمستقبل أفضل. وربما كانت الصرخة التي أطلقها «بوتر» بطل المسرحية هي صرخة جيل بأكمله: «اللعنة عليكم جميعًا، لقد دمرتم حياتنا، ودمرتم الوطن الذي تناثر أجزاء»! المسرحية كانت بالفعل إدانة كبيرة لمجتمع سيطر عليه الأفاقون والمدّعون في كل مجال، وهو مجتمع لا يقل في فجيعته عما نمر نحن به الآن ... تُرى ما الذي يمكن أن يقوله الجيل الذي لم يُشاركنا المهزلة، لكنه سيحصد قطعًا ثمارها!

(١٢٤) جريمة توريث الوظائف!

- **١٠ مايو ٢٠١٥**

يعتز العرب كثيرًا بمفهوم الوارثة، لا أعني الوراثة البيولوجية التي دشَّن قانونها عالم النبات والراهب النمساوي «مندل» سنة ١٨٦٦؛ والتي تتنوع فيها الأليلات (العوامل الوراثية) ما بين سائدة ومتنحية، وتتجلى الافتجاءات (الطفرات) التي تؤدي إلى تطور النوع (إلى الأمام أو الخلف)، إنما أعني وراثة المناصب والوظائف، وهو مفهوم عربي بامتياز. صحيح أن ثمة مهنًا حِرفية يتوارثها الأبناء عن الآباء والأجداد في كل دول العالم حفاظًا على التراث الشعبي، لكن الأمر يدخل في دائرة العبث والفساد حين يتعلق بمؤسسات كالقضاء والجامعات والقوات المسلحة والشرطة والبنوك والصحافة والشركات وغيرها، وكأن ثمة أليلات وظيفية لا تختلط بغيرها؛ أليلات قضائية، وأخرى تعليمية، وثالثة عسكرية، ... إلخ.

أذكر أن ثمة قانونًا مصريًا كان يستثني أبناء أساتذة الجامعات من مجموع الدرجات كشرط للالتحاق بكليات المرحلة الأولى من تنسيق القبول، ولا أدري كيف سنَّ المشرع المصري وقتئذ قانونًا كهذا وهو على يقين من إهداره لمبدأ تكافؤ الفرص وتكريم الفاشلين لمجرد كونهم أبناء أساتذة بالجامعات! ورغم إلغاء القانون، فإن عبقرية الفساد المصري لم تعجز عن الالتفاف عليه وتطبيقه على نحو أوسع في سوق العمل؛ فالوظائف القضائية حصرٌ على أبناء القضاة وذويهم، وهيئات التدريس بالجامعات تئن من مزاحمة أبناء الأساتذة، ومن كان أبوه ضابطًا فتحت له الكليات العسكرية أبوابها، ومن سبقه أبوه إلى شركة أو بنك أو أية مؤسسة حكومية بات له الحق في وراثة وظيفته ...، بغض النظر عما إذا كانت إمكانات الأبناء تؤهلهم لشغل هذه الوظائف، حتى لقد أصبح حصول الشاب على فرصة عمل مرهونٌ في مصر بخيارين لا ثالث لهما؛ إما أن يكون من أبناء العاملين؛ وإما أن يشتري الوظيفة فيقع تحت طائلة سماسرة التعيينات، وما أكثرهم في وطني!

النتائج بالطبع كارثية، ففضلاً عن كونها تدفع إلى سوق العمل بأجيال من الفاشلين الذين تربوا على القناعة بالمحاباة والواسطة والمحسوبية (إلا من رحم ربي)، الأمر الذي نلمسه في الواقع المشوه الذي نعيشه، ونلمحه في المستقبل الذي يحملنا إلى شفا جُرف هارٍ يوشك أن ينهار بنا في مهاوي الهلكة، فإن الأخطر من ذلك هو ما يُرسخه التوريث الممقوت من تمييز عُنصري بين محظوظين تُحيط بهم أسوار الوظائف والمناصب، وتعساء يتربصون بهم ويتحينون الفرصة لهدم تلك الأسوار، وهدم الوطن!

لا شك أن الحكم الذي أصدرته محكمة القضاء الإداري بالإسكندرية – الدائرة الأولى بالبحيرة – بالأمس، التاسع من مايو ٢٠١٥ (وأقرَّت من خلاله بأن توريث الأبناء وظائف آبائهم وفقًا للمفهوم الدستوري الحديث يُعد جريمة جنائية للتمييز والحض على الكراهية وعدوان على العدالة الاجتماعية)، هو حكم

تاريخي، لكنه يثير التســـــاؤل عن مدى إمكانية تعميمه والامتداد به إلى كافة الوظائف الحكومية في ظل الوضع الحالي!

يقول «عمر بن الخطاب» رضـــي اللّه عنه: مَن اســـتعمل رجلاً لمودة أو لقرابةٍ، لا يســتعمله إلا لذلك، فقد خان اللّه ورســوله والمؤمنين) رواه ابن أبي الدنيا – مســند الفاروق لابن كثير).

(١٢٥) هل تُبكيك رائحة الفساد؟!

- ١٣ مايو ٢٠١٥

بطش الفســـــاد في العالم العربي أقوى من كل الجيوش التي حاربها على مدار عمره كله! ... أصبح الفساد أكبر من كل الأشخاص والقيادات، وتحول إلى نظام موازٍ له قوانين وأعراف خاصة. الغريب أنك لا تجد من يشعر بالمسؤولية عن الفساد؛ الجميع ينسب الفساد إلى الآخرين ويدَّعي الوطنية، مع أن أولى علامات الوطنية أن تؤلمك ورقة مُلقاة وســط الشــارع، أن تُصــيبك حُفرة بالغثيان، أن تُبكيَك رائحة الفساد!

(١٢٦) قل شيئًا ... تجمل بالحقيقة!

- ١٩ مايو ٢٠١٥

قل شيئًا ... تجمل بالحقيقة، لعلك تكسر حاجزًا، أو تُبدد يأسًا، أو تفضح ظالمًا!

في الأول من مايو، أزيح الســتار في ميدان ألكســندر في برلين عما عُرف بتماثيل الرجال الثلاثة، وهـــم على التوالي: الأمريكـــي «إدوارد جـــوزيف سنودن» Edward Joseph Snowden (من مواليد ١٩٨٣)، والاســترالي «جوليان أســانج» Julian Assange(من مواليــد ١٩٧١)، والأمريكي «برادلي مــانينغ» Bradley Manning(من مواليد ١٩٨٧)، تكريمًا لهم بعد أن ضحَّوا بحريتهم إعلاءً للشفافية وحرية الصحافة والرأي والتعبير. قام بنحت التماثيل الثلاثة الفنان الإيطالي «دافيدي دورمينو» Davide Dormino (من مواليد ســنة ١٩٧٣)، وقد نصــبها بحيث يقف

الثلاثة على كراســي مصــطفة في الميدان، وبجوارها كرســي رابع تركه خاليًا تشجيعًا لكل من أراد الوقوف عليه في إطار مشروعه الذي أطلق عليه اسم: «لديك شيئًا لتقوله؟». تجمع مئات الناس في معية الناشطين من حزب الخضر الألماني للترويج لقصــص الثلاثة الذين أودت تســريباتهم بحرياتهم ودفعت بهم إما إلى الهرب أو إلى غيابات سجون القهر وتكميم الافواه.

Davide Dormino - Anything to say? A monument to courage
Source: http://www.art-vibes.com/art/davide-dormino-anything-to-say-a-monument-to-courage/

أما الأول «إدوارد جوزيف ســـــنودن» فقد كان تقنيًا وعميلاً لوكالة الأمن القومي الأمريكية، وأدين في يوليو سنة ٢٠١٣ بتهمة كشف أسرار تتعلق بالتجسس والاعتداء على خصوصية الأفراد، حيث قام بتسريب مواد مصنفة على أنها سرية للغاية من وكالة الأمن القومي، منها برنامج «بريســم» PRISM (برنامج تجســس رقمي يتيح مراقبة معمقة للاتصالات الحية للأفراد) إلى صحيفة الجارديان وصحيفة الواشنطن بوست. وبعد اتهامه رسميًا من قبل الحكومة الأمريكية فرَّ هاربًا ليستقر

به المقام في مكان غير معلوم بروسيا، وسعت عدة هيئات دولية لتكريمه، فحصل سنة ٢٠١٣ على جائزة «سام آدامز» ورُشح لنيل جائزة نوبل للسلام. وأما الثاني «جوليان أسانج» فقد كان صحافيًا ومبرمجًا وناشطًا في مجال الإنترنت، اشتُهر بمشاركته في موقع «ويكيليكس»، واتهُم بنشر وثائق عسكرية ودبلوماسية عن الولايات المتحدة بمساعدة من شركائها في وسائل الإعلام. اعتقل في بريطانيا في السابع من ديسمبر سنة ٢٠١٠ بموجب مذكرة توقيف دولية صادرة عن القضاء السويدي بتهمة اغتصاب وتحرش جنسي، لكنه تمكن من الفرار ولجأ في التاسع عشر من يونيو سنة ٢٠١٢ إلى سفارة الإكوادور في لندن، حتى أعلن وزير خارجية الإكوادور «ريكاردو باتينيو» Ricardo Patiño في السادس عشر من أغسطس سنة ٢٠١٢ أن حكومته قررت منح اللجوء السياسي له بناءً على ما أورده في طلبه من الأخطار التي يمكن أن يتعرض لها في حال تسليمه إلى السويد. وأما الثالث «برادلي مانينغ» فقد عمل كمحلل استخبارات في القوات البرية الأمريكية. وأدين بعدة جرائم وفقًا لقانون التجسس الأمريكي بالإضافة إلى عدة جرائم أخرى، وذلك بعد تسريبه أكبر كم من الوثائق السرية في تاريخ الولايات المتحدة. حُكم عليه بالسجن لمدة ٣٥ عامًا، وتم تسريحه بشكل غير مشرف. من بين ما قام بتسريبه وثائق تُدين الولايات المتحدة الامريكيّة بجرائم حرب في العراق. وفي مايو سنة ٢٠١٠ تم التحفظ عليه في زنزانة انفرادية، وفي أغسطس سنة ٢٠١٣ تم الحكم عليه بالسجن لمدة ٣٥ عامًا، مع إمكانية الإفراج المشروط عنه في السنة الثامنة.

هؤلاء، بغض النظر عن ملابسات حياتهم الشخصية، ينظر إليهم العالم كنماذج لضحايا حرية الصحافة وحرية الرأي والتعبير ... أو كما عبَّر مؤيدوهم: كانت لديهم شجاعة المواجهة، وشجاعة النُطق بكلمة «لا» لقذارة المراقبة الدولية، وقذارة الأكاذيب التي أودت بحياة الآلاف من الضحايا في الحروب والاضطرابات التي أثارتها وتثيرها الولايات المتحدة بدعم من شركائها الأوربيين.

(١٢٧) الأعمى ومبتور الذراعين!

- <u>١٩ مايو ٢٠١٥</u>

رجلان أحدهما أعمى والآخر مبتور الذراعين يزرعان عشرة آلاف شجرة بقريتهما شمال الصين!

Armless Man and His Blind Best Friend Have Planted More Than 10،000 Trees in China - DavidWolfe.com

Source: https://www.davidwolfe.com/armless-man-blind-friend-planted-10000-trees

في محاولة للحفاظ على البيئة الطبيعية وإعادة الحياة إلى الأرض الجرداء، تمكن رجلان أحدهما أعمى والآخر مبتور الذراعين من زراعة عشـــرة آلاف شـــجرة في المنطقة المحيطة بقريتهما شمال الصين. الأول («جيا هياكسا» Jia Haixa، ويبلغ من العمر ٥٣ عامًا) كان لا يرى سوى بعينٍ واحدة منذ الولادة، ثم فقد عينه الأخرى في حادث عمل سنة ٢٠٠٠؛ والثاني («جيا وينكي» Jia Wenqi، ويبلغ أيضًا من العمر ٥٣ عامًا) خسر ذراعيه في حادث عندما كان عمره ثلاث سنوات. ونظرًا لظروفهما التي أعاقتهما عن الحصـــول على فرصـــة عمل، قررا اســـتئجار ما يزيد على ثمانية أفدنة من الأراضـــي الواقعة قرب ضـــفة النهر من الحكومة المحلية، بهدف غرس الأشـــجار للأجيال القادمة. وتمكنا في ســـعيهما لتحقيق هدفهما من حماية قريتهما

من الفيضانات التي كانت تهددها، ولم يحصلا سوى على دخل محدود من التمويل الحكومي. وعلى مدار أكثر من عقد، كان الرجلان يستيقظان يوميًا في السابعة صباحًا، ليبدآن يومهما بشراء الشتلات وغرسها ورعايتها وفق نظام فريد من العمل المشترك؛ لقد تعلما كيف يمكنهما تشكيل فريق عمل ثنائي للتغلب على إعاقتهما؛ فمبتور الذراعين يحمل الأعمى ويوجهه لتسلق الأشجار لقطع أغصانها التي ستصبح أشجارًا جديدة. الرجلان تعلو وجهيهما ابتسامة انتصار اللون الأخضر، وسعادة تحقيق الهدف الذي عملا من أجله ليضيفا شيئًا لأجيال قطعًا ستشكر لهما صنيعهما، ولفت أنظار الآخرين إلى أن الوطن ملكٌ لنا جميعًا، لن يُبنى إلا بأيدينا الملتحمة في ثبات وقوة! ما بال أيدينا إذن في العالم العربي تمتد، لا لتزرع بل لتقطع، لا لتبني بل لتهدم، لا لتعيد الحياة بل لتقتل، لا لتتصافح بل لتولي مستكرةً الآخر؟ كم لدينا من أعين مبصرة لكنها لا ترى سوى مصالحها الوقتية الزائلة، وكم لدينا من أيدٍ سليمة لكنها لا تنشد إلا الموت لمن خالفها الرأي! ماذا قدمنا للأجيال القادمة سوى الفساد والعُري والتخلف والجهل والبيئة المشوهة؟

سنقول لهم: هذا هو الوطن ... وسيقولون لنا قطعًا: أنتم جيل العفن!

(١٢٨) الرغبة في الحياة!

- **١٩ مايو ٢٠١٥**

٣٥,٠٠٠ متظاهر ياباني تدفقوا إلى شوارع ناها Naha (عاصمة محافظة أوكيناوا Okinawa جنوب اليابان) أول أمس الأحد (١٧ مايو ٢٠١٥)، في مسيرة حاشدة احتجاجًا على وجود قاعدة أمريكية في الجزيرة. احتشد المتظاهرون أيضًا في ملعب البيسبول بالمدينة لمعارضة وجود القاعدة الأمريكية «فوتينما» Futenma، ورددوا هتافات غاضبة ضد قرار الرئيس الأمريكي إنشاء قاعدة جديدة في «أوكيناوا»، بعدما كانت الولايات المتحدة قد أعلنت سنة ١٩٩٦ عن خططها لنقل قاعدة

«فوتينما» إلى منطقة «هينوكو» Henoko الساحلية (الأقل سكانًا) في مدينة «ناجو» Nago.

أعرب المتظاهرون عن استيائهم من تجاهل الحكومة لرغبتهم في عدم وجود جنود أمريكيين في مدينتهم، وهي رغبة تفاقمت حدتها منذ سنة ١٩٩٥ حين أقدم جندي أمريكي على اغتصاب تلميذة بالابتدائية بشكل وحشي، الأمر الذي أثار وقتها مسيرات حاشدة وأعمال عنف في عدة مدن يابانية، فضلاً عن السلوكيات الفظة للقوات الأمريكية في المنطقة، وهو ما جعل حساسية اليابانيين تزداد تجاه سياسة رئيس الوزراء «شينزو آبي» Shinzō Abe المؤيدة لأمريكا والمنتهكة لدستور اليابان السلمي. الحوار الجدلي بين الشعب الياباني وحكومته لم ولن ينتهي؛ حوارٌ تحكمه الرغبة في الحياة. والحوار الجدلي بين الشعوب العربية وحكوماتها لم ولن ينتهي؛ حوار يحكمه القهر والتهديد بالموت. أذكر في سنة ٢٠٠٨ أن إجراءات تأمين السفارة الأمريكية بالقاهرة قد دفعت الحكومة المصرية إلى إغلاق خمسة عشر شارعًا، باستخدام أربعة وعشرين حاجزًا حديديًا، وتوزيع تسعين جندي أمن مركزي – بقياداتهم – على كافة مداخل منطقة جاردن سيتي، وتحويلها إلى ما يشبه ثكنة عسكرية بهدف زرع مجسات خرسانية لكشف المعادن والمتفجرات، الأمر الذي أدى إلى إصابة سكانها وأصحاب المحلات بها بخسائر فادحة، حيث تم إغلاق أكثر من سبعة محلات كبرى، وعرض أربعة محلات للبيع! ما بالك إذن إن كان الأمر يتعلق بقاعدة عسكرية؟

(١٢٩) فهرنهيت ... خذ صراعاتك إلى المحرقة!

- ٢٣ مايو ٢٠١٥

كانت متعته الوحيدة أن يحرق، أن يرى الأشياء وقد التهمتها النيران وامتدت منها ألسنة اللهب، أن يراها وقد اسودت وأصبحت رمادًا، بالفوهة النحاسية في قبضته،

والثعبان الهائل يبصق سمومه على العالم، عندما كان الدم ينبض في رأسه، ويشعر كأنه مايسترو جبار يعزف كل سيمفونيات الحرق جالبًا رماد التاريخ!

إنه «مونتاج»، رجل الإطفاء الذي أدمن إقامة عُرس الحرق اليومي لأفكار تحملها صفحات الكتب، مشيعًا إياها قبل بزوغ الفجر إلى حيث تذروها الرياح. هو بطل رواية «فهرنهيت ٤٥١» *Fahrenheit 451* للقاص الأمريكي «راد برادبري» Ray Bradbury (١٩٢٠ – ٢٠١٢)، المنشورة سنة ١٩٥٤، والتي وصفتها مجلة «نيويورك تايمز» بأنها تحمل مضامين مرعبة؛ «فكم هو مبهرٌ حقًا ذلك العالم المجنون الذي تخيله برادبري، والذي يدق نواقيس الخطر كونه يعكس كثيرًا من ملامح عالمنا». تحكي الرواية قصة نظام سلطوي يقوم بغزو العالم في المستقبل، ويجعل التلفاز أداة الدعاية السياسية الرئيسة له، ويقوم بحرق الكتب على درجة ٤٥١ فهرنهايت أملاً في التخلص مما تحويه من موقظات للوعي، وإرثٍ يُعلي من قيمة الإنسان ويذكره بكفاحه من أجل الكرامة والعدالة والحرية والمعقولية ... كان النظام واضحًا وصريحاً بسلطويته وطقوسه؛ الكتب محظورة، يجب أن تُحرق، وكذلك البيوت التي تخبئ الكتب! لقد قرَّر النظام أن الناس لا يجب أن يستقوا آراءهم إلا عبر تلفازه الرسمي، بعد تشذيب للأفكار المضللة والرؤى الهدَّامة (فلسفية، دينية، فنية، تاريخية، أو سياسية)، فالمتربصون كثير، وأمام هذا الخطر، من الضروري أن يسقط القانون وتُسحق العدالة!

وما الأدوات؟ هكذا سأل «مونتاج» رئيسه في إدارة المطافئ، فأجاب: «أدر عقول الناس في آلة الطرد المركزي لتتخلص من كل الأفكار غير المجدية المضيعة للوقت، انشر المزيد من المقالات والرسوم الهزلية في الصحف، أعط الناس صورًا أكثر، اشغلهم بالتوافه، بمباريات الكرة، ببرامج التوك شو، فهي ممتعة وتغري بعدم التفكير، ولتكن كلمة مثقف سُبة كما ينبغي لها أن تكون ... تذكر كيف كنت في طفولتك تكره الصبي الذكي في الصف، وتختصه بالضرب والتعذيب بعد الدراسة، إنه خوفنا المبَّرر من أن نكون أقل من الآخرين ... خذ

صــراعاتك إلى المحرقة يا «مونتاج»؛ النار تحل كل شــيء، النار نقية طاهرة، أعط الناس مسـابقات يربحون فيها وهمًا إذا ما تذكروا أسماء الأغاني الشـهيرة أو أسماء العواصم أو الفروق الدقيقة بين صورتين لجسد امرأة عارية، أشعل غرائزهم بقنوات الرقص وأفلام العُهر ومجون الإعلاميين والإعلاميات، وقضــايا الممثلين والممثلات، اشــغلهم بالتصــريحات المثيرة، وآراء الكُتَّاب المقززة، عذّبهم بالبحث عن حاجات يومهم الضــرورية، دعهم يخوضــوا ويلعبوا ويحققوا ذواتهم في المنتديات وصــفحات الفيس بوك وتويتر، احشهم بالحقائق سريعة الاحتراق حتى يشعروا بأنهم أذكياء!

وفي ليلة خريفية فارقة، وبينما كان مونتاج عائدًا إلى بيته، التقى فتاة في ســـن المراهقة، إنها «كلاريس ماكليلان» جارته الجديدة، تمتزج رائحة الحرق برائحة العطر عبر ممشـى ليلي ... سـألته: ألا تقرأ ولو كتابًا من تلك التي تسـتمتع بحرقها؟ قال: لا، هذا ضــد القانون! تتابعت الأســئلة وتتابعت الإجابات، مزيج من المعقول واللامعقول. جذبته الفتاة، اســـتمع إليها، دفعته لخوض التجربة المحظورة؛ تجربة القراءة، ليندمج تدريجيًا في هذا العالم الســـحري، بل الحقيقي؛ العالم الذي من أجله صمَّمت عجوزٌ ألا يحرقوا كتبها، وآثرت أن تحترق معها!

هكذا دفعته «كلاريس» إلى اكتشـاف عالم آخر، واسـتنشـاق رائحة أخرى ... لقد قرأ ففهم فاستوعب فارتقى فتأنسنّ فتفتحت مداركه فانحاز إلى القراءة، وبعد أن كان من ألد معارضــي الكتب، أصـبح من أخلص المدافعين عنها، لا يتورع عن أن يحث خُطاه إلى المحرقة، محتضــنا بعض الأوراق البالية الصــفراء ... اندمج مع الثوار الذين اعتزلوا المدنية، أولئك الذين يعيشـــون وحدهم بعيدًا عن عالم عبثي، وقد جعلوا مهمتهم هي الحفاظ على تراث البشــرية. كل واحد منهم حفظ كتابًا بعينه حتى صــار هو الكتاب ذاته؛ هذا الرجل هو التوراة، وذاك جمهورية أفلاطون ... هذا هاملت، وذاك آينشـتين ... هذا داروين، وذاك شـكسـبير ... إلخ. آلاف على الطريق وعلى ســـكك الحديد المهجورة، متشـــردون من الخارج ومكتبات من الداخل، يتشبثون بالحياة من أجل المستقبل، من أجل بشرية فقدت رُشدها!

تنتهي الرواية وقد نشبت الحرب النووية وأبيدت عاصمتهم، فلم يبق من أمل لدى البشر الباقين إلا أن يحاولوا استعادة ما اختزنوه في صدورهم من تراث. إنها قصة عالمنا المعاصر باختصار ... لكن الكارثة أن أنظمة اليوم لا تحرق الكتب، بل تحرق العقول. لقد وجد «برادبري» حلاً وإن كان صعبًا لحفظ الكُتب، فأنَّى لنا بحل يحفظ العقول من محرقة الجهل؟ كُن عقلاً ... خُذ صراعاتك إلى المحرقة!

(١٣٠) الجامعات وعواجيز الفكر!

- **٢٥ مايو ٢٠١٥**

ما يحدث في الجامعات المصرية من عبث وتهريج يُنذر بمستقبل مُظلم، بل ربما كان ظلامه حالكًا بأشد مما نتوقع! نحن في حاجة إلى إعادة وضع تعريفات أكثر دقة لمصطلحات نوعية تلوكها الألسنة في الوسط الجامعي: «مجلس» (قسم أو كلية أو جامعة)، «لجنة»، «لائحة»، «مقرر»، «جودة»، «أطروحة»، «كتاب»، «منصب» ... إلخ ... في حاجة إلى التفرقة بين مفاهيم مثل «ذاتي» و«موضوعي»، «خاص» و«عام»، «نظري» و«عملي». في حاجة إلى الكف عن استيراد الأفكار الجاهزة والمريحة التي تعكس مظهرًا تجميليًا يُخفي عوار الداخل المريض!

نحن أخيرًا في حاجة إلى أن ينسحب من المشهد بعض عواجيز الفكر الذين باتوا لا يستطيعون النظر سوى تحت أقدامهم، وإلى بؤرة لا تحيد عن مصالحهم، الذين يتحملون مسؤولية الانهيار عبر عقودٍ خلت!

(١٣١) المُقدس وحُراسه!

- **٢٥ مايو ٢٠١٥**

آفة مجتمعنا النزوع إلى التقديس الكاذب للبشر، اتخاذهم وسائط إما للتقرب إلى الله زُلفى، أو لتحصيل ما هو غير مستحق، أو لاختصار المسافة نحو المرغوب دون جُهد ... تراهم يقدّسون الشيخ أو الواعظ أو الداعية، بل يقبّلون يديه طلبًا للبركة، وقد يكون أقل منهم علمًا وتقوى! ويقدّسون رئيس المصلحة أو الشركة أو المؤسسة، ويسبحون بحمده، وكأنه قد أوتي جوامع الحكمة وتنزه عن الخطأ أو

المراجعة! ويقدّسون صاحب الجاه أو المال وكأنه سيُغدق عليهم من أمواله! ويقدسون القاضي أو الشرطي خوفًا من بطشه ... إلخ. ويتمادى المقدّس وحراسه في بناء أسوار الممنوع من التفكير حول مغزى تقديسهم، تعلو أصواتهم، ويحصنون أنفسهم ضد أداة فضح القدسية الكاذبة: العقل ... لأن مجرد السماح لهذا العضو (العقل) بالعمل، من شأنه أن يعلن بدء تدنيس هذه القدسية الكاذبة في باحة حرمها! إنه النفاق واللاثقة في العقل والركون إلى الدعة والاستسلام من قبل الكثرة، والتجهيل ورهاب العقل والرغبة في التأله من قبل القلة!

أذكر أن ثمة صورًا قامت بتصميمها الفنانة الإيطالية «كريستينا جوجيري» Cristina Guggeri لقادة العالم وهم يقضون حاجاتهم في المراحيض! جاءت الصور تحت عنوان «نداء الواجب»، وكان هدفها هو تذكير الشعوب بأن هؤلاء بشرٌ كمن يحكمونهم، فلا هم آلهة، ولا هم معصومون من الوقوع في الخطأ، ولا قدسية تحول دون نقصٍ بهم يستلزم المراجعة العقلية بالشكل اللائق!

(١٣٢) الهروب من النقد!

- **٣١ مايو ٢٠١٥**

ذهب «أفلاطون» إلى أن كل ما يخدع الناس يمكن وصفه بأنه سحر، والفن سحر، لكنه سحرٌ متحرر من سطحيته ... هو جنون وهذيان، لكنه ينقلنا إلى عالم آخر هو عالم المرئيات كما يراه الساحر. هذه الفكرة تكاد تكون بديهية في عالم الفنون؛ فالفنان يتمثل بتشكيله للمادة الميتة (كالخشب أو الرخام أو الطلاء أو غيرها) محتوى إدراكه الذاتي للعالم.

هذا ما نلمسه في لوحة الرسام الإسباني: «بير بوريل ديل كاسو» Pere Borrell del Caso (١٨٣٥ – ١٩١٠): «الهروب من النقد» Escapando de la crítica، إذ ينأى بنفسه عن الرومانتيكية الزائفة التي سيطرت على فن معاصريه، ويتجه مرغمًا من مثالية الداخل حبيس الرؤى المتعالية الجامدة إلى واقعية الخارج الصارخة، الحية، والمتحررة من أطر المجتمع المقيدة بتحديدات الآخر.

Pere Borrell del Caso Escape from criticism Poster | Posterlounge
Source: https://www.posterlounge.co.uk/escape-from-criticism-/pr543421.html

يظهر في اللوحة طفلٌ فقيرٌ رث الثياب، يتسلق إطار صورته محاولاً التحرر منها قفزًا إلى العالم الحقيقي خارجها ... ربما أراد «بوريل» بلوحته أن يُعبر عن نفسه التواقة إلى الهروب من نُقاد الفن المحافظ في عصره، أولئك الذين لا يرغبون سوى في رؤية الشيء في الإطار المحدد له، لكن اللوحة تعكس في الحقيقة ما يكابده كلٌ منا من تجميدات عبر حياته: النظم الحاكمة تُجمدك في إطارها: افعل ولا تفعل، فليس في الإمكان أفضل مما كان! شيخك يُجمدك: افعل ولا تفعل، فرأينا صواب لا يحتمل الخطأ، ورأي غيرنا خطأ لا يحتمل الصواب!

البرامج التعليمية تُجمدك، منصبك يُجمدك، عملك يُجمدك، أسرتك تُجمدك، الشارع يُجمدك، الإعلام يُجمدك، جسدك يُجمدك ... إلخ. هكذا تتوالى عليك متسلسلة التجميدات، وتظل حبيس الإطار الذي صُمم لك ... قد تجد من يعتني بالصورة ويُهلل لها في مرحلة أو مراحل، فيزداد التجمد، لكن إطارها قطعًا سيبلى، وسيعلو الصورة الغبار حتى تسقط لتحل محلها أخرى لغيرك! حينئذ قد تبحث عن نفسك، عن عقلك، فلا تجدهما! كُلنا هذا الطفل ... هل ثمة من يرغب في الهروب؟ في القفز خارج إطاره؟ وما السبيل؟

(١٣٣) سفسطائيو العرب والبحث عن سقراط!

- ١ يونيو ٢٠١٥

الطبيعة البشـــــرية واحدة، وإن اختلفت المحليات المكانية والزمانية، وتباينت الثقافات والأديان واللغات والأعراف. تتشـابه وقائع ويوميات البشـر، وتتدفق أحداث التاريخ ممتزجةً بأفكار ورغبات وأفعال الماضـي، ليحملها الحاضـر إلى المسـتقبل بكل خياراتها! ولو أردنا وصـــفًا للحالة العربية الراهنة لعدنا أدراجنا إلى الفكر اليوناني القديم، لاسيما الفترة التي شهدت ظهور السفسطائيين (والقياس بالطبع مع فارق البُعد الحضاري للحالتين).

كان العقل اليوناني في ذلك الوقت قد وصـل إلى مرحلةٍ من الشـك لم يعرفها من قبل: شك في الفلسفة التي عجزت عن التنظير الناجح لمعاناة الأثينيين وتفسير الكون والحياة، وشـك في الدين الذي أصـبح مطيةً لأصـحاب المصـالح وطلاب المكانة الزائفة، وشك في العلم الذي امتزج فيه العلماء بالأدعياء، وشك في الحياة السياسية التي اشـتد فيها الاضـطراب وعبثت بها الصـراعات من جهة، والثورات من جهة أخرى، والأهواء الشخصية من جهة ثالثة! شك في النظام الاجتماعي المفتقد للعدالة والقيمة والكرامة والقيم ... شـكٌ في كل شـيء، وحرصٌ ممقوتٌ على المنفعة الخاصـة، وسـعيٌ لتهميش الآخر بكافة السـُبل، وتكالبٌ على المصـالح الوقتية الزائفة، ونفاقٌ لأهل السـلطة والمال، وإفلاسٌ لأهل الرأي والثقافة ... إلخ. في خضـم هذا الشـك الذي أصـاب المجتمع الأثيني برمته، ظهرت الفلسـفة «السـفسـطائية» كمرآة صادقة لحياة فوضوية تنكر كل شيء في ذاته، ولا تعترف إلا بشيء واحد هو المنفعة الفردية الآنية ... كان زعماؤها يطوفون القرى والشـــوارع ينثرون بذور المنفعة، ويعلمون الناس كيف يلبسـون الحق بالباطل، وكيف يعبثون بعقول الأفراد ويغالطون ويخفون الحقيقة في شـتى المجالات؛ في السـياسـة، القضـاء، التعليم، دور العبادة، والأسواق. وبغض النظر عما إذا كانت السفسطائية فلسفة للهدم أو لإعادة

بناء المتهدم، فقد وجدت من يتصدى لها محاورًا ومُعلمًا ومستخرجًا للحق من أفواه الأدعياء، كاشفًا للزيف المتدثر بالحكمة؛ إنه سقراط، رجلٌ عاش فلسفته بدلاً من يكتبها، حوكم زيفًا بتهمة زعزعة الاستقرار وإفساد الشباب، تجرع السُم ومات في هدوء وسكينة، لكن فلسفته لم تمت ... ظلت روحه محلقة فوق أثينا والعالم: اعرف نفسك! وفي بلادنا يكثر الآن السفسطائيون؛ تراهم عن يمينك وعن يسارك، من أمامك ومن خلفك، يحيطون بك، ينتزعون عقلك، يهدمون بلا رؤية للبناء. أينما تُولي وجهك في الوطن المكلوم فثمة سفسطائي يُغالط، يُنكر، يُزيف، يُلبس الحق بالباطل، يتصدر المشهد، يعد الناس وما يعدهم إلا غرورا ... وتزدهر المأساة بغياب سقراط، بتكبيل يديه، بيأسه ... فهل من سقراطٍ عربي ولو بعد حين؟

(١٣٤) أيها المُعلم ... سنكون خيوطًا في يديك!

- **٢ يونيو ٢٠١٥**

أيها المُعلم ... سنكون خيوطًا في يديك، وعلى نولك فلتنسجنا ثوبًا إن أردت، فسنكون قطعة في ثوب العُلى المُتعالي! (جبران خليل جبران).

HUMBLE THE POET: Brazilian boy Diego Frazao Torquato
Source: http://thepoetproject.tumblr.com/post/50365748868/brazilian-boy-diego-frazao-torquato-playing-at-the

تبدو الصــــورة أبلغ من الكلمات، وتظل دموع الطفل دليل إدانة لعالم بلا قلب أو عقل! إنه الطفل البرازيلي «دييجو فرايزو توركواتو» Diego Frazao Torquato، البالغ من العمر اثني عشـر عامًا، وهو يلعب الكمان في جنازة مُعلمه «إفاندرو جواو دا سـيلفا» Evandro Joao da Silva. كان «أفاندرو» يُشـجع الأطفال والشـباب من جميع أنحاء البرازيل على المشــاركة في أنشــطة تُجنبهم عالم الجريمة، وقد اختار «دييغو» ليعلمه العزف على الآلات الموسيقية.

أحب الطفل الموســيقي، وأحب أســتاذه الذي ســاعده على التخلص من الفقر، وعلمه كيف يستعيد إنسانيته التي أوشكت الشوارع أن تشوهها، وكادت قسوة البشــر أن تقتلها. وفي لحظة فارقة من ســنة ٢٠٠٩، قُتل هذا الرجل الملهم في عملية ســطو مسـلح قام بها رجلان تجردا من بشـريتهما ... لقد ألقياه أرضـًا قبل أن يطلقا عليه النار، ثم شـرعا في سـرقة سـترته قبل أن يلوذا بالفرار. لم يكن الشـارع خاليًا، بل لقد تمت عملية القتل أمام أعين رجال الشرطة الذين تركوه ينزف حتى الموت!

لكن القصـة لم تنته عند هذا الحد، ففي غضـون عام من بكائه على مُعلمه في جنازته، وعزفه لأحب المقطوعات إليه، تُوفي الطفل مصــابًا بســرطان الدم، ليلقى أســتاذه في عالم غير العالم، عالم لا تنقطع معزوفاته، ولا تُقتل فيه المشــاعر، ولا تتسـاقط فيه الدموع! عالم لا تقسـو فيه الأفئدة، ولا تُدنس الألسـنة، ولا تنضـح فيه النفوس بالخبث والكراهية!

(١٣٥) حين يبيت الغياب رفضًا مكتومًا لبشاعة البقاء!

- **٤ يونيو ٢٠١٥**

جريدة الوطن (٣ يونيو٢٠١٥): المؤسسة المصرية للنهوض بأوضاع الطفولة تكشف عن اثنين وعشرين حالة انتحار بين الأطفال خلال الستة أشهر الماضية!

حين ينتحر الشــاب أو الشـيخ فتلك ظاهرة قد نفســرها باليأس، أو بكون الموت ملاذًا للهروب من ضـغوط ومسـؤوليات الحياة اللامحتملة، أو بكونه وسـيلة للغياب

التام عن عالمٍ باتت فيه النفس مُغتربة بفعل القهر ... لكن الأمر يختلف قطعًا حين ينتحر الأطفال، حين تُقرر الزهرة النقية والبريئة أن تغترب عن عالمها في صمت وانبطاح وكأنها تُعاتب الوجود! حينئذ لا يغدو الانتحار فعلاً حرًا، بل فعل استسلام غير مُبرر، ويبيت الغياب رفضًا مكتومًا لبشاعة البقاء في هذا العالم ... انتحار الأطفال رسالة قاسية مؤداها أن ثمة شيئًا خطأ، بل ربما أشياء، في مجتمع يعبث به الكبار: اقتصادًا وتعليمًا وسلوكًا وتربية ... فهل نُدرك مغزى الرسالة؟

(١٣٦) من أحق بالنجاة؟!

- **٤ يونيو ٢٠١٥**

رجلان في غابة، رأيا دُبًا يتربص بهما، فشرع الأول في الصلاة، وانحنى الثاني لربط حذائه. قال الأول للثاني: لماذا تربط الحذاء؟ إنك لن تسبق الدُب بحال! فأجاب الثاني: لست في حاجة لأن أسبق الدُب، بل يكفي أن أسبقك!

الاختلاف هنا في نمط التفكير، والذي أراه جليًا بين شرقٍ يركن في عمله إلى التواكل، ويعمد إلى حل مشكلاته بالدعاء دون العمل، وبين غربٍ يُدرك أهمية الملكة التي ميَّز الله بها الإنسان على سائر مخلوقاته: العقل، فلا يُنحيها جانبًا ... أسترجع التاريخ الحديث لعالمنا العربي، فلا أرى فيه سوى معالجة للأمور بالدروشة، بالمظهرية الكاذبة، باستيراد الأفكار والتكنولوجيات الجاهزة المريحة والاسترخاء تباهيًا بحيازتها، بالأغاني الحماسية الكاذبة، باللاعدالة، بالقهر، بالاستسلام، بالتصنيف الهرمي للبشر، بأمجاد يا عرب، بالاعتداد بأهل الفسق والفساد وازدراء أهل العلم والعمل الجاد، ثم الدعاء إلى اللّه! وأسترجع تاريخ الغرب منذ عصر النهضة فأرى فيه استنهاضًا للعقل، سباقًا مع الزمن، كفاحًا من أجل الحرية والعدالة وكرامة الإنسان، بحثًا دؤوبًا عن مواضع الخلل، غربلةً لإيجابيات وسلبيات الماضي، واستقراءً صادقًا لحاجات الحاضر والمستقبل، إدراكًا لأوليات المجتمع، إعلاءً لأهل العلم والفكر! العدو واحد: التخلف والتبعية والفناء، لكن أسلوب مواجهته مختلف ... فمن أحق بالنجاة عند اللّه؟

(١٣٧) كتالونيا!

- **٦ يونيو ٢٠١٥**

منذ بضعة أيام، وبالتحديد في الثلاثين من مايو ٢٠١٥، رفضت جماهير برشلونة التابعة لإقليم كتالونيا Catalonia المطالب بالانفصال، تأدية النشيد الوطني الإسباني في بداية المباراة النهائية لكأس ملك إسبانيا. بل لقد أطلقت صافرات الاستهجان في وجه ملك إسبانيا «فيليب السادس» وكبار رجال الدولة ... الغريب أن قوات الشرطة التي كانت متواجدة بكثافة لم تتدخل، ولم تعتد على كبير أو صغير منهم. وبعد المباراة، كانت هناك بالطبع بعض الأصوات التي طالبت بمعاقبة الجماهير من قبل اتحاد الكرة الإسباني، لكن الملك رفض ذلك تمامًا، مؤكدًا أن احتجاجهم يندرج تحت بند الحريات الشخصية!

وفي استطلاع للرأي أجرته صحيفة «آس» الإسبانية Diario AS إزاء تصرف الكتالونيين واستهانتهم الصارخة بالنشيد الوطني لبلدهم، رأى ٦٠٪ ممن شملهم الاستطلاع أن ما حدث لا يخرج عن نطاق حرية الرأي والتعبير، وحتى الإعلام الإسباني لم يُضخم الأمر، ولم يخرج في فضائياته من يصرخ «تحيا إسبانيا»! لم يقل منافق «إن لم تعجبكم إسبانيا فارحلوا عنها!»، ولم يُطالب أحدهم باعتقال رؤوس الفتنة أو إعدامهم أو حرقهم أو إسقاط الجنسية الإسبانية عنهم! لا عنف، لا تخوين، لا تكفير، لا محاكمات عاجلة، لا تشريعات تُجرم إهانة النشيد الوطني!

بقي أن تعرف أن موضوع انفصال كتالونيا عن إسبانيا ليس وليد اللحظة، بل إن المطالبة بالانفصال نشأت منذ زمن بعيد، بعد خروج العرب من إسبانيا، وأن الحكومة الإسبانية حاولت بقوة إرضاء الكتالونيين بأربعة مشروعات ضخمة في كتالونيا، بحيث تصبح كتالونيا ذات قوة اقتصادية مناظرة لمدريد العاصمة. هذه المشاريع هي: بناء أكبر ميناء في أوروبا، بناء مطار مركزي مثل مطار مدريد، تدشين أسرع سكة قطار حديدية في أوروبا بسرعه ٤٥٠ كم في الساعة، بناء

حديقة ألعاب مثل (ديزني) في الولايات المتحدة ... ومع ذلك يُصر الكتالونيون على موقفهم، دون اضطهاد، ودون تشريعات تضعهم في خانة الخونة والمتربصين بالوطن!

ما بالك إذن بدولٍ وحكومات تمتص دماء رعاياها، وتهدر كرامتهم، وفي الوقت ذاته تطالبهم بالولاء التام دون ذرة تأفف أو انتقاد؟ ما الفرق؟ وأين الخلل؟

(١٣٨) ثقافتنا وصناعة الكتب!

- ٦ يونيو ٢٠١٥

تطرق حديثنا إلى الثقافة وصناعة الكتب، فسألني: هل تعرف الكتاب الذي حقق أعلى نسبة مبيعات في معرض القاهرة الدولي للكتاب لهذا العام؟ قلت: لعله كتابٌ في التنظير السياسي أو المجتمعي أو الاقتصادي أو الديني! قال: لا ... قلت: لعله إذن كتابٌ في الكشف أو الخيال العلمي أو تقنيات المستقبل أو الفلسفة ... إلخ! قال: لا، إنه يا صديقي الكتاب الذي بيعت منه ١٥ ألف نسخة في يوم واحد، وتسبب تدافع الشباب من أجل شرائه إلى تحطيم المقهى الثقافي وتعدد حالات الإغماء في كنف المعرض ... الكتاب الذي صرَّح مؤلفه أنه يهدف إلى إعلاء قيمة الكلمة، وبذل قصارى جهده من أجل إخراجه بالشكل المرغوب ... إنه كتاب «حبيبتي» للمبدع «زاب ثروت»! قلت: لا أعرفه! أهو أديب أو شاعر جديد؟ قال: لا، بل هو الآن أشهر ممن عرفت من الأدباء والشعراء، إنه مُغني «راب» ضمن فريق يُسمى «كاريوكي»! ورغم حداثة المصطلحات بالنسبة لجاهلٍ مثلي، أسرعت إلى البحث عن الكتاب، لأجده حديث المنتديات ومواقع التواصل الاجتماعي منذ بداية هذا العام ... تصفحته، وهالني ما قرأت! حقًا إنه لإبداع أدبي وفني غير مسبوق؛ إبداع يُعبر بقوة عن ثقافة المجتمع، ويُفسر كافة المحن والمصائب التي تحل به!

يا إلهي، أهذا ما يقرأ شبابنا ويتدافعون ويتساقطون من أجله؟ أهذه هي عقول الحاضر والمستقبل؟ فلنحرق إذن كافة ما تحتويه مكتباتنا، ولينتحر أرباب الفكر والأدب والعلم، ولنحطم كافة مؤسساتنا التعليمية والثقافية ... فالقادم يُخرج لنا ألسنته القبيحة!

(١٣٩) ليتنا نكتشف عالم الألوان بثرائه وروعته!

- **٩ يونيو ٢٠١٥**

واحدية الجلباب الفكري ثقافة ممقوتة، تُخالف سُنة الله في خلقه، وتُناقض مفهوم الإنسان ككائن يرقى بالعقل ... ما من أحدٍ حولك إلا ويريدك أن تعيش في جلبابه، أن تفكر بمنطقه، إن كان له منطق! أن تعشق الوطن على طريقته، حتى ولو كان عشقه محكومًا بمصالحه أو بكونه فردًا في قطيع! أن تُطبل وترقص على إيقاعه، ولو كان نشازًا، أن تسمع بأذنيه ولو كانت صماء، أن ترى بعينيه ولو كانت عمياء، تقتفي أثر خطواته ولو كانت مُعوجة، وأن تبيع وتشتري في سوقه ولو كانت سوقًا للنخاسة! انتقلت الواحدية من إقامتها فلسفيًا في الموضوع المتعالي (الوجود – المثال) إلى إقامتها في الذات المفكرة، واللامفكرة، المتمركزة حول إنيتها؛ في الجلباب ذي الشكل الواحد واللون الواحد ... ومن جوف الإنية تخرج نظرية (إما – أو)؛ إما معي أو ضدي؛ إن خالفتني فأنت خائن، وإن انتقدت خطأً أراهُ صوابًا فأنت هادم، وإن كشفت عوارًا تعاميتُ عنه فأنت عميل! نظرية تخلى عنها العالم المتحضر فتكاثرت ألوانه وأثمرت أفكاره علمًا وقيمًا وتنوعًا ثقافيًا نحن أبعد ما نكون عنه!

(١٤٠) همجٌ رعاع ينعقون مع كل ناعق!

- **١٢ يونيو ٢٠١٥**

يُحكى أن «أبا الشمقمق» (مروان بن محمد، وهو شاعر هجاء بخاري الأصل كان من موالي بني أمية) كان يأكل الطعام بالطريق في إحدى أسواق بغداد، فقبض عليه عامل الشرطة وزجره، وأمره أن يتوقف عن الأكل، وأخبره أن الأكل أمام الناس وبالطرقات مذموم ومكروه شرعًا وعُرفًا، فقال الشمقمق ممتعضًا: وأي ناس تقصد؟ فأجابه: هؤلاء المارة بالسوق، ألا تراهم؟ فضحك الشمقمق ساخرًا، وقال: لكني لا أرى أمامي إلا بقرًا رعاع ينعقون مع كل ناعق، وهمّهم عَلَفُهم!

غضب الشرطي، وقال: هؤلاء أناسٌ محترمون، ولماذا تستهزئ بهم؟ والله لآخذنك بذنبك إلى السجن! فأستوقفه الشمقمق وراهنه على أنهم بقر، وأنه سيُثبت ذلك أمام أم عينيه، فوافق الشرطي، فصعد الشمقمق مرتفعًا بالسوق، ونادى بأعلى صوته: أيها الناس! أيها الناس! فهبوا نحوه، واجتمعوا حوله كي يعرفوا صوله وأمره ... فقال: لقد سمعت أبي عن جدي بما رواه عن جده وعن جده، عن فلان قال: إني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: من أوصل لسانه أرنبة أنفه دخل الجنة، فما انتهى الشمقمق من هرجه، وإذا بالناس تُخرج ألسنتها وتريد إيصالها إلي أرنبات أنوفها، فضحك الشمقمق من المنظر وضحك الشرطي، فقال: هل رأيت، أهؤلاء الناس الذين أخبرتني عنهم، أم هم بقرٌ وأضل سبيلاً؟ فقال الشرطي: والله إنهم كذلك، وصدق من قال فيهم همجٌ رعاع، وأتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق!

هكذا هم أكثر الناس في وطني؛ يتلاعب بهم تجار الأديان، سماسرة السياسة، ورويبضات الإعلام، يتبعون النواعق وكأنهم مرايا عاكسة، يُعملقون الأقزام، وتحلو لهم الأوهام، ويُساقون كالأنعام؛ فلا عقل، ولا استقصاء، ولا تأني في إصدار الأحكام، وليتها تصدر عن عقولهم، بل عن شهواتهم وجهالاتهم؛ العلم عندهم شهادة وتوظيف دائم، والدين مجرد لُحى وعمائم، والوطن منصبٌ وغنائم ... بعث الله الرسول إليهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور، فاستحبوا العمى على الهدى، واتبعوا من يخرجونهم من النور إلى الظلمات!

وطني بلا عقل ... مُختلٌ ومُحتلٌ ومُعتلٌ!

(١٤١) نيوتن عاريًا!

- **١٣ يونيو ٢٠١٥**

«أنا لا أصطنع فروضًا» ... هكذا قال «نيوتن» Newton تأكيدًا على منهجه الاستقرائي القائم فقط على الملاحظة والتجربة، وإن لجأ إلى الاستنباط في صياغة

قوانين الحركة! «لكن كل شيء معقد أكثر مما تعتقد ... أنت تشاهد فقط جزءًا صغيرًا من الحقيقة!»، هكذا انتقده «وليم بليك» William Blake (١٧٥٧ – ١٨٢٧)، الشاعر والرسام الانجليزي المعروف.

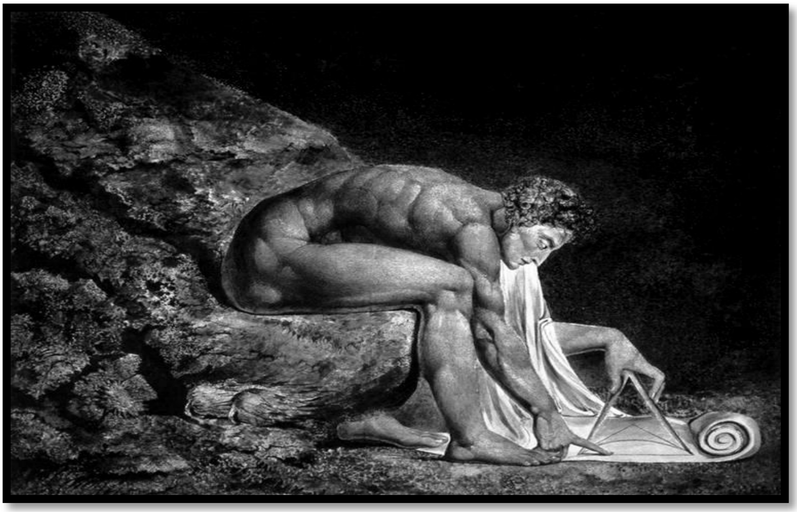

Isaac Newton، 1795 - William Blake - WikiArt.org
Source: https://www.wikiart.org/en/william-blake/isaac-newton-1795

«بليك» هو الفنان الذي تجلت ملامح الحركة الرومانتيكية في أعماله بشكلٍ مُبكر، أي قبل تدشينها رسميًا على أيدي روادها: «كاسبار دافيد فريدريش» Caspar David Friedrich، و«وليم وردزورث» William Wordsworth و«صموئيل تيلر كولرج» Samuel Taylor Coleridge.

يحار نقاد الفن عند تصنيفه، فإذا ما أرادوا تصنيفه وفقًا لمدارس الفن، انتقلوا من عصر النهضة إلى الرومانسية، ومن الرومانسية إلى الواقعية، وهكذا ... بل لقد وصفه معظم معاصريه بالجنون، نظرًا لآرائه الغريبة والمتطرفة في شتى أمور الدين والفلسفة والسياسة والفن! كان شديد الانتقاد لرموز النهضة الأوروبية، وبصفة خاصة لـ «إسحق نيوتن»، و«فرنسيس بيكون» و«جون لوك»، فهؤلاء العلماء والفلاسفة – من وجهة نظره – بتعويلهم على التجريب والمعرفة الحسية، إنما يضعون

المادة في مرتبة أعلى من الروح، ويضـــــــربون عرض الحائط برحابة الخيال والفن والحدس المباشر!

من هنا جاءت فكرة لوحته المعنونة «نيوتن»، وفيها يبدو نيوتن عاريًا، يجلس على صـــخرة في أعماق المحيط، منكباً على ورقة يصــوب عليها فرجاره، محاولاً فهم الكون واسـتنباط قوانين رياضـية توصـله إلى الحقيقة، غافلاً عن أسـرار الكون المحيطة به، ومســــخرًا كامل انتباهه لما هو مخطوط على الورقة! إنه لا يلقي بالاً للأشـجار والأحجار والليل المحيط به، ولا حتى لأسـرار جسـده العاري! الأمر الذي دفع «بليك» إلى التسـاؤل: هل منطق المعادلات هو منطق الكون على الحقيقة، وهل يمكن أن نصل إلى الحقيقة إذا كان كامل انتباهنا منصبًا على الأوراق؟

لا شـــك أن فيزياء نيوتن قد خدمت البشـــر أكثر من لوحات بليك، بل لقد تأثر بليك ذاته بما قدمه نيوتن من أفكار عن الضوء واللون، ما ألهمه كثرة من الصـور والرؤى الشـــعرية، ومع ذلك تظل اللوحة عملاً فنيًا رائعًا، يُعبر عن محدودية النظرة لكل أولئك الذين يعتكفون داخل عقولهم دون أن يوجهوا نظرهم بين الفينة والأخرى إلى النافذة، كي ينظروا إلى بُعد آخر من أبعاد الحقيقة؛ أولئك الذين أوقفوا العالم عند رؤاهم وإن كانت قاصرة، الذين اتخذوا من أيديولوجياتهم سجنًا يموتون بداخله من أجل اللاشـــيء، الذين يعبدون أصـــنامًا نحتوها بأيديهم لينحروا حريتهم وبشـــريتهم ومســـتقبلهم قرابين تحت أقدامها ... هؤلاء هم أهل وطني، لذا أقول لهم افتحوا نوافذكم لتسـتنشـقوا هواءً جديدًا نظيفًا، حطموا أسـوار الوهم وظلال الكهف لتروا ضـوء الشـمس ... حرروا أنفسـكم بشـمول الوعي، فالحقيقة أضخم وأخصب مما تظنون!

(١٤٢) الروهينجا ورسالة الفن!

- <u>١٤ يونيو ٢٠١٥</u>

فنهم وفننا ... ممثلوهم وممثلينا! ... الفن رســـالة، قبل أن يكون إبداعًا أو مهنة تُدر المال والشـــهرة؛ هو كل ما يهزنا ويضـــعنا وجهًا لوجه أمام واقع نكابده

ونسـعى إلى تعقيله، هو عنوان غنى النفس واتصـالها الوثيق بالكون والحياة ... والفنانون الحقيقيون يتواجدون في الحدث الفعلي بحثًا عن الإنسانية مثلما يتواجدون في أعمالهم، والإنسانية لا دين لها ولا قومية!

سـئمت المقارنات المؤلمة بين غرب وشـرق، جدٍ وهزل، إنسـانية وبهيمية، لكني أجدني مضـطرًا للتوقف أمام هذا المشـهد؛ رسـالة الفن كما فهموها وطبقوها، ورسالة الفن كما فهمناها وطبقناها (إن كان لدينا ثمة فن)! أين ممثلونا ومشايخنا وإعلاميونا مثلاً – الذين ينتفضـون دومًا لتوافه الأمور – من الممثل الأمريكي «مات ديلون» Matt Dillon الذي اتجه بفنه وشـهرته إلى إحدى أكثر المناطق سـخونة وخطورة في العالم: «ميانامار» ... أدرك أن الفن رسالة، فشد رحاله إلى أحد مخيمات «الروهينجا» Rohingya (المسـلمين) لتسـليط الضـوء على محنتهم كأقلية تواجه الاضطهاد والتمييز العنصري والقتل الممنهج من قبل السلطات البورمية!

«إنه لأمرٌ مفجع، جرحى وقتلى، أمهات يحملن أطفالهن الرُضـع وتعلو وجوههم وأجسـادهم جميعًا علامات سـوء التغذية، أطفال عرايا يلعبون في الأتربة ويبدون مهزومين تمامًا، أناسٌ يفرون في قوارب الموت دونما جهة هربًا من الموت والعنف اللاإنسـاني ... يفر منهم الحاضـر والمسـتقبل، وما من أحدٍ يريدهم، ذنبهم الوحيد أنهم مسلمون»! هكذا صرَّح ديلون واصفًا مأساتهم التي غفل عنها فنانونا ومشايخنا وإعلامنا، وباتت دماؤهم أرخص من برميل نفط في خليجنا! لم تكن هذه هي الزيارة الأولى لديلون إلى بؤر الصراع في العالم، فقد سبق له زيارة مخيمات اللاجئين في السـودان والكونغو وغيرها، وهو ما قامت به بالمثل الممثلة الأمريكية «أنجلينا جولي» Angelina Jolie في مارس من سـنة ٢٠١٣، حين ارتحلت لزيارة مخيمات اللاجئين في سوريا ... اهتمام الممثلين الغربيين بقضية «الروهينجا» ساهم في التعريف بهم وبمحنتهم، واهتمام ممثلينا بالرقص والغناء أثمر جهلاً فاحشًا بهم في مجتمعنا، فمن هم الروهينجا؟ هم جماعة مسـلمة تسـتوطن ولاية أراكان غرب بورما، يبلغ

عددهم وفق تقديرات سنة ٢٠١٢ حوالي ٨٠٠,٠٠٠ نسمة، وتعتبرهم الأمم المتحدة أكثر الأقليات اضطهادًا في العالم. ويرجع أصل المسمى «روهينجا» وفق إحدى الروايات إلى الكلمة العربية «رحمة» التي نطق بها رحالة عرب تحطمت سفينتهم على الشاطئ وأمر ملك البلاد آنذاك بقتلهم، فصاحوا «الرحمة ... الرحمة»، فسماهم الناس «راهام» والتي تم تحريفها لكلمة «الروهينجا» الحالية. ويذهب آخرون إلى أن أسلاف «الروهينجا» هم من الروها في أفغانستان، وفي المقابل يقول البعض إن أصل الكلمة هو المملكة الأركانية القديمة «مروهاونج».

ما زالت قضية الروهنجيا التي أثارت غضب العالم في أغلب الأوقات، عالقة دون حل، وتتدهور يومًا بعد الآخر؛ حيث تعاني الأقلية المسلمة من اضطهاد وتطرف الأغلبية البوذية، وما زلنا نحن، وما زال فننا ... في مقاعد المتفرجين!

(١٤٣) محمد قاسم ... سلامٌ على أستاذي!

- **٢٢ يونيو ٢٠١٥**

في مثل هذا اليوم (الثاني والعشرين من يونيو) من سنة ٢٠٠٧ توفي أستاذي الذي أحببته كثيرًا، الأستاذ الدكتور محمد محمد قاسم، أستاذ المنطق وفلسفة العلم بكلية الآداب جامعة الإسكندرية، عن عُمر يناهز الثامنة والخمسين (١٧ يونيو ١٩٤٩ – ٢٢ يونيو ٢٠٠٧). ثمان سنوات تمر على مغادرته عالم الظاهر إلى عالم الحقيقة الذي طالما ناشدني وناشد طلابه البحث عنه والعمل من أجله، ومع ذلك تأبى بسمته أن تفارق خيالي، وتأبى كلماته أن تفارق ذهني، وتأبى روحه النقية إلا ان تُحلق حولي كلما ألّم بي وجعٌ مبعثه واقعٌ يُصر على التواطؤ ضد كل ما هو عقلي، وكل ما هو منطقي! عرفته في بداية الثمانينات من القرن الماضي ... كنت وقتها طالبًا بقسم الفلسفة بجامعة الإسكندرية، وكنت ساخطًا على دراسة الفلسفة، لا لعيب فيها، وإنما لتناقض بين ما تُخبرنا به من قيمٍ للحق والخير والجمال، وبين سلوكيات كثرة من المشتغلين بها، حتى لقد هممت وقتئذٍ بكتابة

مقال عنوانه: لِم اللافلسفة؟! التقيته ... فإذا به كما أراه الآن رغم غيابه؛ ابتسامة واثق، وهدوء عالِم، وبساطة صديق، وتواضع كبير، وإشفاقة مُحب، وعطاء مُعلم، وبوابة حكمة بلا أقفال تحول دونها ... حَدثني عن أناقة المظهر حين تُخفي عوار الفكر، وعن روعة الداخل المخفي حين تؤنق الخارج المنظور!

عرفت وقتئذ أن صدق قضية الحياة مرهونٌ بشروط، وأن قوة النسق في تماسكه وتمامه وكفاية مقدماته، وأن سطوع الباطل وهمٌ لا يقوى على البقاء إن كشفت زيفه! أفتقدك أستاذي ... أكاد أهاتفك كعادتي لمجرد الاستماع إليك، أكاد أراك في كل صفحة من كتاباتك: *نظريات المنطق الرمزي (بحث في الحساب التحليلي والمصطلح)*؛ *كارل بوبر (نظرية المعرفة في ضوء المنهج العلمي)*؛ *في الفكر الفلسفي المعاصر (رؤية علمية)*؛ *جوتلوب فريجه (نظرية الأعداد بين الإبستمولوجيا والأنطولوجيا)*؛ *المدخل إلى فلسفة العلوم*؛ *مدخل إلى الفلسفة*؛ *المدخل إلى مناهج البحث العلمي* ... إلخ! لا أملك في هذه الأيام الطيبة إلا أن أدعو لك، رحمك الله أستاذي، وسلامٌ عليك في علياء وملكوت الرحمن الرحيم.

(١٤٤) من عصورنا المظلمة إلى سنة عشرة آلاف!

- **٢٦ يونيو ٢٠١٥**

أبسط توصيف لحياة البشر في حقبة بعينها هو أنها سلسلة من القرارات في إطار جدلية التحدي والاستجابة؛ تحدي الواقع واستجابة العقل لهذا التحدي ... وقد يعجز العقل عن مواجهة الواقع فتتجمد استجابته، أو تتمثل في الفرار إلى الماضي بُغية التماس السلوى في إبداعات الأجداد، وهو ما نجده مثلاً في استجابات المصريين المتتالية حين يفرون إلى ماضيهم الفرعوني القديم، أو في جل استجابات العرب حين يفرون إلى الماضي الذهبي للحضارة العربية الإسلامية ... وفي الحالتين يتيه العقل في غيابات التخلف، تمامًا كالنعامة تُخفي رأسها في الرمال هربًا من صائدها! وقد يستشرف العقل بقراراته المستقبل، ولو على سبيل الخيال، انطلاقًا من معطيات

تؤهله لإثبات الذات، وهو ما نجده في كثرة من قصص الخيال العلمي التي يكاد يخلو منها فكرنا العربي!

«*سنة عشرة آلاف ميلادية*» هي إحدى نماذج هذه القصص، كتبها القاص والسيناريست الأمريكي «وليام هاربن» William Harben (١٨٥٨ – ١٩١٩) سنة ١٨٩٢، متخيلاً المدى الذي يمكن أن يبلغه تقدم العقل البشري بعد ما يقرب من ثمانمائة قرن! أختلف مع الكاتب في تصوره لموقف العقل المستقبلي من الأديان، لا لشيء إلا لعدم تفرقته بين الدين، وفهم البشر للدين في معية فكرة الوصاية باسم الخالق، لذا اختصرت الجزء الخاص بالأديان مع تعديل طفيف لا يخل بمغزى الرواية. أختلف أيضًا مع تصور الكاتب لتأثير أكل اللحوم على البشر بالسلب، فما تخيله الكاتب من إبداعات وإنجازات علمية قد بات قاب قوسين أو أدنى من التحقق بعد أقل من قرنين فقط، وليس مائة قرن، رغم تناول البشر للحوم. ومع ذلك تبقى الرواية في النهاية تعبيرًا عن نمط تفكير مختلف أحلم فقط بإرهاصاته في وطني ... هيا إلى الرواية.

سنة عشرة آلاف ميلادية! [وليام هاربن]

رجلٌ مُسن، يبلغ من العمر أكثر من ستمائة سنة، كان يصطحب ولده الصغير في ردهات متحف ضخم، وكان الناس يتجولون حولهم بأشكال زاهية، ووجوه صقلتها الحضارة ونفوس غمرتها الروحانية بشكلٍ لا يوصف.

قال الولد: «لقد وعدتني يا أبي بأن تُحدثني عن العصور المظلمة. أود أن أسمع منك كيف عاش الناس وكيف كانوا يفكرون في تلك العصور البائدة». أجاب الأب: «ليس من السهل يا ولدي أن تفهم الماضي، فمن الصعب أن تُدرك مدى ما بلغه الإنسان من جهل منذ ثمانية آلاف عامٍ خلت. ولكن تعال معي وسأريك شيئًا».

اصطحب الأب ولده إلى قاعة تحوي عددًا قليلاً من الكتب البالية المحاطة بالذهب الخالص، وقال: «أنت لم تر كتابًا قط»، ثم حمل بحرصٍ مجلدًا كبيرًا منها ووضعه فوق وسادة من الحرير على إحدى طاولات القاعة، مفسرًا فعله هذا

بقوله: «لا يوجد الآن سوى عدد قليل جدًا من هذه الكتب تحفظها المتاحف الرائدة في العالم. وقد كان ثمة زمن يُماثل فيه عدد الكتب عدد سكان الأرض»!

رد الصبي ومعالم الدهشة ترتسم على وجهه: «لا أستطيع أن أفهم يا أبي. لا أستطيع أن أدرك ما الذي كان يريده الناس من هذه الكتب؛ إنها ليست جذابة، ويبدو أنه لا طائل من ورائها»! ابتسم الرجل العجوز قائلاً: «حين كنت في مثل عُمرك كان هذا الموضوع مؤرقًا لي للغاية، لكني بعدما عكفت على دراسة دقيقة للماضي، أصبح استخدام الكتب سهلاً لي بالتدريج. نحن نعلم أن أفضل العقول قد قرأتها سنة ٢٠٠٠. ولكي أجعلك تفهم هذا، يجب أن أبدأ بتوضيح أن البشر قبل ثمانية آلاف سنة كانوا يتواصلون فكريًا من خلال أصوات ينطقونها بألسنتهم، وليس بقراءة الأفكار مباشرة كما نفعل أنا وأنت. إنك لكي تفهمني يجب عليك ببساطة أن تقرأ أفكاري، لكن الإنسان البدائي لم يكن يعرف شيئًا عن تواصل الأفكار، لذا اخترع الكتابة، ومن ثم انقسمت البشرية إلى أعراق مختلفة، وكل عرق باتت له لغته الخاصة المستقلة. وكما كانت الأصوات تنقل أفكارًا محددة، كذلك كانت العلامات والحروف. وفي وقت لاحق، تم اختراع الكتابة والطباعة لتسهيل تبادل الأفكار، وهذا كتابٌ مطبوع».

انحنى الصبي إلى الأمام وتفحص صفحات الكتاب عن كثب، ثم قال وجبينه يتصبب عرقًا: «لا أستطيع أن أفهم، يبدو بلا فائدة!». أجاب الرجل العجوز بدوره: «إن سطرًا من هذه الكلمات ربما نقل فكرةً قيمة للقارئ منذ فترة طويلة. لقد كان هذا الكتاب في الواقع تاريخًا للعالم حتى سنة ٢٠٠٠، وهذه بعض الصور»، ثم راح يقلب الأوراق البالية بعناية مقدمًا بعض الشرح: هذا هو «جورج واشنطن» George Washington؛ وهذا بابا كنيسة تُسمى الروم الكاثوليك؛ وهذا رجلٌ يُدعى «جلادستون» Gladstone، كان زعيمًا سياسيًا كبيرًا في انجلترا. لقد كانت الصور وقتئذٍ فجة كما ترى، ونحن نحتفظ ببعض اللوحات الزيتية التي تعود إلى

تلك الحقبة. كان الفنانون الأوائل إذا ما أرادوا رسم لوحة، مزجوا الدهانات الملونة ثم قاموا بتعميمها وفقًا لأذواقهم على أقمشة ممتدة على الحوائط أو نوافذ المباني. وأنت تعرف يا بني أن فنانينا اليوم يُلقون الضوء والظلام في الفضاء بالتباينات اللازمة، والتأثير هو كل ما يمكن أن يكون مرجوًا في سبيل تقليد الطبيعة. أنظر القبو المواجه لك؛ إن أوراق الأشجار، العُشب، الزهور، وامتداد الماء، تتخذ مظهر الحياة لأن الضوء الذي أنتجها هو ضوءٌ حي».

نظر الصبي إلى المشهد بإعجاب لبضع دقائق، ثم انحنى مرة أخرى على الكتاب تعلو وجهه نظرة غريبة من الاشمئزاز، ثم قال: «هؤلاء الناس لهم وجوه مُروعة، ولا يُشبهون الناس الآن ... لديهم جميعًا أفواه ضخمة ولكل منهم فكين حادين مخيفين. من المؤكد أن الإنسان لا يمكن أن يكون شبيهًا بهذا». أجاب الرجل العجوز بلطف: «نعم يا بني، لا شك أن البشر وقتئذ كانوا أقرب شبهًا من الحيوانات الأدنى مما نحن عليه الآن. في فن النحت والتصوير عبر كل العصور يمكنك أن تلاحظ صقلاً تدريجيًا في ملامح البشر. إن ملامح الجنس البشري اليوم أكثر مثالية، فالفكر ينطبع دائمًا على ملامح الوجه. وفي تلك الأيام المظلمة لم تكن أفكار البشر مشذبة؛ لقد مات كثيرٌ من البشر جوعًا، ولم يكن لديهم اهتمام بالمدن. كان ثمة أغنياء للغاية، لكنهم لم يستخدموا أموالهم من أجل حياة أفضل لذويهم من ذات الجنس! كانوا أقرب إلى الحيوانات الأدنى لأنهم كانوا يؤمنون بالحرب. ولقرون عديدة، ظل ملايين الناس يعتبرون جورج واشنطن رجلاً جيدًا وعظيمًا، مع أن آلاف البشر فقدوا حياتهم تحت قيادته في المعارك».

سأل الصبي أباه وقد انحنى بشكلٍ أدق على الكتاب: «هل تعني أنه شجَّع الناس على قتل بعضهم البعض؟». أجاب الأب: «نعم، ولكن لا يمكننا إلقاء اللوم عليه. لقد كان يعتقد أنه على صواب، وقد صفَّق له الملايين من رعيته. ثمة محاربٌ عظيم آخر في ذلك الوقت كان يُدعى نابليون بونابرت، لقد خاض واشنطون الحرب

معتقدًا أنه يُســدي لوطنه خدمة الدفاع عنه ضــد الأعداء. لكن التاريخ يؤكد أن نابليون قد شــن الحرب إرضــاءً لطموحه الشــخصــي، وتنصــيبًا لنفســه كبطل بين الناس. لقد كانت الحيوانات البرية من الطبقات الأدنى تتســم بالشــجاعة وتقاتل بعضها البعض حتى الموت. وحتى البشر الأكثر تهذيبًا قبل نحو ثمانية أو تسعة آلاف ســنة كانوا يتباهون بأنفســهم بذات قســوة الطبيعة. وحتى المرأة، نصــف البشــرية اللطيف، احتفت بإنجازات الرجال الجريئة في ســفك الدماء بما يفوق احتفائها بأي إنجازٍ آخر. لكن جريمة القتل لم تكن تُرتكب في الحروب فقط، بل لقد قتل الناس بعضهم البعض على مستوى الحياة الخاصة أيضًا، وكم كان غريبًا أن يدفع الآباء والأمهات بأبنائهم إلى الموت. ولطالما أصــــدرت أعلى المحاكم في العالم أحكامًا بالقتل دون أدني اعتقاد بأن القتل فعلٌ خاطئ. لقد اعتقدوا أن القتل هو الوسيلة الوحيدة لمنع القتل». سأل الصبي: «ألم يُدرك أحدٌ في ذلك الوقت بشاعة ما يفعلونه؟».

أجاب الأب: «نعم. في زمن يعود إلى عشرة آلاف سنة، كان ثمة رجلٌ صالح يُعرف باســم يســوع المســيح، كان ينتقل من مكان إلى آخر، ويُخبر كل من يقابله بأن العالم ســيصــبح أفضــل إذا أحب الناس بعضــهم البعض» ... (وقس على ذلك كافة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم)».

صمت الصبي دقائق ثم عاود التساؤل: «... ألم ينفذ البشر ما أمروهم به؟».

أجاب الأب: «لا، على ما يبدو. لقد قالوا إن البشــــر لا يمكنهم أن يحيوا وفقًا لتعاليمهم ...»، ثم أردف: «... إن العديد من المعتقدات حول شريعة الخالق قد تسببت في المزيد من إراقة الدماء في تلك الأيام القاتمة من الماضــي أكثر من أي شــيء آخر. كان الدين هو الأساس للعديد من أكثر الحروب ترويعًا، وقد ارتكب البشر آلاف الجرائم باســم إله الكون؛ أُحرق الرجال والنســاء أحياءً لأنهم كانوا لا يعتقدون في

مذاهب بعينها ... لكنك ستتعلم كل هذه الأشياء في وقت لاحق من حياتك. هذه الصورة التي أمامك هي صورة آخر ملكة لإنجلترا، وتُدعى فيكتوريا».

قال الصبي وهو يحدق في الصورة: «كنت آمل ألا تكون للنساء تلك الصفات المثيرة للاشمئزاز مثل الرجال. لكن هذا الوجه يجعلني أرتجف. لماذا تبدو وجوههم جميعًا خشنة ووحشية للغاية؟». أجاب الأب: «الناس الذين حكمتهم تلك الملكة مارسوا أكثر العادات خزيًا في التاريخ الأسود للبشرية ... لقد أكلوا اللحوم، واعتقدوا أن الحيوانات والطيور والأسماك مخلوقات يمكن أكلها».

ارتجف الصبي صارخًا «مستحيل!»، ثم أعرض بوجهه عن الكتاب قائلاً: «لقد فهمت الآن لماذا تنفرني وجوههم. أنا لا أرغب في مجرد التفكير أننا انحدرنا من أصلاب مثل هؤلاء البشر». قال الأب: «لم تكن لديهم معرفة، لكنهم تعلموا تدريجيًا طهي اللحوم باستخدام النيران، وطبخها في أوعية ساخنة لتغيير مظهرها. كما تم نقل الأماكن التي تُقتل فيها الحيوانات وتُباع إلى مناطق منعزلة. وقد تخلت البشرية عن هذه العادة ببطء، ففي وقت مبكر من سنة ٢٠٥٠ أثبت من كانوا يُعرفون باسم النباتيين أن تعاطي هذه الأغذية يتسم بالقسوة والوحشية، وأنها تُسبب تأخرًا في النمو العقلي. ومع ذلك لم تصبح حركة النباتيين حركة ذات أهمية حتى سنة ٢٣٠٠ تقريبًا. وقتئذ تكيفت الفئات الأعلى تعليمًا مع حركة النباتيين، ولم تستمر في قتل وأكل الحيوانات سوى الفئات غير المتعلمة. وقد حاول النباتيون لسنوات سن قوانين تحظر استهلاك اللحوم، لكن المعارضة كانت شديدة للغاية. وفي سنة ٢٣٢٠ تم بناء مستعمرة في أمريكا لثلاثمائة نباتي تقريبًا. قام هؤلاء بشراء مساحات واسعة من الأراضي فيما كان يُعرف بالإقليم الهندي، وبنوا فيها بيوتهم عازمين على أن يُثبتوا بالأمثلة مدى فعالية عقيدتهم. وخلال السنة الأولى تضاعف عدد من يقطنون المستعمرة، وانضم إليهم أناس من جميع أنحاء العالم. وفي سنة ٤٠٠٠ أصبحت البلاد ملكًا لهم، ووُلدت ألمع العقول في أراضيهم، وقدَّموا أعظم

الاكتشـافات والاختراعات؛ ففي سـنة ٤٠٣٠ اكتشـف جيليت Gillette نوعًا من الكريسـتال المعالج. كان الناس حتى ذلك الحين يبنون بيوتهم من الحجر الطبيعي والخشـب القابل للاشـتعال، لكن المادة الجديدة ذات الألوان الجذابة والقدرة على مقاومة الحريق باتت تُسـتخدم في جميع أغراض البناء. وفي سـنة ٤٠٥٠ اكتشـف هولواي Holloway تعاقبًا مغمورًا من السـلاسـل الجبلية عبر المحيط الأطلنطي، وكان يهدف إلى بناء جسـر فوق قممها، لكن التحسـن الكبير في مركبات الهواء جعل تنفيذ خططه غير عملي. وفي سـنة ٤٠٥١ اكتشـف جون سـوندرز John Saunders التليغراف الفكري Thought-telegraphy، وقد كان هذا الاكتشاف بمثابة علامة على بدء انطلاق علم القراءة العقلية في المدارس والجامعات، وبحلول سـنة ٥٠٠٠ تم إحراز تقدم كبير في هذا الفرع من المعرفة، ولم يعد يتواصـل بالكلمات سوى الفئات الأدنى من غير المتعلمين. يا لها من لحظة في تاريخ العالم تلك التي ظهر فيها هذا الاكتشـاف الهام .لقد أدى إلى تحضـر العالم، ولم يكن المروجون المبكرون له يحلمون بأن يتبادل البشـر قراءة أفكار بعضهم البعض بمثل هذا الإتقان. لقد أدى الاكتشـاف إلى قتل الشـر وإن ببطء؛ حيث تم تدشـين جمعيات لمقاومة الفكر الشـرير في كافة أنحاء الأرض، ووُلد أطفال أنقياء العقل ليتربوا في طهارة، واختفت الجريمة من الوجود. وحيثما وُجد إنسـان شـرير فسـرعان ما كانت تتم قراءة أفكاره فلا يُسـمح له بالبقاء. كان البشـر يحيدون في البداية عن أفكارهم الشريرة خوفًا من العقاب، لكنهم بعدئذ نشأوا على حب النقاء. وفي سنة ٦٠٢١ أصـبح لجميع دول العالم لغة مشـتركة، والتحموا تحت مظلة المحبة الأخوية بالتبادل المتواصـل للأفكار، واتفقوا على الانضـواء في وحدة أرضية بلا حكومة أو حُكام.

لقد كان حدثًا عظيمًا في تاريخ العالم. وفي ألمانيا كان ثمة مجموعة من الطلاب ذوي عقول معينة حسـاسـة، حاولوا التواصـل مع الكواكب الأخرى عبر قناة

الأفكار، وقد أعلنوا أنه بالنظر إلى إجماع أهل الأرض بشأن هذا المسعى، فإنهم قد تلقوا انطباعات عقلية من الكواكب الأخرى، وأن التبادل الشامل للأفكار بين الكواكب بات احتمالاً قويًا في المستقبل.

لقد أصبحت الاختراعات الهامة واقعًا حيًا بعد أن ارتقى العقل الإنساني .وتمكن ثورنتون Thornton من ابتكار خطة لتسخين سطح الأرض بالنار المتوهجة بداخلها، وقد أدى هذا الابتكار إلى إنجاز رحلات إلى الأقطار الرائعة المتجمدة الواقعة في القطبين الشمالي والجنوبي ... لتتوالى أعظم اختراعات البشر في سلاسة، وصولاً إلى ما تراه الآن! تُرى، هل يبلغ البشر سنة عشرة آلاف، أم سيقودهم العقل إلى الفناء قبل ذلك بكثير؟

(١٤٥) تأملات رمضانية

- <u>**٢٧ يونيو ٢٠١٥**</u>

- **قبل** سنوات ليست بعيدة، كنت تدخل المسجد فتجد وجوهًا ضاحكة مستبشرة، تخلع مع حذائها عند باب المسجد هموم الحياة وإن كثرت، التماسًا لرحمة الله ورضوانه. هذا ما لا تجده اليوم، فما أن تدخل المسجد حتى تجد وجوها مكفهرة، متعالية، توشك أن تصب عليك غضبها، حتى ليظن أحدهم أنه يمُن عليك بالوقوف إلى جواره، والويل لك إن مسست أصابع قدمه بأصابع قدمك بُغية استواء الصف!
- يدخل بعضهم المسجد لأداء صلاة العشاء، فما أن يُسلّم الإمام حتى تجدهم متزاحمين عند باب المسجد للخروج في مشهدٍ أشبه بالهروب الجماعي من شيء ما! وقد ينتظر أحدهم لأداء الركعات الأربع الأولى من صلاة القيام، ثم يُولي هاربًا، لتجده بعد الصلاة جالسًا بلا عملٍ أمام بيته أو محله! قد يكون للبعض عذرهم، لكن أكثرهم تجدهم هائمين على وجوههم في الطرقات دون جدوى؛ يرتكب الناس ذنوبهم بإتقانٍ وتأنٍ ورسمٍ سابق وخططٍ محكمة وإعدادٍ قديم،

فإذا تعلق الأمر بالخالق خطفوا له ركعات ثم فروا! هذا المشـــــهد المتكرر يستدعي إعادة النظر في مفهوم الصلاة ومغزاها لدى كثير من المصلين.

- يُصر ابني الصغير «عمرو» (تسع سنوات) على الذهاب معي إلى المسجد لأداء صلاة القيام؛ يقف بجانبي ملتزمًا بآداب الصلاة دون ضجر أو تشويش، ورغم حرصي على عدم الوقوف به خلف الإمام مباشرة، لإتاحة الفرصة لتقدم أولي الأحلام والنهي (لتنبيه الإمام على سهوٍ إن طرأ، أو استخلاف أحدهم إن تتطلب الأمر)، إلا أن الصبي لم يسلم من فقه أحد ذوي اللُحي الطويلة الذي كان ينظر إلينا شزرًا، ثم أصدر أوامره بترك الطفل في الصف الأخير! هممت بمراجعته فقهًا وعقلاً، لكن دوجماطيقيته كانت الأسرع، في إصرار غريب على تنفير الطفل من الصلاة في المسجد!
- إن ساقتك الظروف إلى مصلحة حكومية في نهار رمضان، رأيت وجوهًا كالحة، عليها غبرة، ترهقها قترة، إلا من رحم ربي، وكأن الصيام عقابٌ يستدعي العقاب!
- أكثر ما يتجلى في الموائد الرمضانية ودعوات الإفطار المنزلية هو النفاق والتفاخر والتبذير، وغالبًا ما يكون المدعوون من الأغنياء أو ذوي المناصب (صغيرة كانت أو كبيرة)!
- افتتاح محل على الشارع الرئيس؛ مقاعد ممتدة على الرصيف، وسيارات تقف متراصة إلى منتصف الطريق؛ مكبرات صوت ضخمة تبث سمومها من الأغاني الهابطة لساعات، لا أظنها سوى مكبرات جهل، مكبرات تخلف، مكبرات تسيب، مكبرات تحدي للقانون وللرقابة الغائبة، مكبرات تلوث عقلي وحضاري لا مثيل لها في أي من دول العالم ... مكبرات للصورة الفعلية لعصرٍ نكابده ويكابدنا!

- كرسي على المقهى يعني غالبًا عاطلاً أو مُغيبًا، أو بالأحرى قوة بشرية معطلة أو مُغيبة! هذا أقل ما يمكن أن يوصف به مشهد ازدحام المقاهي بعد الإفطار: هذا يلعب، وذاك يُدخن؛ هذا يضحك، وذاك يسب ويسخر؛ هذا يُشاهد التلفاز، وذاك يُحلل ما عنَّ له من أحداث؛ هذا يتأمل العابرات من النساء، وذاك يضع قدمًا فوق الأخرى مستسلمًا لبطنه الممتلئة! أذكر لي أمة في تاريخ البشرية بها كل هذه الموارد الطبيعية والبشرية والصناعية والزراعية والفكرية والتاريخية والحضارية والجغرافية والاجتماعية والطائفية، ثم تصمم على أن تكون أمة عاطلة، باطلة، همجية، عبثية، تصمم على الهيافة بإصرار يدعو إلى الإعجاب!
- التحدي الحقيقي الذي تعيشه كل يوم، وكل لحظة، في منطقتنا العربية، حتى في رمضان، هو أن تغادر بيتك كقطعة واحدة كاملة، ثم تعود إليه مرة أخرى كقطعة واحدة كاملة ... التحدي الحقيقي أن تعود إلى بيتك ككائن بشري طبيعي، وألا تتحول – تحت أي ظرف – إلى شظايا إنسان أو بقايا عقل! تشعر بين غزاة الشوارع وكأنك بين أمواج متلاطمة من العقول والسلوكيات الفجة، تتعذر معها الرؤية، وينسحب العقل، ويتبدد الأمل في الحاضر والمستقبل!
- ما زالت دار الإفتاء تتحفنا في رمضان بفتاوى من قبيل: حكم استخدام شطافة الحمام في نهار رمضان، حكم إزالة شعر العانة والإبط باستخدام الليزر، ... إلخ! نريد فتوى توضح حكم الإلغاء الجمعي للعقل، والتسطيح القومي للوعي، والتلويث العمدي للقيم في نهار رمضان! رمضان كريم.

(١٤٦) كم عدد شعر رأسك!

- <u>٢ يوليو ٢٠١٥</u>

الجهل جهل ... وليس دليلاً على شيء سوى أننا نجهل!

كان جُحا غزير الشعر، فسأله أحد جلسائه مداعبًا: «كم عدد شعر رأسك يا جُحا؟»، فأجابه جُحا بدون تردد: «عدده واحد وخمسون ألفًا وثلاثمائة وتسع وستون

شعرة». فقال له جليسه متعجبًا: «وكيف عرفت ذلك؟!»، فأجابه جُحا: «إن كنت لا تصدقني فقم أنت بعدّه شعرة شعرة»!

لقد احتكم جُحا إلى جهل جليسه واستحالة قيامه عمليًا بعدّ شعر رأسه، وهي المغالطة المعروفة منطقيًا بمغالطة الاحتكام إلى الجهل Appeal to Ignorance. إن جُحا نفسه جاهلٌ بعدد شعر رأسه، لكنه أعفى نفسه من الاعتراف بجهله، وعوَّل على جهل مُحدثه وعدم قدرته على التحقق ليثبت صدق قضية لا برهان على صدقها!

هذا ما تجده بكثرة في وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي؛ الترويج لمعلومة أو معلومات تفتقر إلى الدليل على صحتها، أو صحة عكسها، لا لشيء إلا لكونها تُرضي نوازع بعينها لدى الأفراد والجماعات، أو تدعم سياسات وتوجهات يُراد استثمارها مجتمعيًا، ولا بأس من صور تُعزز المعلومة وتكتسب قوة التصديق لدى العقل العاجز الخاوي! لا بأس أيضًا من استغلالٍ للعاطفة الدينية أو الوطنية الجياشة للجمع المُغيب! هذا هو المدخل الرئيس للانقسام والتخوين والتكفير والكراهية واللامعقولية في مجتمعات مجرفة الوعي، منزوعة الفكر، مدربة على الاندفاع والصراخ خلف أبواق الجهل! في وطني، المجد للجهل!

(١٤٧) سقروطة، والسُحب، والحقائق المقلوبة!

- **<u>١٣ يوليو ٢٠١٥</u>**

«**السُحب**» The Clouds هي إحدى المسرحيات الكوميدية التي قُدمت سنة ٤٢٣ قبل الميلاد، كتبها الكاتب الإغريقي «أريستوفانيس» Aristophanes (٤٤٦ – ٣٨٦ ق. م) موجهًا سهام سُخريته إلى واحدٍ من أكبر وأشهر الفلاسفة الذين جادت بهم البشرية: «سقراط»! ولا عجب أن تجد «سقراط» عبر السطور سفسطائيا هادمًا لمنطق الحق مؤثرًا لمنطق الباطل ومروجًا له، فقد كان «أريستوفانيس» بوقًا إعلاميًا لمجتمعٍ أتقن الفساد؛ مجتمع غشيه الشك في كل شيء، وأسكره الباطل المتضخم في معية النفس التواقة إلى خلخلة القيم، حتى ليقرر «سقراط» نفسه حضور العرض

المســـرحي الهزلي لمشـــاهدته، بل والوقوف طوال مدة عرضـــه في محاولة لحث المشـاهدين على المقارنة بين صـورته الحقيقية وصـورته الكوميدية، لكن هيهات هيهات، فقد أدانته محكمة المجتمع التائه في غيابات الفوضـــى بتهمة إفســـاد الشباب، ولقي حتفه بعد عرض هذه المسرحية بنحو خمسة وعشرين عامًا!

تبدأ المسـرحية برجلٍ مُسـنٍ يدعى «سـتربسـياديس» Strepsiades، وهو اسـم يعني المراوغ، أثقلته الديون بسبب حذلقة زوجته الأرستقراطية ربيبة الصالونات، وإسراف ابنه «فيدبيديس» Pheidippides الذي يعشـــــق الخيول ولا يفكر إلا في اللهو والفروسية، ويختال بشعره المسترسل على كتفيه. ولا يجد العجوز مخرجًا من مأزقه سـوى أن يُعلم ابنه الجدل ومنطق الباطل لدى «سـقراط» (السـفسـطائي القادر علي قلب الحق باطلاً كما صـــوَّرته المســـرحية). ولكن الابن يرفض الذهاب لنزقه وعصـيانه، فيذهب الأب نفســه إلى مدرســة «ســقراط» أو «حانوت الأفكار» بلغة «أريستوفانيس»، وأمام جوقة المسـرحية المكونة من «السُحب» بوصفها «ربَّات» يبدأ «ســـقراط» في تعليم الشـــيخ، لكن الأخير يُظهر من الغباء حدًا جعله عاجزًا عن التعلم، فقد كان ذهنه دومًا شـــاردًا في ديونه المتراكمة، لذلك يأمره «ســـقراط» بإحضـــار ابنه بدلاً منه لأنه شـيخ عجوز كثير النسـيان! وبعد ترغيب وترهيب يقتنع الابن بالذهاب بدلاً من أبيه، ومن ثم يعهد به «ســـقراط» إلى كل من منطق الحق ومنطق الباطل كي يقوما بتعليمه، ويدور بين المنطقين مشـــــهدٌ جدلي من أمتع ما احتوته المسرحية، ينتهي بانتصار منطق الباطل!

وبعد أن يُتم الابن تعليمه يذهب إلى والده ليُنقذه بالفعل من عبء ديونه، فلقد تعلم فن الجدل ومنطق الباطل، ويســـتطيع الآن أن يدافع عنه أمام المحاكم، ويدفع عنه أفظع التهم. ولكن هيهات أن ينعم الأب بذلك، فلقد كان من نتيجة تشـــرُب الابن لتعاليم السفسطائيين و«سقراط» أنه انقلب على أبيه، فبدأ في ضرب الأب العجوز، والتهديد بضـــرب الأم بحجة أنهما فشـــلا في تربيته، ســـائقًا لفعله تبريرات منطقية

تظهر أن الحق بجانبه ... وقتئذٍ ندم «ستربسياديس» على ما فعل وثاب إلى رشده، وصمَّم على حرق مدرسة «سقراط» ... وبهذا الحريق تنتهي المسرحية!

Scene-from-Aristophanes
Source: http://www.elliswashingtonreport.com/wp-content/uploads/2017/07/scene-from-Aristophanes.jpg

تحمل المسرحية كثيرًا من الدلالات؛ لعل أهمها قوة الإعلام في تشويه الحقائق حتى لتبدو أمام العامة مجرد أكاذيب تُحرض على القتل، فرغم شهرة «سقراط» في المجتمع الأثيني، وحرصه على إعلاء ملكة التفكير، فإن من بين أهم أسباب توجيه الاتهام له فيما بعد هو تصديق من أقاموا عليه الدعوى لإشاعات روَّجها مبغضوه؛ إشاعات مفادها أنه رجل آثم ينهك نفسه ويبدد جهده فيما لا طائل من ورائه، باحثًا فيما هو تحت الأرض وما في السماء، يُعلم الناس الجدل وهو يتأرجح متدليًا من سلة في الفضاء، زاعمًا أنه يمشي في الهواء ويهذي بكلامٍ غث لا قيمة له!

أما الضربة الكوميدية الكبرى في مسرحية «السحب» فقد وُجهت للتعليم ورغبات الآباء وللمثقفين برمتهم، إذ يسخر المؤلف فيها من البحث العلمي، مؤكدًا أنه شيء لا طائل منه، بل هو على العكس سلوك مناف للأخلاق. ويظهر المثقفون

في هذه المسرحية مخلوقات قذرة متسخة وأشباحًا هزيلة ونسخًا باهتة لأصل زائف هو «سقراط» الذي تُحرق مدرسته في النهاية ويُطرد شر طردة.

خذ هذا المشهد الذي قد تراه الآن واقعًا وتمثيلاً:

- ستربسياديس: (مخاطبًا سقراط بصوت عال): سقراط! عزيزي سقراط! سقروطة ... يا سقروطة (بصوت منخفض وبلطف).
- سقراط: (من فوق السلة) لماذا تناديني أيها المخلوق، أنت يا إنسان يا قصير العمر؟
- ستربسياديس: قل لي أولاً: ماذا تفعل عندك؟ اشرح لي بربك!
- سقراط: أمشي في الهواء، ومن عليائي ألقي نظرة تأمل على الشمس!
- ستربسياديس: إذن فمن هذه السلة لا من الأرض تلقي نظرة فوقية على الآلهة، وتتأملهم، فماذا لو ...؟
- سقراط: ما كنت لأكتشف من الأجرام السماوية قط إن لم أبحثها وقد ارتفعت بعقلي إلى أعلى ومزجت تفكيري الذهني الرفيع بمثيله من الهواء الأثيري الساطع، ولو كان عَليَّ أن أبحث في كل هذه المسائل العلوية وأنا قابع في الدنيا ما كنت لأكتشف شيئًا منها قط ... هذا صحيح لأن الأرض بطبيعتها تشد عصارة الذهن إلى أسفل بقوة جاذبيتها، وتفعل مثلما يفعل نبات الجرجير تمامًا اذ يمتص مياه النباتات المجاورة فيقتلها.
- ستربسياديس: ماذا تقول؟ يجذب عصارة الحياة للجرجير؟ تعال، تعال، انزل الآن فورًا يا سقروطة، انزل لتعلمني الدروس فمن أجل هذا جئتك!

احذروا «أريستوفانيس» و«ستربسياديس» فأمثالهما من حولكم وعلى الشاشات كثير؛ لا يبحثون عن مجتمع يكفل كرامة الإنسان وحريته وقيمته، بل عن مجتمع يكفل العُري والتخلف وحرية الإفساد في ثوبٍ قشيب!

(١٤٨) كُن فاسدًا بامتياز!

- **٢٢ يوليو ٢٠١٥**

إذا أردت أن تكون سيدًا في مجتمع يسوده الفساد، فعليك أن تكون فاسدًا بامتياز! وإذا أردت أن تكون ناجحًا في مجتمع شيمته الفشل، فعليك أن تكون فاشلاً بامتياز! وإذا أردت أن تكون بارزًا في مجتمع يؤثر الجنون، فعليك أن تكون مجنونًا بامتياز! وإذا أردت أن تكون مميزًا في مزبلة الحياة، فعليك أن تعرف الدور المناسب لك، المرغوب منك، وأن تتقمصه جيدًا، وأن تتقن أداءه!

هذا باختصار ما يمكن أن تخرج به من متابعة أحداث الوطن على مدار اليوم؛ أكاذيب ممقوتة، شائعات محبوكة، كوميديات هزلية مؤلمة، تراجيديات حزينة ساخرة، مسرحيات مأساوية مضحكة ومبكية، مسلسلات عبثية عديمة الجدوى، نرجسيات جنونية غالبة، علاقات اجتماعية تحكمها المصالح وسياسات الإلهاء والتجييش والاستقطاب، تحرشات لفظية وفكرية تطال الجميع، قضايا شائكة وتافهة، قديمة وطازجة، يتم استهلاكها سريعًا، جهالات وظلمات بعضها فوق بعض ... إلخ. قواعد راسخة، الاستثناء فيها نادر، والعقل على أعتابها حائر ... حتى الحزن ينزوي عنها بعيدًا حفاظًا على جلاله!

(١٤٩) البحث عن الآخر الكوني!

- **٢٥ يوليو ٢٠١٥**

لم يزل استكشاف المجهول، والبحث عن كوكبٍ آخر يتدفق به الماء ويُتيح حياةً كالحياة الأرضية، حُلمًا يداعب عقل الإنسان البائس المغترب في موطنه ... تراه مُحملقًا في قلب الظلام، مستمعًا في خشوع إلى صرير السكون، مأخوذًا بتحدي قوة الجمال، مسكنًا ظمأه إلى سرٍ كوني يؤرقه، هاربًا من وحدته وغربته وعذاباته الأرضية إلى المحتمل الغامض.

هذا ما عبَّرت عنه إدارة الطيران والفضـــــاء الأمريكية «ناســــا» (بتاريخ الثالث والعشرين من يوليو ٢٠١٥) في إعلانها عن نجاح التليسكوب كبلر في العثور علـــى كوكب خارج مجموعتنا الشـــمســـية، أطلق عليه اســـم «كبلر ٤٥٣ ب» Kepler-452b، يكاد يكون مماثلاً للأرض في الحجم ودرجة الحرارة ووجود الماء، ويدور حول نجمٍ يُشبه الشمس (أطلق عليه هذا الاسم نسبة إلى الفلكي الألماني «يوهانز كبلر» Johannes Kepler، والرقم ٤٥٣ يشـــير إلى ترتيب اكتشـــافه من قبل التليســـكوب كبلر، والحرف «ب» يمثل ترتيب بُعد الكوكب عن النجم؛ فمثلا لوكان النجم ١٨٦ لديه ستة كواكب، فإن الكوكب الأقرب يُسمى «كبلر ١٨٦ أ»، والكوكب الثاني يســـمى «كبلر ١٨٦ ب»، وهكذا وصـــولاً الى الكوكب الأبعد عن النجم).

يقع الكوكب المكتشـــف في مجموعة نجمية تُعرف باســـم «مجموعة الدجاجة» Cygnus، وهي أقدم من مجموعتنا بما يقرب من ١,٥ مليار ســـنة. أما عن حجمه، فمن المعتقد أنه أكبر من الأرض بنحو ٦٠٪، ويســـبح في الفضـــاء على بُعدٍ يبلغ نحو ١٤٠٠ سنة ضوئية من الأرض، ويبعد عن شمسه (التي هي أكثر إشعاعًا من شمسنا بحوالي ٢٠٪) بمســـافة تزيد عن بُعد الأرض عن شمســـها بنحو ٥٪، حيث يبلغ مداره حولها ٣٨٥ يومًا، لذا وصفت «ناسا» الكوكب بأنه «ابن عم الأرض الأكبر حجمًا وعُمرًا» Earth's Bigger, Older Cousin.

لم يشغلني التساؤل عن مدى إمكانية وصول الإنسان إلى الكوكب لاستعماره؛ فمن الممكن منطقيًا، وإن كان من غير الممكن فيزيائيًا في الوقت الحالي، أن يتمكن الإنسان من السفر عبر الفضاء بسرعة تقترب من سرعة الضوء ليتجول في عالمه الكبير، وكم من ممكنٍ بالمنطق بات ممكنًا بالفيزياء من قبل! كما لم يشغلني التساؤل عن مدى وجود كائنات حية عاقلة تستوطن الكوكب، ولا ما إذا كانت تعرفنا وترغب في التواصل معنا؛ فلقد ظلت هذه الفرضية لزمن طويل، وحتى

يومنا هذا، حقلاً من حقول الخيال العلمي، وكل الحجج العلمية المتوافرة حتى اللحظة الراهنة تؤكد بوضوح على أننا قد نكون المخلوقات العاقلة الوحيدة في هذا الكون. وهو ما يذهب إليه الفلكي البريطاني «جون جريبان» John Gribbin في كتابه *«وحيدون في هذا الكون: لماذا كوكبنا فريدٌ من نوعه؟»* *Alone in the Universe: Why Our Planet is Unique* المنشور سنة ٢٠١١. وحتى لو افترضنا (على سبيل الخيال) أن الكون مأهولٌ بشكل كثيف بالكائنات العاقلة، فسوف يظل الدرس الدارويني واضحًا: لن يوجد بشر في مكان آخر، فهنا فقط وعلى هذا الكوكب الصغير يوجد الناس، ونحن نوعٌ نادر ومعرض للخطر. وإذا ما اختلف إنسانٌ معك دعه يعيش، لأنك لن تجد إنسانًا آخر في مئة مليار مجرة!

إنما وجدتني – في معية المكتسبات العلمية الفضائية وتجلياتها في العلوم الأرضية الأخرى – مشغولاً بتساؤلات من نوع آخر: لماذا ينتاب الإنسان الخوف من فكرة وجوده وحيدًا في الكون؟

هل يعلم أن طمعه وإفساده في الأرض وسفكه للدماء وأنانيته ... كل ذلك سيحول دون بقائه على الأرض؟ لماذا يُدمر الارض بعناية ويبحث في الوقت ذاته عن موطن بديل في ربوع الكون؟ وإذا تحقق حلمه في الفرار من أوجاع عبثيته، وطقوس قسوته وغبائه، ومعزوفات حقده، وتدنيسات جرائمه لأرضه، وقبل ذلك قنصه لإنسانيته البكر، فهل ستسود العدالة وترفرف رايات الحرية ويتوقف سفك الدماء على الكوكب البديل؟

ألن يكون هناك سادة وعبيد، حُكامٌ ومحكومون، قتلة ومقتولون؟ صخبٌ وسجون وخرائط مرسومة بأقلام معبأة بحبر الكراهية الأسود؟ ألن ينبثق العداء وتنشب الحروب؟ ألن يكون الإنسان ضيفًا ثقيلاً غير مرغوب به على الكوكب أو الوطن المنشود؟

تساؤلات ينطق تاريخنا الأرضي بإجاباتها ... فاللهم لا ملجأ منك إلا إليك.

(١٥٠) اسكندرية المُحتلة!

- **٢٦ يوليو ٢٠١٥**

لا أنكر أن ازدحام الإسكندرية بالمصطافين خلال فصل الصيف يُحقق رواجًا تجاريًا وسياحيًا، ولا أنكر أن من حق كل مواطن مصري – غنيًا كان أو فقيرًا – أن يستمتع بشواطئ بلده في الإسكندرية وغيرها، أما أن تتحول الإسكندرية إلى مستعمرة يعيث فيها المصطافون تشويهًا وإفسادًا وصخبًا؛ أن تتحول إلى سجنٍ لأهلها فلا يستطيعون الخروج من بيوتهم حتى لقضاء مصالحهم نهارًا أو ليلاً؛ أن يضطر قاطنوها إلى الهروب منها طلبًا للهدوء والراحة وممارسة حقهم في الترفيه ... فهذا ما أعنيه حين أصف الإسكندرية بالمدينة المحتلة!

يكفي أن تتجول لبضع دقائق في أيٍ من شوارع المدينة لترصد ممارسات جنود الاحتلال:

ازدحام بشري ومروري لا يُطاق، رجال وأطفال بملابسهم الداخلية (غالبًا القطعة السُفلى فقط)، نساء كاسيات عاريات تلتصق العباءات المبللة بأجسادهن، افتراش مقزز وغير حضاري لأرصفة الكورنيش بأكملها، تلال من القمامة تملأ الشوارع والشواطئ، انقطاعات متتالية للمياه عن المنازل لتوفيرها للوافدين في أماكن بعينها، ضوضاء وصخب بدءًا من منتصف الليل وحتى ساعات الصباح الأولى، ألفاظ بذيئة وتحرشات متعددة الأشكال والأبعاد ... إلخ.

لا أتحدث بالطبع عن كل الوافدين إلى الإسكندرية، فمنهم من يأبى إلا احترام المكان الذي يحل عليه ضيفًا عزيزًا، بل ويتأذى من هذه السلوكيات الفجة، ولا أتحدث أيضًا عن طبقات اجتماعية بعينها، فالسلوك الحضاري لا تحتكره طبقات، إنما أتحدث عن فئة أراها غالبة، تغزو الإسكندرية صيفًا لتدمر ما بقي منها!

مجرد سؤال: هل يقبل هؤلاء أن يحدث ذلك في مدنهم ومحافظاتهم؟

(١٥١) نحتج بأنفسنا على أنفسنا!

- **٢٧ يوليو ٢٠١٥**

كان الشيخ «صفي الدين الهندي» (المتوفى سنة ٧١٥ هـــ)، يكتب بخطٍ غاية في الرداءة، وكان رجلاً ظريفاً ساخراً. قال ذات مرة: وجدت في سوق الكتب كتاباً بخطٍ ظننته أقبح من خطي، فغاليت في ثمنه واشتريته لأحتج به على من يدّعي أن خطي أقبح الخطوط، فلما عدت إلى البيت اكتشفت أنه بخطي القديم!

هكذا نحن في خُطط وبرامج التطوير والتحديث والتجديد، وكذا في خطابنا الإعلامي؛ نحتج بأن ثمة من هو أسوأ منا، فإذا بنا نحتج بأنفسنا على أنفسنا!

(١٥٢) لم يرق خيالهم إلى زماننا العربي!

- **٢٧ يوليو ٢٠١٥**

في مسرحيته: «هاملت يستيقظ متأخرًا»، يورد «ممدوح عدوان» النص التالي على لسان أحد أبطال المسرحية: «في الصين القديمة حين كانوا يغضبون من شخص ما ويريدون أن يتوجهوا ضده بالدعاءِ كانوا يقولون له: «فلتعيشك الآلهة في زمنٍ هام ... مرَّت بنا هذه العبارة ولم نكتشف ما تعنيه إلا حينما اكتشفنا أننا نعيش في زمن هام؛ كان زمن المسؤوليات الكبيرة والقهر والقلق اليومي على النفس والآخرين والوطن». لم يُدرك الصينيون القدماء أن الزمن يمكن أن يكون هامًا، وتسود فيه التفاهة والحقارة والجهل، وفنون الكلامولوجيا، حين يصير الكلام في حد ذاته إنجازًا! ... لم يرق خيالهم إلى زماننا العربي!

(١٥٣) أيسلندا والمساواة بين الجنسين!

- **٦ أغسطس ٢٠١٥**

كيف بلغت أيسلندا أعلى مستوى للمساواة بين الجنسين في العالم؟ في سنة ١٩٧٥، أعلن ما نسبته ٩٠٪ من نساء أيسلندا الإضراب، ورفضن القيام بأية أعمال منزلية أو

مهنية لحين تحقيق مطالبهن المتمثلة في مساواة المرأة بالرجل أدبيًا وماليًا. كانت تلك هي أكبر تظاهرة شهدتها أيسلندا في تاريخها، وترتب عليها إغلاق المدارس ورياض الأطفال والمستشفيات والمطارات وغيرها من مواقع العمل التي تُسهم فيها المرأة بنصيب وافر، فضلاً عن ارتباك الرجال الذين وجدوا بيوتهم خاوية على عروشها، الأمر الذي أصاب الدولة بالشلل التام.

في العام التالي أصدر البرلمان الأيسلندي قانونًا يضمن للمرأة المساواة بالرجل في الأجر، وإجازة أمومة مدفوعة الأجر. وبعدها بأربع سنوات تم انتخاب امرأة كرئيسة لأيسلندا، لتصبح أول رئيسة دولة في العالم، وتغدو أيسلندا قوة اقتصادية تنعم بدفء المساواة.

مشكلة المرأة لدينا ليست في الدين الذي يضمن لها مساواةً قوامها العدل بين الجنسين في الإمكانات والحقوق والواجبات، ولا في قدرة المرأة على إثبات ذاتها واقتناص حقوقها بغير لغة الجسد، بل في مفهوم المرأة ذاتها للحقوق، وقناعتها بالدور المرسوم لها بعناية ... مشكلة المرأة في الثقافة والوعي الحياتي، وهي مشكلة يُسأل عنها الرجل بقدر ما تُسأل المرأة ... يُسأل عنها المسؤول عن تدهور قيمة الإنسان وتخلف أمة بأكملها!

ويظل جسد المرأة متربعًا على قائمة اهتمامات الرجل العربي، إلا من رحم ربي ... التابو المقيم في العقل، المُهمش بثقافة الرغبة!

(١٥٤) عن قناة السويس الجديدة!

- **٦ أغسطس ٢٠١٥**

في لقاء جمعني ببعض الأصدقاء، كان لابد وأن يتطرق الحديث إلى موضوع الساعة: قناة السويس؛ وجدت نفسي – كما لو كنت أتصفح الفيس بوك – في مواجهة فريقين متنازعين؛ الأول يدافع، والثاني يهاجم ... وفجأة سألني أحدهم: لماذا

أنت صامت؟ ما قولك في حجم المشروع وجدواه وتوقيته؟ وهل هي «قناة» كما يُردد المؤيدون، أم «تفريعة» كما يُروج المعارضون؟ لم أملك إلا أن أجيب بما يلي:

أولاً: لست ممن يصدرون أحكامًا استنادًا إلى مزاجٍ سياسي أو ترويج إعلامي؛ فثمة من هم معنيون بإصدار الأحكام في هذا الصدد، أعني في جدوى المشروع الاقتصادية، وطرائقه الهندسية، وجغرافيته المكانية. أولئك هم التكنوقراط من خبراء اقتصاد ومهندسين وجغرافيين، ... إلخ، وهؤلاء – وفقًا لقراءاتي خلال الفترة السابقة – منقسمون فيما بينهم ما بين مؤيد ومعارض، بغض النظر عن تذبذب نسبة تفوق بعضهم على البعض الآخر.

أما وقد صدر القرار السياسي بتنفيذ المشروع، وتم الإعلان عن إنجاز عملية الحفر، فلا نملك نحن من غير المتخصصين سوي انتظار ما تحمله الأيام والسنوات التالية من نصر علمي وعملي لأحد الفريقين، ونأمل ألا يخذلنا المؤيدون.

ثانيًا: ثمة صخب إعلامي ومجتمعي وبذخ كلامي وتهويل سياسي – يتسم بالمبالغة غير المبررة – يصاحب الإعلان عن افتتاح المشروع، بل يذهب البعض إلى وصفه بالمعجزة التي لا مثيل لها!

حين قلت لأصدقائي أن ثمة إنجازات علمية واقتصادية هائلة (فضائية وتكنولوجية) تشهدها دول العالم المتقدم دون أن تقيم الأفراح والليالي الملاح في كافة مرافق الدولة ومؤسساتها، رد أحدهم قائلاً: وهل تريد مثلاً من عالمٍ ابتكر نظرية علمية جديدًا أن يحتفل بها بمثل ما يحتفل جاهل بنجاح ولده في الإعدادية؟ بينما أجابني آخر بقوله: نحن في مرحلة سياسية فارقة، وثمة ما يستوجب البروباجندا الإعلامية – والتهويل أحيانًا – بُغية التفاف الشعب حول قيادته وإعادة الثقة بين المحكوم والحاكم ... حينئذٍ أدركت مدى قوة المغالطات التي يعيشها أكثرنا طوعًا أو كرهًا!

ثالثًا: كونها قناة أو تفريعة مردوده إلى حالة الوعي الســائدة والمرئية من قبل القائم بالتسمية، وكذلك إلى المعنى الدقيق لكل مصطلح! القناة بالتعريف الجغرافي ممر أو طريق مائي اصــطناعي يربط بين بحرين عامين بهدف تســهيل الملاحة الدولية. والتعريف واضــح لكل مبتغٍ للدقة ومطلع على خرائط المنطقة والمشــروع. وفي هذا الصــدد، اســتمعت بالأمس إلى حوار لكبير مرشــدي قناة الســويس على إحدى القنوات الإخبارية، وقد وصــف ما تم حفره بالتفريعة، فإذا بالمذيع يراجعه: لكن ضــخامة العمل تجعله أقرب إلى القناة، فيســتدرك الرجل قائلاً: نعم، بل هي قناة وفقًا لحجم العمل ومردوده!

رابعًا: باســتقراء التاريخ، واســتدعاء العقل الغائب قهرًا وكمدًا، لن تقوم أمة وتفيق من غيبوبتها الحضارية سوى بمشروع نهضوي تعليمي يُعيد الوعي إلى حالته البشرية الطبيعية، ويضع الإعلام في موضعه المرغوب، ويحقق التوافق بين اســتقرار الداخل وقوة الخارج، ويدفع بالأجيال اللاحقة إلى الحضارة الحقيقة عبر سُبلها المنطقية.

حفظ الله مصر ورفع رايتها.

(١٥٥) الرسم بالكلمات!

- **٧ أغسطس ٢٠١٥**

لم أعد أســتســيغ أي مؤتمر، أو ندوة، يحوي عنوانه أو عنوانها كلمات مثل «تجديد»، «تحديث»، «أصــالة الماضــي»، «تحديات الحاضــر»، «آفاق المســتقبل» ... إلخ، فأقصــى ما نخرج به لا يتعدى نطاق الرســم بالكلمات، وتجديد القاعات، وتأنيق الياقات!

لا نعرف عن أصــالة الماضــي شــيئًا ســوى التغني بها أو البكاء على أطلالها، ولا نعرف عن تحديات الحاضــر أو آفاق المســتقبل شــيئًا ســوى التماس فتات الموائد، وإطلاق التصــريحات، ثم الرقص في الســاحات ... نعود بعدها إلى منازلنا قانعين بأننا قد أدينا ما علينا، ونخلد للنوم وعلى وجوهنا ابتســـــامات بلهاء ... ننتظر عناوين

صُحفٍ عرجاء، تشيد بنجاح مؤتمرنا وقوة ندوتنا ... لنعيد كرة التحديث والتجديد من جديد!

(١٥٦) يبولون علينا ويقولون تُمطر!

- **٧ أغسطس 2015**

مقولة للكاتب والرسام والشاعر والطبيب الإسباني «ألفونسو دانييل رودريغث كاستيلاو» Alfonso Daniel Rodríguez Castelao (١٨٨٦ – ١٩٥٠)، أحد أبرز قادة الحركات الفيدرالية في إسبانيا خلال النصف الأول من القرن العشرين، وجاءت في سياق خطاب ألقاه لشرح أسباب خيبة أمله في مفاوضات حركته مع الحكومة المركزية، فيما يتعلق بالمطالبة بصلاحيات أكبر واستقلالية أوسع للحكومات الإقليمية. فالسلطة المركزية تعتبر أن ما تعرضه يعتبر تنازلاً خطيرًا، في حين اعتبره هو مجرد تفاهات لا ترقى إلى طموحات مواطنيه. يتسع نطاق تطبيق المقولة ليشمل كافة تصريحات المسؤولين في الوطن العربي؛ فما أن يتولى أحدهم منصبه حتى يُصاب بحمى التصريحات عن قصد أو عن غير قصد، موضحًا أنه ليس في الإمكان أفضل مما كان، وأن إنجازاته وعطاياه تتوالى على سبيل الفضل والإحسان، وأن سماءه تُمطر، لكن رعاياه لا يشكرون، بل هم تائهون في غيابات السلب والنكران!

ماذا لو فُرض على كل مسؤول – في أية جهة حكومية – أن يدفع مبلغًا ماليًا عن كل تصريح يُصدره، تتفاوت قيمته وفقًا لقوة التصريح ومحتواه ومدته ومدى صدقه أو إمكانية تحقيقه، بحيث يُخصص لهذه المبالغ صندوقًا عامًا يُسمى صندوق التصريحات»؟

ربما أدى ذلك إلى حل إحدى مشكلات الوطن العالقة، أو إلى تخفيف حدة الصخب الإعلامي، أو أدى على الأقل إلى توفير موارد لعلاج من أصابتهم التصريحات بالأمل الكاذب أو اليأس الصادق!

(١٥٧) منطق الاختيار الصعب ... من الأولى بالبقاء؟!

- **١٠ أغسطس ٢٠١٥**

تجربة فكرية مستوحاة من فيلم «الفلاسفة» The Philosophers أو «بعد الظلام» After The Dark (٢٠١٣). تدور أحداث الفيلم حول مجموعة من الطلاب المنتسبين لمدرسة دولية بجاكرتا، وهم في سنتهم الأخيرة في صف الفلسفة قبل الالتحاق بالجامعة. يتمتع هؤلاء الطلبة بذكاءٍ عالٍ وثقافة عميقة، ويتناقشون معًا حول تجربة فكرية (ماذا لو؟) طرحها أستاذهم «زيميت» Mr. Zimit ليختبر قدرتهم على التفكير الاستدلالي المنطقي الذي تعلموه طوال سنوات دراستهم. وتجري التجربة على النحو التالي: لو افترضنا أن ثمة انفجارًا نوويًا سيدمر الأرض وكل من عليها، وأن ثمة ملجأً قد بُني وتم تجهيزه بكافة مقومات الحياة، بما في ذلك أنابيب الأكسجين والمواد الغذائية والماء وغيرها، لحماية البعض من الانفجار والإشعاعات الناجمة عنه. لكن هذا الملجأ بمقوماته لا يكفي سوى لعشرة أشخاص، بينما يصل عدد الطلاب إلى عشرين طالبًا بالإضافة إلى الأستاذ (يمثلون مجمل أهل الأرض)، وعلى كل طالب أن يختار بطاقة من صندوق، كتب عليها الأستاذ مهنة له، يقوم من خلالها مع زملائه بتقييم أحقيته في دخول الملجأ والبقاء، ليصبح نواة لبشرية جديدة بعد عام من الانفجار النووي (بما يُشبه سفينة نبي اللّٰه نوح عليه السلام)، بينما يحتفظ الأستاذ لنفسه ببطاقة عليها معلومات مهمة عن كيفية خروجهم من الملجأ.

التحدي المنطقي هنا هو معرفة أحق الناس بالبقاء وفقًا لمهنهم وإمكانياتهم اللازمة لبدء الحياة الجديدة. إن منهم العسكري، الطبيب، الشاعر، الموسيقي، المهندس، السياسي، النجار، القاضي، العالم الكيميائي أو الفيزيائي أو البيولوجي، المنطقي، عارضة الأزياء، الراقصة أو الممثلة، ... إلخ. ويمضي الفيلم طارحًا كل الخيارات ومبرراتها مفتوحة، فضلاً عن مناقشة أبعادها المختلفة المتمثلة

فيما يتمتع به صـــــاحب كل مهنة من إيجابيات فرعية، كالقدرة على الإنجاب، الذكاء، القوة الجســدية ...، وكذلك الســلبيات التي قد تعوقه، كالإصــابة بالمرض، أو حمل جينات مرضية متنحية، أو تغليب لجانب العاطفة ... إلخ.

بغض النظر عما انتهى إليه الفيلم، وتأكيد الأستاذ على أن الحصول على تقدير «ممتاز» هو أكثر الأشــياء ندرة في تاريخ تدريس الفلســفة (قارن في ذلك تقديرات طلابنا)، فإن التجربة في حد ذاتها هي إحدى الوسـائل الفعالة المتبعة في الغرب (علنًا أو ضمنًا) لرسـم سياسـات المستقبل في إطار الصـراع الحضـاري ... هيا نطبقها على أنفسنا.

لنفرض أن ثمـة انفجـارًا نوويًـا كهـذا يهـدد الوطن، وأن ثمـة ملجـأً قـد بني وتم تجهيزه لبقاء عدد ممن ســيضــطلعون بمهمة بناء الوطن من جديد بعد فناءه، وأن استفتاءً شعبيًا قد أجري بهدف الاختيار، فمن ستختار من أصحاب المهن المذكورة، وما هي شـروط اختيارهم؟ مع اسـتبعاد تدخل الفئات الآمنة حاليًا والمميزة اجتماعيًا وســلطويًا، ومع عدم إهمال الانقســامات الدينية والأيديولوجية التي يموج بها مجتمعنا!

الإجابة تحدد مدى منطقية درجات التصنيف الاجتماعي في الوطن!

(١٥٨) ويبقى الوضع على ما هو عليه!

- **١٥ أغسطس ٢٠١٥**

في خريف سنة ١٩٨٥، توجهت وبعض زملاء الدراسة لاستلام شهادات التخرج من كلية الآداب بجامعة الإسـكندرية. وقد آثرنا في طريق عودتنا، حيث كانت جيوبنا خاوية إلا من قروش قليلة، أن نمارس هواية المشي على كورنيش البحر.

كان بداخل كل منا حلمٌ تعتريه مخاوف المجهول من الزمن الآتي، وســرعان ما يقفز الحلم إلى اللسان فيخرج في شكل كلمات ساخرة تستحضر لا منطقية الواقع وضبابية المستقبل. لم يقطع تسلسل الأحلام في كلماتنا سوى بائع الترمس المُمسك

بعربته التقليدية، مُجسدًا شخصية المصري الصابر والقانع بما قُسم له من رزق، وعلى وجهه ابتسامة تعكس حلمه البسيط ببيع ما تبقى من حبات على عربته. ولم نلبث بدافع من تأثيرية المشهد الممزوج بتناقضية الظاهر والباطن من أفكارنا أن استجبنا له.

وقتئذ تقدم أحد زملائي وطوى شهادة تخرجه على شكل قرطاس ليملأها بحبات الترمس. وكان من الطبيعي أن تعترينا الدهشة، لكنه – وكأنما أحس بما يعتمل بداخلنا من تعليقات وتساؤلات – عاجلنا بقوله: ربما كانت هذه هي الفائدة الوحيدة المأمولة منها؛ فلن يحتويها يومًا ملف عملٍ حكومي، وإن احتواها فبجنيهات قليلة لا تُقيم صُلب الجائع ولا تُشبع الحد الأدنى من طموحات الوالدين؛ ولن تقبل بها فتاةٌ كمهر لها سوى بدعمٍ من حسابات بنكية بعيدة المنال؛ ولن ترقد في بروازٍ أنيق إلا إذا وُجد الحائط المنوط بها تزيينه، ...، هذه الشهادة لا قيمة لها في مجتمعنا إلا بقدر ما للورقة التي طُبعت عليها من قيمة! بل لقد تم تشويه الورقة بإمضاءات وأختام فقدت مصداقيتها فلم يعد لها قيمة! لا أدري لم أتذكر هذا المشهد كلما قرأت شيئًا عن غزوة الثانوية العامة، موقعة تنسيق القبول بالجامعات، تطوير التعليم، الجودة، الخُطط الحكومية قصيرة الأجل وطويلة الأجل، معجزاتنا العملاقة في الحاضر والمستقبل، وحضارة السبعة آلاف سنة! مرَّت عقود، وتوالت الحكومات، وانعقدت جلسات الخبراء وحكماء الأزمنة الغابرة، وما زلنا نُخطط، ونطور، ونُغني للإنجاز ونتغنى به المرة تلو المرة ... وما زال الحُكم يدوي في آذاننا: يبقى الوضع على ما هو عليه، وعلى المتضرر اللجوء للتاريخ!

الخلاصة: نظام إداري تعليمي فاشل، يُعمق الانقسامات المجتمعية، يؤجج مشاعر الكراهية بين فئات الشعب المختلفة، يثير الضغائن بين بناة المستقبل، يُعلي أسوار التمييز الطبقي، يُرسخ عقيدة الكذب والاستخفاف بالعقول، ويتسق وترتيب مصر وأغلب الدول العربية في قائمة الدول الهشة على مدار العقود الماضية!

(١٥٩) هم، ونحن!

▪ **٢٢ أغسطس ٢٠١٥**

هي عطلته الثانية خلال هذا الصيف، ورغم زيادة راتبه بنسبة ١٠٪، لم تتح له ميزانيته الأسرية أن يطير إلى البرتغال للانضمام إلى زوجته وأطفاله بالدرجة الأولى السياحية (الموفرة للراحة والطعام الجيد)، فانحشر في مقاعد الدرجة الاقتصادية على خطوط شركة إيزي جيت EasyJet، حيث التقطت له إحدى الفتيات على متن الطائرة بعض صور السيلفي، يظهر في إحداها وهو يتناول شرائح البرنجلز (نوع من رقائق البطاطس)! كان ذلك يوم الخامس عشر من هذا الشهر.

إنه «ديفيد كاميرون» رئيس وزراء بريطانيا الشاب! .... لا حاشية، لا إهدار لأموال دافعي الضرائب، لا استغلال لمنصبه السياسي، لا طعام مميز، لا صالة كبار الزوار، لا حرس يُحطم هاتف الفتاة ويقتادها إلى مكان غير معلوم، لا تحذير لها من النشر، ولا إعلام مُطبل! رحم الله «عمر بن عبد العزيز» الذي كان ينظر في أمور الرعية على ضوء مصباح في بيته، فلما انتهى وبدأ النظر في أموره الخاصة، أطْفأ المصباح؛ حتى لا يستعمل مال المسلمين في غير ما هو لعامة المسلمين!

(١٦٠) المقامرون!

▪ **٢٣ أغسطس ٢٠١٥**

رغم نشأتي في أسرة يمارس أغلب أفرادها أعمالاً تجارية، ورغم تأثري بعاداتهم كالسهر حتى تذوب عتمة الليل في ضوء الصباح، ورغم قناعتي بأن الأفكار كالبضائع تبور بتجمدها وتروج بتعدديتها وتنوع مصادرها، إلا أنني لم أتقن يومًا ممارسات البيع والشراء، ولا أجيد التحدث بلغة المال، بل لا أجد أية متعة فكرية في قراءة أدبيات المال والتجارة والاقتصاد، تلك التي تتسم بالجفاف المعاند لانطلاقات الروح، وتحتل الصفوف الأولى في معبد العقل الأداتي المسك بتلابيب الوسائل

والغايات، مسبحةً بالاستثمارات والأرباح! لكنني وجدتني منذ أكثر من شهرٍ مرغمًا على قراءة بعض هذه الأدبيات لأغراضٍ بحثية، لأتوقف طويلاً أمام بعض تحليلاتها، لاسيما ما يُعرف بتحليل المخاطرة (أو التكلفة) في مقابل العائد، وهو تحليل رياضي كمي يتولى تحديد تكلفة كل مخاطرة (مشروع أو صفقة أو برنامج)، ليتمكن من موازنة مجموع التكاليف مع مجموع العوائد المحتملة التي يمكن أن تنتج في النهاية.

صحيح أنه تحليل اقتصادي علمي تحتويه أية دراسة جدوى للمشروعات العامة أو الخاصة، الكبرى أو الصغرى، لكن تطبيقاته السياسية والفردية تكشف بلا مواربة عن الوجه القبيح للعقل حين يطرح كل شيء في أسواق المال والمناصب والنخاسة السياسية، مستبيحًا كافة القيم التي كافحت البشرية من أجلها طويلاً، بما في ذلك قيمة الحياة. على سبيل المثال، تكلفة تعديل بنية سيارة بعد طرحها في الأسواق لتلافي عيب تصميمي ظهر بها وأودى بحياة البعض يفوق بكثير قيمة التعويضات التي يمكن أن تقضى بها المحاكم لأهالي الضحايا، ومن ثم يكون القرار الاقتصادي هو إبقاء السيارات التي تم بيعها على ما هي عليه، وليذهب ركابها إلى الجحيم. هذا ما حدث في السبعينات من القرن الماضي وعُرف باسم «حالة فورد بينتو»؛ حيث أنتجت شركة فورد الأمريكية السيارة بينتو الصغيرة لمنافسة السيارات المستوردة، والتي اتضح بعد بيع ١,٩ مليون سيارة منها وجود خطأ في تصميم خزان وقودها يسبب انفجاره في حالة الاصطدام من الخلف، الأمر الذي خلَّف عددًا من القتلى والمصابين، لكن الشركة امتنعت عن سحب السيارة من الأسواق وتعديلها، ولم تُذعن للأمر إلا بعد تدهور سمعتها محليًا ودوليًا!

أيضًا، تكلفة إنتاج أو استيراد لقاحات للأطفال خالية من المواد الحافظة الضارة كأملاح الزئبق، والتي تؤدي إلى إصابة الأطفال بمرض التوحد، تفوق عائدها ولو كان مجتمعًا مُعافًا، لاسيما في الدول النامية، فلا بأس من التضحية بالنسبة

القابلة للإصابة! وتكلفة القضاء على مافيا الميكروباصات والتكاتك التي تموج بها بلادنا تفوق العائد المتوقع لأية حكومة مرحلية؛ إذ عليها من جهة أن توفر البديل من وسائل المواصلات والطرق المرصوفة جيدًا، وعليها من جهة أن توفر عملاً لجموع العاملين في هذا المجال، فضلاً عن الاستغناء عن عوائد المخالفات المرورية الضخمة! وتكلفة القضاء على الرشوة والسرقة في المؤسسات الحكومية، وعلى الدروس الخصوصية في مجال التعليم، وعلى سطوة رجال الشرطة ... إلخ، تفوق قدرة الحكومة على توفير وظائف ومرتبات آدمية ونظام أمني بديل! وفضلاً عن ذلك فإن تكلفة التطوير الحقيقي للتعليم، والتطهير الفعلي لوسائل الإعلام، ومحاربة العُري والإباحية، ومنع تداول وتعاطي المخدرات ... إلخ، تفوق العائد الوطني المتمثل في ارتقاء الوعي وبناء ملكات النقد العقلي لدى المواطنين!

وعلى الإجمال، تكلفة محاربة الفساد والقضاء عليه تفوق العوائد المتوقعة لأية حكومة على المدى القريب، فلا بأس إذن من الفساد، ولا بأس من رجال أعمال يربحون وساسة يستمرون ووطن ينهار، طالما كان انهياره بعد حين!

(١٦١) تشاؤمية أم واقعية؟!

- **<u>٣٠ أغسطس ٢٠١٥</u>**

أصبحت «التشاؤمية» تهمةً جاهزة لكل من ينتقد أوضاعًا تتسم باللامعقولية، سواء أكانت سياسية أو اقتصادية أو مجتمعية أو غير ذلك، حتى لتجد كثرةً من ذوي الرؤى النقدية يبدؤون حديثهم بعبارة «لست متشائمًا»، في محاولة لتجنب رد الفعل السريع من كتائب «ليس في الإمكان أبدع مما كان»، و«القافلة تسير»، وغيرها! ولا يبرأ من هاتين التهمتين أو إحداهما إلا من أغلق عينيه وأحاط عقله – عن وعي أو عن غير وعي – بسياجٍ من التفاؤل الكاذب، أو من أجاد الرقص على إيقاعات المصالح الخاصة للكبار، مؤديًا فروض الولاء والطاعة في خشوع فاضح، ملتمسًا بقايا منصب زائل أو فتات موائد ممقوتة!

قد يدرك هؤلاء، وقد لا يُدركون، أن ثمة مسافة بين «التشاؤم» و«الواقعية» تحول أحاسيسهم المرهفة أو قناعاتهم الأيديولوجية دون إدراكها، وهي ذات المسافة التي تفصل بين «التفاؤل» و«صناعة الوهم»؛ فالطبيب الذي يُشخص المرض بشجاعة ويُحذر من مضاعفاته التي قد تُفضي إلى الموت ليس متشائمًا، بل هو واقعي، صادق مع نفسه ومع الآخرين؛ ونظيره البائع للكلمات الزائفة ليس متفائلاً، بل هو صانع للوهم، مُخادع لنفسه وللآخرين!

لقد كنا وما زلنا نخرج من أزمة لنلج في أخرى، وفي كل مرة نتحايل على أنفسنا؛ نتفاءل كذبًا، نتعالى على جراحنا مكابرةً، ثم نردد شعارات مللنا التغني بها، ونُطالب بالتغزل بذاك النصف المليء من الكأس، في الوقت الذي يتساقط الناس من حوله عطشًا! المشكلة يا سادة ليست في النصف الفارغ، بل في حجم الكأس، وفي مدى صلاحية ما به من ماء للشُرب ... وحتى لو كان صالحًا، فلنا أن نتساءل عن مدى كونه مُتاحًا للجميع أم لقلة تستحوذ عليه!

(١٦٢) ماذا عن الضمير؟!

- <u>٤ سبتمبر ٢٠١٥</u>

لم يعد الفساد في العالم العربي مجرد احتيال وقح على حقوق الآخرين، أو تزييف لمبادئ العدالة والمساواة، بل أصبح فعلاً لتدمير الوطن يتسم بالقسوة، وبالتبجح في الإعلان عن وقاحته والدفاع عن مكتسباته والمطالبة بالمزيد من دماء ضحاياه. ربما كان ذلك متوقعًا بعد عقود اختلت خلالها منظومة القيم بأكملها، لكن ماذا عن الضمير؟

هل يمكن أن يموت الضمير فلا يتبقى منه شيء يهمس في أذن صاحبه؟ هل يمكن أن تموت النفس المطمئنة والنفس اللوامة، فلا تتبقى إلا النفس الأمارة بالسوء؟ ما الذي يُفكر فيه ليلاً، أو حين يخلو إلى نفسه، من اقتنص حق غيره ظلمًا وعدوانًا ليهبه لنفسه أو لمن لا يستحق؟

هل ينام هو أو من شاركه جريمته، أو من أقرها، قرير العين؟ وهل يُمكن أن يُقتلع الضمير من أسرة بأكملها، فلا تلومه زوجته أو يلومه أحدٌ من أهل بيته على ما اقترف؟ تساؤلات صعبة، والإجابة عنها أصعب!

(١٦٣) هل تشعر بالملل؟!

- **١٧ سبتمبر ٢٠١٥**

تشعر أحيانًا بالملل من كل شيء، بما في ذلك قلمك الذي يكاد يُخبرك أنك في مكانٍ وزمانٍ يستوي فيه أن تكتب وألا تكتب، وقد يتسع نطاق الملل ليشمل نفسك التواقة إلى بادرة أمل في وطنٍ يأبى إلا أن يئد الآمال في مهودها ... وقتئذٍ يتملكك اليأس من كل شيء (اللهم إلا من روح الله)، وترغب في الانسحاب! أو ربما ترغب في الابتعاد عن حشد يتفاعل فيه هراء السُكارى، وتُهيمن عليه شرذمة من رافعي رايات الجهل، ينشرونه بلا كلل ولا ملل بحماسة تثير الدهشة!

ترغب في الفرار إلى الطبيعة، حيث لا صخب، لا هاتف، لا إنترنت، لا شيء سوى السماء وأشجار تداعب نسمات البحر بهمسات خافتة، كل ما يؤرقك هو أن ابتعادك يحمل في طياته حتمية العودة ... وقد كانت!

(١٦٤) الاختيار المعكوس!

- **٢٠ سبتمبر ٢٠١٥**

حين تسوق سلعةً ما، فأنت لا تسوق شيئًا ماديًا تقوم بتصنيعه فحسب، إنما تسوق ما يمكن أن يقدمه للناس، ما يمكن أن يجعل حياتهم أفضل؛ تقول لهم لقد اخترت لكم هذا الشيء لأن إمكاناته كذا وكذا، ولأنكم بدونه ينقصكم كذا وكذا ... الأمر ذاته ينطبق على الاختيار المنطقي الناجح لمن يتولى المسؤولية في أي موقع كان.

لكن منهجنا في الاختيار معكوس؛ فنحن نختار الشخص ولا نختار إمكاناته؛ نختار الصورة ولا نختار الفعل؛ نختار الأقرب ولا نختار الأكفأ ... وما أن يتم

الاختيار، وقبل أن يجلس المُختار على كُرسيه، حتى تتوالى تصريحاته؛ سأفعل ثم سأفعل ثم سأفعل، وما بين الوعد بالفعل واللافعل في وطن يتنفس الفساد يزداد الإحساس بالاختناق والاقتراب من السقوط!

كدت أقتنع بمقولة نجيب محفوظ في «*السراب*»: «من الخير لهذا البلد أن تحكمه حكومة فاسدة، ذلك أن الحكومة الصالحة لا تستطيع أن تفعل شيئاً ذا بال في حدود الأوضاع القائمة، فالخير أن تستبد الحكومة الفاسدة حتى تعجل بالنهاية ... النهاية المحتومة»!

(١٦٥) ملهاة الانتخابات!

- **١٠ أكتوبر ٢٠١٥**

الغريب في ملهاة أو مأساة الانتخابات (سمها ما شئت) أننا جميعًا نؤدي الأدوار المرسومة لنا بعناية وإتقان ... نؤدي أدوار الناخبين فنتحدث ونكتب ونرفض ونؤيد ونقارن هذا بذاك وكأننا ناخبون حقًا ... وهؤلاء الذين تزداد شوارعنا تلوثاً بلافتات دعاياتهم يؤدون دور المرشحين وكأنهم مرشحون بالفعل ... وحتى الدولة تؤدي دورها فتصنف الدوائر الانتخابية وتفرض الخطط الأمنية وكأننا ننتظر مجلس شعب سيتولى بالفعل المهام التشريعية!

أشفق على هؤلاء الذين يصدقون ما تحمله لافتات دعاياتهم من أوصاف لهم، فتراهم يطوفون الشوارع وينفقون ويتوسلون بمن ينطق لسان حالهم قائلاً: لسنا أصحاب الاختصاص! أشفق على أولئك الذين تقمصوا أدوار الناخبين قسرًا فأجبرت أعينهم وآذانهم على تذوق التفاهات والجهالات والتفاعل معها!

أشفق على وطنٍ تُلتمس فيه مكانة الفرد أو الأسرة أو العشيرة بمقعد زائف! أشفق على أولادي الذين كُتب عليهم أن يعيشوا هذا الزمن! وأشفق على نفسي حين أكتب هذا ثم أحطم قلمي وأمزق أوراقي كمدًا ويأسًا!

(١٦٦) وزن العُمدة!

- **٢٦ أكتوبر ٢٠١٥**

من العادات الطريفة التي تتكرر كل عام في بلدة «هاي واي كومب» High Wycombe، بمنطقة «باكينجهامشير» Buckinghamshire بإنجلترا، أن يتم وزن عمدة البلدة وكل أعضاء المجلس المحلي علنًا أمام الجمهور، فإذا تبين أن وزن أحدهم قد قل أو لم يزد عما كان عليه العام السابق صفق له الجمهور، وإذا تبين أن وزنه قد ازداد عما كان عليه يوم توليه منصبه، كان هذا دليلاً على أنه قد تكاسل أو تربح وسمن من المال العام، وحينئذ يلقيه الجمهور علنًا بالطماطم العفنة! وقد كان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقوم بعمل مماثل؛ حيث كان يحسب ثروة من ولاه قبل الولاية وبعدها، فما زاد ذهب لبيت مال المسلمين. لكن المناصب لدينا الآن بمثابة مفارخ أو مزارع للتسمين؛ فما أن يتولى المسؤول منصبه حتى ينتفخ بشكل تدريجي متسارع، وتنتفخ ثروته وعقاراته وسياراته وكافة ممتلكاته، ولو أردنا تطبيق التجربة البريطانية أو العُمرية، فلعلنا في حاجة لوزن كل مسؤول قبل توليه منصبه، ومعه أسرته وأنجاله وأحفاده وزوجاته وأقربائه وكافة من يمتون له بصلة!

(١٦٧) فليذهب تشرشل إلى الجحيم!

- **٣١ أكتوبر ٢٠١٥**

رُوي أن «ونستون تشرشل» (رئيس وزراء بريطانيا الأسبق) كان يتأهب لإلقاء خطاب هام للأمة إبان الحرب العالمية الثانية ... ولسبب ما كان يتوجب عليه أن يستقل إحدى سيارات الأجرة كي يصل إلى استوديو إذاعة البي بي سي قبل الثامنة مساءً ... وبالفعل، أوقف مساعد تشرشل سيارة وأخبر السائق بوجهتهما، لكن السائق الذي لم يعرفهما ردَّ قائلاً: «عفوًا سيدي، لا أستطيع توصيلكما لأن عليَّ العودة إلى بيتي مسرعًا للاستماع إلى خطاب رئيس الوزراء»!

حينئذ ارتسمت البسمة على وجه «تشرشل» وشعر بالسعادة نظرًا لاهتمام الشعب البريطاني بالاستماع إلى خطابه، ثم أخرج من جيبه خمسة جنيهات استرلينية (وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت) وأمر مساعده بتمريرها إلى السائق قائلاً: «نحن في عجلة من أمرنا، وسوف نعطيك المزيد إن قمت بتوصيلنا ... وما أن رأى السائق المال حتى فتح أبواب سيارته قائلاً: فليذهب تشرشل إلى الجحيم ... ما العنوان مرة أخرى سيدي؟».

القصة تلخص ما يحدث في الأوطان حين تكابد فترات انهيار وجمود، ويبدو أننا نكابد فترة انهيار وجمود طويلة تمتد لعقود خلت ... بالمال تستطيع أن تفعل كل شيء، وأي شيء!

(١٦٨) ما أحوجنا إلى لحظة صدق!

- **٥ نوفمبر ٢٠١٥**

أتذكرُ حين كنا صغارًا أننا كنا ننتظر المطر بشوق الطفل إلى لعبته الأثيرة ... نمرح حين يغمرنا ويبلل ملابسنا، نركض في شوارع الإسكندرية فرحًا؛ هذا يفتح مظلته، وذاك يحمي رأسه بمعطفه، ونحن نعانق المطر بوجوهنا ونفتح له أيدينا فيداعبنا بقطرات حانية ... ما أجمل مدينتنا حين تغتسل، حين تنفض غبار الصيف وصخبه فتغدو كامرأة ساحرة مبللة يغشاها أريج السماء ... كانت النفوس أرقى والقلوب أتقى والعقول أصفى، ودواخل الناس تُمطر حبًا وصدقًا، فلا عجب أن تمطرهم السماء رزقًا وسعادة ... لكن ثمة من أبى؛ ثمة من شوَّه النفوس وأمرض القلوب وتلاعب بالعقول فباتت الدواخل تمطر جشعًا وكراهية ... ويأتي الشتاء حزينًا؛ تُمطر السماء وكأنها تبصق علينا، تعنف كبارنا وصغارنا، تغرقنا وتقتلنا! أيها المشاؤون في طرقات الفساد، النافخون في أبواق الكراهية، العابثون بحطام حياتنا ... رفقا بنا، لسنا في حاجة إلى أطباء ينشدون طبيبًا لأمراضهم، ولا إلى مدراء هم أولى بالبحث عمن يدير لهم أعمالهم، ولا إلى سياسيين يعوزهم من يسوسهم، ولا

إلى نواب هم في حاجة إلى من ينوب عنهم ... بل نحن في حاجة إلى لحظة صدق، فهلا منحتمونا إياها؟

(١٦٩) لا أحد!

- **<u>١٥ نوفمبر ٢٠١٥</u>**

كلما تأملت خيبات الوطن تذكرت هذه القصة الدالة التي قرأتها في أكثر من موضع، ولا أعرف كاتبها ... هي قصة أربعة أشخاص يحملون الألقاب التالية: «كل شخص»، «شخص ما»، «أي شخص» و«لا أحد» ... وكانت هناك حاجة ماسة للقيام بعمل هام، فَطُلِب من «كل شخص» القيام به، غير أن «كل شخص» كان على يقين من أن «شخصًا ما» سيقوم بالعمل، وأن «أي شخص» يمكن أن يهتم به، لكن «لا أحد» قام بالعمل ... غضب «شخص ما» لأنه اعتبر أن هذا العمل كان من مسؤولية «كل شخص»، واعتقد «كل شخص» أن «أي شخص» يمكنه القيام به، غير أن «لا أحد» لم يدرك أن «كل شخص» لن يقوم به، وفي النهاية ألقى «كل شخص» اللوم على «شخص ما» لأن «لا أحد» لم يقم بما كان على «أي شخص» القيام به!

(١٧٠) لن أمنحكم حقدي!

- **<u>١٩ نوفمبر ٢٠١٥</u>**

بغض النظر عن المعتقد الديني، والانتماء السياسي، والتاريخ المكتوب بدماء الضحايا من كل عرق ودين، فإن الإنسانية لا تتجزأ، وكم نحن في حاجة إلى توجيه هذه الرسالة لكثرة ممن يسرقون حياتنا، يشوهونها، ويدمرونها، علَّهم يفيقوا من غيّهم!

هذا نص أنيق ومؤلم كتبه الصحافي الفرنسي «أنطوان ليريس» Antoine Leiris الذي قُتلت زوجته في الهجوم الإرهابي على مسرح بتاكلان Bataclan مساء يوم ١٣ نوفمبر ٢٠١٥ (نقلاً عن صفحة الثورة الفكرية المصرية، ترجمة وليد عباس):

«مساء الجمعة، سرقتم حياة إنسان استثنائي، حب عمري، أم ابني، ولكنني لن أمنحكم حقدي. لا أعرفكم ولا أريد ان أعرفكم، ذلك أنكم أرواح ميتة. إذا كان هذا الاله الذي تقتلون بصورة عمياء من أجله قد خلقنا على صورته، فإن كل رصاصة في جسد زوجتي هي جرح في قلبه! لا، لن أمنحكم هدية أن أحقد عليكم، لقد أردتم ذلك ولكن الرد على الحقد بالغضب يعني الاستسلام للجهل الذي يجعلكم على ما أنتم عليه. تريدون أن أخاف، وأن أراقب من حولي بعين الريبة، وأن أضحي بحريتي من أجل أمني، لقد خسرتم، لأن هذا اللاعب سيوا صل لعبته! هذا الصباح، شاهدتها، أخيرًا بعد ليال وأيام من الانتظار. كانت جميلة كما كانت عندما غادرتني مساء الجمعة، كما وقعت مجنونًا في حبها قبل اثني عشر عامًا. المؤكد أن الحزن يدمرني، أعترف لكم بهذا الانتصار الصغير، ولكنه انتصار قصير الأمد، لأنني أعرف انها ستصاحبنا كل يوم، وأننا سنلتقي في جنة الأرواح الحرة التي لن تروها أبدا! نحن اثنان، ابني وانا، ولكننا أقوى من كل جيوش العالم. ليس لدي المزيد من الوقت لكم، لأن ملفيل Melvil يستيقظ من نومه، عمره لم يتجاوز السبعة عشر شهرًا، سيتناول وجبته مثل كل يوم، ثم سنلعب معًا مثل كل يوم. هذا الطفل سيزدريكم طوال حياته لأنه سعيد وحر، ولا، لن يمنحكم حقده، هو أيضًا»!

(١٧١) الضمير!

- <u>**٢٦ نوفمبر ٢٠١٥**</u>

تنحصر كلمة «ضمير» في الخطب والندوات والاجتماعات والمقالات وعناوين الصحف، لكنها تغيب فكرًا وقولاً وفعلاً عند قطاع عريض من المسؤولين والمواطنين ... تقترب منهم فتشم رائحة عفن داخلي تزكم الروح والعقل. إنها رائحة الضمير الميت، والضمير الميت لا يمكن تنميته، بل بعثه، والبعث لا يكون بتشكيل لجنة من الخبراء؛ فليس ثمة خبراء للضمير ... ليس ثمة من بإمكانه

استيلاد رقيب داخلي ذاتي قتلته البيروقراطية والمحسوبية والرشاوى والظلم والقهر والجهل ... تخلص من ذلك رويدًا رويدًا وسوف يولد من يحملون نفوسًا لوامة ونفوسًا مطمئنة ... سوف يولد الضمير!

أقول ذلك تعليقًا على خبر تشكيل لجنة لتنمية الضمير بمعرفة بمجلس علماء مصر!

(١٧٢) فلسفة الفكاهة Philosophy of Humor

- <u>**١ ديسمبر ٢٠١٥**</u>

بغض النظر عن اختلافاتنا وخصوصياتنا، فإن ثمة كليات إنسانية نشترك فيها جميعًا؛ منها ما هو بيولوجي مثل الحاجة إلى الأكل والشرب والنوم، ومنها ما هو ثقافي واجتماعي مثل تحديد الثقافات المختلفة للمحظورات الغذائية والقواعد الحاكمة لعلاقات القرابة وقواعد الإقامة في الحيز المكاني – الزماني، حتى ولو استخدمت هذه الثقافات معايير مختلفة عن بعضها البعض.

والفكاهة هي إحدى هذه الكليات الإنسانية؛ تجدها حيثما ذهبت، في أي مكان وزمان، وفي أية ثقافة مهما كانت خصوصيتها، ولا نبالغ إن قلنا إن الفكاهة هي إحدى الوسائط الأساسية للوجود في العالم. فلا عجب إذن أن تجد الفلاسفة منذ «أرسطو» وحتى يومنا هذا يسعون لسبر أغوار الفكاهة.

ولعل إحدى السمات الملاحظة والمؤكدة للفكاهة أنها شكلٌ من أشكال الترابط البشري؛ فنحن نتشارك النكات، وقد لا نستطيع الانتظار أحيانًا فنبادر بسرعة لإخبار أصدقائنا بشيء مثير للسخرية حدث خلال اليوم، أو نطلعهم على بعض الصور المضحكة. بل إن صفحاتنا على الفيس بوك لتمتلئ بالتعليقات والصور والفيديوهات الساخرة التي نعبر بها عن سخطنا أو انتقاداتنا لأوضاع اجتماعية أو سياسية فجة، وكأننا نواسي أنفسنا ونكبح جماح غضبنا بالضحك. نعم، قد يكون لمعنى الترابط البشري بالفكاهة جانبٌ سلبي حين تُستخدم الفكاهة

للتحقير أو لتشويه السمعة، وحين تنطوي على عنصر جنسي أو عنصري، ولكن لِم تتسم الفكاهة بهذه القوة في التعبير والحشد وامتصاص الغضب؟ ما الذي يحدث داخل عقولنا حينما نضحك؟ وما هو الشيء الذي يدفعنا إلى الضحك؟ ثمة استنتاجات محبطة يضعها أمامنا علم دراسة الضحك «الجيلوتولوجيا» Gelotology؛ فالأطفال يضحكون حوالي ٣٠٠ مرة يوميًا، في حين يضحك البالغون حوالي ١٧ مرة، وقبل سبعين عامًا كان الناس يضحكون بمعدل يزيد ثلاث مرات في اليوم عن معدل ضحكهم الآن. إن قدرتنا على الضحك ترتبط ارتباطا وثيقًا بإنسانيتنا، وهذا ما يجعل الضحك مثيرًا لاهتمام الفلاسفة، لأن تفاوت معدلات الضحك بين الصغار والكبار، وبين الماضي والحاضر، يعني أن ثمة ما يؤثر على إنسانيتنا بالسلب.

لكن ما الذي يمكن أن تضيفه الفلسفة لدراسة الضحك؟ أليس الموقف الفلسفي برمته على النقيض تمامًا من الفكاهة؟ أليس التحليل الفلسفي ذاته مقبرة للمرح؟ هذا ما تتناوله تفصيلاً مجلة «الفلسفة الآن» *Philosophy Now* في عددها الصادر هذا الشهر (ديسمبر ٢٠١٥)، من خلال عدد من المقالات التي تهتم بكافة الجوانب الفلسفية للفكاهة والضحك ... هذا العدد من المجلة يؤكد أن الموضوع متجدد، وهو جديرٌ بالقراءة للمهتمين بالدراسات الفلسفية.

(١٧٣) لن تجد لتساؤلاتك إجابة!

- **<u>١ ديسمبر ٢٠١٥</u>**

أقسى ما يمكن أن تتعرض له هو أن تعتاد الألم، أن تكف عن الصراخ وتنسحق صامتًا تحت مظلة الوجع القابع محتلاً لدواخلك، أن يُصبح للفساد حق المقيم، وأن يغدو الألم غير أليم، وأن يبيت الصادق لئيمًا والتافه عليمًا؛ أن تعزف عن الكتابة، وتعتاد الرتابة، وتتعايش مع الكآبة، ولا يعنيك أن تتساءل أو أن تجد لتساؤلاتك إجابة! وأسوأ أنواع الظلم هو الادعاء بأن هناك عدلاً، وأسوأ أنواع التعليم هو ذلك

الذي يدفن العقل في مقابر الجهل، وأسوأ أنواع الجهل هو الجهل بالذات، وأسوأ أنواع السياسة هي تلك التي تكون مجرد حرفة لاعتلاء المنصب ... والأسوأ من ذلك كله هو ألا تدرك أنك تعيش الأسوأ! نعم، قد تكون عالمًا أو فقيهًا أو أديبًا، لكنك تصبح تافهًا ومارقًا وفاسقًا إذا انتقدت صاحب منصبٍ، أو مشتغلٍ بالدين ... وقد تكون تافهًا ومارقًا وفاسقًا، لكنك تصبح عالمًا وفقيهًا وأديبًا إذا تبوأت منصبًا أو اعتليت منبرًا دينيًا أو إعلاميًا أو أحسنت التطبيل ... لا تحزن، إنه زمن الرويبضة! أيا وطني، متى يكف الجهل عن ثرثرته، والوهم عن ضجيجه، والفساد عن رونقه، والتخلف عن كبريائه ... حتى الصمت لا يكف عن صخبٍ يدمره، ولم يعد في القلب ولا في العقل متسعٌ للمزيد!

(١٧٤) أضغاث أحلام!

- **<u>١ ديسمبر ٢٠١٥</u>**

استيقظ أحدهم ذات صباح وأيقظ زوجته فقالت له مبتسمة: «لقد رأيت في منامي أنك قد أهديتني قلادة من اللؤلؤ، ما تفسير ذلك؟» ... ابتسم الرجل بدوره وقبَّل زوجته وهمس في أذنها: «سوف تعرفين الليلة». في المساء عاد الرجل إلى بيته وفي يده عُلبة أنيقة أعطاها لزوجته، فقفزت الزوجة فرحةً وعانقته ثم جلست تفتح العُلبة بحذر وسعادة، وفجأة تجهمت واكفهر وجهها ... لقد كان بالعلبة كتاب «*تفسير الأحلام*»!

تلخص القصة ببساطة أحوال أمتنا العربية وطموحات شعوبها؛ نحلم ثم نحلم ثم نحلم، وما من مُحقق، بل مُفسر أتقن تجميد الأحلام في كلمات، مجرد كلمات ... تحلُم بالحرية والكرامة والعدالة، فيهدونك نصوصًا مستقبلية للقراءة تُداعب الحلم ثم تعلوها أتربة الرفوف؛ تحلُم بتعليمٍ أو علاج أو إعلام جيد، فيمنحونك لجانًا وخططًا ورقية تذهب أدراج الرياح؛ تحلُم بمكافحة الفساد والتخلف والجهل فيغدقون عليك خطبًا عصماء تبلغ بحلمك عنان السماء؛ تحلم بحياة كالحياة ووطنٍ

كالأوطان فيسوقون إليك أغنية تحيل الحلم رقصًا ووهمًا ... ومن الحُلم إلى تفسيره إلى تحقيقه تستيقظ فزعًا، ويكثر المفسرون والمبشرون، لكن من خبروا الواقع يصدقونك: «أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين»!

(١٧٥) البحث عن نبي!

- **١٤ ديسمبر ٢٠١٥**

ثمة عالِمٌ كان له أتباعٌ ومريدون، يأتونه دومًا طالبين علمه وحكمته، مسترشدين برأيه فيما أشكل عليهم أو التبس على فهمهم، وذات هفوة وقع الرجل في ذنبٍ كبير، فانفضّ الناس من حوله، وأدار له الجميع ظهورهم متندرين بوقوعه في ذنبٍ كهذا ... وذات يوم، وبينما كان الرجل وحيدًا في بيته، إذ طرق بابه طارق، فلما طالعه وجده صبيًا ممن كان يقصدون مجلسه، وطلب الصبي منه أن يسمح له بالدخول والتعلّم منه ... سأله الرجل متعجبًا: ولماذا لم ترحل مع من رحل؟ فأجابه الصبي قائلاً: لأني لم أتبعك على أنك نبي! لقد فهم الصبي ما لم يفهمه الآخرون، بل وما لم يستطع العرب أن يتخلوا عنه رغم تأكيد دينهم الحنيف منذ قرون: أن زمن الأنبياء قد ولى وانقضى، وأن ليس بيننا – ولن يكون معنا – من هو معصوم من الوقوع في الخطأ والخطيئة والزلل ... هكذا ظل العرب مفتونون بهواية، بل بغواية، البحث عن نبي؛ اختلط لديهم الديني بالدنيوي، والحياتي بالأخروي، والمقدس المعصوم بالسياسي المذموم، وراحت منظوماتهم الإدارية العامة تتبنى داخل الخاص الديني وتتجذر فيه؛ فما أن يعتلي أحدهم منبرًا أو يتولى منصبًا، بداية من رأس الدولة، ومرورًا بوزرائها ومدرائها ودعاتها، ووصولاً إلى خفرائها وصغار موظفيها، حتى يصبح هو «صاحب الرأي»، لا «صاحب رأي» .. يغدو راسمًا للمنهج، ناطقًا بالحقائق، ممسكًا بلآلئ الحكمة ... وكما أن لكل نبي حواريين، فإن لكل مسؤول مطبلين؛ فلئن أصاب، بات بطلاً مؤتيًا للمعجزات وصانعًا للتاريخ،

ولئن بني بالوهم قصـــــرًا في الهواء، راح المطلبون يحثون الناس على التبرع بالأثاث، ولئن غادر المنصب غادره الجميع! إنها المعضلة التي تستعصي على الحل!

(١٧٦) كيف تشتري دكتوراه؟!

- **١٨ ديسمبر ٢٠١٥**

ظاهرة اســـتكمال الوجاهة الاجتماعية لبعض المســـؤولين وأصـــحاب الأموال بشهادات دكتوراه مضروبة – من جامعات بئر السلم – تلقي بظلال من الشك على مصـداقية كثير ممن يحملون لقب «دكتور» في مصـر والعالم العربي ... الغريب أن الإعلام يحتفي بهؤلاء كنوع من التتويج لممارسـات الدعارة الفكرية التي يكابدها الوطن في أقسى مراحل ترديه الثقافي والتعليمي.

لم نعد نتحدث عن شـــــــهادات ودرجات علمية تمنحها الجامعات الحكومية لأنصـاف وأرباع متعلمين في معية ضـعف وفسـاد ولا مسـؤولية كثير من الأسـاتذة، وســـعي بعضـــهم المحموم إلى التباهي بتكوين مدارس فكرية تحوي كثرة من المعاقين فكريًا، المطالبين باســـــــتحقاقات كاذبة في مجتمع أقعدته الإعاقة الحضارية، إنما عن شهادات تستطيع شراءها والحصول عليها في غضون أسابيع أو أيام وفقًا لإمكاناتك المالية، وتسـتطيع تسـويقها إعلاميًا وتثبيتها وظيفيًا ومجتمعيًا وفقًا لمنصبك وعلاقاتك. يكفي أن تكتب في جوجل: «كيف تشتري دكتوراه»، أو «دكتوراه للبيع»، لتجد عشـرات، بل ومئات المواقع التي تعمل بحرية تامة دون رقيب أو حسـيب! وكما تسـتطيع معدة المواطن العربي أن تهضـم أي شـيء، ولو أدى بعد حينٍ إلى هلاك المرء، يستطيع العقل الجمعي المغيب أن يهضم كل شيء ولو أدي إلى هلاك الوطن؛ ففي وطني كل شيء مباح، إلا أن تكون إنسانًا!

(١٧٧) هل ماتوا والحُلم يؤرقهم؟!

- **٨ يناير ٢٠١٦**

ما من يوم يمر إلا وأقرأ نعيًا لزميل أو صديق أو حبيب، قريب أو بعيد، صغير أو كبير، وكأن الموت يُصر على أن يُذكرنا بأنه آتٍ لا محالة؛ فلا عصمة منه لأحد؛

لا عصمة منه لمن جمع مالاً أو اعتلى منصبًا أو حاز قوة أو أصاب شهرة ... وحين اعتدنا عليه بات سطرًا نكتبه لتمحوه في عجالة سطور ترهاتنا البائسة، وما بين سطر وسطر يصطدم العقل بتساؤل تلو آخر: هل عاشوا ثم ماتوا؟ أم كانوا موتى مثلنا ثم انفتحت لهم بوابة الخروج نحو آفاقٍ أنقى وأرحب؟ هل حققوا أحلامهم التي نحلم بمثلها ولا يستحي البعض منا أن ينشط لأجلها في أسواق النخاسة والكراهية والعُهر الحياتي والفكري والسياسي؟ وهل وجدوا قبل موتهم وطن الحرية والكرامة الذي ما زلنا نبحث عنه، أم ماتوا والحُلم به يؤرقهم؟ رحم الله الأموات والأحياء.

(١٧٨) معرض القاهرة للكتاب ... حدثٌ ثقافي أم سوق للتشكل الكاذب؟!

- **<u>٣٠ يناير ٢٠١٦</u>**

إذا كان الكتاب الذي نقرأه لا يوقظنا بخبطة على جمجمتنا، فلماذا نقرأ الكتاب إذن؟ كي يجعلنا سعداء؟ الكتب التي تجعلنا سعداء يمكن عند الحاجة أن نكتبها، إننا نحتاج إلى تلك الكتب التي تنزل علينا كالصاعقة التي تؤلمنا ... الكتب التي تجعلنا نشعر وكأننا قد طُردنا إلى الغابات بعيدًا عن الناس، مثل الانتحار! على الكتاب أن يكون كالفأس التي تحطم البحر المتجمد فينا (فرانز كافكا). ربما كنا في حاجة إلى تساؤلات غير تلك التي طرحها «كافكا» عن الكتاب، كأن نقول: لماذا معرض الكتاب؟ ما جدواه؟ وما محتواه؟ هل يتسق تنظيمنا له وواقعنا المتردي ثقافيًا وتعليميًا ومعيشيًا وحضاريًا؟ مَن زواره؟ ماذا يقرأ أغلبهم؟ وهل هو حدثٌ ثقافي حقًا، أم مجرد حلقة تجارية من حلقات التشكل الكاذب للوطن البائس؟ وقد تأتي الإجابة: هو معرض للثقافة والفنون والعلوم، يزوره مثقفون، أو راغبون في التثقف، وباحثون ومتعلمون، أو تواقون إلى البحث

والتعلم، ومفكرون ومنظرون وفنانون ... إلخ. إذن، لماذا نحن منهزمون ثقافيًا وحضاريًا، ومتخلفون تعليميًا، ومنحطون فنيًا، وبائسون معيشيًا؟

هذه تساؤلات تفرضها وتجيب عنها التقارير والإحصائيات المحلية والدولية عن واقع القراءة في عالمنا العربي، خذ منها على سبيل المثال:

- كل ثمانين شخص في العالم العربي يقرأون كتابًا واحدًا في السنة، وفي المقابل، يقرأ المواطن الأوروبي نحو خمسة وثلاثين كتابًا في السنة، ويقرأ المواطن الإسرائيلي أربعين كتابًا في السنة! من جهة أخرى، يقرأ العربي بمعدل ست دقائق سنويًا بينما يقرأ الأوروبي بمعدل ٢٠٠ ساعة سنويًا!
- أنتجت الدول العربية ٦,٥٠٠ كتاب سنة ١٩٩١، بالمقارنة مع ١٠٢,٠٠٠ كتاب في أمريكا الشمالية، و٤٢,٠٠٠ كتاب في أمريكا اللاتينية والكاريبي! ولا يتجاوز عدد كتب الثقافة العامة التي تنشر سنويًا في العالم العربي ٥٠٠٠ عنوان. أما في أميركا، على سبيل المثال، فيصدر سنويًا، حوالي ٣٠٠ ألف كتاب!
- نسبة الأمية في الدول العربية تبلغ ١٩,٧٣٪، وتبلغ نسبة النساء من الشريحة الأمية ٦٠,٦٠٪!
- عدد النسخ المطبوعة من كل كتاب عربي هو ألف أو ألفين، ويصل في حالات نادرة إلى خمسة آلاف نسخة، بينما تزيد نسخ الكتاب المطبوع في الغرب عادةً على خمسين ألف نسخة!
- يُترجم سنوياً في العالم العربي خُمس ما يُترجَم في دولة اليونان. والحصيلة الكلية لما تُرجم إلى العربية منذ عصر الخليفة العبّاسي المأمون إلى العصر الحالي تقارب ١٠,٠٠٠كتاب، وهذا العدد يساوي ما تترجمه إسبانيا في سنة واحدة!
- أكثر الكتب مبيعًا في العالم العربي هي تلك التي تهتم بالأزياء والأنظمة الغذائية للسمنة والنحافة، ووصفات الطبخ، والسحر والجنس، بالإضافة إلى

كتب التراث والفتاوى والتداوي بالأعشـــــاب والروايات ... أما الكتب العلمية والفلسفية فأقلها مبيعًا!

هذه التقارير والأرقام تعكس بوضـــوح الصـــورة العامة للحدث الثقافي الزائف؛ للســوق التجاري الذي أصــبح فيه الكتاب مجرد ســلعة ديكورية من مســتلزمات التشــكل الكاذب، ولا مانع من أن يجردها البؤس الحضــاري من معناها وقيمتها فيربط بينها وبين بطاقة الدعم للســـلع التموينية الرديئة! ولا مندوحة من الربط بين هذه الصــورة العامة القاتمة وبين النظم والصــراعات الســياســية في العالم العربي؛ فحيثمـا ازدهرت الحريـات ارتفعـت معـدلات القراءة ونوعيتهـا وقيمتهـا، والعكس صـحيح! وبعد، دخل أديب على الخليفة «عبدالملك بن مروان» فوجده يقرأ فقال له: «يا أمير المؤمنين، إن الكتاب أنبل جليس، وآنس أنيس، وأصـدق صـديق، وأحفظ رفيق، وأكرم مصـاحب، وأفصـح مخاطب، وأبلغ ناطق، وأكتم وامق (محب) ... يُورد إليك ولا يُصدر عنك، ويحكي لك ولا يحكي عنك ... إن أودعته سرًا كتمه، وإن استحفظته علمًا حفظه، وإن فاتحته فاتحك، وإن فاوضته فاوضك، وإن جاريته جاراك ... ينشـط بنشـاطك، ويغتبط باغتباطك، ولا يُخفي عنك ذكرًا، ولا يُفشـي لك سرًا ... إن نشرته شهد، وإن طويته رقد ... خفيف المؤونة، كثير المعونة، حاضر كمعدوم، غائب كمعلوم ... لا تتصنع له عند حضوره في خلوتك، ولا تحتشم له في حال وحدتك ... في الليل نعم الســمير، وفي النهار نعم المشـير». فقال عبد الملك بن مروان: «لقد حبَّبت إليَّ الكتاب، وعظمته في نفسي، وحسنته في عيني»!

(١٧٩) إنها قيمة الحياة!

- **٣٠ يناير ٢٠١٦**

مشهد جدير بالتأمل من أحد الأفلام الأجنبية: يقتحم بنكـًا، ويقوم بسرقته تحت تهديد الســـلاح، ثم يفر على دراجته البخارية ... تتعقبه الشــرطة حتى يقتحم بيتًا ويطرد من فيه ليُجري اتصـــالاً هاتفيًا يلتمس فيه من رفيقته ألا تُخبر ولده الصــغير

بشأنه كسارق ... يتربص به شرطي ويدخل البيت في إثره ويستمع لمكالمته ... يجري تبادل لإطلاق النار فيُصاب الشرطي في قدمه ويلقى السارق حتفه.

يتألم الشرطي من إصابته في إحدى المستشفيات، لكنه يسأل زوجته وزواره: ماذا عن السارق؟ هل مات؟ لديه طفلٌ صغير! يخضع الشرطي للتحقيق وهو مُصاب: كيف اقتحمت البيت؟ من بدأ بإطلاق النار؟ هل عرَّفت السارق بهويتك؟ هل تلوت عليه حقوقه؟ ألم يكن ثمة خيارٌ آخر؟ أما كان من الممكن إصابته بدلاً من قتله؟ ... إلخ. إنها قيمة الحياة الإنسانية، أيًا كان صاحبها، وحدود الوظيفة، أيًا كان مؤديها، وشمولية القانون حتى في أصعب اللحظات! ما أتعسك يا وطني!

(١٨٠) حين يلتقي الصديقان!

- **<u>١ فبراير ٢٠١٦</u>**

مشهد يمكن أن يتكرر في أي مكان وزمان، ينطق بصدق عما تقيمه السياسة من حواجز بين البشر، بين الأصدقاء، وربما بين من خرجوا من رحمٍ واحد!

«جاي بورميو» Guy Burmieux و«جان يوفون أنتيجناك» Jean-Yvon Antignac، صبيان يلهوان سويًا، يدرسان، يقضيان أيامهما معًا، لا يفترقان تقريبًا، حتى بلغا المرحلة الثانوية ... هُنا تحتم عليهما أن يفترقا بعد صداقة وطيدة ... أحدهما (جاي) التحق بالشركة الفرنسية المتحدة كعامل، بينما شق الآخر (جان) طريقه ليلتحق بسلك الشرطة، وأصبح عضوًا في قوات مكافحة الشغب الفرنسية.

في السادس من أبريل سنة ١٩٧٢ قام عمال الشركة الفرنسية المتحدة، ببلدة «سانت بريوك» Saint-Brieuc بفرنسا، بإضراب، وتجمهروا أمام الشركة للمطالبة بحقوقهم. في ذلك الوقت، وصل أمر إلى فرقة مكافحة الشغب المنضم لها «جان» بالتصدي لتظاهرة قام بها عمال بالشركة المتحدة في «سانت بريوك»، عملٌ عادي لـ «جان»، يقوم به دائمًا ... أعد عدته وتوجه بسيارة الشرطة مع بقية أفراد فريقه إلى مكان المظاهرة، ووقف حسب التشكيل أمام العمال المُضربين ... كان «جاي»

يحمل لافتة ويهتف معهم، لكنه لمح بين الجموع، ووســـط رجال الأمن ذوي الياقات البيضاء، وجهًا يعْرفه، إنه «جان»!

When your childhood friend comes at you in riot ear
Source: http://www.sarahcunningham.org/childhood-friend-worker-policeman-france#sthash.FqOWyFE6.O2BJDygN.dpbs

هُنا اخترق «جاي» الجموع ركضـــًا، وجذب صـــديق طفولته من بين رجال مكافحة الشـغب، وأمسـكه من ياقته وقرّبه له ... وبمشـاعر اختلط فيها اشـتياق الصـديق بثورة المُتظاهر صـرخ باكيًا: «هيا، تقدم واضـربني كما أُمرت»، لكن «جان» لم يستطع أن يُحرك ساكنًا! الموقف الممتلئ بالمشاعر المُختلطة، رواه المُصور «جاك جـــــورميلين» Jacques Gourmelen، الذي كان يغطي التظاهرة لصحيفة «كويست فرانس» والتقط الصورة. انتصرت الصداقة، وعاد الصديقان إلى صحبة افتقداها طويلاً، حتى فرّق بينهما موت أحدهما! القصة جديرة بالتأمل، لاسيما في تلك اللحظات التي تشـاهد فيها شـرطيًا يتصـدى لمُحتج (أيًا كانت ملابسـات الموقف)، فلربما جمع بينهما يومًا نقاء الطفولة أو الصداقة!

(١٨١) تشبث بإنسانيتك!

- **٣ فبراير ٢٠١٦**

هل تجاوزت مراحل الدهشة والغثيان والقنوط إلى مرحلة اللامبالاة؟ هل رأيت الجهل يمشي مختالاً في أروقة المدينة، يُسامر الوهم على النواصي، ويصافح الكذب فيعلو وينتصر؟

هل أدركت أن الحمقى والرويبضات وبائعي الضمائر ومرضى العقول هم الكثرة الغالبة، وأن الحماقة بعينها هي ألا تنضم إلى حشد السُكارى؟ هل أيقنت أن ضخامة حجم الفساد وقدرته البالغة على التشكل تحولان دون أية محاولة لمواجهته؟

حسنًا، هذا ما يريدونه؛ أن يستلبون كيانك الواعي، كينونتك العاقلة، أن تسأم الحيرة بين ما تتوق إليه وبين ما لا طاقة لك على رفضه، فتلتحم صاغرًا بمشهدهم المسرحي البائس ... ثمة مساحة ما زالت ممتدة بينك وبينهم فاحرص على ألا تعبرها، تشبث بإنسانيتك لألا تُستلب إلى ما يريدون، وإن اتهموك بالجنون!

(١٨٢) نعم ... ولكن!

- **١١ فبراير ٢٠١٦**

نعم، أشقى الناس هم أولئك الذين يفكرون، ولا تتسنى لذة الحياة إلا للحمقى، لكن التفكير يبني وإن شقي صاحبه، والحماقة تهدم وإن استلذ من أصابته!

نعم، نحن أحفاد بناة حضارة امتدت لآلاف السنين، لكن بُناة الحضارة لم يكونوا أبدًا جهلاء وتقليديين! نعم، نحن من أتباع محمد الخاتم الأمين (صلوات الله وسلامه عليه)، لكن أتباع محمد لم يكونوا أبدًا فاشلين ومفسدين! نعم، يجب أن نتفاءل وننظر إلى النصف الممتلئ من الكأس، لكن ماذا عن النصف الفارغ؟ وماذا لو كان النصف الممتلئ ملوثًا، أو كان الكأس ذاته مشروخًا؟

لكل مقولة حقها من الفعل، ولأن تكون المقولة صـــادقة ومؤلمة فتدفع إلى الفعل الصـــائب والمرغوب، أفضـــل ألف مرة من أن تكون منقوصـــة ومريحة فتهوي بنا في غيابات الجهل والتخلف!

(١٨٣) السلطة مفسدة ما لم يُؤت حقها!

- **٢٢ فبراير ٢٠١٦**

أخطر ما يمكن أن تواجهه أية دولة، ويدفع بقوة نحو سقوطها، هو أن تُمنح فيها السُلطة (أيًا كان مداها) لجاهلٍ أو تافه أو فاسدٍ مُفسد؛ فالجاهل يرفع رايات جهله فيصفق له الجميع قسرًا، والتافه يُروج للتفاهة حتى تغدو من طبائع الأمور، والفاسد المُفسد لا يمارس الفساد فحسب، بل يجعله فرض عين على كل من هو تحت إمرته! السلطة مفسدة ما لم يُؤت حقها، وحقها أولاً أن يدرك حائزها أنها مسؤولية وليست امتيازًا مجتمعيًا له، وأن المســـؤولية تقتضـــي العلم والجدية ومراقبة الله في الســـر والعلن. حقها ثانيًا أن يُدرك الخاضعون لها أنهم مانحوها، وأن من يمنح شيئًا يمكنه اســـترداده إذا ما أســـيئ اســـتخدامه. وحقها ثالثًا أن يُدرك المســـتفيدون أن تبريراتهم للتجاوزات الحمقاء تماثل الرقص فوق بناءٍ على شـــفا جُرف هارٍ يوشـــك أن ينهار بالجميع!

(١٨٤) إنه يُمارس الكذب!

- **٢٢ فبراير ٢٠١٦**

حضر قومٌ إلى الجاحظ، فخرج إليهم غلامه، فســألوه عن ســيده فأجابهم: إنه في الدار، فقالوا له: ماذا يصـــنع؟ فقال: إنه يمارس الكذب! فقالوا له: كيف ذلك؟ فقال: إنه ينظر في المرآة مليًا ثم يقول: أحمدك ربي لأنك صورتني جميلاً!

لعل الجاحظ لم يكن كاذبًا بقدر ما كان مصـــدقًا لنفســـه، وهو في ذلك لا يؤذي أحدًا، ولا يشـــــوه واقعًا، ولا يفرض على الناس أن يهيموا إعجابًا بالجمال الزائف لصورته، لكن المشكلة الحقيقية فيمن يظنون أنهم أصحاب عقول راجحة

تثمر أفكارًا مبدعة، ويصدقون أنفسهم، فيخرجون علينا عبر وسائل الإعلام بوجوه يكسوها الغباء والجهل! يُعلنون عن أنفسهم كمثقفين، ومفكرين، ومحللين، وخبراء، ودعاة ... إلخ. والمشكلة الأخطر أنهم يجدون من يصفق لهم ويُنزلهم ما لا يستحقونه من منازل ... هم العدو فاحذرهم!

(١٨٥) شيء من الهدوء!

- **٢٦ فبراير ٢٠١٦**

ما هذه الفوضى التي تجتاح الوطن؟ ما هذا الصخب الذي يصم الآذان ويُربك العقول ويُشوش التفكير؟ أصبحت الدولة كفصلٍ مكتظ بالتلاميذ في مدرسة حكومية؛ قلة منهم يرغبون في التعلم والعمل بالفعل، فيقرأون ويكتبون ويجتهدون، ويُدركون مدى قدسية المكان الذي يحتويهم، أما الكثرة الغالبة، فمنهم من يلهو، ومنهم من يصرخ، ومنهم من يتشاجر ويستعرض قوته، ومنهم من يُحطم أثاث الفصل، ومنهم من يأكل ولا يشبع فيعمد إلى خطف طعام الآخرين، ومنهم من راح في سُباتٍ عميق، ومنهم من وقف يُدون الأسماء ليشي بها! والغريب أنهم جميعًا يحسبون أنهم يُحسنون صنعًا!

ثمة من إذا استمعت لهم أيقنت أن أكثر الثناء ضلال، وأن بعض الشتائم حلال! أتعرف ما السبب؟ أنظر حولك، طالع صحف بلادك، تابع إعلامك الحكومي والخاص، وقل لي ماذا ترى؟ نعم: نماذِجٌ مِنَ القِربْ، أسفلها رأسٌ، وأعلاها ذَنبْ!

(١٨٦) تتعدد الآلهة ... ويسقط الوطن!

- **٢٦ فبراير ٢٠١٦**

إذا سألت ذا منصبٍ: هل أنت سعيد بمنصبك؟ فسوف يجيبك على الفور بالنفي، ثم ينطلق موضحًا كيف أن مهامه وأعباءه الثقال إنما تحول بينه وبين راحة البال وبهجة الحياة.

فإذا سألته: ولم لا تترك هذا المنصب بمهامه المؤرقة؟ صمت قليلاً ثم راح يُردد تلك العبارات التي تلوكها ألسن المسؤولين دومًا: إنه الواجب يا صديقي؛ المسؤولية التي ألقاها الوطن على عاتقي، وها أنا ذا أضحي وأتحمل من أجل الوطن!

أكثرهم كاذبون، فرحون بما أوتوا من متاع المنصب وأهازيج النفاق ... إنها النفس البشرية التواقة إلى التأله على اختلاف درجاته؛ فهذا إله وذاك إله، وتتعدد الآلهة، ويكثر المتعبدون في محراب الوثن ... ويسقط الوطن!

(١٨٧) الفلسفة التي أتعبتني!

- **٢٦ فبراير ٢٠١٦**

في رواية «فلاسفة في حسائي» للروائي «أحمد خالد توفيق»، يدور الحوار التالي بين «أرسطو» و«عبير»:

- أرسطو: دعكِ من الامتحان، قولي لي بشكلٍ عام: ما الذي خرجتِ به من الفلسفة؟
- فكرت عبير حينًا، وأرجعت ظهرها إلى الوراء، ثم قالت: لا شيء في الواقع، عندما جئت إلى هنا كنت أطلب إجابة بسيطة عن مشكلة بسيطة: كيف أنتصر على الألم الذي أشعر به لأن زوجي تخلى عني. وجدت «أفلاطون» يطالبني بأن أنغمس في الهندسة وحساب المثلثات كي أنسى، ووجدت «ديوجين» يطالبني بأن أعيش في برميل وأعوي كالكلب، ووجدت «أبيقور» يطالبني بأن أشرب الخمر وألهو قدر الإمكان! أنت – «أرسطو» – اقترحت أن أنتظر وأصبر إلى أن تصعد روحي وتعيش بين النجوم، «كامو» اقترح أن أنتحر، و«سارتر» يطالبني بتحمل مسئولياتي، و«هيجل» يريد أن أمزج بين الطريحة والنقيضة وأن أنضم لجمعيةٍ ما ليكون لحياتي معنى، و«كانط» يطالبني بالتجريب! «نيتشه» و«شوبنهاور» يريان أني كائن حقير لا نفع له إلا خديعة الرجال! «فيثاغورث» يرى أن الموسيقى هي الحل، خاصةً لو أغرقت

آلامي في الرقم (عشـــرة) ... كل هذا مع الكثير من المشـــي وتســـلق الجبال والجري في شوارع «أثينا» و«باريس» ... لقد أتعبتني الفلسفة، أتعبتني جدًا!

لو التقيت عبير في الرواية، لقلت لها: أتعبتك الفلســـفة وأنت تركضـــين في شـوارع أثينا وباريس وتســتمعين إلى حكماء التاريخ، فماذا لو كنت تركضـين في شوارع العرب وتستمعين إلى بعض فلاسفتهم من الخبراء والإعلاميين؟ ماذا لو التقيت بأحدهم وقذفك بتصـــريحٍ أو تُهمة، أو صـــفعك بقانون أو قرار، أو اختال أمامك بعبقرية الجهل وشموخ الرياء؟ ربما أيقنت وقتئذٍ أن البحث عن فلسـفة للانتصـار على الألم قد يكون أشد ألمًا من تجرعه بهدوء!

(١٨٨) أبل والبيت الأبيض!

- **١ مارس ٢٠١٦**

التكنولوجيا التي استباحت أدق خصوصياتنا، هل تصمد أمام التحدي السياسي؟ وهل يكون التشـفير سـلاحها المسـتقبلي الأخير؟ شـركة آبل ترفض تنفيذ طلب حكومي وحكم قضائي أمريكي يطالبها بمساعدة محققي «إف بي آي» على فك شـفرة هاتف آيفون اسـتخدمه أحد منفذي اعتداء سـان برناردينو San Bernardino الذي أوقع أربعة عشـر قتيلاً في ديسـمبر ٢٠١٥ في كاليفورنيا، مبررة ذلك بالحفاظ على مصـــداقيتها أمام عملائها. ومن جانبها، أعلنت مجموعة «أَر جي إس» RGS GROUP، التي تضم شركات مثل:

AOL, Dropbox, Evernote, Facebook, Google, Apple, LinkedIn, Twitter, Yahoo… etc.

دعمها لشـــركة أبل في بيان رسمي، مؤكدة أن مســـاعدة التحقيقات في الأعمال الارهابية مهمة للغاية، لكن شـركات التكنولوجيا ليست مطالبة بفتح باب خلفي لنظام التأمين الذي تقدمه لمســـتخدميها، وأن هذا في حد ذاته يمثل تناقضـــًا تأباه كمبدأ. وعلى إثر تدخل البيت الأبيض للضـغط على الشـركة، أصـدر «تيم كوك»

رئيس شركة آبل بيانًا انتقد فيه الرئيس الأمريكي انتقادًا لاذعًا، واصفًا البيت الأبيض بانعدام القيادة الحكيمة!

المعركة ما زالت مشتعلة، وبغض النظر عن نتيجتها، فإن السؤال الذي يؤرقني: ماذا لو كانت هذه المعركة في منطقتنا ... بين شركة عربية وحكومة عربية؟

(١٨٩) الهجرة والهجرة العكسية!

- **٧ مارس ٢٠١٦**

هاجر المصطفى صلوات الله وسلامه عليه من مكة إلى المدينة انتصارًا للإنسانية؛ كي يضيء شموع الأمل لمن هم بلا أمل، ويُمهد دروب العدالة والكرامة وإعمار الأرض لمن تماهت لديهم هذه المفاهيم، ويُخرج الناس من ظُلمات الجهل وغيابات الوهم إلى نور العلم وباحات المعقول ... هاجر كي يسترد لنا حقوقًا ضاعت ويبعث فينا حقيقةً قُتلت! لكن هجرتنا (نحن العرب والمسلمون؛ نحن الذين بُعث فينا) كانت وما زالت منذ قرون هجرةً عكسية (إن صحَّ التعبير)؛ هجرنا فراديس النور وهاجرنا إلى أدراك الجاهلية؛ هجرنا رُبى العدالة والكرامة وهاجرنا إلى مستنقعات الظُلم والذلة، استبحنا لأنفسنا أن نُعيد بناء ما حطَّمه من أصنام، وإن في صورة شخص نُهلل له ونتعبد نفاقًا في محرابه، اتخذنا من الوهم سبيلا، ومن الرويبضة خليلا، فلينظر أحدكم من يُخالل! الهجرة تُرافقنا منذ ولادتنا وحتى مماتنا، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه!

(١٩٠) ريجيني!

- **المشهد الأول: ٥ مارس ٢٠١٦**

في مرحلة الطفولة، كنت كغيري من العرب، أسمع وأقرأ عن عمليات تبادل الأسرى بين العرب وإسرائيل في معية الصراع اللامنقطع بين

الطرفين، لكن ثمة سؤالاً كان يؤرقني دومًا: لماذا تُفرج إسرائيل عن المئات، وربما الآلاف، من الأسرى العرب مقابل بضع جنود أو ضباط، وأحيانًا مقابل جثة لجندي أو ضابط؟! لم أكن أفهم المغزى؛ كان الإعلام العربي يُهلل مشيدًا بقوة وذكاء المفاوض العربي الذي نجح في إطلاق سراح أسرانا عبر صفقة تبدو وكأنها بلا مقابل، في حين يشير الإعلام الغربي إلى الخبر كشيء عادي! ومع التقدم في العمر بدأت أدرك المغزى؛ إنها القيمة: قيمة الإنسان والحياة والكرامة والعلم، هنا وهناك؛ قيمة العربي، في مقابل قيمة الأجنبي أيًا كانت جنسيته!

ولم لا؟ ألا تحتفي أنظمتنا بالأجنبي في بلادنا في الوقت الذي تسحق فيه رعاياها بشتى السُبل؟ ألا يُقدّم المسؤولون في الخارج استقالاتهم، وربما يُحاكمون، إذا ما مات أو أصيب مواطنٌ نتيجة إهمال أو تقصير، بينما يمرح مسؤولونا في مواقعهم رغم موت العشرات والمئات والآلاف عبثًا وإهمالاً على الطرق، وفي المستشفيات، بتلوث الماء، والأطعمة الفاسدة، وعلى خلفية الصراعات الفكرية والسياسية؟

بدأت أفهم، وليتني ما فهمت، كيف أن مقولة «السادة والعبيد» في وطني ليست مجرد مقولة، بل نظرية متجذرة وفاعلة في الواقع العربي، ولها بالضرورة تجلياتها في الوعي الغربي تجاه العرب ... بدأت أدرك مبررات تلك المقولة التي ترددت أكثر من مرة على ألسنة ساستنا: «في وطن به هذا الكم من الناس، لا مانع من التضحية بالبعض من أجل الوطن! وليكن هؤلاء البعض ممن لا قيمة لهم»! بدأت أعرف كيف أن التصنيفات الدولية للمستويات المعيشية والجامعات وتفشي الأمراض وحقوق الإنسان ... إلخ، إنما تعكس بجلاء تلك الحقيقة؛ فقيمة العُملة المحلية تعكس قيمتك المعيشية، ونسبة المرضى تعكس قيمتك الحياتية، ومستوى تعليمك يعكس قيمتك العقلية والمهنية، ونظام حكمك يعكس قيمتك الحضارية،

وبرامج إعلامك تعكس قيمتك الثقافية، وممارسات مسؤوليك وشرطتك تعكس قيمتك الآدمية ... وكأني بأحدهم في الغرب يردد ساخرًا: لا تلوموني ولوموا أنفسكم، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي!

تذكرت كل ذلك حين رأيت أوربا (ذات المصداقية المزدوجة) تنتفض وتوصي بمنع المساعدات عن مصر من أجل طالب إيطالي مات كغيره ممن يموتون على مدار الساعة فلا يُحركون ذرة في قلب أو عقل مسؤول ... وبكيت حين رأيت البرلمان الأوربي بالأمس يؤنب مصر مطالبًا بإظهار حقيقة ما حدث ... أية حقيقة تلك التي يطالبون بإظهارها؟ الحقيقة المفجوعة لدينا، أم الحقيقة المتلونة لديهم؟

- **المشهد الثاني: ٤ أبريل ٢٠١٦**

ريجيني مرة أخرى ... لا أظن أن أمًا مصرية أو عربية قد أتيحت لها – عبر تاريخنا السياسي بأكمله – فرصة دخول مجلس النواب المهيب والجلوس بين أعضائه لعرض مأساتها، أو المطالبة بحق ولدٍ لها قُتل غدرًا في الداخل أو الخارج ... ربما لأن نوابنا الموقرين مشغولون دومًا بما هو أهم من أحزان أمٍ ثكلى أو المطالبة بحقٍ ضائع لمن انتخبوهم أو غير ذلك من القضايا التافهة ... وربما لأن نُظمنا حريصةٌ دومًا على رد المظالم والحفاظ على حقوق وكرامة مواطنيها وتقديس قيمة الحياة، مما لا تعرفه نُظم الخارج المبتدئة!

على أية حال، هذا ما حدث في إيطاليا، حيث استضاف البرلمان الإيطالي (مجلس الشيوخ) والدة الباحث الإيطالي «جوليو ريجيني» الذي عُثر عليه في مصر مقتولاً بالتعذيب في ظروف غامضة، وبأيدٍ مجهولة حتى هذه اللحظة! جلست تقص مأساتها، وتطالب بحق معرفة ما حدث لولدها، مع إنصاتٍ تام من كافة أعضاء البرلمان ... وحسنًا فعلت حين أشارت إلى الجرائم التاريخية لإيطاليا الفاشية، وإن بررت ذلك بأن إيطاليا كانت في حالة حرب!

لقد نجحت الأم في ترجمة أحزانها إلى رد فعل دولي عابر للحدود، كما نجحت في تجييش كافة المسؤولين والنواب الإيطاليين من أجل المطالبة بحق ابنها، لأنها فقط في أوربا وليس مصر أو أية دولة عربية، أما جهازنا الأمني فقد فشل في ترجمة موقفه (سواء أكان بريئًا من دم ريجيني أو مدانًا بها) إلى قناعات محلية ودولية. ولم يكتف بذلك، بل عمد إلى ضرب السياحة الجريحة في مقتل، والإجهاز على ما تبقى منها، بإعلانه تصفية تشكيل عصابي مكون من خمسة أفراد تخصص في التربص بالأجانب، مشيرًا إليه بأصابع الاتهام في واقعة قتل الباحث الإيطالي! لم يترك جهازنا الأمني فردًا واحدًا من هذا التشكيل لتأكيد روايته، ولو قسرًا وزيفًا (رغم براعته في ذلك)، ولم يُبرر لِم كان القتل خياره السريع بدلاً من إحكام خطة ناجعة للقبض على أفراده وتقديمهم للمحاكمة العادلة، بل ولم يُثبت أنه التشكيل الأخير (على الأقل دعمًا للسياحة)، ولم يُبرهن أنه ينتهج النهج ذاته إزاء تلك التشكيلات التي أدمنت الاعتداء على المصريين وسرقة سياراتهم وخطف ذويهم وتجريدهم من أمتعتهم ... وأخيرًا لم يُدرك الفرق بين وعي مجتمع يبادر برلمانه باستضافة أم ثكلى للاستماع لها ومساندتها في محنتها، ووعي مجتمع تتبخر فيه الكرامة والحقوق والحريات! سُمعة مصر بين أيديكم ... فماذا أنتم فاعلون؟

- **المشهد الثالث: ٧ أبريل ٢٠١٦**

«**قتلوه** وعذبوه كما لو كان مصريًا»، أوجعتني العبارة، اقشعر لها بدني، وأدمت قلبي وعقلي ... أسمع صداها يتردد مثقلاً بكثرة من المعاني: أهانوه كما لو كان مصريًا، أهدروا كرامته كما لو كان مصريًا، غيبوا وعيه كما لو كان مصريًا ... إلخ. نعم سيدتي، نحن كل ذلك وأكثر، وما أظن عبارتك ستحرك شعرة في جسد من تسببوا في نطقك بها عبر عقودٍ خلت!

أوجعني أكثر أن أقرأ اليوم خبرًا عن صبية وشباب تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والرابعة عشرة يحاولون الفرار بحرًا من مصر إلى إيطاليا، يُخرجونهم من إحدى سُفن الموت ويطرحونهم أرضًا، وكأنهم أسرى يلتمسون الحياة في فلاة

قائظة! وأوجعني أكثر وأكثر أن أستمع إلى شباب (مصريين) يتداولون قصتهم، فإذا بهم يُجمعون على التمني بأن يكون جهازهم الأمني (المعني به الحفاظ على أمنهم واستقرار بلدهم) متورطًا في قتل ريجيني، وكأنهم ينشدون الثأر (بأيدٍ إيطالية) لممارسات يتندر ويُعاير بها الخارج، ويتألم منها الداخل! ألهذا الحد بلغنا؟ وإلى أي مدى لا تبلغه مداركنا؟ ولماذا نُصر على تجريد الوطن من كل شيء، حتى انتماء أطفاله وشبابه؟ وهل عجزنا عن صيغة توافقية للتعايش تحفظ لنا الحد الأدنى من أسباب الحياة؟!

(١٩١) ولتحيا أمجاد العرب!

- **١٤ مارس ٢٠١٦**

علمونا في المدارس أن إسرائيل هي العدو الأول للعرب؛ هي التي استباحت أراضينا واحتلت ديارنا وقتلت أطفالنا ودنست في القدس مسجدنا؛ هي الشوكة التي زرعها الغرب في منطقتنا لتؤرق مضاجعنا، والورم السرطاني المنزرع قهرًا وظلمًا وسط جسد لا يقبله، ولن يهدأ لنا بال حتى ننتزع الشوكة ونستأصل الورم ... وظللنا نردد أناشيد البطولة: هي العدو لا كذب، ولتحيا أمجاد العرب ... هي العدو لا كذب، ولتحيا أمجاد العرب! هكذا علمونا، وهكذا عشنا نصب لعناتنا على العدو: من بحر البقر إلى صبرا وشاتيلا ... لكن الشوكة لم تعد شوكة، بل باتت ملاذًا آمنًا للمعتدلين! والورم لم يعد ورمًا، بل أصبح رمانة الميزان لاستقرار المنطقة! نظمٌ عربية يدفعها العداء مع إيران إلى الإشادة بالدولة اليهودية؛ «فهي القادرة على الدفاع، ليس عن نفسها فحسب، بل عن أصوات الاعتدال والدول العربية المعتدلة في المنطقة»، وهي «الحليف القادر على إرساء الاستقرار في المنطقة». أي عقل هذا الذي يستجدى الحماية من عدوه التاريخي، أيًا كان حجم عداواته الأخرى؟ هل من إجابة؟ لا تحزن، ألا ترى الله يفضحهم على ألسنتهم ويُعريهم بأفعالهم؟!

(١٩٢) ماذا نُعلم أطفالنا؟!

- **١٤ مارس ٢٠١٦**

المدرســة قبل أن تكون مكانًا للتعليم، هي مكانٌ لتربية النشء وغرس المبادئ الأخلاقية القويمة في نفوسهم. والتربية ليست درسًا نظريًا، بل هي علمٌ وسلوك ... الطفل يجب أن يرى المبادئ الأخلاقية مفعولة قبل أن يسمعها مقولة. لكننا للأسف نقوم بعملية توريث مقصودة لكافة مثالبنا الأخلاقية لأطفالنا؛ نقتل فيهم البراءة ونسحق الفطرة ... نستبيح القيم في عقولهم ونفوسهم، ونُهدر الصدق في منطقهم!

هذا ما حدث من قبل المسؤولين عن التعليم في بور سعيد منذ أيام، حيث قرر السيد وزير التربية والتعليم زيارة إحدى أو بعض مدارس المدينة يوم السبت الموافق ١٢ مارس ٢٠١٦. لم ينتبه منظمو الزيارة أن السبت أجازة أسبوعية رسمية بقرار من الوزارة ذاتها، أو ربما تعمدوا أن تكون الزيارة في ذلك اليوم كي لا يرى سيادته فوضوية الفصول وعبثية العملية التعليمية! ولأننا بارعون في الفبركة؛ فبركة النظافة والنظام والالتزام والتجمل الكاذب، فلم لا نكون أيضًا بارعين في فبركة اليوم الدراسي الكامل؟ هكذا استدعت إدارة بور سعيد التعليمية تلاميذ سبع مدارس يوم أجازتهم لمدرسة الشهيد محمد صبري عبدالعال بحي الضواحي في بورسعيد بحجة حضور بعض الدروس الإضافية، في حين كان الهدف هو تمثيل اليوم الدراسي أمام السيد الوزير، أو ربما أمام وسائل الإعلام ... ليس ذلك فحسب، بل والغناء أمام سيادته، حتى لقد اشتكى أحد أولياء الأمور أن الإدارة التعليمية عمدت إلى تدريب الأطفال لمدة أربع عشرة ساعة بدون راحة في فناء المدرسة على الأغاني التي سيؤدونها أمام الوزير، ما أصابهم بالإعياء الشديد، خاصة مع التقلبات الجوية التي تشهدها مصر حاليًا!

بالله عليكم، كيف يكون حال هؤلاء الأطفال حين يتم الدفع بهم إلى مواقع المسؤولية في المستقبل؟ كيف سيكون سلوكهم ونمط تفكيرهم؟ لا أظنهم إذا ما

اتبعوا الخطى إلا أن يقولوا: هذا ما وجدنا عليه آباءنا! أو لعلهم وقتئذ يصبون لعناتهم على من أورثهم الكذب والنفاق ... هل من متفائل؟

(١٩٣) كذب المطبلون!

- **١٧ مارس ٢٠١٦**

المطبلون حول أي مسؤول أخطر عليه من نفسه حين توسوس له بالسوء، لا سيما إن كان هو ذاته طبالاً بامتياز لمن يعلوه منصبًا ومسؤولية طلبًا للرضا أو البقاء أو الترقي أو إشباع الذات بغذاء الثناء! وقد يكون التطبيل مباشرًا أو غير مباشر، مقصودًا أو غير مقصود، قويًا أو ضعيفًا أو متدرجًا في قوته تبعًا لحجم الفيض الصادر عن المسؤول واستمراريته، فإذا ما ترك منصبه تولى عنه المطبلون وهم معرضون! الأمثلة على ذلك متنوعة وفاجعة، تراها في وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة على مدار اليوم، وتراها في كافة مؤسسات الدولة؛ فما أكثر المطبلين والمزمرين الذين يلتفون حول أي مسؤول، يُسمعونه ما يود سماعه ولو كان فيه هلاكه وهلاك رعيته، ويحجبون عنه الحقيقة ولو كانت فيها النجاة ... وكلما علا المنصب أصبح التطبيل أكثر قوة، وأكثر خطورة، وأكثر صخبًا، وأكثر تنوعًا؛ فهذا يؤلف، وهذا يُلحن، وهذا يغني، وهذا يرقص ... وينتفخ المسؤول كذبًا، ويظن أنه امتلك نواصي الحكمة ... ويتصدع الوطن! كذب المطبلون ولو كان قرع طبولهم يصم الآذان ... تعس المصدقون لهم في كل زمان ومكان (تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة؛ إن أعطى رضى، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش).

(١٩٤) عليك أن تختار!

- **١٧ مارس ٢٠١٦**

إما أن تفكر وتجتهد وتؤدي عملاً حقيقيًا، أو أن تعقد اجتماعات وتشكل لجانًا وتُطلق تصريحات تتكاثر معها ثقوب الفشل! إما أن تتبني لغة العلم والعمل، أو أن

تحترف لغة الكلام والوعود الحانثة والوشـاية وتجارة الوهم! إما أن تمتطي ضـعفك فتقوى وتعلو، أو تترك ضـعفك يمتطيك فيلهب ظهرك بسـياط الخيبة ويتراقص بك على شفا الهاوية! إما أن تكون شيئًا مؤثرًا ونا ضحًا بالصدق أو لا تكون شيئًا على الإطلاق ... وعليك أن تختار!

(١٩٥) جورج طرابيشي!

- **١٧ مارس ٢٠١٦**

مات جورج طرابيشـي ... مات عملاق الترجمة والنقد والفكر الحر ... مات وهو يبحث عن العقل التائه والوطن الغائب! ما زلت أذكر كلماته التي اختتم بها مقاله (ست محطات في حياتي):

«إن شـللي عن الكتابة، أنا الذي لم أفعل شـيئاً آخر في حياتي سـوى أن أكتب، هو بمثابة موت. ولكنه يبقى على كل حال موتًا صـغيرًا على هامش ما قد يكونه الموت الكبير الذي هو موت الوطن».

ما زلت أذكر أيضـًا كلماته عن أنماط الفشـل في حياته: «فشـلي الأكثر في حياتي هو الهزيمة العربية في حزيران ١٩٦٧م، ولكن هذا ليس فشـلي، بل هو فشـل جيلي بأكمله، إنه فشـل الأمة، ومما يرعبني أن أفكر، مجرد التفكير، بأن الحياة لن تمتد بي بما فيه الكفاية لأرى نهاية هذا الفشل، ولا أدري هل ستكون له من نهاية أصلاً»!

(١٩٦) هل تأملت في حياتك نهرًا!

- **٢٢ مارس ٢٠١٦**

في مقالٍ له تحت عنوان هل «تأملت في حياتك نهرًا؟»، يورد الدكتور «أحمد خالد توفيق» قصـة معبرة للروائي الفرنسـي «أندريه موروا» André Maurois. القصـة تحكي عن فنانٍ تافه مغمور لا يبيع لوحة واحدة من لوحاته. وذات يوم زاره صـحافي

من أصـــدقائه فرقَّ لحاله، واقترح عليه أن يدعي أنه ابتكر أســلوبًا جديدًا في الفن يسميه مثلاً «الطريقة النفسية التحليلية» ... ودار بينهما الحوار التالي:

- هل يمكنك أن ترسم لي بعض اللوحات التي تحوي كلامًا فارغًا؟ مثلاً، امرأة جميلة وحولها أوراق مالية كناية عن حب المرأة للثراء، أو رجلاً بدينًا متأنقًا حوله دموع ودم كناية عن أغنياء الحرب ... هل تستطيع ذلك؟
- بالتأكيد.
- إذن، نفذ عشـــر لوحات بهذه الطريقة وســـوف أكتب أنا مقالاً عن طريقتك العبقرية وعن معرضك المقبل.

أنجز الفنان هذا الكلام الفارغ في ليلة واحدة، وجاء يوم المعرض الذي احتشـدت باريس كلها لتراه. كان هناك حشـدٌ من النقاد الفنيين، فقال الصحـافي للفنان: «لا تخف، كلما سألك أحدهم عن معنى (الطريقة النفسية التحليلية) اكتف بأن تنفث دخان الغليون في وجهه، وقل: هل تأملت في حياتك نهرًا؟، ســـوف يتظاهرون بأنهم فهموا»!

نفذ الفنان التعليمات، وكلما التف حوله نقاد أو صـــحافيون وســـألوه عن مغزى أسـلوبه، نفث الدخان في وجوههم وقال: هل تأملتم في حياتكم نهراً؟ ... فيصـيحون في انبهار: هذا صحيح ... يا له من عبقري!

انتهى المعرض بعدما بيعت اللوحات بثمن باهظ، وصـــــــار الفنان أهم فنان في باريس، وجاءه الصـحافي ضـاحكًا بعد رحيل الناس وقال: هل رأيت كيف خدعنا هؤلاء القوم بلوحاتك عديمة القيمة؟!

نظر له الفنان في حزم وقال: هل أفهم من هذا أنك تنتقد طريقتي النفســـــــية التحليلية؟ صاح الصـحافي في غيظ: هلُم ... لا تصـدق نفسـك؛ أنت تعرف أنه لا يوجد شـــيء اسمه الطريقة النفســـية التحليلية! هنا نظر له الفنان طويلاً ثم نفث دخان الغليون في وجهه وقال: هل تأملت في حياتك نهراً؟

القصة تُعبر باختصار عن كثير مما تراهم حولك الآن، بل ومنذ سنوات طويلة، أشباه فنانين ومثقفين ودعاة ومسؤولين: رويبضات يعتلون منابر الكلام والفعل والتوجيه، يتم تلميعهم جيدًا، إعلاميًا أو حكوميًا أو مجتمعيًا، فيصفق الناس، ويُهلل الجهلاء والمنتفعون!

المصيبة أنهم يصدقون أنفسهم بعد حين، يتوهمون أنهم قد امتلكوا نواصي الحقيقة، وأنهم العباقرة وغيرهم أغبياء ... تُراجع أحدهم فينفث في وجهك دخان جهله ولسان حله يقول: هل تأملت في حياتك نهرًا؟!

(١٩٧) وأخذ يُفكر ويُفكر!

- **٢٩ مارس ٢٠١٦**

وأخذ يفكر ويفكر، ثم أخذ يفكر ويفكر، ثم نظر نظرة ثاقبة، ثم راح يفكر ويفكر، ثم استرخى ورفع رأسه متأملاً، ثم انطلق يفكر ويفكر، ثم مسح رأسه بيده وظل يفكر ويفكر، وكان أثناء تفكيره يُفكر ويُفكر، ثم عاد يُفكر ويفكر، حتى نسي أنه يُفكر ويفكر، ثم لم يقل أو يفعل شيئًا جديدًا، بل خرج ليعلن أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان!

عن أسلوب العمل والتخطيط والإدارة في وطني أتحدث!

(١٩٨) أنت في الوطن العربي!

- **١ أبريل ٢٠١٦**

إذا رأيت صوت الباطل أعلى من صوت الحق، والخيار السائد ليس بين السيء والأسوأ، بل بين الأسوأ والأكثر سوءًا، والغباء والفساد يمرحان في نشوة حيثما وليت وجهك، وحشود السكارى تتراقص عبثًا وألمًا في ساحات اللامعقول، وشيخوخة المكان تترنح بأنصاف الأحياء، والتفاؤل يغتال الحقائق في متاهات

الوهم، والبقاء جمرة مشتعلة لا تخمد في العقل الحائر والقلب الحزين، والفرار أملٌ صعب المنال ... فاعلم أنك في الوطن العربي!

(١٩٩) نعرف أنهم يعرفون أننا نعرف!

- **<u>٥ أبريل ٢٠١٦</u>**

يعرفون أنهم كاذبون، مراؤون، منافقون، متسلقون وفاسدون ... ويعرفون أننا نعرف، ونعرف أنهم يعرفون أننا نعرف، ومع ذلك يتنطعون، ويخرجون في زينتهم بدُثر التقوى والإخلاص والوطنية، وإذا لقوا الذين يعرفونهم قالوا إنا مضطرون، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ... الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون!

(٢٠٠) هزوا إليهم بجذوع الشعارات!

- **<u>١١ أبريل ٢٠١٦</u>**

هزوا إليهم بجذوع الشعارات تُساقط وهمًا بمذاق الوطنية والانتماء، واعزفوا لحن الوطن ورددوا نشيده تتراقص آلام المرضى وأقلام التلاميذ وتبلغ إنجازاتنا زيفًا عنان السماء! اشغلوهم بأخبار الحوادث والتوافه يزدحم العقل العليل ونفعل ما نشاء ... دعوهم يصطدمون داخل النفق المظلم ويرتطمون بجدرانه، فإن رأوا في نهايته ضوءًا فعليكم بمزيد من الأنفاق ... بها نقتل الوعي ونُبدد الرجاء!

(٢٠١) الملاحظة المُحملة بالنظرية!

- **<u>١٢ أبريل ٢٠١٦</u>**

نقول في فلسفة العلم أن أية ملاحظة ليست مجرد فعل للإبلاغ عن ظاهرة ما، بل هي تفسيرٌ للظاهرة في ضوء نظرية معينة، وفي معية خلفية بأكملها من الاعتقادات، وهو ما يعني ضمنًا أن النظريات المختلفة تُضفي تفسيرات مختلفة على الظاهرة المعنية، أو بعبارة أدق، لن تكون الظاهرة الملاحظة هي ذاتها حين تُخبرنا

عنها نظريات مختلفة. معنى ذلك أن الخبرة الإدراكية تخضع بالضرورة للتفسير النظري المُوجّه لها، ففي حالة البطة – الأرنب المشهورة على سبيل المثال، لن ترى فقط شكلاً مؤلفًا من خطوط منحنية، لكنك ترى وجه بطة أو وجه أرنب! وعلى هذا فليست هناك أية خبرة إدراكية خالصة، بل غالبًا ما يكتنفها الإرث والتكوين النظري بوعي أو عن غير وعي!

هذا باختصار ما أراه أيضًا في أي تفسير أو أية رؤية يعلنها صاحبها ويدافع عنها إزاء أية قضية أو أي حدث مما يتوالى علينا على مدار الساعة ... الفارق الوحيد بين هذه التفسيرات وتلك الرؤى هو حجم التكوينات المعرفية لأصحابها، بشرط ألا تكون منغمسة في وحل الهوى والمصالح أو ممتطية لموجات النفاق القميء ... لذا لا ألوم من كان مؤيدًا أو معارضًا، مادحًا أو قادحًا، إنما أعمد إلى مناقشته إن أتيحت لي الفرصة، فلعل لديَّ ما خفي عنه، ولعل لديه ما خفي عني ... أنظر في منطلقاته وحججه بقدر ما أجتهد في عرض منطلقاتي وحُججي، وأبحث عن القاسم المشترك بيننا، فإن وُجد كان بها، وإن غاب فالحكم مؤجل، لا يُفسد ودًا، ولا يُشوه فكرًا أو يُكيل تهمًا! هذا للأسف ما لا يُدركه كثيرون، خلطوا بين القول والقائل، وبين الباقي والزائل!

(٢٠٢) اكتشف الحمار!

- **<u>١٣ أبريل ٢٠١٦</u>**

وقت أن كنا صغارًا، كانوا يعلموننا في المدارس كيف نقرأ، كيف نفهم ونحلل وننتقد، كيف نبني العقل ونبني الوطن ... كانوا يقولون لنا: اكتشف المارد في داخلك؛ اكتشف المُبدع علمًا وأدبًا وفنًا ... اكتشف الإنسان!

وكبرنا، ومرت بنا الأيام والأعوام؛ من نظامٍ إلى آخر، ومن حكومة إلى أخرى، ومن حال إلى حال، وبات ما تعلمناه كلامًا للتسويق الخطابي؛ مجرد أوهام من صُنع الخيال! ورأينا بأم أعيننا أن البقاء ليس للأصلح كما أخبرنا داروين، بل للأفسد،

وربما كان المعنى أن الأفسد هو الأصلح ... البقاء في وطني للسارق والتافه والمتملق والمحتال ... وأطلت علينا من خلف الأقنعة وجوهٌ سافرة، تنطق بكلمات سافرة: ابحث عن اللص في داخلك، فتش عن آيات النفاق، ولا تسل، لا تبغ الفهم، بل اكتشف بداخلك الحمار ... اكتشف الحمار!

(٢٠٣) أخذته العزة بالجهل!

- **١٤ أبريل ٢٠١٦**

قال مختالاً بعماء التأييد المطلق: «من أحب شخصًا وثق فيه، ومن وثق في شخصٍ أيده في كل ما قال أو فعل، حتى فيما عجز الناس عن فهمه أو تصديقه، لذا فأنا أؤيد النظام في كل ما يتخذه من قرارات، وما يُبرمه من اتفاقيات، وقد عجز المنتقدون عن فهم ما لديه من مبررات، وما يؤتيه من معجزات» ... ثم أردف قائلاً بنبرة التقوى: «ألا ترون كيف أيَّد أبو بكر (رضي الله عنه) رسول الله (صلى الله عليه وسلَّم) في رواية الإسراء فأعلنها صريحةً: إن كان قد قال فقد صدق؟»!

قلت يا صديقي قياسك مغلوط، وحجتك فاسدة؛ فما من امرئٍ كرسول الله، وقد صدَّقه القوم في خبر السماء، أفلا يُصدقونه في خبر الإسراء؟ وما من رعية كصحابته، وقد قال أبو بكر يوم تولى الخلافة: «وُليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع إليه حقه، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ...». يا صديقي: ألا ترى كيف سأل ابو الانبياء إبراهيم (عليه السلام) رب العزة أن يريه كيف يُحيي الموتى، فسأله الله تعالى (وهو يعلم السر وأخفى): «أولم تؤمن؟»، قال «بلى ولكن ليطمئن قلبي»، فأجابه المولى إلى ما طلب! فهل تستكثر على القوم أن تطمئن قلوبهم؟

نظر صديقي نظرة استنكار وقد أخذته العزة بالجهل، ثم ولى مدبرًا ولم يُعقب!

(٢٠٤) كل شيء ممكن!

- **<u>١٦ أبريل ٢٠١٦</u>**

كل شـيء ممكـن عندما تهيمن على المرء عقلية النفاق والتخوين والتسـلق وأحادية الرأي، لتصـبح أقرب إلى الإنسـان من حبل الوريد ... ربما تكون أحداث الربيع العربي قد غيرت من شكل المنطقة العربية، لكنها لم تغير العقل العربي، ولم تغير الضـمير العربي، ولم تغير الدكتاتورية العربية، ولم تغير مفهوم التغيير العربي ذاته ... صـحيح أنها أنبتت أزهارًا فتية ترنو إلى سماء الحرية، لكنها مطمورة في تربة العفن العربي!

لم نستطع أن ندرك بعد – على حد تعبير «جون ستيورات مل» – أننا إذا أسكتنا صوتًا، أو سخرنا منه، فربما نكون قد أسكتنا الحقيقة، وأن الرأي الآخر ربما يحمل في جوانحه بذور الصدق، وأن الرأي السائد نظاميًا سيفقد بالضرورة أهميته وتأثيره ما لم يواجه تحديًا من حين إلى آخر! لم نستطع أن ندرك أن كثيرًا من أهل النُخبة قد تربوا في زرائب العبودية على فتات سادتهم، وأن كثيرًا من أهل الحل والعقد هم أصل المشكلة ووقودها، وأن كثيرًا ممن نراهم ونقرأ ونستمع لهم لم يبلغوا بعد مرحلة رُشد التمييز بين الشخص والفكرة؛ بين حُب الشخص وحُب الوطن! لك الله يا وطني ... لك الله يا وطني.

(٢٠٥) مطعونون!

- **<u>١٦ أبريل ٢٠١٦</u>**

نعم، لا نريد أن نلطخ أيدينا وأقلامنا بالسياسة، لكن أرواحنا مطعونة بحرباتها الخبيثة من كل صوب وحدب، عقولنا مطعونة بالغث المزور، حاضرنا ومستقبلنا مطعونان بالجهل، أنفاسنا مطعونة بسموم تنفثها أنفاس السياسيين ... في صمتنا نحن مطعونون، وفي جهرنا نحن مطعونون، حتى في موتنا نحن مطعونون!

(٢٠٦) التطبيل ثقافة حياة!

- **٢٣ أبريل ٢٠١٦**

قلت لصديقي: لعل الحياة كانت ستصبح أفضل بدون كبار المطبلين وحملة المباخر! قال: كلا يا صديقي، فالتطبيل موروث فرعوني أصيل، تناقلته الأجيال المتعاقبة، وحافظ عليه المصريون الذين برعوا في صناعة الأصنام البشرية، وبناء المعابد لها، والتعبد في محاريبها (إلا من رحم ربي) ... كل ما في الأمر أن أشكال المعابد اختلفت؛ فالفضائيات اليوم معابد، والصحف معابد، والمجالس النيابية معابد، ومواقع الإنترنت معابد، والوظائف العامة معابد ... أما المطبلون أنفسهم فهم كما هم؛ فهذا لصٌ يحتمي بالتطبيل ممن سرق مقدراتهم وينشد المزيد، وذاك جاهلٌ صاحب مال يبتغي بالتطبيل مقعدًا يلتف حوله الناس ... هذا حائز علم راح يبيع الفتوى ويطبل بالزيف تحت موائد الكبار، وذاك رابح كرسي زائل استغرقته فكرة التطبيل من أجل البقاء! التطبيل يا صديقي في وطني ثقافة حياة، ولئن اختفى هؤلاء المطبلون، فثمة ألف ألف مُطبل ينتظرون!

(٢٠٧) اللهم امحق دولة اليهود!

- **٢٨ أبريل ٢٠١٦**

هذه إسرائيل التي دعونا عليها مرارًا في صلواتنا! لماذا لم يستجب الله دعاءنا؟ كنا وما زلنا ندعو عليها: اللهم امحق دولة اليهود، اللهم شتت شملهم، اللهم اقطع نسلهم، ... إلخ. كنا وما زلنا نتغنى بأمجاد العرب، وتكابد عقولنا الجرب ... كنا وما زلنا نُمني أنفسنا بفتح الأقصى وتحرير التراب، نغني ونرقص ونزني بالكلام، فكيف أصبحت دولة اليهود؟ وكيف أصبحنا؟

دولة احتلالية صغيرة عمرها ٦٨ سنة، لا يتجاوز عدد أفرادها ٨ مليون، بها ٥٠٠٠ شركة ريادية ناشئة (تحتل المركز الثاني اليوم كأفضل مكان للشركات الناشئة في العالم بعد وادي السليكون Silicon Valley في الولايات المتحدة)؛ بها ١٤٠ عالِم

وباحث وخبير لكل عشرة آلاف نسمة (وهو أعلى معدّل في العالم مقارنةً بـــ ٨٣ في اليابان، و٨٥ في أمريكا)؛ الأولى عالميًا في البحث والابتكار العلمي؛ عدد الأوراق البحثية العلمية المنشورة في مجلات عالمية بالنسبة إلى تعداد السكان ومقارنةً مع النسبة إلى سكان العالم يبلغ عشرة أضعاف؛ تحتل المرتبة الثانية في علوم الفضاء، ومرشحة كرابع دولة للهبوط على القمر في المستقبل القريب؛ أكثر من ٩٠٪ من منازل المواطنين بها تستخدم الطاقة الشمسية لتسخين المياه (وهي أعلى نسبة في العالم)؛ ٥٠٪ من صادرات الدولة بأكملها من قطاع العلوم والتكنولوجيا؛ تساهم بنسبة ١٪ في المعرفة الإنسانية اليوم مقارنةً بـ ٠,٠٠٠٢٪ للدول العربية الـ ٢٢ مجتمعةً، إنها دولة الاحتلال الصهيوني؛ إسرائيل!

ونحن، وما أدراك ما نحن؟ صدق الشاعر حين قال: نركضُ في الشوارعِ، نحملُ تحت إبطنا الحبالا؛ نمارسُ السحل بلا تبصُّر، نحطّمُ الزجاجَ والأقفالا؛ نمدحُ كالضفادعِ، نشتمُ كالضفادعِ؛ نجعلُ من أقزامنا أبطالا، نجعلُ من أشرافنا أنذالا، نرتجلُ البطولةَ ارتجالا؛ نقعدُ في الجوامعِ، تنابلا، كُسالى؛ نشطرُ الأبياتَ أو نؤلّفُ الأمثالا، ونشحذُ النصرَ على عدونا، من عندهِ تعالى! العيب ليس في الدعاء، بل فيمن يمارسون الدعاء بقلوب ملوثة بشتى الموبقات، وبعقول تستعذب الخرافات وتُروج للجهالات!

(٢٠٨) إبليس كان صريحًا!

- **٢٨ أبريل ٢٠١٦**

الجهل أصبح رائدًا، والنفاق أصبح ذكاءً، والعبث أصبح نهجًا، والعلم أصبح فهلوة، والدين أصبح تجارة، والسياسة أصبحت شطارة، والخمر أصبح شرابًا، والميسر أصبح حظًا، والرشوة أصبحت قهوة، والاختلاط الماجن أصبح تحضرًا، والتبرج أصبح أناقة، والتعري أصبح حرية، والزنا أصبح علاقة عابرة، والأمر بالمعروف أصبح تزمتًا، والنهي عن المُنكر أصبح تخلفًا!

إبليس كان صريحًا معنا منذ البداية، أخبرنا بأنه سوف يُضلنا في الدنيا ويتخلى عنا في الآخرة، لكن ثمة من البشر من هو أذكى وأخطر من إبليس ... يُمنينا كذبًا بالفلاح في الدنيا، والنجاة في الآخرة، وفي الحالتين نحن: «صـمٌ بُكمٌ عُميٌ فهم لا يعقلون» (البقرة: ١٧١). قال لي: «كُن واقعيًا»، قلت «أخشى أن أصبح مثلهم»!

(٢٠٩) إلى الاسطبل يا مولاي!

- **<u>١ مايو ٢٠١٦</u>**

أنشد أحد الخلفاء قصيدة أمام مدعويه وحاشيته، وكان جالسًا بينهم الشاعر أبو نواس (من أشهر شعراء العصر العباسي). وبعد أن انتهى من إلقاء القصيدة، نظر إلى أبي نواس وسأله: هل أعجبتك القصيدة يا شاعر؟ أليست بديعة؟، فأجابه أبو نواس: لا أشم بها أية رائحة للبلاغة! فغضب الخليفة وسرَّها في نفسه، ثم مال على حاجبه وقال له: بعدما أنهض وينهض المدعوون وبنفض المجلس، احبسوا شاعرنا في الاسطبل مع الخراف والحمير ... وقد كان!

وظل أبو نواس محبوسًا في الاسطبل شهرًا كاملاً، ولما أفرج عنه وخرج من الإسطبل، عاد إلى مجلس الخليفة، وعاد الخليفة إلى إلقاء الشعر، وقبل أن ينتهي من الإلقاء، نهض أبو نواس، وهمَّ بالخروج من المجلس، فلمحه الخليفة، ثم سأله: إلى أين يا شاعر؟ فأجاب أبو نواس: إلى الاسطبل يا مولاي!

كلمة الحق دائمًا موجعة؛ قائلها ومن قيلت له!

(٢١٠) ليس في الإمكان أبدع مما كان!

- **<u>٥ مايو ٢٠١٦</u>**

كل الذين يؤيدون النظام (أي نظام وضعي، عام أو جزئي، أيًا كان زمانه ومكانه، إن كان ثمة نظام) «تأييدًا مطلقًا» هم إما جزءٌ من هذا النظام (أصحاب مناصب أو مصالح يرعاها النظام)، أو انتهازيون (ينشدون رضا وعطايا النظام)، أو نمطيون (يدرؤون عن أنفسهم شر النظام)، أو جهلاء (يسيئون بجهلهم إلى النظام)!

السبب بسيط، هو أنه لا يوجد نظامٌ كامل أو مثالي ... حتى الأنساق الرياضية المجردة التي ظنناها طويلاً مثالاً للدقة تفتقر إلى الكمال، فما بالك بنظام عملي يعتريه عوار الخطأ البشري والمصالح المتضاربة وتراكمات جهل وفساد ذاتية التضخم؟ التأييد المطلق يعني غياب أو تغييب العقل الناقد، تفعيلاً لمقولة «ليس في الإمكان أبدع مما كان»، ومن ثم قتل الوعي عمدًا لدى أجيال ينتظرها مستقبل مشوب بالضبابية، في حين أن العقل الناقد هو أولى ملكات السعي نحو الأفضل وتحقيقه! استقيموا يرحمكم الله.

(٢١١) اللي على راسه بطحة!

- **٥ مايو ٢٠١٦**

اللي على راسه بطحة يحسس عليها! يُحكى أن رجلاً كان يعيش في قرية صغيرة ولديه دجاجًا، لكنه كان يكتشف من وقتٍ لآخر سرقة دجاجة أو دجاجتين، فذهب إلى شيخ المسجد وقال له: يا شيخ، ثمة من يسرق من دجاجاتي ونحن بالقرية معدودون على الأصابع، ولا أستطيع أن أتهم أحدًا جزافًا ... فقال له الشيخ: لا تقلق، عندي طريقة لكشف السارق. وفي اليوم التالي، وبعد أداء الصلاة، خطب الشيخ في الناس متحدثًا عن الأمانة وجزاء السارق، ثم أنهى خطبته قائلاً: وتخيلوا أن السارق قد بلغت به وقاحته أن يجلس بيننا وقد نسي إزالة الريش عن راسه، فقام الفاعل مباشرة بمسح راسه!

تُماثل الرواية قصة المرأة التي دخلت على أحد الخلفاء، وهي من قومٍ قد قتل الخليفة رجالها، فقالت: «أقرَّ الله عينك، وفرَّحك بما أتاك، وأتمَّ سعدك، لقد حكمت فقسطت»! فسأل الخليفة أصحابه عن قصدها، فقالوا: «ما نراها قالت إلا خيرًا!»، فقال: ما أظنكم فهمتم ذلك؛ أما قولها: أقرَّ الله عينك، أي أسكنها عن الحركة، وإذا سكنت عميت؛ وأما قولها: وفرَّحك بما أتاك، فقد أخذته من قوله تعالى «حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون» (الأنعام: ٤٤)؛ وأما قولها: وأتم الله سعدك، فقد أخذته من قول الشاعر (إذا تمَّ أمرٌ بدا نقصه، ترقب

زوالاً إذا قيل تمَّ!)؛ وأما قولها: لقد حكمت فقسطت، فقد أخذته من قوله تعالى «وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبًا» (الجن: ١٥)!

الكاتب على نيته يكتب ... وثمة من هم على بطحتهم يُحسَّسون!

(٢١٢) حتمًا سينتصر العقل يومًا!

- **٦ مايو ٢٠١**

في زماننا العربي هذا، من السهل أن تُضبط متلبسًا بجريمة التفكير، وأن تُحاكم بتهمة «حيازة عقل»، وحينئذٍ قد تدفعك قسوة العقوبة إلى التبرؤ من ذلك الكيان المفارق فيك، المتورط به وفيه؛ من العقل! أليس هذا أفضل من أن تقضي حياتك موشومًا بالتشاؤم، بإثارة الفتنة، بإهانة الزائف اللامعقول؟ ألم يظفر أولئك الذين سلِموا من جناية العقل بحياة ينشدها العقل ذاته؟ وهل بإمكانك يا صديقي أن تذكر شخصًا (في مجمل محيطنا العربي) أودى به جهله إلى الشقاء، ثم انتهى به المطاف إلى القبر محرومًا حزينًا؟ ألا تُخبرك المقابر أن كثرةً من قاطنيها قد توافدوا إليها سراعًا بسببٍ من حصائد عقولهم؟

لست وحيدًا يا صاحبي في مجرى تاريخنا العربي، فقد قال أحدهم ذات يومٍ: الجهل أروح للفتى من عقله ... يُمسي ويصبح آمناً مسرورا، ترَك العواقب جانبًا عن فكره ... وسَعى رواحًا في الهوى وبكورا، والعقل يعقله على حسراته ... ويصدّه فيردّه محسورا، وتراه مهتمًا كثيرًا غمُه ... يحيا أسيرًا أو يموت فقيرًا، لما علا الجُهَّال في أيامنا ... ورُقوا ونالوا منزلاً وسريرًا، أخفيت علمي وأطرحت فضائلي ... علّى أكون إذا جَهِلتُ أميرا!

(٢١٣) مُفلسون في كل شيء!

- **١٠ مايو ٢٠١٦**

حين يتدنى مستوى النقاش بين العامة في الشوارع والمقاهي ومواقع التواصل الاجتماعي، فاعلم أنك في زمن الإفلاس التربوي والثقافي؛ وحين يتدنى مستوى الحوار بين من يزعمون أنهم يُثقفون العامة ويُعلمونهم، فاعلم أنك في زمن الإفلاس

الفكري والبحثي والعلمي؛ وحين تجد كلماتهم ركيكة تكاد تنطق لتسب كاتبيها، فاعلم أنك في زمن الإفلاس اللُغوي؛ وحين يتدنى ما تقرأه في الصحف وما تشاهده على شاشات الفضائيات، فاعلم أنك في زمن الإفلاس الإعلامي؛ وحين تجد الرجل يُصلي ثم يأتي الفواحش قولاً وفعلاً، فاعلم أنك في زمن الإفلاس الديني والروحي؛ وحين يوسد الأمر إلى غير أهله، فاعلم أنك في زمن الإفلاس الحضاري الكامل!

مفلسون في كل شيء، ولا تدري، هل هذا الإفلاس هو بداية الطريق أم نهايته!

(٢١٤) لغة الجينات ... لغة الله!

- **١٦ مايو ٢٠١٦**

العلم يقدم سببًا كافيًا للاعتقاد في وجود الله ... لغة الجينات؛ لغة الله!

عبر مراحل حياته الفكرية والأكاديمية، ولأكثر من خمسين عامًا، كان الفيلسوف البريطاني «أنطوني جيرارد نيوتن فلو» Antony G. N. Flew (١٩٣٢ – ٢٠١٠) من أهم مُنظري الإلحاد على مستوى العالم، بل لقد بلغ اقتناعه بفشل كافة الحُجج الأنطولوجية على وجود الله أن نشر أكثر من ثلاثين كتابًا، جادل فيها بأن هذه الحُجج لا معنى لها نظرً لاستحالة خضوعها للاختبار لإثبات صحتها أو بطلانها (وجهة نظر الوضعية المنطقية)، كما انتقد فكرة الحياة بعد الموت وغيرها من الأفكار التي تنادي بها الأديان. وفي سنة ٢٠٠١ انتشرت شائعات بأن «فلو» قد تحول من الإلحاد إلى الربوبية، الأمر الذي سارع بنفسه إلى نفيه على موقع الشبكة العلمانية Secular Web Website! كان «فلو» في ذلك الوقت يخطو أولى خطواته على طريق التحول نحو الإيمان بالخالق، لاسيما بعد أن وجد علامات استفهام كبرى، علمية وفلسفية، تعترض فكرة الإلحاد. وفي ديسمبر من سنة ٢٠٠٤، وبعد أن أصبح في الحادي والثمانين في عمره، أعلن «فلو» صراحةً أنه قد تخلى تمامًا عن فكرة الإلحاد لصالح فكرة الربوبية، وعكف على تأليف كتاب نسخ به كل

كتبه السابقة، نشره سنة ٢٠٠٧ تحت عنوان «*هنالك إله*» *There is a God*، ليُواجِه في أواخر حياته أشرس حملة تشهير من قبل المواقع الإلحادية على مستوى العالم. لكن «فلو» لم ترهبه التشهيرات الرخيصة التي يلجأ إليها عادة دعاة الإلحاد، بل واجههم بذات منطقهم وحُججهم: منطق العلم، مؤكدًا أن «الحجج الأكثر إثارة للإعجاب على وجود الله هي تلك التي تدعمها الاكتشافات العلمية الحديثة، لاسيما حجة التصميم الذكي Intelligent Design للخلية الحية»، وأن التسليم بوجود إله ذي ذكاء خارق هو التفسير الوحيد الممكن، والذي لا يمكن تجنبه، عن أصل الحياة وتعقيد الطبيعة ... إنها النتيجة الأخيرة التي تؤدي إليها اكتشافات الحمض النووي أو جزيء الدنا DNA.

ثمة تشابه كبير بين جزيء «الدنا» في خلايانا وبين برنامج حاسوبي نوعي معقد؛ فهذا الأخير يتألف من متسلسلة من الآحاد والأصفار (تُسمى الكود الثنائي Binary code)، وفي تسلسل وترتيب هذه الآحاد والأصفار يكمن سر عمل البرنامج الحاسوبي. وبالمثل، يتألف جزيء «الدنا» من أربع قواعد كيميائية: الأدنين Adenine، الجوانين Guanine، السيتوزين Cytosine، الثايمين Thymine، ويتم اختصارها عادة بالحروف A, G, C, T، وتُفصح طريقة ترتيب هذا القواعد أو الحروف (بشكلٍ مماثل لترتيب الآحاد والأصفار) عن طبيعة المعلومات الوراثية التي يُخزنها «الدنا»، ومن ثم تمثل هذه الحروف كود أو أبجدية أو لغة «الدنا». والمدهش أن طول هذا الكود يصل في أية خلية واحدة من خلايانا الجسدية إلى ثلاثة مليارات حرف! ولكي نستوعب مقدار معلومات «الدنا» في الخلية الواحدة علينا أن نقوم بالقراءة الحية لهذا الكود بمعدل ثلاثة حروف في الثانية، الأمر الذي يستغرق ما يقرب من واحد وثلاثين عامًا، هذا إن كانت لدينا القدرة على القراءة بشكلٍ متواصل، ليلاً ونهارًا، دون انقطاع! وما هو فريد هو الكيفية التي تتسلسل بها

الحروف لتشكل أبجديات الوراثة (أو لغة الرسائل الجينية) لكل شخص، وتُحدد هويته وأنماط سلوكه!

ولا غرابة في أن يتخذ عالم الجينات المعروف «فرانسيس سيلرز كويلينز» Francis Sellers Collins (من مواليد ١٩٥٠) الموقف ذاته؛ لقد كان من عُتاة الإلحاد في العالم، حتى التحق بالمدرسة الطبية وواجه قضية الحياة والموت بكل تعقيداتها غير المفسرة! وظلت الحيرة تؤرقه حتى حين عمل مديرًا لمشروع الجينوم البشري (أكبر مشروع بيولوجي تعاوني على مستوى العالم)، وبعد أن قاد فريق عمله لقراءة ٣,١ مليار حرف من حروف الجينوم، وجد نفسه مضطرًا للاعتراف بما أنكره طويلاً: وجود اللّه. هكذا صرَّح في ثقة قائلاً: «لقد وجدت اللّه ... إن هذه اللغة التي تحمل كافة المعلومات عن البشر، لا يمكن أن تنتظم حروفها مصادفة، بل هي لغة كائن أسمى، لغة اللّه ... إن أناقة وتعقيد أجسادنا، فضلاً عن الطبيعة، لهي انعكاس لخطة اللّه. إن إله الكتاب المقدس هو أيضًا إله الجينوم، يمكنك أن تعبده في دور العبادة أو في المختبر؛ إن خلقه رهيب، رائع، معقد، وجميل». ويستطرد في كتابه «لغة اللّه» *The Language of God* قائلاً: «من الذي كتب هذا النص الإعجازي؟ من الذي وضعه داخل الخلية؟ وكيف يمكن تفسير هذا الجمال، وهذه الدقة، وهذا التعقيد؟ الأمر شبيه بتجوالك على شاطئ البحر ناظرًا إلى الرمال، فإذا بك تجد عليها عبارة (قيس يحب ليلى) ... أنت موقنٌ في قرارة نفسك أن أمواج البحر لم تُشكل تلك العبارة، بل إن شخصًا ما قد سطرها بالرمال، وهكذا هي لغة الدنا؛ رسالة حب دقيقة من قبل اللّه، ترشدنا لكيفية عمل الخلية»!

في السادس والعشرين من يونيو سنة ٢٠٠٠، هنأ الرئيس الأمريكي «بيل كلينتون» أولئك الذين استكملوا رسم خريطة الجينوم البشري، وعلَّق قائلاً: «اليوم نتعلم اللغة التي خلق اللّه بها الحياة، ونكتسب المزيد من المعرفة عن تعقيد، وجمال، وروعة الهبات السماوية المقدسة». ما هو جزيء الدنا؟ إنه برهانٌ واحد بين

براهين ســـــاطعة على أن اللّه ليس فقط الخالق الواحد الأحد المُحب لخلقه، بل هو من يخلع على وجودنا المغزى ... كي نراه في خلقه!

«يريدون ليطفئوا نور اللّه بأفواههم واللّه متم نوره ولو كره الكافرون» (الصف: ٨).

(٢١٥) أهو جمعي أم جمع الناس من حولي!

- **٥ يونيو ٢٠١٦**

كلما تســـاقط قناع، أو تعرى عقلٌ أو قلبٌ أو ضـــميرٌ، أو تناقض المنطوق والمفعول أمامي؛ وكلما نطق لســـــان حال القوم بأن الماء لا يُحرث، وأن ريح الباطل عاتية، تملكتني الحيرة، ووجدتني ميَّالاً إلى العُزلة، قانعًا بالفرار إلى خلوتي، لكنني كلما بدأت صلاتي منفردًا لأبث همي وحُزني إلى اللّه، وجدتني أقرأ بصيغة الجمع: «إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم» ... ولا أدري، أهو جمعي: قلبي وعقلي وجوارحي، أم جمع الناس من حولي ... وتتملكني الحيرة مرة أخرى!

(٢١٦) لا تغرنكم الكثرة في زمن الجهل والجهلاء!

- **١٥ يونيو ٢٠١٦**

حين يتعلق الأمر بالحق تجد أكثر الناس مُعرضـــين، وإن راحوا به يتشـــدقون، وحين يتعلق الأمر بالباطل يأتونك مؤيدين من كل فجٍ عميق، وإن رفعوا زيفًا راية الحق المبين! ولو بحثت عن كلمة «أكثر» (الناس) في القرآن لوجدت بعدها: (لا يعلمون، لا يشـــــكرون، لا يؤمنون) ... ولو بحثت عن كلمة «أكثرهم» لوجدت بعدها: (فاسقون، يجهلون، معرضون، لا يسمعون) ... فلا تغرنك الكثرة وإن ساد صخبها، بل كن من القليل الذين قال اللّه فيهم: «وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ» (سبأ: ١٣) ... «إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ» (ص: ٢٤) ... «ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ» (البقرة: ٨٣).

قال «ابن القيم» رحمه اللّه: «عليك بطريق الحق ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل، ولا تغتر بكثرة الهالكين»! ويقول الدكتور «زكي نجيب»

محمود في «*الكوميديا الأرضية*»: بين اليقظة الواعية في طرف، والموت البارد في طرف آخر، هنالك حالات متدرجة من الغيبوبة والنعاس، وسيأخذك العجب حين أزعم لك أن قلة ضئيلة من الناس هي اليقظانة الواعية، وأما الكثرة الغالبة منهم ففي غيبوبة ونعاس، في وجوههم أعين مفتوحة، لكنها تنظر ولا ترى!

(٢١٧) عقول بلا فيروسات ... أم فيروسات بلا ضمير؟!

- **٢٥ يونيو ٢٠١٦**

هل صاحب المال (أو رجل الأعمال) في حاجة إلى شهادة أكاديمية تُعزز مكانته الاجتماعية؟ ألا يكفيه التفاف المطبلين حوله وتصدره لأبرز مشاهد النفاق الاجتماعي؟ ألا يجد ترحيبًا في كافة مؤسسات الدولة، وفي مقدمتها مجلس النواب الذي يمنحه الحصانة؟ وما هو جانب الإشباع الذي تحققه له الشهادة، والذي يدفعه إلى شرائها، ويدفع بعض مؤسسات الوهم إلى الإعلان عن بيعها؟

بالأمس فوجئت برسالة في بريدي الإلكتروني من كيانٍ أظنه وهميًا يحمل اسم «مؤسسة عقول بلا فيروسات». وفحوى الرسالة أن خبراء المؤسسة، ومن واقع دراستهم المستفيضة لواقع الحياة المهنية بين أبناء عالمنا العربي، رصدوا واقعًا مؤلمًا وغريبًا، يتمثل في أن كثيرًا من أبناء العالم العربي لديهم خبرات كبيرة في مجالات أعمالهم، لكنها غير مدعومة بمؤهلات ودرجات مهنية تتيح لهم السير في طريق تحقيق طموحاتهم المهنية، لذا قررت المؤسسة أن تصحح هذا الوضع، وأن تمنحهم ما أطلقت عليه اسم «درجة الماجستير المهني المتقدم». والحصول على الدرجة لا يستلزم دراسة أو اختبارات! يكفي فقط أن تكون قد عملت في مجال معين لمدة خمس سنوات، ثم تدفع المبلغ المطلوب (٢٥٠٠ دولار) لتحصل على الشهادة. والغريب كما ورد في الرسالة أن الشهادة صادرة من جامعة القاهرة (بنظام معادلة الخبرات)، وموثقة من الخارجية المصرية، وتؤهل الحاصل عليها للحصول على درجة الدكتوراه المهنية! أي هراء هذا؟ وإلى متى تستمر مسلسلات تجهيل المجتمع ودفعه إلى الهاوية مغمض العينين؟ لك الله يا بلاد العرب!

(٢١٨) لا أفهم!

- **٢٨ يوليو ٢٠١٦**

لا أفهم في الاقتصاد، ولذا لا يمكنني استيعاب كيف أن دولة بحجم مصر، بها من الموارد والخيرات ما قد ينهض بعدة دول، تعيش على المعونات والقروض والتسول في الداخل والخارج، ولا كيف أن دولة بتاريخ وحضارة مصر تكابد فشلاً وانهيارًا متكررًا في برامج التعليم والصحة والطرق والسياحة وغيرها؟! لا أفهم كيف أن عطسة مُضاربٍ يستلقي مسترخيًا على أحد شواطئ الساحل الشمالي يمكن أن ترفع الأسعار وتصعد بقيمة الدولار، ثم تتحول إلى دمعة في عين مستهلك لا يملك قوت يومه، ولا كيف أن رفاهيات أسرة مسؤولٍ يجب أن تُلبى ببتر الحق في الحياة للأسر الفقيرة؟!

لا أفهم في السياسة، ولذا يُحيرني إصرار الحكومة على السطو على رواتب البسطاء الهزيلة، مع أنها منها وإليها؛ تُصرف من خزائنها لتعود إليها في شكل فواتير للماء والكهرباء والغاز، وفي شكل ضرائب ورسوم ربما تشمل قريبًا الحق في استنشاق الهواء؟! ولا كيف أن دولة فتية مثل مصر، يتجاوز عدد الشباب فيها ما نسبته ٦٢٪ من عدد السكان، تُطوق رقبتها أطماع العواجيز الذين فشلوا في إقالتها من عثرتها عبر عقودٍ خلت، فيفر بعض شبابها عبر مرافئ الموت، وينتحر البعض الآخر على عتبة الثانوية العامة، مع أن البقاء والعُلو في الدولة للأجهل والأفسد؟!

وأزعم أنني أفهم في المنطق، وأعرف أن ثمة شروطًا زمكانية تتأرجح بمقتضاها أية دالة منطقية على طول خط الأعداد بين الصدق والكذب، لكني أقف مشدوهًا أمام معادلة الدولة المصرية التي تستعصي دومًا على أية درجة من درجات الصدق؛ حكومات متعاقبة تُطلق الوعود، وتُقسم بأغلظ الأيمان أن الضوء آتٍ عبر نهاية النفق، وتكذب، ولا تُكفِر عن أيمانها، بل تَكفُر بالعدالة، بالعلم، بنواميس الحياة! هي صيحة حق في وادٍ، إن ذهبت اليوم مع الريح، فقد تذهب غدًا بالأوتاد، فاليوم خمر ... وغدًا أمر!

(٢١٩) لوحة الشطرنج!

- **٢٨ يوليو ٢٠١٦**

تأملت لوحة الشطرنج التي بسطها صديقاي أمامهما، واستغرقهما التفكير في تحريك قطعها، فإذا بها تحوي الملك، الوزير، القلعة، الفيل، الحصان، والجندي، لكني لم أجد فيها المواطن! وتساءلت في نفسي: هل تعمد مخترع الشطرنج ذلك؟ أم أن فكرًا عربيًا أصابه فأدرك أن المواطن لا قيمة له، ولا حاجة لوجوده؟!

(٢٢٠) تعليم ذكي وإلكتروني حقًا!

- **١٧ أغسطس ٢٠١٦**

لكي تنقل ابنك أو ابنتك من مدرسة إلى أخرى عليك أن تقوم بالإجراءات التالية: تحصل على إفادة بالقبول من المدرسة التي تود نقله إليها، حيث تُسدد مبلغًا يتفاوت من مدرسة إلى أخرى نظير ما يُسمى «فتح ملف»، ثم تذهب إلى المدرسة التي تود نقله منها لكي تحصل على استمارات تحويل وبيان نجاح (غالبًا لا تجد أحدًا من المسؤولين بالمدرسة خلال الصيف)، ثم تعود إلى المدرسة المنقول إليها للتوقيع بالموافقة والحصول على ختم المدرسة، ثم تذهب إلى إدارة التعليم الابتدائي أو الاعدادي وتتنقل بين عدة مكاتب يجلس أمامها موظفون مكفهرو الوجوه للتوقيع وتزيين الاستمارات بعدة أختام، ثم تذهب إلى مكتب مدير الإدارة التعليمية بالمنطقة للتوقيع والحصول على ختم النسر، ثم تعود إلى المدرسة المنقول منها لاستلام الملف، ثم تذهب إلى المدرسة المنقول إليها لتسليمه .. ثم تكتشف في النهاية أنك قد تغافلت عن أن حكومتنا ذكية وإلكترونية، وأن ما فعلته لا قيمة له إلا إذا قمت بالتحويل الإلكتروني عبر الإنترنت من المدرسة المنقول منها، وتصطدم بأن المدرسة لا يوجد بها إنترنت (رغم وجود معمل للحاسب الآلي ستعرف أنه مخصص للألعاب وأفلام الكرتون)!

الغريب أن كافة من يمهرون الأوراق بتوقيعاتهم وأختامهم لا ينظرون حتى في اسم المدرسة أو التلميذ، ولا يدونون شيئًا في سجلاتهم ... تعليم ذكي وإلكتروني حقًا!

(٢٢١) أرقام أرقام!

- **١٧ أغسطس ٢٠١٦**

ما من أحد يستهين بمشهد الموت، أو لا يُبالي به، أو يُثير لديه شماتة الغُلاة، إلا كانت إنسانيته غير مكتملة، لكن الإحساس بالموت درجات لدى أي منا؛ فالوجع الذي تكابده حين يموت قريبٌ من الدرجة الأولى يفوق الوجع الذي يُسببه موت قريب من درجةٍ أبعد! الألم الناجم عن موت قريب أو حبيب أيًا كانت درجته يفوق ألم مشهد الموت لشخصٍ لا تعرفه! الحزن المكتنف لجوانحك حين يموت عربي يفوق الحزن العابر لموت أجنبي لا يُشاركك هموم الوطن ووحدة المصير!

ومع ذلك يظل الموت هو الموت؛ حقيقة نصطدم بها دومًا دون أن توقظنا من غفوة ووهم الحياة، ودون أن تحرك شعرة في رأس الإهمال ... وفي وطني موت الغني أو المشهور مذكور، وموت الفقير أو المغمور مهجور! أقول ذلك تعقيبًا على استمرار مسلسل حوادث الطرق، وتصاعد أعداد الشهداء، واعتيادنا الأمر ... أرقام ثم أرقام ثم أرقام، وما من نهاية!

(٢٢٢) هل هي عظمة الديموقراطية أم قسوتها؟!

- **٢٧ أغسطس ٢٠١٦**

جاء في هدوء، أدى عمله كموظف بدرجة رئيس وزراء، ثم استقال ورحل في هدوء ليستمتع بوقته كمواطن عادي. إنه رئيس الوزراء البريطاني السابق «ديفيد كاميرون» الذي شوهد ليلة الثلاثاء، الثالث والعشرين من أغسطس ٢٠١٦ – وفقًا لصحيفة الديلي ميل – يجلس مستمتعًا بوجبة سريعة من السمك والبطاطا مع زوجته «سامانثا» على شاطئ «بولزيث» في كورنوال.

لم يقل واجبي يحتم عليَّ أن أستمر في تحمل المسؤولية، ولم يقل ما زالت لديَّ القدرة على العطاء؛ لم يخش اتهامًا بالسرقة، أو بتبديد المال العام، ولم يُعيَّن – مثلما هو الحال لدينا – مستشارًا لهذا أو ذاك من كبار الأصنام ... لم يقض وقته في انتقاد خليفته في رئاسة الوزراء «تيريزا ماي»، التي كانت في الوقت ذاته تمارس هوايتها في المشي لمسافات طويلة برفقة زوجها «فيليب» في جبال الألب بسويسرا، والتي لم تعلن بدورها أنها تحمل إرثًا كبيرًا من مشكلات فترة رئاسته للوزراء!

في بلادنا تجد لمن يشغل منصبًا، ولو كان تافهًا – شأوًا عظيمًا، حتى ولو تركه مرغمًا، ولو أراد مسؤولونا استعراض لياقتهم البدنية، امتطوا بضعة دراجات في أحد الشوارع الخالية تصحبهم فرقهم الدعائية! في بلادنا صناعة الصنم رائجة، ولو كان قبيحًا! وفي بلادهم حطموا الأصنام التي سبقهم ديننا بتحطيمها منذ قرون، لكننا نؤثر إعادة بنائها، لنضع بلادنا على شفا جُرف هار يوشك أن ينهار بنا في مصارف تخلفنا!

لا أدري هل هي عظمة الديموقراطية أم قسوتها؟! ولا أدري هل هو العقل أم الضمير أم الثقة بالنفس أم الحضارة؟!

(٢٢٣) لجان الترقيات والآمال المُعلقة!

- **١ سبتمبر ٢٠١٦**

يبدو أن كثرة إخفاقاتنا تدفعنا (بوعي أو عن غير وعي) إلى التماس السعادة في أي شيء، أو المبالغة فيما يمكن أن يخرجنا زيفًا من حالة ركودٍ حضاري دامت ويبدو أنها ستدوم إلى حين. أقول ذلك بمناسبة تشكيل اللجان العلمية الدائمة للترقيات بالجامعات المصرية في دورتها الثانية عشرة منذ أيام؛ فما أن تم الإعلان عن التشكيل حتى تحولت صفحات الفيس بوك، وربما غيرها، إلى ساحات مفتوحة للتهنئة من جهة، وأخرى شبه مفتوحة للنقد والتقييم من جهة أخرى، على نحو لم يحدث في أية دورة سابقة لهذه اللجان!

لا بأس من التهنئة والمجاملة أو النقد ما لم تجد نفسك محمولاً إلى عالمٍ افتراضي تشعر فيه وكأن مصر قد تجاوزت كافة أزماتها التعليمية وتبوأت مكانةً دولية كانت ترنو إليها! أما وأن ثمة مبالغة في الحدث تصنع منه إنجازًا احتفاليًا هامًا وضخمًا بشكلٍ لا تراه في أيٍ من دول العالم، فذلك شيء آخر يعكس حقيقة الأزمة التي تعيشها مصر في قطاع التعليم عمومًا، والتعليم العالي بصفة خاصة!

بدايةً، وبغض النظر عما شاب عملية الاختيار من غموض و/ أو عدم دقة، وهو ما تجلى مثلاً في ضم عضو توفاه الله، وآخر يُقيم في الخارج، وبعض الذين لم يتقدموا أصلاً للترشيح من خلال الموقع الإلكتروني الذي خصصته الوزارة لذلك، فضلاً عن بعض الذين سبق اتهامهم بسرقات علمية (على حد تعبير الدكتور علاء عبد الهادي، رئيس اتحاد كتاب مصر، بمقاله المنشور باليوم السابع بتاريخ ٢٨ أغسطس ٢٠١٦).

وبغض النظر أيضًا عما أعلنه الدكتور أشرف حاتم أمين المجلس الأعلى للجامعات من أن ترشيحات الأعضاء تمت من خلال جامعاتهم (في تبريره لضم عضو توفاه الله، وفقًا لجريدة الشروق بتاريخ ٢٧ أغسطس ٢٠١٦)، الأمر الذي يطعن في مصداقية وجدوى الموقع الإلكتروني المخصص لذلك من قبل الوزارة ... أقول بغض النظر عن ذلك كله، لم تخل قوائم التشكيل من أساتذةٍ أجلاء لهم مكانتهم، وقد لا يزيد من قدرهم تواجدهم داخل لجان نوعية، مثلما قد لا يقلل من قدر غيرهم خروجهم منها أو انضمامهم إليها، لاسيما في معية غلبة الطابع الإداري على عمل هذه اللجان: فحص أوراق المتقدمين، توزيع الإنتاج العلمي على المحكمين، إعداد التقرير الجماعي ... (إلى غير ذلك من أعمال يمكن أن ينجزها نظام إلكتروني يتجاوز الأخطاء والأهواء البشرية). ولئن شعر أحدهم بأن عضوية اللجنة تضيف إليه مكانةً مفتقدة قوامها تزلف المتقدمين للترقية أو القدرة على تصفية الحسابات مع

البعض من خلال اختيار محكمين يمكن التأثير عليهم، فعليه أن يراجع نفسه فورًا، وأن يضع نُصب عينيه حُكمًا بشريًا وفراغًا اجتماعيًا وسؤالاً إلهيًا مؤجلاً.

أما عن المتقدمين بالتهنئة، فبغض النظر أيضًا عن مدى وعيهم بطبيعة اللجان وآليات تشكيلها وعملها، فالنظرة العابرة تضعهم في ثلاث فئات؛ فمنهم الصادقون المُحبون الآملون في وضعٍ أفضل (وهم قلة)، ومنهم المجاملون النشطاء في بناء شبكة علاقات اجتماعية على خلفية المصالح الآنية (وهم أكثر قليلاً)، ومنهم المتزلفون الذين يبادرون بتقديم فروض الولاء والطاعة ظنًا أو يقينًا منهم بأن ترقيتهم مرهونةٌ بذلك (وهؤلاء كثرةٌ غالبة). أخطر هذه الفئات هي الفئة الثالثة بالطبع، لأن قوامها من يتسمون إما بالضعف العلمي، أو بالنفاق، وهم يفاقمون مرض مَن في قلبه مرض، ويشكلون تهديدًا لحاضر ومستقبل التعليم الجامعي برمته!

عمومًا، تشكيل اللجان الجديد (أيًا كانت الملاحظات عليه، وما دام ثمة إصرار على العمل بنظامٍ عفي عليه الزمن) يتسم نوعًا بالإبقاء على الخبرة، وضخ الدماءِ الجديدة، وهو ما قد يقلل من وطأة وتعقد مشكلات الهوى النفسي والمصالح الذاتية والصراعات المتجذرة في الجامعات المصرية ... ولئن كانت المباركة بالدعاء مستحقة، فالتهنئة من المفترض أن تكون مؤجلة ... أسأل الله للجميع التوفيق والسداد والقدرة على إحقاق الحق.

(٢٢٤) العدَّاءة الأمريكية ويلما رودلف!

- **٤ سبتمبر ٢٠١٦**

«**أخبرني** الطبيب أنني لن أستطيع المشي مُجددًا، لكن أمي قالت إنني سأستطيع، وقد صدَّقت أمي» ... العداءة الأمريكية ويلما رودلف (١٩٤٠ – ١٩٩٤).

في الرابعة من عمرها أصيبت الطفلة الأمريكية «ويلما رودلف» Wilma Rudolph بارتفاع في درجة الحرارة أدى بها إلى شلل نصفي، مما اضطرها إلى ارتداء دعامة حديدية على الرجل اليسرى حتى سن التاسعة. لكن هذه الدعامة

الحديدة تسببت في حدوث التواء بالرجل جعلها عاجزة عن الحركة بشكل طبيعي، وازدادت حالتها النفسية سوءًا حين أكد الأطباء لأمها أنها لن تستطيع المشي مرة أخرى، وحتى إن مشت، فلن تمشي بالطريقة الطبيعية التي كانت عليها في الماضي .ولكن أم «ويلما» لم تستسلم لتلك التأكيدات، واستمرت في اصطحاب ابنتها إلى إحدى المستشفيات لتلقى العلاج. وظلت «ويلما» تسأل والدتها مرارًا: «هل سأستطيع المشي مجدداً؟»، والأم تجيبها بكل ثقة «نعم ستستطيعين»! ... وذات يوم، علمت «ويلما» أن مؤسسة تُعنى بذوي الاحتياجات الخاصة تقيم أولمبيادًا خاصًا بتلك الفئة بعد التدريب. وفي اللقاء الأول مع المؤسسة جلست «ويلما» إلى جوار سيدة من أبطال رياضة الجري سابقًا وقالت لها «إني معجبة جداً بكِ، وأتمنى أن أصبح مثلك»، فقالت لها السيدة «بل يمكن أن تكوني أفضل مني ... من خلال إيمانك الداخلي، إيمانك بالله» ... فرحت «ويلما» وقالت للسيدة أنها على استعداد لأن تبدأ من الآن، فقالت لها السيدة «سنبدأ بالتدريج ... بتغيير القناعات الذهنية أولاً، ثم الالتزام بالتدريبات البدنية» وبدأت «ويلما» التدريبات والعلاج الطبيعي الذي استمر لعدة أعوام، وكانت المفاجأة للجميع حين وقفت على رجليها بدون الحديد وبدأت تتحرك وتمشي شيئًا فشيئًا ... إلى أن أصبحت أسرع فتاة في العالم، محققة ثلاث ميداليات ذهبية في دورة الألعاب الأولمبية الصيفية بروما سنة ١٩٦٠.

العبرة أن إعاقتنا الحضارية لا علاج لها، ولا سبيل إلى تجاوزها، إلا بتغيير قناعاتنا الذهنية أولاً ... تلك القناعات التي ترسخت (وما زالت تزداد رسوخًا) بتأثير من إعلامنا، نظامنا التعليمي، مؤسساتنا الثقافية، صراعاتنا السياسية، أطماعنا الاجتماعية ... بالترويج لفقرنا وكثافتنا السكانية من جهة، ولإنجازاتنا الزائفة من جهة أخرى ... بصناعة القهر في محاريب أصنامنا، وضرب الدفوف في ساحات أوهامنا!

ألم يئن لنا بعد مواجهة أنفسنا لتغيير تلك القناعات؟

(٢٢٥) التعليم هو المبتدأ والخبر!

- **٨ سبتمبر ٢٠١٦**

حين أعلنت السفارة السعودية عن منع طلاب بلادها من دراسة الماجستير والدكتوراه بمصر، توقعت أن تتبعها دول أخرى، وما هي إلا أيام ولحقتها قطر، وربما تشمل القائمة دولاً جديدة خلال المستقبل القريب. قد يبدو الأمر صادمًا للبعض، لكنه كان متوقعًا من قبل البعض الآخر، خصوصًا من عمل من الأساتذة بجامعات الخليج لسنوات طويلة وكان على اتصالٍ مباشر بطلابها.

حدثني أحدهم فأكد أن تدهور سمعة التعليم العالي بمصر إنما يرجع لما يقرب من ثلاثة عقود، وبالتحديد حين تسلل إلى الجامعة نفرٌ من اشباه الباحثين للعمل بها، ففتحوا أدراج مكاتبهم للأموال والهدايا مقابل إنجاز رسائل علمية هم لا يملكون أصلاً الادوات المنهجية والحصيلة العلمية اللازمة للإشراف عليها أو متابعتها!

هؤلاء وغيرهم من مستوردي الأفكار الجاهزة هم من تمخضت قرائحهم فيما بعد عن برامج وخطط للتطوير انطلاقًا من مبدأ «وراء كل خُطة سبوبة، ووراء كل تطوير ورقي أيادٍ تصفق وإعلامٍ يُلمع!»، وقد دعَّمتهم الدولة في ذلك خجلاً من عدم قدرتها أو عدم رغبتها في تحسين الأحوال المعيشية والبحثية للعاملين بالجامعات أسوة بدعمها لفئات أخرى!

النتيجة المنطقية اللازمة هي ما نراه الآن: مدارس فكرية وعلمية زائفة، كثرةٌ من أنصاف الأساتذة وحشدٌ من أشباه الباحثين تتزين أسماؤهم بحرف (الدال) يعيثون مرحًا وطربًا على شواطئ الوهم الأكاديمي، آلاف من الرسائل التجميعية (اللاعلمية) و(اللاإبداعية) تكتظ بها أرفف المكتبات الجامعية، ترقيات عبثية مشخصنة، برامج ورقية مظهرية للتطوير لا تُسمن ولا تغني من جوع، سرقات علمية معلنة ومستترة تتدثر غالبًا بالجهل المنهجي، جودة في حاجة إلى التجويد واعتمادٌ يلزمه الاعتماد ... إلخ.

وبغض النظر عما إذا كانت قرارات حظر الدراسة بمصر لبعض الدول تصطبغ بصبغة سياسية أو نابعة من قناعة تعليمية، فإن ما يهمنا في المقام الأول هو الداخل المهترئ، ويُخطئ من يظن أن فئات بعينها في الدولة المصرية قادرة على تلبية حاجات الأمن القومي دون تعليمٍ جيد، فالتعليم هو المبتدأ والخبر!

(٢٢٦) المنصب وما بعده!

- **٨ سبتمبر ٢٠١٦**

أصعب ما في حيازة المنصب أن حائزه سيتركه يومًا، فإذا ما تركه انفض الناس من حوله، فلا يعود يسمع منهم عبارات الإطراء، ولا يرى في أعينهم مهابة! وأصعب ما في امتلاك المال أن مالكه يفتقد الطمأنينة، فلا ينام أو يصحو إلا وهمُّ النقص والزيادة يطارده! وأصعب ما في نيل الشهرة أن نائلها يتوق إلى الحرية، فلا يتواجد في مكانٍ إلا وطارده الناس ما بين مادح وقادح ... وأصعب ما في حمل العلم أن حامله قد يغتر به، فيمُن به أو يمنع، فلا يحظى بشرفه ولا ينال ثوابه! وأصعب ما في الحياة أنها تنتهي حتمًا بالموت، فإذا ما مات المرء انتبه!

(٢٢٧) لدينا ... وما لدينا!

- **١٠ سبتمبر ٢٠١٦**

لدينا كليات وأقسام للإعلام بمعظم جامعاتنا، ومع ذلك فإعلامنا المقروء والمرئي والمسموع غارقٌ في العبثية واللاحرفية والفشل حتى في التطبيل! لدينا كليات للحقوق في مختلف الجامعات، ومع ذلك فالحقوق ضائعة والعدالة مائعة! ... ولدينا كليات للاقتصاد والتجارة، ومع ذلك فاقتصادنا هش وتجارتنا بائرة وضرائبنا جائرة! لدينا كليات ومعاهد للهندسة والفنون الجميلة، ومع ذلك فعماراتنا قبيحة وحوادث طرقنا وقطاراتنا صريحة! ... ولدينا كليات للصيدلة، ومع ذلك لا نستطيع توفير أدوية بديلة لتلك التي يُذل بها المرضى! ولا يخلو شارع من شوارعنا من مسجد أو أكثر، ومع ذلك فتدينا سطحي، وخُلقنا همجي!

لدينا وما لدينا ... تُرى أين الخلل، في النظر أم التطبيق؟!

(٢٢٨) الأضاحي والتضحيات والضحايا!

- **١٠ سبتمبر ٢٠١٦**

مع كل حلول لعيد الأضحى المبارك تتجدد الذكريات حول الأضاحي والتضحيات والضحايا. من أضحية إبراهيم عليه السلام حين فدى المولى عز وجل جدنا إسماعيل عليه السلام بذبحٍ عظيم، إلى من ضحوا بأرواحهم فداءً لأوطانهم. ومن أضحية رسولنا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه عنه وعن أمته إلى تضحيات الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم بأنفسهم وأموالهم في سبيل إعلاء راية الحق والدين ... ومن ضحايا الحروب والكوارث والدكتاتوريات إلى ضحايا الفساد والجهل والتخلف!

تتجدد الذكريات، وتعلو التكبيرات، وتُرفع الأيدي بالدعوات تقربًا إلى الله وطلبًا لعفوه ومغفرته ... وفي معيتها تتزاحم العبرات حزنًا على بشرٍ يُضحى بهم في كافة أرجاء المعمورة طلبًا لمتاعٍ زائلٍ أو سلطة فانية ... وتتجمد الأدمع قهرًا على كرامة يُضحى بها وعقلٍ يُذبح على نُصب الجهالة. ويبقى في النهاية توقيت إعدام صدام حسين يوم الأضحى وجعًا في خاصرة هذه الأمة – اختلفنا معه أو اتفقنا!

(٢٢٩) إنهم لا يعرفون حلب!

- **١٠ سبتمبر ٢٠١٦**

إنهم لا يعرفون حلب، فهل تعنيهم دماء أبنائها؟! ... في حديث مع شبكة (إم. إس. إن. بي. سي) عن الأزمة السورية والمعارك الدائرة في حلب (أكبر المدن السورية قبل الحرب والمقسمة منذ سنوات إلى مناطق تسيطر عليها قوات الحكومة وأخرى تسيطر عليها المعارضة)، سُئل «جاري إيرل جونسون» Gary Earl Johnson مرشح حزب التحرريين في انتخابات الرئاسة الأمريكية المنتظرة هذا العام: في حال انتخابك كرئيسٍ للولايات المتحدة، ماذا ستفعل بشأن حلب؟ فرد قائلاً: حلب! ما

هي حلب؟ فقال السائل: هل تمزح؟، فأجاب «جونسون»: لا ... فقال السائل: إنها محور مشكلة اللاجئين! فرد جونسون: نعم، لقد فهمت!

(٢٣٠) الشجرة المثمرة تُعلن عن ثمارها!

- **١٢ سبتمبر ٢٠١٦**

حين تشهد لصاحب منصبٍ وأنت أحد المستفيدين من منصبه فشاهدتك مجروحة، حتى وإن كنت صادقًا، وحين تُنصب نفسك مدافعًا عن مسؤول وأنت ذراعٌ له، فمثلك كمثل من يلوذ بباحة المديح الزائف طلبًا لمواقف ليس بفارسها ... الشجرة المثمرة تُعلن عن ثمارها بذاتها، وليست في حاجة لوكيلٍ يُشيد بها أو يُذكر الناس بعطائها!

(٢٣١) وطن بلا حياء!

- **١٣ سبتمبر ٢٠١٦**

الحياء نعمة ... شعبة من شُعب الإيمان، فلماذا نفتقدها؟ لماذا نفتقد على الأقل سمة «الحياء الحضاري»؟ لماذا لا نستحي كشعوب، ولا تستحي حكوماتنا من وصفنا بدول العالم الثالث؟

منذ أن نحت الفرنسي «ألفريد سوفي» Alfred Sauvy (١٨٩٨ – ١٩٩٠) هذا المصطلح (العالم الثالث Tiers Monde) في مقالٍ له سنة ١٩٥٦، ونحن قانعون به، مطمئنون لتخلفنا، راضون بتبعيتنا لدول العالمين الأول والثاني؛ نستجدي ولدينا الخيرات، نشحذ العلم والتكنولوجيا ولدينا العقول، نستهلك وبإمكاننا الإنتاج ... غاب عنا أن الحياء مشتقٌ من الحياة، وأن القلب الحي، والعقل الحي، لابد وأن يكون به حياءٌ يؤكد وجوده ... لقد أورثنا قتل الحياء ذُل الغباء، وأورثنا ذُل الغباء ما نحن فيه من شقاء ... أما آن لنا أن نستحي من وطنٍ بلا حياء؟!

(٢٣٢) الله الله يا عمر!

- **١٧ سبتمبر ٢٠١٦**

هل تذكرون قصة المرأة التي مرَّ بها «عمر بن الخطاب» (رضي الله عنه) وأطفالها يتضورون جوعًا، فإذا بها تضع قِدر الماء على النار وبه بعض الحصى كي تشغل أطفالها، وتوهمهم بأنها تُعد لهم الطعام، إلى أن يغلبهم النوم؟

هذه المرأة تشبه حكوماتنا العربية المتعاقبة منذ عقود؛ تُمنينا دومًا بانفراجة الأزمات المتفاقمة ومستقبل الرفاهية، وتوهمنا ببرامج وخُطط ومشروعات عملاقة تحمل لنا ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب فقير، في الوقت الذي تعتصرنا فيه مشكلات حياتية تزداد تعقيدًا، تُلوح لنا بقرب الإمساك بحق الحياة، وتُناشدنا الصبر والتبرع كل صباح بما تبقى لدينا من متاع، وإن قل، من أجل غدٍ أفضل ... ونصبر ثم نصبر، ويغلبنا نوم الجياع لنصحو أكثر جوعًا!

القياس بالطبع مع الفارق؛ فالمرأة لم تكن تملك من حطام الدنيا شيئًا، أما حكوماتنا فبيدها موارد دُولها وخيراتها، لكن عدالتها في التوزيع غائبة؛ والمرأة لم تكن تستأثر لنفسها بشيء، لكن مسؤولينا منهم من يقيم بالفنادق الفارهة، ومنهم من يختص نفسه وذويه بعطاءات لا يعلمها رعاياه، ومنهم ومنهم ومنهم، إلا ما رحم ربي؛ والمرأة لم تكن تتوعد أطفالها إن صرخوا أو بكوا، أما حكوماتنا فوعيدها دائمٌ وعصاها غليظة! ولو كنا مكان المرأة لمُنعنا أن نقول لمسؤول مثلما قالت: الله الله في عمر! رضي الله عن عمر!

(٢٣٣) تحية العلم!

- **١٨ سبتمبر ٢٠١٦**

هل يمكن لتحية العلم أن تُثمر قيمة الانتماء في نفوس وعقول أطفالنا وشبابنا دون عملٍ يُصدقها؟ سؤال لابد من طرحه حين تعلم أن ثمة تصريحًا بأداء تحية العلم

في أول يوم دراسي بإحدى الكليات! بغض النظر عن صعوبة هذا الإجراء، وربما استحالته عمليًا على المستوى الجامعي، فإن زرع قيمة الانتماء لا يتأتى فقط بإجراء شكلي بات مفتقدًا للمغزى، بل بالسعي الفعلي نحو الأفضل؛ بأن يشعر هؤلاء الشباب الذين يشقون طريقهم نحو مستقبل ضبابي بأنهم غير مهمشين، بأنهم يتعلمون حقًا، وبأن وجودهم في حد ذاته يمثل قيمة لدولتهم، وبأن المستقبل ينتظر عقولهم كي تُنتج وتُبدع!

منذ عقود وتلاميذنا يؤدون تحية العلم في مدارسهم كل صباح، لكن هذه التحية لم تحل دون وجود خونة للوطن في شتى المجالات؛ لم تحل دون تفشي الفساد، ودون تفوق الجهلاء وتنعمهم بخيرات الوطن، ودون توق الشباب إلى الفرار من الوطن ولو كان الثمن حياتهم! أبدًا ما كان الانتماء مجرد كلماتٍ نرددها، ولا معزوفة موسيقية نسمعها، ولا قطعة قماش نرفعها على سارية، بل هو ثمرة تُروى بالعدل والحرية والديمقراطية والمساواة الاجتماعية!

الانتماء مثل الإيمان: هو ما وقر في القلب، ونطق به اللسان، وصدَّقه العمل.

(٢٣٤) صالونات التجميل!

- **٢١ سبتمبر ٢٠١٦**

صالونات التجميل ليست أماكن مبتغاة من قبل النساء فقط، يقصدنها بهدف اكتشاف المزيد من جمالهن، أو إخفاء ما ظنن أنه ينتقص من هذا الجمال، لكنها ثقافة مجتمعية أثيرة في عالمنا العربي؛ فإذا أعلن مسؤولٌ عن زيارة منطقة أو مؤسسة أو حتى مدرسة، نشطت صالونات التجميل الراكدة لإخفاء القبيح من المظهر والمشين من السلوكيات؛ وإذا تولى أحدهم موقع المسؤولية نشطت صالونات التجميل الدعائية لتعداد الإنجازات ومواراة السلبيات؛ وإذا واجه المرء كاميرا التصوير نشط صالون التجميل الذاتي بداخله لإضفاء البسمة على وجهه ولو كانت كاذبة؛ وإذا

طرق باب البيت ضيفٌ نشط صالون التجميل العائلي لتنظيم البيت وإخفاء ما قد يسيء من عوالق الحياة اليومية أو عبث الأطفال ... إلخ.

لذا لا تروق لي تلك المقولة الشائعة التي وضعها إحسان عبد القدوس عنوانًا لإحدى رواياته: «إني لا أكذب ولكني أتجمل»، لأن العبرة بدافع التجمل وغايته، وليس بالتجمل في حد ذاته. ويبقى الحق جميلاً والزيف قبيحًا في كل الأحوال!

(٢٣٥) ألا يستحون؟!

- **٢١ سبتمبر ٢٠١٦**

أكثر الذين تولوا مواقع المسؤولية المؤثرة في المجالات المختلفة طوال العقود الماضية (إلا ما رحم ربي) هم – بشهادة التاريخ والواقع – من الفاشلين أو المفسدين، أو على الأقل من المشاركين في صنع الفشل ومباركة الفساد، وإلا كانت الدول العربية على أيديهم قد احتلت مكانتها المستحقة في ركب الحضارة المنطلق بلا هوادة! ومع ذلك، ما زال بعضهم يجول ويصول دون أن تعتريهم حُمرة الخجل! وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ... ألا يستحون؟!

(٢٣٦) من فعل بنا هذا؟!

- **٢٣ سبتمبر ٢٠١٦**

اليأس والإحباط والهزيمة الحياتية، قسوة الوطن وعجز الحُلم وألم اللاحُلم، العطالة والخوف والهوان وانكسار الذات، تثبيط الدهاقنة وضحكات الحواة ولغط المتفيهيقين، العبث الفكري والمسخ التعليمي والعُهر الإعلامي، تقبيح الجميل وسخرية القبيح واغتيال الأمل في معازف القهر، اللاعدالة واللاحرية واللاحياة واللاموت ... إلخ. كلها أسباب دفعتهم وتدفعهم وستدفع شبابنا إلى الهجرة، وكأنهم ينشدون الخلاص من الموت بالموت! مَن فعل بنا هذا؟ ولماذا؟ وإلى متى؟

(٢٣٧) حالة حرب!

- **٢٤ سبتمبر ٢٠١٦**

نعم نحن في حالة حرب، لكنها حربٌ فكرية، علمية وحضارية، وفي ساحة هذه الحرب لابد وأن يكون المحاربون شُجعانًا، لأن الخائفين لا ينتصرون؛ وان يكونوا أحرارًا، لأن العبيد المقهورين لا تعذبهم الهزيمة، بل آلام السياط التي تلهب ظهورهم؛ وأن يكون سلاحهم العلم، لأن الجهلاء أسرى جهلهم، يسوقهم عميانًا إلى الهاوية!

(٢٣٨) لا تتشاءم!

- **٢٨ سبتمبر ٢٠١٦**

شباب العرب يفرون إلى الموت بحثًا عن وطنٍ بديل يحتويهم، لا تتشاءم؛ أبسط مقومات الحياة باتت حُلمًا للكادحين، لا تتشاءم؛ الأسعار ملتهبة والسلع الأساسية غائبة، لا تتشاءم؛ التعليم منهار والمستقبل ضبابي، لا تتشاءم؛ الضرائب باهظة والبطالة طاغية، لا تتشاءم؛ الأدوية مفتقدة والأمراض تفتك بأجساد البسطاء، لا تتشاءم؛ الفاسدون بُرءاء والبرءاء متهمون، لا تتشاءم؛ الإعلام كاذب وهزلي والأقزام متعملقون، لا تتشاءم؛ القمامة تملأ الشوارع والطرق تحصد الأرواح، لا تتشاءم؛ العدالة عوراء والرذائل فُضلى، لا تتشاءم؛ الجهول عليمٌ والنفاق أقوى آيات النجاح، لا تتشاءم؛ الحُلم مُعتقل في الرؤوس الخاويات والكرامة مهدرة والتيه طويل؛ لا تتشاءم! تفاءل بالأمر، بالقوة، بالقانون، فالواقعية تشاؤم، والتشاؤم تُهمة، والتُهمة ثابتة ودامغة!

(٢٣٩) الحاشية والحوواشي!

- **٣٠ سبتمبر ٢٠١٦**

ما بين «حاشية الكتاب» و«حاشية المسؤول في وطني» هوةٌ واسعة؛ فالأولي هي ما علّق به الكاتب أو الشارح من زيادات وإيضاحات على النص الأصلي، مما قد لا

يتسع له المتن، وهي بالنسبة للنص كالسُنَّة بالنسبة للقرآن؛ قد تُفصّل المُجمل، أو تُقيد المطلق، أو تُخصص العام، أو تُوضح المُشكل ... أما حاشية المسؤول في وطني فهي بطانته وخاصته من المحيطين به، أولئك الذين غالبًا ما يُجملون له المُفصَّل، ويطلقون له المُقيد، ويستأثرون بالعام، ويُبهمون له الواضح؛ يجورون بجوره أو يجور بجورهم. في بلادٍ تفصلنا عنها سنوات ضوئية يُعلن المسؤول عن أسماء حاشيته من المستشارين والمكلفين بأعمال نوعية، ويُقدم لمرؤوسيه تاريخهم وخبراتهم ونطاق أعمالهم وآليات حسابهم، فيتم التصويت عليهم بالقبول أو الرفض، أما في بلادنا فالمسؤول فوق البلاد والعباد، لا شأن لأحدٍ باختياراته لحاشيته، وهو غير مُلزم بتقديم كشفٍ دوري عن أعمالهم وحدود مسؤولياتهم، فتتماهى الحدود وتضيع الحقوق ويستعظم الفساد! «حاشية المسؤول» في وطني تُشبه «الحوواشي المصري»: خليطٌ مما لا تعرف له مصدرًا ولا صلاحية، تطمس حقيقته الألوان الاصطناعية واللواذع من البهارات ... تأكله فيلتهب الفم ويشتعل البطن، فتسترخي غير قادرٍ على الحراك، ويتيه العقل، ويعبث المرض بالجسد الهزيل!

(٢٤٠) أكره التصنيفات!

- <u>**٢ أكتوبر ٢٠١٦**</u>

أكره التصنيفات الفرعية عمومًا، وكُرهي للتصنيفات الفرعية الدينية والسياسية أشد. حين أقول إني «مُسلم» فأنا «مُسلم» فقط، بلا أية مسميات أخرى لم يرد بها نصٌ صريح في القرآن والسُنة... وحين أقول إني «عربي» فأنا «عربي» فقط، بلا أية مسميات أخرى لا تحتويها بطاقة هويتي. أتوق إلى العامل المشترك بين «إسلامي» و«عروبتي»، ألا وهو كوني إنسانًا، ولا أذهب إلى ما هو أبعد من ذلك ... التصنيف الإضافي يطعن في تفردي، وينتقص من حقي، ومن تكليف الخالق لي، بأن أنظر وأتعقل، أقيّم وأنتقد، وأقبل أو أرفض ... وما ضيَّع أمة العروبة والإسلام إلا أفراطها في التصنيف حيث لا حاجة بها إليه!

(٢٤١) حوريب!

▪ **٦ أكتوبر ٢٠١٦**

ونحن نحتفل بانتصار أكتوبر علينا أن نتذكر أن ثمة فرقًا ما بين تحرير الأرض وإعمار الأرض؛ نعم نفرح ونحتفل بتحرير أرضنا واستعادة كرامتنا، لكن فرحتنا تكون أكبر واحتفالنا يكون أوقع حين نخطو فوق هذه الأرض وقد ازدانت بمزارعها ومصانعها ومدارسها وجامعاتها وكثافة سكانها!

ولنا اليوم أن نتساءل: ماذا قدمنا لسيناء بعد ثلاثة وأربعين عامًا من استعادتها بدماء أبنائنا؟ لم نقدم شيئًا، بل لقد ظلت سيناء في أذهاننا وسياساتنا مجرد ساحة حرب لا أكثر، أو بالتعبير العسكري، مجرد عمق استراتيجي لتأمين وادي النيل (وتأمين إسرائيل أيضًا)! ظلت سيناء (مع سبق الإصرار والترصد) مجرد مكان شاسع للرمل والحصى، يخلو من البُعد الإنساني الحياتي، ولا توظيف له إلا في أغانينا وأهازيج نصرنا؛ ظلت غريبة، حزينة، خاوية، منفية، يلتصق بها الاسم الفرعوني ذاته: «حوريب» (أي الأرض الخراب ومبعث المخاطر)!

اليوم نتذكر، لدقائق أو لساعات، من ضحوا بأرواحهم من أجل سيناء، لكن ماذا لو بُعثوا وسألونا عنها؟ ماذا لو سألوا عن ثمار الدماء التي رُويت بها أرض الفيروز؟!

(٢٤٢) ذوات متمددة في الفراغ!

▪ **١ نوفمبر ٢٠١٦**

نحن جيل تتمدد فيه الذوات كثيرًا في الفراغ، جيلٌ بلا أنشودة تؤكد هويته! جيلٌ ضيعته أهازيج التعبد في محاريب السلطة والمناصب، فضيع حاضره ومستقبله وتاريخه وثقافته ولغته! جيلٌ أجبر على لصق صور قادته على حوائط لم يخترها، جيلٌ لا يعرف للحزن جلالاً، ولا للفرح جمالاً! جيلٌ يعيش في عزلة تخلفه وهوانه

وفاقته وجهله، يلعن نصفه النصف الآخر ليل نهار، مرهونة حياته بقيمة الدولار! جيلٌ رضع النفاق من أثداء العُهر الحضاري ... جيلٌ تم استهلاكه حتى بات بلا حلم أو قيمة تتوارثهما الأجيال!

(٢٤٣) المتلقي العاجز!

- **١٤ نوفمبر ٢٠١٦**

أصعب المواقف هي تلك التي تجد نفسك فيها في موضع المُتلقي، المُتلقي فقط، وكأنك صندوقٌ أصمٌ لا يملك إلا ابتلاع ما يوضع فيه؛ فلا نقاش، ولا تصحيح لخطأ، ولا كشف لزيف، ولا ردَّ لمغالطة منطقية ... المثال الصارخ هو خطبة الجمعة، فقد تستمع لجاهلٍ لا يمتلك مقومات الفقه واللغة والخطابة، أو قد يمتلكها ويُغالط، لكنك لا تملك في النهاية إلا أن تصلي خلفه، وإلا كنت زنديقًا! أو حين تتلقى قرارات ولاة الأمر، مكتوبة أو مسموعة، ولا خيارٍ لك سوى تنفيذها بعد الإشادة بحكمتها، وإلا كنت مارقًا، مثيرًا للفتنة، ومعرقلاً لمسيرة القافلة!

(٢٤٤) في دفء الأكذوبة!

- **١٨ نوفمبر ٢٠١٦**

كثيرٌ من الناس يعيشون دفء الأكذوبة؛ الأكذوبة التي اخترعوها بأنفسهم أو اخترعها المجتمع فروَّجوا لها ابتغاء مكانة زائفة أو مالٍ زائلٍ أو منصبٍ غير مستحق! يدفعهم دفء الأكذوبة إلى تصديقها والمحافظة عليها، بل ومحاربة من يُفكر أو يسعى إلى كشفها وفضح المتدفئين بها!

لا يترك دفء الأكذوبة مجالاً إلا وتسلسل إليه، حتى في العلم، والويل لمن لوَّح بصقيع الحقيقة: من «هيباسوس» الذي تجرأ وأعلن عن زيف الأساس المنطقي لنظرية «فيثاغورث»، فمات غرقًا على أيدي الفيثاغوريين؛ إلى «جوردانو برونو» الذي أغضب رجال الكنيسة بتأكيده لنظرية «كوبرنيقس» القائلة إن الأرض ليست هي

مركز الكون، فأحرق حيًا في ميدان الزهور بوسط روما، إلى غيرهم ممن كابدوا مرارة إيثار الصدق وغباء العامة وسيطرة طالبي الدفء الزائف.

إذا كان هذا هو حال العلم، فما بالك بما سواه؟ تُقاس درجة تخلف المجتمعات والدول عادة بدرجة دفء الأكاذيب فيها، وهي أعلى ما تكون في مجتمعاتنا العربية، حيث تنعم حكوماتها بدفء أكذوبة الديموقراطية والحرية، وينعم مسؤولوها بدفء أكذوبة الخُطط والإنجازات ومبادرات الإصلاح، وينعم طلابها بدفء أكذوبة التعليم، وينعم مرضاها بدفء أكذوبة الرعاية الصحية، وينعم المتخاصمون فيها بدفء أكذوبة العدالة، وينعم أكاديميوها بدفء أكذوبة الألقاب الجامعية، ويكابد مواطنوها عمومًا صقيع حقيقة الحياة! تتضخم الأكاذيب يومًا بعد يوم، وتزداد حرارتها، لكنها تُنذر بحريقٍ حضاري لا يُبقي ولا يذر!

(٢٤٥) الله الله في بلاد العرب!

- <u>**٢٨ نوفمبر ٢٠١٦**</u>

حوالي ٣٦٠ مليون نسمة (عدد السكان في الوطن العربي)، أي ٣٦٠ مليون عقل، أي ٧٢٠ مليون يد، ومع ذلك أكثرهم فقراء، كثيرٌ منهم أميون وجهلاء، وكلُهم على المقاهي والإنترنت خبراء؛ أفسدوا تاريخهم، ومزقوا بالخلاف والانقسام حاضرهم؛ أغنياؤهم دائمو الظمأ إلى أقواتهم، وبسطاؤهم قليلو الحيلة، سيوفهم ألسنتهم، وضجيجهم يفوق أعمالهم، والفقر يُطارد أحلامهم! الله الله في بلاد العرب!

(٢٤٦) اللهم رحمتك!

- <u>**٦ ديسمبر ٢٠١٦**</u>

شيء ما لابد أن يحدث؛ كل دروس التاريخ والمنطق تقول ذلك، كل بشارات الأديان تقول ذلك، كل نظريات العلم ومذاهب الفلسفة تقول ذلك، كل جدليات

اليأس والأمل تقول ذلك، بل هو يحدث بالقوة، وما بين خروجه من القوة إلى الفعل هوة تتقلص. فهل نحن مالكون أم مملوكون له؟ فاعلون له أم مفعولون به؟

نحن الذين قالت عنا الملائكة أننا سنسفك الدماء في الأرض ... لم تفرق الملائكة بين دمٍ ودم، بل قرنت بين الفساد وسفك الدماء، الفساد: من فساد العقل إلى فساد القلب إلى فساد اليد ... اللهم رحمتك!

(٢٤٧) اسأل عن التعليم!

- **<u>١١ ديسمبر ٢٠١٦</u>**

أقسى ما يمكن أن ترصده اليوم في العالم العربي هو حالة «اللامبالاة» الصارخة إزاء السقطات المتتالية، والتي لن يكون آخرها سقطة التعليم في التصنيفات الدولية. لم يعد يعنينا أن فشل التعليم يعني فشل الدولة، فقد ألفنا الفشل، تناغمنا معه، تجرعناه مثلما نتجرع الدواء المُر حتى اعتدنا عليه؛ لم نعد نأبه لحقيقة أن التعليم قبل الجامعي الفاشل يعني تعليمًا جامعيًا فاشلاً، وأن هذا الأخير يعني طبًا فاشلاً، وهندسة فاشلة، وزراعة فاشلة، وقضاءً فاشلاً، وأمنًا فاشلاً، وفنًا فاشلاً، بل ومنظومة خُلقية فاشلة، ومسؤولين فاشلين؛ لم نعد نفزع إزاء حقيقة أن مزيدًا من الفشل في التعليم يعني مزيدًا من الجهل والمرض والصراع والإرهاب والمسخ ... ولأننا لا نأبه، ولا نُبالي، فقد فشلنا حتى في التشكل الكاذب؛ فشلنا حتى في الفشل! قبل أن تسأل عن تفسير لأي شيء لا تفسير له في عالمنا العربي ... اسأل عن التعليم!

(٢٤٨) أبانا المسؤول ... حنانيك!

- **<u>١١ ديسمبر ٢٠١٦</u>**

لا أدري من المسؤول عن استمرار بث إعلانات الدجل والشعوذة على الفضائيات العربية، من قبيل: الشيخ الوحيد الصادق، الشيخ الذي أثبت نجاحًا منقطع النظير على امتداد دول العالم، أخيرًا وصل الشيخ المغربي فلان الفلاني، جلب الحبيب ورد

المطلقة وعلاج المربوط وفك السحر الأحمر والأسود؟ لا أدري أيضًا الحكمة في كون الشيخ الضليع مغربيًا رغم ندرة هذه الإعلانات على القنوات المغربية؟!

إن استمرار هذه الإعلانات وكثافتها (التي لا تضاهيها سوى كثافة إعلانات المنشطات الجنسية) يؤكد جسامة أرباحها، وجسامة التردي الذي أصاب الوعي العربي، وجسامة السقوط الذي أصاب ضمير المسؤول عن بثها، وقبل ذلك كله جسامة اليأس والخلل النفسي الذي أصاب العرب في مقتل!

في دراسة أعدها المركز القومي المصري للبحوث الاجتماعية والجنائية منذ سنوات، تبين أن نحو ٥٠٪ من النساء المصريات يعتقدن بقدرة الدجالين على حل مشاكلهن، وينفق المصريون ١٠٪ من أموالهم على هذه الظاهرة، كما أشار المركز القومي للبحوث النفسية إلى أن ٦٣٪ من المصريين يؤمنون بالخزعبلات منهم ١١٪ من الفنانين والمثقفين. وأكدت الدراسة أيضاً أن الإيمان بالسحر بين الإناث بلغ ٣٩٪ في المدينة و٤١٪ في الريف ومن الذكور ٢٤٪ في المدينة. وأكدت الدراسة ان ٥٣٪ في الريف من الطبقة المتوسطة والفقيرة يؤمنون بأعمال السحر! إنه الباب السحري للسقوط السريع والصارخ.

أبانا المسؤول: حنانيك!

(٢٤٩) هل من إجابة؟!

- <u>١٤ ديسمبر ٢٠١٦</u>

ليس جلدًا للذات، أو انتقاصًا من قدر كثرة من المصريين الذين يمتلكون قدرات إبداعية نادرة، واستعدادات لامتناهية للبذل والعطاء، لكنه مجرد سؤال طرأ في ذهني على خلفية التجول في شوارع الإسكندرية القديمة، وتأمل ما شيَّده الأجانب من بنايات وبني تحتية ما زالت تقاوم الزمن بقوتها وروعتها، مقارنةً بما اقترفه المصريون من تشويهات ومسوخ في عروس بحرهم.

في معية التأمل، عادت بي الذاكرة إلى تدوينة قرأتها منذ فترة، مؤداها أن أغلب بناة مصر عبر تاريخها غير الفرعوني لم يكونوا مصريين، وأن أغلب خيباتنا لم تحدث إلا بعد حكمنا أنفسنا!

«سيف الدين قطز» بطل معركة عين جالوت وقاهر التتار المغول، «الظاهر بيبرس» المُلقب بأبي الفتوح، «صلاح الدين الأيوبي» مُحرر القدس وقائد معركة حطين، «جوهر الصقلي» باني الجامع الأزهر، «قايتباي»، «قنصورة الغوري»، «طومان باي»، «المُعز لدين الله» مؤسس القاهرة، «الإسكندر» مؤسس الإسكندرية، «سليمان باشا» مؤسس الجيش المصري، «فرديناند دي لسبس» منفذ مشروع قناة السويس، «دانينيوس» صاحب فكرة بناء السد العالي، «بطليموس» باني مكتبة الإسكندرية، كل خديوي، ... إلخ. هؤلاء جميعًا ليسوا مصريين ... أليس هذا ما تعلمناه من دروس التاريخ ونشأنا نحفظه ونردده؟ فأين الخلل؟ هل هو في الشخصية المصرية ذاتها، أم في أطماع وصراعات من حكموها ومن رغبوا في حكمها من أبناء مصر؟

السؤال مماثل لسؤال الحضارة العربية الإسلامية التي كان أبرز أعلامها من غير العرب، ومن ثم ينسحب على الشخصية العربية عمومًا: لماذا؟ هل من إجابة؟

(٢٥٠) كوسة!

- **١٦ ديسمبر ٢٠١٦**

هل تعلم لماذا سُميت الواسطة «كوسة»؟

في أسواق الخضار بالأرياف كان التجار والمزارعون يخرجون مبكرًا لحجز الأماكن لبيع ما في حوزتهم من أصناف الخضار، وكانوا ينتظرون في طابور طويل حتى يتم تحصيل الرسوم والسماح لهم بالدخول، وكانت حرارة الجو ترتفع أحيانًا منذرةً بفساد الخضار، فلا يتم استثناء أحد من الطابور إلا تجار الكوسة لأنها تفسد سريعًا ولا تحتمل الحرارة. وعندما يترك أحدهم الصف ويدخل السوق دون

انتظـــــار، يحتج الآخرون طلبًا للمعاملة بالمثل، وحينئذ يـــــرفع البائع يده ويصيح: كوسة... كوسة! وهكذا أصبحت الكوسة شعار حياة، ومؤهل صعود، ووجبة سلوك أثيرة!

(٢٥١) الفشل المقدس!

- **٢١ ديسمبر ٢٠١٦**

«**الفشل** المُقدس»، تعبير يليق بنا ونليق به، يســـتمد قدســـيته من نجاحه؛ فإذا لم تســتطع النجاح في مجابهة الفشـــل وتجاوزه، فعليك النجاح في الفشـــل ذاته ... وقتئذ تُفتح لك الأبواب، وتمتد لك الأيدي، وتعلو الأصـوات: مرحبًا بك في قوافل الفشـــل، حيث يكف الفشل عن كونه خيبة، ليغدو نبوغًا في محميته العربية المتسعة!

عجيبٌ أمر هذا الوطن؛ يُقلص أبعاد الإنســـان إلى بُعدٍ واحدٍ فقط هو بُعد الصـــراع من أجل البقاء حيًا، ثم يســـوده جهلٌ متعدد الأبعاد، ونفاقٌ متعدد الأبعاد، ووصــولية متعددة الأبعاد، وســــرقة متعددة الأبعاد، وعبثية متعددة الأبعاد ... وما بين كل بُعد وآخر شبحٌ إنساني مشوّه الأبعاد، وسقوط حضاري متوالد الأبعاد!

(٢٥٢) كلنا عالقون!

- **٢٦ ديسمبر ٢٠١٦**

أتابع أحداث الوطن وكأن بين يدي كتابًا أستطيع تصفحه وقراءته دون أن يحق لي التســـاؤل طيلة الوقت: مَن المؤلف؟ كلنا عالقون في هذا المكان الذي يســـمونه وطنا! أيها المشـــــــاؤون على حافة الهاوية، النافخون في أبواق الكراهية، العابثون بحطام حياتنا: رفقا بنا. لســـنا في حاجة إلى أطباء يتاجرون بأوجاعنا، ولا إلى وزراء يحملون أوزارهم وأوزارًا مع أوزارهم، ولا إلى سياسيين يعوزهم من يسوسهم، ولا إلى نواب تحتشـد على أيديهم نوائب الدهر ... بل نحن في حاجة إلى لحظة صـدق؛ لحظة حبٍ حقيقية ... فهلا منحتمونا إياها؟

صدق من قال إن «الشهرة» و«السُلطة» و«المـــــال» و«الجاه» ... كلها أمورٌ تحول الغباء إلى ذكاء، والجهل إلى علم، والســـــخف إلى حكمة، وقلة الأدب إلى ظرف وخفة دم!

(٢٥٣) دروع الصد!

- **٢٩ ديسمبر ٢٠١٦**

أرى في عيون البســطاء والأطفال كل كلماتي، ما كتبت منها وما ســأكتب، وفي ابتســاماتهم كل دروع الصــد ضــد ســهامٍ تعيث في طرقاتي، وفي دموعهم كل عثراتي وإخفاقاتي، وفي همساتهم كل أحلام الحاضر والآتي! ولا أدري، لماذا يُصر البسطاء على التفرد في كل شيء، حتى في الحُزن ... نظراتهم، أحلامهم البسيطة، أوجاعهم، انكساراتهم ... تستفز في القلب والعقل كل معاني الحياة؛ تُحرضها على التحدث بصوتٍ عالٍ!

(٢٥٤) الـ «كيتش» العربي!

- **٢ يناير ٢٠١٧**

الـــ «كيتش» kitsch كلمة ألمانية تعني «النفاية»، انتشرت في القرن التاسع عشر كتعبير عن موجة فنية أنتجت وقتها فنونًا رديئة اعتمدت على التقليد والمبالغة، وصـــارت وصـــفًا معتمدًا للأدب والفن الهابط. وانتقلت الكلمة من بلد إلى بلد، ثم اشتهرت مع قراءات خاصة للكلمة من قبل بعض الكتاب، خاصة تلك القراءة التي قدمها الأديب الفرنســـي – التشـــيكي «ميلان كونديرا» Milan Kundera (من مواليد ١٩٢٩) في روايته «*كائنٌ لا تُحتمل خفته*» *The Unbearable Lightness of Being* (١٩٨٤)، حيث ركّز على وجه آخر لهذه الكلمة؛ فالكيتش لديه ليس فقط الفن الرخيص كما يظن البعض، بل هو سلوك وموقف وصفة لفئة من البشـر ترى نفســها في الكذب المجمل. ولا أجد كلمة أبلغ من «كيتش» لوصـــف واقعنا

الحالي: خطاب إعلامي يزيف الوعي، منتجات رديئة الصنع، فن مبتذل، سلوكيات منحطة، تعليم هش، بلطجة ... إلخ. زمن «الكيتش» ودولة «الكيتش» وتجليات «الكيتش»!

(٢٥٥) الحمقري!

- **٤ يناير ٢٠١٧**

«**الحمقري**» تعبير نحته الكاتب الساخر «محمود السعدني» رحمه الله، وشرحه مدلوله بقوله: «زمان كان مدرس الحساب يعتقد أنني حمار، وكنت أعتقد أنني عبقري. وبعد فترة طويلة من الزمان اكتشفت أن المدرس كان على خطأ، واكتشفت أيضًا أن العبد لله لم يكن على صواب؛ فلا أنا عبقري ولا أنا حمار، بصراحة أنا مزيج من الاثنين: العبقري والحمار ... أنا حمقري»!

هذا الكائن الهجين (الحمقري) كان موجودًا وما زال، لكنه خلَّف كائنًا أكثر تطورًا يموج به مجتمعنا هذه الأيام في كافة مواقعه ... كائنًا بلغ أعلى مراحل الاستحمار (لذاته ولغيره)، وإن ظل محتفظًا بالاسم ذاته: «الحمقري»، وأعني به ذلك الكائن الذي يحمل جسد إنسان ورأس حمار ... يظن نفسه عبقريًا وهو في الحقيقة حمار! يُحدثك وكأن كلماته نابعة من جوهر الحقائق، أو كأنها نوعٌ من الإلهام، لا، بل هي جزءٌ من باطن الحكمة، إن لم تكن الحكمة ذاتها (بألف لام التعريف)، فإذا نفضت عنك غُبار جهله، سمعت صوت حمار، ورأيت وجه حمار!

«الحمقري» في مجتمعنا ليس مجرد ظاهرة، لكنه التطور الطبيعي لوطنٍ مقدس في النصوص ... مكدس باللصوص!

(٢٥٦) قدسية كاذبة!

- **٧ يناير ٢٠١٧**

ويتمادى المقدّس البشـري وحراسه في بناء أسوار المحظور؛ الممنوع من التفكير (التابو)، وفي تعميق مغزى وحُجج تقديسهم؛ تعلو أصواتهم، ويحصنون أنفسهم ضد أداة فضح القدسية الكاذبة: العقل؛ لأن مجرد السماح لهذا العضو (العقل) بالعمل،

من شأنه أن يُعلن بقوة عن تدنيس هذه القدسية الكاذبة في باحة حرمها! إنه النفاق واللاثقة في العقل والركون إلى الدعة والاستسلام من قبل الكثرة، والتجهيل ورهاب العقل والرغبة في التأله من قبل القلة! أيا عبيد التابو الزائف: حطموا أصنامكم وكُفوا عن مناجاة البطل، أطلقوا العنان للعقل، فهو وحده البطل، هو أقوى أطواق النجاة!

(٢٥٧) الكلاب البرية!

- **<u>٧ يناير ٢٠١٧</u>**

في عام ١٩٧٥ قامت آلاف الكلاب البرية بمهاجمة مدينة هايتشنغ الصينية وبدأت تنبح بشكل هيستيري، مما دفع السلطات إلى العمل على إخلاء المدينة من سكانها البالغ عددهم ٩٠ ألف نسمة من أجل سلامتهم، لكن بعد ساعات من الحادثة وقع زلزال هائل دمر المدينة بأكملها، ليكتشف السكان حينها أن الكلاب كانت تريد حمايتهم فقط!

ربما تنظر الحكومات العربية إلى نقد الناقدين وسخط الساخطين مثلما نظرت سلطات المدينة الصينية إلى نباح الكلاب (أعزكم الله)، انطلاقًا من القول المأثور: الكلاب تنبح والقافلة تسير ... وقد لا تنتبه إلا بدوي الكارثة!

(٢٥٨) تسوس الأسنان ... وتسوس العقل!

- **<u>٧ يناير ٢٠١٧</u>**

عيادة طبيب الأسنان من أكثر الأماكن التي أكره زيارتها، ومع ذلك يضطرني الألم أحيانًا إلى زيارتها صاغرًا، والاستسلام على أريكة جهاز الكشف وقد فتحت فمي على مصراعيه يعبث فيه الطبيب بيديه وأدواته كيفما شاء!

في إحدى زياراتي الأخيرة لهذا المكان الموجع، أراد الطبيب أن يُخفف عني وطأة القلق، فاستغرق أثناء الكشف في حديثٍ مُمل عن التسوس وأسبابه وعوامل الوقاية منه، موضحًا أن التسوس عملية بيولوجية كيميائية تحدث في الفم وتتطور عبر فترة

قد تمتد لعدة شهور أو سنوات، حتى وإن بدت الأسنان والضروس من الخارج سليمة وبيضاء، ونتيجتها انهيار الأسنان والضروس وتشوه الفم في معية الألم اللامُحتمل. وضرب مثلاً لذلك بقطعة الخشب التي يأكل السوس جوفها عبر فترات زمنية طويلة تبدو فيها متماسكة، فإذا ضغطت عليها وجدتها هشة وانهارت كالتراب!

أثناء ذلك كان قد غرس إبرته في لثتي مفرغًا ما بها من مُخدر، وأمرني بالانتظار لبضع دقائق في صالة الانتظار كي يستكمل حشو ضرسي، ويبدو أن للمُخدر تأثيره الفوري الذي أنكره الطبيب، إذ انتقل بي عقلي من تأمل تسوس الأسنان إلى التفكير في تسوس العقل ... نعم، ذلك التسوس الذي أصاب العقل العربي في صورة فساد ينهش في بنيانه من الداخل ليغدو هشًا مؤلمًا آيلاً للسقوط! ولم لا، أليست الرشوة والمحسوبية والمظهرية الكاذبة نوعًا من التسوس؟ أليس الجهل واستغلال النفوذ وعشق المناصب نوعًا من التسوس؟ أليس إيثار المصالح الشخصية وتردي التعليم والبحث العلمي وانتشار الفقر والمرض نوعًا من التسوس؟ أليس انتفاء العدالة وتقديس ولاة الأمر والعبث بالقيم والطعن في الدين نوعًا من التسوس؟ نعم هو تسوس، بل هو أخطر أنواع التسوس، لأن تسوس العقل يعني تسوس الثقافة والتعليم والحاضر والمستقبل، يعني الألم الذي نعايشه الآن محليًا دوليًا، يعني باختصار تسوس الدولة! تسلست تأملاتي الموجوعة لتقودني إلى المقارنة بين التسوس والسياسة والوسوسة؛ ثلاثية متشابهة جعلتنا مجرد وصفات للطبخ في قدور حكوماتنا وقدور العالم ... ولم يقطع تأملاتي سوى نداء الممرضة لملاقاة الطبيب!

(٢٥٩) ويلٌ لأمة تحط من شأن العلم!

- **٨ يناير ٢٠١٧**

العالم العربي يقع تحت خط الفقر في البحث العلمي ... هذا ما تؤكده إحصائية نوعية للدول التي حصل علماؤها على جوائز نوبل في العلوم (وليس الأدب أو

السياسة) مقارنة بعدد سكانها. صحيح أن جائزة نوبل ليست معيارًا موضوعيًا وافيًا وكافيًا، لكنها من المؤشرات الأساسية على قيام مجتمع المعرفة والبحث العلمي. ويلٌ لأمة تحط من شأن العلم وتعلو بالجهل والجهلاء!

الدولة	عدد السكان (مليون)	عدد جوائز نوبل في العلوم
الولايات المتحدة	٣٢١,٧٧٣,٦٣١	٣٢٧
انجلترا	٦٤,٧١٥,٨١٠	١٠٤
ألمانيا	٨٠,٦٨٨,٥٤٥	٨٩
فرنسا	٦٤,٣٩٥,٣٤٥	٣٧
اليابان	١٢٦,٥٧٣,٤٨١	٢٢
كندا	٣٥,٩٣٩,٩٢٧	٢٠
سويسرا	٨,٢٩٨,٦٦٣	٢٠
هولندا	١٦,٩٢٤,٩٢٩	١٩
النمسا	٨,٥٤٤,٥٨٦	١٨
السويد	٩,٧٧٩,٤٢٦	١٧
روسيا	١٤٣,٤٥٦,٩١٨	١٦
إيطاليا	٥٩,٧٩٧,٦٨٥	١٣
الدنمرك	٥,٦٦٩,٠٨١	١٠
النرويج	٥,٢١٠,٩٦٧	٨
إسرائيل	٨,٠٦٤,٠٣٦	٨
الدول العربية مجتمعة (٢٢ دولة)	٣٨٩,٣٧٣,٠٠٠	واحد فقط يحمل الجنسية الأمريكية

قائمة الدول التي حصل علماؤها على جوائز نوبل في العلوم مقارنة بعدد سكانها

(إعداد المؤلف)

(٢٦٠) العلم والدين!

- **<u>١٥ يناير ٢٠١٧</u>**

الصراع بين العلم والدين كان وما زال وسيظل قائمًا إلى أن يشاء الله ... ليس العيب في العلم، وإنما في فهم زمرة من المشتغلين بالعلم لطبيعة الدين وكراهيتهم له! وليس العيب في الدين، وإنما في فهم زمرة من المشتغلين بالدين لطبيعة العلم وكراهيتهم له ... والاخطر هو فهم من لا ينتمي إلى هؤلاء أو أولئك، وإن كان يتبعهم شبرًا بشبرٍ وذراعًا بذراعٍ شاغرًا فاه، حتى لو سلكوا جُحر ضب لسلكه!

(٢٦١) في رحاب الوهم!

- **<u>٤ فبراير ٢٠١٧</u>**

عبر خمسة عقود خلت، عاصروا في كنف الوطن كثرة من الحكومات، وكثرة من المسؤولين؛ سَمْتُهم واحد، ومنطقهم واحد، ولُغتهم واحدة. لا تحوي لغتهم من المفردات والجُمل سوى تلك التي تحض رعاياهم على البذل والعطاء والتضحية والموت في سبيل الوطن. حوصرت آذانهم دومًا بعبارات من قبيل: «تحملوا من أجل الوطن»، «ضحوا من أجل الوطن»، «تبرعوا من أجل الوطن»، «اصبروا من أجل الوطن»، «نحن في عُنق الزجاجة، وقد أوشكنا على الانفلات من العُنق لنمرح في دولة الرفاهية» ... «إنجازاتنا تتوالى، دعونا نعمل في صمت كي نعبر عام الرمادة» ... إلخ. وتمضي الأيام والشهور والسنون، يومًا بعد يوم، وشهرًا بعد شهر، وسنة بعد سنة، وما زالوا عالقين يعتصرهم عُنق الزجاجة، فلا هم تجاوزوه إلى رحابة الخارج، ولا عادوا إلى ضيق الداخل! خمسون عامًا أو يزيد وهم ينتظرون، يتحملون، يصبرون، يتبرعون، يبكون سرًا وجهرًا، ويناجون الوهم ... لم يخرج يومًا من يُبشرهم بأن الرمادة قد انتهت! لم يقل لهم أحدٌ يومًا «هذه ثمرة تحملكم وصبركم، هذه خيرات الوطن، فلتحيوا إذن كي يحيا بكم الوطن»! خمسون عامًا

أو يزيد وثلاثية التخلف (الفقر والجهل والمرض) تحاصرهم، تحاصر الوطن وتنخر في بنيته ... خمسون عامًا أو يزيد وهم مكبلون بواجبات الطاعة الراتبة والنافلة والمؤكدة: «افعلوا ولا تفعلوا، وردّدوا دومًا: يحيا الوطن» ... افعلوا ما نسنه لكم (طوعًا أوكرهًا) تكونوا آمنين، وحذار أن تنزلقوا إلى قائمة «لا تفعلوا» فتكونوا مارقين كارهين للوطن وجاحدين للإنجازات!

وقفوا صغارًا في أفنية المدارس يؤدون تحية العلم، يصدحون بالنشيد الوطني ويرددون في حماس: يحيا الوطن، وارتادوا دور العبادة يستمعون في خشوع لخُطب أئمتهم العصماء عن الصبر والتضحية وحب الوطن، ويؤمنون على الدعاء لولاة الأمر، كي يحيا الوطن، والتحقوا بالجامعات يتلقون دروس أساتذتهم البليغة، ونصائحهم المنيعة: «تعلموا من أجل الوطن» ... «اجتهدوا واعملوا من أجل الوطن»، وكانوا يرددون: يحيا الوطن! أدوا الواجب الوطني في ثكناتهم العسكرية القريبة والبعيدة وهم يرددون: يحيا الوطن، وخرجوا إلى أسواق العمل يحملون في قلوبهم حب الوطن، وتنوء أكتافهم بهموم الوطن ... ثم رأوا ما رأوا: رأوا أطفالهم مكدسين في مدارسهم الحكومية كفئران التجارب، ورأوا الفقراء ينعزلون في عشوائياتٍ غشيها الشيطان بُحطامٍ من القيم، تفتك الأمراض بأجسادهم، وتنهش الحاجة عقولهم؛ رأوا كثرة من أهل الوطن يُقتلون في حوادث الطرق والقطارات والعبَّارات، ويُقتلون في حوادث ارتفاع أسعار الأساسيات، والعجز عن تلبية الحاجات، وعبثية العلاج في المستشفيات، وهيمنة الرشاوى والمحسوبيات، وإرهاب الفكر والجماعات؛ رأوا الشباب يموتون تعليمًا وبطالة وهجرةً؛ رأوا العدالة عمياء، والحرية عرجاء، والكرامة جوفاء، والعزة للأغنياء، والذلة والمهانة للفقراء، والرفعة للجهلاء، والقهر للعلماء! خمسون عامًا أو يزيد، ذهب مسؤولون، وجاء مسؤولون، وسيأتي آخرون، واللغة واحدة، والوجوه واحدة، والمعاناة واحدة؛ خمسون عامًا أو يزيد وما زال الأمل يعصف بهم، والوهم يطوق أعناقهم: يحيا الوطن ... أما آن للوطن أن يحيا وأن يحيوا فيه وبه؟!

(٢٦٢) البحث عن لقب!

- **٧ فبراير ٢٠١٧**

في العالم العربي فقط يبحث الجميع عن لقب: أستاذ، دكتور، مهندس، شيخ، باشا، بيه، نجم، عمدة، مولانا، كابتن، ريس، ... إلخ، فضلاً عن مقدماتها الضرورية: سيادة، معالي، فضيلة، سعادة، حضرة، ... إلخ. وإذا لم يجد العربي البسيط أو الجاهل صاحب المال لقبًا قام ببساطة بأداء العُمرة ليكتسب لقب (حاج)، حتى لقد أصبحت لدينا حصيلة من الألقاب لو كان حاملوها يستحقونها بالفعل لأصبح العرب سادة العالم ... الغريب أننا نفتقر لمن يبحث عن لقب (إنسان)، إلا من رحم ربي! تُرى ما تفسير ذلك؟

(٢٦٣) اختلافك سر قلقهم!

- **١٣ فبراير ٢٠١٧**

اختلافك سر قلقهم، تميزك سر غضبهم وهجرانهم وقطيعتهم، يسعون دومًا إلى استفزازك والحط من شأنك، ويدفعونك لاستخراج أسوأ ما فيك، بل وإلى استيلاد كل ما هو أسوأ، كي تصبح مثلهم، واحدًا منهم ... وقتئذٍ فقط تجدهم مُحبين مُرحبين، فلا تأس على ما فاتك من صحبتهم؛ كن متفردًا، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، إن الله عليم بما يصنعون.

(٢٦٤) موت يا حمار!

- **١٣ فبراير ٢٠١٧**

يُروى أن جُحا كان يعيش في بلدٍ كثير الخيرات، كثير الفساد، يحول فساد كباره دون تمتع أهله بموارده وخيراته، فكانوا يكابدون ضنك الحياة وشظف العيش. وكان لسلطان البلد حمارٌ مُدلل، يُحبه ولا يبخل عليه بشيء، وذات ضائقةٍ

معيشـــية، راودت جُحا فكرة خبيثة، أشــاع على إثرها أنه يســتطيع أن يُعلم حمار السـلطان القراءة والكتابة. وبلغت الفكرة السـلطان وراقت له؛ فما أجمل أن يقرأ حماره ويكتب، وما أروع أن يكون حمارًا مثقفًا يُناظر حشد المتفيهقين من حوله!

وهكذا أمر السلطان باستدعاء جُحا، وأمره بالبدء في تعليم الحمار، فأبلغه جُحا أن الأمر يستغرق عشرين سنة، يُخصص له السلطان خلالها دخلاً يوميًا يكفل له رغد الحياة وصحبة الكبار ... ووافق السلطان، لكنه توعد جُحا بالقتل إن فشل في مهمته! خرج جُحا سعيدًا بالصفقة، مثيرًا لشفقة الناس من حوله، وحين ألحوا عليه برفض الصفقة كي لا يقتل، أجاب مبتسمًا: وكيف أرفض، سأعيش عشرين سنة لا أحمل همَّ شـــيء، وســأحظى بالمال والأمن وربما السـُلطة، وقبل أن تنتهي إما سأموت أنا، أو سيموت الملك، أو سيموت الحمار!

المشكلة ليست في موت أحدهم، وإنما في شيوع فكرة إمكانية تعليم الحمار، وفنون التطبيل التي صاحبتها، وتصديق الدهماء لها، واكتسابها مشروعية البقاء ... وموت يا حمار!

(٢٦٥) عوالمنا الممكنة ... لماذا هي عوامل للفشل؟!

- **١٤ فبراير ٢٠١٧**

تميزنا بالعقل (كبشر) يعني أن أفكارنا تشكّل الواقع، وتبني عددًا لا حصر له من العوالم الممكنة. صحيح أننا نشترك إدراكيًا في محسوسات عالمنا الفعلي، لكن لكلٍ منا مرحليته وخبراته وموروثاته ولغته وبيئته وبنيته العقلية والنفسية التي تشـــكل في النهاية عالمه الخاص. هكذا يختلف عالم الطفل عن عالم الشـــاب عن عالم الشـــيخ، ويختلف عالم المرأة عن عالم الرجل، وعالم المؤمن عن عالم المُلحد، وعالم المتفائل عن عالم المتشائم، وعالم الجاهل عن عالم المتعلم ... وتختلف العوالم الممكنة أيضًا بين المتعلمين وفقًا لمستوياتهم وتخصصاتهم، كما تختلف من أمة إلى أخرى وفقًا لمستوى رقيها الحضاري والعلمي.

ولو طبقنا ذلك على أمتنا العربية – الإسلامية لوجدنا أن عوالمنا الممكنة لا حصر لها، لكنها (بمقياس الحاضر الغربي) لم تبلغ بعد مرحلة الرُشد الحضاري، أو بلغته بعد أن أتم الله لها دينها، ثم نكصت على أعقابها، فغابت عنها حقيقة أن ثراء العوالم الممكنة في تعددها؛ في تكامل الأوجه المتدفقة للحقيقة؛ وغابت عنها أيضًا حقيقة أن العوالم الممكنة تحوي عوالم الفشل إلى جانب عوالم النجاح! صحيح أن عوالم الفشل أيسر، وأكثر امتلاكًا لعناصر القوة والهيمنة، وأسرع تشيؤًا وتحولاً إلى عوالم فعلية نرتع في حظائرها ونكابد مرارتها، لكن مجرد قبولنا لها، ورقصنا على دقات طبولها، وتسليمنا بأحاديثها ... كل ذلك هو سر فشلنا! إنها الفكرة الغائبة، والعالم الممكن الغائب، والنص الغائب في قصيدة الواقع العربي المعاصر!

(٢٦٦) المنتقد والكاره!

- **١ مارس ٢٠١٧**

يُخطئ من يظن أن من ينتقد أوضاعًا عبثية أو أحوالاً ديماجوجية هو إنسانٌ كارهٌ للوطن، معوقٌ لنهضته، مثبطٌ لهمم أبنائه؛ على العكس، قد يكون المنتقد أكثر حبًا ووفاءً للوطن من ذلك الذي يتعايش مع السلبيات رغم كثرتها وخطورتها، ويسعى إلى تبريرها والتبشير بمستقبل ضبابي أفضل، متذرعًا بالرغبة في بث الأمل. هذا الأخير أما أن يكون مستفيدًا، تُغذي السلبيات مصالحه وتحول دون فقدانه امتيازاتٍ يروم المزيد منها، أو أن يكون غائبًا عن مشهد المعاناة!

(٢٦٧) تكلم حتى أراك!

- **٦ مارس ٢٠١٧**

حين قال «سقراط» لتلميذه الصامت المزهو بنفسه: «يا هذا: تكلم حتى أراك»، كان يعي جيدًا أن قيمة المرء وشخصيته في فكره، لا في مظهره أو فيما يحوزه من

متاعٍ زائف ... لم يقل له: يا هذا أرني أموالك أو متاع بيتك وعملك كي أعرفك، بل قال له: تكلم حتى أراك، حتى أعرف حقيقة ذاتك: أخاويةٌ هي أم عامرة! ولا غرو، فالذوات صناديق مُغلقة، مفاتيحها الكلام، وبالكلام (منطوقًا ومكتوبًا) نستطيع أن نُدرك حجم المرء وقيمته ومقدار علمه ورُقي أو تفاهة فكره.

أدرك «سقراط» بعبارته الجامعة المانعة أن ثمة أناسًا يخلعون القيمة بفكرهم وعملهم على ما يشغلونه من أماكن ووظائف ومناصب، وعلى ما يتدثرون به من ثياب أو ما يمتلكونه من متاع، وأن ثمة أناسًا يستمدون كل قيمتهم من الأماكن والوظائف والمناصب التي يشغلونها، ويعمدون إلى تحقيق ذواتهم بدثارٍ زائف أطول من قاماتهم؛ هؤلاء هم آفة مجتمعاتنا العربية ... قد يُدركون وقد يُدرك الناس، وقد لا يُدركون ولا يُدرك الناس، أنهم مُسطَّحون، مُنبطحون، جاهلون، أفَّاقون، فارغون، وتافهون ... لكنهم إذا ما خلوا إلى أنفسهم الأمارة بالوهم خُيّل إليهم من تضخمها الكاذب أنهم أشباه آلهة! وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، وإن يقولوا تسمع لقولهم، كأنهم خُشب مُسنَّدة، يحسبون كل صيحةٍ عليهم، هم العدو فاحذرهم!

(٢٦٨) في يومك سيدتي!

- **<u>٨ مارس ٢٠١٧</u>**

في يومك سيدتي (٨ مارس) ما زال القلب والعقل يتساءلان: هل أنت نصف المجتمع؟ أم أنت الكون كله؟ ألسنا نزلاء قلبك المتسع لهمومنا وغرورنا؟ والعقل المتسع لجدنا وهزلنا؟ ألست الملاذ والدفء؟ بل ألسنا بعضك؟ إذن أنت الكون كله، شئنا أو أبينا!

(٢٦٩) هذا ما يريدونه!

- **<u>١٠ مارس ٢٠١٧</u>**

أن تؤمن باللامعقول، أن تحمل أوزارهم وتتغني وتزهو بها، أن ترى بأعينهم العمياء، وتسمع بآذانهم الصماء، وتحترق بنار سطحيتهم، أن تموت حكايات القهر بصخب التفاهات التي يعيشونها ويبثونها، أن يكون «اللامعنى»، على حد تعبير

«ميلان كونديرا»، هو جوهر وجودك بينهم؛ إنه موجود حتى حيث لا أحد يريد أن يراه، لا تتعرف عليه، ولا تخلع عليه المعنى، بل تعلق به، وتعلم كيف تقع في حبه، وكيف تمارسه وتعيشه! صديقي: تنفس هذه التفاهة التي يُجسدونها، إنها الآن، ولديهم، مفتاح الحكمة ... مفتاح المزاج الجيد والرضا!

(٢٧٠) الرضا الوظيفي!

- **٣٠ مارس ٢٠١٧**

لا شيء يُحقق أناقة الروح والعقل، وسيمترية العمل، لاسيما لمن كان عمله مرتبطًا بالتعليم والفكر والبحث العلمي، سوى أن يُقدم عليه صاحبه محتفظًا ولو بالحد الأدنى من الرضا الوظيفي، لذا أشفق على كل من يتولى منصبًا إداريًا في مصر، كبُر هذا المنصب أو صغُر، وفي قلبه مثقال ذرة من مثالية مُفترضة! وقناعتي – كآخرين غيري – أن أنأى بنفسي عن أي صراعٍ وظيفي؛ فلا منصبٍ مساوٍ أو أكبر يستهويني، ولا كرسي يجذبني ويغويني، ولا مال أتحايل على كسبه عن غير اقتناع بقسمة الله لعباده، وما من غاية أصبو إليها سوى أن أتعلم وأن أنفع بما تعلمت.

ومع ذلك، يضطرني عملي كثيرًا للانغماس في اجتماعات مجالس دورية تمتد لساعات طويلة، منها ما أشارك فيه كعضو، ومنها ما فُرض عليَّ أن أديره، فإذا بها تقتطع من الوقت والجُهد والطاقة قدرًا يُخطئ موضعه. ربما كنت ألتمس لنفسي السلوى لو أن هذه الاجتماعات تُناقش – كما هو مُفترض – قضايا علمية، أو خططًا بحثية، أو حلولاً لمشكلات تصب في خانة الصالح العام، وربما وجدت بعض العزاء لو أننا كنا نتحلى بثقافة الحوار الموضوعي الهادف والهادئ، الذي يتصافح فيه الرأي والرأي الآخر، ويتجول فيه الفكر عبر منطقة رمادية متسعة للجميع، لكنك تجد نفسك في الغالب أمام نزاعات ثنائية آنية، مبعثها قناعات شخصية دوجماطيقية متنافرة، وأيًا كان القرار الذي تتخذه، ولو بأغلبية الآراء، تجد نفسك في النهاية وقد أغضبت طرفًا وأرضيت آخر. وما بين الرضا والغضب

تدور رحى الصـــراع حتى إشـــعار آخر، لتخرج وأنت مدينٌ لعقلك بالاعتذار، مُحملٌ بأوزار انتهاك «ما يجب أن يكون»، تحتبس بداخلك زفرة قهر باكية، وتعلو وجهك ابتســامة دهشــة ســاخرة! تخرج لتعود بأقدامٍ متثاقلة، وروحٍ مُنهكة، وعقلٍ كبلته تضاربات الحاضر والآتي!

(٢٧١) تقليص أبعاد المستقبل!

- **٣١ مارس ٢٠١٧**

لم أعد أعبأ غالبًا بكثيرٍ مما يشــهده الوطن من أحداث ســريعة تُجافي المنطق، ربما لعدم قدرتي على ملاحقة هذه الأحداث، وربما لقناعتي بأنها ثمرات طبيعية لمقدمات فاســـدة حبلي بمزيد من النتائج اللازمة عنها بالضـــرورة. لكن يحلو لي أحيانًا أن أتوقف أمام بعضــها متأملاً ازدواجية الاســتجابة، وانعكاس فطرة الطرح والتلقي، ومنها مؤخرًا حادثة اغتصــاب طفلة رضــيعة في إحدى قرى الدقهلية ... لا شــك أنها جريمة شــاذة تســتوجب عقابًا يرقى لحجم الجُرم المُتجاوز لكافة أعراف البشــر وغرائز الحيوان، لكن ما بالنا لا نجد اســتجابة مماثلة وأطفالنا يُغتصــبون يوميًا بأشكالٍ أخرى صارخة:

يُغتصبون تعليميًا بتكديسهم في بناءات غير آدمية وصفها وزير التنمية المحلية قبل يومين بأنها أشبه بالسجون، ويُغتصبون غذائيًا بوجبات فاسـدة، ويُغتصبون صحيًا بأزمات دوائية مفتعلة، ويُغتصـــــبون آدميًا بوأد الكرامة في مهدها، وقتل الانتماء جنينًا؛ يُغتصبون عقلاً بإعلامٍ مُشوه المصدر والهدف، ويُغتصبون روحًا بصخب حياة منزوعة القيم! تتعدد أنماط الاغتصاب، والنتيجة واحدة: تقليص أهم أبعاد المستقبل!

(٢٧٢) تزييف الحقائق!

- **٨ أبريل ٢٠١٧**

صدمني مشـهد حوائط الكنائس المُخضـبة بالدماء، وآلمني كغيري من المصـريين مشـهد القتلى والجرحى والأشـلاء، لكن الألم يتفاقم، والمشـهد يغدو عبثيًا، حين تُدرك أنها ليســت المرة الأولى التي يُســتهدف فيها المســيحيون (المصـريون) البُرءاء

لترويعهم في أعيادهم، ولعلها ليست الأخيرة التي يُستباح فيها الدم المصري (أيًا كانت عقيدة صاحبه) على أرض المحروسة. وفي كل مرة يأتي رد الفعل منسوخًا من سابقه: إدانة وزيارات حكومية، وبكاء شعبوي على صفحات التواصل الاجتماعي، وصراخ إعلامي فضائي لشرذمة من العاطلين عن العمل والفكر الملقبين بالخبراء، ولا بأس من بعض أغنيات وطنية حزينة مصحوبة بدموع المطربين، وصور لأشلاء الضحايا يلتحم في خلفيتها الهلال بالصليب!

لا بأس أيضًا من مشاهد لاجتماعات وتأبينات وتأكيدات على وحدة الصف، والنيل من الفاعل، وإحباط مُخططاته الآثمة، وبعدها يُراهن الجميع على الذاكرة الهشة للمصريين، ليُصبح الضحايا مجرد أرقام، وتُصبح الجريمة سلعة في سوق البغاء السياسي!

إذا كان المصريون يُعيَّرون بالأمن منذ سنوات، ويقايضون حريتهم وكرامتهم به، ويتحملون من أجله شظف العيش ومرارة الحياة، فأقل حقوقهم إذن أن ينعموا بهذا الأمن المزعوم، ولعلنا في حاجة إلى تجاوز قشور الكلمات وأعراض الإرهاب إلى باطنه ومنطلقاته وأبعاده، وبتر اليد التي تنثر بذوره، أيًا كان زمانها ومكانها!

(٢٧٣) الأعرج ذو العين الواحدة!

- **<u>٩ أبريل ٢٠١٧</u>**

يُحكى أن ثمة مسؤولاً كان أعرجًا، ويرى بعينٍ واحدة، وفي أحد الأيام دعا بعض الرسامين ليرسموا له صورة شخصية، بشرط ألا تُظهر عيوبه، فرفضوا جميعًا؛ إذ كيف يرسمونه بعينين وهو لا يملك سوى واحدة؟ وكيف يصورونه بقدمين سليمتين وهو أعرج؟ وفي خضم هذا الرفض الجماعي جاءه رسامٌ مُعلنًا تصديه للمهمة، وبالفعل رسم للمسؤول صورة جميلة وفي غاية الروعة، فماذا فعل؟

تصور المسؤول واقفًا وممسكًا ببندقية صيد (وبالطبع كان يغمض إحدى عينيه ويحني قدمه العرجاء)، وهكذا رسم صورة المسؤول بلا عيوب وبكل بساطة!

لا تثق في الإعلام، فتزييف الحقائق ديدنه!

(٢٧٤) رحيل أمي!

- **١١ أبريل ٢٠١٧**

ثلاث سنوات تمر اليوم على رحيل أمي ... لا أقول إن ذكراها تعاودني، إذ هي الفكرة، والنبضة، والروح، وهي العطر الذي لا يفارقني، بل تُعادوني دموع لحظة السفر الطويل، واللقاء المُنتظر! حقًا إن بعض الكلمات قد خُلقت لتُقال مرة واحدة، ولشخصٍ واحد، وبعدها لا يكون لها معنى، وكم من كلمات لم يعد لها بغياب أمي أي معنى!

(٢٧٥) كذب أصحاب اليوتوبيات!

- **١٧ أبريل ٢٠١٧**

كذبوا حين كتبوا يوتوبياتهم، كذبوا حين حدثونا عن عالمٍ يسوده الرخاء والسلام والوئام، وتركونا نحلم به، كذبوا حين قالوا إن السياسة يمكن أن تصنع عالمًا أفضل؛ فعظمة الساسة مرهونة دومًا بهوس السُلطة، ولتتأمل معي: ماذا لو قرَّر الفلاسفة والعلماء ذات يوم تغيير العالم إلى آخر أفضل منه، عالم يُضاهي في نقائه ورونقه نقاء ورونق الرياضيات؟

ربما استطاعوا ذلك بالفلسفة والعلم، بروعة الإمساك بمعادلة الوجود الهاربة، لكنهم سيصطدمون قطعًا بالسياسة والساسة، سيصطدمون بمن يُروج للأيديولوجيات، ويُشعل الحروب، ويستأثر بالثروات، ويُتاجر بالأديان، ويقتل باسم الإله والوطن والإنسان والحياة، أولئك هم الساسة، وهذا هو عالمهم القبيح، سيصطدم به الفلاسفة العلماء حتى في العالم المأمول! ليس أمامنا إذن سوى أحد خيارين: إما عالم بلا ساسة، وهو مستحيل نظريًا، أو تدمير شامل للكوكب المثقل بنا، وهو الاختيار الأرجح!

(٢٧٦) وللتطبيل تاريخ!

- **١١ يوليو ٢٠١٧**

رمى الخليفة «المتوكل» عصفورًا فلم يصبه، فقال «ابن حمدون» (وكان مرافقًا له): «أحسنت يا أمير المؤمنين»، فقال المتوكل: «أتهزأ بي، كيف أحسنت؟»، قال: «أحسنت إلى العصفور الذي تركته يا مولاي»!

وقد أثبت التاريخ اللاحق أن من العرب من هم على أتم استعداد للتطبيل حتى آخر رمق في حياة الوطن وكرامته، طالما كان هذا التطبيل يضمن لهم البقاء في مناصبهم حتى لو كانت مغروسة فوق الخرائب والأنقاض!

(٢٧٧) لحظة اللقاء الغائبة!

- **١٢ يوليو ٢٠١٧**

ما من حقيقة تكتنف حياتنا أجلى وأصدق وأقسى من الموت؛ نصطف أمامه جميعًا طوعًا أو كُرهًا في صفوف طويلة ممتدة عبر رحلتنا الحياتية، فمنا من يصل، ومنا من ينتظر، وكلما تحرك الصف اقتربنا من هذه اللحظة الفارقة؛ لحظة الحقيقة؛ نُودع حبيبًا أو قريبًا فننتبه، نحزن، نبكي، نناجي لحظة اللقاء الغائبة، وبعدها سرعان ما تستغرقنا الحياة بترهاتها وصراعاتها، هزلها وجدها، خيباتها ونجاحاتها، لنصطدم بحقيقة أخرى قاسية: استمرار الحياة بعد رحيل من نحبهم، وحتى بعد رحيلنا! لن تتوقف الحياة تعاطفًا مع أحزاننا، ولن تتوقف إرضاءً لغرورنا؛ لن تتوقف معاركها وأوجاعها، ولن تتوقف حماقاتها وأوهامها، إلا لمن بلغ الحقيقة الأولى، وحتى يبلغها عليه أن يحياها كما هي!

(٢٧٨) وسائل إعلام أم إعدام!

- **١٥ يوليو ٢٠١٧**

إعلاميو الفضائيات أشبه ما يكونون بأولئك النسوة اللاتي كان البعض يستأجرهن كي يقمن بالتناويح في المآتم، أو يُطلقن الزغاريد في الأعراس، أو

يُمارسن فن إطلاق الشتائم في المشاجرات، لكل مقامٍ لديهن مقالٌ زائف، وبقدر ما تُعطيهن يُخرجن أقذر ما لديهن! امتُهنت مهنة الإعلام يوم تسلل إليها هؤلاء في غفلة من الحضارة، ولم تعد وسائل الإعلام على أيديهم «مفتوحة»، بقدر ما باتت «مفضوحة»، بل لم تعد «وسائل إعلام» بقدر ما هي «وسائل إعدام» للعقل والقيم!

(٢٧٩) المُغفلة ... ما أبشع أن تكون ضعيفًا في هذه الدنيا!

- **١٨ يوليو ٢٠١٧**

بعض الناس مُغفلون بالقوة، وبعضهم مُغفلون بالفعل؛ بعضهم مُغفلون بالجهل والخوف، وبعضهم مُغفلون بالقهر، ما أبشع أن تكون مُغفلاً في هذا الوطن!

هذا نصٌ للأديب الروسي «أنطون بافلوفيتش تشيكوف» Anton Pavlovich Chekhov (١٨٦٠ – ١٩٠٤) تحت عنوان «المُغفلة»، جسد رمزيًا بشاعة «التغفيل» ممن يَستغفِل، وممن يُستغفَل:

منذ أيام دعوتُ إلى غرفة مكتبي مربّية أولادي «يوليا فاسيليفنا» لكي أدفع لها حسابها، قلت لها: اجلسي يا يوليا، هيّا نتحاسب، أنتِ في الغالب بحاجة إلى النقود، ولكنك خجولة إلى درجة أنك لن تطلبينها بنفسك. حسنًا، لقد اتفقنا على أن أدفع لك ثلاثين روبلاً في الشهر. قالت: بل أربعين! قلت: كلا، ثلاثين، هذا مُسجَّل عندي، كنت دائمًا أدفع للمربيات ثلاثين روبلاً! حسنًا، لقد عملت لدينا شهرين. قالت: بل شهرين وخمسة أيام! قلت: شهرين بالضبط، هكذا مُسجَّل عندي، إذن تستحقين ستين روبلاً، نخصم منها تسعة أيام آحاد، فأنت لم تُعلّمي كوليا في أيام الآحاد، بل كنت تتنزهين معه فقط؛ ثم ثلاثة أيام أعياد. تضرج وجه يوليا فاسيليفنا، وعبثت أصابعها بأهداب الفستان، لكنها لم تنبس بكلمة! واصلتُ: نخصم ثلاثة أعياد، إذن المجموع اثنا عشر روبلاً، وكان كوليا مريضًا أربعة أيام ولم تكن ثمة دروس، كنت تُدرسين لفاريا فقط! وثلاثة أيام كانت أسنانك تؤلمك

فســمحتْ لك زوجتي بعدم التدريس بعد الغداء! إذن اثنا عشــر زائد ســبعة، تســعة عشر، نخصم، الباقي هو واحد وأربعون روبلاً، مضبوط؟

احمرّت عين يوليا فاســيليفنا اليســرى وامتلأت بالدمع وارتعش ذقنها، وســعلت بعصبية وتمخطت، لكنها لم تنبس بكلمة! قلت: قُبيل رأس السنة كسرتِ فنجانًا وطبقًا، نخصـــم روبلين، الفنجان أغلى من ذلك، فهو موروث، ولكن فليســـامحك الله! وبسبب تقصيرك تسلق كوليا الشجرة ومزق سترته، نخصم عشرة، وبسبب تقصيرك أيضـا سـرقتْ الخادمة من فاريا حذاء، ومن واجبك أن ترعي كل شـيء، فأنتِ تتقاضين مرتبًا! وهكذا نخصم أيضا خمسة، وفي ١٠ يناير أخذت مني عشرة روبلات ... همست يوليا فاسيليفنا: لم آخذ! قلت: ولكن ذلك مُسجَّل عندي! قالت: حسنًا، ليكن!

واصلتُ: من واحد وأربعين نخصـم سبعة وعشرين، الباقي أربعة عشـر ... امتلأت عيناها الاثنتان بالدموع، وظهرت حبات العرق على أنفها الطويل الجميل ... يا للفتاة المســـكينة! قالت بصـــوت متهدج: أخذتُ مرة واحدة؛ أخذت من حرمكم ثلاثة روبلات، لم آخذ غيرها! قلت: حقا؟ انظري، وأنا لم أسـجل ذلك! نخصـم من الأربعة عشـــر ثلاثة، الباقي أحد عشـــر ... ها هي نقودك يا عزيزتي! ثلاثة، ثلاثة، ثلاثة، واحد، واحد، تفضـلي ... ومددت لها أحد عشـر روبلاً، فتناولتها ووضـعتها في جيبها بأصـــابع مرتعشـــة، وهمســـت: شـــكراً! انتفضـــتُ واقفًا، وأخذت أروح وأجيء في الغرفة، واستولى عليّ الغضب! سـألتها: شـكراً على ماذا؟ قالت: على النقود! قلت: يا للشـيطان، ولكني نهبتك، سـلبتك! لقد سـرقت منك! فعلام تقولين شـــكراً؟! قالت: في أماكن أخرى لم يعطوني شـــيئًا! قلت: لم يعطوكِ؟! أليس هذا غريبًا! لقد مزحتُ معك، لقنتك درسًا قاسيًا ... سأعطيك نقودك، الثمانين روبلاً كلها! ها هي في المظروف جهزتها لكِ! ولكن هل يمكن أن تكوني عاجزة إلى هذه الدرجة؟ لماذا لا تحتجين؟ لماذا تســـكتين؟ هل يمكن في هذه الدنيا ألاّ تكوني حادة الأنياب؟ هل

يمكن أن تكوني مغفلة إلى هذه الدرجة؟! ابتسمتْ بعجز فقرأت على وجهها: يمكن! سألتُها الصفح عن هذا الدرس القاسي وسلمتها، بدهشتها البالغة، الثمانين روبلاً كلها، فشكرتني بخجل وخرجت، تطلعتُ في أثرها وفكّرتُ: ما أبشع أن تكون ضعيفاً في هذه الدنيا!

(٢٨٠) عبء الحرية!

- **<u>١٩ يوليو ٢٠١٧</u>**

«**الحرية** عبء على من اعتاد العبودية، بل وتصحبها (إن أتيحت له) حالةٌ من الهلع والقلق تدفعه إلى طلب العبودية كخيارٍ أوحد، يتجرع سُمها ولا يجد لطعمه في فمه مرارًا»! كنت أشك كثيرًا في هذه المقولة، إذ كيف لمخلوقٍ أيًا كان أن يرفض الحرية أو يكرهها وينفر منها؟! حتى عاينت ذلك بنفسي.

لدي عصفوران أحتفظ بهما في قفص منذ بضع سنين، أستمتع أحيانًا بتغريدهما، وأضجر أحيانًا أخرى من ضوضائهما، لكني اعتدت عليهما واعتادا عَليَّ ... ومنذ أيام طلب مني ابني الصغير أن أفتح لهما باب القفص فننظر ماذا يفعلان، ومع إلحاحه أغلقت باب الغرفة ونافذتها وفتحت لهما باب القفص ... أما أحدهما فقد انطوي في رُكن من أركان القفص وبدت عليه علامات الذُعر والقلق دون حراك؛ وأما الآخر فقد تسلل واقفًا على باب القفص وكأن الدهشة قد أصابته، وبعد تقديم وتأخير انطلق طائرًا، حلَّق في محيط الغُرفة لمرة واحدة فقط ثم سقط أرضًا، واستسلم لأول يدٍ امتدت إليه كي تحمله إلى القفص ... لعلها المرة الأولى التي يُجرب فيها الطيران، ولذا لم تقو أجنحته على حمله!

تركت باب القفص مفتوحًا، وفتحت أيضًا باب الغرفة لأرقب ما يحدث ... خرج العصفور مرة أخرى، وتشجع رفيقه فاصطحبه، وتكررت محاولاتهما وكأنهما يُمرنان أجنحتيهما، ويطردان خوفهما وقلقهما، ورويدًا رويدًا بدأت الأجنحة تقوى،

واعتادا التحليق في محيط الغُرفة والعودة إلى القفص، لكنهما لم يُغادرا الغُرفة حتى هذه اللحظة، ربما لأن خارجها يُمثل لهما المجهول، والخوف من المجهول غريزة!

الشاهد: الحرية لا يصنعها مرسوم، لكنها تُصنع داخل الكائن نفسه، وهي في حاجة إلى تأهيل وتدريب، ومن ثم في حاجة إلى من يُؤهل ومن يُدرب ... قد تكون في البداية مؤلمة، شأنها شأن خروج المولود من الرحم، لكن ثمرتها الحياة، بشكلٍ أخر، وطعمٍ جديد ... فأنَّى للعرب بمن يُؤهلهم ويُدربهم، على الأقل للخروج من أقفاص التخلف؟!

(٢٨١) حصون الوهم!

- **١٠ أغسطس ٢٠١٧**

أكبر وهم علمي هو أن العلم لديه كل الإجابات، وأن تساؤلات الإنسان الأساسية قد تم الجزم بإجاباتها، وما تبقى مجرد تفاصيل في طريقها إلى الكشف الجلي ... وأكبر وهم ديني وثقافي هو أن ثمة أناساً من البشر يمتلكون الحقيقة المطلقة دون سواهم، بأيديهم مفاتيح الجنان، وفي جيوب عباءاتهم صكوك الغفران ... وأكبر وهم سياسي هو أن ثمة من هم قادرون على امتلاك السلطة والاحتفاظ بها إلى ما لا نهاية عبر احتكار القوة، والتمثيل القسري للإرادة الجمعية ... وأكبر وهم فلسفي هو إمكانية قيام يوتوبيا مجتمعية تبلغ بالإنسان مرحلة السعادة التامة والعدالة المطلقة! جميعها مجرد تصورات، تحولت إلى معتقدات في معية الغرور البشري ... تحمي حصون الوهم وتتعبد في محرابه!

(٢٨٢) حظ أخلاقي!

- **١٠ أغسطس ٢٠١٧**

رجلان كانا في طريقهما لارتكاب جريمة، أو للقيام بعملٍ خيري ... أما أحدهما فقد مكنته الظروف من أن يواصل طريقه ليقوم بما انتويا القيام به، وأما الآخر فقد صدمته سيارة مسرعة فنُقل إلى المستشفى ولم يُتم عمله!

في الحالة الأولى (الجريمة)، يتحمل الأول المسـؤولية الأخلاقية ويُلام ويتعرض للعقوبة القانونية، بينما ينجو الثاني ويحظى بالرعاية ... وفي الحالة الثانية (العمل الخيري) يُثاب الأول وقد يتم تكريمه، في حين يُحرم الثاني من ذلك!

هذا ما أطلق عليه الفيلسـوف الإنجليزي «برنارد ويليامز» Bernard Williams (١٩٢٩ – ٢٠٠٣) مصطلح «الحظ الأخلاقي» Moral Luck، مؤكدًا صعوبة التوفيق بين المسؤولية الأخلاقية والفعل الإرادي، وصعوبة تعميم هذه المسؤولية في ظل ظروف بيئية متفاوتة يتخللها عنصر المصادفة. المشكلة هنا ليست دينية، لأن حرية الإرادة ذاتها ما زالت موضع جدل حتى في الأديان، لكنها في مواجهة المعضلة التالية:

إذا أنكرنا وجود حظٍ أخلاقي فقد أنكرنا واقعًا نعيشـه بالفعل (كمن يولد في أسرة فقيرة لا تجد قوت يومها فيضطر للسرقة)، وإذا أقررنا بوجود الحظ الأخلاقي فقد انتفت المسـؤولية عن كثيرٍ من الناس ... وهي مُعضـلة تواجه كافة النظم القانونية والتشريعية!

(٢٨٣) التأليه وتجليات الجهل!

- **١٢ أغسطس ٢٠١٧**

حين تصـيب الشـيخوخة مفاصـل أمة، يغدو «التأله» طبعًا غالبًا على كل ذي سـلطان بها، حاكمًا كان أو مسـؤولاً، ويغدو «التأليه» طبعًا أثيرًا لرعاياها ... وقد نفهم تأثير المنصـب على شـاغله، وما يحظى به من سـُلطة يروم دوامها، لكن ما يستعصي على الفهم هو سلوك الرعايا أنفسهم: يظل الرجل بينهم عاديًا لا يولونه أي اهتمام، حتى إذا ما تبوأ منصـبًا، سـواء أكان كبيرًا أو تافهًا، أصـبح ما بين ليلة وضـحاها هو المفكر والحكيم والمنقذ، المسـتلهم لأسـباب الخلاص والفلاح، والباعث للعقل وسـط حشـدٍ من السـُكارى! يتزلف إليه الناس – إلا من رحم ربي – وتحلو لهم ممارسات التقديس والخضوع والتملق، ويعتملون في غرضه متى ذهب إليه طمعًا في الجاه وعُلو المنزلة ... ووقتئذ تتجلى تمثلات «التأله»، ومنها تضـخم الذات،

وإضـــمار الاعتقاد بالخيرية المطلقة، وادعاء الحق المطلق، والعطاء والمنع، والرضـــا والسخط، ... إلخ.

الســـؤال: لماذا يميل الناس إلى صـــناعة الإله والصـــنم في عصـــور الانحطاط الحضـاري؟ ولماذا لا نجد هذا السلوك متفشيًا في عالمنا المعاصر إلا في الدول العربية الإسلامية رغم إيمانها المُفترض بإله واحد بيده مقاليد الأمور؟

أهي آفة نفسية تصيب الشعوب، أم تآكل للوعي الجمعي، أم هي تجليات للجهل والخوف والتخلف والتقزم؟

(٢٨٤) هل هو الإحساس بالدونية الحضارية؟!

- **١٨ أغسطس ٢٠١٧**

لماذا كلما وقع حادث إرهابي سارعت الدول العربية والإسلامية إلى إدانته والتبرؤ منه قبل غيرها من دول العالم؟

لماذا كلما حلَّ عيدٌ للإخوة المسـيحين أثيرت مســألة الفتوى حول إباحة أو تحريم تهنئتهم؟

لماذا كلما أراد أحدهم انتقاد الحكومة أو النظام بادر بتوضـيح أنه ليس إخوانيًا أو متحزبًا أو منتميًا لأية جماعة دينية؟

لماذا نبكي على قتلى الغرب ولا نبكي على قتلانا؟

لماذا نحن ملكيون أكثر من الملك ذاته، ســواء على المســتوى العام أو المســتوى الأقل عمومية المتمثل في مؤســســاتنا، أو حتى على المسـتوى الخاص؛ فما أن يتضـح توجُّه المسـؤول أو ولي النعمة حتى يبادر كثيرون إلى ترجمته أفعالاً وممارسـات بغض النظر عن منطقية التوجه ومشروعية الممارسات؟

لماذا ولماذا ولماذا؟ هل هو الإحســاس بالدونية الحضــارية؟ أم الخوف؟ أم عدم الثقة بالنفس؟ أم النفاق؟

(٢٨٥) اللغة العربية ... تأملات حائرة!

- **٢٢ أغسطس ٢٠١٧**

موافقة المجلس الأعلى للجامعات على تعميم تدريس مقرر اللغة العربية بكافة الجامعات المصرية (مع التركيز على مهارات القراءة والكتابة) تُمثل من جهة اتهامًا ضمنيًا بالفشل لكافة برامج التعليم قبل الجامعي، وتُمثل من جهة ثانية اعترافًا بالفشل في إعداد مُعلمي اللغة العربية الذين تضخهم الجامعات سنويًا إلى سوق التعليم المدرسي، وتُمثل من جهة ثالثة اجتزاءً واختزالاً لمشكلة عامة ذات أبعاد مجتمعية متباينة، واستمرارًا لخُطط العلاج بالمسكنات الممتدة منذ عقودٍ خلت.

صحيح أن ثمة ألمًا يُكابده كل غيور على اللغة إزاء التدني المتنامي لمستواها لدى خريجي الجامعات، بل ولدى ثلة من أصحاب التخصصات المختلفة الذين تُعد اللغة قوام مُنتجهم (كالإعلاميين والقضاة والمحامين وأساتذة الجامعات والدعاة والسياسيين وغيرهم)، لكن القرار يتجاهل أولاً أن اللغة مهارةٌ مركبة ومعّقدة، وتحتاج إلى مراحل بنائية زمنية ضرورية لتكوينها وامتلاك المتعلم لأدواتها المتشعبة والمتنامية، الأمر الذي يجعل من تعلمها وإتقانها أمرًا معّقدًا لا يُشبعه مقررٌ جامعي إضافي، بل لابد له من خُطط قصيرة ومتوسطة وطويلة الأجل، يُشارك في إعدادها أصحاب الشأن مدرسيًا وجامعيًا، وتحظى بدعم صانع القرار السياسي!

يتجاهل القرار ثانيًا أن انحطاط اللغة العربية في معاقلها له أسباب عدة؛ من بينها تفوق اللغات الأجنبية في تلبية حاجات أسواق العمل في الداخل والخارج، والنظرة الدونية لمن اقتصرت مهارته اللغوية على اللغة العربية، حتى لقد بات كثرة من شبابنا يفخرون بأنهم خريجو مدارس لغات أو جامعات أجنبية، وهو فخرٌ يمتد لذويهم في ظل الثقافة المجتمعية السائدة، تلك التي تعكس تراجع، أو بالأحرى تنافي، الاعتزاز بالهوية والكبرياء الوطني، فضلاً عن التشكل الكاذب! ويتغافل القرار ثالثًا عن حقيقة أن اللغة وعاء الفكر ومحتواه، وأن تدني مستواها لدى

الناطقين بها يظل من تجليات تدني المنتج العقلي؛ فما دام هذا العقل مُصرًا على عدم مراجعة معطياته المعرفية وأساليبه في التفكير والعمل، فلن تبرح اللغة وضعيتها المتأزمة!

من جهة أخرى، يثير القرار كثرة من التساؤلات حول آليات التطبيق والنتائج المتوقعة؛ فهل سيتم الاكتفاء بمقررٍ واحد يتم تدريسه لطلاب الفرقة الأولى بمختلف الكليات، بما في ذلك كليات الآداب والتربية التي تتضمن معظم برامجها أكثر من مقرر للغة العربية، في الوقت الذي لا يُستثنى خريجوها من تدني المستوى اللغوي، أم سيكون هناك أكثر من مقرر عبر سنوات الدراسة الجامعية؟ وهل تمت الاستفادة، أو حتى ستتم، من تجارب تدريس مقررات مماثلة كحقوق الإنسان والحاسب الآلي والجودة، تلك التي أصبحت مجرد حُلي ترقيعية في قميص التعليم العالي لا تُجدي ثمارًا سوى إدرار الدخل للقائمين عليها؟ وهل سيتم توحيد المقرر لكافة الجامعات المصرية، أم ستُترك لكل جامعة حرية توصيف وإعداد مقررها؟ وكيف يمكن قياس مدى نجاح التطبيق؟ وهل يستطيع أعضاء هيئة التدريس بأقسام اللغة العربية بكل جامعة الاضطلاع بمهمة تدريس المقرر لآلاف الطلاب سنويًا، أم سيُعهد بالتدريس لغير المتخصصين، أم ستُستحدث وظيفة «معلم لغة» مثلما هو الحال بالنسبة لأقسام اللغة الإنجليزية؟ وكيف ومتى سيتم إعداد هذا الأخير وتأهيله؟ ... إلخ.

أتصور أن أزمة اللغة العربية هي أزمة قومية حضارية متعددة الأبعاد، تسبق التعليم العالي وتتخطى حدوده، ومن الصعب – إن لم يكن من المستحيل – تجاوز الأزمة بكبسولة مُسكنة يتجرعها الطالب الجامعي لمرة واحدة مع تجاهل أسباب المرض الحقيقية وتاريخه.

فلأنها أزمة شاملة، فالعلاج يجب أن يكون شاملاً، ولأنها أزمة تراكمية، فالعلاج يجب أن يكون متدرجًا.

(٢٨٦) عن التطرف!

- **٢٣ أغسطس ٢٠١٧**

التطرف في مجتمعنا ليس مقصورًا على التشدد أو الغلو الديني ممثلاً في بعض تيارات الإسلام السياسي، لكنه يمتد ليشمل كل ما من شأنه رفض الآخر أيًا كان، طالما كان له رأي مغاير، أو كان له أسلوب مختلف في الحياة.

وإذا كان الغلو في الدين آفة معروفة تتغذي غالبًا على الجهل والبؤس الحضاري والتهميش والخداع السياسي ...، فإن الغلو في رفض الدين آفة لا تقل خطورة بالمثل، إذ تتغذى – فوق ما سبق – على ثقافة التشويه المتعمد للقيم الأخلاقية، وقمع الحريات الشخصية، وإقصاء الآخر، وإطلاق العنان للشهوات. التطرف هو التطرف، سواء أكان باسم الرب، أو باسم الإنسان أو النظام، أو حتى باسم العقل!

(٢٨٧) بلد العميان!

- **٢٧ أغسطس ٢٠١٧**

من أروع ما كتب الروائي الانجليزي «هربرت جورج ويلز»، قصة عنوانها «بلد العميان» *The Country of the Blind*، كتبها سنة ١٩٠٤، لكنها رغم مرور أكثر من قرن على نشرها ما زالت صالحة للإسقاط بسهولة على الوضع السياسي والاجتماعي عندما يسود الباطل حتى يوقن أصحابه أنه الحق! تحكي القصة عن مهاجرين من «بيرو» هربوا من طغيان الإسبان، وطوَّح بهم القدر حتى أنزلهم واديًا نائيًا قفرًا. ثم حدثت بالوادي انهيارات صخرية عزلتهم عن العالم بسلسلة من الجبال الشاهقة الوعرة تُحيط بهم من كل جانب، وانتشر بينهم نوعٌ من أمراض العيون فأصابهم بالعمى، وورثهم الأحفاد في العمى لعدة أجيال حتى نسوا نعمة البصر، لكنهم استطاعوا مع الوقت تكييف أوضاعهم والتأقلم مع حقيقة عدم وجود البصر بالبصيرة وبالسمع وباللمس والإحساس، ونسي هؤلاء تمامًا أن ثمة ما يُسمى

عضو الإبصار. وهنا يظهر بطل القصة «نيونز»، وهو شاب مُغامر يهوى تسلق الجبال، وتُلقي به المقادير في بلادهم. لاحظ الشاب أن البيوت بلا نوافذ، وأن ألوانها فاقعة غير متناسقة! ثم أدرك أنه في بلد العميان، وتذكر القول المأثور «الأعور يصبح ملكًا في بلد العميان»، فظن أن بإمكانه أن يجد مكانه هنا لأنه الوحيد المبصر بينهم! لكنه حاول مرارًا أن يُقنعهم بأنهم عميان، وبأن ثمة نعمة يفتقدونها تُسمى نعمة البصر، وراح يُحدثهم عن السماء الزرقاء فوقهم وجمالها، والنجوم الساطعة وضيائها، والثلوج المُعممة للجبال وبياضها ولمعانها، لكنهم لم يصدقوه واعتبروه مجنونًا، وجزموا أن ما يُحدثهم به عن قوة عينيه ورؤيتها لهذه الأشياء ليست إلا ضربًا من الخداع والوهم! حاول الشاب المُبصر بكل ما يستطيع من قوة وبيان أن يُفهمهم أنهم عُميان فاقدو البصر، فلم يزدهم ذلك إلا عُتوًا وضلالاً. وإمعانًا في الضحك منه والسخرية به قالوا: لو كان في رأس هذا الرجل عقلٌ لتخلى عن هذه الأوهام، ووجَّه همته إلى الواقع الفعلي بدلاً من انتقادنا، ولقوّى سمعه حتى يبلغ مبلغنا ويتبع المنهج الذي عليه أجمعنا!

حاول الفرار فلم يستطع، واضطر للعودة إليهم بعد جُهدٍ وجوع وظمأ ليقر بخطئه ويضع نفسه تحت تصرفهم؛ قبلوا اعترافه بالخطأ وتقبلوا وجوده بينهم ببساطة. وبعدها صادف المغامر فتاة من العميان كانوا يعتبرونها قبيحة لأن وجهها مُدبب ولها أهداب طويلة، مما يخالف فكرتهم عن الجمال! لكنه رآها أجمل فتيات المدينة على الإطلاق ... أحبها بصدق وتقدم لخطبتها، فأسقط في يد أبيها: هل يرضى بالمجنون الذي هبط عليهم من غير موعد، أم يرفضه ويترك ابنته القبيحة (كما يظن) بلا زواج؟!

طلب مشورة حكيم البلد، فكان رد الحكيم بعد فحص الشاب بأن سبب جنونه هو عضوين مزعجين في وجهه أعلى أنفه (يقصد العينين)، وأن لا شفاء له إلا بفقئهما ليعيش طبيعيًا مثل باقي سكان القرية ... رفض «نيونز» بإصرار، وراح يصف لحبيبته في محاولة يائسة كل متعة الإبصار، والجمال الذي يراه بعينيه،

لكنها بدورها راحت تتلمس يده برقة وتقول إنها تحب خياله، ولكن عليه أن يُضحي إن كان يحبها حقًا! وتحت ضغط الحب يقبل الفتى مستسلمًا الخضوع لعملية استئصال عينيه ... لكن حب الحياة ينتصر في آخر لحظة، ويُجرب للمرة الأخيرة الفرار من أرض العميان ... وينجح في النجاة!

الشاهد: حين تكون عاقلاً في زمن الجنون، متعلمًا في زمن الجهل، مبصرًا في أرض العميان، فاعلم أنه قد حُكم عليك بأن تشقى، وأن تُتهم بالجنون والتهور والخيانة والعمالة والهرطقة ... إلخ، فإما أن تستسلم وتصبح مثلهم، وإما عذابٌ أبديٌ مقيم! تلك هي بلاد العرب ... فأنَّى الفرار؟!

(٢٨٨) لدي حُلم!

- **٢٨ أغسطس ٢٠١٧**

أقول لكم يا أصدقائي، بالرغم من الصعوبات والإحباطات، ما زال لديّ حلم!

في مثل هذا اليوم، الثامن والعشرين من أغسطس سنة ١٩٦٣، ألقى «مارتن لوثر كينج» أشهر خطاب له، تحت عنوان «لديّ حُلم» I Have a Dream، أمام أكثر من مائتين وخمسين ألف شخص جاءوا إلى واشنطن من أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية خلال معركة الأمريكيين السود للاعتراف بحقوقهم، وحُفرت العبارة على درج نُصب «لنكولن التذكاري» الذي أُلقى الخطاب في ساحته، حيث أنشد الحضور أغنية «سننتصر» We shall overcome ومما جاء في خطابه:

لديّ حُلم بأن تستيقظ هذه الأمة وتُطبق بالفعل، في يومٍ ما، العقيدة التي تؤمن بها، تلك القائلة إن البشر جميعًا متساوون.

لديّ حُلم بأن هذه الدولة التي تختنق بلهيب الظلم، وتُكابد حرارة القمع، سوف تتحول في يومٍ ما إلى واحة للحرية والعدالة.

لديّ حُلم بأنه في يومٍ ما، على تلال جورجيا الحمراء، سيتمكن أبناء العبيد من الجلوس مع أبناء أسياد العبيد على منضدة الإخاء.

لديّ حُلم بأنه في يومٍ ما سيعيش أطفالي الأربعة في أمة لا يُحكم فيها على الفرد من لون بشرته، بل من مضمون شخصيته.

لديّ حُلم في يوم ما بأن كل وطاء يرتفع، وكل جبل وأكمة ينخفض، ويصير المعوج مستقيمًا، والعراقيب سهلاً. فيعُلن مجد الرب ويراه كل البشر جميعًا.

هذا هو أملنا ... وبهذا الإيمان سوف نكون قادرين على شق جبل اليأس بصخرة الأمل. بهذا الإيمان سوف نكون قادرين على تحويل أصوات الفتنة إلى لحنٍ جميل من الإخاء. بهذا الإيمان سوف نكون قادرين على العمل معًا، والصلاة معًا، والكفاح معًا، والذهاب إلى السجون معًا، والوقوف من أجل الحرية معًا، مدركين أننا سوف نكون يومًا ما أحرارًا.

لديّ حُلم بأنه في يومٍ ما، في ألاباما، بمتعصبيها العميان، وحاكمها الذي تتقاطر من شفتيه كلمات الأمر والنهي ... ستتشابك أيدي الصبيان والبنات السود والصبيان والبنات البيض كإخوان وأخوات.

لندع أجراس الحرية تدق، وعندما يحدث ذلك، عندما ندع أجراس الحرية تدق من كل قرية، ومن كل ولاية، ومن كل مدينة، سيكون قد اقترب هذا اليوم الذي يكون فيه كل الأطفال الذين خلقهم الله: السود والبيض، اليهود وغير اليهود، الكاثوليك والبروتستانت، قد أصبحوا قادرين على أن تتشابك أيديهم وينشدون كلمات أغنية الزنجي الروحية القديمة: أحرارٌ في النهاية! أحرارٌ في النهاية! شكرًا يا رب العالمين، نحن أحرار في النهاية!

أقول لكم اليوم يا أصدقائي أنه على الرغم من الصعوبات التي نواجهها اليوم، والتي سنواجهها في الأيام المقبلة، لديّ حُلم!

اغتيل مارتن لوثر كينج في الرابع من أبريل سنة ١٩٦٨ ... هذا هو قدر من ينشد الحرية والعدالة والكرامة في عالم تزعجه هذه الكلمات، وكُتب على مقبرته: «حرٌ في النهاية! حرٌ في النهاية! الحمد للّه رب العالمين ... أنا حر في النهاية»!

هو الحُلم الذي يؤرقنا جميعًا، فهل سيتحقق؟ أم سنعيشه في قبورنا؟!

(٢٨٩) لا تُجادل حمارًا!

- **٢٩ أغسطس ٢٠١٧**

اختلف الذئب مع الحمار ذات يوم على لون العُشب ... قال الحمار: لون العُشب أصفر، وقال الذئب: بل لونه أخضر! وتنازعا ولم يصلا إلى حلٍ، فاحتكما إلى ملك الغابة ... وأمامه أدلى كلٌ بحجته، وفي النهاية أصدر الأسد حُكمه بأن يُسجن الذئب لمدة شهر، وببراءة الحمار! استنكر الذئب وقال: سيدي، أليس لون العُشب أخضر؟ قال الأسد: بلى، فقال الذئب فلِم حكمت عليَّ إذن بالسجن؟ قال الأسد: صحيح أنك لم تُخطئ الرأي، لكنك أخطأت عندما جادلت الحمار على مسألة كهذه، لذا حكمت بسجنك كي تعتبر ولا تُجادل حمارًا مرة أخرى!

(٢٩٠) الكواحيل!

- **٢٩ أغسطس ٢٠١٧**

«**الكحُول**» (بفتح الكاف وضم الحاء) مصطلح ابتدعه أهل الإسكندرية منذ عقود. كان المصطلح في البداية مقصورًا في دلالته على الرجل فاقد القيمة، أو الإنسان الساذج عديم الخبرة، وثمة من يرى أن المصطلح أطلق لأول مرة على العامل الذي يختاره صاحب الفرن ليبيع له الفرن، ويأخذ عليه «ورقة الضد» ليتحمل عنه المخالفات وقضايا التموين، ثم يعيد له الفرن ... ورويدًا رويدًا شاع استخدام المصطلح في كافة مناحي الحياة المصرية التي يختمر بداخلها الفساد، حتى لقد ذهب البعض إلى أنه إذا كان لكل إنسانٍ قرين، ولكل رأس «قفا»، فإن «الكَحُول» هو القرين أو «القفا» لكل تاجر أو مقاول أو مسؤول فاسد، بمعنى أنه الشخص الذي يختفي وراءه اللص الحقيقي، وتتكاثر في وجوده الوهمي المخالفات القانونية والاختلاسات وحالات النصب، وتزداد في معيته الأبراج السكنية القبيحة المدمرة للبنية التحتية والحاصدة للأرواح.

ولا تجد في القانون المصـــري تعريفًا لكلمة «الكَحُول»، أو حتى وصـــفًا دقيقًا لدوره، بل هو إن تم ضـبطه، وهو أمرٌ مسـتبعد نظرًا لكونه شـخصـًا مجهولاً لا يُســتدل في الغالب على محل إقامته، مجرد متهم يصــدر ضــده في النهاية حُكمًا غيابيًا لا يتم تنفيذه! وتحت ضـغط الفســاد والفقر والمرض والجهل وصــعوبة تلبية متطلبات الحياة، أصـبح بمصــر والعالم العربي كثيرٌ من «الكواحيل»، بل لا أبالغ إن قلت إن كثرة من المصــــريين والعرب «كواحيل» بالقوة، يتحينون الفرصـــة للانضــــمام لقافلة «الكواحيل» بالفعل التي تقود أمتهم إلى الهاوية ... ربما كانت ظاهرة «الكَحُول» في حاجة إلى دراســات نفســية واجتماعية وقانونية واقتصــادية وأخلاقية وفلســـفية تُنقذ ما يمكن إنقاذه، لاســـيما بعد أن باتت الظاهرة بمثابة كلمة السر أو الشبح الكامن خلف جرائم لا تُعد ولا تُحصى!

(٢٩١) الحقيقة العارية!

- **<u>٢٩ أغسطس ٢٠١٧</u>**

حتى وقتٍ قريب، كان الوطن بمثابة حفلة تنكرية كبيرة؛ كان الجميع – إلا من رحم ربي – لصـــوصـــًا تختفي حقيقتهم خلف الأقنعة، يُحدثونك عن الحرية والديموقراطية والنزاهة والتضحية والوطنية والانتماء والرفاهية المنتظرة، ولا يأبهون بصـيحة التحذير المأثورة: احذروا المرأة التي تتحدث كثيرًا عن الشـرف! وفي مرحلة لاحقة أ صبحنا نتحدث عن سقوط الأقنعة، عن الوجوه القبيحة التي بدأت تتكشف واحـدًا تلو الآخر، وعن الوهم الـذي تجرعنـاه ردحًا طويلاً من الزمن! واليوم بلغت الوقاحة مبلغها، وأصـــبح الزيف مزهوًا بقوته، مفتونًا برفع الســـتائر المنســـدلة والكشـف عن دقائق المطامع وفنون النفاق علنًا. ولا غرو، فقد باتت الحقيقة عارية، والزيف مقيمًا مســـتقرًا، والعقل مهاجرًا، والشـــرف أســـيرًا، وكافة قيم الأديان والإنسانية منزوية في ركنٍ بعيد مهمل من أركان التاريخ!

هي لحظة انتصار صاخبة للشر في صراعه الأبدي ضد الخير، لكنها لحظة عابرة ... أثق أنها لن تدوم طويلاً، ولو لم ندرك نحن أبناء هذا الجيل نهايتها!

(٢٩٢) دماء الأضاحي!

- **٢ سبتمبر ٢٠١٧**

دماء الأضاحي تكسو شوارعنا ... نعم، لقد أراق العرب والمسلمون من دماء الأضاحي ما يكفي لإشباع النهم إلى قتل بعضهم البعض، وكراهية بعضهم البعض، وسفك دماء بعضهم البعض ... إنه الفداء الذي شرعه المولى عز وجل رفعًا للبلاء، وإعلاءً لحُرمة النفس البشرية، وتوسعة على الأهل والأقارب والفقراء ... فهلا كانت الأضاحي سبيلاً إلى تصالحنا مع أنفسنا، وإيجاد صيغة للتعايش السلمي تتجاوز اختلافاتنا؟

(٢٩٣) هكذا يُدار العالم!

- **٤ سبتمبر ٢٠١٧**

تعجبت كثيرًا حين قرأت أن رئيسة وزراء بورما «أون سان سو تشي»، التي يحتضنها أوباما ويقبلها في الصورة، والتي تقود حملة الإبادة الوحشية والمذابح البشعة ضد مُسلمي الروهينجا، قد حصلت على جائزة سخاروف لحرية الفكر سنة ١٩٩٠ (وهي جائزة يمنحها البرلمان الأوربي للأشخاص الذين كرسوا حياتهم للدفاع عن حقوق الإنسان وحرية الفكر). وبعدها بسنة واحدة (١٩٩١) فازت بجائزة نوبل للسلام تقديرًا لدعمها للنضال غير المستند إلى العُنف، فضلاً عن الميدالية الذهبية للكونجرس الأمريكي (وهي أرفع تقدير مدني في الولايات المتحدة) سنة ٢٠١٧، أي أثناء إدارتها لتلك المذابح!

هذه العجوز الشمطاء (الحقوقية، وداعية السلام واللاعنف وحرية الفكر) استنكرت أن تحاورها مذيعة مسلمة من هيئة الإذاعة البريطانية في أكتوبر سنة ٢٠١٣، بعد أن طالبتها المذيعة فقط بإدانة المشاعر المعادية للإسلام وموجة المذابح الموجهة ضد المسلمين في ميانمار!

هكذا يُدار العالم، وهكذا تُمنح الجوائز، وهكذا يتم التكريم ... كلمة السر: اقتلوا المسلمين، أبيدوهم، نكلوا بهم، فالإنسانية بريئة منهم، وقيمها تعلو فوق حقوقهم ... دماؤهم حلال، أموالهم حلال، أعراضهم حلال! أما الوصف الجاهز والمريح لهم فهو الإرهاب والتمرد وإثارة الفتن والقلاقل!

President Obama gets warm welcome in historic trip to Myanmar
Source: http://www.nydailynews.com/news/world/obama-warm-historic-trip-myanmar-article-1.1204844

هل علمتم لماذا يُقتلون؟ ولماذا يعيش المسلمون أذلاء حتى في أوطانهم؟ ولماذا يصمت العالم؟ تبًا لهذا العالم، ولقيمه المزدوجة، ولجوائزه!

(٢٩٤) الحقيقي والزائف!

- **٤ سبتمبر ٢٠١٧**

ثمة رواية متداولة عن المُبدع الكوميدي الانجليزي «شارلي شابلن»، مؤداها أنه شارك سنة ١٩٢١ في مسابقة لتقليده هو ذاته ... أقيمت المسابقة في كاليفورنيا بعد

أن ذاع صيته واشتهرت حركاته بين الشباب، وبالمصادفة كان «شارلي» موجودًا فقرر المشاركة في المسابقة دون أن يعلم المنظمون شخصيته الحقيقية، لكن الطريف والغريب أنه لم يفز، بل لم يصل إلى المراحل النهائية للمسابقة! ذكرتني الرواية بمشهد لأحمد مظهر (وهو البرنس الحقيقي في فيلم الأيدي الناعمة)، حين أراد أن يقوم بتمثيل دور البرنس لشركة سينمائية بعد أن أفلس، فإذا بهم يُخبرونه أنه لا يصلح! وسواء أكانت الرواية عن «شارلي شابلن» صادقة أو كاذبة، فإن مغزاها واضح: الناس لا يستطيعون غالبًا التمييز بين الحقيقي والزائف، وأكثر ما نراه أمامنا، وما نُهلل له ونُصفق له، زائف ... أكثر الناس كاذبون في أغلب المواقف والمشاهد؛ فلا المُغني العاطفي عاشق، ولا الإعلامي الصارخ وطني، ولا السياسي الخطيب بطل، ولا المتدثر بالجلباب شيخ، ولا المُمسك بالقلم مُفكر، ولا «عبد العاطي» عالِم! فكّر كثيرًا قبل أن تُصدق أحدًا أو تهلل له، أو تجعل منه أيقونة تتبرك بها، أو صنمًا تسجد له من دون الله!

(٢٩٥) انتهى الدرس أيها الأغبياء!

- **٥ سبتمبر ٢٠١٧**

إما أن تكون طرفًا في المعادلة، أو يتم تطبيقها عليك دون أن تنبس ببنت شفة؛ إما أن تكون لاعبًا مع الكبار، أو تدعهم يلعبون بك صاغرًا؛ إما أن تكون جزءًا من المشهد، أو تجلس متفرجًا تستنشق الغُبار المُثار بأقدام اللاعبين! ولكي «تكون»، فلا سبيل لك إلا العلم ... هذا ما أدركته كوريا الشمالية منذ عقود، ومضت في تنفيذه بقوة وإصرار غير عابئة بتحذيرات الكبار؛ فبعد أيام من إطلاقها صاروخًا باليستيًا سقط على بعد ١١٨٠ كيلومتر إلى الشرق من جزيرة هوكايدو (أكبر الجزر اليابانية) عابرًا أجواء اليابان، إذا بها تفاجئ العالم بإنجاز اختبار لقنبلة هيدروجينية خلّف انفجارها زلزالاً بلغت قوته (وفقًا لتقدير هيئة المساحة الجيولوجية الأمريكية) ٦,٣ درجة، وبلغت قوة التفجير ذاته مائة وعشرين ألف طن،

في حين بلغت قوة تفجير القنبلة التي ألقيت على هيروشيما خمسة عشر ألف طن، وقوة تفجير نظيرتها التي ألقيت على ناجازاكي عشرين ألف طن ... نجاح الاختبار (وفقًا للمسؤولين الغربيين أنفسهم) لا يُغير فقط قواعد اللعبة، بل يُنهيها!

هكذا جلس الرئيس الكوري الشمالي وسط قادة جيشه ضاحكًا، وكأنه يقول لأمريكا وحلفائها: انتهى الدرس أيها الأغبياء، وليُفكر أحدكم في مهاجمتي أو مساومتي ... وهكذا قدَّم الكبار للعالم درسًا موازيًا بالغ القبح والخطورة، مؤداه (على حد تعبير تشومسكي): إذا كنت تريد أن تدافع عن نفسك في مواجهتنا، فالأفضل لك أن تُحاكي كوريا الشمالية، بحيث تمثل خطرًا عسكريًا ذا مصداقية يتهددنا!

أما نحن العرب، فما زلنا نلهو في الحظيرة الخلفية للعالم ... نُطبل ونرقص حتى يغلبنا النُعاس، ثم نصحو لنعيد الكرَّة!

(٢٩٦) أنقاض الفكر اليتيمة!

- <u>٥ سبتمبر ٢٠١٧</u>

إنهم يحرقونهم أحياء، يدفنونهم أحياء، وما من باكٍ عليهم سوى من لا حيلة لهم! دعك من البكاء، فما أسهل أن تذرف الدمع الكاذب عند أول مزبلة سياسية ... إذن، أما من صوت يصفع أذنًا غير صوت الصمت الهادر في نفوس المعذبين؟ أما من شيء يمتلكه العرب والمسلمون يمكن التهديد به، أو الضغط به، أو المساومة عليه لوقف نزيف الدم المسلم في بورما، ولملمة الأشلاء المُخضَّبة بخيبات الماضي والحاضر؟ أما من إغاثات للبطون الخاوية والحناجر الجافة والأجساد المنهكة؟ أما من رحمات تنبض بها قلوبكم تجاه نساءٍ وأطفالٍ ورُضع يفترشون عراء الخزي مُجبرين على كتم صرخات الموت؟! تنامون وتصحون على مشهد الدماء، وتنامون وتصحون على مشهد «الكوليرا» وهي تفتك بأكثر من ستمائة ألف يمني وفقًا لتقديرات اللجنة الدولية للصليب الأحمر! وتتثاءبون وأنتم تشاهدون «رجل» كوريا

الشمالية (الشاب) يُواصل تحديه للغرب ويُحرك اليوم صاروخًا باليستيًا عابرًا للقارات باتجاه الساحل الغربي، بينما حليفه الروسي يُهدد ويتوعد: كوريا الشمالية ليست العراق، و«كم جونغ أون» ليس «صدام حسين»، ولن تتخلى «بيونج يانج» عن برنامجها النووي تحت أي ضغط، وأي تصعيد للهيستيريا العسكرية الغربية لا معنى له ولا تُحمد عقباه، بل ويُنذر بكارثة كونية وخسائر بشرية لا حصر لها!

أيها الهاربون في أروقة الخوف، المتدثرون بمن يُسبحون بحمد وجودكم وعطاياكم: لن نتساءل من أنتم؟، بل نقول أين أنتم؟ وإلى متى؟ ويا أيها القابضون على الجمر الأخير، لا نملك لكم سوى الدعاء، ولا أجد وصفًا يليق بعذابكم سوى ما سطره «محمود درويش» في «ذاكرة النسيان»: «لتتقدس أيديكم الرافعة وحدها جبالاً من أنقاض الفكر اليتيمة، وليتحول ظلكم المحروق الى رماد عنقاء يُجدِّدكم لتبنوا منه ومنكم مغارةً لطفل يُولَد... أمل يُولد»!

(٢٩٧) فقاعات الوهم!

- **٨ سبتمبر ٢٠١٧**

أبسط تعريف للسياسة أنها مجموعة من الإجراءات والطرق والأساليب التي تتعلق باتخاذ القرارات بُغية تنظيم الحياة في المجتمعات البشرية، لكن المصطلح – أي مصطلح – لا يكتسب مدلوله إلا ببث روح الحياة فيه بالاستخدام والممارسة، ولو أردنا وصفًا دقيقًا للسياسة في عالمنا العربي لقلنا إنها والوهم وجهان لعُملة واحدة، أو بعبارة أخرى، هي عملية اختلاق أكاذيب متتالية لمقاصد تُحددها السياقات والمنفعة، وتتدرج من تثبيت قواعد السُلطة للحائز عليها، إلى محاولات دعمها أو زعزعتها من قبل جماعات المصالح، إلى تضخم فقاعات الوهم، بحيث يغدو المسؤول – أي مسؤول – في النهاية بمثابة الكعبة التي يطوف بها جميع رعاياه قسرًا، ويغدو من استعصى منهم كأبرهة الساعي إلى هدم المقدس ... وتتأرجح حياة الوطن ما بين ابتلاع الوهم واستحسان صمت المقبرة، وتتضخم الآلام بين المأساة والمسخرة!

(٢٩٨) البحث عن السعادة!

- **٨ سبتمبر ٢٠١٧**

لقد أرسلتُ لك قاربين أيها الأحمق!

أبي؟ هل تريد أن تسمع شيئًا مُضحكًا؟ ثمة رجل كان يكابد الغرق، فمر بجانبه قارب، وقال له راكبه: «ألك حاجة؟» (يعرض عليه المساعدة)؟ فقال له «سوف ينقذني ربّي». ثم مرّ بجانبه زورق آخر، وقال له راكبه: «ألك حاجة؟» (يريد أيضًا مساعدته)، فقال له «لا، سوف ينقذني ربّي». وظل الرجل يصارع الأمواج حتى مات غرقًا، وبعدما فاضت روحه، سأل ربه: «لماذا لم تنقذني عندما كنت أغرق؟» فأجابه: «لقد أرسلتُ لك قاربين أيها الأحمق!».

ورد هذا المشهد في فيلم «البحث عن السعادة» The Pursuit of Happyness، عن السيرة الذاتية لرجل الأعمال الأمريكي «كريستوفر بول جاردنر» Christopher Paul Gardner (من مواليد ١٩٥٤). وبغض النظر عن محتوى اللقطة، تتجلى العبرة في أن هذا العالم يقبل فقط من يسبح في اتجاه التيار الغالب ولو كان مؤديًا إلى الهاوية! مستعدٌ لقتلك لو توقفت لحظة فحسب عن السير في ركاب الحشد، ولو كان حشدًا تائهًا! هذا العالم مستعدٌ لسحقك لو نحيت وجهك جانبًا، أو التفت وراءك بنظرة مغايرة!

لا تكن إمعة، لا تستسلم ظانًا بأن في الاستسلام النجاة، فلن تجدها في النهاية؛ استمع ولو لمرة واحدة لصوت العقل، ولصوت الآخر الخافت؛ سيسخرون منك، سيتهمونك، سيحاربونك ... لا عليك، يكفيك أن تقنع شخصًا واحدًا بأن الحشد يركض في اتجاه خاطئ خلف حفنة من شعير ... يكفيك أن تنعم بالتصالح مع المنطق الداخلي لذاتك، وأن تحيا في سلام مع العقل، وأن تسترجع حقك في الحياة ... يكفيك أن تكون إنسانًا!

(٢٩٩) هذا هو عالمي!

- **٩ سبتمبر ٢٠١٧**

«**هذا** هو عالمي ... وفي عالمي يجب أن تُوسخ يديك»، شعارٌ رفعته الرأسمالية، وعمَّمته العولمة، وتستدعيه كثرة من البرامج الاقتصادية كلما ألمت بالوطن ضائقة، أو فتح الفساد فاه شوقًا إلى التهام المزيد من مقدرات الحيارى!

هذا هو عالمي، وفي عالمي إما أن تكون أو لا تكون، أن تعلو أو تهبط، أن تحيا ولو كنت ميت العقل والقلب، أو تموت ولو كان عقلك وقلبك ينبضان بالحياة؛ وفي الحالتين عليك أن تكون قذرًا، دنسًا، قاسيًا، لا قلب لك، تنضح جوارحك بالخبث والكراهية! إما أن تكون سيدًا مالكًا، تُهيمن وتُسيطر وتُشرع وتبني معنا، ولنا فقط، دولة الرفاهية، وتُغازل رعاياك بالكلمات الفضفاضات تارة، وتعزف على أوتار أحلامهم بالإعلام الكاذب تارة ثانية، وتُلهب ظهورهم بسياط القهر تارة ثالثة ... وإما أن تكون عبدًا مملوكًا في حظائرنا؛ تُصارع من أجل الحياة بكل ما أوتيت من حيل؛ بالرشوة، بالسرقة، بالمكائد، بغيرها من الموبقات؛ فإذا ما قرعنا أجراسنا، وعزفنا نشيد الوطن، فعليك أن تُسرع لتلبية مطالبنا، وسداد ضرائبنا، وقضاء حوائجنا، والتسبيح بعظمة إنجازاتنا! هذا هو عالمي؛ إما أن تقبله كما هو، وتعيش فيه متسخ اليدين، نظيف المظهر وقبيح الجوهر، وإما أن تنبذه وتذهب لتقبع في عالم آخر غير مأسوفٍ عليك، إن كان بإمكانك أن تجد عالمًا آخر!

(٣٠٠) أي عبث نفعله؟!

- **١١ سبتمبر ٢٠١٧**

التقيته ليلاً مصطحبًا ولده الصغير وقد بدت عليهما علامات الإجهاد، سألته: من أين وإلى أين؟ أجاب: من الدرس وإلى البيت. قلت: ألم يزل الوقت مبكرًا على بدء الدراسة كي تحرم الصغير من استكمال عطلته؟ قال: وما لنا ألا نبدأ مبكرًا وقد

نشطت المراكز التعليمية منذ بداية أغسطس، وأوشك المدرسون على غلق باب الحجز للدروس الخصوصية، بل لقد أعلنت المدارس الخاصة عن استقبال التلاميذ قبل بدء الدراسة بأسبوعين (مقابل مبالغ مالية متفاوتة بالطبع) لتنظيمهم وإعدادهم ومراجعة ما سبق لهم دراسته! تعجبت من أن يحدث هذا في دولة متأخرة تعليميًا وحضاريًا مثل مصر، لكن الشاهد أن المصري محبٌ للتعليم والعمل، دون انتفاء لأبعاد التباهي والمفاخرة بالمكانة الاجتماعية ومجابهة الحاجات المعيشية، وأن الوالدين يسعيان بكافة السبل إلى ضمان مستقبل أفضل لأبنائهما يتجاوز الواقع الغث الذي يكابدانه. الشاهد أيضًا أن ثمة خللاً ثقافيًا في الوعي الجمعي المصري، تموج أسبابه بالإخفاقات السياسية والاقتصادية والأخلاقية للدولة، وفي معية هذه الإخفاقات خُدع المصريون بمقولة أن التعليم مكافئ للحصول على شهادة دراسية، وأن تكثيف العبء الدراسي يعني عقلاً أفضل، وأن الدروس الخصوصية هي الملاذ الآمن لأبنائهم، وأن ثمة كليات للقمة وأخرى دونها، ... إلخ، مع أن اللمحة العابرة لأوضاع الخريجين عمومًا (مستوياتهم وفرص العمل المُتاحة لهم) تؤكد العكس تمامًا. تعجبت أكثر حين قرأت أن الحكومة اليابانية قد أطلقت مؤخرًا حملة لمنع موظفيها من الرجال والنساء من العمل «حتى الموت!»، هادفةً إلى تقليص ساعات العمل الإضافية، وتحقيق التوازن بين الحياة والعمل. ومن بين فعاليات هذه الحملة دعوة الموظفين إلى مغادرة أعمالهم مبكرًا في يوم الجمعة الأخير من كل شهر، وهي الدعوة التي باءت بالفشل الذريع، حيث أظهر استطلاع للرأي أن ٣,٧ فقط من الموظفين قد استجابوا لدعوة الحكومة!

أي عبث نفعله؟ ... وكم أمامنا من الوقت كي نلحق بهم؟!

(٣٠١) أحلام تتراجع!

- **١٣ سبتمبر ٢٠١٧**

شيءٌ ما في المدن العربية، والاجتماعات العربية، يجعلها حزينة، باكية، صوتية، صارخة بالخلافات، عاكسة بصدقٍ لأحوالٍ تُبكي، وخيبات تتوالى، وأحلام

تتراجع؛ تجمعنا المصـــالح حينًا، وتفرقنا حينًا، ولا نتفق إلا على الوجع ... تذكروا: لن تخرج الأمة من أزمتها التاريخية إلا أذا أدركت كيف دخلت إليها، ولقد انتصـر المجتمع الإســـلامي الأول علي الردة الاعتقادية التي ثارت في أطرافه، لكنه انهزم بقوة أمام الردة السياسية التي نبعت من قلبه ... وما زال منهزمًا!

(٣٠٢) جَلد العبد الهارب!

- **١٤ سبتمبر ٢٠١٧**

«**جَلد** العبد الهارب» Whipping of a Fugitive Slave لوحة ترجع لســنة ١٨٤٣، للفنان الفرنســي «مارسـيل فيرديه» Marcel Verdier (١٨١٧ – ١٨٥٨) تحتفي بألم النفس والجسـد لمن سـقط في أصـفاد العبودية، وتحتفي أيضـًا بألم الوجود البشـري على الأرض، وغباء الغرور الإنســـاني، ومأســـاة النزوع إلى الهيمنة، وكيف أن العبودية على مر العصـور كانت وما ما زلت جريمة العبيد أكثر من كونها جريمة الأسياد!

في اللوحة تم تجريد العبد من ملابسه، وكذلك من طوق العبودية (طوق الأمان)، وربطه بأوتاد زُرعت في الأرض منكفأً على وجهه في ذُل ومهانة، بينما يقوم بجلده عبدٌ آخر مثله، يحرص على توطَّيد مكانة سيده وتنفيذ أوامره خوفًا أو طمعًا ... أما السيد فيقف مزهوًا، متكأً على مِرفقه، يُتابع تنفيذ عقوبته دون تلطيخ يديه بقذارة العبيد، وبجواره تجلس زوجته محتضـــنة ابنتها المُدللة، وأمامها على الأرض فتاة من الإماء تجلس مُلتمســة لرضـاها، منتظرةً لأوامرها! وتتدرج اللوحة في الإفصـاح عن فلســفتها بمشــهد العبد الصـغير المُلقى إلى جوار الكلب (في الركن الأيســر من اللوحة)، وبجواره الأصــفاد تنتظره، بينما العبيد الآخرون منشــغلون بإنجاز أعمال ســيدهم بهمةٍ ولا مبالاة ... ورغم كثرتهم، وقدرتهم على تحرير أنفســهم، وامتداد الســهول الخضــراء من حولهم، إلا أنهم لا يُبدون أية رغبة في التحرر، أو إمكانية احتواء عيونهم لمتســعٍ من الأرض بخلاف ربوة قهرهم، أو حتى بوادر غضــب إزاء ما يحدث لهم!

Whipping of a Fugitive Slave
Source: http://slaveryimages.org/images/collection/large/Image-2.JPG

ولا تخلو اللوحة من مشـــاهد أخرى ناطقة؛ منها مشـــهدٌ لعبدٍ مُقيد اليدين من الخلف، تائه النظرات، يجر قدميه خاشـــعًا لتنفيذ عقوبة أخرى، ومشـــهد امرأته خلفه وقد اكتسى وجهها بالحزن فنكسته ألمًا، ومشهد وريقات خضراء تُطل من أعلى وكأنها تتساءل عما يقترفه الإنسان في حق أخيه وحق نفسه!

تأمل اللوحة، وستجدها تجسيدًا حيًا لواقعنا؛ واقع تسلط السادة على العبيد، وتسلط العبيد على العبيد؛ وواقع الماضي والحاضر والمستقبل في مجتمعاتنا المقهورة، وإن اختلفت صورة العبد وصورة السيد ... وليستغرقك مثلي السؤال: كيف أمكن لكل هؤلاء الناس أن يحتملوا قلة من الأســـياد لا يملكون من الســـلطان إلا ما أعطوهم، ولا من القدرة على ذلك إلا بقدر احتمالهم الأذى منهم ... إنه لأمر جلل حقًا، وأدعى إلى الألم منه إلى العجب!

(٣٠٣) أنا مش قصير أوزعة!

- **١٧ سبتمبر ٢٠١٧**

يستوقفني دائمًا مشهد الفنان الكوميدي الراحل «عبد المنعم مدبولي» (الدكتور خشبة) في فيلم «مطاردة غرامية»، حين دخل عليه مريض يُعاني نفسيًا من قصر القامة، فاختصر طريق العلاج، ولم يشغل نفسه ببحث حالته النفسية وطرق تجاوزها، بل طلب منه أن يُردد بصوتٍ عالٍ عبارة «أنا مش قصير أوزعة ... أنا طويل وأهبل» لمدة ثلاثة شهور!

مشهد عبقري، يُجسد الحالة العربية بامتياز، ويعكس الطريقة الحكومية المُثلى لعلاج المشكلات؛ الناس يُعانون الإحباط، لا تسل عن السبب، بل اخرج عليهم بخطبةٍ عصماء تُجري الدماء في عروقهم! إنهم لا يجدون قوت يومهم، لا بأس، زُف إليهم البشارات السعيدة الزائفة عبر الفضائيات! شباب الجامعات يفتقدون الانتماء، لا تنشغل بمسائل كبناء الوعي وتحقيق الكرامة والعدالة الاجتماعية وغيرها من مقومات الانتماء الفعلية، بل دعهم يؤدون تحية العلم ويرددون الهتاف الوطني!

هذا هو المنهج الأثير؛ تجميل المظهر دون الجوهر؛ الاكتفاء بما ينطق به اللسان، وإن كان مناقضًا للواقع، دون الالتفات إلى ما وقر في القلب والعقل وصدَّقه السلوك والعمل ... ردَّدنا، وما زلنا نُردد، وسوف نُردد، إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولا!

(٣٠٤) البقاء للأكثر نفاقًا!

- **١٧ سبتمبر ٢٠١٧**

ألا تلاحظ معي أن ثمة قفزة هائلة في فنون التزلف والنفاق، بلغت حدًا غير مسبوق لم يكن لأحد أن يتوقعه، وأن من يمارسون هذه الفنون ليسوا صغارًا يدفعهم الإحساس بالدونية إلى التزلف، بل هم إعلاميون وفنانون ومسؤولون ورجال دين كبار يتسابقون في تطبيق مقولة (البقاء للأكثر نفاقًا)؟ ألا تلاحظ أن ثمة هوسًا جنسيًا يتجلى في فتاوى نكاح الزوجة الميتة ونكاح البهائم، وتباهي الممثلات بنشر

صـــــــورهن عاريات، وارتفاع معدلات التحرش بالمرأة فكرًا وتطبيقًا؟ ألا تلاحظ إفلاس الحلول المطروحة لمشـــكلاتنا الحقيقية، وتســـارع محاولات طمس عورات الباطن بشـعارات تُمثل قشـرة ظاهرية أنيقة، وإن كانت شـفافة بما يكفي لفضـح عبثية الباطن وتهالك بنيته؟ ألم تقرأ يومًا أن الأمم تموت عندما تعجز عن التمييز بين الحق والباطل، أو عندما تســـتحســـن عدم التمييز بينهما، أو عندما تميز بينهما ولكن تأخذها العزة بالإثم فتأبى البوح به؟

ألم تقرأ أن الحضارات لا تموت قتلاً، بل تموت انتحارًا، وأن ما سبق هو الانتحار الحضاري بعينه؟!

(٣٠٥) احذر معاشرة الجُهال!

- **<u>١٩ سبتمبر ٢٠١٧</u>**

احذر معاشـرة الجُهال وإن حملوا الألقاب وتدثروا بدثار العلم، فإن الأصـل غالب، والطبع لص! يُحكى أن كلبًا قد ضـاق ذرعًا بسـخرية الآخرين منه كلما لهث أمام لحمٍ أو لعق عظمًا، فذهب إلى الأســد بوصـفه ملك الغابة، وقال له: «أريدك أن تُغير اسمي كي أحظى باحترام من حولي»، فقال له الأســـــد: «أنت كلب لا يمكن أن تتغير، فحتى لو غيرنا اسمك فلن تتغير طباعك». لكن الكلب أصـــــر على طلبه، فقال له الأسد: «نختبرك، فإذا نجحت سوف نغير اسمك»، فجيء للكلب بوعاءٍ فيه لحم وعظام، وقيل له: «تجلس أمام هذا الوعاء إلى يوم غد، فإذا لم تأكله فســوف نغير اسمك».

جلس الكلب أمام هذا الوعاء يُحدث نفســه قائلاً: «غدًا ســوف يكون لي اســم آخر، وأحظى بالاحترام والتقدير في الغابة»، وظل ينظر إلى اللحم والعظام ويحاول أن يصـبر نفسـه حتى غلب عليه طبعه، فقال لنفســه: «وماذا في اسمي من عيب، أنا كلب ابن كلب، وجدي كلب، كلب كلب وما له الكلب؟» ... فأكل اللحم ولعق العظام وعاد إلى أصله!

(٣٠٦) الآبائية!

- **١٩ سبتمبر ٢٠١٧**

«**الآبائية**» في السياسة، الفن، التعليم، العادات والتقاليد، وحتى في بعض الفتاوى الاجتهادية (أي الاتباع الأعمى لخطى الأولين في هذه الأمور) لا تحتمل إلا الجمود؛ صيرورة الحياة تفرض على العقل إعادة تقييم الموروث والمراجعة الذاتية في ضوء الثوابت الدينية والقيمية ومتطلبات العصر. «الآبائية» رغبة وليست منطقًا عقليًا، وقد وقفت من قبل حائلاً دون قبول الجاهلية للإسلام وما قبله من أديان، واقرأ إن شئت قوله تعالى: «وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون» (الزخرف: ٢٣)، وقوله: «وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون» (الأعراف: ٢٨)، وقوله: «وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون» (المائدة: ١٠٤). لا يعني ذلك رفض الموروث بأكمله، أو اتخاذ التجديد سبيلاً للطعن في ثوابت الدين ونبذ السُنة المحمدية وتشويه السلف، كما لا يعني إخلاء الساحة لرويبضات يخلطون الحق بالباطل، بل يعني إعطاء العقل حقه في الانشغال بمشكلات واقعه، وتحقيق ذاته، وخوض تجربة الاجتهاد كما خاضها الأولون، طالما كانت لديه منطلقاته الثابتة، وطالما كان مؤهلاً لذلك بالعلم والمنهج.

(٣٠٧) بطونٌ تكاد تنفجر من الجهل!

- **١٩ سبتمبر ٢٠١٧**

«***صديقي لا تأكل نفسك***» ... عنوان كتاب ممتع أعدت قراءته مؤخرًا للكاتب الصحفي «عبد الوهاب مطاوع»، حيث يورد في الفصل السادس منه، والذي جاء تحت عنوان «ولكنها تدور» قصة حكيم صيني زار الهند منذ ألف وثلاثمائة سنة،

وفيها شاهد رجلاً يطوف بالقرى مرتديًا حزامًا من النحاس فوق بطنه، ووا ضعًا فوق رأسه مشعلاً مضيئًا، فإذا سُئل عن سبب تجوله بهذه الهيئة الغريبة قال: إن عقلي عظيمٌ إلى درجة أخشى معها أن تنفجر بطني من المعرفة إذا لم أرتد هذا الحزام، أما المشعل فإني أضعه فوق رأسي لأبدد به ظلام الجهل!

يتذكر «عبد الوهاب مطاوع» هذه القصة ويُغالب نفسه لكي يمنعها من الضحك، ويتذكر أيضًا مقولة «سقراط»: «إنني أعرف شيئًا واحدًا، هو أنني لا أعرف شيئًا»، ومقولة الإمام «أبي حنيفة النعمان» حين سُئل ذات مرة: «هذا الذي تفتي به، أهو الحق الذي لا شك فيه؟»، فأجاب متحيرًا: «والله لا أدري، لعله الباطل الذي لا شك فيه!»، ومقولة الإمام «الشافعي» الذي سُئل مرة عن مسألة فقهية فسكت، فقيل له: «ألا تجيب رحمك الله؟»، فقال: «والله لا أجيب حتى أعرف هل الفضل في سكوتي أم في جوابي».

لكني في الحقيقة أغالب نفسي لكي أمنعها من البكاء كلما قرأت هذه القصة، ورأيت أناسًا من حولي (في الفضائيات، ومواقع التواصل الافتراضي، والتواصل الفعلي) يُزينون للناس أن بطونهم تكاد تنفجر من المعرفة، في حين أنها تكاد تنفجر من الجهل!

هؤلاء – على حد تعبير «عبد الوهاب مطاوع» – هم الذين كذبوا الأنبياء بلا استثناء من قبل، وهم الذين كذبوا «جاليليو» حين قال إن الشمس هي مركز الكون، وهم الذين كذبوا الفلاسفة وحاكموهم ... وهؤلاء أيضًا الآن هم الذين أسقطوا عالمنا العربي في حظائر الجهل والتخلف، وهم الذين شوهوا وعي العامة والدهماء، وهم الذين أخرجوا جامعاتنا من قوائم التصنيفات الدولية، وهم الذين نشروا الفقر والأمراض، وهم الذين دعروا الإعلام والفن ... هؤلاء هم الذين أفسدوا حياتنا وزيفوا تاريخنا وضيعوا مستقبلنا ... هؤلاء من حولك في كل مكان ... فاحذرهم!

(٣٠٨) احتفظ بأذنيك!

- **٢٥ سبتمبر ٢٠١٧**

يُحكى أن أحد الملوك تأخرتْ زوجته في إنجاب ولي العهد، فأرسل في إثر الأطباء من كل أرجاء المملكة، وشاء الله أن يُجري شفاء الملكة على أيديهم، فحملتْ بولي العهد، وطار الملك بذلك فرحًا وأخذ يعد الأيام لمقدم الأمير. وعندما وضعت الملكة وليدها كانت دهشة الجميع كبيرة، فقد كان المولود بأذنٍ واحدة! انزعج الملك لهذا وخشي أن يصبح لدى الأمير الصغير عقدة نفسية تحول بينه وبين كرسيّ الحكم، فجمع وزراءه ومستشاريه وعرض عليهم الأمر، فقام أحد المستشارين وقال له: الأمر بسيط أيها الملك، اقطع أذن كل المواليد الجُدد، وبذلك يتشابهون مع سمو الأمير!

أُعجب الملك بالفكرة وصارت عادة تلك البلاد أنه كلما وُلد مولود قطعوا له أُذنًا، وما أن مضت عشرات السنين حتى غدا المجتمع كله بأذن واحدة! وحدث أن شابًا حضر إلى المملكة وكان له أذنان كما هو في أصل خلقة البشر، فاستغرب سكان المملكة من هذه الظاهرة الغريبة وجعلوه محط سخرية، وكانوا لا ينادونه إلا «ذا الأذنين» حتى ضاق بهم ذرعًا وقرر أن يقطع أذنه ليصير واحدًا منهم!

احتفظ بأذنيك، وإن سخروا منك ونابذوك، فاختلافك سر قلقهم!

(٣٠٩) مجتمع من الأوغاد!

- **٢٦ سبتمبر ٢٠١٧**

سلوكيات العرب في الشوارع، في وسائل المواصلات، في المصالح الحكومية، في المدارس والجامعات، على شاشات الفضائيات، في حفلات العُري الصيفية على الشواطئ، وحفلات الشذوذ المُعلنة والمطوية ... تؤكد ما ذكره «نجيب محفوظ» في «المرايا»، حين كتب يقول: «بت أعتقد أن الناس أوغاد لا خلاق لهم، وأنه من الخير

لهم أن يعترفوا بذلك، وأن يقيموا حياتهم على دعامة من هذا الاعتراف ... وهكذا تكون المشكلة الأخلاقية الجديدة هي: كيف نكفل الصالح العام والسعادة البشرية في مجتمع من الأوغاد؟».

المشكلة ليست في جيلٍ واحدٍ أو اثنين أو حتى ثلاثة، وإنما في أجيال عديدة متتالية ومتشابكة، أفرزت أسوأ ما رأته بلاد العرب عبر تاريخها!

(٣١٠) نصف الكأس الفارغ!

- **<u>١٦ أكتوبر ٢٠١٧</u>**

قال لي ناصحًا: لا تنظر إلى نصف الكأس الفارغ، بل انظر إلى نصفه الممتلئ بالماء ... قلت: كلماتٌ خدَّاعات، يُراد لنا بها أن نرى بنصف عين، وأن نُفكر بنصف عقل، وأن نُحب بنصف قلب، وأن نكتفي بأنصاف الحلول؛ فلا يستقيم لنا منهج، ولا تكتمل لنا فكرة، ولا يرتسم أمامنا مستقبل ... وما هكذا تكون فلسفة من أراد وطنًا يفر إليه، فلا تلتهمه في الطريق خيبات الأمل الكاذب!

لقد علمتنا الفلسفة يا صديقي أن ننظر إلى الكأس بأكمله، فندرك بدقة مقدار ما به بالفعل من ماء، وحجم ما به من فراغ، وأن نفحص ما إذا كان الماء صفوًا نقيًا أم آسنًا لا يروي ظمأ الظامئين؟! ثابتًا وإلى زيادة، أم متبخرًا وإلى نقصان؟! وأن نعرف ما إذا كان الكأس نظيفًا أم ملوثًا؟! صلبًا أم قابلاً للكسر بسهولة؟! ونسأل قبل ذلك كله: لمن يكون الكأس؟ ومَن مِن حقه أن يرتوي بالماء؟!

(٣١١) الجودة ... اطبخي يا جارية، كلف يا سيدي!

- **<u>١٦ أكتوبر ٢٠١٧</u>**

«**اطبخي** يا جارية ... كلف يا سيدي» ... مثلٌ شعبي ساخر يُستشهد به إزاء من يطلب من جاريته إعداد طعام فاخر أو عالي الجودة في حين أنه لا يُنفق، أو لا يمتلك مقومات الطبخة التي يشتهيها! الشرط العادل والمنطقي الذي وضعته الجارية هو أن

يُكلف السيد؛ أن يُوفر لها المال اللازم لشراء أفضل المكونات الصحية والطازجة ... صحيح أنه لابد للجارية من أن تمتلك مهارة الطبخ، لكنها في كل الأحوال مُقيدة بالمُتاح، ولن تتضح مهارتها إلا بما يُوفره لها السيد من إمكانات! هكذا الحال إزاء أية سلعة؛ إن أردت جودتها وقدرتها على المنافسة في الأسواق فعليك أن تُنفق، إلا في نظامنا التعليمي وجامعاتنا ... «السيد» يريد الجودة والاعتماد، لكن دون أن يُنفق مليمًا واحدًا، وعلى «الجارية: الكليات والأقسام العلمية» أن تُنفذ وتُنفق، عليها أن تقوم بتطوير البنية التحتية على نفقتها، وأن تقوم بكتابة وطباعة وتصوير آلاف الأوراق على نفقتها، وأن تمارس نشاطًا ثقافيًا فعالاً على نفقتها، وأن تقوم بالبحث العلمي الجاد على نفقتها، وأن تقوم بالتحليل الإحصائي لنتائجها واستبياناتها على نفقتها، وأن تضع مقترحات متابعة طلابها وتقوم بتنفيذها على نفقتها ... وأن تُسدد من جيبها الفارغ رسوم التقدم للاعتماد حتى يمنحها «السيد» صك الجودة!

«السيد» لا تشغله أوضاع الجارية، ولا هموم الجارية، ولا طموحات الجارية ... «السيد» يريد أن يأكل، وأن يستمتع بمذاق جيد، وأن ينظر إلى الجارية ليلاً فيراها في أبهى صورها، ثم يخرج صباحًا ليُبشر في وسائل الإعلام بجودة ما لديه، ونجاح خطته للتطوير والارتقاء والمنافسة ... أما «الجارية» فلها الله!

(٣١٢) بشاعة أبشع من أن توصف!

- **<u>٢٠ أكتوبر ٢٠١٧</u>**

مع كل شروق للشمس فوق الأرض العربية، ومع كل إطلالة في صحف اليوم، وكل نشرة إخبارية، وكل خطوة في الطرقات المستوية والملتوية، وكل نقاش في التجمعات الأسرية، وكل لقاء تفرضه طبيعة العمل والمسؤولية، وكل حوار في المقاهي الشعبية والفعاليات الثقافية ... تتأكد أن الواقع أبشع مما تتصور، وأن بشاعته لا يُمكن أن تُختصر في كلمات، أو تفرد لها الصفحات؛ مرارات البشاعة تسكن القلوب والعقول وتُوجه الأفعال ... بشاعة أبشع من أن توصف!

(٣١٣) فقط تتبدل الوجوه والأدوار!

- **٣٠ أكتوبر ٢٠١٧**

اقرأوا مقدمة «ابن خلدون» إن أردتم تفسير ما يحدث الآن، وفهمه في ضوء نظائره التاريخية، واستشراف نماذجه المستقبلية. إنها جدلية التاريخ وديناميكيته التي لا تنفي وحدة الطبيعة الإنسانية، ولا تحول دون تناسخ العصبيات ذاتها، وارتياد مسالك الترف ذاتها! نعم، التاريخ يتدفق، لكنه لدينا، ولدى كل الشعوب التي ألجمتها صراعات الحكم، وغشيها جمود الفكر، مجرد وقائع تتكرر؛ وكأنها قصةٌ واحدة، مؤلفها واحد، ومُخرجها واحد ... فقط تتبدل الوجوه والأدوار، وتصطبغ الخلفيات بأبعادٍ زمانية مكانية متباعدة، وأحيانًا متقاربة!

التاريخ لا يكذب، وإن زيفناه أو أُجبرنا على تزييفه، فما بين سطور أوراقه الصفراء ألسنة تشهد بالحق ولو بعد حين، واقرأ إن شئت وصف «ابن خلدون» له:

«إذ هو في ظاهره لا يزيد عن أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى، تنمو فيها أقوال، وتُضرب فيها الأمثال، وتطرف فيها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال واتسع فيها المجال وعمروا الأرض حتى نادي بهم الارتحال ... وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة وعريق»!

(٣١٤) وعد بلفور!

- **٣ نوفمبر ٢٠١٧**

وعد بلفور؟ ... نعم، هو وعد من لا يملك لمن لا يستحق، وعدٌ أراح العالم من اليهود ليُعذب بهم العرب، لكنه في كل الأحوال كان وعدًا نافذًا، لأنه وعد من امتلك القوة، ولأنه وعدٌ توافرت له إرادة التنفيذ من الواعد والموعود؛ نظرت حكومة

صـــاحب الجلالة بعين العطف إلى اليهود فمنحتهم أرضـــنا وديارنا ... وعدت ظلمًا فأوفت قهرًا!

منذ ذلك الحين ونحن غرقي في بحار وعود حكوماتنا ومســــؤولينا؛ هذا وعدٌ باســـترداد الأرض، وذاك وعدٌ بالعدالة والكرامة ... هذا وعدٌ بالحرية، وذاك وعدٌ بالنهضـــة ... هذا وعدٌ باجتياز عُنق الزجاجة، وذاك وعدٌ بدولة العلم والرفاهية ... بضـــعة عقود ونحن نتجرع الوعد تلو الوعد! أبدًا ما كان وعد بلفور هو الســـبب، ولكن فساد الواعد وجهل الموعود! إنه الوعد بالوهم، يغدو وعيدًا إن لم تبتلع الوهم راضيًا، ثم تتغنى به شعارًا في غيابات القهر!

(٣١٥) مَكْلَمة!

- **٢ ديسمبر ٢٠١٧**

تلك هي الكلمة الجامعة لوصـــف حالنا في العالم العربي؛ أفعالنا وردود أفعالنا، ســياســاتنا وتشــريعاتنا، حروبنا وانكســاراتنا، برامجنا التطويرية وخُططنا الآنية والمســتقبلية؛ نُهزم ونُذبح حضــاريًا فنثأر لأنفســنا بمَكْلَمة! تُقيد أيدينا وتُكمم أفواهنا وتُســلب حريتنا فنطلب الحرية زيفًا بمَكْلَمة! تُغتصــب أراضــينا وتُســرق مواردنا وتُنتهك حقوقنا فنقيم لاســتردادها المَكْلَمة تلو المَكْلَمة، ونُرضــي أنفســنا ونخدع رعايانا بمَكْلَمة! إعلامنا مَكْلَمة هنا في معية مَكْلَمة هناك، تُلقي الضــوء على مَكْلَمة هنا عن مَكْلَمة هناك؛ ثقافتنا مَكْلَمة تُناطح مَكْلَمة، ترفع أو تحط من قدر صـــاحب مَكْلَمة؛ نُعالج مرضـــانا وهمًا بمَكْلَمة، ونطور التعليم عبثًا بمَكْلَمة؛ ننشــد القيم بمَكْلَمة، ونتدين بمَكْلَمة، ونُحقق هويتنا بمَكْلَمة، ونواجه المســتقبل بمَكْلَمة! ألســنتنا أطول من هاماتنا، وصــراخنا أشــد وقعًا من أفعالنا ... نتكلم ونغني ونتدشـــق بالمعاني الغائبة حتى لنظن أنَّا قد فعلنا ما قلنا، ثم نُعيد قول ما قلنا ونفخر بأننا قد بلغنا أقصـــى طموحاتنا، وبذلنا الجُهد في تحريك ألســـنتنا، وانتصـــرنا بخُطبة زلزلت الأرض تحت أقدام أعدائنا! نهيم في أودية الكلام لنبني

أمجادنا، ونُحصن أنفسنا من حسد العيون، فبالكلمات نكون أو لا نكون ... ونسينا قول المولى: (كبُر مقتًا عند الله أن تقولوا ما تفعلون)!

(٣١٦) القياصرة الجُدد للبنتاجون!

- **٨ ديسمبر ٢٠١٧**

في كتابيهما المشترك: «*أميركا قادمة! القياصرة الجدد للبنتاجون*» (٢٠٠٣)، حذَّر الباحثان الفرنسيان «جيرار شاليان» Gérard Chaliand و«أرنو بلان» Arnaud Blin الولايات المتحدة من مغبة إذلال العرب أكثر مما ينبغي! فغضب المقهورين قد يكون كبيرًا، والانتقام قد يجيء عاجلاً او آجلاً، وليس من مصلحة الغرب أن يؤلب ضده ثلاثمائة مليون عربي ومليار مسلم! لكن يبدو أن لأمريكا رأي آخر؛ فالعرب في الذاكرة الأمريكية، وفي الخطاب السياسي الغربي الحديث والمعاصر، ليسوا أكثر من رمز للمذلة والمهانة والغباء، وهم لا ينتصرون إلا في معارك وهمية، أو على أنفسهم، وفي أحسن أحوالهم ينتصرون في غزواتهم بالفراش، وربما وهم متسلحون بالفياجرا ... هذا ما يتجلى في إقدام أمريكا على إعدام صدام حسين وقت نحر العرب والمسلمين لأضاحيهم (٢٠٠٦)، ثم في إعلانها القدس عاصمة لإسرائيل بعد أيام من احتفال العرب والمسلمين بذكرى المولد النبوي الشريف (٢٠١٧)، وقبل ذلك وبعده كثير!

لا أتساءل لماذا يُمعن الغرب في إذلال العرب، فقد عهدنا سياسته مزيجًا من التيارات الدينية والعلمانية والمثالية والواقعية والمكيافيلية، فضلاً عن الجمع الفلسفي المتناقض بين توماس هوبز من جهة (الإنسان ذئب لأخيه الإنسان)، وجان جاك روسو وإيمانويل كانط من جهة أخرى (الطبيعة البشرية قابلة للتهذيب كي تنبذ الشر وتميل إلى الخير)، لكن التساؤلات الأكثر إلحاحًا هي تلك التي تتعلق بالعرب والمسلمين أنفسهم: لماذا لا يغارون على كرامتهم؟ لماذا يقبلون الذل ويتجرعونه بلا حراك؟ لماذا يسمح وُلاتهم بتكريس حالة الخوف والاتكالية

والإحباط والشلل وسلب الإرادة في بلدانهم؟ لماذا يكتفون برد فعل باهت لحظي وارتجالي؟ ألا يمكن لولاتهم أن يُصبحوا أبطالاً قوميين إن اتخذوا مواقف جادة تتسق وضخامة مواردهم المادية والبشرية؟

قطعًا هم ليسوا سُكارى، فشارب الخمر يصحو بعد سكرته، لكن شيئًا ما أقوى من الخمر يُصيبهم بالشلل ... أحار في وصفه!

(٣١٧) عبد الغني عجاج وكتابه: شخصيات عبرت أفق خيالي!

- **١٦ ديسمبر ٢٠١٧**

يمُن الله علينا من حينٍ إلى آخر بأناسٍ يُبددون حيرة النفس التواقة إلى الأمل؛ فإذا هم كالنجوم يضيئون لنا درب الفكر والروح، فيستقيمون لنا منهجًا في الحياة، ونستقيم لهم حبًا واستلهامًا لقيم الصدق والعطاء اللامتناهية. وثمة لحظات تمر بالمرء، أو يمر بها، تختلف عن غيرها في حدثها وقوته ومدى تأثيره؛ فلئن كان بكل لحظة حدث، فإن من الأحداث لما يصنع تاريخًا، وإن منها لما يعمُر الذاكرة ويبعث فيها الحياة دومًا. من اللحظات ما يجد المرء بداخله تحريضًا قويًا على انتزاعها من مجرى تدفقها الزمني، بُغية تأملها في هدوءٍ بعيدًا عن صخب الحياة اليومية، ورغبةً في الإمساك بهذا أو ذاك من الأحداث التي جسدت لقاءً بأشخاص باتوا يتجولون بمآثرهم في طرقات القلب والعقل؛ أشخاص كان الالتقاء بهم بمثابة محطة تغيير لنظرتك إلى ذاتك، وإلى العالم ... ولأنهم الأقرب، تستطيع باطمئنان أن تُخبرهم بتلك الأشياء التي لم ولن تخبر بها أحدًا غيرهم، تشاركهم الرجاءات المطوية، والطموحات المُلحة للوطن، تجد فيهم ولديهم أحلامك التي تحققت أو استعصى عليها الواقع، وهمومك التي أرقتك وحدك طويلاً ... هم أثمن من أن تحصرهم علاقة افتراضية لا يُترجمها الواقع إلى حقائق مُفعمة بالإنسانية!

هذا ما أشعر به حين أكتب عن أناسٍ صافحتني بهم رحلة الحياة، وأهدتني إياهم في لحظات فارقة مبددة لحيرة النفس التواقة إلى المعقول في عالم يعشق

اللامعقول. ومن هؤلاء، بل وفي مقدمتهم، صديقي القاص والأديب والمستشار الإعلامي الأستاذ عبد الغني عجاج. معرفته تُمثل لي إحدى المحطات الفكرية والحياتية الفارقة، والتي أتوقف أمامها كثيرًا متأملاً لروعة الجمع بين بساطة الإنسان، وبلاغة الأديب، وهدوء العالِم، وأناقة الروح، وعزف الكلمات، وفكر الأستاذ حين تفر إليه ملتمسًا حكمة الاتساق المنطقي إزاء واقع يُصر على التواطؤ ضد كل ما هو عقلي، وكل ما هو منطقي.

هذا ما أستلهمه أيضًا من كتابه الصادر مؤخرًا عن دار صفصافة للنشر بالقاهرة، تحت عنوان «*شخصيات عبرت أفق خيالي*»، والذي يرسم فيه ببراعة لوحةً متناسقة من الشخصيات التي التقاها، بكلمات تجمع بين جمال التنوع اللوني، وعذوبة الموسيقى، وروعة النحت، وسيمترية التجريد، ولهفة الرحالة لزيارة العديد من عوالم الذاكرة القريبة والبعيدة.

عنوان الكتاب يثير الرغبة في التأمل، إذ قد يظن القارئ أنه أمام أطياف عابرة من صنع خيال المؤلف، لكن هذا الظن سرعان ما يتلاشى حين تطوي صفحة الغلاف لتجد نفسك في خضم عالم يموج بالواقعية المتعالية، تلك الواقعية التي تعكس عمق الإحساس بالتجربة المعيشة، والارتقاء بها في فضاء عقلي يموج بالمشاعر الصادقة، ويتعالى بها عن سوءات الواقع. ولئن كان «العابر» هو المار بالمكان دون أن يقيم فيه، فإن «عبور» شخصيات الكتاب في حياة المؤلف لم يكن عبورًا آنيًا، لكنه – إن صح التعبير – كان عبورًا مقيمًا؛ عبورًا ملتحمًا بقوة تعبير الذات المتأملة لكيف العبور وتأثيره، متوحدٌ بالذات العابرة والمعبر بها.

بعبارة أخرى، إذا كان تزاوج الخيال بالواقع يُنجب القصيدة أو اللوحة الفنية، فقد نجح الكاتب في رسم الصور المتلقاة لشخصيات الكتاب بحيث تُعبر عن إمكانات إنسانية متحققة وأخرى قابلة للتحقق. وكأن هذه هي الشخصيات التي ارتسمت في زحام العقل خيالاً وتُرجمت باللقاء، حيث يتحول الخيال إلى واقع،

والواقع إلى خيال متجسد. أشكر للمؤلف إهدائي نسخة من هذا الكتاب القيم، وأشكر له أن خصني فيه بمقال يموج بمشاعر المودة الراقية، وأسأل الله له دوام التألق والإبداع.

(٣١٨) تريد الحقيقة؟!

- **<u>٢٣ ديسمبر ٢٠١٧</u>**

تريد الحقيقة؟ حسنًا؛ هي ما لم تبح به، بل وتخشى البوح به، هي تلك المشاعر التي ظلت حتى الآن حبيسة صدرك، هي تلك الأفكار التي احتفظت بها دومًا لنفسك، فقط لنفسك ... هي ما تعرفه عن نفسك وعن الآخرين ولا تنطق به، هي تلك الكلمات التي تكاد تنفجر بداخلك حين تلقى أشخاصًا تقرأ الكذب والوقاحة في عيونهم وتجد نفسك مضطرًا لاصطناع ابتسامة هي بدورها كاذبة ... هي تلك المعاني المنزوية خلف ما تكتب، المعتصرة ألمًا خلف ما تقوم به من أعمال تشعر بتفاهتها ... هي ذلك الخنجر المرشوق في قلبك وعقلك وأنت تمارس يوميًا طقوس الحياة في العالم العربي! الحقيقة يا صديقي بداخلي وداخلك، ولو بُحنا لأوجعنا أنفسنا وأوجعنا الآخرين!

(٣١٩) تمسك بالحُلم!

- **<u>٣١ ديسمبر ٢٠١٧</u>**

وحدها أوراق الشجر التي تهتز تحت قطرات المطر أمام شرفتي تُدرك مدى عطشنا لشيء ما؛ شيء لا نعرفه! ووحده صقيع الليل يُدرك مدى حاجتنا لدفء الحب في عالم تمزقه الأنانية، وتقتله الكراهية! ووحدها السنة التي تمضي وعقارب الساعة التي تنسحب مسرعةً تدرك أن زماننا العربي قد تثاقل علينا حتى توقف، وأن المُبهم أو اللامعنى يحتل أعماقنا ويُهدد خطواتنا! ووحدها ابتسامة القلب الحزينة تُدرك أن طلاسم الوهم ومتاهات الجهالة تُهددنا ... ليس أمامنا سوى أن نشعل

شمعة، وأن نضعها في كوة أمل كي تقوى على مجابهة رياح عاتية تزلزلنا، ولنتمسك بما لا يعرف الموت: الحُلم!

(٣٢٠) السطحيون!

- **١١ يناير ٢٠١٨**

السطحيون هم المُبشَّرون بالصحة والجاه والشهرة، والمُصطنعون هم أداة الجهل لسحق العقل والحق والعدالة ... صحيح أن معظم الناس هم أناسٌ آخرون، آرائهم آراء شخص آخر، حياتهم تقليد وعشقهم اقتباس، لكن أسوأ رذيلة هي أن تكون سطحيًا أو مُصطنعًا، وأفظع ما في الخيال (على حد تعبير أوسكار ويلد) أنك تستفيق منه على الحقيقة المرة!

(٣٢١) انظر حولك!

- **١٢ يناير ٢٠١٨**

من مفارقات العرب أنهم يستهلكون التكنولوجيا والمظاهر الغربية على مستوى التباهي بالحداثة، ويستهلكون أحاديث وإنجازات أسلافهم على مستوى التباهي بحضارة الماضي، لكنهم يعزفون عن استهلاك العقل، بل ويقتلعونه من رؤوسهم وكأنه داءٌ يُؤرقهم! أنظر حولك، وسترى كثرة من وجوه لا تصلح إلا للتسول، من الحاضر والماضي، إلا من رحم ربي ... هل يمكن قراءة المستقبل في وجوه حفنة من المتسولين؟!

(٣٢٢) من وجع إلى آخر!

- **٢٣ فبراير ٢٠١٨**

كلما ابتعدت عن الفيس بوك لعملٍ يستغرقني، أو لبحثٍ يصطحبني في عالمه النوعي، أعود مناشدًا قلمي ألا يبث إلا أملا، راجيًا ألا تكون قطرات مداده دموعًا تسطر قصة عبثية أخرى من قصص الوطن. لكني أمام قسوة ولا معقولية الواقع

أراني كمن يلتمس الغفران لوطنٍ لا يستحقه، أو كمن ينشد البسمة على وجوه حفر القهر معالمها، فبدا الحزن متحجرًا في قسماتها ... أعود لأجد تكالب الجياع على ديار العرب والمسلمين قد ازداد ضراوة فبات يفوق تكالب الأكلة على قصعتها؛ وأجد صراعات الكبار قد اشتدت ما بين تقليمٍ للأظافر أو تكسيرٍ للعظام أو استبعاد تام من حلبة الهيمنة، تلك التي تصدعت وباتت قاب قوسين أو أدني من الانهيار على رؤوس الجميع؛ وأجد شرذمة الإعلاميين المحسوبين على الوطن في غيِّهم يعمهون، بل هم لفنون النفاق والتزلف والتزييف مُجددون؛ كلما رأوا أزمةً مستقبلةً لأوديتنا بشروا بها وقالوا هذا عارضٌ ممطرنا، وربما كانوا يدرون أو لا يدرون أنها ريحٌ فيها عذابٌ أليم! ويأبى قلمي إلا أن يُذكرني بوطن ينهشه الدواخل والخوارج، ويعلو فيه صخب التوافه، ويمرح في أروقته رويبضات عقولهم كأسنمة البخت العجاف، فيتململ بين يدي ويفر مثلما يفر كل شيء في وطني ... من وجعٍ إلى آخر!

(٣٢٣) معضلة مونكاوزن الثلاثية!

- <u>٣ مارس ٢٠١٨</u>

«**بارون** مونكاوزن» Baron Munchausen، نبيل ألماني خيالي اخترع شخصيته الكاتب الألماني «رودولف إريك راسب» Rudolf Erich Raspe (١٧٣٦ – ١٧٩٤) في كتابٍ له سنة ١٧٨٥. وفي هذا المشهد الذي جسده الرسام الألماني «أوسكار هيرفورث» Oskar Herrfurth (١٨٦٢ – ١٩٣٤) في إحدى أشهر لوحاته، يُحاول البارون أن يُنقذ نفسه من الغرق في النهر بشكلٍ اعتباطي مُضحك وهو يمتطي الحصان؛ بسحب شعر رأسه إلى أعلى! كانت إحدى النتائج التي تمخضت عن هذه القصة ما يُعرف في فلسفة العلم باسم «معضلة مونكاوزن الثلاثية» Munchausen Trilemma؛ هي ثلاثية لأنها تتضمن ثلاثة خيارات وحيدة للمعضلة التي لا حل لها، أعني تلك القائلة إننا لا نستطيع إثبات صحة أي شيء أو إثبات عدم صحته. وكان أول من قام بالحديث عن المعضلة هو الفيلسوف الألماني «هانز ألبرت» Hans Albert.

مؤدى المعضلة – وحلولها غير المُشبعة – أنك إذا حاولت أن تُثبت صحة فكرة أو نظرية ما، فعليك الإتيان بالدليل، لكن الدليل الذي تسوقه يحتاج بدوره إلى أدلة جزئية تُثبت صحته، وهذه الأخيرة تستلزم أيضًا أدلة تبررها ... وهكذا إلى ما لا نهاية، تماماً كمشهد مونكاوزن الذي يحاول – كما تُصور اللوحة – إنقاذ نفسه بسحب نفسه من شعره إلى أعلى! أما الخيارات المُتاحة لك إزاء المُعضلة فهي: إما أن يكون الدليل دليلاً على صحة الفكرة، وتكون الفكرة دليلاً على صحة الدليل، كمن يُفسر الماء بالماء (الحجة الدائرية)؛ وإما أن تكون الدلائل متسلسلة تراجعية لامتناهية وتطالب دومًا بالمزيد (الحجة الارتدادية)؛ وإما أن تُحدد نقطة انطلاق تُسلم بها بلا برهان (الحجة الأكسيوماتيكية).

Muenchhausen Herrfurth, Source: https://upload.wikimedia.org/wikipedia/commons/3/3b/Muenchhausen_Herrfurth_7_500x789.jpg

ثمة بالطبع ما يحيّر العقل هنا ويربكه تمامًا، ويدفع به إلى إعادة نبش الأفكار ومساءلتها من الجذور، لكنَّ ذلك لا يعني أبدًا أن نرضى بضياع البوصلة أو تأجيل

المحاولة. فالعِلم صرحٌ شيّدته عقول البشر على امتداد الزمن. لا شيء فيه ثابت بالتأكيد، وما من حقيقة نهائية، بل نظريات تخضع قسرًا للتطوير والتعديل والإضافة والحذف والنسخ ... وما من رؤية أو فكرة أو نظرية بشرية تعلو فوق النقد!

ما بالك إذن بمن يُسوق لفكرته ورؤيته وكأنها نصٌ مقدس لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟

(٣٢٤) الخوف والنفاق!

- <u>**٤ مارس ٢٠١٨**</u>

الخوف والنفاق وليدان شرعيان للدولة الجائرة، لا يسودان إلا في مجتمع انتفت فيه العدالة، حيث يكون طالب الحق فاجرًا مطلوبًا للعدالة، وتارك الحق مُطيعًا مبرءًا من كل عيب، ويغدو الولاء الخالص انعدامًا للتفكير، بل للحاجة إليه، والخوف الذليل سبيلاً للأمان، والنفاق الوقح طريقًا للرضا والعطاء، وغض البصر والعقل عن اللامعقول منهجًا للبقاء ... وحيث يُصبح التدين رداءً مزدانًا بمصالح علية القوم، والنجاح بُساطًا منسوجًا بخيوط تتشابك بين أصابعهم ... وحيث تتغاضى عن «لماذا»، وتجهل «كيف»، ولا تُدرك «أين» ... وترقص متى أرادوا!

(٣٢٥) ابتسامة أمل مكبلة بالأغلال!

- <u>**١٤ مارس ٢٠١٨**</u>

غشيتني حالة تأمل مصحوبة بالحزن والغثيان، كتلك التي تغشاني عادةً كلما رأيت وجه أحدهم ممن يتخذ من النفاق أداة للقفز السريع، ومن الزيف والتضليل نهجًا لتضخيم الذات الخاوية في زمنٍ كثرت فيه الذوات الفقاعية الهائمة هنا وهناك ... ولم يُخرجني من هذه الحالة سوى بكاء طفلٍ صغير يفترش حجر أبيه، تكاد نظراته تُحاكم أجيالاً برمتها؛ كأنه يسأل: من أنتم، ماذا فعلتم؟ وماذا قدمتم لأنفسكم ولنا؟ تنابزتم وجبُنتم وتنازلتم وتهاويتم، ولم تتركوا لمن خلفكم إلا

واحدًا من خيارين لا ثالث لهما: إما أن يكون عبدًا في مزرعة النفاق، لا حق له سوى أن يأكل ويشرب ويسمن أو ينحف أو يلقى حتفه وقتما شاء سادته وكيفما أرادوا، وإما أن يكون فارسًا بلا سيف في ساحة القهر، فأنَّى له الحياة! وقف الأب حاملاً ولده، ملوحًا له بقطعة من الحلوى، تمامًا كما نُلوح كذبًا بوهم المستقبل لأطفالنا، فسكت الطفل وابتسم ... ابتسامة أمل مكبَّل بأغلال الماضي والحاضر!

(٣٢٦) اللقطة!

- **١٤ مارس ٢٠١٨**

مشهد اعتدنا عليه، وقد تراه كثيرًا خلال الأيام المقبلة ... يذهب أحدهم للإدلاء بصوته الانتخابي مسلحًا بهاتفه المحمول، وما أن يُدلي بصوته حتى يلتقط لنفسه صورة داخل اللجنة أو أمامها قبل أن يجف الحبر الفوسفوري أو ينمحي أثره من على إصبعه، ثم لا يلبث أن يرفع الصورة على الفيسبوك مُزينة بشعارٍ من تلك التي تلوكها الألسنة وفقًا لطبيعة المرحلة! حاولت جاهدًا أن أجد تفسيرًا منطقيًا مقبولاً لهذا المشهد المتكرر في كل «احتفالية انتخابية» – إن صح التعبير – لكن محاولاتي باءت بالفشل، مثلما هو الحال إزاء السؤال عن مغزى ربط المصريين بين الانتخابات والرقص أمام اللجان!

سألت أحدهم فأجاب وقد أخذته العزة بالتفاهة والمظهرية الكاذبة: هو إثبات موقف! قلت: لمن؟ ... إن كنت تُثبت موقفًا لنفسك ففكرك وعملك يكفيان، وقبل ذلك ثقتك بذاتك؛ وإن كنت تُثبت موقفًا لآخرين فهذا يتوقف على تحديد ماهيتهم؟؛ إن كانوا من الأصدقاء فهم يعرفونك جيدًا، ولست في حاجة إلى أن تُثبت لهم موقفًا، أو تؤسس لهم سلوكًا تدفعهم إلى الاقتداء به!؛ وإن كانوا من غير الأصدقاء أو ممن يُخالفونك الرأي فلن يُجدي نفعًا أن ترفع لهم صورتك، بل عليك بالحوار المنطقي الجاد معهم! وإن كانوا يتبعون جهة بعينها تتملقها أو تخشى بطشها فأنت مُصابٌ بمسٍ من النفاق أو الخوف، وربما كنت في حاجة إلى رُقية علمية نفسية وإنسانية عاجلة!

(٣٢٧) عيد الأم!

- **١٤ مارس ٢٠١٨**

«**أمي**» ليست عيدًا واحدًا، بل مجموعة أعياد متجددة؛ صورتها التي ترتسم دومًا في مُخيلتي «عيد»، صوتها المتدفق لحنًا في أذني «عيد»، دفء أنفاسها المنثور عطرًا عبر دروب حياتي «عيد»، ذكراها التي تحتل عقلي وقلبي وكل كياني «عيد»، خلاياها التي تملأ جسدي «عيد»!

أتدرون ما العيد؟ العيد حين أنطق بالكلمة فأقول: «أمي»، وحين أشتاق لكلمة: «أمي»، وحين أدعو: رحم الله «أمي»! العيد هو «أمي» حين كانت، و«أمي» حين غابت فكان حضورها أقوى، و«أمي» حين ألقاها بعدما أعبر بوابة المغادرين ... سلام عليك يا أروع نساء الكون، وأحب نساء الكون ... سلامٌ على «أمي».

(٣٢٨) الشخصنة والتقديس!

- **١٤ مارس ٢٠١٨**

من بديهيات التفكير المنطقي السليم ألا تُشخصن فكرة أو قضية أو نظرية، ولذا قيل: يُعرف الرجال بالحق ولا يُعرف الحق بالرجال. صحيح أنهم الأدلاء عليه (أي الرجال)، لكن طلب الحق والتعلق به شيء، وطلب الشخص والتعلق به إلى حد التقديس شيءٌ آخر، فالأخير نوعٌ من أنواع الرق والعبودية! وعلى المنوال ذاته تمتنع شخصنة العلم أو الدين أو المؤسسة، سواء أكانت صغيرةً أو كبيرة، فما بالك بمن يُشخصن دولة بأكملها أو وطنًا بُرمته؟!

(٣٢٩) لا يُدرك الميت أنه ميت!

- **١٤ مارس ٢٠١٨**

عجبت لمن يتلقى الصفعة تلو الأخرى على قفاه ثم تراه يُهلل مُشيدًا بكفاءة الصفعة ودقة يد الصافع، بل وربما تراقص على إيقاعها ... هذا في أي مكانٍ وزمانٍ

إما أن يكون مقهورًا يرى الصفعات أسبابًا للحياة، أو مخمورًا أسكرته بقايا كؤوس سادته، أو مقيدًا في كهفٍ أفلاطوني يظن وهمه حقيقة، ويظن النور خارجه وهمًا ... حقًا لا يُدرك الميت أنه ميت، فالموت مؤلم فقط لمن هو حوله، يرونه بلا سمع ولا بصر ... والأمر ذاته لمن كان غبيًا!

(٣٣٠) نحن وإسرائيل!

- **١١ أبريل ٢٠١٨**

هل من المنطق أن تنعم إسرائيل بالأمن والسلام برعاية عربية – غربية، في الوقت الذي تنزف فيه شرايين العرب؟ وهل من قبيل المصادفة أن نتناسى جرائم إسرائيل ونتخذها وليًا، في الوقت الذي نعمد فيه إلى قتل بعضنا البعض بأيدينا وبمؤامراتنا وبعجزنا عن التعايش معًا؟ أنظر إلى خريطة الوطن العربي وستجد في كل بقعة دماء، وفي كل رُكن خيانة، ومن كل فجٍ يخرج منافقًا يبيع كرامته وعروبته بثمنٍ بخس! شاهد فضائيات العرب وستجد صراخًا لا تمله الأفواه والآذان، أسواقًا للنخاسة الفكرية لا يفتأ روادها يُمارسون عُهرًا عقليًا، ولا تفتأ أقلامهم تبول فُحشًا مقوليًا ... تجول في شوارع العرب لترى العجب، ولتردد معي بصوتٍ عال: ويلٌ للعرب من شر قد اقترب!

(٣٣١) الجزائر من وهران إلى تيبازة!

- **٢٠ أبريل ٢٠١٨**

مع أول خطوة تخطوها فوق أرض الجزائر، تُدرك أن علاقات الشعوب العربية (على مستوى الالتحام الإنساني المباشر) تعلو فوق أية أحكام إعلامية أو قيود سياسية، وأن الوعي المشترك بوحدة التاريخ والهوية والطموحات والمشكلات (على مستوى الشارع العربي) يفوق أية عوائق حدودية أو أيديولوجية، ويتجاوز أية تفاهات رياضية! في رحلتي الأولى إلى الجزائر، للمشاركة في فعاليات الندوة الدولية عن

الفلسفة في الوطن العربي أوائل القرن الحادي والعشرين (مسارات ثقافية وتجارب بحثية) خلال يومي الحادي عشر والثاني عشر من مارس ٢٠١٥، تجولت في شوارع وميادين العاصمة الجزائر، وفي شوارع وميادين وهران الباهية، لأجد شعبًا شديد الطيبة، شديد الرقي، شديد الكرم، شديد العشق لكل ما هو مصري ... ترتسم على وجوه أبنائه – على اختلاف مستوياتهم الثقافية – ابتسامات غير مصطنعة، ترسلها قلوب نقية مفعمة بالمودة والمحبة؛ يُحدثك أحدهم عن ذكرياته بمصر، وآخر عن مشاركته في حرب أكتوبر، وثالث عن مُعلم مصري درَّس له منذ سنوات أو عقود، ويسألك الجميع بلهفة عن مصر: كيف حال المحروسة؟ وفي رحاب وهران التقيت كوكبة من رواد الفكر من مختلف أنحاء العالم العربي، جميعهم على قلب رجل واحد، يكابدون هموم وطموحات الوطن الواحد، والحاضر الواحد، والمستقبل الواحد!

ودعت مدينة وهران صباحًا وهي ناعسة مبللة بندى الصباح، فبدت أجمل من عيون عذراء عربية تعزف بنظراتها لحنًا رائعًا لا ينقطع ... السلام على وهران.

مدينة وهران الجزائرية (أو الباهية كم يطيب لأهلها أن يسموها). هي ثاني أكبر مدينة في الجزائر، وعاصمة الغرب الجزائري. تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط في أقصى غرب البلاد، وميناؤها من أشهر موانئ المتوسط، وهي مركز تجاري هام. ترتبط وهران بداخل البلاد وبتلمسان والمغرب بخط للسكك الحديدية، وتبعد عن الجزائر العاصمة بحوالي ٤٥٠ كم، حيث تستغرق رحلة الطائرة ما يقرب من ٥٠ دقيقة. تأسيس وهران يعود عمومًا إلى التجار الأندلسيين والمغاربة في القرن العاشر الميلادي (٩٣٧م). احتلها الإسبان سنة ١٥٠٩ الذين طردوا على أيدي العثمانيين عام ١٧٩٢م، إلى أن احتلها الفرنسيون العام ١٨٣٨م حتى استقلال الجزائر.

تجمع وهران بين طرازين للمعمار؛ أحدهما حديث على أيدي الفرنسيين، والثاني قديم على الطراز الأندلسي الإسباني، وهي محاطة بكروم العنب، وطقسها لطيف

ويسود المعيشة فيها جو من الهدوء، أما شوارعها فتمتلئ بالحركة والنشاط من الصباح حتى الخامسة مساءً تقريبًا. ومن معالم المدينة حي الدرب، وحي المدينة الحديثة وساحة الأول من نوفمبر، وجامع الباشا المبني سنة ١٧٩٦م. وثمة أرصفة عريضة على الشاطئ يحلو فيها التنزه عصرًا ومساء. أهم الاثار الموجودة في مدينة وهران قلعة سانتا كروز، وهي عبارة عن قلعة كبيرة تقع في أعلى جبل في المدينة يُعرف باسم مرجاجو، بناها الإسبان لحماية المدينة، وكذلك قصر الباي الرائع قرب الميناء، أي قرب جبل مرجاجو، ويحتوي على معالم تاريخية رائعة، وهو عبارة عن قصر وقلعة وحصن في آن واحد.

عُدت إلى الجزائر في منتصف أبريل ٢٠١٨، حيث شاركت في المؤتمر الدولي «قراءة في إبستيمولوجيا العلوم الإنسانية» الذي نظمته كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة الجيلالي بو نعامة بخميس مليانة، بمشاركة مخبر التربية والإبستيمولوجيا. ذهبت إليها محملاً بذكريات لها إيقاعها الخاص عن زيارتي السابقة لوهران الباهية، مُشبعًا بشوق طاغي الحضور إلى أرض ما برحت تأسرني روحًا وعقلاً، فإذا بها تُجدد معزوفة وجودٍ رائعة، يمتزج فيها سحر الطبيعة بعبق التاريخ بقلوب نقية مفعمة بالمحبة.

تجولت ما بين تيبازة (وهي لؤلؤة جزائرية على البحر المتوسط) حيث جبل شنوة الأخضر المحتضن لأجمل شواطئ العالم ... وشرشال، وفوكة، وبو إسماعيل، ومليانة حيث السور الروماني ومتحف الأمير عبد القادر ومتحف صناعة الأسلحة ... وحيثما حللت وجدت أناسًا يجمعهم بك الوعي المشترك بوحدة التاريخ والهوية والطموحات والمشكلات، والهم العربي بحاضر ومستقبل الوطن ... وحوارات مثمرة مطولة في معية القهوة الجزائرية وفطائر الكوكا وحلوى الهلاليات وقلب اللوز.

المشكلات واحدة، والطموحات واحدة، ورباط الشعوب يستعصي على أية أيديولوجيا بمحمولاتها المذهبية أو السياسية. ولئن خانتنا سياسات العروبة يومًا، فقلوب العرب ما زالت تنبض بالهوية وحُلم اللقاء!

(٣٣٢) بم تُفكر؟!

- **١ مايو ٢٠١٨**

يُبادرني الفيس بوك كلما بدأت تصفحه بسؤاله المُعتاد: بم تُفكر؟ أراه أحيانًا كصديق حميم تدفعه الشفقة بي إلى طلب البوح بما يُؤرقني، وأراه أحيانًا أخرى كشرطي أو مُحقق يتربص بي، ويرغب في اتهامي بارتكاب جريمة التفكير، ولا تُزعجني الإجابة أو هدف متلقيها؛ فنحن جميعًا متورطون في الحياة بالوطن العربي، إذن نحن جميعًا موضع شفقة، ونحن جميعًا موضع اتهام! نحن جميعًا نعرف أن ثمة قواعد لاقتراف إثم الحياة في الوطن العربي؛ أولها وافق، وثانيها نافق، وثالثها وافق ونافق ... فمنا من يلعب بإتقان، ومنا من يجهل، ومنا من يأبى ... وتتناثر أشلاء العقل ويتصاعد نباح القافلة!

(٣٣٣) أهلاً بك ابنتي في عالمنا!

- **١ مايو ٢٠١٨**

رغم سعادتي بتعيين ابنتي المهندسة «ندا صلاح» بوظيفة معيدة بقسم هندسة الحاسب والنظم بكلية الهندسة – جامعة الإسكندرية، تتويجًا لما بذلته من جُهد خلال سنوات دراستها، إلا أنني أشفق عليها من عالمنا الجامعي الصعب والمُراوغ؛ فهو عالمٌ يقتطع من مباهج الحياة بأكثر مما يمنح، ومن طمأنينة العقل بأكثر مما يهب! ما إن تنغمس فيه حتى تُدرك أن زيفه يفوق صدقه، وأن جده يُكابد انتعاشة هزله! وفي أجواء الإحباط الحضاري الذي نعيشه ينشط فيه أنصاف وأرباع وأشباه الباحثين، وتعلو منابر الوهم، وتتجمل دُثر العلم الكاذب، ويجترئ الأقزام، ولا يتورع بعضهم عن نشر غسيلهم القذر أمام الملأ صراعًا على مالٍ أو منصب أو مكانة، ولا يخجل بعضهم من سداد فاتورة النفاق كاملة نُشدانًا للرضا والترقي والقفز فوق أكتاف العباد ... وقبل ذلك وبعده، هو عالمٌ لا يحظى برعاية الدولة

بقدر ما تطالبه وتنتظر منه! صحيح أن ثمة قطاعات عريضة في مصر والعالم العربي تعاني مما يُعاني منه قطاع البحث العلمي والتعليم الجامعي، لكن معاناة هذا الأخير أشد خطورة وأقوى تأثيرًا، لأنه المركز الذي تنبعث منه موجات كافة القطاعات الأخرى، والبؤرة التي تتلاقى أو تتفرق عندها ثقافة أمة بأكملها ... ربما كان الأمل في أجيال لاحقة تبرأ من شوائب المراهقة الفكرية، وتتحرر من قوالب اللامعقول، ولا تعتاد عبثية حاضرنا، طلبًا لمستقبل أفضل ... حفظك الله ابنتي، ووفقك لما يُحب ويرضى.

(٣٣٤) متى يكف الحمقى عن التناسل؟!

- **١ مايو ٢٠١٨**

خُسران القضية لا يعني بالضرورة أنها غير عادلة، بل قد يعني أن من يُدافع عنها إما فاشل؛ لا يمتلك إمكانات تبيانها ودحض الزيف عنها، أو خائن؛ يُتاجر بها تحقيقًا لمكاسب ذاتية وآنية زائلة وزائفة ... وما بين الفشل والخيانة تاريخٌ طويل لأمة العرب، اقتربا خلاله وتصافحا وتزاوجا فأنجبا الهزيمة! الإسلام قضية عادلة، فلسطين قضية عادلة، التعليم قضية عادلة، الثقافة قضية عادلة، الحرية قضية عادلة، والعدالة ذاتها قضية عادلة! لكن المُحامي دومًا إما فاشل أو خائن، أو فاشل وخائن معًا، لذا نخسر قضايانا الواحدة تلو الأخرى حتى أدمنا الهزائم!

متى إذن سنكون بخير ... حسنًا؛ سنكون بخير حين يكف هؤلاء طوعًا أو كرهًا عن اعتلاء منابرنا ومنصاتنا ... وحين يكف الحمقى عن التناسل!

(٣٣٥) خيار الغباء!

- **٢٢ يونيو ٢٠١٨**

لم يعد الغباء في وطني مجرد نقصٍ في الذكاء، أو عجز عن الفهم، بل أصبح خيارًا أثيرًا يُجسد الجشع والصلف من جهة، والفقر والخوف من جهة أخرى؛ غنى الأغنياء سببه فقر الفقراء، وتسلط الرعاة سببه خوف الرعية؛ والنتيجة اللازمة في

النهاية: مجتمعٌ يسوده الغباء والأغبياء! المشكلة أنك إن كنت ذا عقل، فأنت مجبرٌ على أن تعيش وتتعايش مع الغباء، ليس لك أن تنسحب، أو حتى تموت، متى شئت ... إنهم لا يسمحون لك بمثل هذا الترف!

(٣٣٦) عجبت لحال العرب!

- **٢٣ يونيو ٢٠١٨**

عجبت لحال العرب؛ يتحدثون عن شرعية الحلم بالانتصارات الرياضية، وهم في أوطانهم محرومون من شرعية الوجود، وإن وُجدوا فهم محرومون من شرعية الحياة الأدمية ... الأحلام لا تتجزأ، مثلما لا تتجزأ الحياة، ولا تتجزأ شروطها ومقوماتها!

(٣٣٧) العرب وكرة القدم!

- **٢٥ يونيو ٢٠١٨**

سعيدٌ بانتهاء المشاركة العربية في كأس العالم لكرة القدم، لا لشيء إلا لكونها أوسع الساحات الزائفة لإشباع الرغبات الوهمية في النصر؛ مندهشٌ مما أثارته من ضجة وورع وريبة وابتهال وسخط كمشتركٍ وحيد لمن بلغ منهم اليأس مبلغه والقهر منتهاه؛ حزينٌ على توظيفها سياسيًا لتعميق الملهاة وسط رُكام الأزمات الخانقة؛ مبتئسٌ من اختصار الوطن في كرة تتقاذفها الأقدام، واقتصار غزواته على ملاعب تعكس فشله الحضاري وعبثيته الحياتية؛ منذهلٌ من المقارنة بين حماس التشجيع لتسديدات الأقدام وفتور الاستجابة لصرخات العقل؛ مشمئزٌ من رائحة الفساد التي تنبعث من كل فجٍ فلا تُبقي ولا تذر ... قلق على العرب من شرٍ قد اقترب!

(٣٣٨) قدرك أن تلتقيهم!

- **٢٦ يونيو ٢٠١٨**

قدرُك أن تلتقيهم؛ أن تُعتقل داخل دائرة تفاهاتهم؛ أن تُحاصر باللامعقول، وتُعتصر بعبثيتهم روحًا وجسدًا؛ أن تُجبر على التعايش مع أفكارهم وصخبهم وأطماعهم،

وأن يستهلكونك حتى آخر قطرة وعي، وآخر نبضة صبر، وآخر خيط يرسم معالم هويتك! إنه قدرُك، لابد أن تعيشــه، فلا يُجدي معه الفرار ... وتنفس إن اســتطعت بقلمك، حين تخلو إله ويخلو إليك!

(٣٣٩) كل فعل يُقاس بنتائجه!

- **٣٠ يونيو ٢٠١٨**

كل فعلٍ يُقاس بنتائجه، وكل ثورة تُقاس بما حققته من أهدافٍ وإفرازات ومصالح ومفاسد، والثورات الناجحة لا تخرج من الحناجر وتعود إليها، بل تخرج من العقول وتمتد إلى الواقع! ما من ثورة اندلعت إلا وحملت ثلاثة مطالب على الأقل: (الحرية – الديموقراطية – العدالة الاجتماعية)، وهذه جميعًا يُلخصــــــها المبدأ: «أعطني ما أستحق في مُناخٍ صحي وحُر، وسأعطيك أكثر مما تتوقع» ... بديهيات يجب أن نضعها في اعتبارنا حين نسترجع فعاليات أية ثورة من ثورات ما يُسمى الربيع العربي ... وانظر – قبل أن تُصـــــدر الأحكام – في وجوه الناس: أباتوا راضـــين مطمئنين، أم ما زالوا يثورون في صمت وقهر على ما آل إليه حالهم؟!

(٣٤٠) هلمي أيتها الكلمات البائسة!

- **٣٠ يونيو ٢٠١٨**

ترى الفقراء يُســحقون والأغنياء يمرحون ويســعدون، وترى أرباب العلم يُهمشــون وأرباب الجهالة يســـــــودون، وترى أهل الكفاءة يُبعدون وأرباب الثقة يُقرَّبون ... والغريب أنهم يُسمون ذلك إصلاحًا اقتصاديًا! هلمي أيتها الكلمات البائسة كي تصفي ما هو أشد بؤسًا منك!

(٣٤١) انظر في المرآه!

- **٤ يوليو ٢٠١٨**

تريد أن تعرف أحوال البلاد والعباد؟ لا تلجأ إلى أي من وســائل الإعلام – أيًا كانت هويتها – كي لا تصطدم بسدنة المصالح وبائعي الوهم، ولا تكتفي بتصفح

وســائل التواصــل الاجتماعي لتقرأ للداني والقاصــي، والجاهل والمتعلم، والمتثاقف والمثقف؛ فقط تجول في الشوارع وتأمل وجوه الناس، استمع لأحاديثهم وتعامل معهم. لن تجد شيئًا سوى الحُزن والاكتئاب والملل، وكأن الشوارع سجونٌ تُستباح فيها كل وسائل الصراع من أجل البقاء، وكأن الذوات زنزانات منعزلة تحتضن الألم ... تجاعيد الوجوه الشابة وقسمات العجائز وأنين الحيارى! كل ذلك يُوحي بأن ثمة جُرعات مكثفة من القهر والاكتئاب قد أذابها ولاة الأمر في المياه، فشرب الناس حتى أدمنوا وطلبوا المزيد ... عُد إلى بيتك وانظر في المرآة وحاول التبسم، ستجد شخصًا من داخلك ينظر إليك بقرف، وقد يصفعك مستنكرًا هذا العته والجنون!

(٣٤٢) لا تتعجب، إنها الحياة في الوطن العربي الحزين!

- **٥ يوليو ٢٠١٨**

ثمة من يستطيعون العيش بألف وجه، وثمة من يعجزون عن العيش حتى بالوجه الحقيقي! ثمة من يتضورون جوعًا، وثمة من يتضورون شبعًا؛ ثمة من يضحكون، وثمة مضحوك عليهم؛ ثمة من يغسلون أوجاعهم بالدموع، وثمة من يتوضؤون بدموع ضحاياهم؛ ثمة من يُثرثرون بالتوافه فيصفق لهم الدهماء، وثمة من يعجزون عن البوح بآلامهم حتى لأقرب الناس إليهم! لا تتعجب، إنها الحياة في الوطن العربي الحزين!

(٣٤٣) العمل مع الأغبياء يُشكل خطرًا على حياتك!

- **٧ يوليو ٢٠١٨**

مشكلة متعددة الأبعاد يثيرها هذا التقرير الطبي القديم نسبيًا؛ فمن جهة، لا يوجد تعريف كافٍ ووافٍ وواضح ومحدد للغباء، فقد أتهمك أو تتهمني بالغباء استنادًا إلى القناعات الفكرية والتكوين الثقافي والبيئي؛ ومن جهة ثانية، لا يقتصر الاصطدام بالأغبياء (لاسيما في الوطن العربي) على مجال العمل، بل قد يكون

أشد وطأة في متابعاتك لوسائل الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي، أو في حياتك اليومية وتعاملاتك مع الآخرين في الشوارع والمؤسسات وغيرها؛ ومن جهة ثالثة، لا يُدرك الغبي أنه غبي ولو توافر أمامه وأمامك ألف دليل، بل وقد يتهمك أنت بالغباء إن حاولت مواجهته أو حتى توجيهه!

في دراسة أجريت بالمركز الطبي بجامعة ليندبيرج في السويد Sweden's Lindbergh University Medical Center سنة ٢٠٠٢، اتضح أن البلهاء – إن كانوا يشاركونك العمل – يشكلون خطرًا بالغًا على حياتك، شأنهم في ذلك شأن كافة الملوثات الغذائية والبيئية؛ فالإجهاد هو أحد الأسباب الرئيسة للإصابة بالنوبات القلبية، والعمل مع الأغبياء بشكلٍ يومي يمثل واحدًا من أخطر أشكال الإجهاد، لأنه يُضاعف أعباء الشخص مرتين أو ثلاثة.

تشير الدكتورة «داجمار أندرسون» Dagmar Andersson – التي أشرفت على الدراسة – إلى أن فريقها البحثي قد أخضع للفحص خمسمائة مريض بالنوبات القلبية للوقوف على أسباب إصابتهم. وقد أصابت الدهشة أعضاء الفريق حين وجدوا أن ٦٢٪ من هؤلاء المرضى ليست لديهم نوعًا عوامل جسدية للإصابة بالمرض، وبسؤالهم عن عاداتهم الحياتية، أجابوا جميعًا بأنهم يعملون مع أشخاص أغبياء، وأن الإصابة فاجأت أكثرهم بعد أقل من ١٢ ساعة من المواجهة مع أحد هؤلاء الحمقى! أضافت أندرسون: «يمكنك الإقلال من التدخين أو الإقلاع عنه، ويمكنك تحسين نظامك الغذائي، لكن معظم الناس لا يستطيعون مواجهة الغباء، إذ يشعرون أنه لا يوجد شيء يمكنهم فعله حياله، لذا تتراكم إحباطاتهم حتى تنفجر في النهاية»!

(٣٤٤) يصطرخون فيها!

- **١٢ يوليو ٢٠١٨**

ما يشهده العالم العربي من أحداثٍ وقرارات بات مستعصيًا على الفهم، متمردًا على أبسط قواعد المنطق! هو ليس تجريفًا للعقل، لكنه خصاءٌ وانتزاعٌ له من البنية الحضارية برمتها ليتعملق اللامعقول ويربو ويُهيمن، وحين يُهيمن اللامعقول تفقد

الدهشــة مغزاها، وتجف رحم الوعي، وتُنتزع أبعاد الوجود، ليغدو الوطن قبضــته، وحاضــره ومســتقبله وأحلامه مطويات بيمينه! لم يعد الأمر مقتصــرًا على تشــويه الوعي أو تجهيل البشــر، لكنه تعدى ذلك إلى تفريغ الإنســانية من كافة مقوماتها؛ الأمـل، الرجـاء، الحـب، الحُلم، الانتمـاء، الثقـة، العطـاء، والقـدرة على العيش والتعايش ... فلا يتبقى في النهاية ســوى الخوف، يغشــى مســوخًا يصــطرخون فيها، كباسط كفيه إلى الحياة وما هو ببالغها!

(٣٤٥) بول فيرابند ... ضد المنهج!

- **١٥ يوليو ٢٠١٨**

صورة نادرة لفيلســوف العلم الأمريكي – النمســوي الأصـل «بول كارل فيرابند» Paul Karl Feyerabend (١٩٢٤ – ١٩٩٤) وهو يمارس نشــاطه المفضــَّل على حد قوله: «غسل الأطباق» لمساعدة زوجته «جرازيا بوريني» Grazia Borrini.

اشــتهر «فيرابند» بكتابه: «ضــد المنهج» Against Method، وبالشــعار المثير للجدل: «أي شــيء ممكن» Anything goes. لا يعني الشــعار أنه لا توجد أية قيود منهجية من أي نوع في مسيرة العلم، لكنه أراد به أن يكون ردًا تهكميًا على أولئك الذين يصــرون على أن ثمة قاعدة ملزمة على الإطلاق في الممارســة العلمية ينبغي الإخذ بها؛ فالقاعدة الوحيدة الملزمة على الإطلاق بالنســبة للعلم هي «أي شــيء ممكن»، لأن هذه القاعدة تمنع اللاشــيء Nothing. وقد عبّر عن ذلك بقوله: «أي شيء ممكن ...، هذا ليس مبدأً أدافع عنه، لكنه مبدأٌ مفروض على ذلك العقلاني الذي يعشق المبادئ، والذي يأخذ أيضًا العلم على محمل الجد».

بعبـارة أخرى، هـاجم «فيرابنـد» العلم، لا لأنـه يعتقـد حقـًا أن العلم ليس أكثر صــحة من الدين والتنجيم، وإنما لأنه أدرك تفوق العلم الواســع على كافة أنماط المعرفة الأخرى ... كانت اعتراضاته على العلم أخلاقية وسياسية أكثر منها معرفية ... كان يخشــى من أن يُصــبح العلم، بســبب قوته الهائلة، قوة شمولية تسـحق كل

منافسيه. وباختصار، إجابات العلم عن تساؤلاتنا ليست نهائية، ولا ينبغي أن تكون كذلك، ولا ينبغي على الجمهور الذي يُسدد الضرائب من أجل البحث العلمي أن يتجرع النظريات والتكنولوجيات كحقائق مطلقة، فالحقيقة في حد ذاتها مصطلح بلاغي، والإكراه على تقبل حقائق مطلقة – مهما كانت نبيلة – غالبًا ما يُتوج بالطغيان. في نهاية حياته كان «فيرابند» ميالاً إلى العزلة، ووصف ممارسته في غسل الأطباق بأنه النشاط الأهم في حياته، ربما لأنه كان يستشعر متعة إعادة الشيء إلى حالته الأصلية!

Paul Feyerabend (photo © Grazia Borrini-Feyerabend)
Source: https://philosophynow.org/media/images/issues/126/Paul%20Feyerabend.jpg

ما بالك إذن ونحن نتجرع الأكاذيب في عالمنا العربي على مدار الساعة كحقائق مطلقة، ولا نملك حتى حق تعرية الأشياء والمفاهيم التي تراكمت عليها قاذورات المصالح والأيديولوجيات؛ ما بالنا نُجمد الحياة فيما يُراد لنا ... والويلٌ لمن أبى؟!

(٣٤٦) ثمة شيء خطأ!

- **<u>١٨ يوليو ٢٠١٨</u>**

ثمة شـــيء خطأ لا يبوحون به، ولا نفهمه، ولن نفهمه! ما كل هذا العك والظلم والقهر؟ ما كل هذه القوانين والتشـريعات والقرارات التي تتبدى للمواطن – العادي وغير العادي – كأخطبوط ضــخم يدس أذرعه في جيوبهم ليبتلع آخر ما تبقى لهم، وفي صدورهم لينتزع أرواحهم، وفي ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ليشوّه هويتهم؟ ما كل هذه الأحداث والحوادث والإشـاعات والتخمينات والخيبات والانكسـارات والارتعاشـات التي تنتاب الشـارع العربي حتى لتراه هشًـا ومنكسـرًا ومصـدومًا ومفزوعًا مع كل نبضــة قلب أو دقة ســاعة؟ لماذا ترى الناس ســُكارى وما هم بســُكارى، تُطاردهم كوابيس النهار وتؤرق مضــجعهم بالليل لحظة النهوض وإشـراقة الصباح؟ لماذا يُصـر المسـؤولون والمُشـرعون على سحق رعاياهم وتدميرهم يوميًا بجباية ونكاية وغواية؟ لماذا لا يتركون لنا خيارًا ســوى موت الوطن أو التيه فيه أو الفرار لمن استطاع إليه سبيلا؟ ... لماذا أكتب؟ ولمن؟ وما الفائدة؟ ... لا شيء!

(٣٤٧) استيقاظ كاذب!

- **<u>٢٩ يوليو ٢٠١٨</u>**

«**اســتيقاظ** كاذب» False awakening ... إنه التعبير الأكثر دلالة على الحالة العربية منذ عقود خلت ... وهي حالة تتكرر إعلاميًا وحكوميًا وشعبويًا مع أغلب – إن لم يكن كل – برامجنا التي نزعم أنها إصـــلاحية أو انطلاقية، في حين أنها تقتطع من حياتنا جزءًا تلو الجزء دون أن ندرى، ودون أن نفيق من غيبوبتنا العقلية الحضارية!

الاسـتيقاظ الكاذب – سـيكولوجيًا – هو حُلم مقنع وعميق عن الاسـتيقاظ من النوم، بينما يكون الحالم في حقيقته مستغرقًا في نومه ... هو حُلم يشعر فيه الحالم

بأنه قد أفاق حقًا، واسترد نشاطه الجسماني والعقلي، وبدأ في ممارسة حياته اليومية بشكل طبيعي، وقد تزداد قوة حواسه أو تتغير، وقد تبدو له جوانب من حياته درامية أو خاطئة، لكنه في النهاية «نائم»، «حالم»، «مستيقظ زيفًا وكذبًا»!

فكر قليلاً؛ انزع دثار الأنا المجتمعي، وأقنعة الوهم السياسي والحياتي، وستجد كل ما حولك كذب؛ وجوهٌ كاذبة، صداقات كاذبة، ألقابٌ كاذبة، شهاداتٌ كاذبة، نُخب كاذبة، ثقافات كاذبة، تعليمٌ كاذب، إعلامٌ كاذب، مسؤولون كاذبون يطلقون تصريحات كاذبة، دعاةٌ كاذبون يتاجرون بصكوك غفران كاذبة، وحياةٌ في مجملها كاذبة! يُقال إن برتراند رسل قد زعم أنه كابد ما يقرب من مائة حالة استيقاظ كاذب متوالية أثناء غيبوبته تحت تأثير التخدير العام! ومن المهم أن تسأل: كم حالةٍ كابدناها وما زلنا نكابدها؟ ومن المسؤول عن غيبوبتنا؟ ومن الذي قام ويقوم بتخديرنا؟!

(٣٤٨) المعطف ... قصة وطن!

- **٢٩ يوليو ٢٠١٨**

«**المعطف**» The Overcoat، رواية قصيرة للأديب الروسي «نيكولاي جوجول» Nikolai Gogol (١٨٠٩ – ١٨٥٢)، نشرها سنة ١٨٤٣، تحكي ببساطة قصة «أكاكي أكايفيتش»، فقير روسي، يعمل كاتبًا مُهمشًا ومُهملاً ومحط سُخرية الجميع في إحدى الإدارات الحكومية. لم يكن رؤساء الإدارة، وحتى حُراسها، يولونه أي اعتبار رغم كثرة ما يُكلفونه به من أعمال، ولم يكن بدوره يعبأ بهم. كان يعمل صامتًا بصدق، ويعشق النسخ حتى ليبدو وكأنه متعبدٌ في محاريب الحروف والكلمات؛ كان قانعًا بالأربعمائة روبل التي يتقاضاها سنويًا، يأكل منها ويشرب ويسكن ويواجه متطلبات الحياة في هدوءٍ وصبر. لم يُفكر يومًا في تغيير معطفه الرث المهترئ، وكلما تمزق المعطف أو انفتق منه جانب ذهب به إلى الخياط لرتقهِ أو ترقيعه، إلى أنْ أصبح المعطف من فَرْط تهلهله عصيًا على الإصلاح والرّتق،

ومع هذا كان مُصـــرًا على إصـــلاحه، لكن الخيّاط رفض في النهاية حتّى مجرّد لمسـه، مقترحًا على «أكاكي» أنْ يصـنع له معطفًا جديدًا. هنا جُن جنونه؛ لقد فقد معطفه القدرة على مواجهة ســياط البرد الروســي القاتل، وليس معه من المال ما يكفي! قرر الامتناع عن تناول العشاء والاستغناء عن إشعال شمعة تبدد ظلام ليله، ولا غرو، فشبع الفكرة يُبدد جوع البطن!

ظلّ لعدة أشـهر يذهب يوميًا بعد انتهاء عمله إلى الأسـواق لتفقد أسـعار القماش، إلى أن تمكن من توفير المبلغ المطلوب وتحقيق أمنيته بعد طول تقتير، ها هو أخيرًا يرتدي معطفًا جديدًا، وها هو يسـير في الشـارع في أشـد مشـاعره ابتهاجًا واحتفالاً؛ معطفٌ جديد، صُنع بحرفية بالغة، يحمل الدفء إلى جسده الهزيل!

إنه الحُلم الذي يشــــغل كل فقير، وكل بائس، وكل مهموم بمواجهة أمواج الحياة العاتية! وذات لحظة فارقة من حياته البائســة اختطف اللصــوص معطفه، انقضـوا عليه في ظلام الليل وسـكونه بينما كان عائدًا إلى بيته، ركلوه فسـقط مرتطمًا بالثلج فاقدًا للوعي، وبعد بضــع دقائق أفاق واســتوى على قدميه، لكن أحدًا لم يعد موجودًا. شـعر ببرودة تسـري في جسـده، وراح يصـرخ ويصـرخ ويصـرخ، لكن هيهات أن يبلغ صــوته منقذًا! نهض متحاملاً على نفســه، وراح يجري هائمًا دون أن يكف عن الصــراخ ... لتخرج روحه بصــرخة مدوية! مات الفقير ودُفن كأي نكرة أو حشرة في المجتمع ... اختفي وغاب ذلك المخلوق الذي لم يكن له من يحميه أو يحنو عليه، والذي لم يكن عزيزًا على أحد، ولا شيقًا بالنسبة لأحد!

أتعرفون ما هو الوطن ... الوطن هو ألا يحدث ذلك كله!

(٣٤٩) كلما ابتعدت اقتربت!

- **٢٨ أغسطس ٢٠١٨**

كلما ابتعدت اقتربت، وكلما اقتربت أدركت أن البُعد منجاةٌ من همٍ يُطوقك، ومرضٍ يُهددك، وعيونٍ وقحةٍ تراقبك، وعقولٍ هشـــــةٍ تؤولك ... فتبتعد لتقترب،

وتقترب لتبتعد ... وتتأرجح بين الرجاء والقسوة، الأمل واليأس، الولاء والبراء، والحُلم والواقع! إنها جدلية الذات والوطن في زمن القهر الحضاري، كأنك تفر منه إليه، وتلوذ به منه؛ فلا أنت قادرٌ على تبديد ظلام الليل العربي وطرد كوابيسه، أو على الاستسلام له والاعتياد عليه، لا أنت قادرٌ على الاستماع لسيمفونيات الزيف الصاخبة، أو على معايشتها والاستمتاع بها قسرًا ... وعلى الإجمال، لا أنت قادرٌ على تعقيل الواقع، أو على الانغماس في العبث ومباركة اللامعقول!

(٣٥٠) حين يُدَّوي الوجع في الكلمات!

- **<u>متفرقات:</u>**

- لا ينهزم الضمير، ولا يُمسخ العقل، ولا يسقط الفكر، ولا يُزيف العلم، ولا تتكفئ الأمة، ولا تنهار الحضارة، ولا يُشوه الدين ... إلا بشهوتين كبيرتين: المال والسلطة، فمن عوفي منهما فقد عافاه الله.
- إذا كان ولاء صاحب المنصب لمن قام بتنصيبه أهم وأشد من ولائه لمن نُصّب عليهم، فاعلم أنه نصَّاب؛ يُمارس النصب للمنصب وبالمنصب، ويستحل ما ذُبح على النُصب!
- الفساد في وطني صنعة، لها قيمها وفنونها وأساليبها وأدواتها ورموزها وخبرائها ... وحُراسها!
- هل يُجدي إزاء البيت الآيل للسقوط أن تعيد طلاء بعض حوائطه؟ وهل يُجدي إزاء من غشيته غيبوبة أن تُهذب له شعره وثيابه؟ يعلمون أنه ثور، ومع ذلك يُصرون دومًا على حلبه!
- كم هي رائعةٌ مصر، هكذا يُصرح كل من يزورها. لماذا إذن كل هذا الألم فيها؟ ولماذا كل هذه الخيبات؟ لماذا هي قاسيةٌ على أبنائها، حانيةٌ على غُربائها؟ لماذا هي عابسةٌ في وجوه ذويها، باسمةٌ في وجوه زوارها؟!

- حاولت أن أخوض تجربة الانضمام إليهم، أن أكون واحدًا منهم، أن أسير مع القطيع مسترشدًا بتلويحات العصا، لعلي أحظى بالرضا، لكني فشلت؛ فرائحة الخوف والجهل والنفاق كريهة مُنفرة، ورحابة التفرد نقية مُشرقة، وإن أحسست فيها بالعُزلة!
- لم يخطئوا بانشغالهم عنا، بل نحن من أخطأنا حين انتظرنا؛ ولم يخطئوا حين تسلطوا علينا، بل نحن من أخطانا حين انحنينا!
- ثمة طريقتان فقط لكي تعيش هذه الحياة العبثية؛ الأولى هي أن تتحملها كما هي، والثانية هي أن تتحمل مسؤولية تغييرها ... للأسف، نحن لا نتحمل حياتنا كما هي، ولا تُتاح لنا الفرصة لتحمل مسؤولية تغييرها!
- لا يكون المثقف مصدر إزعاج للسُلطة – أية سُلطة – إلا إذا اتسم بسمتين؛ الأولى أن يكون مثقفًا بالفعل، والثانية أن يكون مثقفًا ذا كرامة؛ فالسُلطة تُدرك جيدًا أن السبيل الأيسر والأقوى للهيمنة التامة هو تسطيح الفكر، وتشويه الوعي، ووأد الرؤى النقدية في مهدها، ولن يقف أمامها كحجر عثرة سوى المثقف الفعلي صاحب الكرامة، لذا تلجأ السُلطة عادة إلى رصف برامجها ومواقعها بأشباه المثقفين، فتغدق عليهم المال وتفتح لهم أبواب الشهرة؛ أولئك على استعداد لخلع كرامتهم على أبواب المسؤولين مثلما يخلع المصلون أحذيتهم على أبواب المساجد ... إنهم حُفاة العقل، وحُفاة الكرامة!
- قال أحدهم: إن الحيوان الكامن في الإنسان أشرس وأحط من بقية إخوته، وقد صدق؛ فبعض البشر كالذئاب؛ تغلب عليهم طباع الغدر والافتراس؛ وبعضهم كالحمير، تغشاهم طباع البلادة واللامبالاة؛ وبعضهم كائنات طفيلية أو متسلقة، يحلو لها مص دماء الآخرين والسطو على أفكارهم وجهودهم والتسلق فوق أكتافهم ... كلهم لهم صورة الكائن البشري، لكنهم متحولون طبعًا وسلوكًا ... لماذا يأبى الإنسان إلا أن يُجرد ذاته من إنسانيته بيديه؟!

- بعض الناس لديهم القدرة على استفزازك مهما كانت قدرتك على التحمل وضبط النفس، ولديهم إصرار غريب على استهلاكك بالكامل مهما كنت مسكونًا بمشاكلهم وقضاياهم، ولديهم الرغبة في اتهامك وكأنهم امتلكوا نواصي الحقيقة المطلقة ... تخرج من لقائهم بلا اتفاق أو اختلاف، ولكن بشيءٍ غامضٍ مؤلمٍ لا تدري ما هو، وبنفسٍ فقدت شيئًا لا تعرفه، تود استرداده فلا تجده!
- يُنازعني شعورٌ بأن التفكير فعل انتحار، وأن الكتابة فعلٌ عبثي، وأن العقل أداةُ اغتراب!
- الحالة العربية باختصار: جملة فعلية؛ الفاعل فيها معروف ومرفوع (فوق الجميع)، والمفعول به معروف ومنصوب (عليه من الجميع) ... ومع ذلك ما من نحوي لديه القدرة على إعراب الجملة بشكلٍ تامٍ ونهائي وصريح، وما من لُغوي لديه القدرة على تحديد معاني مفرداتها بدقة، وما من أحدٍ لديه القدرة على تفكيك الجملة وإعادة صياغتها!
- حرروا عقول الشباب وسترون العجب، فكوا أسرهم الحضاري وأخرجوهم من طاحونة الفساد وسترون العالم العربي كما لم ترونه من قبل!
- الأموال والمناصب والمواقف لا تُغير الناس، بل تكشف حقيقتهم وتعريهم من دُثر يلتحفون بها زيفًا وجزافًا ... ما أشهى لعنة الحقيقة لهؤلاء حين تنزع عنهم دُثرهم!
- حين يفقد العلم، أو الدين، عذريته أمام إغراءاتٍ ما أنزل الله بها من سلطان، فلا تتوقع أن ترى عقلاً ينهض بالأمة من كبوتها، بل مسخًا مطأطأ الرأس أمام جهلاء يحركونه حيثما أرادوا، يُنصب له السامر بليلٍ، فإذا ما استيقظ الناس وانفض السامر، عاد يحبو صاغرًا في مراتع سادته!

- ما بالنا أصبحنا مجرد ماكينات مستهلكة، ضجيجها أكبر من طاقتها، ومنتجها لا يشفع لعوادمها، نطحن الهموم والمشكلات والأوهام والخيبات طحنًا رديئًا، فتزداد وتتجمع وترتد منا إلينا؟ ما بالنا نكذب بصدق، ونخون بأمانة، ونسرق باقتناع، وننافق بإخلاص، ونبكي بابتسامة؟ ما بالنا نتربص بأجمل ما فينا، ونفخر بآثامنا، ونخجل من مشاعرنا، ونناجي أبشع كوابيسنا بنفوس أمارة بالجهل؟ الحياة قصيرة وتافهة، فهلا أفقنا وانتبهنا؟!
- أبمثْلِ هذا السُخْفِ نحنُ؟ أبمثْلِ هذا السُخْفِ نُواجه خيبتنا ونعبر عثرتنا؟ أحدهم يطعن في الدين جهلاً، والثاني يمارس النفاق سرًا وجهرًا، والثالث يُفاخر بالرذيلة مرحًا، والرابع، يُتاجر بآلامنا ظلمًا وعُدوانًا ... هذا سياسي وذاك إعلامي، هذا فنان وذاك حكيم، هذا علّامة وذاك فهّامة ... الكل يسخُف ويُساخف، إلا من رحم ربي!
- الفراغ مرضٌ يُولد كثرةً من الرذائل؛ بداية من الانشغال بالتوافه وتضخيمها، ووصولاً إلى محاولة تحقيق وجود الذات الخاوية؛ بالإسقاط تارةً، وبتعبيد دروب الوهم تارةً أخرى! قالوا «الوقت من ذهب، إن لم تُدركه ذهب» الغريب أننا كعرب لدينا فائضٌ من الوقت، وليس لدينا أي ذهب!
- في العالم العربي، لا تسل عن الشيء المنطقي الذي نفعله، بل اسأل عن الشيء غير المنطقي الذي لم نفعله!
- «وعجلتُ إليك ربِ لترضى»، قالها موسى عليه السلام شوقًا إلى الله. واليوم ينطق بها كثيرون، بأفعالهم وممارساتهم وكتاباتهم، تملقًا لمن اتخذوهم من دون الله أربابًا ... ما أتعسهم!
- أسوأ ما في الأمر أن كل شيء، رغم غرابته، ولاعقلانيته، وقسوته، أصبح مُعتادًا ومألوفًا؛ استسلم الناس لمعاناتهم في البحث عن أقواتهم ومواجهة أمراضهم وتجرع ذل الجهل ومرارة الفساد، واستمرأ السياسيون والإعلاميون

بيع الأكاذيب في أسواق النخاسة رائجة البضاعة، والحلم بالآتي بات كابوسًا يُطاردنا نهارًا جهارًا، والأمل يتوارى خلف أمواج الصـــــراع مُحذرًا: كونوا أو اندثروا كما اندثرت أممٌ من قبلكم!

- قيل لبهلول: أتعدّ المجانين؟ قال: هذا يطول، ولكني أعدُ العُقلاء!
- لسنا في حاجة إلى مُنظرين ومحللين وخبراء استراتيجيين، يكفي أن نقرأ وجوه الناس في الشوارع، ووجوه أطفالنا؛ يكفي أن نقرأ وجوه بعضنا البعض لندرك بشاعة الحال الذي وصلنا إليه!
- لا إصـــلاح في أي مرفق من مرافق الدولة دون إصـــلاح للتعليم ولبنيته التحتية والفوقية، ودون أن يطمئن المشتغلون بالتعليم إلى قدرتهم على الوفاء بالتزاماتهم الحياتية، وكل ما سوى ذلك عبث؛ دولةٌ بلا تعليم كجسدٍ بلا رأس، يهيم في كل وادٍ كالذي يتخبطه الشـيطان من المس، تنتظره الهاوية ولو التمس الهدى عبر دروب الدنيا شرقًا وغربًا!
- لأن ثقافة الرقص هي الرائجة في هذا الزمن الرديء، يرقص أكثرهم، كلٌ بطريقته، زاعمًا أن رقصـه يُجسـد قيم الحداثة والولاء والانتماء والحرية. إنهم يُرقصون الوطن ويتراقصون به، فإما أن ترقص معهم، أو تصفق لرقصهم، أو تنسحب بعيدًا في صمت!
- أشـفق على مؤرخي العرب الذين يؤرخون لهذه المرحلة من تاريخ الوطن؛ فإما أن يُزيفوا التاريخ نفاقًا، وإما أن يدونوا الخيبات جزافًا، والقابض منهم على العقل والحق كالقابض على الجمر!
- هل أنت الشيطان؟! أسوأ ... أنا الحكومة! (من فيلم الفرقة الانتحارية Suicide Squad, 2016).
- الخلل ليس في سلوكيات الناس، ولا في قلة الموارد والثروات، الخلل في العقل! إذا أردت أن تسـيطر على قوم فلا تقتل فيهم الشـجاعة، بل اقتل فيهم العقل، وإذا أردت أن تقتل العقل فما عليك سـوى أن تقتل التعليم، وقتئذٍ تسـلب منهم

الأمل، فإذا سـلبت منهم الأمل كثُر كلامهم وهرجهم ومرجهم، وباتوا مستعدين لأي احتمال، ولو كان من قبل مستحيلاً!

- يائسون، مخدرون، فاسدون، ممسوخون، تائهون، مزيفون، محتالون ... هل من مزيد ينتظرنا؟ لم يعد العقل قادرًا على التخيل، لكن المؤكد أن كل شيء أصبح مُباحًا ومتوقعًا ومنتظرًا. الأسوأ يُلوح من بعيد، والأسوار تعلو ... رُحماك اللهم، اعف عنا يا من تشهد محنتنا، لا تؤاخذنا بما قدَّمت أيدينا، امنحنا الرجاء حتى وإن لم يعد هناك رجاء!
- هنا الوطن العربي، حيث يزداد صراع المصالح التهامًا للدم الرخيص؛ هنا الوطن العربي، حيث يثور الجهل المقدس على كل رسالات السماء، وكل قواعد المنطق؛ هنا الوطن العربي، حيث نبكي، ننزف، نحترق، ونُقتل بشغف؛ هنا الوطن العربي، حيث أضخم تراجيديا كوميدية يُشاهدها العالم بلا ملل، وحيث يلفظ العربي أنفاسه الأخيرة ... هنا سوريا!
- يُحكى أن أحد ملوك الهند سأل وزيرًا أن ينقش على خاتم له جملة إذا قرأها وهو حزين فرح، وإذا قرأها وهو سعيد حزن، فنقش الوزير: (هذا الوقت سوف يمضي)!
- حين اتسعت بلاد الإسلام، وراح المسلمون يُجاملون ولاتهم في غير حق، وقف الصحابي «أبيّ بن كعب» يرسل كلماته المنذرة: هلكوا ورب الكعبة، هلكوا وأهلكوا، أما إني لا آسى عليهم، ولكن آسى على من يُهلكون من المسلمين!
- بحر البقر جريمة صهيونية أكبر من أن تنسى، ولو كره المطبعون، والمتحالفون، والمتخاذلون!
- منطقنا فاسد، وفسادنا منطقي؛ عدالتنا فوضوية، وفوضويتنا عادلة؛ ثقافتنا عبث، وعبثنا ثقافة؛ موتانا أحياء، وأحياؤنا موتى؛ تخلفنا ممنهج، ومنهجنا

متخلف؛ سياستنا فاشلة، وفشلنا سياسي؛ إنجازاتنا مظهرية، ومظاهرنا إنجازية ... هل رأيتم كيف تجتمع المتناقضات، وتنتكس الفطرة، وتُستخدم الأضداد وكأنها مترادفات؟!

- في العالم العربي، أحلامنا في حقيقتها واقعٌ بالقوة، نصبو إليه ونتوق إلى معايشته بالفعل، وواقعنا في حقيقته كوابيس بالفعل، نروم تبديدها وتفريغها من قوتها. كل الكوابيس تنتهي بلحظة استيقاظ، وتتبدد بولوج الليل في النهار، إلا كوابيسنا العربية؛ مستمرة وملتحمة ومتعاظمة، وكأنها تأبى إلا أن نظل أسرى ليلها. يقولون إن ظلمة الليل تكون في أشدها قُبيل الفجر، وما أظن إلا أننا في أشد لحظات العتمة، فهل يعتمل بداخلها شعاع ضوءٍ يحمل الأمل؟ وهل تتمخض عنه قريبًا بلحظة إفاقة؟!
- عجبًا لعقولٍ غريبة في زمنٍ أشد غرابة، يجادلونك وكأن «الإسلام» هو آخر حائط منعٍ أمام خروجنا من كهف التخلف والإرهاب؛ وكأنهم أوفوه حقه علمًا وعملاً فلم يوفهم حقهم؛ وكأن «الإسلام» لم يُثمر في يومٍ ما حضارة أشرقت على الغرب فغمرته بأشعة علمها؛ وكأن الغرب الذي يتعبدون في محاريب قوته بلا أديان يذود عنها! يجادلونك وكأن «الإسلام» قد خذلهم بعد أن أقاموا موازين القسط على أنفسهم قبل غيرهم، واغتسلوا من الرتوع في حظائر أهوائهم؛ فلم يُفسدوا، ولم يظلموا، ولم يبثوا سموم الجهل في أجيال بلا حيلة!
- هذا شعبٌ يجيد الصبر والتسويف، ويجيد تحمل الألم والقهر والإهانة والاستهانة بوعيه الجمعي، ربما لسنوات أو عقود، لكن ردَّ فعله في النهاية قد يكون عنيفًا بما لا يتوقعه أحد ... تذكروا أن الدموع المتحجرة في المآقي تزداد قسوة وصلابة كلما تضخمت، وأن الدرس الوحيد الذي نتعلمه من التاريخ هو أن أحدًا لم يتعلم من التاريخ!

- تجرأ على أن تحلم، تجرأ على أن تنزع عن وجهك ذلك القناع الزائف، لتكتشف ذاتك وتواجه حقيقتك، تجرأ على تكون أنت؛ متفردًا، غريبًا في تلك الغابة المظلمة التي تُظللنا بالأقنعة!
- النتيجة متوقعة: تمخض الأسد فولد فأرًا! أتدرون لماذا؟ لأن خللاً أصاب جيناته منذ عقود، فبات فأرًا في دثار أسد، يستمتع بالذل في ثياب كرامة التاريخ، وبالجهل في دثار علم الأسلاف، وبالألم في كنف المتاجرين بالمشاعر.
- دولة العواجيز تعاند المستقبل، ولا تستطيع وإن عرفت، ودولة الشباب تقفز إلى المستقبل، وتستطيع وإن التمست المعرفة ... الدولة الفتية تزهو بشبابها، والدولة المفترية تُلقي بهم في غيابات الجهل والقهر. هذا هو الفرق بيننا وبينهم؛ شباب يهش بعصاه وعواجيز يتوكأون عليها ويترنحون بثمالة السُلطة!
- جلس وأسهب في حديثٍ تافه، ثم أسند ظهره إلى كرسيه، ووضع قدمًا فوق قدم متخذًا ملامح النُطق بالحكمة، ثم قال: مشكلتنا أننا منقسمون فكريًا! قلت بابتسامة: لا يا سيدي، لسنا منقسمين فكريًا، بل منقسمين تفاهةً وطمعًا ووهمًا، ولو كان لدينا نذرٌ يسير من الفكر ما كان هذا حالنا ... تبًا لجوقة الحمقى والأوغاد الذين جعلوا التفاهة فريضةً يومية، فتركني وانصرف!
- المصداقية تؤدي إلى التصديق بالضرورة، حتى ولو كانت مصداقية الكذب والنفاق ... أرأيتم كيف يُصاغ واقعنا؟!
- كلما استمعت لأم كلثوم هاجمني السؤال: هل كان الحب لدى من أبدعوا في تلك الفترة الثرية ثقافيًا من تاريخ مصر مختلفًا عن الحب لدى من مسخوا الفن صراخًا في زماننا الراهن؟ ألم يكونوا بشرًا مثلنا؟ كيف ارتقت كلماتهم وموسيقاهم وأصواتهم لتمس رهافة الروح؟ أم أن تجريف العقل العربي صاحبه بالضرورة تجريفٌ للقلب العربي وهتكٌ لعرض المشاعر العربية؟!

- لا يمكنك أن تزرع وردة لتستمتع برؤيتها ورحيقها في صحراء قاحلة، ولئن نجحت فإن نجاحك وقتي، إذ سرعان ما تذبل تحت شمس حارقة، وتبلى جذورها في تربة أصابها عُقم الفساد، أصلح الكُل يصلح الجزء طوعًا أو كرهًا!
- بجوار المسجد مقهى، كلاهما مزدحمان؛ شبابٌ يُصلي، يبكي ويشكو بثه وحُزنه إلى الله، وشبابٌ تعلو ضحكاته ويبث شكواه دخانًا يُصافح وجوه المصلين؛ تناقض يُجسد الحالة العربية بامتياز ... إنهم المنسيون، الموجوعون بالوطن، وقد افترقت بهم السُبل!
- ستبقى الذاكرة مثقلة بدهشاتٍ وصدماتٍ وأوجاعٍ وخيباتٍ تتراكم متسارعة في هذه المرحلة الغريبة من تاريخ الوطن ... ألا نستحي ونقف قليلاً لنتأمل ماذا نُورث لأبنائنا؟!
- لا يُلدغ المؤمن من جُحر واحد مرتين، ولا يُلدغ المواطن الواعي من ثورةٍ مرتين، لكننا لُدغنا، وسنُلدغ ... يبدو أننا متخصصون في اللدغ!
- للأسف، هؤلاء الزاحفون من مقابر التاريخ، الخارجون من كهوف الجهالة والنفاق والتفاهة، لا يعون أن الكوكب غير آبه لحضورهم من عدمه، ولا يدركون أنهم عبءٌ على البشرية المتوثبة نحو الحضارة والعلم، ومع ذلك يرون أنفسهم أقانيم الحق في مرايا العصر الكاذبة ... كم من أثقال يئن تحت وطأتها الوطن!
- أصبح اسم صندوق النقد الدولي مثيرًا للفزع؛ وكلما تردد هذا الاسم على لسان مسؤول تحسس العرب جيوبهم وأقواتهم؛ يعدهم ويُمنيهم منذ عقود، وما يعدهم إلا غرورًا وفقرًا وقهرًا وعذابًا!
- قد ولى زمن الأنبياء، وما من ملائكة يمشون على الأرض، والله لا يُغير ما بقومٍ حتى يُغيروا ما بأنفسهم، ونحن جميعًا بشرٌ: نخطئ ونصيب، فلا تخلع

القدســـــية على أحد، ولا تُهلل لموكب أحدهم، أو تتغنى بخطبة أحدهم، ولا تقف على شفا الطوفان منتظرًا سفينة نوح، فقط عليك بالعقل، ولحظة صدق: مع الله، مع ذاتك، ومع الآخرين، وتوقف عن ابتياع الوهم في أسـواق النخاسـة، وإن كثُر تجاره وطلابه ومريديه!

- القارة المجهولة التي لم نطأها بأقدامنا بعد، ليســـــت تلك المختفية وراء لُجج المحيطات، بل هي دماغنا الذي نتعامل بواسـطته مع العالم كل لحظة حتى في النوم! (خالص جلبي: فلسـفتي) ... وويلٌ لنا نحن العرب من حصـائد هذا الدماغ الذي ما زلنا عاجزين عن اكتشافه!
- ألا وإن في جسـد الدولة مُضـغة، إذا صـلُحت صـلُح الجسـدُ كله، وإذا فسـدت فسـد الجسـد كله، ألا وهي التعليم! ولئن كان ثمة ما تُحاسـب عليه الدولة أمام محكمة التاريخ والحضـارة، فإن أول ما تُحاسـب عليه هو التعليم، فإن صلُح فازت وأفلحت، وإلا خابت وخسرت!
- كلما تأملت الأحداث الجارية في وطني، رأيت وكأننا عالقون في متاهة، نتقاذف الآراء والنصـائح للخروج بلا جدوى: من هنا، لا من هناك، بل من هنا، فلنجرب إذن هذا، ولم لا نمضـــــي عبر ذاك ... العالم يرمقنا بنظرة فوقية، ضـاحكًا غير آبه، ونحن نتخبط نهارًا وليلاً، يسـقط منا من يسـقط، ويخطو بعضـنا فوق جثث البعض، والغريب أننا في خضـم خلافنا ننسـى أن نضـع ولو علامة صغيرة على كل طريق مسدود، فنعود إليه مرات ومرات!
- حدثونا بلغة لم نعرفها من قبل، أخبرونا بتبرير لم نســـمعه من قبل، قولوا لنا حلاً لم تجربوه من قبل، اخرجوا بتصـريحات لم تُكتب من قبل، اطلبوا منا ما لم تطلبوه من قبل، وتحاشـوا كلمة الصـبر، أو اعترفوا بفشـلكم كي ينتهي الأمر!

- نحن تائهون، وبدون علم نحن تافهون، وبدون إدراك لكوننا بلا علم فنحن غافلون. العلم لا يُستجدى، ولا يُقاس بتدشين مجالس استشارية خاوية، أو استقدام ذوي الشهرة لتجميل قبح الواقع، ولا يحيا في أمة تنتقص من قدره وتدفع بمستحقاته لغير أهله، وصدق إبراهيم بن سيَّار النظَّام حين قال: «العلم لا يُعطيك بعضه حتى تعطيه كُلَّك»!
- له ما له وعليه ما عليه ... الشيء المؤكد أن قائدًا عربيًا لم يحظ بمثل ما حظي به جمال عبد الناصر من شعبية على امتداد تاريخ مصر الحديث والمعاصر! رحم الله الزعيم.
- القدر؟! نعم يا صديقي، إنه بارع في تصفية الحسابات، ورد المظالم، ونُصرة المقهور، لكن الله لا يُغير ما بقومٍ حتى يُغيروا ما بأنفسهم ... رُفعت الأقلام وجفت الصحف.
- مهما فعلتم، لن تنهض الدولة من عثرتها، ولن تتجاوز أزمتها، ولن تنجو من فخ السقوط إلا بثلاثة شروط؛ الأول العلم، والثاني العلم، والثالث العلم!
- من الغباء أن تُعامل الناس جميعًا على أنهم أغبياء، وأن تُروج لمصالحك الخاصة على أنها مصالح عامة، ومن الحماقة أن تُصدق نفسك، وتُصدق أنهم يُصدقونك حتى وإن تظاهروا بذلك، ومن الوقاحة أن تتصنع القداسة وتتشدق بالمبادئ وأنت أول المنتهكين لها، وأبلغ درجات الجهل أن تكون جاهلاً بجهلك!
- حين يعمد السياسي إلى توظيف الدين لخدمة سياقات أكاذيبه ومصالحه، فهذا خطأ، أما حين يتطوع رجل الدين – إن كان ثمة رجلٌ للدين – لتسويق تلك الأكاذيب والمنافع متلونًا بالتقوى، ومنتشيًا بأرباح نفاقه، فالأمر هنا يتجاوز مرحلة ارتكاب الخطأ إلى مرحلة اقتراف الخطيئة ... البعض ترفعه الخطيئة، والبعض تُسقطه الفضيلة!

- لا أدرى كيف جمعت حكوماتنا المتلاحقة بعبقرية نادرة بين شعارات من قبيل «دعه يعمل، دعه يمر»، «دعه يدفع، دعه يُعاني»، «دعه يُطبل، دعه يُصفق له الأغبياء»، «دعه يفترس، دعه ينشر الخوف»، «دعه يكتب، دعه يموت قهرًا» ... ولم تلتفت يومًا لشعارات مثل: «دعه يتعلم، دعه يرقى»، «دعه يعي، دعه يتحضر»، «دعه يتحرر، دعه يكون إنسانًا»!
- بطونٌ خاوية، وجيوبٌ خاوية، تُعلمها وتداويها وتسوسها عقولٌ خاوية، تشهد ألا فكرة إلا فكرة الجباية ... الجباية حتى النهاية!
- قال سقراط: «الفضيلة علم، والرذيلة جهل»، وانتقده البعض وأكدوا خطأه استدلالاً بأن العلم قد يكون في جانب والعمل في جانب آخر، إذ كثيرًا ما نرى أعرف الناس بمضار الخمر شاربها، وأفهم الناس لمضار القمار لاعبه، وأعلم الناس بزيف السياسة الممارس لها، ... إلخ. لكني ما زلت أرى قوله صائبًا ومذهبهم مغلوطًا؛ فالعلم الذي لا يتسق معه العمل، ولا يُثمر سلوكًا طيبًا، ليس بعلم ... وقد ورد عن «ابن مسعود» قوله: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له»، وأقول: من لم ينهه علمه عن القبائح والموبقات والتفاهات فلا علم له!
- حدث بالفعل: قال الرجل العجوز للشاب: أنت ذكي ومجتهد، أتوقع أن تتولى منصبًا هامًا في العالم العربي بعدما تنتهي من دراستك. رد الشاب مندهشًا: وهل تراني لصًا أو محتالاً أو منافقًا ... للمناصب أهلها ينعمون بها، ولنا همومها وتبعاتها!
- الحياة هي الأشياء التي تحدث بينما أنت مشغولٌ بالتخطيط لأشياء أخرى، وباجتياز طُرقٍ لا تؤدي إليها، وبتأمل تساؤلات لا إجابات عنها؛ كل لحظة نُغلق فيها أعيننا تعني خسارة ستين ثانية من النور، وكل لحظة نفتح فيها أعيننا

تعني خســـارة عقولنا، قلوبنا، براءتنا، تعني خســـارة أجمل ما فينا ... ألســـنا نقترف خطيئة الحياة؟!

- لا تثق كثيرًا فيمن يذرف الدموع، فقد جاء إخوة يوسف أباهم عشاءً يبكون! اهتم بتاريخ الباكي ودعك من ملامح وجهه؛ فالقلوب القاســـــية لديها قدرة عجيبة على إنتاج دموع شــــبيهة بدموع الحزانى، وقل للذين يوزعون الظلم في الطرقات باســـم الله، وباســـم الوطن، وباســـم المســـتقبل: قد نبأنا الله من أخباركم!
- الزمان جُرحنا، فلا نحن قادرون على العودة إلى الماضــي، ولا نحن قادرون على القفز إلى المستقبل؛ عالقون في لحظة التخلف، مُحاطون بشرذمة من اللصوص والأغبياء، منتهكون عقليًا بأدمغة أصابها عفن الفساد وخمائر النفاق! الأسوأ يتجول بيننا على غير هدى، يلتهم الممكن والمحتمل، يصـــفعنا بقســـوة على أقفيتنا، نعيش الخيبة ونعجز عن تبريرها ... كلنا في المتاهة حائرون، أنا وأنت مسؤولون!
- ويســـألونك عن الخداع، قل هو فضـــيلة هذا الزمان؛ كُن مُخادعًا، مُزيفًا، تجلس على رؤوس الناس وتراهم يُصفقون ويهُللون؛ كن كاذبًا، مُراوغًا، تبيع الوهم ماءً للعطاشــى في أسـواق التعاســة ... ولكن اعلم أنه لن يخدع الســرابُ أحدًا إلا إن كانت قُلته خالية من الماء!
- يحاولون إقناعنا بأن رجلاً أخرس قال لرجلٍ أطرش أن رجلاً أعمى شاهد رجلاً مشـلولاً يركض وراء رجلٍ مقطوع اليدين ليمنعه من شـد شـعر رجلٍ أصـلع! الغريب أنهم يجدون كثرة من المصدقين والمتزاحمين على بوابات الوهم!
- كنـت كلمـا قرأت أخبـار وطني بكيـت ... الآن، كلمـا قرأت هـذه الأخبـار تنتابني نوبة ضـــحك لا إرادية، لكني أشـــعر أن ثمة من ينظر لي من الداخل

مشـــفقًا وكأنه يســـتمع إلى مرثية روح متهالكة ... لا عجب؛ فما بين البكاء والضحك تمتد مساحات من القهر، وشر البلية ما يُضحك!

- عقول تائهة + مؤسســات تائهة + تعليم تائه + إعلام تائه + شـباب تائه + ثقافة دينية ومجتمعية تائهة = دولة تائهة = كل ما يحدث الآن!
- ألا تتمنى أن تعود طفلاً؛ تضـحك بصـدق، وتبكي بصـدق؛ تشـغلك لُعبتك عن العالم، فلا تفهم، ولا تتألم، ولا تكذب، ولا تنافق أو تداهن؟
- حتى الأحلام في وطني عليها ضـــرائب، وهي ضـــرائب باهظة تفوق كل ما يفرضــه ولاة الأمر من ضــرائب على أدق تفاصــيل ومتطلبات حياتنا! كيف تكون الأحلام مبصـــــرة في واقع أعمى؟ وكيف تكون عادلة في واقع يموج بالظلم والظلمات؟ احتفظ بحلُمك في داخلك، ولا تبوح به لنفســك إلا حين يوقد الليل عتمته؛ ففي وطني كل الأحلام العادلة خيانات، وما من أحد تغشـــــاه العدالة، فقط قد يُحالفك حظٌ جيد أو سيء!
- لم أجد وصـفًا أبلغ وأشمل وأوجز للعقل العربي المعاصـر سـوى كلمة «كارثة»؛ كل ما تراه حولك من فقر ومرض وجهل وتخلف وظلم وفســاد وصـخب وتفاهة وازدواجية ... إلخ، إما ناجم عن هذه الكارثة أو مستثمر بها وفي معيتها!
- لئن كانت قدس حياتنا مهددةٌ، فلا نلومن إلا أنفســنا؛ نحن الجزء الأكبر من التهديد، بكل ما اقترفناه من آثام، وما تدثرنا به من خُذلان، وما تجرعناه من كؤوس المهانة!
- إذا أردت أن تُهدر كثيرًا من الوقت فاعقد كثيرًا من الاجتماعات، يمكنك أن تعقد اجتماعات، أو يمكنك أن تؤدي عملاً حقيقيًا ... وعليك أن تختار!
- رغم أن ماضـينا وحاضـرنا ينطق بكثير من الفسـاد والجشـع والقتل والحماقة والجهل والقهر والعبثية ... إلخ، نتصـور أو نخدع أنفسـنا والآخرين بأن المسـتقبل

سيكون مختلفاً بشكلٍ ما! إن الله لا يُغير ما بقومٍ حتى يُغيروا ما بأنفسهم، الأمل في الله وحده!

- نعم، نحن أقوياء – على حد تعبير ديستوفسكي – لا عليك من كلام المحبطين؛ ألسنا ننام ونستيقظ كل يوم لنعيش الحياة ذاتها، في المكان ذاته، مع العقليات ذاتها، وبذات خيباتها ... هذا بحد ذاته كفاح!
- ضبابية الرؤية، واختلاط الحقائق بالأحلام وبالأوهام، والرغبة في العزلة ... كلها سمات طبيعية لمعطيات الواقع، ربما بسبب العبثية التي تنصب لنا فخاخها كل لحظة، وربما بسبب السقوط المتسارع للأقنعة، وربما بسبب الفئران التي تتسرب من شقوق الفساد والجهل لتملأ حياتنا بمظهريات كاذبة، وابتسامات ماكرة، وأحقاد وتسلقات وكتابات وتصريحات فجة ... حين تتكاثر الفئران في وطنٍ، فاعلم أن الطاعون يُهدده!
- صغار العقول في سكرتهم يعمهون، وبالكبار يهزأون، وفي وطني يصولون ويجولون!
- أنا منافق إذن أنا موجود، الصراع من أجل النفاق، البقاء للأكثر نفاقًا، النفاق وفاق، نفاق – وصولية – مزايا اجتماعية ... عش منافقًا، أو مُت وأنت تحاول!
- من الصعب النظر إلى الماضي ومعرفة حقيقة الأشخاص الذين أحببتهم، وصادقتهم، وعشت معهم، ومن الصعب النظر إلى الماضي لاستحضار الإحساس بدفء الوطن، وصدق عناق الأحباب، وبراءة الضحكات المرتسمة على الوجوه، ومن الصعب النظر إلى الحاضر لترى مسوخًا تخدع وتتلوى وتغير جلودها كل لحظة، ومن الصعب النظر إلى المستقبل في وطنٍ يُباعد بينك وبينه ... الصعب يُهيمن، وطوبى للغرباء!

- بعض الأنظمة العربية الحاكمة تُعامل شـعوبها بمبدأ «أطعم الفم تستحي العين»، والبعض الآخر يُفضل مبدأ «أغلق الفم وافقأ العين» ... في الحالتين «البطن» هي أداة السيطرة، و«العقل» مُغيب؛ فريقٌ أصابته التُخمة فبات عاجزًا عن التفكير، وفريق يُصارع الجوع فلا يُفكر إلا في لقيمات تقيم صُلبه!
- عاجلاً أو آجلاً ستُدرك أن ثمة فرقًا بين معرفتك بالفضيلة وقدرتك على العمل بها، وبين معرفتك بالطريق الصحيح وقدرتك على المشي فيه، وبين معرفتك بكثرة من إجابات الأسئلة التي تثيرها الحياة في الوطن العربي وقدرتك على البوح بها!
- أحاديث المقاهي، حوارات الغرف المغلقة، التسريبات ... كلها تؤكد أن كثيرًا منهم يعيشون في بيوت من زجاج يسهل رميها بالحجارة! لا أدري، كيف يكون النظام من حديد وبيوت نخبته من زجاج؟ ولا أدري، لم لا ينظفون حوائط بيوتهم الزجاجية كي يروا الواقع على نحوٍ أفضل؟!
- هل يُصدقون أنفسهم، ويُصدقون أننا نصدق ما يقولون؟ أصبحنا مجرد دمي محشورة داخل صندوق أكاذيب أحكموا غلقه علينا، ولو تصاعدت منه الأكاذيب لوسعت الأرض وأهلكتها! الغريب أن ثمة أناسًا ما زالوا يمتلكون القدرة على استنشاق الأكاذيب داخل الصندوق، بل والتطبيل على جوانبه!
- حديث هذا الرجل الأشعث الأغبر الذي تلتقيه في الشارع أو في وسائل المواصلات عن واقع الأمة أكثر مصداقية من أحاديث كثرة من السياسيين والإعلاميين والنخبة الزائفة التي نكابد صخبها نهارًا وليلاً!
- أيتها السماء أمطري رأفتك وحنانك وعدلك على العقول والأفئدة في هذا الوطن الذي باتت أرضه الجدباء، ورحمه العقيمة، وضمائر أهله الخربة، وعقول صفوته الخاوية ... في حاجة إلى سحابات الحب والحكمة، وإلى مطر الأناة والتسامح والرفق والألفة!

- ثمة فرق بين الأستاذ الذي يُعلم تلاميذه المنطق والأستاذ الذي يغتصب منطق تلاميذه. وبالمثل، ثمة فرق بين حكومة تُؤسس لحياة المنطق، وحكومة تقتل منطق الحياة لدى رعاياها!
- قالوا إن الأيدي المرتعشة لا تبني، حسنًا، هي أيضًا لا تقوى على الهدم ... المشكلة في العقول المرتعشة، والأحلام المرتعشة، والقوانين المرتعشة، والضمائر المرتعشة؛ فهذه تهدم وتُدمر، تصيب برعشتها الوطن فيهوي ويتآكل كما تتآكل أجساد الموتى!
- الحلول غائبة، والعلاج مهمل، والعنتريات غالبة، ونقاط الحروف مهاجرة، والعقول سُكارى، والضمائر غافية، والقلوب حبلى بالمظالم، ومن حاول فك ضفائرها مفقود، مفقود!
- صفر + صفر = صفر – صفر = صفر/ صفر = صفر! هذا هو اختصار المسافات والقرارات، الخلافات والحكايات؛ هذا هو كل شيء في زمن الأقنعة! تمرد أيها الصفر!
- يُولد العربي على الفطرة، وأبواه يُعلمانه أو يُجهلانه أو يُعسكرانه أو يُؤخونانه أو يُسلفانه أو يشيعانه أو يُبلطجانه! مواريث عربية معاصرة أثيرة!
- لست متشائمًا، بل أنا قارئٌ للواقع، أجتهد في إعراب كلماته المتداخلة، وربط مقدماته بما يمكن أن تؤدي إليه من نتائج؛ أتوق إلى تعقيل اللامعقول ولو بأضعف الإيمان، وما زال بي رجاء ... لكن المتشائم لا يقرأ، ولا يجتهد، ولا يتوق إلى شيء، بل يستسلم للهزيمة والصمت!
- عند «ديكارت»: أنا أفكر، إذن أنا موجود، وربما في مكانٍ ما: أنا أفكر، إذن أنا إنسان؛ أنا أفكر، إذن أنا أعيش! لكن في وطني: أنا أفكر، إذن أنا موجوع؛ أنا أفكر، إذن أنا زنديق؛ أنا أفكر ... إذن ربنا يستر!

- ستُدفن مهما كانت أهميتك، وستُنسى وكأنك لم تكن، فأصلح ما بينك وبين الله، وعش في سلام مع نفسك، مع العقل والقلب والضمير ... وواجه الأكذوبة!
- لا فرق بين الغبي المتدين والغبي العلماني، ولا بين الغبي الجاهل والغبي المتعلم، ولا بين الغبي الوقح والغبي المؤدب، ولا بين الغبي الخائن والغبي الوطني، ولا بين الغبي المتشائم والغبي المتفائل، ولا بين الغبي الأنيق والغبي الأشعث، ولا بين الغبي الصامت والغبي الثرثار ... إلخ. غباؤهم جميعًا يقتلنا، لأن الغباء واحد: مُرُهُ واحد، ومردوده واحد!
- الحرية هي اللحظات الأولى لك بعد الولادة مباشرة؛ تصرخ عاريًا، بلا اسم، بلا خطيئة، بلا توجهات، وبلا حقد ... بعدها يمنحونك اسمًا، وطنًا، دينًا، بيئةً، وهوية، لتغدو اختياراتك بين بدائلهم، ومن داخل أسوارهم، وتتلاشى ذاتك في ذواتهم!
- لولا الوهم لكانت الحياة جحيمًا لكثير من الناس في وطني؛ الحب وهم، السياسة وهم، الإعلام وهم، التعليم وهم، النوم وهم، اليقظة وهم، والمستقبل وهم ... المجد للوهم صانع الأوطان!
- قال متنهدًا: النضج هو أن تكتفي بهز رأسك في المواضع التي كنت تنساق فيها إلى الجدال في أوقات سابقة ... لقد نضجنا! قلت: ولم لا يكون القهر أيضًا... لا يا صديقي، لقد نضجنا وقُهرنا!
- كثيرة هي ذكريات العربي المعاصر؛ تراه وكأنك أمام خزانة ضخمة من الأوجاع والأكاذيب والأوهام والحكومات ... والحكام!
- الانتحار والقتل في الوطن العربي سواء؛ تجربة موت قسري تحمل من الرسائل أكثر مما تُخفي، وبوح رسائل الموتى في زمننا هذا قاسٍ، لو سمعناه لبكينا كثيرًا وضحكنا قليلاً!

- «العباءة لا تمكنك من الطيران»؛ تحذير على عباءة السوبرمان المباعة للأطفال، وكم من مسؤول لدينا يرتدي العباءة ذاتها، ويوهمنا ويوهم نفسه بأنه سيطير بنا، ويُطبل المطبلون، ويرقص المتراقصون، ويُصفق المخدوعون ... فهل من مُدكر؟!
- وما زالت موائد الكراهية تقرع كؤوس الدم، أصبح الدم رخيصًا بلا قيمة، والمسفوك دمه بات رقمًا يُضاف إلى أرقام عجزنا عن حصرها فتناسيناها! ناصبوا الموائد ينتظرون المزيد من الذبائح على النُصب! أيا وطني: كم من كؤوس الدم تكفيك حتى ترتوي؟ من يُضمد جراحك وينزع عنك قفازات الفزع؟ من يُوقظك ويسحب من ذاكرتك رائحة الدم؟
- ضوضاء تعم الوطن، الكل يتهم، يتوعد، يسب، يُبرر، يُحلل، يرصد، يتربص، يصرخ، يُشكك، ويُصدر أحكامًا، بينما النار تقترب من الجميع؛ دماءٌ تسيل، وأرواح تتألم، وقلوبٌ تحترق، وعقولٌ غائبة تتخلى عن مسؤولياتها، أطفئوا النار بحكمة العقل أولاً، وإلا فالكل خاسر! كلكم بكم عقول إلا من أبى! كلكم بكم قلوب إلا من أبى! كلكم مسلمون إلا من أبى! كلكم بشرٌ إلا من أبى!
- لم أر منافقًا يفري فريهم ... عن كثير من الإعلاميين والمسؤولين والمشتاقين أتحدث!
- لو استجاب الله لكل أدعية البشر لتساقطوا هلكى على مدار الساعة، ذلك أنهم لا يكفون عن الدعاء بالشر على بعضهم البعض، كلٌ وفق قناعته وزاوية رؤيته، وأصبح التعريف السائد للفساد هو أنه ما لا أفعله ويفعله غيري، وإذا أخطأ المرء قال إن الله توابٌ غفورٌ رحيم، وإذا أخطأ الآخر قال إن الله منتقمٌ جبار شديد العذاب!

- عبثًا ألتمس في الوطن وعيًا تم تجريفه، وضـــــميرًا تم تغييبه، وعقلاً تكاثرت عليه الطعنات فراح يترنح في طرقات الوهم. الوطن هو الوعي والضمير والعقل، وهو الإمام العادل في كل موقع، تتآزر معه القلوب مثلما يتآزر المصـــــلون في صـفوف خلف إمام الصـلاة؛ هو البسـمة الغائبة الصـادقة، وهو الاتسـاق بين الجوهر والمظهر، بين ما يحمله القلب وينطق به اللسان ويُصدقه العمل!
- المشـكلة أنهم لا يقرأون، وإذا قرأوا لا يفهمون، وإذا فهموا يزيفون، وإذا زيفوا لا يجيدون، وإذا أجادوا تبجحوا وكأنهم يستحقون!
- حجيجٌ يطوفون بالبيت العتيق، يبتغون رضـــا المولى عز وجل ويرجون مغفرته، وآخرون تشـغلهم الدنيا بمتاعها. لكل منهم كعبته التي يحج إليها ويطوف بها دومًا، قد تكون الشـهرة، أو السـلطة، او المال، أو الجاه! طوبى لمن كانت كعبته تقوى الله.
- للأمة الفاشـــلة علامات، وقد توالت علاماتها الصـــغرى والكبرى وانفرط عقدها، والمسؤول عنها أعلم من السائل، فهل من مدكر؟!
- آفة الفكر دعاته، وآفة القضـايا مناصـروها، وآفة المعتقدات تجارها، وآفة التعليم سماسـرته، وآفة الثورات راكبوها، وآفة الأخبار ناقلوها، وأهم الأخبار هي تلك التي لا تُنشـر، وطوبى لمن لا ترسـم حياتهم أضـواءُ الكاميرات ولا عناوين الأخبار!
- اللغة وعاء الفكر ومحتواه؛ اللغة تشـكل الفكر، فإذا ارتقت ارتقى الفكر، وإذا تهاوت كان ذلك علامةً على تهاوي الفكر. ارتقاء اللغة من تجليات الرقي الحضـاري، وانحطاطها من تجليات الانحطاط الثقافي والهزيمة الحضـارية، فمتى نُدرك ذلك، ومتى نحترم لغتنا؟
- ماذا لو استيقظ العالم صباح يوم ما، ليجد أن كل السـياسـيين ورجال الدين قد اختفوا؟ سـؤال افتتح به الفيلسـوف الفرنسـي «سـان سـيمون» Saint Simon إحدى مقالاته إبان القرن التاسع عشر، وأرى أنه ما زال جديرًا بالطرح!

- آلامنا المُعلقة على حوائط الفيسبوك لا قيمة لها؛ في كل لحظة يضيفون جُرحًا جديدًا، لا يلبث أن يتحول إلى ألمٍ نتجرعه قسرًا، ثم نُحرره بأقلامنا ونُشارك به أصدقائنا! وما بين جُرحٍ وجُرحٍ ينزف جُرحٌ آخر يمنون علينا به؛ يتوضؤون بدمائه ثم يصطفون في معابد الشيطان لأداء صلاة القهر!
- لا أدري لِم أراهم جميعًا متشابهين: في سحنة الغباء، في الكلمات، في ضحكات التخلف، في الكروش المنتفخة، في مواكب فتوحاتهم وأهازيج انتصاراتهم؟ إنهم جهلاء الوطن؛ في ربوعه يعربدون، وعلى صدره جاثمون، ولخيراته ناهبون، ولهويته مشوهون! أيها الجهل الغبي: سئمنا رؤيتك، وما من مفر!
- اخدع الناس تكن مستجاب الحاجة، مسموع الكلمة، محمود الفعل! درس يجب أن تتعلمه، لا تملأ الدنيا صراخًا بالحق، فلن يستمع إليك أحد، ولا تنتظر قطارًا على رصيف مهجور، فلن يصل، إنه الخداع يا صديقي؛ فضيلة هذا الزمان!
- نحتاج أحيانًا إلى المرض كي نتطهر من الموت اليومي على بوابات الإدراك؛ كي نتعالى على صراعاتنا البائسة، ونتعافى من ابتساماتنا الزائفة، ونبرأ من تواصلنا الوهمي. نحتاج أحيانًا إلى المرض كي نقترب قليلاً من الحقيقة، كي نشهد ضوء الأبدية اللامتناهي في روعته ونقائه ... الحمد لله على نعمة المرض.
- إنه زمن المؤلفة جيوبهم، والمخربة ذممهم، والمنومة ضمائرهم، والمغيبة عقولهم، والمنتكسة فطرتهم، والمغشاة عيونهم، والمزيف علمهم، والمعملق قزمهم، والمتعثر منطقهم، والضال شيخهم، والمُلمع وزيرهم، والتائه صغيرهم، والمفسد إعلامهم، والمزهق الحق بينهم ... والمحسود ميتهم!
- فلتذهب إلى الجحيم قلوبنا المثقلة بالقسوة، عقولنا المثقلة بالجهل، نفوسنا المثقلة بالآمال الكاذبة، ضحكاتنا المثقلة بالرياء، حواراتنا المثقلة بالزيف،

وبرامجنا المثقلة بالفســـاد ... فليرجمنا الأجداد بحجارة العلم، والأحفاد بحجارة المستقبل، والبرءاء بحجارة الطُهر، علّنا نفيق من غيبوبتنا!

- تشـغلنا مباراة في الكرة ولا تشـغلنا مباريات الحضـارة؛ تشـغلنا قمة زائفة ولا يشـغلنا قاعٌ حقيقي نرزح فيه عن جدارة ... ما بين الشـاغلين هوة واسـعة تعكس بدقة موقعنا على خريطة العالم!
- يبدو عمومًا أننا كلما ازددنا جهلاً ازداد اعتيادنا على التخلف، وكلما ازددنا تخلفًا ازداد تشـدقنا بالوهم، وكلما ازددنا وهمًا ازددنا هرجًا في سـاحات المرح الكاذب، وكلما ازددنا هرجًا اقتربنا من حافة الهاوية، وكلما اقتربنا من حافة الهاوية تأكدت لحظة الســـــقوط ... وما من نجاة إلا بالتعليم والتثقيف الصادق، من القاع إلى القمة!
- ليس بالألقاب وحدها تُقاس الحضـــــارة، فكم من ألقاب يحملها أهل التفاهة والجهالة، وكم من أهل للألقاب تتجافى عقولهم وعلومهم عنها؛ الألقاب خمورٌ نتجرعها ليتضــخم حجم السُــكارى في مجتمع يؤرقه البحث عن لحظة الوعي الهاربة!
- لا تحسبن الجهل وخواء العقل مرتبطين بالأميين وغير ذوي الشهادات؛ فكم من أمي عميق التـأمل راجح العقـل، وكم من أكـاديمي جاهـل، وكم من تـافهٍ يحمل أعلى الشـهادات، وكم من خاوي العقل يأبى إلا أن يحج إليه طالبو العلم قسرًا في زمن السقوط الحضاري، وكم من حثالة فكرٍ قاءها أناسٌ إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، وإن يقولوا تسمع لقولهم، كأنهم خُشُبٌ مسنَّدة، يحسبون كل صيحة عليهم، هُم العدو فاحذرهم!
- عنـدمـا ينتهي عملـهـا، تتعفن الأكـذوبـة، وهـا هـي تتعفن لتزكم برائحتهـا الأنوف! مرحبًا بالآتي، ولا عزاء للحمقى.

- تمزقنا الجغرافيا، وتتلاعب بنا الأمم، ويُفرقنا فهم الدين، ويهزأ بنا الإعلام، ويتهاوى بنا التعليم، ويُتاجر بنا السياسيون، ويسود فينا الجهل، ويتعملق بيننا الحمقى، ويجمعنا عار التاريخ ... كلنا أبناء المأساة!
- لا جديد، حتى في رمضان؛ الوطن يتجمل كذبًا ... صيامٌ مظهري لا يُلقي بالاً لعقلٍ طال به الصيام عن الوعي طوعًا أو كُرهًا، ولا لأنفس طال بها الصيام عن الحب، عن العدل، عن آدميتها ... تحين للبطن ساعة إفطار، ولا تحين للعقل أو للنفس ساعة تحقيق للذات نسترد بها إنسانيتنا الغائبة!
- نزهوا اسم الله عن نزواتكم، ونزهوا الدين عن جرائمكم، ونزهوا العقل عن تفاهاتكم، ونزهوا العلم عن جهلكم، ونزهوا الإعلام عن ترهاتكم، ونزهوا الوطن عن أطماعكم ومصالحكم، ونزهوا الإنسانية عن عبثكم! كونوا صادقين مع أنفسكم تصدق معكم الحياة.
- سُئل أحد العلماء وهو على المنبر عن مسألة فقال: الله أعلم لا أدري، فقيل له: هذا المنبر لا يرقاه الجهلاء، فقال: إنما علوت بقدر علمي، ولو علوت بقدر جهلي لبلغت عنان السماء.
- رفقًا بالبسطاء، فهم عماد الوطن؛ عقله الحي وإن غفا، وقلبه النابض وإن أوجعته نوائب الدهر!
- يظل المرء طفلاً حتى تموت أمه، وبعدها تثقله هموم الشيب؛ ويظل مُهابًا حتى يتكلم، وبعدها إما أن تزداد هيبته أو يفقدها إلى الأبد؛ ويظل ضميره يقظًا حتى يُخدره المال، وبعدها يستغرقه سُبات عميق، ويظل صادقًا حتى يغدو سياسيًا، وبعدها يحترف الكذب!
- محترفون في تجميد الواقع واستنساخه، وعاجزون حتى عن التجديد في التبرير، وعن إدراك أن تكرار التبرير يُعمق الفجوة بين ما يحدثونك عنه وما يفعلونه!

- تجلس بينهم، تستمع، تتأمل وتتألم، لا تروق لك مناقشاتهم، لا تروق لك تفاهاتهم، لا تروق لك حواراتهم الجوفاء، لا تروق لك أقنعتهم! تتساءل: أهم الحمقى أم أنا؟ أهم المخطئون أم أنا؟ أهم الغرباء أم أنا؟ تشعر بالغثيان، ثم تنسحب بهدوء!
- فرق الطبالين العربية تُشبه بالفعل الفرقة الموسيقية للسفينة تيتانك؛ السفينة تصارع الغرق وهم مستمرون!
- ثمة حكمة هندية قديمة مؤداها أن (الاستغراق في الآثام قد يؤدي إلى التطهر والقرف الأبدي منها). الغريب أن الفساد (بكافة أبعاده ومقولاته) يستغرقنا تمامًا، ونستغرقه تمامًا، ومع ذلك لم نبلغ مرحلة التطهر، صحيح أننا بلغنا مرحلة (القرف)، لكننا متعايشون معه، سعيدون به!
- أغرب ما في الأحداث الموجعة التي نمر بها أنها لا تخلو من طرافة؛ طرافة تجعلك تضحك وأنت تتألم، وتتألم وقد ارتسمت على وجهك ابتسامة عريضة ساخرة، تستمع وتشاهد كي تخوض تجربة الألم الضاحك، أو الضحك المؤلم!
- لم يعد الصراع في وطني صراع حدود، بل صراع جمود؛ صراعٌ بين العدم والوجود؛ صراعٌ بين عقلين؛ أحدهما، وهو الأقوى والأعلى صوتًا – أُفرغ تمامًا من مقومات البناء، فراح يلهو في حدائق الجهل، مزهوًا بالعتاهية؛ والثاني، وهو الأضعف، عرف مقومات البناء والبقاء، لكنه اتخذ من الصمت سبيلاً أمام الكثرة الهادرة! والغريب أن الأول يلتحف بسرابيل الثاني، فتماهت الأدوار، واختلط الحابل بالنابل ... أصبح للعدم جنودٌ مجندة، لكن جُند الحق عند الله أقوى، فلنلتمس منه العفو والنجاة!
- أشد مساوئ المسؤولين في البلدان العربية – كبُرت المسؤولية أو صغُرت – أنهم يعتبرون رعاياهم كمن ملكت أيمانهم، أو كأطفالهم الذين لم يبلغوا الحُلم، عليهم الاستئذان كي لا تصطدم أعينهم وآذانهم بالعورات!

- إذا قلت لأحدهم: «أنت أتفه من أن أرد عليك»، فقد رددت عليه وشـــــاركته تفاهته، وإذا تجاهلته وآثرت الصمت، أشاع تفاهته في مجتمع مثقلٍ بها؛ مفارقة يصعب حلها!
- أليست مفارقة أن تجيز الجامعات العربية سنويًا آلاف الرسائل العلمية بتقدير «ممتاز» أو «مرتبة الشرف الأولى»، ومجتمعنا راسبٌ بامتياز، يتوق إلى الحياة ولو بتقدير «مقبول» فلا يحظى بها!
- المعطيات غير مكتملة، والنتيجة ممتنعة؛ المعطيات زائفة، والنتيجة كاذبة؛ المعطيات باكية، والنتيجة حيرى حزينة!
- الفيسبوك لدينا كواقع أهلهِ الفعلي؛ زبَدُه كثير، وما ينفع الناس فيه قليل؛ ثلةٌ من الأقلام منغمســةٌ في ثرثرة اللاوعي وتفاهات العقل الخاوي، فلا يتبقى مما تخطه سوى نفايات تُسمم أجيالاً كاملة؛ وقليل منها يضيء الدرب مسترشدًا بهدوء الحكمة، أصحابها بميزان الحق حلٌ بهذا البلد، وإن ماجت بها الثلة!
- القتل ثم القتل ثم القتل ... حين يتهاوى أمامك ومن حولك وفي داخلك كل شــيء، وتفقد الحياة شــروط اســتمرارها، يغدو الموت مطلوبًا لذاته؛ يُزين الشيطان ساحته لتقديم قرابين الغباء، ويُرفع آذان القتل في كل لحظة تعطشًا للدماء، ولا ارتواء، لا ارتواء!
- كلماتهم ووعودهم وابتساماتهم كبعض الأدوية، مكتوب عليها: للاستعمال الخارجي فقط، وإذا ابتلعتها أدت إلى وفاتك، لكنها حتى في الاســــتعمال الخارجي فاسدة، تصيبك بالتهابات فكرية وحياتية لا فكاك منها!
- حين يصبح الموقف السياسي (بغض النظر عن مدى صوابه) معيارًا للتقييم العلمي، فاعلم أنك في بلادٍ غرَّب عنها المســــتقبل وباتت تتاجر في عِرض الحضارة!

- أفضل وسيلة لإقناع الغربيين بالإسلام أن نقنعهم أولاً بأننا لسنا مسلمين كما ينبغي، وأفضل وسيلة لإقناع الشعوب العربية بالديموقراطية أن يقنعهم حكامهم أولاً بأنهم ليسوا ديموقراطيين بالمرة، وأفضل وسيلة لإقناع أطفالنا بالمستقبل أن نقنعهم أولاً بأننا لا نمثل الحاضر ولا نستحق المستقبل!
- قال لي: عيبي أني صريح! قلت: ومتى كانت الصراحة عيبًا، ومن جعلها كذلك، ولماذا؟!
- كل هذه الحضارة، كل هذا العلم، كل هذا الفن، كل هذا الخير، كل هؤلاء الأنبياء، كل هذه الكتب، ولم يعرف البشر كيف يحبون بعضهم البعض، كيف يتعايشون ... تبًا لغباء البشر!
- «فلتكن ست قطع، لا أعتقد أن بإمكاني أكل ثمان»، هكذا رد أحد الزبائن على بائع البيتزا حين سأله إن كان يُقطع له فطيرته إلى ست أو ثمان قطع! إنه المنطق ذاته الذي يلتهمون به الوطن، والقناعة تكسو وجوههم!
- بداخل كل منا شيء من الخوف؛ الخوف من المستقبل، الخوف على الأبناء، الخوف من الموت، الخوف من الظلم، الخوف من القهر، الخوف على الوطن، الخوف من تقلبات العمل ... لكن ثمة علاجًا للخوف بالخوف؛ الخوف من الله، فبه فقط تتخلص من كل مخاوفك، وتتحرر تمامًا من كل قيد!
- لم يعد استلاب الإرادة عملاً صعبًا في ظل منظومات الإعلام والثقافة والتعليم المستلبة والمؤدلجة سلفًا، الأمر أبسط مما تتخيل: استلب الوعي تستلب الإرادة!
- كلما تساقطت الأقنعة أدركت مدى قبح أوجه كثرة ممن يُحيطون بك ... اخلع قناعك وانظر في المرآة، وواجه الناس بصدق، ربما كان الصدق، ولو للحظة، شفيعًا لك يوم تقف عاريًا أمام الله!
- المنطق في الوطن العربي لم ينتحر كما يقولون، لكنه شق ثيابه، وقذفنا بما نستحق من شتائم، وبصق علينا، ثم ولى مُدبرًا ولم يُعقب!

- مللت الكتابة عن وطني؛ عن بؤس عروبتي، عن كوني أنا، ومع ذلك أدعو الله في كل حين أن يعيدني إلى وطني، إلى عروبتي، إلى ذاتي!
- أيام العيد تُشبه إنجازات الحكومة: رائحة بلا طعم، وضحكات الناس فيه تُشبه ضحكات وزرائنا أمام الكاميرات: مظهر بلا جوهر ... وتعاملاتهم تُشبه تعاملات البورصة: تُعدد الأرباح والخسائر، وتنتظر القيمة المُضافة!
- لا أدري كيف أفرغنا مفهوم التوحيد من مغزاه، فانتقلنا من توحيد الله إلى توحيد الفكرة والرأي والنظام والمرشح والحاكم، ولا أدري كيف فهمنا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، فأصبحنا نقدس المسؤول كأنه الإله؛ نراه فننافقه ونسبح بحمده ونتوق إلى عطاياه، ويرانا فنخشاه ونلتمس رحمته! استقيموا يرحمكم الله.
- وما زال العربي المُلقى في غيابة جُب الجهل والتخلف قابعًا مستكينًا، راجيًا أن يلتقطه بعض السيَّارة، حتى ولو شروه بثمن بخسٍ وكانوا فيه من الزاهدين، وحتى لو أغوته ألف امرأة عزيز ... لعله إن خرج يغشاه نسيم العلم الحرية والكرامة فيملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما مُلئت ظلمًا وجورا! متى نجد ريح يوسف؟!
- أيها المشاؤون نحو مكانة زائفة فوق أشلاء الجهل والتخلف، المتشبثون بالإقامة فوق الكراسي الخاوية، العازفون على أوتار الفساد، الراقصون على أنغام الفوضى، المهرولون في أروقة الوهم، المحدقون في مرايا الذات الهزيلة، المحدقون في انعكاسات الذات القبيحة ... استقيموا يرحمكم الله!
- سلامٌ على الضاحكين وفي مآقي عيونهم دموع متحجرة، سلامٌ على الغرباء في الوطن الحزين. سلامٌ على الضائعين، سلامٌ على الكادحين، سلامٌ على الطيبين الطاهرين. سلامٌ على من أحبونا بلا مقابل، سلامٌ على من ماتوا وقد

أزهقت الحياة أحلامهم، سلامٌ على من راق لهم الفراق، سلامٌ على المكسور فينا بلا أنين!

- الألم يطالبنا دومًا بالإحساس به؛ يُنذرنا بعلة، أو بخللٍ في أجهزتنا الحياتية يستدعي طلب العلاج، فكيف اعتدنا عليه؟ كيف أصبحنا نتعايش معه وكأنه طقس من طقوس حياتنا اليومية؟ كيف بتنا لا يؤلمنا الألم، لاسيما العقلي منه، على المستوى الفردي والجمعي؟!
- ما معنى أن تُفكر في وطنٍ يُصر وُلاته ونُخبته، وربما أقزامه، على التفكير نيابة عنك؟ وما معنى أن تكتب عن الخير والجمال في وطنٍ لا يُحدثونك فيه إلا عن الشر، ولا يُجيدون فيه إلا تشويه كل جميل؟ وما معنى أن تعزف أنشودة الحياة في وطن يعج بالموت وطالبيه؟ وما معنى أن تتفلسف في وطنٍ يرى الفلسفة فعلاً مشبوهًا يُثير غُبار الأفكار فيوقظ النائمين على سفوح الوهم؟ وما معنى أن تكتب عن عيد يعود مُجددًا على وطنٍ قديم ... في كل شيء؟!
- قيل يومان لا حيلة لابن آدم فيهما: يوم ولد ويوم يموت ... إلا العربي، لا حيلة له في حياته بأكملها؛ واقعه الغث يفرض عليه دومًا كلمته البذيئة، حتى ليكره كل الحضور المملوء بالغياب من حوله، وكل الغياب المملوء بالحضور بداخله؛ ما أقسى أن تتعاطى قسرًا مع حياة بلا معنى!

وما زال البحث عن معنى مستمرًا!!

وعلى الله قصد السبيل ... والله أعلم

صلاح عثمان

المؤلف في سطور

❖❖❖

صلاح عثمان Salah Osman

- أستاذ المنطق وفلسفة العلم، رئيس قسم الفلسفة بكلية الآداب، جامعة المنوفية منذ عام ٢٠٠٨ وحتى الآن.
- حصل على درجة الليسانس من قسم الفلسفة بكلية الآداب، جامعة الإسكندرية عام ١٩٨٥، ثم على درجة الماجستير من ذات الجامعة عام ١٩٩٣، وعلى درجة الدكتوراه من جامعة المنوفية عام ١٩٩٦.
- شارك في عدة مؤتمرات وندوات محلية ودولية، كما ناقش وأشرف على العديد من أطروحات الماجستير والدكتوراه بالجامعات المصرية، وحكّم العديد من الأبحاث والمقالات للمجلات المصرية والعربية، وفاز بجائزة جامعة المنوفية للمتميزين من أعضاء هيئة التدريس عام ٢٠٠٧.
- له العديد من الكتب والبحوث والمقالات والترجمات في المجالات المختلفة لفلسفة العلم والفكر العربي – الإسلامي، من بينها:

الكتب:

- *البحث عن معنى (تدوينات في نقد العقل العربي المعاصر)*، ٢٠١٨.
- *فلسفة العلم من الألف إلى الياء*، معجم شامل لمصطلحات وأعلام فلسفة العلم، تأليف ستاتس بسيلوس، ترجمة وتقديم وتعليق، المركز القومي للترجمة، وزارة الثقافة، القاهرة، ٢٠١٨.
- *Neutrosophy in Arabic Philosophy*, with Florentin Smarandache, Renaissance High Press, USA, 2007, in English.

- *الفلسفة العربية من منظور نيوتروسوفي*، تأليف مشترك مع الدكتور فلورنتن سمارانداكه، جامعة نيومكسيكو الأمريكية، ترجمة وتعليق، منشأة المعارف، الإسكندرية، ٢٠٠٧.
- *الواقعية اللونية: قراءة في ماهية اللون وسبل الوعي به*، منشأة المعارف، الإسكندرية، ٢٠٠٦.
- *طبيعة الحدود المكانية بين الجغرافيا والفلسفة: بحث في سيمانطيقا اللغة الجغرافية*، الملتقى المصري للإبداع والتنمية، الإسكندرية، ٢٠٠٥.
- *نحو فلسفة للكيمياء*، منشأة المعارف، الإسكندرية، ٢٠٠٤.
- *وهم العالم الخارجي بين اللغة والإدراك*، منشأة المعارف، الإسكندرية، ٢٠٠٤.
- *المنطق متعدد القيم بين درجات الصدق وحدود المعرفة*، منشأة المعارف، الإسكندرية، ٢٠٠٢.
- *الداروينية والإنسان: نظرية التطور من العلم إلى العولمة*، منشأة المعارف، الإسكندرية، ٢٠٠١.
- *النموذج العلمي بين الخيال والواقع: بحث في منطق التفكير العلمي*، منشأة المعارف، الإسكندرية، ٢٠٠٠.
- *الاتصال واللاتناهي بين العلم والفلسفة*، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٨.

الدراسات والبحوث:

- *A Contemporary Reading of the Logic of Islamic Jurisprudential Measurement* (*Qiyas al-Ghaib ala al-shahid*), in English.
- *Science, Philosophy and Religion as Categories for the Rising of the Arab Mind (Past and Present)*, The Journal of the Faculty of Arts, Menoufia University 66, July 2006, pp. 73 – 93, in English.
- *Neutrosophic Anthology, in Fifth International Anthology on Paradoxism*, Editura OffsetColor - Rm Valcea, 2006.

- جوتلوب فريجه: في المعنى والإشارة (قراءة وترجمة وتعليق)، *مجلة سياقات اللغة والدراسات البينية*، العلوم الطبيعية للنشر الدولي، الولايات المتحدة، المجلد الأول، العدد الأول، ٣٠ ديسمبر ٢٠١٦، ص ص ٢٧٧ – ٢٩٨.
- في قلب مصر: قراءة في كتاب جون برادلي، *مجلة مدارات*، تونس، العدد ٢٣، صيف ٢٠١٥، ص ص ٢٢ – ٣٢.
- رؤية منطقية معاصرة تأسيسًا على نظرية القياس الفقهي الإسلامي، *وحدة البحث حول الثقافة والتواصل واللغات والآداب والفنون*، ألسانيا، الجزائر، ٢٠١٥.
- فهم الإسلام في اليابان بين الماضي والحاضر، *مجلة دراسات شرقية*، مركز الدراسات المتعددة الموضوعات للأديان (سيسمور) بجامعة دوشيشا باليابان، بالتعاون مع مركز دراسات يابانية وشرقية بجامعة القاهرة، العدد السادس، يوليو ٢٠١٢، ص ص ١٧٣ – ١٨٩.
- النماذج والاستدلال التمثيلي في العلم، *مجلة المخاطبات*، تونس، العدد ٣، يوليو ٢٠١٢، ص ص ٩ – ٥٩.
- جدل الثبات والحركة في مفارقات زينون: رؤية رياضية معاصرة، *مجلة بحوث كلية الآداب*، جامعة المنوفية، العدد الثامن والخمسون، يوليو ٢٠٠٤، ص ص ٩٩ – ١٣٩.
- العلم والفلسفة والدين كمقولات لنهضة العقل العربي، *مركز الخدمة للاستشارات البحثية*، شعبة الترجمة، كلية الآداب، جامعة المنوفية، العدد الخامس عشر، مارس ٢٠٠٣، ص ص ١ – ٢٧.
- سيمانطيقا المؤشرات اللفظية والكلام غير المباشر، *مجلة بحوث كلية الآداب*، جامعة المنوفية، العدد (٤٦)، يوليو ٢٠٠١، ص ص ١٢٧ – ١٦٦.
- شجرة الكون وقضايا مناقضة الواقع عند ستورس مكال، *مجلة بحوث كلية الآداب*، جامعة المنوفية، العدد (٣٩)، أكتوبر ١٩٩٩ م، ص ص ٨٣ – ١٢٨.

مراجعات لأعماله:

- أحمد زهاء الدين عبيدات (جامعة فرجينيا – الولايات المتحدة): تزاوجُ المنطلق المجرَّد مع الطبيعة وديمومةُ توالد الخيال الفعال عند الدكتور صلاح عثمان، *مجلة المخاطبات*، تونس، العدد (١٠)، أبريل ٢٠١٤، ص ص ١٧٦ – ١٨٧.
- أمل واين: الفلسفة العربية من منظور نيوتروسوفي (كتاب للدكتور صلاح عثمان)، *مجلة روزاليوسف*، الأحد ٢٤ أغسطس ٢٠١٤.
- رائد جبار كاظم: الفلسفة النيوتروسوفية: نظرية جديدة في التفكير، *صحيفة المثقف*، تصدر عن مؤسسة المثقف العربي، سيدني، أستراليا، العدد (٣٩٩٧)، ١٥ أغسطس ٢٠١٧.
- عبد الغني عجاج: صلاح عثمان ... الفيلسوف الإنسان، في كتاب *شخصيات عبرت أفق خيالي*، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، القاهرة، ٢٠١٧، ص ص ١٧١ – ١٧٣.
- خالد فهمي: معجم مصطلحات فلسفة العلم (دراسة في البحث المعجمي)، مجلة المخاطبات، تونس، العدد (٢٨)، أكتوبر ٢٠١٨.

Salah Osman:

- E-mail: salah.mohamed@art.menofia.edu.eg
- Orcid ID: orcid.org/0000-0003-3311-8569
- Arid ID: 0002-3581

في معية الإخفاقات الحضارية المتتالية للعقل العربي في عالمنا المعاصر؛ حيث تم تجريد الأشياء - والقضايا والسياسات والمواقف والقرارات والعلاقات - من معانيها، أو بالأحرى تم مسخها بمعان زائفة تلبي حاجات الزيف الممسك بتلابيب الواقع.

واتسعت الفجوة بين كل العقل ومنطقه، والتفكير ومبادئه، والعلم ومنهجه، والدين ورسالته، والإنسان وإنسانيته، وبين ماضي العربي وحاضره، ثم بين حاضره ومستقبله ... يغدو البحث عن معنى - باستقامة معنى «المعنى» وعقلانيته- محاولة أخيرة لإدراك الغاية من الوجود، وإنعاش قلب أوشك نبضه على التوقف، واستعادة حياة أوشكت أسبابها على النفاد.

ولا غرو، فالبحث عن المعنى غريزة إنسانية، وكلنا في الوطن العربي هذا الكائن المسكين المتحير، الباحث عن معنى الوجود والهوية، معنى الحياة ومعنى الموت، معنى الحرية ومعنى الكرامة، معنى السعادة ومعنى الحزن، معنى الدين ومعنى الوطن، ... إلخ. هذا هو هدف الكتاب وفقًا عنوانه، لكن هدفه الأعمق هو إيقاظ العقل العربي المعاصر من سباته الدوجماطيقي الذي أقعده عن اللحاق بركب التقدم المعرفي، وأحاطه بأسيجة الموجب والقاطع والثابت في عالم تتسارع فيه وتائر التغير، وتنهار فيه الحواجز الفاصلة بين كثرة من الثنائيات المستقرة في أذهاننا، ومن ثم يأتي الكتاب كمحاولة، لا لطرح إجابات قاطعة يأباها المنطق، أو تدشين رؤية أحادية البعد قد يراها البعض تشاؤمية، وإنما لترميم الداخل المهجور، والخارج المنظور، من خلال قراءة متأنية للأفكار والأحداث تسعى إلى الكشف عن أطياف التناقض المعتملة بدواخلها، والمستترة خلف مظاهر التسويق للوهم!